الشوقيات (مجلد ١)



أحمد شوقي

الشوقيات (مجلد ١)

الشوقيات (مجلد ١)

تأليف
أمير الشعراء أحمد شوقي

كلمات

الشوقيات (مجلد ١)

أمير الشعراء أحمد شوقي

كلمات عربية للترجمة والنشر

إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

المحتويات

الجزء الأول

مقدِّمة الطبعة الأولى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(١) كانت مصر إلى حين قدوم الحملة الفرنسوية إليها في سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوربا، خلا ما كان من مرور بعض التجَّار والمتاجر بأرضها في ذهابهم وعودتهم بين الغرب والشرق، وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المماليك — تحت سيادة تركيا — تسود فيها الدسائس، ويعمل كل من أمرائها لما يجرُّ عليه النفع، وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها في سائر بلاد الدولة العثمانية، وبلغ من ذلك أن تدنَّى علماء الفقه الإسلامي، الذين كانوا في مختلف العصور فخر مصر وزينتها، وفتر نشاطهم وفسد نتاجهم في ذلك العصر، فأمَّا الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتدَّ سلطان الأتراك على مصر، وإنك لتعجب حين تقرأ كاتبًا كالجبرتي أو ابن إياس، لضعف تأليفه ولغته، ولسقم ما فيه من آثار الأدب شعرًا كانت هذه الآثار أم نثرًا.

فلمَّا جاء الفرنسيون إلى مصر، وتغلغلوا فيها، وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء، رأى المصريون مظهرًا جديدًا من مظاهر الحياة لم يكن لهم في تاريخهم الأخير به عهد.

كان من بينهم الأطباء والمهندسون والصنَّاع والقوَّاد، ومن بينهم قام رفاعة بك رافع وتلاميذه يحيون عهد الأدب العربي في مصر، ولكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماضٍ طويل؛ لذلك كان سريان نورها ضئيلاً قصير المدى، لكنها مع ذلك كانت بدءًا لما بعده، فلمَّا كان عهد إسماعيل سارت في سبيل النضج والقوَّة،

ثم كانت الثورة العرابية وما تلاها من الحوادث مثارًا لشاعرية أكابر الشعراء من أمثال: سامي باشا البارودي، وإسماعيل باشا صبري، ووحيًا لخيال شبان كان روح الشعر آخذًا بنفوسهم، متهيئًا ليفيض منها ما ينفخ في الأدب العربي روحًا وقوة.

وكانت الفترة التي انقضت ما بين الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٧٩٨ واحتلال الإنكليز إيَّاها على أثر الثورة العرابية في سنة ١٨٨١ فترة تقلُّبات سياسية عجَّت بين الشرق والغرب والمسلمين والنصارى؛ فقد كانت تركيا من قبل ذلك التاريخ في عهد تدهوُرها، وكانت محطَّ أطماع روسيا، فلم تكن تمرُّ حقبة من الزمن من غير أن تشبَّ بينهما حرب تنقص من أطراف المملكة العثمانية، وضعف تركيا هو الذي دفع محمد علي إلى غزوها، لكنه ما كاد يقترب من الآستانة حتى تألبت عليه إنكلترا وفرنسا وروسيا؛ مخافة أن يزعجهم قيامُه في عاصمة آل عثمان بين الدول الأوربية بعد ما كان من انتصاراته الباهرة في الشرق، ومن سعيه لتوطيد قوة السيف وقوة العلم في مصر، وكأن ما قامت به الثورة الفرنسية من نشر مبادئ حرية الرأي والعقيدة لم يغير من نفس تلك الدول التي جعلت من الإسلام والمسيحية والشرق والغرب خصمين لايتهادنان من غير أن تنطوي الضلوع على حفيظة.

فأمَّا المسلمون في أقطار الأرض فلم يشتد حقدهم على محمد علي؛ ذلك بأن الدول الأوربية كافة وروسيا خاصة، كانت لا تفتأ تشنُّ الغارة على الأتراك وتزيدهم ضعفًا على ضعفهم، فقد انتهت حروب الإمبراطورة كاترينا في سنة ١٨١٢ بمدِّ الحدود الروسية إلى الدنيستر، ثم تحالفت روسيا وإنكلترا وفرنسا في سنة ١٨٢٨، وسلخن اليونان من جسم الدولة العثمانية، وأقَمنَها مملكة مستقلة، وفي سنة ١٨٥٣ كانت حرب القرم، ولولا خوف إنكلترا وفرنسا من طغيان روسيا، ومن اكتساح الجنس السلافي أوربا، لَنال الروس من تركيا أكثر مما نالوا من قبل، ولنفذوا برنامجهم بإجلاء الأتراك عن أوربا.

وهذا الضعف والاضمحلال الذي أصيبت الدولة التركية به هو الذي جعل المسلمين لا يحقدون على محمد علي حين غزا الأتراك، متمسكين بقول الشاعر:

فإن كنتُ مأكولاً فكُنْ أنتَ آكِلِي وإلاَّ فـأدركـنـي ولَـمَّـا أمـزَّق

على أن الحرب التي شبَّت نارها بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧ والتي خلَّد فيها الغازي عثمان باشا انتصار الترك بدفاعه المجيد عن (بلفنا) أحيَت في نفوس المسلمين آمالاً في دولة الخلافة التي كانت توشك أن تنهدم وتنهار.

ولقد كان المصريون إلى ذلك العهد يعطفون على تركيا عطف غيرهم من المسلمين، ولكنهم كانوا أبدًا يفكرون في استقلالهم عنها ويريدون تحقيقه، ولم يكن الأمل في ذلك بعيدًا بعد الفرمان الذي استصدره إسماعيل باشا في سنة ١٨٧٣ واستقلَّ فيه بإدارة الدولة، وبالتشريع لها، وبإنشاء الجيش الذي يقوم بحاجاتها ومطامعها؛ لذلك كان عطفهم على تركيا منبعثاً عن شعور ديني بحت لا أثر للتبعية السياسية فيه، فلمَّا حطمت إنكلترا وفرنسا آمال إسماعيل، وقضتا عليه باسم ديون مصر، ودفعتَا تركيا إلى خلعه، وانتهت إنكلترا باحتلال مصر بعد الثورة العرابية.

ونكثت بعد الاحتلال، وعُودها بالجلاء، وأحسَّ المصريون بتدخلها في شئونهم، اشتد عطفهم على تركيا، وضعُف تبرُّمهم بسيادتها عليهم، وثبت عندهم اليقين بأن دول النصرانية تطارد دول الإسلام، وقويت فيهم النزعة الدينية؛ وكان من ذلك ما زاد النشاط في بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربي في مصر.

(٢) وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية وُجِدَ «أحمد شوقي»، وُلِدَ «بباب إسماعيل»، وشبَّ في جواره ونشأ في حماه؛ فكان طبيعيًا أن تتأثر نفسه بالبيئة الاجتماعية والسياسية، وأن تكون أكثر تأثرًا بها لقربها من المسرح الذي تشتبك فيه أصول هذه العوامل وأسبابها، وتضطرب فيه اضطرابًا يخفيه ما تقضي به حياة القصور، ثم تصدر إلى الحياة بعد أن تكون قد نُظِّمَت وهُذِّبَت، وشوقي خُلِقَ شاعرًا، والشاعر يتأثر أضعاف ما يتأثر سائر الناس؛ لذلك كان لكل هذه العوامل آثر بادٍ في شِعره وفي حياته.

ومع أن شوقي درس في مصر، ثم أتمَّ دراسته في أوربا وتأثر بالوسط الأوربي وبالحياة الأوربية وبالشعر الأوربي تأثرًا كبيرًا، فقد ظلَّ تأثره بالبيئة التي وصفنا ظاهرًا في حياته وفي شعره، كما ظلَّ تأثره بالبيئة الأوربية ظاهرًا فيهما كذلك.

وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه — بعد أن يتمَّ نشرها جميعًا — كأنك أمام رجلين مختلفين جدَّ الاختلاف لا صِلة بين أحدهما والآخر، إلا أن

كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدَّ التقديس والعبادة.

أمَّا فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر: أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان، مسلم يقدِّس أخُوة المسلمين، ويجعل من دولة الخلافة قدسًا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال.. والآخر رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، متسامح تسَعُ نفسُه الإنسانيةَ وتسع معها الوجودَ كله، ساخر من الناس وأمانيهم، مجدِّد في اللغة لفظًا ومعنى، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر، وإن كان لتأثره بالقديم الغلَبة اليوم، وكانت آثار الرجل الآخر لا تظهر اليوم في شعر شوقي إلا قليلاً.

ولا تقل: إن الازدواج النفسي شأن الشعراء، وإن أبا نواس الذي كان يقول:

ألا فاسِقني خمرًا، وقل لي: هي الخمرُ ... ولا تسِقني سِرًّا إذا أمكنَ الجهرُ

والذي كان يقول:

دَع عنك لومي: فإن اللومَ إغراءُ ... ودَاوِني بالتي كانت هي الداءُ

هو أبو نواس الذي كان يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت ... له عن عدوٍّ في ثياب صديق

فليس هذا من أبي نواس ازدواجًا في الروح، وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدتها اللذَّة فأضعفتها، فأخافها الضعف، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد، وإلى استغفار الله والتوبة؛ لذلك لا تلبث نفسه أن تعاودها القوة حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة، وذلك هو السرُّ في أنك لا ترى الزهد في شعر أبي نواس إلا عَرَضا واستثناءً، وذلك شأن الشعراء جميعًا إلا قليلاً منهم، وشوقي من هذا القليل؛ ففي شعره صورتان من صور الحياة تقوم كل منهما مستقلة، كأنما صاحبها غير الآخر، فأنت تقرأ:

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهب

أو تقرأ:

رمضان ولَّى، هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فتراك في حضرة شاعر مغرم بالحياة وبمتاعها ونعمتها، شاعر تختلف روحه جدَّ الاختلاف عن صاحب نهج البردة التي مطلعها:

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلمِ أحلَّ سفكَ دمي في الأشهُرِ الحُرمِ

وصاحب الهمزية الذي يقول:

وُلِدَ الهدى، فالكائناتُ ضياءُ وفَمُ الزمانِ تبَسُّمٌ وثناءُ

وهذان الروحان، أو هاتان الصورتان من صور الحياة تتجاوران في نفس شوقي، وتصدران عنها وهي في كل قوتها وسلطانها؛ وأنت لذلك حين تقرأ القصيدتين الأوليين تمتلئ إعجابًا بالحياة ومتاعها ولذَّتها، وحين تقرأ الثانيتين تكون أشدَّ إعجابًا بكلمة الإيمان وروح الحق ورسالته، وأنت لا تشعر في أي الحالين بضعف نفساني عند الشاعر دفع به إلى لبوس روح غير روحه، بل أنت فيها جميعًا يبهرك شوقي بقوة شاعريته الممتلئة حياة وخيالاً، والتي تفيض بمتاع العيش فيضها بنور الإيمان.

كيف كان هذا الازدواج؟ كيف جمع شوقي في نفسه بين هذين الشاعرين: شاعر الحياة العربية بحضارتها الإسلامية وبما فيها من قِدَم وإيمان، وبين شاعر الحياة الغربية الخاضعة لحكم العِلم وما يكشف عنه كل يوم من جديد؟

مسألة تبدو للنظرة الأولى دقيقة معقدة؛ فقد تزدوج في نفس واحدة حياتان بينهما من الصِّلة ما يبيح الازدواج، فيكون الرجل الواحد فيلسوفًا وشاعرًا، كما كان المعرِّي أو كما كان فولتير، فأمَّا أن يكون الرجل شاعرًا وحدة حياته الشعر، ثم تكون نفسه مقسَّمة مع هذه الوحدة قسمة ازدواج على نحو شوقي؛ فذلك

عجب في شاعر مطبوع يفيض عنه الشعر كما يفيض الماء من النبع، وكما ينهمل المطر من الغمام.

على أن لهذا الازدواج سببًا لم يكن مفرٌّ من أن يؤدي إليه، ذلك أن شوقي كان في طبع شبابه رسول الحياة، كان شاعرَ:

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهب

لكن هذا الشباب لم يكن في ملك نفسه؛ فقد بعث به الخديو توفيق باشا ليتمَّ علومه في أوربا، وكان من قبل ذلك شاعرًا متفوقًا، وكان في تفوُّقه ككل شاعر شاب يرسل القول كما تلهمه إياه نفسه. فلمَّا عاد إلى مصر اتَّصل بالأمير الشاب عباس حلمي باشا وصار كلمته، ورأى يومئذ صنوًا له على العرش جعلته روحه الشابة مقدامًا لا يهاب، ومع ما فوجيء به أول ولايته في حادث عرض الجيش في السودان — مما اضطره للاعتذار — قد بقي شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جدُّه إسماعيل من مغامرة، لكن قيام الاحتلال الإنكليزي في مصر جعل الخصومة بينه وبينهم وليست بينه وبين الأتراك، بل لقد كان منظورًا إليه أكثر الأحيان بشيء غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان؛ لذلك كانت عواطفه متفقة وعواطف المسلمين الذين كانوا بعد انتصار الأتراك يرون في الخليفة المَوئِلَ الأخير لأمم الإسلام جميعًا.

اتَّصل الشاعر الشاب بالأمير الشاب، فحتَّم عليه ذلك أن يكون المعبِّر عن الميول والآمال الكمينة في نفوس المسلمين جميعًا، لا في نفوس المصريين وحدهم؛ وبذلك اجتمع في نفسه من أول حياته ميله للحياة، وحبُّه إياها، وحرصه على المتاع بها، مع إيمان المسلمين جميعًا وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم، بإزاء الأمم الغربية التي تنظر إليهم بعين صليبية بحتَّة، وكانت هذه الناحية التي تمثِّلها نفسه من ظروف الحياة ومن البيئة المحيطة به، أكثر استيحاءً لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه؛ فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر، ويصبح جنديًا، وجنديًا باسلاً، ويتفوق في كل مواقف الحرب، ويصبح القائد الأعظم، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة، السعيد بها غاية السعادة.

(٣) وهذا الجزء الأول من ديوان شوقي فيه طائفة من شعره أوحي إليه بها على أنه ممثل المصريين والعرب والمسلمين، وأولى قصائده التي مطلعها:

همَّت الفُلكُ، واحتواها الماءُ وحَداها بمن تُقلُّ الرَّجاءُ

هي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي، وقف فيها الشاعر وقفة مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربَّة الشعر تاريخ بلاده منذ عرَفها التاريخ، أي منذ عرف الناس شيئًا اسمه التاريخ، وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخرًا بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذُراه، آسفًا حزينًا حين تمرُّ بمصر فترات ظلم وذلة، مستفزًا للهِمم، حافزًا لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده؛ كي يعيدوا الماضي وعظمته.

وتراه في انتقاله من الفخر إلى الأسف إلى الاستفزاز يسير مع الحوادث متدفقًا، مندفعًا فوق موج الماضي، آتيًا من لا نهايات القِدَم، كأنما هو قيثارة آلهة ذلك الزمان البعيد، يدفع إليها كل جيل نسائمه، فتتغنى وتشدو بأهازيج النصر، وبترانيم المسرَّة طورًا، وبشجو الألم أحيانًا.[1]

وللقِدَم وللماضي على نفس الشاعر أثرٌ يذهب إلى أعماقها، وليس لمثل الآثار المصرية من القِدَم نصيب، فهذه الأهرام ما تزال تحتوي من الطلاسم ما يحار العقل في حَلِّه، وهذا أبو الهَول في مجثمه بين رمال الصحراء أكثر ثباتًا من الليل والنهار ومن الشمس والقمر، وهو في روعة صمته ينطق كل خط خطَّته الدهور على صحائف جثمانه، بما حوته من عبر أيسرها دوام انهيار الأشياء لدوام تجدُّدها، وهذا الملك الشاب «توت عنخ آمون» نبش قبره النابشون باسم العِلم فإذا فيه من طرف الفن ما يزري بكل فن وعِلم، وهذه وسواها من الآثار تثير في النفس — إلى جانب صورتها الظاهرة وما يدل عليه إبداع صنعها ودقَّة فنِّها من حضارة كملت لها كل أنواع الحضارة — صورة الماضي الذاهب في القِدم إلى أغوار الأزل، وتثير من شاعرية شوقي معاني بالغة الموعظة والعبرة مبلغها من السمُو والعظمة.

وأنت إذ تقرأ قصائده: على سفح الأهرام، وأبو الهول، وتوت عنخ آمون، يهزُّك الشعور بصورة هذا الماضي في قداستها ومهابتها، وتمتلكك نفس الشاعر فترفع بك من مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد، ذلك بأن شوقي يهديك المعنى الذي كانت تلتمسه نفسك فلا تقع عليه، ويرسم أمامك — بوضوح، وقوة، وسمو خيال، ونبل عاطفة — كل ما ينبض به قلبك ويهتزُّ له فؤادك.

خلع القِدَم على هذه الآثار معنى البقاء والثبات؛ لذلك كان ما يفيض من الوحي إلى روح شاعر الشرق ثابتًا باقيًا، لا تزعزعه الحوادث، ولا تعصف به الغِيَرُ، فأمَّا ما سوى ذلك من شئون هذه العصور الحديثة فشوقي فيه هو كلمة الأمة، وفي هذه العصور الحديثة تغيَّر قدر الناس للحوادث إصغارًا وإكبارًا، بمبلغ رجائهم فيها، أو خشيتهم آثارها، وقد تعجب إذ ترى قصيدتين من أبدع قصائد شوقي وأحراها بالخلود متجاورتين في هذا الجزء الأول من الديوان: إحداهما في وداع لورد كرومر ومطلعها:

أيامكم أم عهد إسماعيلا أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا؟

والثانية في ارتقاء السلطان حسين كامل على أريكة مصر، ومطلعها:

المُلكُ فيكم آل إسماعيلا لا زال بيتكم يظلُّ النيلا

فترى الشاعر ينظر في كل من القصيدتين إلى الحوادث والأشخاص بغير ما ينظر إليها في الأخرى، ثم تجد مثل هذا في غير هاتين القصيدتين، وليس لذلك من علة إلا الاضطراب الذي أصاب العالم قبل الحرب وبعدها، والذي لا يزال عظيم الأثر على تفكير المُفكِّرين وكتابة الكُتَّاب وشِعر الشعراء.

على أن هذا التأثُّر بالحوادث في بعض الشئون التي لا يستقرُّ للناس فيها — عادة — رأيٌ قبل أن يصدر التاريخ عليها حكمًا خاليًا من الغرض، لا يؤثر بشيء في روعة القصائد التي كان فيها، وهو بعدُ لا يشغل من هذه القصائد إلا حيِّزًا ضيقًا، فإن شوقي لا يزيد في القصائد التي تقال لمناسبة حادث من الحوادث على أن يشير لهذا الحادث بأبيات خلال القصيدة وفي آخرها، فأمَّا أكثر أبيات القصيدة فحِكَمٌ غوالٍ، أو وصف رائع، أو ما سوى ذلك مما يلذُّ عقل شوقي أو خياله أن يفكر فيه أو يلهو به، وهذه الحِكم لم يتغير تقدير شوقي لها؛ فهو يرى أن الأمم لا تقوم على دعامة غير الإخلاق، فالعلم عنده حسنٌ وله فائدة، والغِنى حسن كذلك، وسائر أدوات الحضارة تصلح الأمم، لكنها جميعًا لا فائدة من رقيها وغزارتها إذا انحطَّت أخلاق الأمة، فأمَّا إن قويَت هذه الأخلاق فقليل من ذلك كله كافٍ ليرتفع بالأمة إلى ذروة المجد والسؤدد.

وليس معنى هذا أن شوقيًّا يحقر من شأن ما سوى الأخلاق، فله عن العلم والفن والعمل والترحال وغيرها آيات بيِّنات، لكنما معناه أن الأخلاق عنده في المحلِّ الأول، وهو لا يمَلُّ من أن يكرِّر الدعوة إلى الخُلُق الصالح على أنه قِوام حياة الأمم في قصيدة يقولها عن مصر أو عن غير مصر، وكثير من أبياته في هذا المعنى قد اصبح مثَلاً يتداوله كل كاتب، وكل أستاذ، وكل تلميذ، ويردِّده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها، أوَلاَ ترى قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقِيَت   فإنْ همُوُ ذهَبت أخلاقهم ذهبُوا

قد بلغ من تواتره على الألسن أن أصبح الكثيرون لا يعرفون إن كان لشوقي أو لشعراء العصور الزاهرة في أيام العرب إلا لأنهم يريدون أن يكون فخر هذا البيت وغيره من مثله لهم، بنسبته لشاعر مصر والشرق في عصرهم.

(٤) إلى جانب مقام العاطفة الوطنية التي هي قوة متسلِّطة على نفس شوقي، تقوم عاطفة أخرى لا تقلُّ عنها قوة، وربما كانت أشدَّ أخذًا بهذه النفس وإثارة لشاعريتها، تلك هي العاطفة الإسلامية؛ فشوقي شاعر الإسلام والمسلمين، كما أنه شاعر مصر وشاعر الشرق، وعاطفة المسلم تتَّجه حتى العصور الأخيرة إلى جهتين، ثم إلى قومين: فهي تتجه صوب مكة مسقط رأس النبي ﷺ ومقام إبراهيم كعبة المسلمين وِقبلة أنظارهم، ومكة في بلاد العرب، والنبي عربي، والقرآن عربي، وهي تتجه — أو كانت تتَّجه — صوب الآستانة، مقرِّ الخلافة الإسلامية، ومقام الخليفة من آل عثمان، والآستانة عاصمة الترك، وخليفة المسلمين كان تركيًا، فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — إلى حين أُلْغِيَت الخلافة — نحو مكة ونحو الآستانة، يستمد من الأولى المَدد الروحي، ومن الثانية مَدد السيف والمِدفع.

إلى جانب ما يرجوه المسلم من أهل بلاد الشرق العربي في مكة من مَدَد روحي، تحرَّك نفسه إلى هذه الأنحاء عاطفةٌ أخرى هي العاطفة العربية، هي عاطفة هذه اللغة التي تربط اليوم أكثر من سبعين مليونًا، أكثرهم مسلمون، وكلهم خاضع لما يخضع له غيره من بطش القوة وسلطان التحكم، واللغة في حياة الأمم ليس شأنها هينًا؛ فأمة لا لغة لها لا حياة لها، ورقيُّ اللغة في أمة آية صادقة من آيات رقيها، وما دام العرب مصدر اللغة، وعلى رجل منهم هبط الوحي، وبينهم قام صاحب

الشريعة، فلهم — عند المسلمين كافة وعند الذين يتكلمون العربية خاصة — حُرمة تدفعهم إلى التغني بآثارهم، والإشادة بقديم مجدهم، وتمني خير الأماني لهم.

لذلك كان العرب، ومكة، والوحي، والقرآن، والإسلام، والرسول، كلها معانٍ لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي؛ ولذلك لم يكن شوقي يشيد بذكر المسلمين وبخلافتهم لغاية سياسة سرفة، بل إنه ليؤمن بهذه المعاني إيمانًا يتجلى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة: كيف يبلغ الإيمان من نفس هذا المحبِّ للحياة كل هذا المبلغ؟! فلا نجد لحيرتنا جلاءً إلا من الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

وبحسبك أن تقرأ الهمزية النبوية، ونهج البردة، وقصيدته في ذكرى المولد التي مطلعها:

سلُوا قلبي غداة سلا وثابا   لعلَّ علَى الجمَالِ له عِتابا

لترى في غير إبهام أنه إنما أملَت هذه القصائد قوة غلَبت طبع الشاعر؛ هي قوة الإيمان!

لكنك قد يدهشك — مع تجلِّي الإيمان في هذه القصائد وغيرها — أن يكون شوقي أكثر تحدثًا عن الترك وعن الخليفة منه عن العرب وعن الرسول؛ فهذا الجزء الأول من ديوانه يشتمل على ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة، ويشتمل على ثماني عشرة قصيدة عن الخلافة وعن الترك، وأنت تلمَس في هذه القصائد الثماني عشرة جميعًا حسًّا أدقَّ من العاطفة، وفيضًا أغزر من الشِّعر، وقوة تكاد تعتقد معها أن شوقيًا إذ يتحدث عن الترك إنما يملي ما يكنُّه فؤاده، وإنما يندفع بقوة كمينة هي قوة دم الجنس، أو أن اتصاله بالبيت المالك في مصر كان قوي الأثر في نفسه إلى حدٍّ جعله يفيض من ذِكر الترك بما ينبض به قلب سلالة محمد علي.

وليس عليك إلا أن تقرأ أيًّا من قصائده التركية، لتقتنع بما نقول.. اقرأ قصيدته العظيمة العامرة عن الحرب العثمانية اليونانية التي مطلعها:

بسيفك يعلو الحق، والحق أغلَب ويُنصَرُ دِينُ الله أيَّانَ تضرِب

أو قصيدته في رثاء أدرنة، أو تحيته للترك أيام حرب اليونان، أقرأ أيًّا من هذه القصائد التي قِيلت قبل الحرب الكبرى، أو اقرأ غيرها مما قيل بعد الحرب على أثر انتصار الأتراك على اليونان، كقصيدته التي مطلعها:

الله أكبر، كم في الفتح من عَجب يا خالَد الترِك جَدِّد خالدَ العرَب

وإنك لَمؤمنٌ حقًّا بأن هذه القصائد التركية هي أقوى قصائده عن الحوادث وأصدقها حسًّا وعاطفة.

ولعل مرجع ذلك أن قد اجتمعَت في الأتراك عوامل كثيرة كان لشوقي اتصال بها؛ فكانت لذلك تهزُّه أكثر ما تهزُّ سواه. فالترك — فوق أنهم كانوا مقر الخلافة وقِبلة المسلمين الزمنية، وأصحاب السيادة على مصر سيادة يشلُّها الاحتلال الانجليزي — يجري من دمِّهم في عروق الشاعر الكبير، ومنهم أصحاب عرش مصر — يومئذ الذين ببابِهم وُلِدَ شوقي وفي حماهم شبَّ ونشأ.

وقد بلغ من حبِّ شوقي للترك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تشوبها نقيصة.

(٥) على أن شوقيًّا — وإن كان شاعر مصر، وشاعر العرب، وشاعر المسلمين، وكان فيه الازدواج بين حبِّ الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه — له ذاتيته التي لا تخفى فهو شاعر الحكمة العامة، وهو شاعر اللغة العربية السليمة، وإنك لَتَعجَب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان، بينا سائرها حكمة أو غَزل أو وصف أو ما شاء لشوقي هواه، وما أحسب شاعرًا بالَغ في ذلك ما بالغ شوقي، ولستُ أضرب لك مثَلاً لذلك مما في هذا الجزء الأول من الديوان إلا بقصائد ثلاث: لجان التموين، والانقلاب العثماني، وبين الحجاب والسفور. هذا وإنك واجد في غير هذه القصائد الثلاث ما يظهر لك منه ما ألقينا به إليك، فشيطان شوقي أشدُّ حرصًا على متاعه بالشعر للشعر منه بموضوع خاص، أمَّا القصائد التي يملك موضوعها أبياتها جميعًا فهي القصائد التي مَلك موضوعُها شوقيًّا فأنساه نفسه، بما كان له في هذا الموضوع من لذة ومتاع، وما أفاضه على شاعريته من وحي وإلهام.

وحكمة شوقي، وما يصدرعنه من وصف وغَزل، وما يميز شعره جميعًا يبدو كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار، وهذا طبيعي ما دام شوقي شاعر العرب والمسلمين، وما دام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة، ولقد ترى شوقيًّا يغلو في شرقيته وعربيته أحيانا، ولقد تراه يتعمَّد ذلك في لفظه ومعناه، وسبب ذلك هو ما يراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلَّف السلف من تراث، والأخذ بكل ما ينبع به الحاضر من وراء الغرب.

وقد يكون غلُوُّ شوقي أكثر وضوحًا في جانب اللغة منه في جانب المعاني، فهو بمعانيه وصِوَرِه وخيالاته تحيط مما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أمَّا لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيَها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، ولعل سرَّ ذلك عند شوقي أن البعَثَ وسيلة من وسائل التجديد، بل لقد يكون البعث آكد وسائل التجديد نتيجة ما يوجد من أرباب اللغة، ممَنْ يفيضون على الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها، والبعث لها إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل ما بين مدنية دراسة ومدنية وليدة، يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسلفه.

ومَنْ ذا ترَى من أرباب اللغة قديرًا قدرة شوقي على أن يبعث في الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها في الحاضر، وتفيض عليها من ثوب الشعر ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبلُ المعاني والأخيلة والصور؟ إن اليونانية لا تزال موضع دراسة العلماء واللغويين لأن هومير كتب بها إليادته، واللاتينية ما تزال حياتها كمينة وإن تدثَرت بحَجب الماضي أن كتب بها فرجيل شعره، واللغة العربية هي حتى اليوم لغة التفاهم بين سبعين مليونًا من أهل هذا الشرق العربي، وهي حيَّة وستبقى أبدًا حيَّة، ولكن كمال حياتها يحتاج إلى أن يبعث الله لها أمثال شوقي؛ ليزيدوا تلك الحياة قوة وروعة وجمالاً.

وما أنا بحاجة إلى أن أدُلَّ على هذه القوة، وتلك الروعة، وذلك الجمال، فكل أديب أو متأدب يعرف منها ما أعرف، وها هي ذي مجلوَّة في هذا الديوان بكل ما لشوقي على اللغة والأدب والشعر من سلطان.

هوامش

(١) انظر الانتقال في هذه الأبيات التي اخترناها:

قل لبانٍ بنى فشاد فغالى	لم يجز مصر في الزمان بناء
أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو	ن ودانت لبأسها الآباء
زعموا أنهَا دعائم شِيدت	بيد البَغي مِلؤها ظلماء
إن يكن غير ما أتوه فخار	فأنا منك — يا فخار — براء
لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيـ	ـز ولا طنطنت بك الأنباء
جيء بالمالك العزيز ذليلا	لم تزلزل فؤاده البأساء
بنت فرعون في السلاسل تمشي	أزعج الدهر عريَها والحفاء
والأعادي شواخص وأبوها	بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو	ن وفرعون دمعُه العنقاء

كبار الحوادث في وادي النيل[1]

هَمَّت الفُلكُ، واحتواها الماءُ ... وحدَاَها بمن تُقِلُّ الرجاءُ[1]
ضرب البحرُ ذو الغُبابِ حَوَالَيْـ ... ـهَا سماءً قد أكبرَتها السماءُ[2]
ورأى المارقون من شَرَكِ الأر ... ضِ شِباكًا تمدُّها الدأْماءُ[3]
وجبالاً موائجًا في جبالٍ ... تتدجَّى كأنها الظلماءُ[4]
ودَوِيًّا كما تأهَّبَت الخيـ ... ـلُ وهاجَت حُماتَها الهَيْجاءُ
لُجَّةٌ عند لجةٍ عند أخرَى ... كهضابٍ ماجَت بها البَيداءُ
وسَفِينٌ طَورًا تَلوحُ، وحِينًا ... يتوَلَّى أشباحَهنَّ الخفاءُ[5]
نازِلاتٌ في سَيرِها صاعِداتٌ ... كالهوادِي يَهُزُّهنَّ الحُداءُ[6]
ربِّ، إن شِئتَ فالفضاءُ مَضيقٌ ... وإذا شئتَ فالمَضِيقُ فضاءُ
فاجعل البحرَ عصمةً، وابعث الرحـ ... ـمةَ فيها الرياحُ والأنواءُ[7]
أنتَ أُنسٌ لنا إذا بَعُدَ الأنـ ... ـسُ، وأنتَ الحياةُ والإحياءُ
يتولَّى البحارَ — مهما ادلهمَّت — ... منك في كل جانبٍ لألاءُ
وإذا ما عَلَت فذاك قيامٌ ... وإذا ما رَغَت فذاك دعاءُ[8]
فإذا راعها جلالُك خَرَّتْ ... هيبةً، فهْيَ والبساطُ سواءُ

[1] قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة جنيف في سبتمبر سنة ١٨٩٤، وكان مندوبًا للحكومة المصرية فيه.

والعريضُ الطويل منها كتابٌ لك فيه تحيةٌ وثناءُ
يا زمانَ البحار، لولاك لم تُفْـ ـجَع بنُعمَى زمانها الوَجْناءُ[٩]
فقديمًا عن وَخْدِها ضاق وجهُ الـ ـأرضِ، وانقاد بالشَّراع الماءُ[١٠]
وانتهَت إمرةُ البحار إلى الشر قِ، وقام الوجود فيما يشاءُ
وبنَيْنا، فلم نُخَلَّ لِبانٍ وعلُونا، فلم يَجُزْنا علاءُ
وملَكْنا، فالمالكُون عبِيدٌ والبرايَا بأسرِهم أُسَراءُ
قُل لبانٍ بنَى، فشادَ، فغالَى: لم يجُز مصرَ في الزمانِ بِناءُ
ليس في الممكناتِ أن تُنقلُ الأجبـ ـالُ شُمًّا، وأن تُنالَ السماءُ[١١]
أجْفل الجنُّ عن عزائم فرعو ن، ودانت لبأْسها الآناءُ[١٢]
شادَ ما لم يَشِدْ زمانٌ، ولا أنـ ـشأ عصرٌ، ولا بنَى بنَّاءُ
هيكلٌ تُنثَرُ الدياناتُ فيه فهي والناسُ والقرونُ هَباءُ
وقبورٌ تحَطُّ فيها الليالي ويُوارَى الإصباحُ والإمساءُ
تشفقُ الشمسُ والكواكبُ منها والجديدانِ، والبِلَى، والفناءُ[١٣]
زعموا أنهَا دعائمُ شِيدَت بَيدِ البَغْيِ، ملْؤها ظلماءُ
فاعذُرِ الحاسدين فيها إذا لاَ مُوا، فصعبٌ على الحَسودِ الثَّناءُ
دُمَّر الناسُ والرعيَّةُ في تشـ ـييدِها، والخلائقُ الأُسَرَاءُ
أين كان القضاءُ، والعدلُ، والحكـ ـمةُ، والرأيُ، والنُّهَى، والذكاءُ
وبنُو الشمسِ من أعزَّةِ مصرٍ والعلومُ التي بِهَا يُستضاءُ
فادَّعوْا ما ادَّعَى أصاغرُ آثيـ ـنَا، ودَعواهُم خَنًا وافتراءُ[١٤]
ورَأَوْا للذين سادُوا وشادُو سُبَّةً أَن تُسخَّرَ الأعداءُ
إن يكن غيرَ ما أتوْهُ فخَارٌ فأنا منك — يا فخارُ — بَراءُ
ليت شِعري، والدهرُ حربُ بنيه وأياديه عنده أفياءُ[١٥]
ما الذى داخلَ اللياِليَ مِنَّا في صبانا، والليالِي دهاءُ[١٦]
فَعَلاَ الدهرُ فوقَ علياءِ فرعو نَ، وهمَّت بمَلْكِه الأرزاءُ؟
أعلنَت أمرَها الذئابُ وكانُوا في ثيابِ الرُّعاةِ من قبلُ جاءُوا[١٧]
وأتَى كلُّ شامتٍ من عِدَا الملْـ ـكِ إليهم، وانضمَّت الأجزاءُ
ومضى المالكون، إلا بقايا لهُمُ في ثَرَى الصعيدِ الْتِجاءُ

فعلَى دولةِ البُناةِ سلامٌ ... وعلَى ما بنَى البناةُ العَفَاءُ
وإذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعِي السـ ... ـوءِ، تُؤذَى في نسلِها وتُساءُ
قد أذلَّ الرجالَ، فَهْيَ عبيدٌ ... ونفوسَ الرجالِ، فَهْيَ إماءُ
فإذا شاءَ فالرقابُ فداه ... ويسيرٌ إذا أراد الدماءُ
ولقومٍ نوالُه ورضاه ... ولأَقوامٍ القِلَى والجَفاءُ[18]
ففريقٌ ممَتَّعُون بمصرَ ... وفريقٌ في أرضِهم غُرَباءُ
إن ملكتَ النفوسَ فابْغِ رضاها ... فلها ثورةٌ، وفيهَا مَضاءُ[19]
يسكن الوحشُ للوثوبِ من الأسـ ... ـرِ، فكيف الخلائقُ العُقلاَءُ؟
يَحسَبُ الظالمون أن سَيسُودُو ... نَ، وأن لن يُؤيَّدَ الضعفاءُ
والليالي جوائرٌ مثلَمَا جا ... رُوا، وللدهرِ مثلَهم أهواءُ
لبِثَت مصرُ في الظلام، إلى أن ... قِيلَ: مات الصباحُ والأضواءُ
لم يكن ذاك من عمًى، كلُّ عينٍ ... حَجَبَ الليلُ ضوءَها عمياءُ
ما نراها دَعا الوفاءُ بَنِيهَا ... وأتاهم من القبورِ النداءُ
ليزيحوا عنها العدا، فأزاحوا ... وأزِيحَت عن جَفنِها الأقذاءُ
وأُعِيدَ المَجدُ القديمُ، وقامَت ... في معالِي آبائِهَا الأبناءُ
وأتَى الدهر تائبًا بعظيمٍ ... من عظيمٍ، آباؤُه عظماءُ
مَنْ كرَمسيسَ في الملوكِ حديثًا ... ولِرَمسيسٍ المُلوكُ فِداءُ[20]
بايَعَته القلوبُ في صُلبِ سِيتِي ... يومَ أن شاقَها إليه الرجاءُ
واستعدَّ العُبَّادُ للمُولدِ الأكـ ... ـبرِ، وأزَّيَّنَت لَه الغَبرَاءُ
جَلَّ سيزوستريسُ عهْدًا، وجَلَّت ... في صِباهُ الآياتُ والآلاءُ
فسمِعنا عن الصبِيِّ الذي يعَـ ... ـفُو، وطَبعُ الصِّبا الغشوم الإباءُ
ويرى الناسَ والملوكَ سواءً ... وهل الناسُ والمُلوكُ سواءُ؟
وأرانَا التاريخُ فرعونَ يَمشِي ... لم يَحُل دونَ بِشْرِه كبرياءُ

***

يُولدُ السيِّدُ المتوَّجُ غَضًّا ... طهَّرتْهُ في مهدها النَّعمَاءُ[21]
لم يغيِّرهُ يومَ ميلادِه بؤ ... سٌ، ولا ناله وليدًا شقاءُ
فإذا ما المُملَّقون تولَّوْ ... هُ تَوَلَّى طباعه الخيلاءُ[22]

وسرَى في فؤادِه زخرفُ القو ... لِ، تراه مستعذَبًا وهو داءُ
فإذا أبيضُ الهديل غرابٌ ... وإذا أبلَجُ الصباحِ مَساءُ[٢٣]

***

جَلَّ رمسيسُ فِطْرَةً، وتغالَى ... شيعةً أن يقودَه السفهاءُ
وسمَا للعُلاَ، فنالَ مكانًا ... لَم ينلْه الأمثالُ والنُّظَراءُ
وجيوشٌ يَنهَضْنَ بالأرضِ ملكًا ... ولواءٌ من تَحتِه الأحياءُ
ووجودٌ يُساسُ، والقولُ فيه ... ما يقولُ القضاةُ والحُكماءُ
وبناءٌ إلى بناءٍ، يَودُّ الخلْـ ... ـدُ لو نالَ عمرَه والبقاءُ
وعلومٌ تُحيِي البلادَ، وبنتَا ... هُورُ فخرُ البلادِ، والشعراءُ[٢٤]
إيِه سيزوستريس، ماذا ينالُ الـ ... ـوصفُ يومًا، أو يبلغُ الإطراءُ
كبُرَت ذاتُك العليَّةُ أن تُحـ ... ـصِي ثَنَاهَا الألقابُ والأسمَاءُ
لك آمُونُ، والهلالُ إذا يكـ ... ـبرُ، والشمسُ، والضُّحى، آباءُ[٢٥]
ولك الريفُ، والصعيدُ، وتاجَا ... مصرَ، والعرشُ عاليًا، والرداءُ
ولك المُنشَآتُ في كلَّ بَحرٍ ... ولك البَرُّ أرضُه والسمَاءُ
ليت لم يُبْلِكَ الزمانُ، ولم يَبْـ ... ـلَ لِمُلْكِ البلادِ فيك رجاءُ
هكذا الدَّهرُ: حالةٌ ثم ضدٌّ ... ما لحال مع الزَّمانِ بقاءُ

***

لا رَعَاك التاريخُ يا يومَ قمبيـ ... ـزَ، ولا طَنْطَنت بك الأنباءُ[٢٦]
دارَت الدائراتُ فيك، ونالَت ... دارَت الدائراتُ فيك، ونالَت
فبمصر مما جنيتَ لِمصرٍ ... أيُّ داءٍ، ما إن إليه دواءُ[٢٧]
نكدٌ خالدٌ، وبؤسٌ مقيم ... وشقاءٌ يجدُّ منه شقاءٌ
يَوم مَنْفِيسَ، والبلادُ لكسرى ... والمُلوكُ المُطاعةُ الأعداءُ[٢٨]
يأمُر السيفُ في الرَّقابِ، وينهَى ... ولِمصرٍ علىَ القَذَى إغضَاءُ
جِيءَ بالملكِ العزيز ذليلاً ... لَم تُزلزِلْ فؤادَه البأساءُ
يُبصِرُ الآل إذ يُراحُ بِهم في ... موقفِ الذُّل عَنْوَةً، ويُجاءُ
بنت فرعونَ في السلاسلِ تمشي ... أزعجَ الدهرَ عُرْيُها والحفاءُ[٢٩]

فكأن لم ينهَضْ بهَوْدجَها الدهــ ـــرُ، ولا سار خلفها الأمراءُ[٣٠]

* * *

وأبُوها العظيمُ ينظر لِمَا رُدِّيت مثلمَا تُردَّى الإماءُ[٣١]
أعطيَت جَّرةً، وقِيلَ: إليكِ النهــ ـرَ، قُومِي كما تقومُ النساءُ
فمشَت تُظهِرُ الإباءَ، وتحمِي الدَّمْــ ـعَ أن تَسترِقَّه الضَّرَّاءُ[٣٢]
والأعادِي شواخصٌ، وأبوها بيَدِ الخَطبِ صخرةٌ صمَّاءُ[٣٣]
فأرادُوا لينظُروا دَمعَ فرعو نَ، وفرعونُ دمعُه العنقاءُ[٣٤]
فأَرَوْهُ الصديقَ في ثوبِ فقرٍ يسألُ الجَمْعَ، والسؤالُ بلاءُ
فبكى رحمةً، وما كان مَن يَبـ ـكِي، ولكنَّما أرادَ الوفاءُ
هكذا الملكُ والملوكُ، وإن جا رَ زمانٌ، ورَوَّعَت بَلْواءُ

* * *

لا تسَلني: ما دولة الفرس؟! ساءَت دولةُ الفُرس في البلادِ، وساءُوا[٣٥]
أمَّةٌ همُّها الخَرائب تُبليــ ـهَا، وحَقٌّ الخَرائبِ الإعلاءُ[٣٦]
سَلَبَتْ مصرَ عِزَّها، وكسَتهَا ذِلَّةً ما لهَا الزمانَ انقضاءُ
وارتوَى سيفُها، فعاجلَها اللهُ بسيفٍ ما إن له إرواءُ[٣٧]
طِلْبةٌ للعبادِ كانَت لإسكنـ ـدرَ في نَيْلها اليدُ البيضاءُ[٣٨]
شاد إسكندرٌ لَمصرَ بناءً لَم تَشِدْهُ المُلوكُ والأمرَاءُ
بلدًا يَرْحَلُ الأنامُ إليه ويحُجُّ الطُّلاَّبُ والحُكمَاءُ
عاش عُمرًا في البحرِ ثغرَ المعالي والمَنارَ الذي به الاهتداءُ
مطمئنًّا من الكتائبِ والكتُـ ـب بمَا ينتهي إليه العَلاءُ
يبعثُ الضوءَ للبلادِ، فتسرِي في سناهُ الفهومُ والفهماءُ
والجوارِي في البحرِ يُظهِرن عزَّ الـ ـمُلكِ، والبحرُ صَوْلةٌ وثراءُ[٣٩]
والرعايا في نعمةٍ، ولبَطْلَيْـ ـمُوسَ في الأرضِ دولةٌ علياءُ[٤٠]
فقضىَ الله أن تضيِّعَ هذَا المُـ ـلكَ أنثَى صَعبٌ عليها الوفاءُ[٤١]
تَخِذتْها رُوما إلى الشرَّ تمهيـ ـدًا، وتَمهيدُه بأنثَى بلاءُ
فتناهَى الفسادُ في هذه الأر ضِ، وجازَ الأبالِسَ الإغواءُ

ضيَّعَتْ قيصَر البريةِ أنثى ... يا لَرَبَّى ممَّا تجُرُّ النساءُ[٤٢]
فتنت منه كهف روما المُرَجَّى ... والحُسامَ الذي به الاتقاءُ[٤٣]
قاهرَ الخصمِ والجَحافِل مهما ... جدَّ هولُ الوَغَى وجدَّ اللقاءُ
فأتاها مَن ليس تمْلكه أنـ ... ـثَى، ولا تسترِقُّه هَيفَاءُ[٤٤]
بطَلُ الدولتين، حامِي حِمىَ رُو ... مَا، الذي لا تقودُه الأهواءُ[٤٥]
أخذَ المُلكَ، وهْيَ في قبضةِ الأفـ ... ـعَى عن المُلكِ والهوى عمياءُ[٤٦]
سلبتها الحياةَ، فاعجبْ لرَقْطا ... ءَ أراحَت منهَا الورَى رقطاءُ[٤٧]
لم تُصِب بالخِداعِ نُجْحًا، ولكن ... خدعوها بقولِهم: حسناءُ
قتلَت نفسهَا، وظنَّت فداءً ... صَغرَت نفسُها، وقَلَّ الفداءُ
سل كِلوبَتَرةَ المكايِد: هلاَّ ... صدَّها عن ولاءِ روما الدَّهاءُ؟
فبِروما تأيَّدَت، وبِروما ... هي تشقَى، وهكذا الأعداءُ
ولروما المُلْكُ الذي طالمَا وَا ... فَاهُ في السرَّ نُصحُها والولاءُ
وتولَّت مصرًا يَمِينٌ علَى المصـ ... ـرِيَّ من دون ذا الورَى عَسْراءُ
تُسمِعُ الأرضُ قيصرًا حين تدعو ... وعقيمٌ من أهلِ مصرَ الدعاءُ[٤٨]
ويُنيلُ الورَى الحقوقَ، فإن نا ... دَته مصرٌ فأذْنُه صَمَّاءُ
فاصبِري مصرُ للبلاءِ، وأنَّى ... لَكِ؟ والصبرُ للبلاءِ بلاءُ
ذا الذى كنتِ تَلتجِينَ إليه ... ليس منه إلى سواه التجاءُ

* * *

ربَّ، شُقتَ العبادَ أزمانَ لا كتـ ... ـبٌ بِها يُهتدَى، ولا أنبياءُ[٤٩]
ذهبوا فِي الهوَى مذاهبَ شتَّى ... جمَعتها الحقيقةُ الزهراءُ[٥٠]
فإذا لقَّبُوا قويًّا إلهًا ... فله بالقُوَى إليك انتهاءُ
وإذا آثرُوا جمِيلاً بتنْزيـ ... ـهٍ، فإن الجمالَ منك حِبَاءُ[٥١]
وإذا أنشئوا التماثيلَ غُرًّا ... فإليك الرُّموزُ والإيمَاءُ[٥٢]
وإذا قدَّرُوا الكواكبَ أرْبَا ... بًا، فمنك السَّنَا ومنك السناءُ[٥٣]
وإذا ألهُوا النبَاتَ، فمِن آ ... ثارِ نُعماك حُسْنُه والنَّماءُ
وإذا يمَّموا الجِبالَ سجُودًا ... فالمُرادُ الجَلالَةُ الشمَّاءُ[٥٤]
وإذا تُعْبَدُ البحَارُ معَ الأسـ ... ـماكِ، والعاصفاتُ، والأنواءُ

وسباعُ السماءِ والأرضِ، والأر ... حامُ، والأمهاتُ، والآباءُ
لِعُلاك المُذكَّراتُ عبيدٌ ... خُضَّعٌ، والمؤنَّثاتُ إماءُ[٥٥]
جمع الخلْقَ والفضيلةَ سِرٌّ ... شَفَّ عنه الحِجابُ فهو ضياءُ

***

سجدَت مصرُ في الزمان لإيزيـ ... ـسَ الندَى، مَنْ لها اليدُ البيضاءُ[٥٦]
إنْ تَلِ البَرَّ، فالبلادُ نُضَارٌ ... أو تَلِ البحرَ، فالرياحُ رُخاءُ[٥٧]
أوائَلِ النفسَ، فهْيَ في كل عضوٍ ... أو تَلِ الأفقَ، فهيَ فيه ذُكاءُ[٥٨]
قِيلَ: إيزيس ربَّةَ الكونِ، لولا ... أن تَوَحَّدْتِ، لم تَكُ الأشياءُ
واتَّخذتِ الأنوارَ حُجْبًا، فلم تُبـ ... ـصْرِك أرضٌ، ولا رأتكِ سمَاءُ
أنتِ ما أظهَرَ الوجودُ وما أخـ ... ـفَى، وأنتِ الإظهارُ والإخفاءُ
لكِ آبيسُ، والمُحَبَّبُ أوزيـ ... ـريسُ، وابنَاه، كلُّهم أولياءُ[٥٩]
مُثلَت للعيونِ ذاتُكِ، والتمـ ... ـثيلُ يُدنِي مَنْ لا له إدناءُ
وادَّعاكِ اليونان من بعد مصر ... وتلاه في حُبِّكِ القُدماءُ
فإذا قِيل: ما مفاخرُ مصر؟ ... قيلَ: منهَا إيزيسُهَا الغرَّاءُ

***

رَبَّ، هذِي عقولُنا في صِباها ... نالَها الخوفُ، واستباها الرجاءُ
فعشِقناكَ قبلَ أن تأتِيَ الرُّسْـ ... ـلُ، وقامَت بحبِّكَ الأعضاءُ
ووصلنا السُّرى، فلولا ظلامُ الـ ... ـجَهل لم يَخطُنا إليكَ اهتداءُ[٦٠]
واتخذنا الأسماءَ شتَّى، فلمَّا ... جاءَ موسى انتهَت لكَ الأسماءُ
حَجَّنا في الزَّمانِ سحرًا بِسحرٍ ... واطمأنَّت إلى العصا السعداءُ[٦١]
ويريدُ الإلهُ أن يُكرَمَ العَقـ ... ـلُ، وألا تُحَقَّرَ الآراءُ
ظنَّ فرعونُ أنَّ موسى له وا ... فٍ، وعند الكِرامِ يُرجَى الوفاءُ
لم يكنْ في حسابِهِ يومَ رَبَّى ... أن سيأتِى ضدَّ الجزاءِ الجزاءُ
فرأى الله أن يعقَّ، ولِلهِ ... تَفِي — لا لغيره — الأنبياءُ
مصر موسى عند انتِماءٍ، وموسى ... مصرُ إن كان نسبة وانتِماءُ
فَبِهِ فخرُها المؤيَّدُ، مهما ... هُزَّ بالسيدِ الكليمِ اللواءُ[٦٢]

إن تكن قد جفته في ساعةِ الشكِّ   فحظُّ الكبيرِ منهَا الجَفاءُ
خِلَّةٌ للبلادِ يَشقَى بهَا النا   سُ، وتَشقَى الدِّيارُ والأبناءُ
فكبيرٌ ألا يُصانَ كبِيرٌ   وعظيمٌ أن يُنْبَذَ العُظمَاءُ

* * *

وُلِدَ الرِّفقُ يومَ مولدِ عيسَى   والمُروءَاتُ، والهُدَى، والحيَاءُ
وازدَهَى الكونُ بالوليد، وضاءَت   بسَناهُ منَ الثَّرى الأرجاءُ
وسرَت آيةُ المَسيح، كما يسـ   ـرِي من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
تملأُ الأرضَ والعوالِمَ نورًا   فالثرى مائجٌ بَهًا، وَضَّاءُ
لا وعيدٌ، لا صولةٌ، لا انتقامٌ   لا حُسامٌ، لا غَزوَةٌ، لا دِماءُ
مَلَكٌ جاوَرَ الترابَ، فلمَّا   ملَّ نابَت عن الترابِ السَّماءُ[٦٣]
وأطاعَتهُ في الإلهِ شيُوخٌ   خُشَّعٌ، خُضَّعٌ له، ضعفاءُ
أذعَنَ الناسُ والمُلوكُ إلى ما   رسمُوا، والعقوُل، والعُقلاءُ
فلهم وقفةٌ على كلِّ أرضٍ   وعلى كلِّ شاطِئٍ إرساءُ
دخلوا ثيبةُ فأحسنَ لُقيا   هم رجالٌ بثيبةٍ حكمَاءُ[٦٤]
فَهِمُوا السرَّ حين ذاقُوا، وسهلٌ   أن ينالَ الحقائقَ الفُهماءُ[٦٥]
فإذا الهيكلُ المُقدَّسُ دَيْرٌا   وإذا الدَّيْرُ رَونَقٌ وبَهَاءُ
وإذا ثيبةٌ لعيسَى، ومنفيـ   ـسُ، ونيلُ الثراءِ، والبطحاءُ[٦٦]
إنَّما الأرضُ والفضاءُ لربِّي   ومُلوكُ الحَقيقِة الأنبياءُ
لهُمُ الحُبُّ خالَصًا من رعايَا   هم، وكُلَّ الهوَى لهُم والوَلاءُ
إنَّما ينكرُ الدياناتِ قومٌ   هم بما ينكرونَه أشقياءُ
هرِمَت دولةُ القياصرِ، والدَّو   لاتُ كالناسِ، داؤهُنَّ الفَناءُ[٦٧]
ليس تُغنِي عنهَا البلادُ ولا ما   لُ الأقاليمِ إن أتاهَا النداءُ[٦٨]
نالَ روما ما نالَ من قبلُ آثِيـ   ـنَا، وسيِمَتْهُ ثيبَةُ العَصماءُ[٦٩]
سُنَّةُ الله في المَمالكِ من قبـ   ـلُ ومن بعدُ، ما لِنُعمَى بقاءُ

* * *

أظلمَ الشرقُ بعد قيصرَ والغر   بُ، وعمَّ البرِيَّةَ الإدجاءُ[٧٠]

فالورَى في ضلاله مُتَمَادٍ ... يفتكُ الجهلُ فيه والجُهلاءُ
عرَّفَ الله ضِلَّةً، فهو شخصٌ ... أو شِهابٌ، أو صخرة صمَّاءُ[٧١]
وتولَّى على النفوسِ هوى الأوْ ... ثانِ، حتى انتهَت له الأهواءُ
فرأى الله أن تُطَهَّرَ بالسَّيْـ ... ـفِ، وأن تَغسِلَ الخطايا الدماءُ
وكذلك النفوسُ وهي مِراضٌ ... بعضُ أعضائِها لبعضٍ فداءُ
لَم يُعادِ الله العبيدَ، ولكن ... شَقِيَت بالغَباوَةِ الأغبياءُ
وإذا جلَّت الذُّنوبُ وهالَت ... فمِنَ العدلِ أن يَهُولَ الجَزاءُ
أشرقَ النورُ في العوالِمِ لَمَّا ... بشَّرتَهَا بأحمَدَ الأنباءُ
باليتيمِ الأمِّيِّ، والبشَرِ المُو ... حَى إليه العلومُ والأسمَاءُ
قُوَّةُ اللهِ إن تولَّت ضعِيفًا ... تِعبَت في مِرَاسِه الأقوياءُ[٧٢]
أشرَفُ المُرسَلين، آيتُه النطـ ... ـقُ مُبينًا، وقومُه الفُصَحاءُ
لَم يَفُهُ بالنوابغِ الغُرَّ حتَّى ... سبق الخلقَ نحوَه البُلَغاءُ
وأَتَتْهُ العقُولُ مُنقادَةَ اللـ ... ـبِّ، ولبَّى الأعوانُ والنُّصَرَاءُ[٧٣]
جاءَ للناسِ، والسرائرُ فوضَى ... لمْ يؤلِّفْ شتَاتَهُنَّ لواءُ[٧٤]
وحِمَى اللهِ مُستباحٌ، وشرعُ اللهِ، ... والحقُّ، والصوابُ وراءُ
فلجِبريلَ جيْئَةٌ، ورَوَاحٌ ... وهبوطٌ إلى الثرى، وارتقاءُ
يُحسَبُ الأفْقُ في جناحيه نورٌ ... سُلِبَتْهُ النجومُ والجَوزاءُ
تلك آيُ الفُرْقانِ، أرسلَها اللـ ... ـهُ ضياءً يهَدي به مَن يشاءُ[٧٥]
نَسخَتْ سُنةَ النبيين والرُّسْـ ... ـلِ، كما ينسَخُ الضياءَ الضياءُ
وحَماها غُرٌّ، كِرامٌ، أشِدا ... ءُ على الخَصِم، بينَهم رُحَماءُ
أمَّةٌ ينتهِي البيانُ إليْها ... وتُئولُ العلُومُ والعلماءُ[٧٦]
جازَت النجمَ، واطمأنَّت بأفْق ... مطمئنَّ به السَّنَا والسَّنَاءُ
كلَّما حثَّت الركابَ لأرضٍ ... جاورَ الرُّشدُ أهلَهَا والذكاءُ[٧٧]
وعَلاَ الحقُّ بينهم، وسَمَا الفَضـ ... ـلُ، ونالَت حقوقَها الضعفاءُ
تحملُ النجمَ، والوسيلةَ، والمِيـ ... ـزانَ من دِينها إلى مَن تشاءُ
وتُنيلُ الوجودَ منه نظامًا ... هو طبُّ الوجودِ، وهو الدواءُ
يرجعُ الناسُ والعصورُ إلى ما ... سَنَّ، والجاحدونَ، والأعداءُ

فيه ما تشتهي العزائمُ إن هـ ـمَّ ذَوُوها ويشتهي الأذكياءُ
فَلِمَنْ حاوَلَ النعيمَ نعيمٌ ولِمَنْ آثرَ الشقاءَ شقاءُ
أيَرى العُجْمُ مِن بَنِي الظلِّ والمَا ءِ عجيبًا أن تُنجِبَ البيداءُ[٧٨]
وتُثيرُ الخيامُ آسادَ هَيجَا ءَ تراها آسادَها الهيجاءُ
ما أنافَت على السواعِد حتى الـ ـأرضُ طُرًّا في أسرِها والفضاءُ
تشهدُ الصيَّنُ، والبحارُ، وبغدا دُ، ومصرُ، والغربُ، والحمراءُ[٧٩]
مَن كعَمرِو البلادِ، والضادُ ممَّا شادَ فيها، والمِّلةُ الغرَّاءُ؟
شادَ للمسلمين ركنًا جسَامًا ضافِيَ الظلِّ، دَأبُه الإيواءُ[٨٠]
طالمَا قامَت الخلافةُ فيه فاطمأنَّت، وقامت الخُلفاءُ
وانتهىَ الدينُ بالرجاءِ إليه وبَنُو الدّينِ إذ هُمُ ضُعفاءُ
منْ يصنهُ يصنْ بقيَّة عزٍ غَيَّض التُّركُ صفوَه والثّواءُ[٨١]
فابكِ عَمرًا إن كنتَ مُنصِفَ عَمرِو إنَّ عَمْرًا لَنيِّرٌ وضَّاءُ
جاد للمُسلمين بالنيلِ، والنيـ ـلُ لِمَن يقتنِيه أفريقاءُ
فَهْيَ تعلُو شأنًا إذا حُرَّرَ النَّيـ ـلُ، وفى رِقَّهِ لهَا إزراءُ[٨٢]

***

واذكُرِ الغُرَّ آل أيوبَ، وامدَحْ فَمِنَ المَدحِ للرجالِ جزاءُ[٨٣]
هُمْ حُماةُ الإسلامِ، والنفرُ البيـ ـضُ، المُلوكُ، الأعزَّةُ، الصُّلحاءُ[٨٤]
كلَّ يومٍ بالصالحيّةِ حِصنٌ وبِبُلْبِيْسَ قلعَةٌ شَمَّاءُ
وبَمصرٍ للعِلمِ دارٌ، ولِلضَّيفَانِ نارٌ عظيمَةٌ حَمراءُ
ولأعداءِ آل أيوبَ قَتلٌ ولِإسرَاهُمُ قِرًى وثَواءُ[٨٥]
يعرفُ الدينُ مَنْ صلاحٌ؟ ويدري مَن هو المَسجدان والإسراءُ؟[٨٦]
إنه حصنُه الذي كان حصنًا وحِماهُ الذي به الاحتماءُ
يوم سار الصليبُ والحاملُوه ومَشى الغربُ: قومُه، والنساءُ
بنفوسٍ تجُولُ فيهَا الأمانِي وقلوبٍ تثورُ فيهَا الدماءُ
يُضمِرون الدمارَ للحقَّ، والنا سِ، ودينِ الذين بالحقَّ جاءُوا
ويهدُّون بالتلاوَةِ والصُّلْـ ـبَانِ ما شادَ بالقنا البنَّاءُ
فتلَقَّتهُمُ عزائمُ صدقٍ نُصَّ للدَّينِ بينهُنَّ خِبَاءُ[٨٧]

مَزَّقتْ جَمعَهم على كلَّ أرضٍ مثلَما مزَّقَ الظلامَ الضياءُ
وسَبَتْ أمْردَ المُلوكِ، فردَّتــ ـهُ وما فيه للرعايا رجاءُ[88]
ولو أنَّ المَليكَ هِيبَ أذاهُ لم يُخلّصهُ مِن أذاها الفداءُ
هكذا المُسلمون، والعربُ الخا لُون، لا ما يقولُه الأعداءُ
فبهم في الزمانِ نِلنَا الليالي وبهم في الورَى لنا أنباءُ
ليس للذلِّ حيلةٌ في نفوسٍ يستوي الموتُ عندها والبقاءُ

***

واذكُرِ التُّركَ، إنهم لم يُطاعُوا فيرى الناسُ أحسنُوا أم أساءُوا
حكَمَت دولةُ الجراكِسِ عنهم وَهْيَ في الدَّهرِ دولةٌ عَسرَاءُ[89]
واستبدَّت بالأمر منهم، فـ «باشا» التُّركِ في مِصَر آلهٌ صمَّاءُ
يأخذُ المَالَ من مواعيدَ ما كا نوا لهَا مُنْجِزين، فَهْيَ هَباءُ
ويسومونه الرضا بأمورٍ ليس يَرضَى أقلهَّنَّ الرضاءُ[90]
فيُدَارِي ليعصِمَ الغدَ منهم والمُدارةُ حِكمَةٌ ودَهاءُ

***

وأتَى النَّسرُ ينهب الأرضَ نهيًا حوله قومُه، النسورُ ظِماءُ[91]
يشتهِي النيلَ أن يشيدَ عليه دولةً عرضُها الثرى والسمَاءُ
حلَمَت رُومةٌ بِهَا في الليالي ورآها القياصُر الأقوياءُ
فأتَت مصرَ رُسْلُهم تتوالَى وترامَت سوادنهَا العلماءُ[92]
ولوِ اسْتَشْهَدَ الفرنسيسُ رُوما لأتَتْهم مِن رُومةَ الأنباءُ
عِلمَت كلُّ دولةٍ قد تولَّت أننَّا سمُّها، وأنَّا الوباءُ
قاهرُ العصرِ والممالكِ، نابلــ ـيونُ ولَّت قوَّاده الكبراءُ
جاءَ طيشًا، وراح طيشًا، ومن قبـ ـلُ أطاشَت أناسَها العَلياءُ
سكتَتْ عنه يومَ عيرَّها الأهــ ـرامُ، لكنْ سكوتُها استِهزاءُ
فَهْيَ تُوحِي إليه: أنْ تلك «واتر لو»، فأين الجيوشُ؟ أين اللواءُ؟[93]

هوامش

(١) حدا الإبل، وحدا بها: ساقها وغنَّى لها.

(٢) العباب: ارتفاع السيل أو الموج.

(٣) مرق السهم من الرمية مروقًا: نفذ فيها وخرج من الجانب الآخر، فهو مارق، والمقصود هنا الهارب. الدأماء: البحر.

(٤) تدجَّى الليل: أظلم.

(٥) السفين: جمع سفينة.

(٦) الهوادي: أول رعيل من الإبل. الحداء: الغناء في أثر الإبل.

(٧) الأنواء: الأمطار.

(٨) رغا: ضجَّ في صوته.

(٩) الوجناء: الناقة الشديدة.

(١٠) وخدها: سيرها السريع وسعة خطوها.

(١١) الأجبال: جمع جبل. والشمُّ: جمع أشم، وهو المرتفع.

(١٢) أجفل: نفر وفرَّ خائفًا.

(١٣) الجديدان: الليل والنهار.

(١٤) الخنا: الفحش في الكلام.

(١٥) الأفياء: جمع فيء، وهو الغنيمة، والمراد أن الدَّهر لا يحسن إلى الناس إلا راغمًا، فكأنهم لا يظفرون منه بنعمة إلا كغنيمة حرب.

(١٦) أي تفعل فعل الدهاة.

(١٧) ملوك الرعاة أو الهكسوس: فاتحون من آسيا انتهزوا فرصة الضعف الذي حلَّ بالبلاد على أثر انقضاء عهد الأسرة الثانية عشرة، والتنازع الذي حدث على المُلك بين طبقة الأشراف؛ فغزوها في سنة ١٦٧٥ ق.م.

(١٨) القِلى: البغض.

(١٩) مضاء السيف: نفاذه في الضربة.

(٢٠) هو رمسيس الثاني ابن سيتي الأول: أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، وُلِّي عرش مصر وهو صغير، واستمرَّ حكمه من سنة ١٢٩٢–١٢٢٥ قبل الميلاد. ويُعْرَفُ برمسيس الأكبر؛ لما اكتسبه من الشهرة الفائقة التي جعلت كثيرًا من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر، والذي كوَّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المباني العديدة التي شيَّدها في جميع أنحاء البلاد.

(٢١) الغضُّ: النضير.

(٢٢) الخُيلاء: العجب والكِبْر.

(٢٣) الهديل: ذكر الحَمَام. وبلج الصباح: أشرق وأنار.

(٢٤) بنتاهور: شاعر مصري قديم.

(٢٥) آمون إله الشمس في اعتقاد القدماء، وقد كان القدماء يعتقدون أن الملوك نسل الآلهة التي أشير إليها في هذا البيت بالشمس والقمر.

(٢٦) قمبيز: أحد ملوك الفرس، استولى على مصر سنة ٥٢٥ ق.م، وسلك في المصريين مسلك العسف والظلم، وخرب المعابد والهياكل، وقتل العجل أبيس إله المصريين وغير ذلك. ويوم قمبيز: هو اليوم الذي انتصرت فيه جيوشه على جيوش أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين في الفرما ومنف، والذي أُخِذَ فيه الملك أسيرًا فأذيق من الذلِّ ما سترى. وطنطن: صوَّت.

(٢٧) إن: هنا زائدة. وما: نافية، بمعنى ليس.

(٢٨) منفيس: هي منف التي ذكرناها وكانت العاصمة حينئذ. وكسرى: اسم لكل ملك من ملوك الفرس، والمراد به قمبيز.

(٢٩) الحفا (مقصورة ومُدَّت): المشي بلا خف ولا نعل.

(٣٠) الهودج: محمل النساء.

(٣١) ردَّاها أي ألبسها الرداء، وتردَّى: أصلها تتردى، أي تلبس الرداء.

(٣٢) استرقه: ملكه. والضَّرَّاء: الشدَّة

(٣٣) شواخص: جمع شاخص وهو الناظر بحيث لا تطرف عيناه.

(٣٤) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم، ويكنى به في الشيء البعيد المنال.

(٣٥) يعود الضمير هنا إلى الفرس أنفسهم.

(٣٦) الخربة: موضوع الخراب وجمعها خرائب، والغرض منها هنا بقايا الهياكل والآثار.

(٣٧) إن: زائدة. وما: نافية.

(٣٨) هو الإسكندر الأكبر المقدوني الذي افتتح مصر سنة ٣٣٢ ق.م وقضى على حكم الفرس وأنشأ مدينة الإسكندرية.

(٣٩) الجواري: السفن.

(٤٠) بطليموس: حاكم مصر بعد الإسكندر ومؤسس دولة البطالسة التي استمرَّت من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٣٠٠ ق.م؛ إذ سقطت في عهد كليوباترا.

(٤١) الأنثى: المقصود بها كليوباترا، وهي آخر ملكة حكمت مصر من دولة البطالسة، وقد هام بها قيصران: «يوليوس» وهو الذي انتهت بموته الجمهورية الرومانية، وكانت صنيعة له، و«أنطونيوس» وهو الذي أنشأ — بالأشتراك مع أكتافيوس — الإمبراطورية الرومانية، وقد كان هيام الأخير بها سببًا لغزو أكتافيوس لمصر وانتصاره على كليوباترا، التي حاولت عبثًا أن تؤثر في قلبه بجمالها؛ فانتحرت بأن وضعت على صدرها حية، وانتحر أنطونيوس.

(٤٢) المقصود بقيصر هنا: أنطونيوس.

(٤٣) الكهف: الملجأ.

(٤٤) أكتافيوس قيصر.

(٤٥) الدولتان: دولة الغرب، ودولة الشرق.

(٤٦) هي: أي كليوباترا.

(٤٧) الرقطاء: الحيَّة التي يخالط بياضها نقط سوداء، أو العكس.

(٤٨) عقيم: أي لا خير وراءه.

(٤٩) شاقة الحب إليه: هاجه. والمراد بالكتب: الكتب الإلهية التي تنزلت على الأنبياء.

(٥٠) الحقيقة الزَّهراء: هي وجود الله وتوحيده، ولقد تنوَّعت ديانة قدماء المصريين، فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص، ثم رمزوا لصفات هذا الإله برموز صارَت بعدئذ معبودات، ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير محسوس في حياتهم كالشمس والقمر والليل، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان، فعبدوا العِجل (أبيس) والقط والكلب وما إلى ذلك.

(٥١) التنزيه: التقديس. والحباء: العطاء.

(٥٢) الرمز والإيماء: الإشارة.

(٥٣) السنا: الضوء. والسناء: الرفعة.

(٥٤) الشماء: الرفيعة.

(٥٥) المذكَّرات: ما كان من هذه الآلهة مذكرًا.

(٥٦) إيزيس: إلهة من آلهة القدماء.

(٥٧) النضار: الذهب. رخاء: لينة.

(٥٨) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٥٩) آبيس: هو العِجل أبيس، معبود القدماء، كما قدَّمنا. وأوزيريس: هو إله الشمس في اعتقاد القدماء.

(٦٠) السرى: السير ليلاً. ولم يخطنا: لم يجاوزنا.

(٦١) حجَّه: غلبه بالحجة.

(٦٢) هز الكوكب: انقض، والمراد: مهما خذل.

(٦٣) يشير إلى رفعه إلى السماء.

(٦٤) ثيبة: عاصمة من عواصم مصر القديمة

(٦٥) السرُّ: أي سرُّ عبادة الله على دين المسيح.

(٦٦) البطحاء: مسيل الماء في دقيق الحصى.

(٦٧) دولة القياصر: الدولة الرومانية. والهرم: بلوغ أقصى الكِبَر.

(٦٨) النداء: نداء الفناء.

(٦٩) سامه الأمر: كلَّفه إياه، وأكثر ما يستعمل في الشر والعذاب.

(٧٠) الإدجاء: الظلام.

(٧١) ضلَّة: ضلال. والشهاب: شعلة من نار ساطعة، وقد يطلق على الكوكب.

(٧٢) المراس: هنا بمعنى المأخذ والمعالجة.

(٧٣) اللب: ذكاء من العقل.

(٧٤) الشتات: المتفرق.

(٧٥) الآي: جمع آية.

(٧٦) تئول: ترجع.

(٧٧) حثَّ الركاب: أي حضَّ الإبل على أن تسرع، والمراد كلَّما انتقلت لأرض.

(٧٨) أنجب الرجل: ولد ولدًا نجيبًا.

(٧٩) الحمراء: قصر مشهور بالأندلس.

(٨٠) الجسام: العظيم.

(٨١) الثواء: الإقامة.

(٨٢) أزرى عليه عمله: عابه.

(٨٣) يشير على الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، وحكمت مصر من سنة ١١٧١ على سنة ١٢٥٠م.

(٨٤) الأبيض: السيف، أو النجم، والجمع بيض.

(٨٥) القرى: الضيافة. والثواء: الإقامة.

(٨٦) صلاح: صلاح الدين الأيوبي.

(٨٧) نصَّ الشيء: رفعه. والخباء: ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر، ويكون عمودين أو ثلاثة.

(٨٨) سبي العدو: أسره. وأمرد الملوك: لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أبطال الصليبيين، أسره توران شاه في موقعة المنصورة الفاصلة ثم فدى نفسه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك.

(٨٩) الجراكس: المماليك. وعسراء: أي شديدة ظالمة.

(٩٠) سامه الأمر: كَلَّفه إياه، وأكثر ما يكون في الشرِّ.

(٩١) النسر: نابليون بونابرت.

(٩٢) ترامى القوم: رمى بعضهم بعضًا.

(٩٣) واترلو «في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥»: موقعة دارت رحاها بين نابليون وولنجتون القائد الإنكليزي الشهير، فانتصر الأخير بمساعدة بلوخر القائد الروسي، وكان من نتائج هزيمة نابليون في هذه الموقعه أسره ونفيه إلى جزيرة «سنت هيلانة» حيث قضى البقية من حياته.

الهمزية النبوية

وُلِدَ الهُدَى، فالكائناتُ ضياءُ   وفَمُ الزَّمانِ تبَسُّمٌ وثناءُ

الرُّوحُ والمَلأُ المَلائِكُ حوْلَهُ   للدِّينِ والدُّنيا به بشراءُ[1]

والعرشُ يَزهُو، والحظيرةُ تَزدَهِي   والمُنتهَى، والسَّدْرَةُ العَصمَاءُ[2]

وحديقةُ الفُرقانِ ضاحكةُ الرُّبا   بالترجمانِ، شَذيَّةٌ، غنَّاءُ[3]

والوَحْيُ يَقطُرُ سَلسَلاً مِن سَلسَلٍ   واللَّوحُ والقلَمُ البديعُ رُواءُ[4]

نُظِمَت أسامِي الرُّسْل فَهْيَ صحيفة   في اللوحِ، واسمُ مُحمدٍ طُغراءُ[5]

اسمُ الجلالةِ في بديعْ حروفِه   أَلِف هنالك، واسمُ (طه) الباءُ

***

يا خيرَ مَنْ جاءُ الوجودَ، تحية   مِن مُرسَلين إلى الهُدى بك جاءُوا

بيتُ النبييَّن الذي لا يلتقي   إلا الحنائِفُ فيه والحُنفاءُ[6]

خيرُ الأبَّوةِ حازَهم لَكَ «آدمٌ»   دُونَ الأنامِ، وأحرزَت حَوَّاءُ

همْ أدرَكوا عِزَّ النبوَّةِ وانتَهت   فيها إليكَ العِزَّةُ القعساءُ[7]

خُلِقَت لبيتكَ، وهو مخلوقٌ لها   إنَّ العَظائمَ كُفؤُها العُظماءُ

بِكَ بشَّرَ اللهُ السماءَ فزُيِّنَت   وتضوَّعَت مِسكًا بِكَ الغَبراءُ[8]

وبَدَا مُحَيَّاكَ الذي قسَماتُه   حقٌّ، وغُرَّتُه هُدًى وحيَاءُ[9]

وعليه مِن نورِ النبُوَّةِ رَوْنَقٌ   ومِنَ الخليلِ وهَديه سِيمَاءُ[10]

أثنَى «المسيحُ» عليه خلف سمائِه   وتهلَّلَت واهتَزَّتِ «العذراءُ»[11]

يومٌ يتيهُ على الزمان صَباحُه ... ومَساؤه «بمحمدٍ» وَضَّاءُ
الحقُّ عالِي الرُّكن فيه، مُظَفَّرٌ ... في المُلكِ، لا يَعلُو عليه لواءُ
ذُعِرَت عروشُ الظالمين، فزُلزِلَت ... وعَلَتْ على تِيجانِهم أصداءُ
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهُم ... خَمَدَت ذوائِبُها، وغاضَ المَاءُ[١٢]
والآيُ تَترَى، والخَوارِقُ جَمَّةٌ ... «جبريلُ» رَوَّاحٌ بِهَا غدَّاءُ[١٣]
نِعْمَ اليَتيمُ، بَدَت مخايلُ فَضلِه ... واليُتمُ رزقٌ بعضُه وذَكاءُ[١٤]
في المَهدِ يُستَسقَى الحيَا برجائِه ... وبقصِده تُستَدفَعُ البَأساءُ[١٥]
بسوَى الأمانةِ في الصَّبا والصدق لم ... يعرِفْه أهلُ الصدقِ والأمناءُ
يا مَنْ له الأخلاق ما تَهوَى العُلا ... منهَا وما يتعشَّقُ الكبراءُ
لَو لَم تُقِمْ دِينًا، لقامَت وحدَها ... دِينًا تُضِيءُ بنورِه الآناءُ
زانَتكَ في الخلقِ العظيمِ شمائلٌ ... يُغرَى بهِنَّ ويُولَعُ الكُرماءُ
أمَّا الجمالُ، فأنتَ شمسُ سمائِه ... وملاحةُ «الصَّدَّيق» منك أياءُ[١٦]
والحسنُ من كرمِ الوجوهِ، وخيرُه ... ما أوتِيَ القُوَّادُ والزعَماءُ
فإذا سخَوْتَ بلَغتَ بالجودِ المدَى ... وفعلتَ ما لا تفعلُ الأنواءُ[١٧]
وإذا عفَوتَ فقادِرًا، ومقدَّرًا ... لا يَستَهينُ بعَفوِكَ الجُهلاَءُ
وإذا رحِمتَ فأنتَ أمٌّ، أو أبٌ ... هذانِ في الدنيا هما الرُّحَماءُ
وإذا غَضِبتَ فإنَّما هِيَ غضبَةٌ ... في الحقِّ، لا ضِغْنٌ ولا بَغضاءُ[١٨]
وإذا رضِيتَ فذاك في مرضاتِه ... ورِضَى الكثيرِ تَحلُّمٌ ورِيَاءُ[١٩]
وإذا خطَبتَ فِللمنابرِ هزَّةٌ ... تَعرُو النَّدِيَّ، وللقلوبِ بُكاءُ[٢٠]
وإذا قضيَتَ فلا ارتيابَ، كأنَّما ... جاءَ الخصومَ من السمَاءِ قضاءُ
وإذا حمَيتَ المَاءَ لم يُورَدْ، ولو ... أن القياصرَ والمُلوكَ ظِماءُ
وإذا أجَرتَ فأنتَ بيتُ اللهِ، لم ... يَدخُلْ عليه المُستجيرَ عداءُ
وإذا ملَكتَ النفسَ قُمْتَ بِبِرِّها ... وَلوَ أنَّ ما ملَكَت يداكَ الشاءُ
وإذا بنَيتَ فخيرُ زوجٍ عِشرةً ... وإذا ابتنَيتَ فدُونكَ الآباءُ[٢١]
وإذا صَحِبتَ رأى الوفاءَ مُجسَّمًا ... في بُردِكَ الأصحابُ والخُلَطاءُ
وإذا أخذتَ العهدَ، أو أعطَيتَه ... فجميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ ووفاءُ
وإذا مَشيْتَ على العدا فغَضنفَرٌ ... وإذا جرَيتَ فإنكَ النكباءُ[٢٢]

وتَمُدُّ حِلْمَكَ للسفيه مُدارِيًا   حتَّى يضيقَ بعرضِكَ السفهاءُ
في كلِّ نفسٍ من سُطاكَ مَهابةٌ   ولكل نفسٍ في نداكَ رجاءُ[٢٣]
فالرأيُ لم يُنضَ المهنَّدُ دُونهُ   كالسيفِ لم تُضرَب به الآراءُ[٢٤]

* * *

يأيُّها الأمِّيُّ، حَسبُكَ رتبةً   في العِلمِ أنْ دانَت بك العلماءُ[٢٥]
الذِّكرُ آيةُ ربكَ الكبرى التي   فيهَا لباغي المعجزاتِ غَناءُ[٢٦]
صَدْرُ البيانِ له إذا التَقَت اللُّغَى   وتقدَّمَ البُلغَاءُ والفُصَحاءُ[٢٧]
نُسِخت به التوراةُ وَهْيَ وضِيئةٌ   وتخلَّفَ الإنجيلُ وَهْوَ ذكاءُ[٢٨]
لمَّا تمَشَّى في «الحجاز» حكيمُه   فُضَّت «عكاظُ» به، وقام حِراءُ[٢٩]
أزرى بمَنطِق أهلِه وبيانِهم   وَحيٌ يُقَصِّرُ دُونه البُلغَاءُ[٣٠]
حسدوا، فقالوا: شاعرٌ، أو ساحرٌ   ومِنَ الحسودِ يكونُ الاستهزاءُ
قد نال «بالهادي» الكريم و«بالهدى»   ما لم تنَلْ من سُؤددٍ سَيْناءُ
أمسى كأنك من جلالك أمةٌ   وكأنَّهُ من أنسِهِ بَيداءُ
يوحَى إليك الفوزُ في ظلماتِه   متتابعًا، تُجلَى به الظَّلماءُ
دينٌ يُشيدُ آية في آيةٍ   لَبِنَاتُه السُّوراتُ والأضواءُ
الحق فيه هو الأساسُ، وكيف لا   والله جلَّ جلالُهُ البَنَّاءُ؟
أمَّا حديثُكَ في العقولِ فَمَشْرَعٌ   والعِلمُ والحِكَمُ الغوالي المَاءُ[٣١]
هو صِبغَةُ الفُرقانِ، نَفحَةُ قُدْسِه   والسيِّنُ من سُوراتِه والراءُ[٣٢]
جرَتِ الفصاحةُ من ينابيعِ النُّهَى   من دَوْحِهِ، وتفجَّرَ الإنشاءُ[٣٣]
في بحره للسابِحينَ به علَى   أدَبِ الحياةِ وعِلمِها إرساءُ
أتَت الدُّهُورُ على سُلافَتِه، ولم   تَفْنَ السُّلافُ، ولا سَلاَ النُّدماءُ[٣٤]

* * *

بكَ يا ابنَ عبدِ الله قامَت سَمحَةٌ   بالحقِّ من مِلَلِ الهُدَى غَرَّاءُ[٣٥]
بُنيَت على التوحيدِ، وهيَ حقيقةٌ   نادَى بهَا سُقرَاطُ والقُدماءُ
وجَدَ الزُّعافَ من السُّمومِ لأجلِها   كالشَّهدِ، ثم تتابَعَ الشهُدَاءُ
ومشىَ على وجهِ الزمانِ بنورِها   كُهَّانُ وادِي النيلِ والعُرفاءُ[٣٦]

إيزيسُ ذاتُ المُلكِ حين توحَّدَت ... أخـذَت قِـوامَ أمـورِهـا الأشـيـاءُ[٣٧]
لمَّـا دعَـوْتَ الـنـاسَ لبَّـى عـاقـلٌ ... وأصـمَّ مِـنـكَ الـجـاهـلِـيـن نِـداءُ
أبَوُا الْـخـروجَ إليك من أوهـامِـهـم ... والـنـاسُ فـي أوهـامِـهـم سُـجـنـاءُ
ومِـنَ الـعـقـولِ جـدَاولٌ وجَـلاَمِـدٌ ... ومِـنَ الـنـفـوسِ حـرائـرٌ وإمـاءُ[٣٨]
داءُ الجماعةِ مِن أرسطالِيسَ لم ... يُـوصَـف لـه حـتـى أتَـيـتَ دواءُ
فـرسَـمْـتَ بـعـدَك لـلـعـبادِ حـكـومـةً ... لا سـوُقـةٌ فـيـهَـا ولا أمَـراءُ
الـلـه فـوقَ الـخـلـقِ فـيـهَـا وَحـدَه ... والـنـاسُ تـحَـتَ لِـوائِـهـا أكـفـاءُ
والـدَّيـنُ يُـسْـرٌ، والـخِـلافـةُ بَـيـعَـةٌ ... والأمـرُ شُـورَى، والـحـقـوقُ قـضـاءُ
الاشـتـراكـيُّـون أنـتَ إمـامُـهـم ... لـولاَ دعـاوَى الـقـومِ والـغُـلَـواءُ[٣٩]
داوَيـتَ مُـتـئـدًا، ودَاوَوْا طَـفْـرَةً ... وأخـفُّ من بـعـضِ الدواءِ الـداءُ[٤٠]
الـحـربُ فـي حـقَّ لـدَيـك شـريـعـةٌ ... ومِـنَ الـسُّـمـومِ الـنـاقـعـاتِ دَواءُ[٤١]
والـبِـرُّ عـنـدكَ ذِمَّـةٌ، وفـريـضـةٌ ... لا مِـنَّـةٌ مَـمـنُـونَـةٌ وجَـبـاءُ[٤٢]
جـاءَت فـوحَّـدَتِ الـزَّكـاةُ سـبِـيلَـه ... حـتـى الـتَـقَـى الـكُـرَمـاءُ والـبُـخـلاَءُ
أنصَفْتَ أهلَ الفَقرِ من أهلِ الغنَى ... فـالـكـلُّ فـي حـقَّ الـحـيـاةِ سَـوَاءُ
فَـلَـوَ أن إنـسـانًـا تَـخـيَّـرَ مِـلَّـةً ... مـا اخـتـارَ إلا دِيـنَـكَ الـفـقـرَاءُ

***

يـأيُّـهـا الـمُـسـرَى بـه شَـرفًـا إلـى ... مـا لا تـنـالُ الـشـمـسُ والـجَـوْزاءُ[٤٣]
يتساءَلون — وأنتَ أطهرُ هيكلٍ: ... بـالـرُّوحِ أم بـالـهَـيـكَـلِ الإسـراءُ؟[٤٤]
بِـهـمـا سـمَـوْتَ مُـطَـهَّـرينِ، كـلاهـمـا ... نـورٌ، ورَيـحـانِـيَّـةٌ، وبَـهَـاءُ
فـضـلٌ عـلـيكَ لِـذي الـجَـلالِ ومِـنَّـةٌ ... والـلـهُ يـفـعَـلُ مـا يَـرَى ويَـشـاءُ
تغشى الغُيوبَ من العوالِمِ، كلَّما ... طُـويَـت سـمَـاءٌ قُـلِّـدَتـكَ سـمَـاءُ[٤٥]
فـي كـلَّ مِـنـطَـقَـةٍ حـواشِـي نـورِهـا ... نـونٌ، وأنـتَ الـنـقـطـةُ الـزهـراءُ
أنتَ الجمالُ بِها، وأنتَ المُجتلى ... والـكـفُّ، والـمِـرآهُ، والـحـسـنـاءُ
الـلـه هَـيَّـأَ مِـن حـظـيـرةِ قُـدسِـه ... نُـزُلاً لـذاتِـكَ لَـم يَـجُـزْهُ عـلاءُ
الـعَـرشُ تـحـتـكَ سُـدَّةٌ وقـوائِـمًـا ... ومَـنـاكـبُ الـروحِ الأمِـيـنِ وطـاءُ
والرُّسْلُ دُون العَرِش لَم يُؤذَنْ لهم ... حـاشـا لـغَـيـرِكَ مـوعـدٌ ولـقـاءُ

***

الخيلُ تأبَى غيرَ «أحمدَ» حاميًا ... وبها إذا ذُكِرَ اسمُهُ خُيَلاءُ
شيَخ الفَوارسِ يعلَمونَ مكانَه ... إنْ هَيَّجَت آسادَها الهَيجاءُ
وإذا تَصدَّى للظُّبى فمُهَنَّدٌ ... أو للرِّماحِ فصَعدَةٌ سمراءُ[٤٦]
وإذا رَمى عن قوسِه فيمينُه ... قَدرٌ، وما تَّرمِي اليَمِينُ قضاءُ
من كل داعِي الحقِّ هِمَّةُ سيفِه ... فِلسَيفِه في الرَّاسِياتِ مَضاءُ[٤٧]
ساقِي الجريحَ، ومُطعمُ الأسرَى، ومَنْ ... أمِنَت سَنابِكَ خَيلِه الأشلاءُ
إنَّ الشجاعةَ في الرجالِ غلاظةٌ ... ما لم تُزِنْهَا رأفَةٌ وسخَاءُ
والحربُ من شرَف الشعوب، فإن بغوْا ... فالمَجدُ ممَّا يدَّعون بَرَاءُ
والحربُ يبعَثُها القوِيُّ تجَبُّرًا ... ويَنوءُ تحتَ بَلائِها الضُّعفاءُ
كم مِن غَزاةٍ للرسولِ كريمَةٍ ... فيهَا رِضًى للحقَّ أو إعلاءُ
كانَت لجُند الله فيهَا شِدَّةٌ ... في إثرِها للعالِمين رَخاءُ
ضرَبُوا الضلالة ضربةً ذهبَت بهَا ... فعَلَى الجَهالِة والضلالِ عفَاءُ
دَعَموا على الحرب السلامَ، وطالما ... حقَنَت دِماءً في الزمانِ دِماءُ

***

الحقُّ عِرض الله، كلُّ أبَيَّةٍ ... بَين النفوسِ جمًى له وَوِقاءُ
هل كان حولَ محمدٍ من قومِه ... إلاَّ صَبِيٌ واحدٌ ونساءُ؟
فدَعَا، فلَبَّى في القبائلِ عُصبةٌ ... مُستَضعَفون، قلائلٌ، أنضاءُ[٤٨]
رَدُّوا ببَأسِ العَزمِ عنه من الأذَى ... ما لاَ تَرُدُّ الصخرَةُ الصمَّاءُ
والحقُّ والإيمانُ إن صُبَّا علَى ... بردٍ ففيه كَتِيبةٌ خرساءُ[٤٩]
نسفوا بناءَ الشَّركِ، فهو خرائبٌ ... واستأصلُوا الأصنامَ، فهي هَباءُ[٥٠]
يَمشون تُغضِي الأرضُ منهم هَيبةً ... وبِهم حِيالَ نعيمِها إغضاءُ
حتى إذا فُتِحَت لهم أطرافُها ... لم يُطِغهم تَرَفٌ ولا نَعماءُ

***

يا مَنْ لهُ عِزُّ الشفاعِة وَحْدَهُ ... وهُو المنَزَّهُ، ما له شُفعاءُ

عرشُ القيامَة أنتَ تحت لوائه ... والحْوضُ أنتَ حِيالهُ السَّقاءُ
تروي وتسقي الصالحِين ثوابَهم ... والصالحاتُ ذخائرٌ وجزاءُ
ألمثل هذا ذُقتَ في الدنيا الطوَى ... وانشقَّ مِن خَلَقٍ عليك رِداءُ؟
لي في مديحك يا رسُولُ عرائسٌ ... تيمْنَ فيك، وشاقهنَّ جَلاءُ[٥١]
هُنَّ الحسانُ، فإن قبلتَ تكرُّمًا ... فمُهورُهُنَّ شفَاعَةٌ حَسناءُ
أنتَ الذي نَظَم البريَّةَ دينُهُ ... ماذا يقول وَينَظم الشعُّراءُ؟
المُصِلحون أصابعُ جُمِعت يَدًا ... هي أنت، بَلْ أنت اليَدُ البيضاءُ
ما جئتُ بابكَ مادحًا، بل داعيًا ... ومن المديح تضرُّعٌ ودُعاءُ
أدعُوك عن قومي الضَّعافِ لأزمةٍ ... في مثلها يُلْقَى عليك رَجاءُ
أدَرى رسُولُ اللهِ أنَّ نفوسَهم ... رَكبَتْ هَواها، والقلوب هواءُ؟
مُتفكِّكون، فما تضمُّ نفوسَهم ... ثقَةٌ، ولا جَمع القلوبَ صفاءُ
رقَدُوا، وغرَّهُمُ نعيمٌ باطلٌ ... ونعيمُ قومٍ في القيُود بلاءُ

***

ظلمُوا شريعتَك التي نلنا بها ... ما لم ينل في رومةَ الفقهاءُ
مشتِ الحضارةُ في سَناها، واهتدى ... في الدَّين والدُّنيا بها السعداءُ
صلى عليك الله ما صحِب الدُّجى ... حادٍ، وحَنَّت بالفلا وَجْناءُ[٥٢]
واستقبل الرَّضْوانَ في غُرفاتِهم ... بجِنان عَدْنٍ آلُك السُّمحاءُ
خيرُ الوسائل، مَنْ يقع منهمُ على ... سَبب إليك فحسبِيَ «الزهراءُ»

هوامش

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملأ: الأشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال إنها شجرة نبق على يمين العرش.

(٣) الرُّبا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٤) الرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

(٥) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

(٦) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، وكل مَنْ كان على دين إبراهيم (عليه السلام)، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.

(٧) القعساء: المنيعة الثابتة.

(٨) تضوَّع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

(٩) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسمات.

(١٠) الخليل: إبراهيم (عليه السلام).

(١١) العذراء: السيدة مريم.

(١٢) خمدت النار: سكن لهيبها، والذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء، والمراد بالذوائب هنا ألسنة اللهب.

(١٣) تترى: تتوالى. وروَّاح، غدَّاء، أي يروح ويغدو.

(١٤) المخيلة: المظنة.

(١٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

(١٦) أياء الشمس وآياتها: نورها وحسنها.

(١٧) النوء: المطر.

(١٨) الضغن: الحقد.

(١٩) التحلُّم: تكلُّف الحلم.

(٢٠) الندِيّ: النادي.

(٢١) بنى بأهله: زُفَّ إليهم.

(٢٢) غضنفر: أسد. والنكباء: ريح بين ريحين.

(٢٣) سطا: جمع سطوة.

(٢٤) نضا السيف من غمده: سلَّه. والمهنَّد: السيف المطبوع من حديد.

(٢٥) دان به: اتَّخذه دِينًا.

(٢٦) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.

(٢٧) اللغى: جمع لغة.

(٢٨) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٢٩) حراء: الغار الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

(٣٠) أزرى به: عابه.

(٣١) مشروع: مورد.

(٣٢) الصبغة النوع.
(٣٣) الدوح: الشجر العظيم المتِّسع.
(٣٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.
(٣٥) السمحة: الملَّة التي ليس فيها ضيق.
(٣٦) العرَّاف: المنجم، والجمع عُرفاء.
(٣٧) إيزيس: من آلهة المصريين القدماء.
(٣٨) الجدول: النهر الصغير. والجلمود: الصخر.
(٣٩) الغلواء: الغلوُّ.
(٤٠) متئدًا: متأنيًا. وظفر: وثب.
(٤١) الناقعات: القاتلات.
(٤٢) البرُّ: الإحسان. وذمَّة: عهد، والمنَّة: العطيَّة، والمنونة: المتبوعة بالمَنِّ.
(٤٣) الإسراء: السير ليلاً.
(٤٤) الهيكل: الجسم والصورة والشخص.
(٤٥) غشي المكان يغشاه: أتاه.
(٤٦) الظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف. والصعدة: القناة المستوية.
(٤٧) مضى السيف مضاء: قطع.
(٤٨) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.
(٤٩) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
(٥٠) الهباء: الغبار.
(٥١) شاقة الحبُّ: هاجه.
(٥٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

صدى الحرب[1]

بسيفك يعلو الحقُّ، والحقُّ أغلَب   ويُنصَرُ دينُ الله أيَّانَ تَضربُ
وما السيفُ إلا آيةُ المُلكِ في الورى   ولا الأمرُ إلا للذي يتغلَّب
فأدِّبْ به القومَ الطُّغاةَ، فإنه   لَنعمَ المُربِّي للطغاةِ المؤدِّب
وداوِ به الدُّولاتِ من كلَّ دائها   فنعم الحسامُ الطبُّ والمُتطَبِّب[1]
تنامُ خطوبُ المُلك إن بات ساهرًا   وإن هو نام استيقظت تتألَّب
أمنَّا الليالي أن نُرَاع بحادثٍ   و(أرمينيا) ثكلى، و(حوران) أشيَبُ[2]
ومملكةُ (اليونانِ) محلولةُ العُرَى   رجاؤك يعطيها، وخوفُك يسلب
هدَدْت أميرَ المؤمنين كيانَها   بأسْطَعَ مثلِ الصبح لا يتكذَّب[3]
وما زال فجرًا سيفُ (عثمان) صادقًا   يُساريه من عالي ذكائكَ كوكب[4]
إذا ما صَدَعْتَ الحادثاتِ بحدِّه   تكشَّفَ داجي الخطبِ وانجاب غيْهب[5]
وهاب العدا فيه خلافَتك التي   لهم مأْربٌ فيها والله مأرب

هوامش

(١) المتطبب: المتعاطي علم الطب.

(٢) ثكلى مصابة ببنيها الذين نالهم صارم التأديب وتأديب الصارم. وأشيب: علاه الشيب، لكثرة ما أدب وأنب.

[1] في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

(٣) الخطاب للسلطان عبد الحميد. وكيانها: وجودها. وبأسطع: بسيف شديد السطوع.

(٤) معناه: لكل فجر كوكب يسايره ويصحبه، وفجر هذا السيف رأيك الوضاء، وما مُنِحت من نادر الذكاء.

(٥) الداجي: المظلم. وانجاب: انكشف. والغيهب: الظلام.

أبو أمير المؤمنين

سما بكَ يا (عبدَ الحميدِ) أبُوَّةٌ ... ثلاثون، حُضَّارُ الجلالة غُيَّب[1]
قياصرُ أحيانًا، خلائفُ تارةً ... خواقينُ طورًا، والفَخَار المقلَّب[2]
نجومُ سعودِ الملك، أقمارُ زُهْرِةِ ... لو آن النجومَ الزُّهرَ يجمعُها أب
تواصَوْا به عصرًا فعصرًا، فَزَاده ... مُعَمَّمُهم من هَيبةٍ والمُعصَّب[3]
همُ الشمسُ، لم تبرح سماواتِ عزَّها ... وفينا ضُحاها والشعاعُ المحبَّب

هوامش

(١) أبوة: آباء. وحضار وغيهب: جمع حاضر وغائب.

(٢) معناه: انفرادوا بأمر المسلمين فهم الخلفاء، واستوى عرشهم على الغرب والشرق فهم قياصر عظماء، وهم الخواقين (ملوك الترك).

(٣) معممهم: ذو العمامة منهم، وكذا المعصَّب هو أيضًا المتوَّج، والعمامة والعصابة والتاج مما لبس سلاطين آل عثمان.

الجلوس الأسعد

نهضتَ بعرشٍ ينهض الدهرُ دونه … خشوعًا، وتخشاه الليالي وترهَب
مَكِينٍ على متن الوجود، مُؤيَّدٍ … بشمسِ استواءٍ ما لها الدهرَ مغرب[1]
ترَقَّت له الأسواءُ، حتى ارتقيتَه … فقمتَ بها في بعضِ ما تتنكَّب[2]
فكنتَ كعين، ذاتِ جَرْيٍ، كمينةٍ … تفيض على مرَّ الزمانِ وتعْذُب
موكَّلةٍ بالأرضِ، تنسابُ في الثرى … فيحيا، وتجري في البلاد فُتخْصِب
فأحييتَ ميْتًا، دارسَ الرسم، غابرًا … كأنك فيما جئتَ عيسى المقرَّب[3]
وشدْتَ منارًا للخلافةِ في الورى … تشرَّقُ فيهم شمسُه، وتُغرَّب
سهرتَ، ونام المسلمون بغبطةٍ … وما يزعجُ النوامَ والساهرُ الأب؟
فنبَّهَنا الفتحُ الذي ما بفجرِهِ … ولا بك، يا فجرَ السلامِ، مُكذَّب

هوامش

(١) مكين: عظيم مرتفع. والمتن: الظهر.
(٢) الأسواء: جمع سوء، وهو كل ما يسوء. وتتنكب: تحمل.
(٣) الرسم: ما كان لاصقا بالأرض من آثار الدار. ودرس: أي بلى وعفا.

حلم عظيم وبطش أعظم

حُسامُك من سقراطَ في الخطب أَخْطَبُ ... وعودُك من عُود المنابر أَصْلَبُ[1]
وعزمُك من (هوميرَ) أمضى بديهةً ... وأجلى بيانًا في القلوب، وأعذب[2]
وإن يذكروا (إسكندرًا) وفتوحَه ... فعهدُك بالفتح المحجَّل أقرب[3]
ومُلكُك أرقى بالدليل حكومةً ... وأنفذُ سهمًا في الأمور، وأصوَب
ظهرتَ أميرَ المؤمنين على العدا ... ظهورًا يسوءُ الحاسدين ويُتعِب
سلِ العصرَ، والأيامَ، والناسَ: هل نَبا ... لرأيك فيهم، أو لسيفكَ مَضْرِب[4]
همُ مَلئُوا الدنيا جَهامًا، وراءَه ... جهامٌ من الأعوان أهذَى وأكذب[5]
فلمَّا استللْتَ السيفَ أَخْلَبَ برقُهم ... وما كنت، يا برقَ المنيَّةِ، تُخْلِب[6]
أخذتَهُمُ، لا مالكين لحَوْضِهم ... من الذَّوْدِ إلا ما أطالوا وأسهبوا
ولم يتكلَّف قومُك الأسْدُ أهبةً ... ولكنَّ خُلْقًا في السباعِ التأهُّب
كذا الناسُ: بالأخلاق يبقى صلاحُهم ... ويذهبُ عنهم أمرُهم حين تذهب
ومن شرف الأوطان ألا يفوتَها ... حسامٌ مُعِزٌّ، أو يَراعٌ مهذَّب

هوامش

(١) سقراط: خطيب اليونان وحكيمها المشهور.
(٢) هومير: أكبر شعراء اليونان الأقدمين.
(٣) المحجل: المضيء المشرق.
(٤) نبا السيف عن الضربة: كلَّ، وارتدَّ.

(٥) الجهام: السحاب العظيم الذي لا ماء فيه. وهذى في الكلام: أكثر منه في خطأ.

(٦) أخلب برقهم: بطل وعيدهم. وتخلَّب، أي تخدَّع.

معجزات الجنود على الحدود

ملكتَ سَبيلَيْهِمْ: ففى الشرق مَضْرِبٌ ... لجيشك ممدودٌ، وفي الغرب مَضْرب[1]

ثمانون ألفًا أسدُ غابٍ ضَراغِمٌ ... لها مِخْلبٌ فيهم، وللموتِ مخلب

إذا حَلمتْ فالشرُّ وسْنانُ حالمٌ ... وإن غضبتْ فالشرُّ يقظانُ مُغضب

فَيالِقُ أفشى في البلاد من الضُّحى ... وأبعدُ من شمس النهار وأقرب[2]

وتُصبِح تلقاهم، وتُمسي تصدُّهم ... وتظهر في جِدَّ القتال وتلعب

تلوح لهم في كلَّ أفقٍ، وتعتلي ... وتطلع فيهم من مكانٍ، وتغرب

وتُقدِم إقدامَ الليوثِ، وتنثني ... وتُدبِرُ علمًا بالوغى، وتُعَقِّب[3]

وتملكُ أطرافَ الشعاب، وتلتقي ... وتأخذُ عفوًا كلَّ عالٍ، وتغصِب[4]

وتغشى أبيَّاتِ المعاقل والذُّرا ... فثيبُهُنَّ البِكْرُ، والبكْرُ ثيِّب[5]

يقودُ سراياها، ويحمي لواءَها ... سديدُ المرائي في الحروبِ، مُجرَّب[6]

يجيءُ بها حينًا، ويرجعُ مرةً ... كما تَدفعُ اللجَّ البحارُ وتَجْذِب[7]

ويرمي بها كالبحر من كلُ جانبٍ ... فكلُّ خميسٍ لجةٌ تتضرب[8]

وينُفذُها من كلَّ شعب، فتلتقي ... كما يتلاقى العارضُ المتشعَّب[9]

ويجعلُ ميقاتًا لها تَنبري له ... كما دار يَلْقَى عقرَبَ السَّيْرِ عقرب[10]

فظلت عيونُ الحرب حَيْرَى لما ترى ... نواظرَ ما تأتي الليوثُ وتُغرِب[11]

تبالغ بالرامي، وتزهو بما رمى ... وتعجَبُ بالقُوَّاد، والجنُد أعجب[12]

وتُثني على مُزْجِي الجيوشِ (بيلدزٍ) ... ومُلْهِمِها فيما تنال وتكسِب[13]

وما الملك إلا الجيش شأنًا ومظهرًا ... ولا الجيشُ إلا رَبُّهُ حين يُنسب

هوامش

(١) مضرب: فسطاط عظيم.

(٢) الفيلق: الجيش العظيم، والجمع فيالق.

(٣) أدبر: ولَّى. وتعقب: أي تعود.

(٤) الشعاب: جمع شعب، وهو الطريق في الجبل.

(٥) الأبيَّات: جمع أبيَّة، وهي التي لا ترضى الدنية كبرًا. والمعقل: الملجأ. والذرا. الأمكنة المرتفعة. والثيب: نقيض البكر.

(٦) السرايا: جمع سريَّة، وهي القطعة من الجيش. والمرائي: جمع مرأى، وهو المنظر.

(٧) اللج: معظم الماء.

(٨) الخميس: الجيش.

(٩) ينفذها: يسيرها. والشعب: الطريق في الجبل. والعارض المتشعب: السحاب المتفرق.

(١٠) انبرى له: اعترض.

(١١) أغرب الرجل: أتى بشيء غريب.

(١٢) زها: تاه وتكبَّر.

(١٣) أزجى الجيش: ساقه.

زينب بني عثمان

تُحذِّرني من قومِها التُّركِ زَيْنَبُ وتُعجِمُ في وصف الليوثِ وتُعرِبُ
وتُكْثِرُ ذكرَ الباسلين، وتنثني بعزٍّ على عزَّ الجمال، وتُعجِب
وتسحبُ ذيلَ الكبرياءِ، وهكذا يتَيهُ ويختالُ القويُّ المغلَّب
وزينُب إن تاهت وإن هي فاخرت فما قومُها إلا العَشِيرُ المحبَّب[1]
يؤلِّف إيلامُ الحوادثِ بيننا ويجمعُنا في الله دينٌ ومذهب
نما الوُدُّ حتى مَهَّد السبْلَ للهوى فما في سبيل الوصل ما يُتصّعَّب
ودانى الهوى ما شاءَ بيني وبينها فلم يبق إلا الأرضُ، والأرضُ تقرب[2]

هوامش

(١) العشير: القبيلة.
(٢) دانى: قارب.

الحالة في بحر الروم

ركبتُ إليها البحرَ، وهو مَصِيدةٌ   تُمَدُّ بها سفْنُ الحديد، وتُنصَب[1]
تروح المنايا الزُّرْقُ فيه، وتغتدي   وما هي إلا الموجُ يأتي، ويذهب
وتبدُو عليه الفلكُ شتَّى، كأنها   بُئُوزٌ تراعيها على البعد أعقُب[2]
حواملُ أعلامِ القياصِر، حُضرٌ   عليها سلاطينُ البريَّةِ، غُيَّب
تُجَارِي خُطاها الحادثاتِ وتقتفي   وتطفو حواليها الخطوبُ، وترسُب[3]
ويوشِك يجري الماءُ من تحتها دمًا   إذا جَمَعَتْ أثقالَها تترقَّب
فقلت: أأشراطُ القيامة ما أرى   أم الحربُ أدنى من وَريدِ وأقرب؟[4]
أمانًا أمانًا لُجَّةَ الرَّومِ للورى   لو آن أمانًا عند دأماءَ يُطلَب[5]
كأني بأحداثِ الزمانِ مُلِمَّةً   وقد فاض منها حوضُكِ المتضرب
فأزْعِجَ مَغْبُوطٌ، ورُوِّع آمنٌ   وغالَ سلامَ العالمين التعصُّب
فقالت: أطلتَ الهمَّ، للخلق ملجأٌ   أبرُّ بهم من كلَّ بَرَّ وأحدب[6]
سَلامُ البرايا في كلاءَةِ فَرْقَدٍ   (بيلدزَ) لا يغفو، ولا يتغيَّبُ[7]
وإن أميرَ المؤمنين لوابلٌ   من الغوثِ، مُنْهَلٌ على الخلقِ، صَيَّب[8]
رأى الفتنةَ الكبرى، فوالى انهمالَه   فبادت، وكانت جمرةً تتلهَّب[9]

هوامش

(١) مصِيدة ومصيْدة: بمعنى واحد، وهي ما يصاد به.
(٢) بئوز: جمع باز. وأعقب: جمع عقاب، وكلاهما من جوارح الطير.
(٣) اقتفى أثره: تبعه.

(٤) الأشراط: جمع شرط، وهو العلامة.
(٥) لجة الروم: بحر الروم، والدأماء: البحر.
(٦) أحدب: من الحدب، وهو التعطُّف.
(٧) كلاءة: أي حفظ.
(٨) الغوث: الإسعاف. والوابل: المطر الشديد. والصيب: السحاب.
(٩) الانهمال: دوام الانسكاب.

منعة السواحل العثمانية

فما زلتُ بالأهوالِ حتى اقتحمْتُها … وقد تُرْكبُ الحاجاتُ ما ليس يُرْكَب[١]
أخوض الليالي من عُبابٍ، ومن دُجًى … إلى أفقٍ فيه الخليفةُ كوكب[٢]
إلى مُلكِ عثمانَ الذي دونَ حوضه … بناءُ العوالي المشمخِرُّ المُطَنَّب[٣]
فلاح يناغي النجمَ صَرْحٌ مثقَّبٌ … على الماءِ، قد حاذاه صَرْحٌ مُثقب
بروجٌ أعارتها المَنونُ عيونَها … لها في الجواري نظرةٌ لا تُخَيَّب
رواسي ابتداعٍ في رواسي طبيعةٍ … تكادُ ذراها في السحاب تغيَّب
فقمتُ أجيلُ الطَّرْف حيران قائلاً: … أهذي ثغورُ الترك أم أنا أحسب؟
فمثلَ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مشرقٌ … ومثلَ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مغرب
تَظَلُّ مَهولاتُ البوارج دونَهُ … حوائرَ، ما يدرين ماذا تخرَّب؟
إذا طاش بين الماءِ والصخر سهمُها … أتاها حديدٌ ما يطيشُ، وأسرب[٤]
يُسدَّده عزريلُ في زِيٍّ قاذفٍ … وأيدي المنايا، والقضاءُ المُدرَّب
قذائفُ تخشى مُهْجَةُ الشمس كلَّمَا … عَلَتْ مُصْعِداتٍ، أنها لا تُصَوَّب[٥]
إذا صُبَّ حاميها على السفن انثنت … وغانمُها الناجي، فكيف المخيَّب؟
سلِ الرُّومَ: هل فيهنَّ للفلك حيلةٌ؟ … وهل عاصِمٌ منهنَّ إلا التنكُّب؟[٦]
تذبذبَ أسْطولاهُمُ فدعتهُما … إلى الرُّشدِ نارٌ ثَمَّ لا تَتَذبذب
فلا الشرْق في أسطوله مُتقي الحِمى … ولا الغرْبُ في أسْطوله مُتهيَّب

هوامش

(١) اقتحم الهول: رمى نفسه فيه بشدة.

(٢) الدجى: الظلمة.

(٣) العوالي: الرماح. والمشمخر: العالي. والمطنب. المشدود بالأطناب.

(٤) الأسرب: الرصاص.

(٥) معناه: إذا ارتفعت هذه القنابل خشيت الشمس أن تخطئ هدفها وأن تستمر صاعدة فتصيب مهجتها.

(٦) الضمير في «فيهن» و«منهن» راجع للقنابل. والتنكُّب: العدول والتجنُّب.

زينب المتطوِّعة في موقعة

وما راعَني إلاَّ لَواءٌ مُخضَّبٌ ... هنالك يَحميه بَنانٌ مُخَضَّبُ[١]
فقلتُ: من الحامِي؟ أليثٌ غضنفرٌ ... من الترْك ضارٍ، أم غزال مُربَّب؟[٢]
أم الملكُ الغازي المجاهدُ قدْ بَدا ... أم النجمُ في الآرام، أم أنت زَينب؟
رفْعتِ بنات التركِ، قالت: وهل بنا ... بناتِ الضواري أن نَصول تَعَجُّب؟
إذا ما الديار استرخت بدرتْ لها ... كرائمُ منا بالقَنا تتنقَّب
تقرَّبُ ربَّاتُ البعُولِ بعولَها ... فإن لم يكُنْ بعْلٌ فنفسًا تُقَرَّب[٣]
ولاحتْ بآفاقِ العدُوِّ سَرِيَّةٌ ... فوارسُ تبْدُو تارةً، وتَحجَّب
نواهضُ في حَزْنٍ كما تنهضُ القَطا ... رواكِضُ في سَهل كما انساب ثعْلب[٤]
قليلون من بُعدٍ، كثيرون إن دنْوا ... لهم سَكَنٌ آنًا، وآنًا تَهيُّب
فقالت: شهدتَ الحرب أو أنتَ مُوشِك ... فَصِفْنَا، فأنتَ الباسلُ المتأدّب
ونادت، فلبَّى الخيلُ من كل جانبٍ ... ولبَّى عليها القَسْوَرُ المترقّب[٥]
خِفافًا إلى الداعي، سِراعًا، كأنما ... من الحرب داعٍ للصلاة مُثَوَّب
مُنيفين من حول اللواءِ، كأنهم ... له معِقلٌ فوقَ المعاقل أغلب
وما هي إلا دعوةٌ وإجابةٌ ... أن التحمت، والحربُ بَكْرٌ وتَغْلِب[٦]
فأبصرتُ ما لم تُبصرا من مَشاهدٍ ... ولا شهدَت يومًا مَعَدّ ويَعْرُب

هوامش

(١) اللواء المخضَّب: هو الراية العثمانية الحمراء. ويحميه بنان مخضب: أي أنثى مخضوبة البنان.

(٢) ربب الصبي: ربَّاه حتى أدرك.

(٣) البعل: الزوج.

(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٥) القسور: الأسد، والمراد به فارس الترك.

(٦) بكر وتغلب: قبيلتان لم تقف بينهما العداوة عند حدٍّ؛ فتشبيه المقاتلين بهما جيد.

مضيق ملونا

جبالَ (ملونا)، لا تخوري وتجزعي ... إذا مال رأسٌ، أو تضعضع منكب
فما كنتِ إلا السيفَ والنارَ مركبًا ... وما كان يستعصي على الترك مركَب
عَلَوْا فوق علياءِ العدوَّ، ودونه ... مَضيقٌ كحلق الليث، أو هو أصعب
فكان صراط الحشر، ما ثَمَّ ريبةٌ ... وكانوا فريقَ الله، ما ثَمَّ مُذنِب
يَمرُّونَ مَرَّ البرقِ تحت دُجُنَّةٍ ... دُخانًا، به أشباحُهم تتجلبب[1]
حثيثين من فوق الجبال وتحتها ... كما انهارَ طَوْدٌ، أو كما انهال مِذنَب[2]
تُمِدُّهُمُ قُذَّافُهم ورُماتُهم ... بنارٍ كنيران البراكين تدأب
تُذرَّى بها شُمُّ الذُّرا حين تعتلي ... ويسفحُ منها السفْحُ إذ تتصبب[3]
تُسمَّر في رأسِ القِلاع كُراتُها ... ويسكن أعجازَ الحصونِ المُذَنَّب[4]
فلمَّا دجى داجي العَوانِ وأطبقت ... تبلَّج والنصرَ الهلالُ المحجَّب[5]
ورُدَّت على أعقابها الرومُ، بعد ما ... تناثر منها الجيش، أو كاد يذهب
جناحين في شِبه الشبَاكيْن من قنا ... وقَلْبًا على حَرَّ الوغى يتَقلَّب
على قُلَل الأجبالِ حَيْرَى جموعُهم ... شواخصُ، ما إن تهتدي أين تذهب؟[6]
إذا صعدت، فالسيفُ أبيضُ خاطِفٌ ... وإن نزلتْ، فالنارُ حمراءُ تَلهب
تطوَّعَ أسرًا منهمُ ذلك الذي ... تَطَوَّع حربًا، والزمانُ تَقلُّب
وتمَّ لنا النصر المبين على العِدا ... وفَتْحُ المعالي، والنهارُ المذهَّب
فجئتُ فتاةَ التركِ أجزي دِفاعَها ... عن المُلكِ والأوطانِ ما الحقُّ يُوجِب
فقبَّلتُ كفًّا كان بالسيفِ ضاربًا ... وقبَّلتُ سيفًا كان بالكفَّ يضرب

وقلتُ: أفي الدنيا لقومِكِ غالِبٌ   وفي مثل هذا الحِجْر رُبُّوا وهذِّبوا؟
رويْدًا بني عثمان في طلب العلا   وهيهاتَ، لم يستبقَ شيءٌ فيُطلب
أفي كلَّ آنٍ تغرسون، ونجتني   وفي كل يومٍ تفتحون، ونكتُب؟
وما زلتُمْ يسقيكمُ النصرُ خمرَهُ   وتسقونه، والكلُّ نشوان مصأَب[٧]
إلى أن أحلَّ السُّكْرَ مَنْ لا يُحلُّه   ومدَّ بساطَ الشَّربِ مَنْ ليس يشرَب

هوامش

(١) أي تحت ظلمة من الدخان تختفي بها أشباحهم.

(٢) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والمعنى: كما انقض جبل، أو انحط سيل.

(٣) تذرَّى: من التذرية، وهي الإطارة والإثارة. والذرا: جمع ذروة وهي أعلى الشيء. والشمُّ: جمع شمَّاء، وهو الارتفاع. ويسفح: ينصب. والسفح: عرض الجبل المضطجع.

(٤) المذنب: ذو الذنب من القنابل الكبيرة.

(٥) العوان: الحرب الشديدة.

(٦) القلة: أعلى الرأس.

(٧) المصاب: من شرب حتى ارتوى.

الحاج عبد الأزل باشا

وأشـمَـطَ سَـوَّاسِ الـفـوارسِ أشـيْـبُ
يسيرُ به في الشَّعب أشمَطُ أشيبُ[1]
رَفـيـقـا ذهـابٍ فـي الـحـروب وجَـيئـةٍ
قد اصطحبا، والـحُـرُّ للحُـرَّ يصحَب
إذا شـهـداهـا جـدَّدا هِـزَّة الـصِّـبـا
كـمـا يـتـصـابَـى ذو ثـمـانـيـنَ يـطـرب
فـيـهـتـزُّ هـذا كـالـحـسـام، ويـنـثـنـي
ويـنـفـر هـذا كـالـغـزال، ويـلـعـب
توالـى رصـاصُ المطِـلقين عليهما
يُـخـضَّـل مـن شـيـبـهـمـا ويُـخـضِّـب
فـقـيـل: أنِـلْ أقـدامَـكَ الأرضَ، إنـهـا
أبـرُّ جـوادًا إن فـعـلـتَ وأنـجـب
فـقـال: أيـرضـى واهـبُ الـنـصـر أنـنـا
نـمـوت كـمـوتِ الـغـانـيـاتِ ونـعـطَـب؟
ذرونـي وشـأنـي والـوغَـى، لا مـبـالـيًـا
إلى الموت أمشي، أم إلى الموت أركب؟
أيـحـملـنِـي عُـمْـرًا، ويـحـمـي شـبـيـبـتـي
وأخــذُلُــه فــي وهْــنِــه وأخــيِّــب؟[2]

إذا نحن متنا فادفنونا ببقعةٍ
يظلُّ بذكرانا ثراها يُطيَّب
ولا تعجبوا أن تبسل الخيلُ، إنها
لها، مثلُ ما للناسِ، في الموت مَشرَب[٣]
فماتا أمامَ اللهِ موتَ بسالةٍ
كأنهما فيه مِثالٌ منصَّب[٤]
وما شهداءُ الحربِ إلا عمادُها
وإن شَيَّدَ الأحياءُ فيها وطنَّبوا[٥]
مِدادُ سِجلِّ النصرِ فيها دِماؤهم
وبالتِّبر من غالي ثَرَاهُم يُتَرَّب[٦]
فهل من (ملونا) موقفٌ ومَسامِعٌ
ومن جبليها منبرٌ لي فأخطب؟
فأسأل حِصْنيْها العجيبين في الورى
ومدخلَها الأعصى الذي هو أعجب؟
وأستشهِد الأطوادَ شماءَ، والذرا
بَوَاذِخَ، تُلْوِي بالنجوم وتجذب؟[٧]
هل البأس إلا بأسُهم وثباتُهم؟
أو العزمُ إلا عزمُهم والتلبُّب؟[٨]
أو الدينُ إلا ما رأت من جهادهم؟
أو المُلكُ إلا ما أعزُّوا وهَيَّبوا؟[٩]
وأيُّ فضاءٍ في الوَغى لم يُضَيِّقوا؟
وأيُّ مضيق في الورى لم يُرحَّبوا؟
وهل قبلهم مَنْ عانقَ النارَ راغبًا
ولو أنه عَبَّادُها المترهِّب؟
وهل نال ما نالوا من الفخر حاضرٌ؟
وهل حُبِيَ الخالون منه الذي حُبوا؟[١٠]
سلامًا (ملونا)، واحتفاظًا، وعصمةً
لمن بات في عالي الرضى يتقلب
وضِنَّي بعظمٍ في ثراك مُعظَّمٍ
يُقرِّبه الرَّحمنُ فيما يُقرَّب

هوامش

(١) الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد، والمراد بالأول: الفارس وبالثاني: فرسه.

(٢) الوهن: الضعف، والمعنى: ليس من الوفاء، ولا من حسن الجزاء أن يكون نصيبه مني في شيبه الترك والخذلان، وقد كان نصيبي منه الصبر على الأهوال، والمعاناة على القتال.

(٣) تبسل: تشجع.

(٤) منصب: مرفوع.

(٥) طنب البيت: شدَّه بالأطناب، وهي الحبال.

(٦) السجل: كتاب العهد، أو الحكم. وترَّب الكتابة: وضع عليها التراب لتجف.

(٧) الشماء: المرتفعة. والبواذخ: من بذخ الجبل أي طال. وألوى بثوبه أو يده: أشار بها.

(٨) التلبُّب: من تلبب الرجل للحرب، أي تحزَّم وتشمَّر لها.

(٩) هيَّبه: صيَّره مهيبًا.

(١٠) حباه الشيء: أعطاه إياه.

هزيمة طرناو

و(طرناوُ) إذ طارَ الذهولُ بجيشها
وبالشَّعب فوضى في المذاهب يذهب
عَشِيَّةَ ضاقت أرضُها وسماؤها
وضاق قضاءٌ بين ذاك مُرَحَّب
خَلَتْ من بني الجيش الحصونُ، وأقفرت
مساكنُ أهليها، وعمَّ التخرُّب[1]
ونادى منادٍ للهزيمة في المَلا
وإنَّ مُنادي التُّركِ يدنو ويقرب
فأعرضَ عن قُوَّاده الجندُ شاردًا
وعلَّمه قُوَّادُه كيف يهرب
وطار الأهالي، نافرين إلى الفَلا
مئينَ وآلافًا تَهِيمُ وتسرُب[2]
نَجَوْا بالنفوس الذاهِلاتِ، وما نَجَوْا
بغير يَدٍ صِفْر، وأخرى تقلب
وطالت يَدٌ للجمع في الجمع بالخنا
وبالسلبِ، لم يَمْدُدْ بها فيه أجنَب[3]
يسير على أشلاءِ وِالده الفتى
ويَنْسَى هناك المُرْضَعَ الأمُّ والأب[4]

وتمضي السرايا واطئاتٍ بخيلها
أراملَ تبكي، أو ثواكلَ تندب
فمِنْ راجلٍ تَهوي السَّنون برجِله
ومِنْ فارسٍ تمشي النساءُ، ويرَكب[٥]
وماضٍ بمالٍ قد مضى عنه وَأْلُهُ
ومُزْجٍ أثاثًا بين عينيه يُنهَب[٦]
يكادون من ذُعرٍ تفرُّ ديارهم
وتنجو الرواسي لو حَوَاهُنَّ مَشعب[٧]
يكاد الثرى من تحتِهم يَلجُ الثرى
ويَقضِم بعضُ الأرضِ بعضًا ويقضِب[٨]
تكادُ خُطاهم تسبق البرقَ سرعةً
وتذهب بالأبصار أيَّان تذهب
تكاد على أبصارهم تقطع المدى
وتنفذ مرماها البعيدَ وتحجُب[٩]
تكاد تمسُّ الأرضَ مَسًّا نِعالُهم
ولو وجدوا سُبْلاً إلى الجو نكَّبوا[١٠]
هزيمة من لا هازمٌ يستِحثُّه
ولا طاردٌ يدعو لذاك ويوجب
قعدنا، فلم يعدمْ فتى الروم فَيْلَقًا
من الرعب يغزوه، وآخرَ يسلُب
ظفرنا به وجهًا، فظنَّ تعقُّبًا
وماذا يزيد الظافرين التعقُّب؟
فولَّى، وما ولَّى نظامُ جنودِه
ويا شؤْمَ جيشٍ للفرار يُرتِّب
يسوق ويَحْدو للنجاةِ كتائبًا
له موكب منها، وللعار موكب
منظمة من حوله، بَيْدَ أنها
تودُّ لو انشقَّ الثرى فتُغيَّب

مـؤزرة بـالـرُّعـب، مـلـدوغـة بـه
ففي كل ثوبٍ عقرب منه تَلْسِب[11]
ترى الخيل من كلّ الجهاتِ تَخَيُّلاً
فـيـأخـذ مـنـهـا وهْـمُـهـا والـتـهـيُّـب
فمِن خلفِها طورًا، وحينًا أمامها
وآونـةً مـن كـلَّ أوْبٍ تَـألـب[12]
فوارسُ في طولِ الجبالِ وعرْضِها
إذا غابَ منهم مِقْنَبٌ لاح مِقْنَب[13]
فمهما تهِمْ يسنحْ لها ذو مُهنَّدٍ
ويخرجْ لها من باطن الأرض مِحْرَب[14]
وتَنْزلْ عليها من سماءِ خيالِها
صواعُق فيهنَّ الردى المُتَصبِّب
رُؤَى إن تكن حقًّا يكنْ من ورائِها
ملائكةُ الله الذي ليس يُغلب[15]

هوامش

(١) بني: جمع بِنْيَة، بكسر الباء، وهي البنيان، والمراد بها هنا: القلاع والثكنات.

(٢) تسرَّب: من سرب الرجل في الأرض، إذا ذهب على وجهه فيها ومضى.

(٣) معناه: تعدَّى بعضهم على بعض بالفحش والسب. والأجنب: الأجنبي، والمراد: الترك.

(٤) أشلاء: جمع شلو، وهي أعضاء الإنسان بعد البلى والتفرُّق.

(٥) الراجل: الماشي على رجليه. وتهوي السنون برجله: أي تزلُّ به القدم من ثقل وطأة الهرم.

(٦) الوأل: الملجأ. مزج: من أزجاه، بمعنى ساقه ودفعه برفق. الأثاث: متاع البيت.

(٧) الذعر: الخوف الشديد. والرواسي: الجبال. والمشعب: الطريق.

(٨) يلج: يدخل. ويقضم ويقضب: يقطع.

(٩) مدى البصر: منتهاه وغايته. وتنفذ مرماها: تبلغه وتتجاوزه.

(١٠) نكبوا: مالوا.

(١١) أرزه: غطاه وقواه. وتلسب: أي تلدغ.

(١٢) تألب: من التأليب، وهو التجمُّع. والأرب: الناحية.

(١٣) أي يجسمها لهم الويل فيرونها كذلك. والمقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.

(١٤) المحرب: الشجاع الشديد في الحرب.

(١٥) الرؤى: جمع رؤيا، وهي المنام.

التلاقي سهل فرسالا

و(فرسالُ) إذ باتوا وبتنا أعادِيًا   على السهل لُدًّا، يرقبون، ونرقب[1]
وقام فتانا الليلَ يَحْمِي لواءَه   وقامَ فتاهم ليلَه يتلعَّب
توسَّدَ هذا قائِمَ السيفِ يَتَّقي   وهذا على أحلامِه يتحسَّب[2]
وهل يستوي القِرنان: هذا مُنعَّمٌ   غَرِيرٌ، وهذا ذو تجاريبَ قُلَّب؟[3]
حمينا كِلانا أرض (فِرسالَ) والسما   فكلٌّ سبيل بين ذلك مَعْطَبُ[4]
ورُحنا يَنهُبُّ الشرُّ فينا وفيهمُ   وتَشْمُل أرواحُ القتال وتجنُب[5]
كأنا أسُودٌ رابضاتٌ، كأنهم   قطيعٌ بأقصى السهل، حيران، مُذنِب[6]
كأنا خيام الجيش في السهل أينُق   نواشِزُ، فوضى، في دجى الليل شُزَّب[7]
كأن السرايا ساكناتٍ موائجًا   قطائعُ، تعطىَ الأمنَ طورًا، وتُسْلَب[8]
كأن القَنا دون الخيام نوازلا   جداولُ، يُجريها الظلامُ، ويسكب[9]
كأن الدُّجى بحر إلى النجم صاعد   كأن السرايا موجهُ المتضرَّب
كأن المنايا في ضمير ظلامِه   همومٌ بها فاض الضمير المحجَّب
كأنَّ صهيل الخيل ناعٍ مبشرٌ   تراهنَّ فيها ضُحَّكًا وهي نُحَّب[10]
كأن وجوه الخيل غُرًّا وسيمةً   دَرارِيُّ ليل طُلَّعٌ فيه ثُقَّب[11]
كأن أنوف الخيل حَرَّى من الوغى   مجامرُ في الظلماءِ تهْدا وتلهب[12]
كأن صدور الخيل غُدْرٌ على الدُّجى   كأن بقايا النضح فيهن طُحْلُب[13]
كأن سَنى الأبواق في الليل برقُه   كأن صداها الرعدُ للبرق يصحب
كأن نداءَ الجيش من كل جانبٍ   دويُّ رياح في الدجى تتذأب[14]

كأن عيون الجيش من كل مذهب   من السهل جنٌّ جُوَّلٌ فيه جُوَّب[١٥]
كأن الوغى نارُ، كأن جنودنا   مجوسٌ إذا ما يَمَّموا النار قَربوا[١٦]
كأن الوغى نار، كأن الردَى قِرًى   كأن وراءَ النار حاتِمَ يأدِب[١٧]
كأن الوغى نار، كأن بنِي الوغى   فَراشٌ، له في ملمس النار مأرَب
وثبْنا يضيق السهل عن وثباتنا   وتقدُمُنا نارٌ إلى الروم أوْثَب
مشت في سراياهم، فحلَّت نظامَها   فلمَّا مشيْنا أدبرتْ، لا تُعقَّب

هوامش

(١) اللدُّ: جمع الألد، وهو الشديد الخصومة.

(٢) يتحسب: يتوسد.

(٣) القرن: النظير المقاوم. والغرير: العديم الخبرة. والقلب: المحتال البصير بتقلُّب الأمور.

(٤) معطب: مهلك.

(٥) تشمل: من شملت الريح، أي هبَّت شمالاً. وجنبت: هبَّت جنوبًا.

(٦) القطيع: الطائفة من الغنم. وأذأب القطيع: فزع من الذئب، فهو مذئب.

(٧) الأينق: جمع ناقة. ونواشز: مرتفعة. وشرب: متفرقة.

(٨) القطائع: جمع قطيعة، وهي هنا ما قُطِعَ من الجيش.

(٩) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

(١٠) نحَّب: أي منتحبات باكيات.

(١١) ثقب النجم: أضاء. والدراري: النجوم الثواقب.

(١٢) المجامر: جمع مجمر، وهو ما يوضع فيه الجمر.

(١٣) الغدر: جمع غدير. والطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن. والنضح: رشاش الماء.

(١٤) تتذأب الريح: تجيء مرة كذا ومرة كذا.

(١٥) عيون الجيش: أرصاده وجواسيسه.

(١٦) قربوا الله: قدَّموا له القربان.

(١٧) القرى: ما قُرِي به الضيف، أي قدم له، وحاتم: هو حاتم الطائي المضروب به المثل في الجود.

غصب دوموقو

رأى السهلُ منهم ما رأى الوعرُ قبله
فيا قوم، حتى السهلُ في الحرب يصعبُ؟
وحصن تسامى من (دموقو)، كأنه
مُعَشَّش نسرٍ، أو بهذا يلقب
أشمٌّ على طَوْدٍ أشمَّ، كلاهما
مَنون المُفاجى، والحِمامُ المرحِّب
تكاد تقاد الغاديات لربَّه
فيُزْجِي، وتَنزَمٌّ الرياحُ فيركب[1]
حمَته ليوثٌ من حديدٍ تركَّزت
على عَجَل، واستجمعتْ تترقب
تثور وتستأْني، وتنأى وتَدَّنىتأبَّى،
وتغدو بما تغدي، وترمي وتنشب[2]
فظنَّ العالمونَ استحالةً
وأعيا على أوهامِهم، فتريَّبوا[3]
فما في القوى أن السمواتِ تُرْتَقى
بجيشٍ، وأن النجم يُغْشى فيُغضب[4]
سموتمْ إليه، والقنابلُ دونه
وشهبُ المنايا، والرصاص المُصَوَّب

فكنتم يواقيتَ الحروبِ كرامةً
على النار، أو أنتم أشدُّ وأصلَب[٥]
صعدتم، وما غيرُ القنا ثَمَّ مَصعدٌ
ولا سُلَّمٌ إلا الحديدُ المذرب[٦]
كما ازدحمتْ بيزان جَوٍّ بمَوْرِدٍ
أو ارتفعت تلْقىَ الفريسةَ أعقب[٧]
فما زلتمُ حتى نزلتم بُروجَه
ولم تحتضرْ شمس النهار فتغربُ
هنالك غالى في الأماديح مَشرقٌ
وبالغ فيكم آلَ عثمان مَغرِب
وزيدَ حمى الإسلام عزًّا ومَنْعةً
ورُدَّ جِماحُ العصر، فالعصر هَيَّب
رفعنا إلى النجم الرءُوس بنصركم
وكنا بحكم الحادثاتِ نصوَّب
ومَنْ كان منسوبًا إلى دولةِ القنا
فليس إلى شيءٍ سوى العِزِّ يُنْسَب

هوامش

(١) الغاديات: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. ويزجي: يسوق. وتنزمُّ: تزمُّ بزمام.

(٢) استأنى: انتظر. وأدنى: اقترب.

(٣) تأبى: امتنع. وتريبوا: تخوَّفوا.

(٤) يغضب (على البناء للمجهول): يصاب بالغضاب، وهو القذى في العين.

(٥) يقال: إن الياقوت لا يحترق بالنار.

(٦) الحديد المذرب: المسموم، وذرب السيف: حدُّه

(٧) البيزان: جمع باز. والأعقب: جمع عقاب، وهما من جوارح الطير.

أحلام اليونان

فيا قوم، أين الجيش فيما زعمتُمُ؟ وأين الجواري، والدفاعُ المركَّب؟[١]
وأين أميرُ البأسِ والعزمِ والحِجى؟ واين رجاءٌ في الأمير مُخيَّب؟
وأين تُخومٌ تستبيحون دَوْسَها؟ وأين عصاباتٌ لكم تتوثَّب؟[٢]
وأين الذي قالت لنا الصحْفُ عنكم واسند أهلوها إليكم فأطنبوا؟
وما قد روى بَرْقٌ من القولِ كاذبٌ وآخرُ من فعل المحبِّين فأكذب
وما شِدْتُمُ من دولة عرضُها الثرى يدين لها الجنسانِ: تُرْكٌ وصَقْلب[٣]
لها علمٌ فوق الهلال، وسُدَّةٌ تُنَصُّ على هام النجوم، وتُنصَب[٤]
أهذا هو الذُّود الذي تدَّعونه ونصرُ «كريدٍ»، والولا، والتحبُّب؟
أهذا الذي للمُلكِ والعِرضِ عندكم وللجار إن أعيا على الجار مَطلب؟
أهذا سلاحُ الفتح، والنصر والعلا؟ أهذا مطايا مَنْ إلى المجد يركب؟
أهذا الذي للذكر خلَّب معشرٌ على ذكرهم يأتي الزمانُ ويذهب؟
أسأتم، وكان السوءْ منكم إليكمُ إلى خير جار عنده الخيرُ يُطلَبُ
إلى ذي انتقامٍ، لا ينام غريمُه ولو أنه شخصُ المنام المحجَّب
شقيتم بها من حيلة مستحيلة وأين من المُحتال عنقاءُ مُغْرِب؟[٥]
فلولا سيوفُ التركِ جرَّبَ غيرُكم ولكن من الأشياءِ ما لا يجرَّب

هوامش

(١) الجواري: السفن.
(٢) التخوم: الحدود.

(٣) صقلب: الجنس السلافي.
(٤) تنصُّ: أي ترفع.
(٥) عنقاء مغرب: طائر من طيور الأساطير.

عفو القادر

فعفوًا — أميرَ المؤمنين — لأمَّةٍ دَعتْ قادرًا، ما زال في العفو يرغب
ضربتَ على آمالِها، ومآلها وأنتَ على استقلالها اليومَ تَضْرب
إذا خان عبدُ السوءِ مولاه مُعْتَقًا فما يفْعُل المولى الكريمُ المهذَّب؟
ولا تضربَنْ بالرأي مُنحَلَّ ملكِهم فما يفعلُ المولى الكريمُ المهذب؟
لقد فنِيَت أرزاقُهم، ورجالُهم وليس بفانٍ طَيْشُهم، والتقلُّب
فإن يجدوا للنفس بالعوْدِ راحةً فقد يشتهي الموتَ المريضُ المعذَّب
وإن همَّ بالعفوِ الكريم رجاؤهم فمن كَرَمِ الأخلاق أن لا يُخَيبَّوا
فما زلتَ جارَ البرِّ، والسيدّ الذي إلى فضِله من عدله الجارُ يهرب
يُلاقي بعيدُ الأهلِ عندكَ أهلَهُ ويمرحُ في أوطانه المتغرِّب

التماس القبول

أمولاي غنَّتك السيوفُ فأطربت   فهل لِيراعي أن يُغني فيُطرب
فعندي، كما عند الظُّبا، لك نَغْمَةٌ   ومختلِفُ الأنغامِ للأنس أجلب[١]
أُعرِّب ما تُنشي عُلاك، وإنه   لفي لُطفه ما لا ينال المُعرِّب
مدحتك والدنيا لسانٌ، وأهلُها   جميعًا لسانٌ، يمليان، وأكتب
أناول من شعر الخلافِة ربَّها   وأكسو القوافي ما يدوم فيقشب[٢]
وهل أنت إلا الشمسُ في كل أمِة؟   فكلُّ لسانٍ في مديحك طيِّب
فإن لم يَلقْ شعري لبابك مِدحةً   فمُرْ ينفتِح بابٌ من العذرِ أرحَب
وإني لطيرُ النيل، لا طير غيرُه   وما النيلُ إلا مِن رياضِك يُحسَب
إذا قلتُ شعرًا فالقوافي حواضر   وبغدادُ بغدادٌ، ويثرب يثرب
ولم أعدم الظلَّ الخصيبَ، وإنما   أجاذِبُكَ الظلَّ الذي هو أخصب
فلا زلتَ كهف الدين، والهاديَ الذي   إلى اللهِ بالزُّلفَى له نتقرّب

هوامش

(١) الظبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف أو السنان.
(٢) يقشب الشيء: يجعله جديدًا.

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

الله أكبر، كمْ في الفتح من عَجَب
يا خالدَ التُّركِ جدِّدْ خالدَ العَرَب[١]
صلحٌ عزيزٌ على حرب مُظَفَّرةٍ
فالسيفُ في غمِده، والحقُّ في النُّصُب[٢]
يا حُسنَ أُمْنِيَّة في السيفِ ما كذَبَت
وطيبَ أُمْنيَّةٍ في الرأي لم تَخِب
خُطاك في الحق كانت كلُّهَا كَرمًا
وأنتَ أكرمُ في حَقْن الدَّمِ السَّرب[٣]
خَذوتَ حربّ (الصلاحيَّين) في زَمَن
فيه القتالُ بلا شرع، ولا أدب
لم يَأت سيفُك فحشاءً، ولا هتكتْ
قناك من حُرمَةِ الرُّهبان والصُّلُب
سُئلْت سِلمًا على نصر، فجُدتَ بها
ولو سئُلتَ بغير النصر لم تُجِب[٤]
مَشيئَةٌ قَبِلَتها الخيلُ عاتبةً
وأذعن السيفُ مَطْويًّا على غَضَب
أتيتَ ما يشبه التقوى وإن خُلِقت
سيوفُ قومِك لا ترتاحُ للقُرُب[٥]

ولا أزيـدُك بـالإسـلام مـتـرفـةً
كلُّ الـمـروءَةِ فـي الإسـلام والـحـسـبِ
مَنَحْتَهُمُ هُدْنة من سيفك التُمِسَت
فهَبْ لـهـم هُدْنةً من رأيك الضَّرب[٦]
أتـاهُـمُ مـنـك فـي «لـوزان» داهـيـةٌ
جاءَت به الحربُ من حَيَّاتها الرُّقُب[٧]
أصَـمُّ، يـسـمـعُ سـرَّ الـكـائـديـن لـه
ولا يضيق بجَهْر المُحْنَق الصَّخِب
لم تَفترِق شهواتُ القوم في أرَب
إلا قـضـى وَطـرًا مـن ذلـك الأرَب
تـدرَّعَـت لـلـقـاءِ الـسّـلـم «أنْـقـرةٌ»
ومهَّدَ السيفُ في «لوزان» للخُطَب
فـقـل لِـبـانٍ بـقـولٍ رُكـنَ مـمْـلـكـةٍ
على الكتائب يُبنَى المُلكُ لا الكُتب
لا تَلْتَمِس غَلَبًا للحقَّ في أمَمٍ
الـحـقُّ عـنـدهُـمُ مْـعـنًـى مـن الـغَـلـب
لا خيرَ في مِنبَر حتى يكون له
عُودٌ من السُّمْر، أو عودٌ من القُضُب[٨]
ومـا الـسـلاحُ لـقـوم كـلُّ عُـدَّتِـهِـم
حتى يكونوا من الأخلاق في أهُب[٩]
لو كان في الناب دون الخُلقِ مَنْبَهَةٌ
تـسـاوت الأسْـدُ والـذُّؤبـانُ فـي الـرُّتَـب
لم يُغن عن قادة اليونان ما حشدوا
من السلاح، وما ساقوا من العُصَب
وتَـركُـهُـم «آسـيـا الـصـغـرى» مُـدجَّـجَـةً
كثُكْنة النحل، أو كالقُنْفُذ الخشب[١٠]

للتُّركِ ساعاتُ صبرٍ يومَ نَكْبتهم
كُتِبْنَ في صحف الأخلاق بالذهب
مغارمٌ، وضحايا ما صَرَخْنَ، ولا
كُدِّرن بالمنِّ، أو أُفْسِدْنَ بالكذب
بالفعلِ والأثر المحمود تعرفها
ولستَ تعرفها باسم ولا لقب
جُمعنَ في اثنين: مِن دينٍ ومِن وَطَنٍ
جمعَ الذبائح في اسم الله والقُرَب[١١]
فيها حياةٌ لشعبٍ لم يمُتْ خُلُقا
ومَطمعٌ لقَبيل ناهضٍ أرب
لم يَطْعَم الغُمْضَ جَفَنُ المسلمين لها
حتى انجلى ليلُها عن صُبْحِه الشَّنِب[١٢]
كُنَّ الرجاءَ، وكُنَّ اليأسَ، ثم محا
نورُ اليقين ظلامَ الشك والرِّيَب
تلمَّس التركُ أسبابًا، فما وجدوا
كالسيف من سُلَّم للعزِّ، أو سَبب
خاضوا العَوَانَ رجاءً أن تُبَلِّغَهم
عبْرَ النجاةِ، فكانت صخرةَ العَطب[١٣]
سفينةُ اللهِ لم تُقهر على دُسُر
في العاصفات، ولم تُغلَبْ على خُشب[١٤]
قد أمَّن الله مجراها، وأبدلها
بحسن عاقبةٍ من سوءِ مُنقلَب
واختار رُبَّانَها من أهلها، فنجت
من كيْد حامٍ، ومن تضليل مُنْتَدَب
ما كان ماءُ «سَقاريّا» سوى سَقَرٍ
طغت، فأغرقت الإغريقَ في اللهب[١٥]
لمَّا انبَرَتْ نارُها تبغيهُمُ حَطَبا
كانت قِيادَتُهم حَمَّالَةَ الحطب

سَعَتْ بهم نحوَكَ الآجالُ يومئذٍ
يا ضلَّ ساعٍ بداعي الحَين مُنجذِب
مَدُّوا الجُسورَ، فحلَّ الله ما عقدوا
إلا مسالك فِرعَوْنيَّة السَّرَب
كرْبٌ تغشاهم من رأي ساستهم
وأشأمُ الرأي ما ألقاك فَى الكُرَب
هم حسَّنوا للسواد البُلْهِ مملكةً
من لِبْدة الليث أو من غِيلِهِ الأشِب[١٦]
وأنشئوا نُزهةً للجيش قاتلةً
ومَنْ تنزَّه في الآجام لم يَؤُب
ضَلَّ الأميرُ، كما ضَلَّ الوزيرُ بهم
كلا السّرابَيْنِ أظَماهم، ولم يَصُب[١٧]
تجاذباهم كما شاءَا بمختلف
من الأمانيَّ والأحلامِ مُختلِب
وكيف تلقى نجاحًا أمةٌ ذهبتْ
حَزْبَيْنِ عند الحادث الحزب؟[١٨]
زحفتَ زحف أتِيٍّ غيرِ ذي شَفَق
على الوِهاد ولا رِفقٍ على الهِضَب[١٩]
قذفَتهم بالرياح الهُوج مُسرَجةً
يَحملن أسْدَ الشَّرى في البَيْضِ واليلَب[٢٠]
هَبَّت عليهم، فذابوا عن معاقلهم
والثلجُ في قُلَل الأجبال لم يَذُب
لمَّا صدَعتَ جناحَيْهم وقَلْبَهُمُ
طاروا بأجنحة شتى من الرُّعب
جَدَّ الفِرارُ، فألقى كلُّ معتقل
قناتَهُ، وتخلَّى كل مُحتقِب[٢١]
يا حُسْنَ ما انسحبوا في مَنْطِقٍ عَجَبِ
تُدعى الهزيمةُ فيه حُسنَ مُنسَحَب

لم يَدْرِ قائدُهم لمَّا أحطْتَ به
هبطتَ من صُعُدٍ أم جئت من صَبَب؟[٢٢]
أخذتَه وهو في تدبير خُطَّتِهِ
فلم تتمّ، وكانت خطةَ الهرب
تلك الفراسِخُ من سهل ومن جبل
قرَّبْتَ ما كان منها غيرَ مقترِب
خَيْلُ الرسولِ من الفولاذ معدِنُها
وسائر الخيل من لحمٍ ومن عصب
أفي ليالٍ تجوب الراسياتِ بها
وتقطع الأرضَ من قُطْبٍ إلى قُطُب؟
سل الظلام بها: أيُّ المعاقل لم
تَطِفر، وأيُّ حصونِ الروم لم تَشِب؟[٢٣]
آلت لئن لم تَرِد «أزميرَ» لا نزلتْ
ماءً سواها، ولا حلَّت على عُشُب
والصبر فيها وفي فْرسانها خُلُقٌ
توارثوه أبًا في الروع بعد أب
كما وُلِدتُم على أعرافَها وُلِدَت
في ساحة الحرب، لا في باحة الرَّحَب[٢٤]
حتى طلعتَ على «أزميرَ» في فلكٍ
من نابه الذكر لم يَسمُك على الشُّهُب[٢٥]
في موكبٍ وقف التاريخ يَعرضه
فلم يُكذِّب، ولم يذممْ، ولم يُرِب
يومٌ «كبدرٍ» فخيلُ الحق راقصةٌ
على الصعيد، وخيل الله في السُّحُب
غُرٌّ، تظلِّلُها غرَّاءُ، وارفةٌ
بَدريَّهُ العُودِ، والدِّيباجِ، والعَذب[٢٦]

نَشوى من الظفرَ العالي، مُرَنَّحةٌ
من سَكْرة النصر، لا من سكرة النَّصَب
تذكَّر الأرض ما لم تنس من زيدٍ
كالِمسك من جنبات (السَّكْب) مُنسكب[٢٧]
حتى تعالى أذانُ الفتح، فاتَّأدَت
مَشْيَ المُجَلَّى إذا استولى على القصب

***

تحيةً – أيُّها الغازي – وتهنئةً
بآية الفتح تبقى آية الحِقب
وقيِّمًا من ثناءٍ، لا كِفاءَ له
إلا التعجبُ من أصحابك النُّجُب
الصابرين إذا حلَّ البلاءُ بهم
كالليث عَضَّ على نابيْه في النُّوَب
والجاعلين سيوفَ الهند ألسنَهم
والكاتبين بأطراف القنا السُّلُب[٢٨]
لا الصعبُ عندهمُ بالصعبِ مركبُه
ولا المُحالُ بمستعصٍ على الطَّلب
ولا المصائبُ إذ يرمي الرجالُ بها
بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَب
قُوَّاد معركةٍ، ورَّادُ مهلَكةٍ
أوتادُ مملكةٍ، آسادُ مُحترب
بلوتهم، فتحدَّث: كم شَدَدْتَ بهم
من مُضمَحِلٍّ؟ وكم عمَّرت من خرب؟
وكم ثَلَمتَ بهم من مَعقِلٍ أشِبٍ؟
وكم هزمتَ بهم من جَحْفَل لَجِب؟
وكم بنيتَ بهم مجدًا فما نبَسوا؟
في الهدم ما ليس في البنيان من صخب

مِنَ فَلَّ جيشٍ، ومن أنقاض مملكةٍ
ومن بقية قومٍ جئتَ بالعجب[٢٩]
أخرجتَ للناس من ذلَّ، ومن فشلٍ
شعبًا وراءَ العوالي غيرَ مُنْشَعِب
لمَّا أتيتَ ببدرٍ من مطالعها
تلفَّتَ البيتُ في الأستار والحجب
وهشَّت الروضةُ الفيحاءُ ضاحكةً
إن المنوَّرة المسكيَة الترُب
وَمَسَّت الدارُ أزكى طيبِها، وأتت
بابَ الرسول، فمسَّت أشرفَ العتب
وأَرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجازِ، وكم
قضى الليالَيَ لم يَنْعَمَ، ولم يَطِب
وأزَّيَّنتْ أمَهاتُ الشرق، واستبقت
مهارجُ الفتحِ في المؤْشِيَّة القشُب
هَزَّت (دِمَشقُ) بني (أيوبَ)، فانتبهوا
يهنئون (بني حمدانَ) في (حلب)
ومسلمو (الهند) و(الهندوسُ) في جَذَلٍ
ومسلمو (مصر) والأقباطُ في طرب
ممالكُ ضمَّها الإسلامُ في رَحمٍ
وشيجةٍ، وحواها الشرقُ في نسب[٣٠]
من كل ضاحيةٍ ترمي بمكتحل
إلى مكانكَ، أو ترمي بمختضب
تقول: لولا الفتى التركِّي حلَّ بنا
يومٌ كيوم يهودٍ كان عن كَثَب

هوامش

(١) خالد الترك: يراد به الغازي مصطفى باشا كمال. وخالد العرب: هو خالد بن الوليد وله في الحروب الإسلامية صوت بعيد.

(٢) النصب: جمع نصاب، وهو الأصل والمرجع.

(٣) السرب: المسفوح.

(٤) الضمير في «بها»: للسلم بالكسر والفتح مؤنثة، بمعنى الصلح والسلام.

(٥) القرب: جمع قراب، وهو الغمد.

(٦) الضرب: القاطع.

(٧) الرقب: جمع رقيب، وهي الحيَّة الخبيثة. والمقصود بالداهية: عصمت باشا مندوب الترك في مؤتمر «لوزان»، والمشهور عنه أن في سمعه ضعفًا، لا تصل إليه إلا الأصوات العالية.

(٨) السمر: الرماح. والقضب: السيوف.

(٩) أهب: جمع إهاب.

(١٠) حينما ينكمش القنفذ ويتخشب يتسع ما بين شعراته من الانفراج بخلاف حالة الانبساط، فإن شعراته حينئذ تكون متضامة.

(١١) القرب: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من أعمال البرِّ والطاعة.

(١٢) الشنب: الأبلج، من الشنب: وهو عذوبة الأسنان.

(١٣) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. وعبر الوادي (بالفتح والكسر): شاطئه.

(١٤) دسر: جمع دسار، وهو المسمار، أو الخيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة.

(١٥) الإغريق: اليونان.

(١٦) اللبدة: شعر وبرة الليث، ويضرب بها المثل في المنعة، فيقال: أمنع من لبدة الأسد. والغيل: موضع الأسد. والأشب: الشائك المشتبك.

(١٧) لم يصب: من الصوب، أي المطر.

(١٨) الحزب: الشديد.

(١٩) الآتي: السيل.

(٢٠) الشرى: مأسدة يضرب بها المثل بجانب الفرات. والبيض: الخوذ. واليلب: الدروع.

(٢١) المحتقب: المدَّخر، ويقال: احتقب فلان الشيء، أي أدخره أو احتمله خلفه.

(٢٢) الصبب: ما انحدر من الأرض.

(٢٣) تطفر: من الطفور وهو الوثوب في ارتفاع، والطفرة كذلك: الوثبة.

(٢٤) الأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.

(٢٥) لم يسمك: لم يرفع.

(٢٦) غرَّاء وارفة: يصف العلم «اللواء». والعذب. خرق الألوية.

(٢٧) السكب، فرس من أفراس النبي ﷺ.

(٢٨) السلب: جمع سلب، وهو الطويل.

(٢٩) الفل: واحد الفلول. وفلول السيف: كسور في حدِّه.

(٣٠) الرحم الوشيجة: المتَّصلة القرابة.

بعد المنفى[1]

أنادي الرسمَ لو ملك الجوابا وأجزيهِ بدمعيَ لو أثابا[1]
وقَلَّ لحقَّه العبراتُ تجري وإن كانت سَوادَ القلب ذابا
سبقنَ مُقبَّلاتِ التُّرْبَ عني وأدّينَ التحيةَ والخطابا
فنثري الدمعَ في الدِّمن البوالي كنظمي في كواعبها الشَّبابا[2]
وقفتُ بها كما شاءَت وشاءُوا وقوفًا عَلَّمَ الصبرَ الذّهابا
لها حَقٌّ، وللأحباب حقٌّ رشفتُ وصالَهم فيها حبابا[3]
ومَنْ شكرَ المناجِمَ مُحسِناتٍ إذا التبرُ انجلى، شكر الترابا
وبين جوانحي وافٍ، أَلُوفٌ إذا لمح الديارَ مضى، وثابا
رأى مَيْلَ الزمان بها، فكانت على الأيام صحبتُه عتابا

***

وداعًا أرضَ أندلسٍ، وهذا ثنائي إن رَضيتِ به ثوابا
وما أثنيتُ إلا بعد علمٍ وكم من جاهلٍ أثنى فعابا

---

[1] كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الأندلس، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد شكرًا لها وعرفانًا بجميلها، ثم انتقل إلى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة، وعرَّج على مسألة التموين التي كانت حينئذ شغل البلاد الشاغل، وقد أُنْشِدَت هذه القصيدة في اجتماع لجان التموين (بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠).

تخِذْتُكِ موئلاً، فحللتُ أَنْدَى ذرًا من وائلٍ، وأعزَّ غابا[٤]
مُغرَّبُ آدمٍ من دار عَدْنٍ قضاها في حماكِ ليَ اغترابا[٥]
شكرتُ الفُلكَ يومَ حَوَيْتِ رَحْلي فيا لمُفارِقٍ شَكَرَ الغُرَابا!!
فأنتِ أرحتِني من كل أَنْفٍ كأنف الميْت في النَّزْع انتصابا
ومنظرِ كلَّ خوانٍ، يراني بوجه كالبَغِيِّ رمى النّقابا
وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ إذ أخلاقُهُم كانت خرابا

* * *

أحقُّ كنتِ للزهراءِ ساحًا وكنتِ لساكن (الزاهي) رحابا؟
ولم تك (جورُ) أبهى منكِ وَرْدًا ولم تَكُ بابلٌ أشهى شرابا؟
وأن المجدَ في الدنيا رحيقٌ إذا طال الزمانُ عليه طابا؟
أولئك أمةٌ ضربوا المعالي بمشرقها ومغربها قِبابا
جرى كدرًا لهم صفوُ الليالي وغايةُ كلَّ صفو أن يُشابا
مُشيبَّةُ القُرون أُديلَ منها ألم تَرَ قَرْنَها في الجوِّ شابا؟[٦]
مُعَلَّقةٌ تنَظَّرُ صولجانًا يخرُّ عن السماءِ بها لِعابا
تُعَدُّ بها على الأممِ الليالي وما تدري السنينَ ولا الحسابا

* * *

ويا وطني، لقيتُك بعد يأسٍ كأني قد لَقِيتُ بك الشبابا
وكلُّ مسافرٍ سَيَئُوبُ يومًا إذا رُزقَ السلامةَ والإيابا
ولو أني دُعيتُ لكنتَ دِيني عليه أقابل الحتمَ المُجابا[٧]
أديرُ إليكَ قبلَ البيتِ وجهي إذا فهتُ الشهادةَ والمتابا
وقد سَبقتْ ركائبيَ القوافي مُقلَّدَةً أزِمَّتَهَا، طرابا
تجوبُ الدَّهرَ نحوكَ، والفيافي وتقتحمُ اللياليَ، لا العُبابا
وتُهديك الثناءَ الحرَّ تاجًا على تاجَيْكَ مُؤتلقًا عُجابا

* * *

هدانا ضوءُ تغرِكَ من ثلاثٍ كما تهدي (المنوَّرةُ) الركابا

وقد غَشِي المنارُ البحرَ نورًا   كنار (الطُّور) جَلَّلِت الشِّعابا[٨]

وقيل: الثَّغْرُ، فاتَّأدتْ، فأرْست   فكانت من ثراكَ الطُّهرِ قابا

فصفحًا للزمان لصبحِ يومٍ   به أضحى الزمانُ إليَّ ثابا

وحيًّا الله فِتيانًا سِماحًا   كَسَوْا عِطْفيَّ من فخرٍ ثيابا

ملائكة إذا حفُّوكَ يومًا   أحبَّكَ كلُّ من تلَّقى، وهابا

وإن حملتْكَ أيديهم بحورًا   بلغتَ على أكُفِّهمُ السحابا

تَلَقَّوْني بكل أغرَّ زاهٍ   كأن على أسِرَّته شهابا

ترى الإيمان مؤتلقًا عليه   ونورَ العلم، والكرمَ اللُّبابا[٩]

وتلمحُ من وضاءَةِ صفحتَيْهِ   مُحيًّا مِصرَ رائعةً كَعابا[١٠]

وما أدبي لما أَسْدَوْه أهلٌ   ولكن مَنْ أحبَّ الشيءَ حابى

شبابَ النيل، إن لكم لصوتًا   مُلَبًّى حين يُرفعُ، مُستجابا

فهُزُّوا (العرشَ) بالدعوات حتى   يخفِّفَ عن كنانِته العذابا

أمِنْ حربِ البسوسِ، إلا غَلاءٍ   يكادُ يُعيدُها سبعًا صِعابا؟

وهل في القومِ يوسفُ يتَّقيها   ويُحسنُ حِسبةً، ويرى صوابا؟[١١]

عبادكَ — رَبِّ — قد جاعوا بمصرٍ   أنِيلاً سُقْتَ فيهم، أم سَرابا؟

حنانَكَ، واهدِ للحسنى تِجارًا   بها ملكوا المرافِقَ والرقابا

ورقِّقْ للفقير بها قلوبًا   مُحجَّرةً، وأكبادًا صِلابا

أمَنْ أكلَ اليتيمَ له عقابٌ   ومن أكل الفقيرَ فلا عقابا؟

أُصيبَ من التجار بكل ضارٍ   أشدَّ من الزمان عليه نابا

يكاد إذا غَذَاه، أو كساه   ينازعه الحشاشةَ والإهابا[١٢]

وتسمعُ رحمةً في كل نادٍ   ولستَ تحِسُّ للبرَّ انتدابا

أكلٌّ في كتاب الله إلاَّ   زكاةَ المال ليست فيه بابا؟

إذا ما الطامعون شَكَوْا وضجُّوا   فدعهمُ، واسمع الغرْثى السغابا[١٣]

فما يبكون من ثُكْلٍ، ولكن   كما تصفُ المعدِّدةُ المصابا

ولم أر مثل سوقِ الخيرِ كَسْبًا   ولا كتجارةِ السوءِ اكتسابا

ولا كأولئك البؤساءِ شاءً   إذا جرَّعتها انتشرَتْ ذئابا

ولولا البِرُّ لم يُبعثْ رسولٌ   ولم يَحمِلْ إلى قومٍ كتابا

هوامش

(١) الرسم: ما كان بالأرض من آثار الدار.

(٢) الدِّمن: آثار الديار. والكواعب من الجواري ناهدات الثدى، والمراد بها هنا: الديار قبل أن تستحيل إلى دمن.

(٣) رشف الماء: مصَّه بشفتيه. والحباب الحبب.

(٤) وائل: طلب النجدة. والموئل: الملجأ. ووائل: جبل، وسُمِّيت به قبيلة من العرب.

(٥) إن الله الذي أخرج آدم من الجنة ليجعل الأرض منفاه، قد قضى عليَّ أن يكون منفاي في جنة من حماك، وهذه مبالغة من الشاعر في تكريم هذه البلاد التي آوته وهو غريب.

(٦) أدال الله فلانًا من فلان: نزع الدولة من الثاني وحوَّلها إلى الأول، والكلام على الشمس.

(٧) دُعِيت إلى الموت: نوديت. والحتم المجاب: هو الموت.

(٨) جلل الشيء: غطاه.

(٩) اللباب: الخالص.

(١٠) الوضاءة: الحسن والنظافة.

(١١) الحسبة: الحساب.

(١٢) الحشاشة: بقية الروح في المريض.

(١٣) الغرثى: جمع غرثان، وهو الجائع. والسغاب: جمع ساغب، وهو الجائع أيضًا.

ذكرى المولد

سلُوا قلبي غداةَ سلا وثابا ... لعلَّ على الجمالِ له عِتابَا
ويُسْألُ في الحوادثِ ذو صوابٍ ... فهل ترك الجمالُ له صوابا؟
وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يومًا ... تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ ... هما الواهي الذي ثكِلَ الشبابا[١]
تسرَّب في الدموعِ فقلتُ: ولَّى ... وصفّق في الضلوع، فقلتُ: ثابا[٢]
ولو خُلقت قلوبٌ من حديد ... لما حَملتْ كما حَمل العذابا
وأحبابٍ سُقيتُ بهم سُلافًا ... وكان الوصلُ من قِصَرٍ حَبابا[٣]
ونادَمْنا الشبابَ على بِساطٍ ... من اللذات مختلفٍ شرابا
وكلُّ بساطِ عيشٍ سوف يُطوى ... وإن طال الزمانُ به وطابا
كأن القلبَ بَعدهُم غريبٌ ... إذا عادَتْه ذكرى الأهِل ذابا
ولا يُنْبِيكَ عن خُلُقِ الليالي ... كمن فقد الأحِبَّةَ والصَّحابا
أخا الدنيا، أرى دنياكَ أفْعَى ... تُبدّل كلَّ آونةٍ إهابا
وأن الرُّقْطَ أيْقَظُ هاجعاتٍ ... وأَتْرعُ في ظلالِ السلم نابا[٤]
ومِن عجبٍ تُشيَّب عاشِقيها ... وتُفنيهم، وما بَرحت كَعابا[٥]
فمن يغترّ بالدنيا فإني ... لبستُ بها فأبليتُ الثيابا
لها ضَحِكُ القِيانِ إلى غَبيٍّ ... ولي ضحكُ اللبيبِ إذا تغابى[٦]
جنيتُ برَوْضِها وردًا، وشوكًا ... وذقتُ بكأسِها شُهْدًا، وصابا
فلم أر غيرَ حكمِ الله حكمًا ... ولم أرَ دون بابِ الله بابا

ولا عـظَّـمْـتُ فـي الأشـيـاءِ إلاَّ … صـحـيـحَ الـعـلـم، والأدبَ الـلُّـبـابـا[٧]
ولا كـرَّمـتُ إلاَّ وجـهَ حُـرٍّ … يُـقـلَّـد قـومَـه الـمِـنـنَ الـرِّغـابـا[٨]
ولـم أر مـثـلَ جـمـعِ الـمـال داءً … ولا مـثـلَ الـبـخـيـلِ بـه مُـصـابـا
فـلا تـقـتـلْـك شـهـوتُـه، وزِنْـهـا … كـمـا تـزنُ الـطـعـامَ أو الـشـرابـا
وخُـذْ لـبـنـيـك والأيـامِ ذخـرًا … وأعـطِ الـلـه حِـصَّـتَـه احـتـسـابـا[٩]
فـلـو طـالـعـتَ أحـداثَ الـلـيـالـي … وجـدتَ الـفـقـرَ أقـربَـهـا انـتِـيـابـا[١٠]
وأن الـبـرَّ خـيـرٌ فـي حـيـاةٍ … وأبـقـى بـعـد صـاحـبِـه ثـوابـا
وأن الـشـرَّ يـصـدعُ فـاعـلِـيـه … ولـم أر خـيِّـرًا بـالـشـرِّ آبـا
فـرِفـقًـا بـالـبـنـيـنِ إذا الـلـيـالـي … عـلـى الأعـقـاب أوقـعـتِ الـعـقـابـا
ولـم يـتـقـلَّـدوا شـكـرَ الـيـتـامـى … ولا أدَّرعـوا الـدعـاءَ الـمـسـتـجـابـا[١١]
عـجـبـتُ لـمـعـشـرٍ صـلُّـوا وصـامـوا … عـواهـرَ، خـشـيـةً وتُـقَـى كِـذابـا[١٢]
وتُـلـفـيـهـم حِـيـالَ الـمـالِ صُـمًّـا … إذا داعِـي الـزكـاةِ بـهـم أهـابـا[١٣]
لـقـد كـتـمـوا نـصـيـبَ الـلـه مـنـهُ … كـأن الـلـه لـم يُـحَـصِ الـنَّـصـابـا
ومَـنْ يَـعْـدِلْ بـحـبَّ الـلـهِ شـيـئًـا … كـحـبَّ الـمـالِ، ضَـلَّ هـوًى وخـابـا
أرادَ الـلـه بـالـفـقـراءِ بِـرًّا … وبـالأيـتـام حُـبًّـا وارتـبـابـا[١٤]
فـرُبَّ صـغـيـرِ قـومٍ عـلَّـمـوه … سَـمَـا وحَـمـى الـمُـسـوَّمَـةَ الـعِـرابـا[١٥]
وكـان لـقـومـه نـفـعًـا وفـخـرًا … ولـو تـركـوه كـان أذًى وعـابـا[١٦]
فـعـلِّـم مـا اسـتـطـعـت، لـعـلَّ جـيـلاً … سـيـأتـي يُـحـدِثُ الـعَـجَـبَ الـعُـجـابـا
ولا تُـرهـقْ شـبـابَ الـحـيَّ يـأسًـا … فـإن الـيـأسَ يـخـتـرمُ الـشـبـابـا[١٧]
يـريـد الـخـالـقُ الـرزقَ اشـتـراكًـا … وإن يـكُ خـصَّ أقـوامًـا وحـابـى[١٨]
فـمـا حَـرمَ الـمُـجِـدَّ جَـنَـى يـديـه … ولا نِـسَـي الـشـقـيَّ، ولا الـمُـصـابـا[١٩]
ولـولا الـبـخـلُ لـم يَـهْـلِـكْ فـريـقٌ … عـلـى الأقـدار تـلـقـاهُـم غِـضـابـا
تـعـبـتُ بـأهـلـه لَـوْمًـا، وقـبـلـي … دُعـاةُ الـبـرَّ قـد سـئـمـوا الـخـطـابـا
ولـو أنـي خـطـبـتُ عـلـى جـمـادٍ … فَـجَـرْتُ بـه الـيـنـابـيـعَ الـعِـذابـا
ألـم تَـرَ لـلـهـواءِ جـرى فـأفـضـى … إلـى الأكـواخ، واخـتـرق الـقـبـابـا؟[٢٠]
وأن الـشـمـسَ فـي الآفـاق تَـغـشـى … حِـمـى كِـسْـرَى، كـمـا تـغـشـى الـيـبـابـا؟[٢١]
وأن الـمـاءَ تـروي الأسْـدُ مـنـهُ … ويَـشـفِـي مـن تَـلَـعْـلُـعِـهـا الـكـلابـا؟[٢٢]

وسَوَّى الله بينكمُ المنايا ووسَّدَكُم مع الرسْلِ الترابا[٢٣]
وأرسَلَ عائلاً منكم يتيمًا دنا من ذي الجلال فكان قابا[٢٤]
نبيُّ البرِّ، بَيَّنَهُ سبيلاً وسنَّ خِلالَه، وهَدى الشِّعابَا[٢٥]
تفرَّق بعدَ عيسى الناسُ فيه فلمَّا جاءَ كان لهم مَتابا[٢٦]
وشافي النفسِ من نزَعاتِ شرٍّ كشافٍ من طبائعها الذئابا[٢٧]
وكان بيانُه للهدْيِ سُبْلاً وكانت خَيْلُه للحق غابا
وعَلَّمنا بِناءَ المجْدِ، حتى أخذنا إمْرَةَ الأرضِ اغتصابا
وما نيلُ المطالب بالتمنِّي ولكن تؤخذُ الدنيا غِلابا[٢٨]
وما استعصى على قومٍ مَنالٌ إذا الإقدامُ كان لهم رِكابا

***

تجلَّى مولد الهادي، وعمَّت بشائرُه البواديَ والقِصابا[٢٩]
وأسدَتْ للبريةِ بنتُ وَهْبٍ يدًا بيضاءَ، طوَّقت الرقابا[٣٠]
لقد وضعته وهَّاجًا، منيرًا كما تلدُ السماواتُ الشهابا[٣١]
فقام على سماءِ البيتِ نورًا يضيءُ جبالَ مكة والنقابا[٣٢]
وضاعت يَثرِبُ الفيحاءُ مِسْكًا وفاحَ القاعُ أرجاءً وطابا[٣٣]
أبا الزهراءِ، قد جاوزتُ قدري بمدحك، بَيْدَ أن لِيَ انتسابا
فما عرفَ البلاغة ذو بيانٍ إذا لم يَتَّخِذْكَ له كتابا
مدحتُ المالكين، فزدتُ قدرًا فحين مدحُتكَ اقْتدْتُ السحابا
سألتُ الله في أبناءِ ديني فإن تكن الوسيلةَ لي أجابا
وما للمسلمين سواكَ حسنٌ إذا ما الضرُّ مسَّهُم ونابا
كأن النحسَ حين جرى عليهم أطارَ بكل مملكةٍ غُرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورًا وكان من النحوس لهم حجابا
بنيْتَ لهم من الأخلاق ركنًا فخانوا الركن، فانهدم اضطرابا
وكان جَنابُهم فيها مَهِيبًا ولَلأخلاقُ أجدرُ أن تُهابا
فلولاها لساوى الليثُ ذئبًا وساوى الصارمُ الماضي قِرابا[٣٤]
فإن قُرنت مكارمُها بعلمٍ تذلَّلِت العلا بهما صعابا
وفي هذا الزمان مَسيحُ علمٍ يردُّ على بني الأمم الشبابا

هوامش

(١) الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تعلوه.

(٤) الرقط: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض. وأترع: أسرع إلى الشرِّ.

(٥) الكعاب: الجارية: الجارية الناهد.

(٦) القيان: جمع قينة، وهي الأَمَة المغنية.

(٧) اللباب: المختار الخالص.

(٨) الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.

(٩) احتسب عند الله أمرًا: قدَّمه.

(١٠) انتابه: أتاه مرَّة بعد أخرى.

(١١) ادَّرع: ليس الدرع.

(١٢) الكذاب: الكذب.

(١٣) أهاب به: دعاه.

(١٤) ارتبَّ الصبي ارتبابًا: ربَّاه حتى أدرك.

(١٥) الخيل المسوَّمة: المرعية. والخيل العراب: الكرائم.

(١٦) العاب: العيب.

(١٧) أرهقة طغيانًا: أغشاه إيَّاه. ويخترم الشباب: يستأصله.

(١٨) حاباه: اختصَّه ومال إليه.

(١٩) الجنى: ما نجني من الشجر.

(٢٠) أفضى: بلغ.

(٢١) اليباب: القفر.

(٢٢) تلعلع الكلب: دلع لسانه عطشًا.

(٢٣) سوى: جعلكم فيها سواءً.

(٢٤) عائلاً: فقيرًا. وقاب القوس: ما بين المقبض والسيَّة، والمراد أنه كان قريبًا.

(٢٥) الشعاب: الطرق.

(٢٦) الضمير في «فيه» يعود على البر.

(٢٧) النزغات: الوساوس.

(٢٨) غلابًا: قهرًا.

(٢٩) القصابا: جمع قصبة، وهي المدينة.

(٣٠) بنت وهب: السيدة آمنة، أمه ﷺ.

(٣١) الشهاب: الكوكب.

(٣٢) نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.

(٣٣) ضاع المسك: تحرَّك فانتشرت رائحته.

(٣٤) الصارم: السيف. والقراب: الغمد.

مشروع ملنر[١]

اِثْنِ عنانَ القلبِ، واسْلَمْ به من رَبرْبِ الرملِ، ومن سِرْبِهِ[١]
ومِن تثنِّي الغِيدِ عن بانِه مُرتَجَّةَ الأردافِ عن كُثْبِه[٢]
ظِباؤه المنكسِراتُ الظبَا يَغْلِبْنَ ذا اللبَّ على لُبِّه[٣]
بيضٌ، رِقاق الحسن في لمحةٍ من ناعم الدرِّ، ومن رَطْبِه
ذوابلُ النرجِسِ في أصلِه يَوانعُ الوردِ على قُضْبَه
زِنَّ على الأرض سماءَ الدُّجى وزدْن في الحسن على شُهْبه
يمشين أسرابًا، على هِينةٍ مشيَ القطا الآمِنِ في سِربه[٤]
من كلِّ وَسْنانٍ بغير الكرى تنتبهُ الآجالُ من هُدْبه
جَفنٌ تلقَّى مَلَكا بابلٍ غرائبَ السحرِ على غَرْبه[٥]
يا ظَبْيَةَ الرملِ، وُقِيت الهوى وإن سعتْ عيناكِ في جَلبه
ولا ذرَفتِ الدمع يومًا، وإن أسرفتِ في الدمع، وفي سكبه

[١] في سنة ١٩١٩ ثارت البلاد في طلب استقلالها، وسافر الوفد المصري لعرض قضية البلاد في مؤتمر السلام في «فرساي»، وتلقَّى هناك دعوة من لورد «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية إذ ذاك؛ ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنكلترا بها، فتمخضت المحادثات بينهما عن مشروع قدَّمه لورد ملنر، واتفق مع الوفد على عرضه على البلاط لأخذ رأيهما فيه مع التزام الحيدة؛ فانتدب الوفد أربعة من أعضائه للقيام بهذه المهمة، وقد كانت الأفكار يومئذ متَّجهة إلى ان المشروع يصلح أساسًا للمفاوضة ببعض تعديلات.

هذي الشواكي النُّحْلُ صِدْنَ امْرًأ … مُلْقَى الصِّبا، أعزلَ من غرْبه[6]
صيَادَ آرامٍ، رماه الهوى … بشادنٍ لا بُرءَ من حُبِّه[7]
شابٌ، وفي أضلُعه صاحبٌ … خِلْوٌ من الشيب، ومن خَطبِه[8]
واهٍ بجنبي، خافقٌ، كلَّما … قلتُ: تناهَى، لَجَّ في وثبِه
لا تنثني الآرامُ عن قاعِه … ولا بناتُ الشوْقِ عن شِعبه[9]
حمَّلتُه في الحبِّ ما لم يكن … ليحملَ الحبُّ على قلبه
ما خفَّ إلاَّ للهوى والعلا … أو لجلال الوفد في رَكبه
أربعةٌ تجمعهم همةٌ … ينقلُها الجيل إلى عَقبه[10]
قِطارُهم كالقَطر هَزَّ الثرى … وزاده خِصبًا على خِصبه[11]
لولا استلامُ الخلقِ أرْسانه … شبَّ، فنال الشمسَ من عُجبه[12]
كُلُّهُمُ أغيرُ من وائلٍ … على حِماه، وعلى شعبه[13]
لو قدَرُوا جاءُوكُمُ بالثرى … من قُطبِه مُلكًا إلى قُطبه
وما اعتراضُ الحظِّ دون المنى … من هفوةِ المُحْسِن أو ذنبه
وليس بالفاضلِ في نفسهِ … من يُنكر الفضل على ربِّه
ما بالُ قومي اختلفوا بينهم … في مِدحةِ المشروع أو ثَلبه؟[14]
كأنهم أسرى، أحاديثُهم … في لَيِّن القيد، وفي صُلبه
يا قومِ، هذا زمنٌ قد رمَى … بالقيْدِ، واستكبر عن سَحبه[15]
لو أنَّ قيدًا جاءَه من عَل … خشيتُ أن يأبى على ربه
وهذه الضجةُ من ناسِه … جنازةُ الرِّق إلى تُربه
من يخلع النِّيرَ يَعشْ بُرهةً … في أثر النِّير، وفي ندبه[16]
يا نَشأَ الحيِّ، شبابَ الحِمَى … سُلالةَ المشرق من نُخْبه[17]
بني الأول أصبحَ إحسانُهم … دارت رحَى الفنّ على قطبه
موسى وعيسى نشآ بينهم … في سَعَة الفِكر وفي رُحْبه
وعالجَا أولَ ما عالجا … من عللِ العالَم أو طبِّه[18]
ما نَسيَتْ مصرُ لكم برَّها … في حازِبِ الأمر وفي صعبه[19]
مزّقتمُ الوهْمَ، وألفتمُ … أهلَّةَ الله على صُلبه
حتى بنيتمْ هرمًا رابعًا … من فِئةِ الحقِّ ومن حزبه

يومٌ لكم يَبقى (كبدرٍ) على ... أنصار سعدٍ، وعلى صحبه[٢٠]
قد صارت الحالُ إلى جِدِّها ... وانتبه الغافلُ من لعبه
اللَّيْثُ، والعالمُ من شرقه ... في هيبة الليثِ إلى غربه[٢١]
قضى بأن نبني على نابه ... مُلك بَنينا، وعلى خِلبه[٢٢]
ونبلُغَ المجدَ على عينه ... وندخل العصرَ إلى جَنبه
ونصلَ النازلَ في سلمه ... ونقطعَ الداخلَ في حربه
ونصرفَ النيلَ إلى رأيه ... يَقْسِمُه بالعدل في شِرْبِه[٢٣]
يُبيحُ أو يَحمي على قُدْرةٍ ... حقَّ القُرى والناس في عذبه
أمرٌ عليكم أو لكم في غد ... ما ساءَ أو ما سَرَّ من غبِّه[٢٤]
لا تستقِلُّوه، فما دهرُكم ... بحاتم الجود ولا كعبه[٢٥]
نسمعُ بالحقِّ، ولم نطَّلعْ ... على قَنا الحقِّ، ولا قُضْبِه[٢٦]
ينال باللين الفتى بعضَ ما ... يعجز بالشدَّة عن غصْبه
فإن أنستم فليكن أنسُكم ... في الصبر للدهر، وفي عَتبه
وفي احتشام الأُسْدِ دون القَذَى ... إذا هي اضطُرَّت إلى شرُبِه[٢٧]
قد أسقط الطَّفرْةَ في ملكه ... من ليس بالعاجز عن قلبه[٢٨]
يا رُبِّ قيدٍ لا تُحبّونه ... زمانُكم لم يتقيَّدْ به
ومطلبٍ في الظنِّ مستبعدٍ ... كالصبح للناظرِ في قربه
واليأسُ لا يجمُلُ من مؤمن ... ما دام هذا الغيبُ في حُجْبه

هوامش

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش. والسرب (بكسر السين): جماعة الظباء أو النساء.

(٢) الغيد: جمع غيداء، وهي المرأة اللينة الأعطاف. والبان: شجر يُشبَّه به القدُّ لطوله. والكثب: جمع كثيب، وهو التل من الرمل، يُشبَّه به الردف.

(٣) الظبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف.

(٤) الهينة (بالكسر): السكينة والوقار.

(٥) هاروت وماروت: الملكان اللذان أنزل عليهما السحر. وغرب العين: مقدمها أو مؤخرها. والغرب: السيف: وعلى المعنى يكون المراد بالجفن: غمد السيف.

(٦) الشواكي: المسلحة. وغرب الشباب: حدَّته ونشاطه.

(٧) آرام: جمع رئم، وهو الظبي الخالص البياض. والشادن: ولد الظبية.

(٨) صاحب: يريد القلب.

(٩) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والشعب (بالكسر): الناحية.

(١٠) يريد بالأربعة: الأعضاء المندوبين لعرض المشروع. والعقب الولد، وولد الولد.

(١١) القطر: المطر.

(١٢) أرسان: جمع رسن، وهو الزمام.

(١٣) وائل:قبيلة من العرب.

(١٤) ثلبه: عيبه وتنقصه.

(١٥) السحب: الجرُّ على الأرض.

(١٦) النير: الأخشبة المعترضة في عنق الثورين بأداتها، وتعرف عند العامة (بالناف). والندب: جمع ندبة، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد.

(١٧) النجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

(١٨) الطب الشهوة، وهو أيضًا علاج الجسم والنفس.

(١٩) حازب الأمر: شديده.

(٢٠) بدر: أكبر وقعة انتصر فيها الإسلام على أعدائه.

(٢١) الليث: الأسد البريطاني، وهنا يبدأ الشاعر في سرد نقط المشروع الهامة.

(٢٢) الخلب (بالكسر): الظفر.

(٢٣) الشرب (بالكسر): النصيب من الماء.

(٢٤) الغب: العاقب.

(٢٥) حاتم طيئ وكعب بن مامة: من أجواد العرب.

(٢٦) القنا: الرماح. والقضب: السيوف.

(٢٧) احتشام: إحجام.

(٢٨) الطفرة: الوثبة في ارتفاع. وأسقط الطفرة: تركها. وقلب الملك: تبديله وتغيير نظامه.

مشروع ٢٨ فبراير

أُعِدَّت الراحةُ الكبرى لمَنْ تعبا
وفاز بالحقِّ من لم يألُهُ طلبا[١]
وما قضت مصرُ من كلٍّ لُبانتَها
حتى تجرَّ ذيولَ الغبطِة القُشبا[٢]
في الأمرِ ما فيه من جِدٍّ، فلا تقفوا
من واقع جزعًا، أو طائر طربا[٣]
لا تُثْبِتُ العينُ شيئًا، أو تُحقَّقه
إذا تحيَّرَ فيها الدمعُ واضطربا[٤]
والصبحُ يُظلم في عينيك ناصعُهُ
إذا سدلتَ عليكَ الشكَّ والريبا[٥]
إذا طلبتَ عظيما فاصبرنَّ له
أو فاحشدنَّ رماح الخطِّ والقُضُبا[٦]
ولا تعِدَّ صغيراتِ الأمورِ له
إن الصغائرَ ليست للعلا أهُبا[٧]
ولن ترى صحبةً تُرضى عواقبُها
كالحقِّ والصبرِ في أمر إذا اصطحبا[٨]
إن الرجالَ إذا ما أُلْجِئوا لَجَئُوا
إلى التعاون فيما جَلَّ أو حَزَبا[٩]

لا ريـبَ أن خُـطـا الآمـالِ واسـعـةٌ
وأن لـيـلَ سُـراهـا صُـبْـحُـهُ اقـتـربا[١٠]

* * *

وأن فـي راحـتْـى مصـرٍ وصـاحـبـهـا
عـهـدًا وعـقـدًا بـحـقٍّ كـان مـغـتـصـبا[١١]
قـد فـتَّـحَ الـلـه أبـوابًـا، لـعـل لـنـا
وراءَهـا فُـسَـحَ الآمـالِ والـرحـبـا[١٢]
لـولا يـدُ الـلـه لـم نـدفـع مـنـاكـبَـهـا
ولـم نـعـالـج عـلـى مـصـراعِـهـا الأربـا[١٣]
لا تـعـدمُ الـهـمـةُ الـكـبـرى جـوائِـزَهـا
سِـيَّـانِ مـن غَـلَـب الأيـام أو غُـلـبـا[١٤]
وكـلُّ سَـعْـيٍ سـيـجـزي الـلـه سَـاعـيَـهُ
هَيهاتَ يذهبُ سعْيُ المحسنين هَبا[١٥]
لم يُبرمِ الأمرَ حتى يستبينَ لكم
أسـاءَ عـاقـبـةً، أمْ سَـرَّ مُـنـقـلـبَـا![١٦]
نـلـتـم جـلـيـلاً، ولا تـعـطـونَ خـردلـةً
إلا الـذي دفـع الـدسـتـورُ أو جَـلـبـا[١٧]
تـمـهَّـدتْ عـقـبـاتٌ غـيـرُ هـيـنـةٍ
تلقى ركابُ السُّرى من مثلها نصبَا[١٨]
وأقـبـلـتْ عـقـبـاتٌ لا يـذلـلـهـا
في موقف الفصل إلا الشَّعبُ مُنتخبَا
لـه غـدًا رأيُـه فـيـهـا وحِـكـمـتُـه
إذا تـمـهّـل فـوق الـشـوكِ أو وثـبـا[١٩]
كم صعَّب اليومُ من سهل هممتَ به
وسهَّل الغدُ في الأشياءِ ما صعُبا[٢٠]
ضـمُّـوا الـجـهـودَ، وخـلـوهـا مـنـكَّـرةً
لا تملَئوا الشَّدْقَ من تعريفها عجبا

أفـي الـوغـى ورحَـى الـهـيـجـاءِ دائـرةٌ
تُحصون من مات أو تُحصون ما سُلبا؟[٢١]
خـلُّـوا الأكـالـيـل لـلـتـاريـخ، إن لـه
يـدًا تـؤلِّـفـهـا دُرًّا ومـخـشَـلَـبـا[٢٢]
أمـرُ الـرجـالِ إلـيـه، لا إلـى نـفـرٍ
مـن بـيـنـكـم سَـبـق الأنـبـاءَ والـكـتـبـا
أملى عليه الهوى والحقدُ، فاندفعت
يـداه تـرتـجـلانِ الـمـاءَ والـلـهَـبـا[٢٣]
إذا رأيـتَ الـهـوى فـي أمّـةٍ حـكـمًـا
فـاحـكـمْ هـنـالـك أن الـعـقـلَ قـد ذهـبـا
قـالـوا: الـحـمـايـة زالـت، قـلـتُ: لا عـجـبٌ
بـل كـان بـاطـلُـهـا فـيـكـم هـو الـعـجـبـا
رأسُ الـحـمـايـة مـقـطـوعٌ، فـلا عَـدِمَـتْ
كـنـانـةُ الـلـه حـزْمًـا يـقـطـع الـذنَـبـا
لـو تـسـألـون (ألِـنْـبـى) يـوم جَـنْـدَلَـهـا:
بـأيِّ سـيـفٍ عـلـى يـافـوخـهـا ضـرَبـا؟[٢٤]
أبـا لـذي جـرَّ يـومَ الـسـلّـمِ مُـتَّـشِـحًـا
أم بـالـذي هـزَّ يـومَ الـحـربِ مُـخـتـضِـبـا؟
أم بـالـتـكـاتُـفِ حـول الـحـق فـي بـلـد
مـن أربـعـيـن يـنـادِي الـويـلَ والـحـربـا؟[٢٥]
يـا فـاتـحَ الـقـدس، خَـلِّ الـسـيـفَ نـاحـيـةً
لـيـس الـصـلـيـبُ حـديـدًا كـان، بـل خـشـبـا
إذا نـظـرتَ إلـى أيـن انـتـهـت يـدُهُ
وكـيـف جـاوز فـي سـلـطـانـه الـقُـطُـبـا
عـلـمـت أن وراءَ الـضـعـف مـقـدرةً
وأنَّ لـلـحـق — لا لـلـقـوةِ — الـغـلـبـا

هوامش

(١) لم يأل: لم يقصِّر.. قال تعالى: ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء، فكم وراء جهاد الحياة من راحة وكم وراء الضعف من قوة.

(٢) اللبانة: الحاجة. والقشب: جمع قشيب: الجديد. وفي هذا البيت استفزاز للهمم وبيان؛ لأن سبيل المجد طويل وميدانه متَّسع.

(٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وفي هذا البيت نوع من البيان المربي للأمم في نهوضها، فكثيرًا ما يستفزُّ الطرب أناسًا فيطير بهم، أو يستحكم اليأس منهم فيرديهم.

(٤) تثبت العين: تصحح، وفي هذا البيت تصوير للتردُّد والذعر والهلع والشك الذي يصيب الإنسان من أموره فلا يستطيع الاهتداء، ولا يستبين طريق الصواب.

(٥) الريب: جمع ريبة، مثل سدرة وسدر: الظن. وكم من رجل تسدُّ أمامه كوى الحياة وتضيق عليه الأرض بما رحبت ولا سبب لهذا إلا الشكوك والأوهام.

(٦) الخطُّ: موضع باليمامة ينسب إليه على لفظه، فيقال: رماح خطية، والرماح لا تنبت به ولكنه ساحل للسفن التي تحمل القنا إليه وتعمل به. وقال الخليل: إذا جعلت النسبة اسمًا لازمًا قلت: خطية (بكسر الخاء) ولم تذكر الرماح وهذا كما قالوا: ثياب قبطية (بالكسر) فإذا جعلوه اسمًا حذفوا الثياب وقالوا قبطيًا (بالضم) فرقًا بين الاسم والنسبة، وما أحسن أن تنتشر هذه الحكم بين أفراد أمتنا الناهضة حتى تعرف حقوقها وواجباتها.

(٧) أهبك جمع إهاب ككتاب وكتب والإهاب: الجلد.

(٨) بيَّن في هذا البيت شاعرنا نوعًا من أنواع الصحبة هو خيرها وهو وحده المحمود عواقبه، وذلك النوع هو أن يصحب الحق — وهو السمح الكريم — صبر جميل على وثبات الباطل حتى يدمغه فإذا هو زاهق، والصبر من خير الفضائل التي هي جماع كل خير، ولهذا ذكر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وروي أنه كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يوصي كل منهما أخاه بالصبر والحق.

(٩) أُلْجِئُوا: اضطروا وأكرهوا. ولجئوا: اعتصموا. وجل الشيء يجل (بالكسر) عظم، فهو جليل. وحزبهم الأمر يحزبهم من باب قتل أصابهم. ولعمري أن المفزغ الوحيد عند وثبات الأحداث إنما هو في الاعتصام بالتعاون والقضاء على التحزُّب.

(١٠) السرى: جمع سرية (بضم السين وفتحها)، يقال: سرينا سُرية من الليل، وسِرية.. قال أبو زيد: ويكون السرى أول الليل وأوسطه وآخره، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهًا لها بالأجسام مجازًا واتساعًا، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. وكأن الشاعر أراد حفز الهمم وشحذ العزائم لاجتلاء صبح الآمال.

(١١) الراحة: بطن الكف، والجمع راحات وراح. قصد الشاعر في هذا البيت أن مصر أصبح بين يديها عهد جديد، وأن في يد مليكها عقدًا وثيقًا، ومظهر كله استقلال البلاد الذي أعلنه جلالة الملك بعد أن عدا العادي زمنًا طويلاً عليه.

(١٢) فسح: جمع فسحة، مثل غرفة وغرف. والرحب: جمع رحبة، مثل قصبة وقصب، وهي الساحة المنبسطة.

(١٣) يدُّ الله: قدرة الله. والمناكب: جمع منكب كمجلس، وهو مجتمع رأس العضد والكتف. وعالج الأمر: باشره بمشقة. والمصراع من الباب: الشطر. والأرب: الحاجة. ولقد شاء الشاعر أن يصوِّر جهاد الأمة وقد دجا ليل الحوادث، واستأسد العادي، والأمة تصابره، وتدافع الخطوب، وتلقي عنها نيرها، وتريد الإفلات من عنتها إلى حيث أبواب النصر.

(١٤) ما أحسن أن يودع الشاعر في ثنايا هذا البيت الأمل الواسع يدركه ذو الهمة الكبيرة ولو بعد حين.

(١٥) في هذا البيت شفاءٌ لما يصيب النفوس من ألم الإخفاق وصدمات الأيام، فلئن أعيا الإنسان شأن تلك الحياة فلن يعدل الخير العميم في دار النعيم؛ وبذلك يعدُّ المرء بإحدى الحسنيين، وأن يذهب العرف بين الله والناس.

(١٦) لقد شاء أن تقيس الأمة أمرها بمقياس صحيح حتى تتجاوز الخطل.

(١٧) وفي هذا البيت أراد أن يضع بين يدي الأمة كل دقيق وجليل من أمرها، حتى تستبين حقيقة أمرها، فقال: إن ما جد، وإن كان جليلاً، إلا أنه قليل إذا قيس بحقوق الأمة الكاملة، ثم شاء أن يضع على عواتق رجال الأمة الأمور الخطيرة في حاضرها ومستقبلها، فقال: إن الأمر للدستور يرفع ما شاء ويجلب ما نفع.

(١٨) الركاب (بالكسر): المطي، الواحد: راحلة، من غير لفظها والسرى: السير ليلاً، جمع سرية مثل مدية ومدى. ونصبًا: تعبًا. وقد صوَّر شاعرنا في هذا البيت ما قطعته الأمة من مراحل جهادها في سبيل حريتها.

(١٩) في هذين البيتين يبين الشاعر ما للآراء المجتمعة من تصريف الأمور وقيادة الأمم وتهوين الصعاب، وسبيل ذلك اصطفاء نخبة رجالها إذا جدَّ الجدُّ وحزب الأمر، فإن شاءوا بحكمتهم جاوزوا الصعاب وتخطَّوا شوك القتاد، وإن قعدت بهم هممهم وأعوزتهم حكمتهم، ذاقوا واذاقوا الأمة عذاب الهون، وقلَّبوها على جمر الغضا.

(٢٠) قصد الشاعر إلى أن يعيد النظر ليرى الدهر قلبًا، والأحداث لا تبقى سرمدًا، فلا يؤيسه الخطب الداهم، ويرجو في الغد ما أعجزه اليوم.

(٢١) يريد الشاعر أن يبيِّن ما يعتور الأمم في نهوضها فيثنيها عن غايتها، ويعوق وثوبها، ثم هو بعد يأمر أمته بأن تحاذر الوقوع في هذا الشرِّ، ورأس تلك الآثام الاعتداد بالنفس، والإعجاب بالعمل، وانتفاخ الأوداج صلفًا وكبرياءً، ثم شاء أن يضرب مثلاً بالجيش المقاتل، ينسى ما هو فيه من جلائل الأخطار، ويعمد إلى حطام فانٍ يحصيه ويجمعه، فلا جرم أن يصيب هذا الجيش الفشل اللازم، ولقد أدَّب الله المؤمنين أدبًا عاليًا حينما خالفوا محمد ﷺ ولاح لهم النصر، فأخذوا يجمعون الغنائم ويحصون الأسلاب؛ ففشلوا وندموا، وذلك مفصَّل في سورة «آل عمران».

(٢٢) الأكاليل: جمع إكليل شبه عصابة تزين بالجوهر، ويُسمَّى التاج إكليلاً. والمخشلب: الزجاج.

(٢٣) ترتجلان: تبتدئان من غير تهيئة، وقد شاء الشاعر أن ينيى على أولئك الذين يضعون أنفسهم موضع التاريخ، فيكيلون الثناء، ويفحشون في الألقاب، ويخلطون بين المتناقضين.

(٢٤) جندلها: أرداها. واليافوخ: مقدِّم الرأس.

(٢٥) حرب، كفرح: كئب واشتد غضبه، فهو حَرِبٌ.

الله والعلم[1]

لمن ذلك الملكُ الذي عزَّ جانبُه؟ … لقد وعظ الأملاك والناسَ صاحبُه[1]
أَمُلْكُكَ يا (داودُ)، والملكُ الذي … يَغار عليه، والذي هو واهبه؟[2]
أراد به أمرًا، فجلَّتْ صُدورُه … فأَتْبعه لُطفًا، فجلَّت عواقبه[3]
رمى، واستردَّ السهمَ، والخلقُ غافلٌ … فهل يتَّيه خلقُه أو يُراقبه؟[4]
أيبطُل عيدُ الدهرِ من أجل دُمَّل … وتخبو مجاليه، وتُطوَى مواكبه؟[5]
ويرجع بالقلب الكسيرِ وفودُه … وفيهم مصابيحُ الورى وكواكبه؟
وتسمو يد الدهر ارتجالاً ببأسها … إلى طُنُب الأقواسِ، والنصرُ ضاربه؟[6]
ويستغفر الشعبُ الفخورُ لربَّه … ويجمع من ذيل المخِيلةِ ساحبه؟[7]
ويُحجبُ ربُّ العيد ساعة عيده … وتنقص من أطرافهن مآربه؟[8]
ألا هكذا الدنيا، وذلك ودُّها … فهلاَّ تأتَّي في الأمانيّ خاطبه؟[9]
أعدَّ لها إدوردُ أعيادَ تاجِه … وما في حساب الله ما هو حاسبه
مشَتْ في الثرى أنباؤها، فتساءَلت … مشارقُه عن أمرها، ومغاربه[10]
وكاثر في البرَّ الحصى مَن يَجوبُه … وكاثر مَوْجَ البحر في البحر راكبه[11]
إلى موكب لم تُخرج الأرضُ مثلَه … ولن يتهادى فوقها ما يقاربه[12]

[1] نُظِمَت هذه القصيدة بمناسبة حفلة تتويج الملك إدوارد السابع وتأجيل إقامة الحفلة لإصابة جلالته بدمل وذلك في سنة ١٩٠٢.

إذا سار فيه سارت الناسُ خلفه ... وشدَّت مغاويرَ الملوك ركائبُه[١٣]
تحيطُ به كالنَّمل في البرِّ خيلُه ... وتملأُ آفاقَ البحار مراكبه
نظامُ المجالي والمواكبِ حلَّهُ ... زمانٌ وشيكٌ ريبُه ونوائبه[١٤]
فبينا سبيلُ القومِ أمنٌ إلى المنى ... إذا هو خوفٌ في الظنون مذاهبه[١٥]
إذا جاءَت الأعياد في كل مسمع ... تجوبُ الثرى شرقًا وغربًا جوائبه[١٦]
رجاءٌ فلم يلبث، فَخَوْفٌ فلم يدم ... سل الدهْرَ: أيُّ الحادثين عجائبه؟[١٧]
فياليت شعري: أين كانت جنودُه؟ ... وكيف تراخت في الفداءِ قواضبه؟[١٨]
ورُدَّت على أعقابهن سفينُه ... وما ردَّها في البحر يومًا مُحارِبه؟[١٩]
وكيف أَفاتته الحوادث طِلْبةً ... وما عوّدْته أن تفوِّت رغائبه[٢٠]
لكّ الملكُ يا من خَصَّ بالعزَّ ذاتَه ... ومَنْ فوقَ آراب الملوكِ مآربه[٢١]
فلا عرشَ إلا أنتَ وارثُ عِزَّه ... ولا تاجَ إلا أنت بالحق كاسبه[٢٢]
وآمنتُ بالعلمِ الذى أنت نورُه ... ومنك آياديه، ومنكَ مناقبه[٢٣]
تُؤامنُ مِن خَوفٍ به كلّ غالبٍ ... علىَ أمره في الأرض، والدّاءُ غالبه[٢٤]
سلوا صاحب المُلكين: هل مَلك القُوى ... وأسدُ الشرى تعنو له وتحاربه؟[٢٥]
وهل رفع الداءَ العُضالَ وزيرُه؟ ... وهل حجب البابَ الممنَّعَ حاجبه؟[٢٦]
وهل قدَّمت إلا دعاةً شعوبُه ... وساعفَ إلاَّ بالصلاة أقاربه؟[٢٧]
هنالك كان العلمُ يُبلِي بلاءَه ... وكان سلاح النفس تغني تجاربه[٢٨]

* * *

كريمُ الظبُّا، لا يقرب الشرَّ حَدُّه ... وفي غيره شرُّ الورى وَمعاطبه[٢٩]
إذا مرَّ نحوَ المرءِ كان حياتَه ... كأصبَع عيسى نحو مَيْتٍ يخاطبه
وأيسرُ من جُرح الصدودِ فعالُه ... وأسهل من سيف اللَّحاظ مَضاربه[٣٠]
عجيبٌ!! يُرجَّى «مِشرطًا» أو يهابه ... مَن الغربُ راجيه، مَن الشرقُ هائبه؟[٣١]
فلو تُفتدى بالبيضِ والسُّمرِ فِدْيَةٌ ... لألْقَتْ قَناها في البلاد كتائبه[٣٢]
ولو أن فوق العلم تاجًا لتوَّجوا ... طبيبًا له بالأمس كان يصاحبه[٣٣]
فآمنتُ بالله الذي عزَّ شأنُه ... وآمنتُ بالعلم الذي عزَّ طالبه[٣٤]

هوامش

(١) عزَّ جانبه: قوي. وعظ الأملاك والناس: نصحهم وذكَّرهم بالعواقب.

(٢) الملك الذي يغار عليه والذي هو واهبه: هو الله تعالى.

(٣) جلَّت صدوره: عظمت. وصدور الأمر: جمع صدر، وصدر كل شيء: أوله. وعواقبه: جمع عاقبة، وهي آخر كل شيء أيضًا، وأتبعه لطفًا: ألحقه. والمعنى أن الله الذي وهب هذا الملك قضى فيه بأمر عظيم، هو موت الملكة فيكتوريا ولكنه لطف في هذا القضاء بتتويج إدوارد، فكانت عواقب اللطف عظيمة، كما كانت أوائل الخطب عظيمة.

(٤) استردَّ السهم: ردَّه وأرجعه إليه، والألف والسين زائدتان. والغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكُّره له، وقد غفل فهو غافل.

(٥) يبطل عيد الدهر: يتعطَّل. تخبو: تُطْفأ. ومجاليه: مواضعه، من جلا الأمر: وضح وانكشف. والمواكب: جمع موكب وهو القوم الراكبون للزينة.

(٦) تسمو: تعلو. وارتجل الأمر: ابتدأه من غير تهيئة قبل. والبأس: الشدَّة. والطنب: حبل الخباء.

(٧) المخيلة: الكبر.

(٨) يحجب: يمنع عن الناس. والمآرب: جمع مأربة، وهي الحاجة.

(٩) الودُّ (مفتوح الواو ومضمومها ومكسورها): هو المودَّة. تأنى في الأمر: ترفَّق وتنظر. والأماني: جمع أمنية، ما يتمناه المرء. الخاطب: الداعي إلى نفسه، من قولهم خطب المرأة دعا أهلها إلى تزويجها منه، والمراد أن مَنْ يطلب لنفسه مودة الدنيا ينبغي له أن يترفق في ذلك، فضمير خاطبه يرجع إلى «الودِّ».

(١٠) الثرى. التراب، والمراد الأرض. الأنباء: الأخبار، والضمير للأعياد. مشارقه ومغاربه: أي مشارق الأرض ومغاربها. وأمرها: أي الأعياد أيضًا، بمعنى أن أنباء تلك الأعياد ذاعت في أقطار الأرض فتساءلت عنها مشارقها ومغاربها.

(١١) كاثره: غالبه بالكثرة. والبرُّ: ضد البحر. والحصى: جمع الحصاة. وجاب البلاد يجوبها: قطعها، لكثرة المقبلين على تلك الأعياد صار مَنْ يجوبون منهم الأرض من الكثرة بحيث يغلبون الحصى إذا كاثروه، وكذلك راكبو البحر المقبلون عليها يغلبون موجه بالمكاثرة.

(١٢) يتهادى: يمشي مشيًا غير قوي متمايلاً. وما يقاربه: أي ما يدانيه.

(١٣) شدَّ الشيء: أوثقه، ومنه شدَّ الرحال. والمغاوير: جمع مغوار، وهو الكثير الهجوم على العدو لشجاعته. والركائب: جمع ركوبة، وهي كل ما رُكِبَ.

(١٤) نظام الشيء: ملاكه وطريقته التي عليها يستقيم، وهو أيضًا الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. والمجالي: جمع مجلى. ووشيك. قريب. والريب هنا: ما يكره من الحوادث. والنوائب: جمع نائبة، وهي ما يصيب الإنسان من مكروه.

(١٥) بينا: كبينما، ظرف زمان للمفاجأة، وقيل هما للابتداء، وعلى كل حال تقع بعدهما جملة اسمية أو فعلية، ويحتاجان إلى جواب يتمُّ به المعنى. والسبيل: الطريق. وأمن: مأمونة. والظنون: جمع ظن وهو غير اليقين. والمذاهب: الطرق والمسالك، جمع مذهب.

(١٦) المسمع: الأذن. وجاب الأرض يجوبها: قطعها، ومنه الجواب.

(١٧) الرجاء: الأمل. ولم يلبث: لم يمكث.

(١٨) شعري: علمي، من شعر بالشيء شعرًا إذا فطن إليه وعلمه، ويا ليت شعري: أي ليتني علمت. وتراخت: أبطأت. وقواضبه: سيوفه القواطع.

(١٩) ردَّت: أرجعت. وأعقاب: جمع عقب وهو مؤخر القدم، يقال: رجع على عقبه، ورجعوا على أعقابهم: أي على الطريق الذي كانوا يضعون فيه أقدامهم. والسفين: جمع سفينة.

(٢٠) أفاتته طلبته: أذهبتها عنه. والطلبة: الشيء المطلوب، وسكون اللام لضرورة الشعر والرغائب: جمع رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه، والعطاء الكثير أيضًا.

(٢١) خصَّه بالشيء: جعله له دون سواه. والآراب: جمع أرب، وهو الحاجة.

(٢٢) العرش: سرير الملك. والتاج: أصله للعجم، يقال: تُوِّج إذا لبس التاج، كما تقول العرب: عُمِمَ إذا لبس العمامة، استعمل على وجه العموم. وكاسبه: نائله ورابحه.

(٢٣) أياديه: جمع يدٍّ، وهي هنا النعمة. ومناقبه: جمع منقبة، وهي الفعل الطيب.

(٢٤) تؤامن: أي تعطي الأمان. وكل غالب على أمره: أي لا يعجزه شيء.

(٢٥) القوى: جمع قوة، ضد الضعف. وتعنو: تخضع وتذلُّ.

(٢٦) الداء العضال: الشديد الذي يعيي الأطباء. والباب الممنع: الذي لا يرام.

(٢٧) ساعف: ساعد.

(٢٨) يبلي بلاءه: يجتهد اجتهاده. والتجارب: جمع تجربة، من جرَّبت الشيء إذا اختبرته مرة بعد أخرى.

(٢٩) كريم الظبا: من إضافة الصفة للموصوف، أي الظبا الكريمة، والظبا: جمع ظبة وهي حدُّ السيف أو السنان أو نحو ذلك، والمراد السيف أو نحوه ليستقيم المعنى فيكون مجازًا من إطلاق اسم الجزء على الكل. والمعاطب: المهالك، جمع معطب.

(٣٠) الصدود: الإعراض. وفعاله: جمع فعل. واللحاظ: جمع لحظ. ومضاربه: جمع مضرب.

(٣١) عجيب: صفة موصوف مقدَّر، أي أمر عجيب. ويرجَّى: أي يرجو. والمشرط: المبضع الذي يفتح به الطبيب الجراحات. ويهابه: يخافه. و«من» في «من الغرب راجيه.. إلخ»: فاعل «يرجى». يقول إنه لأمر عجيب أن هذا الملك الذي يرجوه الغرب ويخافه الشرق، يتعلق رجاؤه أو خوفه بمشرط الطبيب الذي يفتح له دمله.

(٣٢) تفتدي: تستنقذ بالفدية. والبيض والسمر: السيوف والرماح. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. والكتائب: جمع كتيبة وهي الطائفة من الجيش مجتمعة.

(٣٣) توَّجوه: ألبسوه التاج.

(٣٤) عزَّ شأنه: قوي. وطالب العلم: محصِّله.

ذكرى كانارفون

في الموت ما أعيا وفي أسبابه ... كل امرئ رهنٌ بطَيَّ كتابِه[١]
أَسَدٌ لَعَمْرُكَ، من يموتُ بُظُفره ... عند اللقاء، كمن يموت بنابه[٢]
إن نام عنك، فكلُّ طبٍّ نافعٌ ... أو لم ينمْ، فالطبُّ من أذنابه
داءُ النفوس، وكلُّ داءٍ قبلَه ... هَمٌّ نَسِينَ مَجيئَه بذَهابه[٣]
النفسُ حربُ الموتِ، إلا أنها ... أتتِ الحياةَ وشُغلَها من بابه[٤]
النفسُ حربُ على طويل بلائها ... وتضيقُ عنه على قصير عذابه[٥]
هو منزلُ الساري، وراحةُ رائح ... كثرَ النهار عليه في إتعابِه[٦]
وشفاءُ هذي الروحِ من آلامها ... ودواءُ هذا الجسم من أوْصابه[٧]
من سرَّه ألا يموتَ، فبالعلا ... خَلُدَ الرجالُ، وبالفعالِ النابِه[٨]
ما مات مَنْ حاز الثرى آثارَه ... واستولت الدنيا على آدابه[٩]
قل للمُدِلِّ بمالِه وبجاهه ... وبما يُجِلُّ الناسُ من أنسابِه[١٠]
هذا الأديمُ يَصدُّ عن حُضَّارِه ... وينامُ مِلْءَ الجفن عن غُيَّابه[١١]
ألاَّ فتًى يمشي عليه مُجدَّدا ... ديباجَتَيْهِ، مُعَمَّرًا بخرابه[١٢]
صادت بقارعِة الصعيد بَعوضةٌ ... في الجَوَّ صائدَ بازِه وعُقابه[١٣]
وأصاب خُرطومُ الذبابة صفحةً ... خُلقتْ لسيف الهندِ أو لذُبابِه[١٤]
طارت بخافية القضاء، ورَأَرأت ... بكريمتيْه، ولامست بلُعابه[١٥]
لا تَسمعنَّ لُعصبةِ الأرواحِ ما ... قالوا بباطل علمهم وكِذابه[١٦]
الروحُ للرحمنِ جلَّ جَلالُه ... هي من ضنائن علمه وغيابه[١٧]

غُلِبوا على أعصابهم، فتوهَّموا   أوهامَ مغلوبٍ على أعصابه

* * *

ما آبَ جَبارُ القُرونِ، وإنَّما   يومُ الحساب يكون يومَ إيابه[١٨]
فذروه في بلد العجائب مُغْمَدًا   لا تشهَروه كأمس فوق رقابه[١٩]
المستبدُّ يطاقُ في ناووسه   لا تحت تاجيه وفوق وِثابه[٢٠]
والفردُ يؤمَن شرُّه في قبره   كالسيفِ نام الشرُّ خلفَ قرابه[٢١]
هل كان (توتَنْخ) تقمَّصُ روحُهُ   قُمُصَ البعوض ومُسْتَخَسَّ إهابه؟[٢٢]
أو كان يَجزِيكَ الردى عن صُحبةٍ   وهو القديم وفاؤه لصاحبه[٢٣]
تالله لو أهدي لك الهرمَيْنِ من   ذهب، لكان أقلَّ ما تُجْزَى به
أنت البشير به، وقيِّمُ قصره   ومُقدِّم النبلاءِ من حُجَّابه[٢٤]
أعْلَمْتَ أقوامَ الزمانِ مكانَه   وحَشَدْتَهم في ساحِه ورحابه[٢٥]
لولا بَنانُك في طلاسِم تُربه   ما زاد في شرف على أترابه[٢٦]

* * *

أخنىَ الحِمامُ على ابن هِمّةٍ نفسِه   في المجد، والباني على أحسابه[٢٧]
الجائب الصخرَ العتيدَ بحاجرٍ   دبَّ الزمانُ وشبَّ في أسرابه[٢٨]
لو زايلَ الموتى مَحاجرَهم به   وتلَّفتوا، لتحيِّروا كضِبابه[٢٩]
لم يَألهُ صبرًا، ولم يَنِ هِمَّةً   حتى انثنى بكنوزه ورِغابه[٣٠]
أفضى إلى خَتْم الزمان ففضَّه   وحبا إلى التاريخ في محرابه[٣١]
وطوى القرونَ القَهْقَرى، حتى أتى   فرعونَ بين طعامه وشرابه[٣٢]
المَنْدَلُ الفيَّاحُ عودُ سريره   واللؤلؤ اللمَّاحُ وشْيُ ثيابه[٣٣]
وكأن راحَ القاطفين فَرغْن من   أثماره صُبحًا ومن أرطابه[٣٤]
جدثٌ حوى ما ضاق (غُمدانٌ) به   من هالة المُلكِ الجسيمِ وغابه[٣٥]
بنيانُ عُمرانٍ، وصَرْحُ حضارةٍ   في القبر يلتقيان في أطنابه[٣٦]
فترى الزمانَ هناك قبلَ مَشيبه   مثلَ الزمانِ اليومَ بعد شبابه
وتحسُّ ثَمَّ العلمَ عند عُبابه   تحت الثرى والفنّ عند عجابه[٣٧]

* * *

يا صاحبَ الأخرى، بلغتَ مَحلَّةً   هي من أخي الدنيا مُناخُ ركابه[٣٨]
نُزُلٌ أفاق بجانبيه من الهوى   من لا يُفيقُ، وجدَّ من تَلعابه[٣٩]
نام العدوُّ لديه عن أحقادِه   وسلا الصديقُ به هوى أحبابه[٤٠]
الراحةُ الكبرى مِلاكُ أديمه   والسلوةُ الطُّولَى قِوَامُ ترابه[٤١]

* * *

(وادي الملوك) بكتْ عليكَ عيونُه   بمُرَقْرَق كالمزنِ في تَسكابه[٤٢]
ألقى بياضَ الغيَم عن أعطافه   حزنًا، وأقبل في سواد سحابه[٤٣]
يَأسىَ على حرباءِ شمسٍ نهاره   ونزيل قِيعَتِه، وجار سَرابه[٤٤]
ويودُّ لو ألْبِست من بَرْدِيَّه   بُرْدَيْنِ، ثم دُفنَت بين شعابه[٤٥]
نوَّهتَ في الدنيا به، ورفَعته   فوق الأديم، بطاحِه، وهِضابه[٤٦]
أخرجتَ من قبرٍ كتابَ حضارةٍ   الفنُّ والإعجازُ من أبوابه[٤٧]
فصَّلته، فالبرقُ في إيجازه   يُبنَى البريدُ عليه في إطنابه[٤٨]
طلعا على (لوزانَ) والدنيا بها   وعلى (المحيط) وما وراءَ عُبابه[٤٩]
جئتَ الشعوبَ المحسنين بشافع   مِنْ مثل مُتْقَنِ فنِّهم ولُبابه[٥٠]
فرفعتَ رُكنًا للقضية، لم يكن   (سَحبانُ) يرفعُه بسحر خطابه[٥١]

هوامش

(١) ما أعيا: أي ما أتعب وأعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه: أي باق في الحياة كبقاء الرهن حتى ينتهي أجله.

(٢) لعمرك: يقول النحاة: إنه قسم، واللام فيه لتوكيد الابتداء، وهو مبتدأ خبره محذوف، أي لعمرك قسمي، أو ما أقسم به.

(٣) الدَّاء: العلة والمرض. ونسين: أي النفوس.

(٤) حرب الموت: أي حرب للموت، والمراد أنها تكرهه وتدافعه. أتت، جاءت، والضمير في «شغلها» للحياة، والضمير في «بابه» للموت.

(٥) بلاء الحياة: ما فيها من ألم وهمٍّ، أي أن النفس تسع الحياة وتحتملها مع ما فيها من هموم وآلام لا تنتهي، وتضيق عن الموت وتأباه وهو ليس فيه إلا شيء من الألم قصير.

(٦) هو: أي الموت. والساري: الذي يقطع الليل سيرًا. والرائح: الذاهب. وإتعاب: مصدر أتعب.

(٧) وشفاء هذه الروح، إلى آخر البيت: متَّصل بالبيت الذي قبله. والأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.

(٨) العلا: إمَّا الرفعة والشرف، وإمَّا جمع عليا: وهي المنزلة الرفيعة. الفعال النابه: الفعل الشريف المذكور.

(٩) حاز الشيء ضمَّه إليه. والثرى: التراب الندي. والآثار: جمع أثر، وهو ما بقي من الشيء. واستولت على آدابه: غلبت عليها وتمكَّنت منها. والآداب: جمع أدب، وهو كل ما يتحلى به الإنسان من فضيلة.

(١٠) المدلل بماله.. إلخ: الذي يتيه به على أقرانه. والجاه: القدر والمنزلة. ويجلُّ: يعظم.

(١١) الأديم: الجلد المدبوغ، وقد يطلق على وجه الأرض، وهو المراد هنا. يصدُّ عن حضاره: يعرض عنهم، والحضار: جمع حاضر. وجفن العين: غطاؤها من أعلاها وأسفلها، والمراد العين نفسها. والغيَّاب: جمع غائب.

(١٢) الديباجتان: الخدَّان، أي إلا فتى يمشي على وجه الأرض يجدد خديه والمراد ما يكون له كالخدَّين لوجه الإنسان.

(١٣) القارعة: الشديدة من شدائد الدهر. والصعيد: بلاد مصر العليا. والباز والعقاب: من جوارح الطير، يقول: إن تلك البعوضة صادت في الجو مَنْ كان يصيد بازاته وعقبانه.

(١٤) الخرطوم: الأنف. والمراد بالذبابة: تلك البعوضة نفسها. وصفحة كل شيء: جانبه. وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

(١٥) الخافية: واحدة الخوافي، وهي ما دون الريشات العشر من مقدِّم الجناح. والقضاء هنا: معناه الصنع والتقدير، والمراد به قضاء الله. ويقال: رأرأ بعينيه، إذا حدد النظر أو إذا أدارهما. والكريمتان: العينان. واللعاب: ما يسيل من الفم. والضمير في «طارت» يرجع إلى «الذبابة».

(١٦) العصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين، والمراد هنا الجماعة بغير عدد. والكذاب: الكذب.

(١٧) ضنائن علمه: أي خصائص علمه مما اختصَّ به نفسه فلا يعلم به سواه. وغيابه: إمَّا جمع غيب وهو ما غاب عنك من الأمر، وإمَّا مصدر غاب يغيب وهو كالغيب في معناه.

(١٨) آب: رجع. جبَّار القرون: يريد توت عنخ آمون. ويوم الحساب: اليوم الآخر.

(١٩) ذروه: اتركوه. بلد العجائب: الأقصر، لما فيها من عجائب الآثار. مغمدًا: أي باقيًا في قبره كما يبقى السيف في غمده. لا تشهروه (من شهر السيف إذا سله): يعني لا تخرجوه محمولاً على الرقاب كما كان يحمل على الرقاب التي يملكها وهو حي.

(٢٠) المستبد: من استبد بالشيء إذا انفرد به. يطاق: من أطاق الشيء إذا قدر عليه. والناووس: هو مقبرة النصارى خاصة، وقد يستعمل لتابوت الميت. الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.

(٢١) قراب السيف: قيل هو غمده، وقيل: هو وعاء يوضع فيه السيف بغمده، وقيل غير ذلك.

(٢٢) تقمَّص روحه قمص البعوض: أي لبسها، والقمص: جمع قميص. المستخس: الخسيس. الإهاب: الجلد الذي لم يدبغ.

(٢٣) يجزيك: يقضيه لك ويثيبك عليه. الردى: الهلاك. الوفاء: ضد الغدر. الصحاب: جمع صاحب.

(٢٤) البشير: المبشِّر بالخير، قيم القصر: سائس أمره. النبلاء: جمع نبيل وهو الذكي النجيب. الحجاب: جمع حاجب.

(٢٥) أقوام: جمع قوم. حشدتهم: جمعتهم. الساح: جمع ساحة وهي الموضع المتَّسع أمام الدار ونحوها. الرحاب جمع رحبة وهي الساحة.

(٢٦) البنان: أطراف الأصابع ومفردها بنانة. الترب: التراب. أترابه: لداته، جمع ترب وهم مَنْ ولدوا معه.

(٢٧) أخنى عليه: أهلكه. الحِمام: الموت. الأحساب: جمع حسب، وهو ما للرجل من مفاخر الآباء، أو هو دين الرجل أو ماله.

(٢٨) العتيد: الحاضر المهيأ. دبَّ: يقال دبَّ الصبي إذا مشى. شبَّ: أدرك شبيبته. الأسراب: جمع سرب وهو البيت تحت الأرض.

(٢٩) زايل: فارق. والموتى: جمع ميِّت. محاجرهم: النواحي التي اتخذت لهم من الأرض، أو هي القبور في الأرض المتحجِّرة، الضباب: جمع ضب.

(٣٠) لم يأله صبرًا: أي لم يقصر في حمله على الصبر. ولم ينِ همة: لم تضعف همته، من ونى في الأمر إذا ضعف عنه. انثنى: رجع. الكنوز: جمع كنز. الرغاب: جمع رغيبة، وهي هنا الشيء المرغوب فيه، وتكون أيضًا بمعنى العطاء الكثير.

(٣١) أفضى إلى ختم الزمان: وصل إليه. فضَّه: كسره. حبا إلى التاريخ: دنا منه. المحراب: صدر المجلس، وقيل: هو أشرف المجالس، ومنه محراب الصلاة.

(٣٢) طوى القرون: قطعها. والقرون: جمع قرن، وهو الجيل من الناس، مدَّته ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل أقل. القهقرى: الرجوع، أي طوى القرون حتى رجع بها القهقرى.

(٣٣) المندل: العود المعروف بطيب رائحته. الفيَّاح: الفياض بنشره وطيبه. اللماح: الشديد اللمعان. وشي الثوب: نقشه وتحسينه. والضمير في «سريره» و«ثيابه» لفرعون.

(٣٤) الرَّاح: جمع راحة وهي الكف. القاطفين: جمع قاطف وهو من يجتني الثمر. أثمار. جمع ثمر. أرطاب: جمع رطب وهو ما نضج من البلح، والمراد بالأثمار والأرطاب: التحف والآثار الغالية التي وُجِدَت في قبر فرعون وهي لم تزل على جدتها كأنها مصنوعة الآن.

(٣٥) الجدث: القبر. حوى الشيء: أحرزه. غمدان: قصر كان مشهورًا، يرجحون أن يشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ جدُّ بلقيس ملكة اليمن هو الذي بناه، وجعل له أربعة وجوه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا، وقيل: كان ارتفاع السقف مائتي ذراع. الهالة: دارة القمر. الغاب: الرماح، جمع غابة.

(٣٦) العمران: اسم لما يعمر به المكان وتحسن حاله. الصرح: القصر، وكل بناء مرتفع. الحضارة: الإقامة في الحضر. الأطناب: جمع طنب وهو الحبل الذي يشدُّ به السرادق، ويستعمل مجازًا في الناحية وهي المراد هنا.

(٣٧) تحسُّ العلم: تشعر به. ثمَّ ظرف مكان بمعنى هناك. العباب: ارتفاع السيل وكثرته. العجاب: ما جاوز حد العجب.

(٣٨) المحلَّة: المنزل. المُنَاخ: مبرك الإبل، ومحل الإقامة مجازًا. الركاب: الإبل والأخرى: يريد بها الآخرة، والخطاب للورد المرثي، يقول: بلغت منزلاً هو نهاية المسير لأهل الدنيا وهو القبر.

(٣٩) النزل: ما هيئ للضيف أن ينزل عليه. أفاق صحا واستيقظ. الهوى: إرادة النفس غير المحمودة. التلعاب: اللعب.

(٤٠) الأحقاد: جمع حقد وهو الغضب الثابت. سلا الشيء: نسبه وغفل عن ذكره. الهوى في هذا البيت: العشق.

(٤١) ملاك الشيء: قوامه. السلوة: السلو. الطولى: مؤنث الأطول، أي العظيمة الطول. القوام: ما يقوم به.

(٤٢) دمع مرقوق: أي دائر في حملاق العين. المزن: السحاب البيض، جمع مزنة. التسكاب: الانسكاب.

(٤٣) الغيم: السحاب، واحدته غيمة. الأعطاف: جمع عطف وهو جانب الشيء، وعطف الرجل جانبه من رأسه إلى وركيه.

(٤٤) الحرباء: اسم للذكر، والأنثى حرباءة، وهي حيوان اسمه «أم حبين» يستقبل الشمس ويدور معها كيف دارت ويتلوَّن بحرها ألوانًا مختلفة، وهو يضرب مثلاً في التقلُّب. القيعة: قيل جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال، وقيل هي مفرد في معنى القاع. السراب: ما تراه نصف النهار من شدَّة الحر كأنه ماء يلصق بالأرض.

(٤٥) البردي: نبات تعمل منه الحصر، وهو ينبت كثيرًا في مناقع الماء. بردين مثنى برد وهو ثوب مخطط، والمراد هنا مطلق ثوب. الشعاب: جمع شعب وهو الطريق المنفرج بين جبلين. والضمائر في «برديه» و«شعابه» يرجع إلى وادي الملوك.

(٤٦) نوَّه. به: رفع ذكره وعظَّمه. الأديم: هنا وجه الأرض. البطاح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. الهضاب: جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

(٤٧) الفنُّ: في الأصل النوع من الشيء، ثم توسَّعوا فأرادوا به الصناعة والعلم وما إليهما. والإعجاز: مصدر أعجز، وهو أداء المعنى بطريق لا قدرة لأحد عليها.

(٤٨) فصَّلته: بينته. والبرق: وميض السحاب، واستعمل الآن في نقل الرسالات بـ «التلغراف» مجازوًا لسرعة النقل، كأنه الوميض. البريد: المسافة التي يقطعها

الرسول، والمراد به الآن نقل الرسالات بواسطة «البوستة». الإيجاز: اختصار الكلام. والإطناب: إطالته.

(٤٩) طلعا: أي البريد والبرق. لوزان: مدينة في سويسرة كان بها مجلس الدول الذي تمَّ فيه الصلح بين تركية واليونان سنة ١٩٢٢، وإلى هذا المجلس يشير بقوله (والدنيا بها). المحيط: البحر الذي يحيط باليابسة. وما وراء عبابه: بلاد أمريكا التي يحيط بها المحيطان المتجمدان من الشمال والجنوب، والمحيطان الأطلسي والهادي من الشرق والغرب، والمعنى أن البرق والبريد طلعا على العالم المتحضر كله بخير تلك الآثار التي وجدت في القبر.

(٥٠) الشافع: مَنْ يعاونك عند غيرك أو يسعى لك في مطلبه. المتقن: المحكم. اللباب: المختار الخالص من كل شيء.

(٥١) الركن: الجانب الأقوى من الشيء. سحبان: رجل من وائل كان خطيبًا فصيحًا، ويضرب به المثل في ذلك، فيقال: «أخطب من سحبان».

أيها العمال

أيُّها العمالُ، أفنوا الـ ـعمرَ كدًّا واكتسابا
واعمروا الأرضَ، فلولا سعيُكم أمست يَبابا[1]
إن لي نصحًا إليكم إن أذِنْتُم وعِتابا
في زمان غَبِيَ النا صحُ فيه، أو تغابى
أين أنتم من جدود خلَّدوا هذا الترابا؟
قَلَّدوه الأثرَ المُعْـ ـجِزَ، والفنَّ العُجابا
وكَسَوْهُ أبدَ الدهـ ـرَ من الفخر ثيابا
أتْقَنوا الصنعَةَ، حتى أخذوا الخُلْدَ اغتصابا
إن للمتقينِ عند الله والناسِ ثوابا
أتْقِنُوا، يُحْبِبْكُمُ اللهُ، ويرفْعكم جنابا
أرضيتم أن تُرى (مصـ ـرُ) من الفن خرابا؟
بعد ما كانت سماءً للصناعاتِ وغابا؟

***

أيها الجمعُ، لقد صر تَ من المجلس قابا[2]
فكنِ الحُرَّ اختيارًا وكن الحُرَّ انتخابا
إن للقوم لعيْنًا ليس تَألوكَ ارتقابا
فتوقع أن يقولوا: مَنْ عن العمالِ نابا؟

لـيـس بـالأمـر جـديـرًا كلُّ مَنْ ألقَى خطابا
أو سخا بالمال، أو قدَّ م جـاهًـا وانـتـسـابـا
أو رأى أُمَّـيَّـةً، فـاخــ تلب الجـهـلَ اختلابا
فتخـيَّـرْ كلَّ من شبَّ على الصـدق وشـابـا
واذكرِ الأنـصـارَ بـالأمــ ـس، ولا تَنْسَ الصِّحابا
أيـهـا الـغـادون كـالنحــ ـلِ ارتـيـادًا وطـلابـا
في بكور الطير للرز قِ مـجـيـئًـا وذهـابـا
اطـلـبـوا الـحـقّ بـرفـق واجعلوا الواجبَ دابا[٣]
واستقيموا يفتحِ اللهُ لـكـم بـابًـا فـبـابـا
اهجروا الخمر تطيعوا اللهَ أو تُـرضـوا الـكـتـابـا
إنـهـا رجسٌ، فطُوبَى لامـرئٍ كـف وتـابـا
تُرعِشُ الأيدي، ومن ير عش من الصناعِ خابا
إنما العاقلُ مَنْ يجــ ـعلُ للدهر حسابا
فـاذكروا يومَ مَشِيبٍ فيه تَبكون الشبابا
إن لـلـسـنِّ لـهـمًّـا حين تعلو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيب والضعف نِصابا
واذكروا في الصحة الدا ءَ إذا ما السُّقمُ نابا
واجعلوا المال ليومٍ فيه تَلْقَوْن اغتصابا
قد دعاكم ذنبَ الهيــ ـئـةِ داع فأصابا
هي طاووسٌ، وهل أحــ ـسنُه إلا الذُّنابَى؟

هوامش

(١) الأرض اليباب: الخراب.
(٢) يريد بالمجلس: دار النيابة.
(٣) أي دأبا، وخففت للضرورة.

نجاة[١]

هنيئًا أميرَ المؤمنين، فإنَّما … نجاتُك للدَّين الحنيف نجاةُ[١]
هنيئًا لطه، والكتابِ، وأمةٍ … بقاؤكَ إبقاءٌ لها وحياةُ[٢]
أخذتَ على الأقدار عهدًا ومَوْثِقًا … فلستَ الذي تَرقى إليه أذاةُ[٣]
ومن يكُ في بُرْدِ النبيِّ وثوبِه … تَجُزْهُ إلى أعدائه الرَّمَيّاتُ[٤]
يكاد يسيرُ البيتُ شكرًا لربه … إليكَ، ويسعى هاتفًا عرفاتُ[٥]
وتستوهب الصفحَ المساجدُ خُشَّعًا … وتبسط راحَ التَّوْبة الجُمعاتُ[٦]
وتستغفرُ الأرضُ الخصيبُ وما جنت … ولكنْ سقاها قاتلون جناةُ[٧]
وتُثْنِي من الجرحى عليك جراحُهم … وتأتي من القَتْلى لكَ الدعواتُ[٨]
ضحكتَ من الأهوال، ثم بكيتَهم … بدمع جرتْ في إثره الرَّحماتُ[٩]
تُثابُ بغاليه، وتُجزَى بطُهْرِه … إلى البعث أشلاءٌ لهم ورُفاتُ[١٠]
وما كنتَ تُحييهم، فكِلْهُم لربهم … فما مات قومٌ في سبيلك ماتوا[١١]
رمتهم بسهم الغدر عند صَلاتهم … عصابةُ شرٍ للصلاة عداةُ[١٢]
تبرَّأ عيسى منهمُ وصِحَابه … أأتْباعُ عيسى ذي الحنانِ جُفاةُ؟[١٣]
يُعادونَ دِينًا، لا يُعادون دولةً … لقد كذبت دعوى لهم وشكاةُ[١٤]

[١] أُلْقِيَت على جلالة الخليفة قذيفة في سبتمبر سنة ١٩٠٥، ثم شاء الله أن يكتب له النجاة من شرِّها؛ فكتب الشاعر يهنئه.

ولا خيرَ في الدنيا، ولا في حقوقها ... إذا قيل: طُلَّابُ الحقوقِ بُغاة ١٥
بأيِّ فؤادٍ تَلتقي الهولَ ثابتًا ... وما لِقلوبِ العالمين ثَبات؟ ١٦
إذا زُلزلتْ من حولك الأرضُ؛ رادها ... وقارُك حتى تسكنَ الجَنَبات ١٧
وإن خرجت نارٌ فكانت جهنما ... تُغذَّى بأجساد الورَى وثُقات ١٨
وترتجُّ منها لُجَّةٌ، ومدينةٌ ... وتَصلَى نواحٍ حَرَّها، وجِهات ١٩
تمشيتَ في بُرْدِ الخليل، فخضتَها ... سلامًا وبردًا حولك الغَمَرات ٢٠
وسرتَ ومِلءُ الأرض حولك أذْرُعٌ ... ودرعُك قلبٌ خاشعُ وَصَلاةُ ٢١
ضحوكًا، وأصنافُ المنايا عَوابسٌ ... وقورًا، وأنواعُ الحُتوفِ طُغاة ٢٢
يحوطك إن خان الحُماةَ انتباهُهُم ... ملائكُ من عند الإله حُماة ٢٣
تشير بوجهٍ أحمديًّ، مُنوَّرٍ ... عيونُ البرايا فيه مُنحسرات ٢٤
يحيِّي الرعايا، والقضاءُ مُهلِّلٌ ... يحييه، والأقدارُ معتذِرات ٢٥
نجاتُكَ نُعْمَى للإله سنِيّةٌ ... لها فيك شكرٌ واجبٌ وزكاة ٢٦
فصيَّر أميرَ المؤمنين ثناءَها ... مَآثِرَ تُحيي الأرضَ وهي موات ٢٧
إذا لم يُفتنا من وجودك فائت ... فليس لآمالِ النفوس فوات ٢٨
بَلوْناكَ يقظانَ الصوارمِ والقَنا ... إذا ضَيَّعَ الصَّيدَ الملوكَ سُبات ٢٩
سهرتَ، ولذَّ النومُ — وهوَ مَنيَّةٌ — ... رَعايا تولَّاها الهَوى ورُعاةُ ٣٠
فلولاكَ مُلكُ المسلمين مُضيَّعٌ ... ولولاكَ شملُ المسلمين شَتات ٣١
لقد ذهبت راياتُهم غير رايةْ ... لها النصرُ وَسْمٌ، والفتوحُ شِيات ٣٢
تَظلُّ على الأيام غَرَّاءَ، حُرَّةً ... مُحجَّلةً في ظلِّها الغزَوات ٣٣
حَنيفيَّةً، قد عزَّها، وأعزَّها ... ثلاثون مَلْكًا، فاتِحون، غُزاة ٣٤
حماها، وأسماها على الدهر منهمُ ... ملوكٌ على أملاكه سَرَوات ٣٥
غمائمُ في مَحْل السنين، هواطلٌ ... مصابيحُ في ليل الشكوكِ، هُداة ٣٦
تهادت سلامًا في ذُراك مطيفةً ... لها رغباتُ الخلقِ، والرهبات ٣٧
تموتُ سِباعُ الجوِّ غَرْثَى حِيالَها ... وتحيا نفوسُ الخَلقِ والمُهجات ٣٨
سننْتَ اعتدالَ الدهر في أمر أهله ... فبات رَضِيًّا في دَراكَ، وباتوا ٣٩
فأنتَ غمامٌ، والزمانُ خميلةٌ ... وأنتَ سِنانٌ، والزمانُ قَنَاة ٤٠
وأنتَ مِلاك السلم إن مَادَ رُكنُه ... وأشفقَ قُوَّام عليه ثقات ٤١

أكان لهذا الأمر غيرك صالحٌ وقد هَوَّنَتْه عندك السنوات؟[٤٢]
ومَن يَسُسِ الدنيا ثلاثين حِجَّةً تُعِنْهُ عليها حكمةٌ، وأناة[٤٣]
ملكتَ — أميرَ المؤمنينَ — ابنَ هانئ بفضلٍ، له الألبابُ مُمْتلَكاتُ
وما زلتُ حَسَّانَ المقام، ولم تزل تليني، وتسري منكَ لي النفحاتُ[٤٤]
زَهدتُ الذي في راحتيك، وشاقني جوائزُ عند الله مُبْتَغَياتُ[٤٥]
ومَن كان مثلي أَحمدَ الوقتِ، لم تجُزْ عليه — ولو من مثلك — الصدقاتُ[٤٦]
ولي دُرَرُ الأخلاق في المدح والهوى وللمُتنبي دُرَّةٌ، وحَصاة[٤٧]
نجت أمةٌ لمَّا نجوتَ، ودُوركت بلادٌ، وطالت للسرير حياة[٤٨]
وصِينَ جلالُ الملك، وامتدَّ عزُّه ودام عليه الحسنُ والحسنات[٤٩]
وأَمَّنَ في شرق البلادِ وغربها يتامى على أقواتهم، وعُفاة[٥٠]
سلامِىَ عن هذا المقامِ مُقصَّر عليكَ سلامُ الله والبرَكات[٥١]

هوامش

(١) أتاك الشيء هنيئا، وهو هنيء لك: أي سائغ ثابت لا مشقَّة فيه.

(٢) طه: من أسماء النبي محمد ﷺ. الكتاب: القرآن الكريم. والأمة: المسلمون جميعًا.

(٣) الأقدار: جمع قدر وهو ما يقدِّره الله من قضائه، ويعرفه بعضهم بأنه تعلُّق إرادة الله بالأشياء. العهد: هنا بمعنى الضمان. الموثق: العهد. ترقى إليه: تصعد. الأذاة: المكروه.

(٤) البرد: ثوب مخطط. تجزه: تتعداه إلى غيره. الرميات: جمع رمية.

(٥) البيت: الكعبة. عرفات: مكان على مقربة من مكة، الوقوف به ركن من أركان الحج.

(٦) تستوهب الصفح: تطلب هبته. والصفح: الإعراض عن الذنب. خُشَّعًا: جمع خاشع. الراح: جمع راحة وهي الكف.

(٧) تستغفر: تطلب المغفرة. الأرض الخصيب: الكثيرة العشب، كناية عن كثرة خيرها. و«ما» في «ما جنت» للنفي.

(٨) تثني عليك: تمدحك. الجرحى: جمع جريح. والجراح: جمع جُرح. القتلى: جمع قتيل.

(٩) الأهوال: جمع هول، وهو الخوف من الأمر لا يدري الإنسان ما يهجم عليه منه. بكيتهم: أي الجرحى والقتلى. الرحمات: جمع رحمة.

(١٠) تثاب: تجازى. بغاليه وبطهره: الضمير فيها للدمع. البعث: هنا من بعث الموتى، أي نشرهم يوم القيامة. الرُّفات: الحطام وكل ما تكسَّر وبلي. أشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرُّق.

(١١) كِلْهم لربهم: من وكل إليه الأمر، أي تركه له وفوَّضه إليه. في سبيلك: أي من أجلك وبسببك.

(١٢) الغدر: الخيانة وعدم الوفاء. الجماعة: قبل العشرة، وقيل ما بين العشرة والأربعين. العداة: جمع عدوٍّ، والمراد نصارى الأرمن الذين دبَّروا حادث القنبلة.

(١٣) تبرأ منه: تخلَّص منه وأنكره. عيسى: ابن مريم النبي (عليه السلام). صحاب: جمع صاحب. أتباع جمع تابع، والهمزة للاستفهام. الحنان: الرحمة. الجفاة: جمع جافٍ وهو الغليظ الخُلُق.

(١٤) الشكاة: الشكوى وهي التظلُّم.

(١٥) الطلاب: جمع طالب. البغاة: جمع باغٍ وهو الظالم.

(١٦) الفؤاد: القلب. تلتقي الهول: تستقبله. الهول: المخيف المفاجئ. الثبات: الاستقرار، والخطاب لأمير المؤمنين.

(١٧) زلزلت الأرض: أرجفت. راد الأرض: تفقَّدها ليرى هل تصلح للنزول بها. الوقار: الحلم والرزانة. والجنبات: النواحي، جمع جنبة.

(١٨) تغذى، من غذَّاه: أي أطعمه. أجساد: جمع جسد. الورى: الخلق. تُقات: من قاته، أعطاه قوتًا وهو ما يؤكل ليمسك الرمق.

(١٩) ترتَّج: تضطرب. لجَّة الماء: معظمه. تصلى حرَّها: تجده وتحسُّه. النواحي: جمع ناحية. الجهات: جمع جهة. والمراد: يرتج منها البرُّ والبحر، وتخترق بها جهات الأرض ونواحيها، أي أنها نار عامة عظيمة.

(٢٠) تمشيت: مشيت. البرد. الثوب. الخليل: هو النبي إبراهيم (عليه السلام)، وقصة خوضه النار التي أوقدها له النمروذ مشهورة. سلامًا: أي سلامة. وبردًا: أي لا حرًا. الغمرات: الشدائد والمكاره.

(٢١) ملء الشيء: ما يملؤه. أدرع جمع درع، وهي ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس في الحرب؛ للوقاية من سلاح العدوِّ.

(٢٢) الضحوك: الكثير الضحك. المنايا: جمع منيَّة وهي الموت. عوابس: كوالح الوجوه متجهمات. الوقور: الحليم الرزين. الحتوف: جمع حتف وهو الموت أيضًا. طغاة: جمع طاغٍ وهو الظالم المسرف في ظلمه.

(٢٣) يحوطك: يحفظك ويتعهَّدك. الحماة: جمع حام. الانتباه: اليقظة للأمر. والملائك: الملائكة.

(٢٤) وجه أحمدي: منسوب إلى أحمد وهو النبي ﷺ نسبة تشريف وتبعية. منوَّر: مضيء. منحسرات: يريد حسيرات، والعين الحسيرة الكليلة التي ينقطع بصرها من طول المدى.

(٢٥) يحيي الرعايا: يسلم عليها. ورعايا الملك: القوم الخاضعون له، جمع رعيَّة. القضاء هنا: تقدير الله. مهلل: من التهليل وهو رفع الصوت بلا إله إلا الله. والأقدار: جمع قدر.

(٢٦) النعمى، كالنعمة: ما أنعم به عليك. سنيَّة: رفيعة عظيمة.

(٢٧) صيِّر: أي اجعل. مآثر: جمع مأثرة وهي المكرمة. أرض موات: لا ينتفع بها.

(٢٨) فاته الشيء: أعوزه وذهب عنه فلم يدركه. الآمال: جمع أمل وهو الرجاء.

(٢٩) بلوناك: جرَّبناك واختبرناك. اليقظان: المتنبه المستيقظ. الصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع. القنا: جمع قناة وهي الرمح. الصيد. جمع أصيد وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا ولا شمالاً، والأصل أنه الجمل الذي لا يستطيع الالتفات من داء الصيد. السُّبات: النوم والراحة.

(٣٠) سهرت: أرقت فلم تنم. لذَّ النوم رعايا ورعاة: أي صار لذيذًا لهم. والرعاة: جمع راعٍ وهو الوالي.

(٣١) مضيَّع: مهمل أو مفقود. الشمل: ما اجتمع من الأمر وما تفرَّق منه، يقال: جمع الله شملهم أي ما تشتت من شملهم، وفرَّق الله شملهم أي ما اجتمع منه. الشتات: المشتت المتفرق.

(٣٢) الراية: العلَم، جمعها رايات. الوسم: الأثر والعلامة. الفتوح: جمع فتح وهو النصر. الشيات: جمع شية وهي العلامة.

(٣٣) تظل: تبقى، والمراد الراية. الغرَّاء: مؤنث الأغرِّ، وهو الفرس بجبهته بياض قدر الدرهم، والأبيض من كل شيء، والكريم الفعال، الواضحها، ومن المجازم:

يومٌ أغرُّ محجَّل، ومثله: راية غرَّاء محجَّلة. المحجَّلة: من التحجيل وهو بياض في قوائم الفرس، والمراد أن بها بياضًا كأنه التحجيل. الغزوات. جمع غزوة: وهي الواحدة من الغزو، وهو المسير إلى قتال العدو.

(٣٤) الحنيفية: المائلة إلى الإسلام الثابتة عليه، وهو وصف للراية أيضًا. عزَّها: قواها. وأعزَّها: أجلَّها. ملكًا: لغة في ملك. غزاة: جمع غازٍ.

(٣٥) حماها: دافع عنها. أسماها: أعلاها. سروات: سادات ورؤساء، وضمير «حماها» و«أسماها» للراية.

(٣٦) غمائم: سحائب وهي جمع غمامة. المحل: الجدب ويبس الأرض من الكلأ لانقطاع المطر. الهواطل: جمع هاطلة وهي السحابة التي يتتابع مطرها. مصابيح: جمع مصباح وهو السراج. هداة. جمع هادٍ وهو المرشد الدال على الطريق.

(٣٧) تهادت: من التهادي وهو أن يمشي الرجل وحده مشيًا غير قوي متمايلاً، والضمير عائد إلى الراية. الذرا: أعالي الأشياء، واحدتها ذروة. مطيفة: من أطاف بالشيء ألَمَّبه وقاربه أو حام حوله أو أحاط به. الرغبات جمع رغبة وهي إرادة الشيء والحرص عليه. الرهبات: جمع رهبة وهي الخوف.

(٣٨) السباع: جمع سبع وهو المفترس من الحيوانات مطلقًا، والمراد بسباع الجو سباع الطير. غرثى: جمع غرثان وهو الجائع. حيالها: أي قبالتها وإزاءها. المهجات: جمع مهجة وهي الدم، أو هي دمُّ القلب، يقال: سالت مهجته والنفس، ويقال: بذلت له مهجتي، والخالص من كل شيء.

(٣٩) سننت: أبنت وصوَّرت. والاعتدال: الاستقامة. ورضيًا: راضيًا. والذرا: الملجأ.

(٤٠) الغمام: السَّحاب. والخميلة: الشجر الكثير الملتف حيث كان، وهي أيضًا الموضع الكثير الشجر. السنان: نصل الرمح. القناة: الرمح.

(٤١) ملاك السلم: قوامه الذي يملك به. والسلم السلام والأمان. وماد: تحرَّك واضطرب. وقوَّام: جمع قائم. وثقات: جمع ثقة، يقال هو ثقة أي موثوق به.

(٤٢) هوَّنته: سهلته وخففته. والسنوات: جمع سنة.

(٤٣) يسس: من ساس الشيء دبَّره وقام بأمره. يعنه: يساعده ويظاهره. والحكمة: العدل، والعلم، ووضع الأمر في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الرفق، وهي الحلم أيضًا.

(٤٤) ما زلت حسَّان المقام: أي ما زلت قائمًا منك مقام حسَّان من النبي ﷺ، وهو حسَّان بن ثابت الشاعر والصحابي، تليني: تدنو مني. تسري: تتسلسل. النفحات: العطايا.

(٤٥) زهدت الشيء: تركته ورغبت عنه. الراحتان: الكفَّان. شاقني جوائز: هيجتني. الجوائز: جمع جائزة وهي العطيَّة. مبتغيات: مطلوبات.

(٤٦) لم تجز: لم تكن جائزة. الصدقات: جمع صدقة وهي العطيَّة، يُرَاد بها الثواب.

(٤٧) الدرر: جمع درة وهي اللؤلؤة العظيمة. المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور. الحصاة: الحجر الصغير، يريد أن للمتنبي الجيد والرديء من الشعر، أمَّا هو فله الجيد دائمًا.

(٤٨) نجت: خلصت. ودوركت: فعل المجهول من داركه إذا لحقه. السرير: سرير الملك.

(٤٩) صين: حُفِظَ. الجلال: التناهي في عظم القدر ورفعة الشأن. والعزُّ: القوة وعدم الذلِّ. والحسن: الجمال. والحسنات: جمع حسنة وهي ضد السيئة.

(٥٠) أمن: أعطى الأمان. يتامى: جمع يتيم وهو مَنْ مات أبوه. أقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. العفاة: طلاَّب المعروف، جمع عافٍ.

(٥١) مقصِّر: من قصر عن الأمر إذا تركه ولم يقدر عليه.

إلى عرفات

إلى عرفاتِ اللهِ يا خيرَ زائرٍ ... عليك سلامُ الله في عرفاتِ[١]
ويومَ تُولِّي وجهةَ البيت ناضرًا ... وسيمَ مجالي البشر والقسمات[٢]
على كلِّ أفقٍ بالحجاز ملائكٌ ... تزُفُّ تحايا الله والبركات[٣]
إذا حُدِيَتْ عيسُ الملوك، فإنسهم ... لِعيسك في البيداءِ خيرُ حُداة[٤]
لدى (الباب) جبريلُ الأمين، براحِهِ ... رسائلُ رحمانيَّةُ النَّفحَات[٥]

***

وفي الكعبة الغرَّاءِ ركنٌ مُرَحَّبٌ ... بكعبةِ قُصَّادٍ، ورُكْنِ عُفاة[٦]
وما سكب الميزابُ ماءً، وإنما ... أفاض عليك الأجرَ والرَّحمات[٧]
(وزمزمُ) تجري بين عينيْك أعينًا ... من الكَوْثرِ المعسولِ مُنفجِرات[٨]
ويرمون إبليسَ الرجيمَ، فيصطلي ... وشانِيكَ نيرانًا من الجمَرات[٩]
يُحييّكَ (طه) في مضاجع طُهره ... ويعلم ما عالجتَ من عقبات[١٠]
ويُثني عليك (الراشدون) بصالحٍ ... وربَّ ثناءٍ من لسان رُفات[١١]
لك الدينُ يا ربَّ الحَجِيج، جمعَتهم ... لبيتٍ طَهورِ السّاج والعَرصات[١٢]
أرى الناسَ أصنافًا، ومن كل بقعةٍ ... إليك انتهوْا من غُربَةٍ وشتات[١٣]
تساوَوْا، فلا الأنسابُ فيها تفاوتٌ ... لديك، ولا الأقدارُ مختلفات
عَنَتْ لك في التُّرْب المقدِّسِ جبهةٌ ... يَدينُ لها العاتي من الجبهات[١٤]
مُنَوَّرَة كالبدر، شَمَّاءُ كالسُّها ... وتُخفَض في حَقٍّ، وعند صلاة[١٥]

ويارِبِّ، لو سخَّرتَ ناقةَ (صالحٍ) … لعبدك، ما كانت من السَّلسات[١٦]
ويا ربِّ، هل سيارة أو مطارةٌ … فيدنو بعيدُ البيدِ والفَلَوات؟[١٧]
ويا ربِّ، هل تُغني عن العبد حَجَّةٌ … وفي العمر ما فيه من الهفوات؟[١٨]
وتشهدُ ما آذيتُ نفسًا، ولم أضِرْ … ولم أبْغِ في جَهري، ولا خطراتي[١٩]
ولا غلبتني شِقوةٌ أو سعادةٌ … على حكمةٍ آتيتَني وأناة[٢٠]
ولا جال إلا الخيرُ بين سرائري … لدى سُدةٍ خيريَّةِ الرغبات[٢١]
ولا بتُّ إلا كابن مريم، مشفقًا … على حُسَّدي، مستغفرًا لعداتي[٢٢]
ولا حُمِّلَتْ نفسٌ هَوى لبلادها … كنفسيَ، في فِعلي، وفي نفَثاتي[٢٣]
وإني — ولا منٌّ عليك بطاعة — … أُجِلُّ، وأُغلي في الفروض زكاتي[٢٤]
أبالغُ فيها وهي عدل ورحمة … ويتركها النُّسَّاك في الخلوات[٢٥]
وأنت وليُّ العفو، فامحُ بناصعٍ … من الصفح ما سوَّدتُ من صفحاتي[٢٦]
ومَنْ تضحَكِ الدنيا إليه فيغْتَرر … يمتْ كقتيل الغيد بالبسمات[٢٧]
وركب كإقبالِ الزمان، مُحجَّل … كريمِ الحواشي، كابر الخطوات[٢٨]
يسيرُ بأرض أخرَجتْ خيرَ أمَّة … وتحت سماءِ الوحي والسورات[٢٩]
يُفيض عليها اليُمْنَ في غدواته … ويُضفِي عليها الأمنَ في الرّوحات[٣٠]

* * *

إذا زرتَ — يا مولاىَ — قبرَ محمدٍ … وقبَّلتَ مثوَى الأعظمِ العَطِرات[٣١]
وفاضت مع الدَّمع العيونُ مهابةً … لأحمدَ بين السِّتر والحُجرات[٣٢]
وأشرق نورٌ تحت كلِّ ثَرِيِّةٍ … وضاع أريجٌ تحت كل حَصاة[٣٣]
لمُظهر دينِ الله فوق تَنُوفَيةٍ … وباني صروح المجِد فوق فلاة[٣٤]
فقل لرسولِ الله: يا خَيْرَ مُرسَل … أبثُّك ما تدري من الحسرات[٣٥]
شعوبكُ في شرقِ البلادِ وغربَهَا … كأصحابِ كهفٍ في عميق سُبات[٣٦]
بأيْمَانهم نورانِ: ذِكرٌ، وسُنَّةٌ … فما بالُهم في حالِكِ الظلمات[٣٧]
وذلك ماضي مَجِدهم وفّخارِهم … فما ضرُّهم لو يعملون لأتي؟[٣٨]
وهذا زمانٌ، أرضُه وسماؤه … مجالٌ لمِقدامٍ كبيرِ حياة[٣٩]
مشى فيه قومٌ في السماءِ، وأنشئوا … بوارجَ في الأبراج ممتنِعات[٤٠]
فقل: ربَّ وَفِّق للعظائم أمتي … وَزَيِّنْ لها الأفعالَ والعزمات[٤١]

هوامش

(١) عرفات: اسم موضع وقوف الحاج على مقربة من مكة، وهو اسم واحد في صورة الجمع.

(٢) تولِّي وجهة البيت: تستقبلها. والوجهة: المكان الذي يستقبله الإنسان. ناضرًا من النضرة: وهي الحسن. وسيم: جميل مجالي البشر، والمراد الوجه. والبشر: طلاقة الوجه. القسمات: جمع قسمة وهي الوجه، وقيل: ما بين الوجنتين والأنف.

(٣) الأفق: الناحية. ملائك: جمع ملك. التحايا: جمع تحية.

(٤) حديت: من الحدُّاء وهو سوق الإبل والغناء لها. والعيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة. والبيداء: المفازة. الحداة. جمع حاد

(٥) جبريل: هو أمين الوحي (عليه السلام). والراح: جمع راحة وهي الكف.

(٦) مرحب: من رحَّب به أي قال له مرحبًا. وقُصَّاد: جمع قاصد. وعفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف.

(٧) سكب الماء: صبَّه. الميزاب (ويقال له مئزاب ومرزاب ومزراب): ما يسيل منه الماء من مكان عالٍ، قالوا: ومنه ميزاب الكعبة أي مصب ماء المطر من فوقها، وهو المراد هنا. أفاض: أفرغ.

(٨) زمزم: بئر عند الكعبة. والكوثر: نهر في الجنة، والكثير من الماء، والمعسول: الحلو.

(٩) إبليس: علَم جنس للشيطان. والرجيم: هو المطرود، والملعون، والمرجوم بالحجارة ويصطلي نيرانًا: يحترق بها. والشاني: المبغض، والجمرات: الحصيات، واحدتها جمرة.

(١٠) يحييك: من حيَّاه إذا قال له: حيَّاك الله، أي أطال عمرك. وطه: اسم النبي ﷺ ومضاجع: جمع مضطجع وهو مكان الاضطجاع. العقبات: واحدتها عقبة وهي الطريق الصعب في أعلى الجبل، والمراد هنا صعاب الأمور.

(١١) يثني عليك الراشدون: يذكرونك بخير. والراشدون: الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. والرفات: ما بلي من جسم الإنسان بعد موته.

(١٢) الحجيج: جمع حاج وهم الحجاج. والساح: جمع ساحة وهي ساحة الدار. والعرصات: جمع عرصة وهي البقعة من بين الدور ليس فيها بناء.

(١٣) الأصناف: الأنواع. والغربة: الاغتراب. والشتات: التفرُّق.

(١٤) عنت لك: خضعت وذلَّت. والترب: التراب. ويدين لها: يطيعها. والعاتي من الجبهات: أي الجبهة العاتية التي تجاوزت الحدَّ في الاستكبار والجبروت والخطاب لله تعالى، يريد أن جبهة الممدوح عنت الله، وهي التي أطاعها العتاة المتكبرون.

(١٥) منوَّرة: صفة للجبهة في البيت السابق. وشمَّاء: مرتفعة، صفة للجبهة أيضًا. والسها: كوكب من بنات نعش الصغرى. وتخفض: من الخفض ضد الرفع.

(١٦) سخرت: من التسخير، وهو تذليل الدابة وركوبها بغير أجرة. والسلسات: جمع سلسة وهي المنقادة.

(١٧) السيَّارة: صيغة مبالغة من السير، جعله المتأدبون اسمًا (للأتومبيل). المطارة: سمِّي بها المركبة التي تطير في الجو بالوسائل الصناعية. يدنو: يقرب. والبيد: جمع بيداء. والفلوات: جمع فلاة.

(١٨) هل تغني عن العبد حجة: أي هل تنفعه حجة في مهم أمره عند الله. والهفوات: الزَّلات.

(١٩) وتشهد أنت يا رب ما آذيت نفسًا: أي لم أصل إليها بأذى. ولم أضر: لم أفعل ما يضرُّ. ولم أبغ: لم أرتكب البغي. والجهر: العلانية. والخطرات: واحدتها خطرة وهي ما يلوح للإنسان في فكره.

(٢٠) الشقوة: ضد السعادة. والحكمة: العدل، والحلم، وقيل: ما يمنع الجهل، وقيل: هي كل كلام واقع الحق، وقيل: هي وضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الحلم.

(٢١) جال: طافٍ غير مستقر. والسرائر: جمع سريرة وهي ما أسرَّه الإنسان من أمره. والسدَّة الباب.

(٢٢) ابن مريم: عيسى (عليه السلام). ومشفقًا على حسدي: حريصًا على صلاحهم. والحُسَّد: جمع حاسد. مستغفرًا لعداتي: طالبًا المغفرة. والعداة: جمع عدوٍّ.

(٢٣) الهوى: الحب. والنفثات: جمع نفثة، تطلق على الشعر مجازًا فيقال: ما أحسن نفثات فلان، أي ما أحسن شعره.

(٢٤) المنُّ: الامتنان بتعداد الصنائع. وأجلُّ زكاتي: أعظمها. وأغليها أجعلها غالية والفروض: ما فرضه الله من العبادات الخمس، والزكاة أحد هذه الفروض.

(٢٥) أبالغ فيها: من بالغ في الأمر أي اجتهد فيه ولم يقصر. والنُسَّاك: جمع ناسك وهو العابد المتزهِّد. في الخلوات: متعلق بالنُسَّاك.

(٢٦) وليُّ العفو: أي متوليه وصاحبه، والعفو: ترك العقوبة والإعراض عن المؤاخذة. امح: أزل. الناصع: الخالص الصافي. والصفح: ترك الشيء والإعراض عنه.

(٢٧) يغترُّ: يخدع بالشيء ويظنُّ به الأمن فلا يتحفظ. والغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الطويلة العنق، والتي تنثني لينًا، والتي لطفت بشرتها وكمل حسنها، والبسمات: واحدتها بسمة وهي الضحكة من غير صوت.

(٢٨) المحجَّل من الخيل: ما في قوائمه بياض، والمعنى ركب مطاياه محجَّلة، أو محجل، ويكون المراد مشرق مضيء على سبيل المجاز، كقولهم: يوم أغرُّ محجَّل. والحواشي الجوانب والنواحي والكابر: رفيع الشأن.

(٢٩) يسير بأرضٍ: يريد أرض الحجاز، ويريد بخير أمة العرب خاصة والمسلمين عامة. والوحي: أصله كل ما ألقيته إلى غيرك، ثم غلب على ما يلقى للأنبياء من عند الله. والسورات: هي سورات القرآن، جمع سورة.

(٣٠) يفيض: يسيل. واليمن: الخير والبركة. والغدوات: جمع غدوة وهي المرة من الغدوِّ. ويضفي عليها الأمن: يسبغه عليها. والروحات: جمع روحة وهي المرة من الرواح. والغدوُّ والرواح على إطلاقهما: الذهاب والمجيء في أي وقت. وضمير «عليها» للأرض في البيت السابق.

(٣١) إذا زرت يا مولاي: الخطاب للخديو. والمثوى: المقام. والأعظم: جمع عظم. والعطرات: المتطيبات بالعطر.

(٣٢) فاضت: سأل ماؤها. والمهابة: الخوف والتوقير. وأحمد: اسم النبي ﷺ أيضًا. الستر: ما يستر به. والحجرات: جمع حجرة وهي البيت الصغير في الدار.

(٣٣) الثنية: طريق العقبة. وضاع: فاح. والأريج: الرائحة الطيبة.

(٣٤) مظهر دين الله: معلنه والجاهر به. والتنوفة: المفازة وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف. والصروح: جمع صرح وهو القصر، وكل بناء عالٍ. والفلاة: أي الصحراء القفر الواسعة.

(٣٥) أبثك: أطلعك. وما تدري: ما تعلم. والحسرات: جمع حسرة وهي أشد التلهُّف على الفائت.

(٣٦) شعوبك: جمع شعب وهو القبيلة العظيمة من الناس. والكهف: البيت الواسع المنقور في الجبل. والعميق: البعيد الغور. والسبات: النوم.

(٣٧) أيمانهم: جمع يمين، وهي الجهة المضادة لليسار والجارحة أيضًا، وهي المرادة هنا، والمعنى معهم نوران.. إلخ. والذكر: القرآن. والسنة: الشريعة، وقد تطلق عند الفقهاء على جملة أحاديث النبي ﷺ والبال. الحال والشأن، أي ماذا غَيَّر حالهم حتى ساروا في الظلمات الحالكة؟ والحالك: الشديد السواد. والظلمات: جمع ظلمة، وهي ذهاب النور.

(٣٨) المجد: العزُّ والرفعة. والفخار: المباهاة بالمناقب والمكارم.

(٣٩) المجال: مكان الجولان وهو الطواف في غير استقرار. المقدام: أصله الكثير الإقدام على العدوِّ، والمراد هنا الكثير الإقدام على عظائم الأمور.

(٤٠) مشى فيه: أي في هذا الزمان. وأنشئوا: أحدثوا. وبوارج: جمع بارجة وهي سفينة كبيرة للقتال. والأبراج جمع برج وهو في السماء بابها، وقيل منزلة القمر، وقيل الكوكب العظيم. وممتنعات: محتميات، والمعنى أن قومًا بلغوا من العزَّة في هذا الزمان أن مشوا في جوِّ السماء، يريد طاروا فيه وأنشئوا طيارات ترتفع حتى تكاد تصل إلى السماء.

(٤١) وفق للعظائم أمتى: ألهمها إياها. والعظائم: جمع عظيمة وهي ما عظم من الأمور. وزين لها الأفعال: اجعلها زينة عندها أي غير مشينة. والعزمات: جمع عزمة وهي الثبات والصبر فيما يعزم عليه.

مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات[1]

قمُ حيَّ هذي النَّيِّراتِ   حَيَّ الحسانَ الخيِّرات
واخفض جبينَك هَيبةً   للخُرَّد المتخفِّرات[1]
زيْنِ المقاصِر والحِجا   لِ، وزيْن محرابِ الصلاة[2]
هذا مقامُ الأمها   تِ، فهل قدرت الأمهات؟
لا تَلْغُ فيه، ولا تقل   غيرَ الفواصلِ مُحْكَمات[3]
وإذا خطبتَ فلا تكن   خَطْبًا على مِصَر الفتاة
اذكرْ لها اليابانَ، لا   أممَ الهوى المتهتِّكات
ماذا لَقِيتَ من الحضا   رة يا أخيَّ التُّرَّهات[4]
لم تلقَ غيَر الرقِّ من   عُسْرٍ على الشرقِّي عات
خُذ بالكتابِ، وبالحديـ   ـثِ، وسيرةِ السلَف الثِّقات[5]
وارجع إلى سنن الخليـ   ـقةِ، واتَّبِعْ نُظمَ الحياة
هذا رسولُ الله، لم   يُنْقص حقوقَ المؤمنات
العلمُ كان شريعةً   لنسائه المُتفقِّهات[6]
رُضْنَ التجارَةَ، والسيا   سةَ، والشئونَ الأخريات[7]
ولقد علت ببناتهِ   لُجَج العلوم الزاخرات

[1] أُلْقِيَت هذه القصيدة في جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية.

كانت سُكَيْنَةُ تملأُ الدنيـا، وتـــهـــزأُ بـــالـــرُّواة[٨]
روت الـحـديـثَ، وفـسَّـرتْ آيَ الـكـتـاب الـبـيِّـنـات
وحـضـارةُ الإسـلام تـنـــ ـطقُ عن مكان المسلمات
بـغـدادُ دارُ الـعـالـمَـا تِ، ومـنـزلُ الـمُـتـأدِّبـات[٩]
ودِمـشـقُ تـحـتَ أمَـيَّـةٍ أمُّ الـجـواري الـنـابـغـات[١٠]
وريـاضُ أنـدلـسٍ نَـمَـيْـــ ـنَ الهاتفاتِ الشاعرات[١١]

* * *

ادْعُ الـرجـالَ لـيـنـظـروا كـيـف اتـحـادُ الـغـانـيـات؟
والـنـفـعَ كيف أخذن في أسـبـابـه مـتـعـاونـات؟
لـمَّـا رأيـن نَـدى الـرَّجـا لِ تفاخُرًا، أو حبَّ ذات[١٢]
ورأيـن عـنـدهُـمُ الـصـنـا ئعَ والـفـنـونَ مُـضـيَّـعـات
والـبـرَّ عـنـد الأغـنـيـا ءِ من الشئون المهمَلات
أقـبـلـن يَـبـنـيـن الـمـنـا ئِـرَ لـلـنـجـاح مُـوفَّـقـات

* * *

لـلـصـالـحـاتِ عـقـائـلِ الــ ــوادي هوًى في الصالحات[١٣]
الـلـه أنـبـتـهـنَّ فـي طـاعـاتـه خـيـرَ الـنـبـات
فـأتـيـنَ أطـيـبَ مـا أتـى زَهَرُ المناقِب والصَّفات[١٤]
لم يكفِ أن أحسنَّ حتَّى زِدْنَ حَضَّ المحصنات؟[١٥]
يمشين في سوقِ الثوا بِ، مـسـاوِمـاتٍ، رابـحـات
يَـلـبَـسْـن ذُلَّ الـسـائـلا تِ، وما ذَكرن البائسات[١٦]
فـوجـوهُـهُـنَّ ومـاؤهـا سِتْرٌ على المتجمِّلات[١٧]
مـصـرٌ تُـجـدِّد مـجـدَهـا بـنـسـائـهـا الـمـتـجـدِّدات
الـنـافـرات مـن الـجُـمـو د، كأنه شَبَحُ الممات[١٨]
هـل بـيـنـهـنَّ جـوامـدًا فرقٌ وبين المُومِيات؟[١٩]
لما حضنَّ لنا القضيَّةَ كـن خـيـر الـحـاضِـنـاتِ[٢٠]
غـذَّيْـنَـهـا فـي مـهِـدهـا بـلـبـانِـهِـنَّ الـطـاهـرات

وسبقْن فيها المُعْلَميـ ـنَ إلى الكريهة مُعْلمات[21]
يَنْفُثْنَ في الفِتيات من رُوح الشجاعة والثّبات[22]
يَهْوَيْنَ تقبيل المُهنَّد أو مُعانقةَ القناة[23]
ويَريْن حتى في الكرى قُبَلَ الرجال مُحرَّمات

هوامش

(١) الخرَّد: العذارى. والمخفرات: المستحييات.

(٢) الزين: ضد الشين. والمقاصر: جمع مقصورة وهي إمَّا الدار الواسعة المحصنة، أو الحجرة من حجر الدار. والحجال: جمع حجل وهو الخلخال.

(٣) لا تلغُ: لا تقل باطلاً عن غير رويَّة وفكر. والفواصل: جمع فاصلة وهي من السجع بمنزلة القافية من الشعر.

(٤) التُرَّهات: الطرق الصغار تتشعب عن الجادة، واحدتها تُرْهة، ثم استعيرت للباطل.

(٥) الثقات: جمع ثقة وهي الموثوق به، ويوصف به المفرد وغير المفرد، والمذكر والمؤنث.

(٦) المتفقِّهات: من تفقَّه أي تعلَّم الفقه وتعاطاه، والفقه هو علم الدين، أو من تفقَّه في العلم إذا تعلَّمه.

(٧) رضن: من راض الشيء أي ذلَّله وجعله مطيعًا.

(٨) سكينة، هي بنت الحسين بن الإمام عليٍّ (رضى الله عنه) وحفيدة الرسول ﷺ.

(٩) بغداد: مقرُّ مُلْك العباسيين بالعراق. والمتأدِّبات: المتعلمات الأدب.

(١٠) دمشق: مقرُّ الأمويين في الشام. والجواري: جمع جارية وهي الفتاة.

(١١) أندلس: بلاد في غرب أوربا، هي الآن مملكة إسبانيا أو بعضها، وكانت قديمًا مقرَّ ملك إسلامي عظيم، أوَّل مَنْ دخلها ونقل إليها حضارة وأنشأ بها ذلك الملك هو عبد الرحمن الداخل الأموي المسمَّى «صقر قريش». ونمين الهاتفات: من قولهم نمته عشيرته، أي رفعته بالانتساب إليها.

(١٢) الندى: الجود.

(١٣) الصالحات: ذوات الصلاح من النساء. والعقائل: جمع عقيلة وهي الكريمة المخدَّرة. والصالحات — في آخر البيت — صفة لمحذوف، أي والأفعال الصالحات.

(١٤) المناقب: المفاخر.

(١٥) الحضُّ: مصدر حضَّه على الأمر إذا حمله عليه.

(١٦) البائسات: الشديدات الحاجة.

(١٧) المتجمِّلات: الفقيرات اللاتي لم يظهرن ذلَّ الفقر.

(١٨) الجمود: التيبس.

(١٩) الموميات. واحدتها موميا، وهي يونانية معناها حافظ الأجسام، وتطلق اليوم على الأجسام المحنَّطة.

(٢٠) القضية: هي قضية استقلال وادي النيل.

(٢١) المعلمون: الفرسان لهم علامة في الحرب لبطولتهم.

(٢٢) ينفثن: من قولهم: نفث الله الشيء في القلب أي ألقاه.

(٢٣) المهنَّد: السيف. والقناة: الرمح.

خلافة الإسلام[1]

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ ونُعيتِ بين معالم الأفراحِ[1]
كُفِّنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ودُفنتِ عند تبلُّج الإصباح[2]
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرَةِ ضاحكٍ في كلِّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح[3]
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابرٌ وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ تبكي عليك بمدمعٍ سَحَّاحِ[4]
والشامُ تسألُ، والعراق، وفارسٌ أَمَحَا من الأرض الخلافةَ ماح؟
وأتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأتمًا فقعدن فيه مَقاعدَ الأنواح[5]
يا لَلرّجال لحُرَّة مَوءُودة قُتلت بغير جريرة وجُناح[6]
إنَّ الَّذين أَسَتْ جراحَكِ حربُهم قتلتْكِ سلمُهمو بغير جراحِ[7]
هتكوا بأيدِيهم مُلاءَةَ فخرهِم مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح[8]
نزعوا عن الأعناق خيرَ قِلادة ونَضَوْا عن الأعطاف خير وِشاح[9]
حَسَبٌ أتَى طولُ الليالي دونَه قد طاح بين عشيةٍ وصباح[10]
وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أسبابها كانت أبرَّ علائقِ الأرواح

[1] ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة، ذلك النصر الحاسم، الذي كان حديث الدنيا، والذي تمَّ على يدِّ مصطفى باشا كمال في سنة ١٩٢٣، حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، ونفى الخليفة من بلاد الأتراك، فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، وينبِّه ممالك الإسلام إلى إسداء النصح للغازي، لعله يبني ما هُدِمَ وينصف مَنْ ظُلِمَ.

جَمَعَت على البرَّ الحُضورَ، وربَّما … جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح[١١]
نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم … في كلَّ غُدوةِ جُمعةٍ ورواح
بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ … بالشرع، عِرْبيد القضاءِ، وَقاح[١٢]
أفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً … وأتى بكفر في البلادِ بواح[١٣]
إنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ … خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح
إن حدَّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ … أو خوطبوا سمِعوا بضُمَّ رِماح
أستغفرُ الأخلاقَ، لستُ بجاحدٍ … مَنْ كنتُ أدفعُ دونَه وألاحي[١٤]
ما لي أطوّقُهُ الملامَ وطالما … قلَّدتُه المأثورَ من أمداحي؟
هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ … وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح[١٥]
أأقولُ مَنْ أحيا الجماعةَ مُلحِدٌ … واقولُ مَنْ ردَّ الحقوقَ إباحي؟
الحقُّ أولى من وليَّك حرمةً … وأحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح
فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُمو … أو خلَّ عنك مَواقفَ النُّصَّاح
ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم … هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفاح[١٦]
فإذا قذفتَ الحق في أجلاده … ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح[١٧]
أدُّوا إلى الغازي النصحيةَ يَنتصحْ … إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح[١٨]
إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه … كيف احتيالُك في صريع الراح؟
نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى … والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح[١٩]
تركتهْ كالشبح المؤلَّهِ أمَّةٌ … لم تَسْلُ بعدُ عبادةَ الأشباح
هُم أطلقوا يده كقيصَر فيهمو … حتى تناول كلَّ غيرِ مباح
غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ … وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح
وإذا أخذتَ المجدَ من أمَّيةٍ … لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللمَّاح[٢٠]
منْ قائلٌ للمسلمين مقالةً … لم يوحها غيرَ النصيحة واح؟
عهدُ الخلافة فِيَّ أوّلُ ذائدٍ … عن حوضها ببراعة نضَّاح[٢١]
حبٌّ لذاتِ اللهِ كان، ولم يزل … وهوًى لذاتِ الحقَّ والإصلاح
إني أنا المصباحُ، لست بضائع … حتى أكونَ فراشةَ المصباح[٢٢]
غزواتُ (أدهم) كُلَّلت بذوابِلٍ … وفتوحُ أنورَ فُصَّلت بِصفاحِ[٢٣]
ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما … وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح[٢٤]

لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ عُزُلٍ، يدافِعُ دونَه بالرَّاح[25]
بالأمس أوهى المسلمين جراحةً واليوم مدّ لهم يَدَّ الجرَّاح[26]
فلتَسمَعُنَّ بكل أرضٍ داعيًا يدعو إلى (الكذَّابِ) أو لسَجاح[27]
ولتشهدُنَّ بكل أرض فِتنةً فيها يباعُ الدَّين بيعَ سَماح
يُفتَى على ذهبِ المُعزَّ وسيفِه وهوى النفوس، وحِقْدِها المِلْحاح[28]

هوامش

(١) الأغاني: جمع أغنية وهي ما يترنم به ويتغنى فيه من شعر ونحوه. والرجع: ما يردُّ في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالم: جمع معلم وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(٢) تبلُّج الإصباح: إشراقه وإنارته.

(٣) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل: هي تحلب الدمع.

(٤) الوالهة: الحزينة أو التي ذهب عقلها حزنًا. وسحاح: كثير السحِّ وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

(٥) الجُمَع: واحدتها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم. والأنواح: النائحات.

(٦) الموءودة: التي تُدْفَنُ حيَّة في التراب. والجناح: الإثم.

(٧) أست جراحك: داوتها. السلم: الصلح، والسلام أيضًا.

(٨) يقال: هتك الستر ونحوه: خرقه، أو جذبه فقطعه من موضعه، أو شق منه جزءًا فبدا ما وراءه. وموشية: منقوشة منمنمة. والفتَّاح: من أسماء الله تعالى.

(٩) نضوا: خلعوا. والأعطاف: جمع عطف وهو الجانب من كل شيء. والوشاح: شبه قلادة ينسج من جلد عريض ويرصَّع بالجواهر فتشدُّه المرأة بين عاتقها وكشحيها.

(١٠) طاح: ذهب.

(١١) البرُّ: الصلة والرفق. والنُّزَّاح: البعيدون، جمع نازح.

(١٢) العربيد: الشرير، والكثير العربدة، وهي سوء الخلق من السكر. والوقاح: ذو الوقاحة وهي قلَّة الحياء.

(١٣) الخزعبلة: الفكاهة والمزاح، أمَّا الباطل فهو الخزعبيل والخزعبل. ويقال: جاء بالكفر بواحًا أي بيِّنا، وقيل: جهارًا.

(١٤) أدفع دونه: أردُّ عنه بالحجَّة. ألاحي: من الملاحاة وهي الملاعنة.

(١٥) القريع: الغالب في المقارعة، وهي أن يضرب الأبطال بعضهم بعضًا. والشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.

(١٦) المناكب هنا: الجوانب والنواحي، والصفاح: حجارة عريضة رقيقة.

(١٧) الأجلاد والتجاليد: جسم الإنسان وبدنه.

(١٨) الغازي: مصطفى كمال، وهو أيضًا المراد بالرئيس في البيت الثاني.

(١٩) الساح: جمع ساحة، والمراد ساحة الحرب.

(٢٠) اللمَّاح: اللمَّاع.

(٢١) الذائد: الحامي الدافع. والنضَّاح: الدافع أيضًا.

(٢٢) الفراشة: حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج حتى يحترق.

(٢٣) الذوابل. صفة للرماح. والصفاح: جمع صفح وهو عرض السيف. وأدهم وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام.

(٢٤) القنا: جمع قناة. والشبا: جمع شباة وهي حدُّ كل شيء، البراح: الزوال.

(٢٥) العاجز العزل: حسين بن علي شريف الحجاز، يريد أنه طامع في الخلافة، فالأتراك إذا أصروا على خروجها منهم، كانوا بذلك قد بذلوها لهذا العاجز الذي لا يملك لحمايتها إلا يدًا خالية. والراح: جمع راحة وهي بطن الكف.

(٢٦) بالأمس أوهى.. إلخ: الموصوف بهذا العمل هو حسين بن علي أيضًا، وهو إشارة إلى خروجه على المسلمين وموالاته أعدائهم في الحرب الكبرى.

(٢٧) يريد أن تنحي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها مَنْ لا يصلح لها، وجعل الدعاة لهؤلاء الطامعين يظهرون بكل مكان. والمراد بالكذَّاب: مسيلمة الكذَّاب. وسجاح: امرأة كانت تدَّعي النبوَّة.

(٢٨) المراد بذهبه وسيفه: المال الذي كان يبذل لَمْن أطاعوه، والعقاب الذي كان يصيب مَنْ خالفوه.

تكريم[1]

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا الباسماتِ عن اليتيمِ نضِيدَا[1]
الرانياتِ بكلِّ أحورَ فاترٍ يذرُ الخلِيَّ من القلوب عميدا[2]
الرواياتِ من السُّلاف محاجرًا الناهلاتِ سوالفًا وخدودا[3]
اللاعباتِ على النسيم غدائرًا الراتعات مع النسيم قُدودا[4]
أقْبَلْن في ذهب الأصيلِ ووشْيِه مِلْءَ الغلائلِ لؤلؤًا وفريدا[5]
يَحدِجْنَ بالحدَق الحواسِدِ دُمْيَةً كِظباءِ وجْرةَ مُقْلَتيْنِ وجيدا[6]
حَوَتِ الجمالَ فلو ذهبتَ تزيدُها في الوهمِ حُسنًا ما استطعتَ مزيدا
لو مرَّ بالولدان طَيْفُ جمالها في الخلدِ خرُّوا رُكَّعًا وسُجودا
أشهى من العودِ المرنَّم منطقًا وألذُّ من أوتارِه تغريدا
لو كنتَ سعدًا مُطلِقَ السجناءِ، لم تُطلْقِ لساحِرِ طرْفِها مصفودا[7]
ما قصَّر الرؤساءُ عنه، سعى له سعدٌ، فكان مُوفَّقا ورشيدا
يا مصرُ، أشبالُ العَرينِ ترعرعت ومشتْ إليك مِن السجون أسودا
قاضي السياسِة نَالَهمْ بعقابِه خَشِنَ الحكومِة في السباب عَتيدا[8]

[1] في وزارة سعد زغلول باشا سنة ١٩٣٤ أطلق سجناء، كانت المحاكم العسكرية الإنجليزية قد أدانتهم في مؤامرة شاع يومئذ أنها مبالغ فيها، وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم، فرجوا صاحب الديوان أن يشاركهم في هذا الاحتفال؛ فنظم هذه القصيدة، مشيرًا فيها إلى أهم ما كان يشغل بال الناس في ذلك العهد من الحوادث.

أَتَتِ الحوادثُ دون عقدِ قضائه ... فانهار بيّنةً، ودُكَّ شهيدا[9]
تقضي السياسةُ غيرَ مالكةٍ لِما ... حكمتْ به نقضًا ولا توكيدا
قالوا: أتنْظمُ للشباب تحيةً ... تَبْقى على جيدِ الزمان قصيدا؟
قلتُ: الشبابُ أتمُّ عِقدَ مآثِرٍ ... من أن أزيدهمو الثناءَ عقودا
قَبِلَتْ جُهُودَهُم البلادُ، وقبَّلتْ ... تاجًا على هاماتهمْ معقودا[10]
خرجوا، فما مدُّوا حناجِرَهم، ولا ... مَنُّوا على أوطانهم مجهودا
خَفِي الأساسُ عن العيون تواضعًا ... من بعد ما رفع البناءَ مشيدا
ما كان أفطنَهم لكل خديعةٍ ... ولكلَّ شرًّ بالبلاد أريدا
لما بنى الله القضيةَ منهمُ ... قامت على الحقِّ المبينِ عَمُودا[11]
جادوا بأيام الشبابِ، وأوشكوا ... يتجاوزون إلى الحياةِ الجودا
طلبوا الجلاءَ على الجهادِ مَثُوبةً ... لم يطلبوا أجْرَ الجهادِ زهيدا[12]
واللهِ: ما دون الجلاءِ ويومِه ... يومٌ تُسميهِ الكِنانةُ عيدا
وجَدَ السجينُ يدًا تُحَطِّمُ قيْدَهُ ... من ذا يُحطِّمُ للبلاد قيودا؟
ربحت من (التصريح) أن قيودها ... قد صِرْنَ من ذهبٍ، وَكُنَّ حديدا[13]
أوَما تَروْن على (المنابع) عُدَّةً ... لا تنجلي، وعلى الضّفاف عديدا؟[14]
يا فِتيةَ النيل السعيدِ: خذوا المدى ... واستأنِفوا نَفَسَ الجهادِ مَديدا
وتنكَّبوا العدوان، واجتنبوا الأذى ... وقفوا بمصرَ الموقِف المحمودا[15]
الأرضُ أليقُ منزلاً بجماعة ... يبغون أسبابَ السماءِ قُعودا
أنتم غدًا أهلُ الأمور، وإنما ... كنَّا عليكم في الأمور وُفُودا
فابنوا على أُسُس الزمان وروحِه ... رُكْنَ الحضارة باذخًا وشديدا
الهدمُ أجملُ من بناية مُصْلح ... يَبْني على الأُسُسِ العتاقِ جديدا
وجْهُ الكنانةِ ليس يُغْضِبُ ربَّكم ... أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُّوا إليه في الدُّروس وُجُوهَكم ... وإذا فرغتُم، واعبدوه هُجودا[16]
إنَّ الذي قسمَ البلادَ حباكمُ ... بلدًا كأوطان النجومِ مَجيدا[17]
قد كان — والدنيا لُحُودٌ كُلُّها — ... للعبقريةِ والفنونِ مُهودا
مجدُ الأمور زوالُه في زَلَّةٍ ... لا تَرْجُ لإسْمكَ بالأمور خلودا
الفردُ بالشُّورى، وباسم نَديِّها ... لُفظَ (الخليفةُ) في الظلام شريدا[18]

خلعتهُ دون المسلمينَ عصابةٌ — لم يجعلوا للمسلمين وجودا
يقضون ذلك عن سوادٍ غافلٍ — خُلِق السوادُ مُضلَّلا وَمَسودا[١٩]
جعلوا مشيئتَهُ الغبيَّةَ سُلَّمًا — نحو الأمور لمَنْ أراد صعودا
إني نظرتُ إلى الشعوب فلم أجدْ — كالجهل داءً للشعوب مُبيدا
الجهلُ لا يلِدُ الحياةَ مواتُهُ — إلاَّ كما تَلدُ الرَّمامُ الدودا[٢٠]
لم يخلُ من صُوَرِ الحياةِ، وإنما — أخطاُه عُنصرُها، فمات وليدا[٢١]
وإذا سبى الفردُ المُسلَّطُ مجلسًا — ألفيتَ أحرارَ الرجال عبيدا
ورأيت في صدر النَّديَّ مُنَوَّمًا — في عُصبْةٍ يتحرَّكون رُقودا
الحقُّ سهمٌ، لا ترِشْهُ بباطلٍ — ما كان سهمُ المُبْطِلين سديدا[٢٢]
والعبْ بغير سلاحه، فلَربَّما — قتلَ الرجالَ سلاحُهُ مردودا

هوامش

(١) بأبي وروحي: أي أفتدي بهما. والغيد: جمع غيداء وهي الجارية اللينة الأعطاف. واليتيم من كل شيء: ما لا نظير له، والمراد هنا الأسنان. والنضيد: المنضود المتَّسق.

(٢) الرانيات: اللاتي يُدِمْن النظر بطرف ساكن. والأحور: من الحور وهو شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها. والعميد من القلوب: ما هدَّه العشق.

(٣) السلاف: أطيب الخمر، ويراد به هنا سحر العيون. والناهل: الريَّان. والسوالف: صفحات الأعناق.

(٤) الغدائر: جمع غديرة وهي الذؤابة من الشعر. والقدود: جمع قدٍّ وهو القامة.

(٥) الوشي: النمنمة والتحسين. والغلائل: الأثواب الرقيقة. والفريد: الدُّر المنظوم.

(٦) حدجه بنظره: حدد النظر إليه. والحدق: الأحداق. والدمية: الصورة المنقَّشة المزينة، فيها حمرة كالدَّم، ويضرب بها المثل في الحسن، ويراد بها هنا الحسناء. ووجرة: موضع بين مكة والبصرة تسكنة الظباء والوحوش، والمراد في هذا البيت أن أولئك الجميلات على ما أسبغ الله عليهن من نعمة الجمال، وقفن ينظرن إلى هذه الحسناء التي ابتدأ الشاعر في وصفها، يحسدْنها على ما أوتيت من سحر؛ ويدلك هذا الحسد على أن حظها من الحسن عظيم.

(٧) المصفود: الموثق المغلل، وهنا يتخلص الشاعر من هذا الغزل الرقيق؛ ليسوق إليك ما أراد من تعزية السجناء عما نالهم من ظلم، وتهنئتهم بما أتيح لهم من نجاة، ثم شكر المحسنين إلى هؤلاء السجناء.

(٨) خشن الحكومة: أي قاسيًا. والعتيد: الجسيم، وهو هنا الجسيم من الظلم.

(٩) الشهيد: الشاهد. وانهيار البينة: ثبوت بطلانها. وسقوط الشهود: ثبوت تزويرهم.

(١٠) الهامات: الرءوس.

(١١) القضية: السياسة المصرية.

(١٢) يريد بالجلاء جلاء الجنود الإنجليزية المحتلَّة عن أرض البلاد.

(١٣) تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢.

(١٤) منابع النيل.

(١٥) تنكَّبوا العدوان: أي تجنَّبوه.

(١٦) الهجود: جمع هاجد وهو النائم أو المصلي بالليل.

(١٧) حباه: أعطاه. وأوطان النجوم: كناية عن السماء.

(١٨) الندى: المجمع. ولفظه: رمى به وطرحه.

(١٩) سواد الناس: عامتهم.

(٢٠) موات الجهل: الخراب الذي يحدث بسببه. والرمام: جمع رمَّة وهي العظام البالية، والمراد بها هنا الجيفة. ومعنى البيت أن الجاهل ميت، والميت بطبعه لا يلد ولا يأتي بعظيم، فإن ولد فكالجيفة المستحيلة لا ينشأ منها إلا الدود.

(٢١) الإشارة إلى الدود في البيت السابق.

(٢٢) راش السهم يريشه: ألصق عليه الريش حتى يكون أكثر نفاذًا.

على سفح الأهرام[1]

قِف ناجِ أهرامَ الجلالِ، ونادِ:
هل من بُناتِكَ مجلسٌ أو نادِ؟[1]
نشكو، ونَفزعُ فيه بين عيونهم
إن الأبوَّةَ مفزعُ الأولاد[2]
ونبثُّهم عبثّ الهوى بتُراثهم
من كل مُلقٍ للهوى بقياد[3]
ونُبينُ كيف تفرَّقَ الإخوانُ في
وقتِ البلاءِ تفرُّقَ الأضداد[4]
إن المغالِطَ في الحقيقةِ نفسَه
باغٍ على النفسِ الضعيفةِ عاد[5]

* * *

قل للأعاجيبِ الثلاثِ مقالةً
من هاتفٍ بمكانهن وشاد[6]

[1] أمين أفندي الريحاني أديب من أدباء سوريا، وفد على مصر فأقام له بعض الأدباء حفلاً على سفح الأهرام، شاطرهم إيَّاه صاحب الديوان.

لله أنتِ، فما رأيتُ على الصفا
هذا الجلالَ ولا على الأوتاد[٧]
لكِ كالمعابدِ روعةٌ قدسيّةٌ
وعليك روحانيَّةُ العُبَّاد[٨]
أسسْتِ من أحلامِهم بقواعد
ورُفعتِ من أخلاقهم بِعماد[٩]
تلك الرمالُ بجانبيكِ بقيةٌ
من نعمةٍ، وسماحةٍ، ورماد[١٠]
إن نحن أكرمنا النزيلَ حِيالَها
فالضيفُ عندك موضِعُ الإرفاد[١١]
هذا (الأمين) بحائطيكِ مطوِّفًا
متقدِّمَ الحُجَّاجِ والوُفَّاد؟[١٢]
إن يعدُه منكِ الخلودُ، فشعرُه
باقٍ، وليس بيانُه لنفاد[١٣]

* * *

إيه (أمينُ)، لمستَ كلَّ مُحجَّبٍ
في الحسن من أثر العقول وبادي[١٤]
قم قبِّل الأحجارَ والأيدي التي
أخذَتْ لها عهدًا من الآباد[١٥]
وخُذ النبوغَ عن الكنَانة، إنها
مَهدُ الشموسِ، ومَسْقَطُ الآراد[١٦]
أمَّ القِرى — إن لم تكن أمَّ القُرى —
ومثابةُ الأعيان والأفراد[١٧]
ما زال يغشى الشرقَ من لمحاتها
في كل مُظلِمةٍ شُعاعٌ هادى[١٨]
رفعوا لكَ الريحان كاسمك طيِّبًا
إن العَمارَ تحيَّةُ الأمجاد[١٩]

وتخيَّروا للمِهرجان مكانَه
وجعلتُ موضعَ الاحتفاءِ فؤادي[٢٠]
سلف الزمان على المودَّة بيننا
سنواتُ صحو بل سناتُ رقاد[٢١]
وإذا جمعتَ الطيباتِ رددتها
لعتيقِ خمرٍ أو قديم وداد[٢٢]
يا نجمَ سوريًّا — ولست بأولٍ —
ماذا نَمَتْ من نيِّرٍ وقاد؟؟[٢٣]
اطْلُعْ على يَمَنٍ بيُمنك في غدٍ
وتجلَّ بعد غدٍ على بغداد
وأجِلْ خيالَك في طُلولِ ممالِلكٍ
مما تجوبُ، وفي رُسُومِ بلاد[٢٤]
وسل القبورَ — ولا أقول سل القُرى —
هل من ربيعة حاضرٌ أو بادي[٢٥]
سترى الديار من اختلافِ أمورها
نطَقَ البعيرُ بها، وعَيَّ الحادي[٢٦]

* * *

قضَّيْتَ أيامَ الشباب بعالم
لبس السنين قشيبةَ الأبراد[٢٧]
ولدَ البدائعَ والروائعَ كلها
وعَدَتْهُ أن يَلدَ البيانَ عوادي
لم يخترع شيطانَ حسَّان، ولم
تُخرج مصانعُه لسانَ زياد[٢٨]
الله كرَّم بالبيان عصابةً
في العالمينَ عزيَزةَ الميلاد
(هوميرُ) أحدثُ من قرونٍ بعدَه
شعرًا، وإن لم تخلُ من آحاد[٢٩]

والـشـعـرُ فـي حـيـث الـنـفـوسُ تَـلَـذُّه
لا فـي الـجـديِـد، ولا الـقـديـم الـعـادي
حـقُّ الـعـشـيـرة فـي نـبـوغِـك أوَّلاً
فـانـظـر، لـعـلـك بـالـعـشـيـرَة بـادي[٣٠]
لـم يَـكـفِـهـم شـطـرُ الـنـبـوغِ، فـزدهُـمُ
إن كـنـت بـالـشـطـريـن غـيـرَ جـواد
أو دَعْ لـسـانَـك والـلـغـاتِ، فـربّـمـا
غـنَّـى الأصـيـلُ بـمـنـطِـقِ الأجـداد
إن الـذي مـلأ الـلـغـاتِ مـحـاسـنًـا
جـعـلَ الـجـمـالَ وسـرَّه فـي الـضـاد[٣١]

هوامش

(١) ناج: من المناجاة وهي المسارة. والجلال: التناهي في عظم القدر. والبناة: جمع بانٍ. المجلس: مكان الجلوس. والنادي: اسم للمجلس حين يجتمع فيه القوم ليتحدثوا، فإذا تفرَّقوا فليس ناديًا.

(٢) نشكو: نعلن الشكوى. ونفزع: نستغيث، وضمير «فيه» للمجلس أو النادي. بين عيونهم: أي أمامهم. والأبوة: كون الرجل أبًا.

(٣) نبثُّهم: نكاشفهم. والعبث: اللعب. والهوى: إرادة النفس، وهو غالب في الشرِّ. القياد: في الأصل حبل يقاد به.

(٤) نبين: مضارع أبان الشيء أي أوضحه. والبلاء: الغمُّ يبلي الجسم.

(٥) المغالط نفسه: مُوقعها في الغلط. باغٍ: ظالم. عادٍ. ظالم أيضًا.

(٦) الأعاجيب الثلاث: يريد بها الأهرام الثلاثة، وإنما كانت أعاجيب؛ لأن الإنسان يستعظمها، فتعتريه روعة عند ذلك وهذا هو العجب، والمفرد أعجوبة وهي اسم لما يكون العجب منه. هاتف: مادح، من هتف به أي مدحه،. شاد: من شدا الشعر أي غنى به وترنَّم.

(٧) الصفا: جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت. الأوتاد: الجبال.

(٨) الروعة: الفزعة، والمسحة من الجبال، والعبَّاد: جمع عابد.

(٩) الأحلام: العقول، جمع حلم. وعماد الشيء: ما يسند به. والخطاب في هذا البيت والبيتين قبله للأعاجيب الثلاث.

(١٠) السماحة: موافقة الرجل على ما يراد منه، وهي الجود والعطاء أيضًا. والرماد: ما يبقى من المواد المحترقة بعد احتراقها، وقد كنَّى به عن الكرم كما يقولون: فلان كثير الرماد أي كريم؛ لأنه يكثر من إيقاد النار لكثرة صنع الطعام للآكلين من الأضياف.

(١١) النزيل: الضيف. وحيالها: قبالتها. الإرفاد: الإعطاء.

(١٢) مطوِّفًا: دائرًا حولهما. والحجَّاج: القُصَّاد. والوُفَّاد: جمع وافد، من وفد إذا قدم.

(١٣) إن يعده: أي إن يجاوزه ويفته. والخلود: الدوام والبقاء، والمراد خلود الذكر لا خلود الشخص. والنفاد: الذهاب والانقطاع.

(١٤) إيه: اسم فعل معناه زدني من حديثك. المحجَّب: المستور. البادي: الظاهر.

(١٥) الآباد: جمع أبد وهو الدَّهر.

(١٦) النبوغ: الإجادة. والكنانة: مصر. والآراد: جمع راد، والمراد الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس، وانبساط الضوء في الخمس الأول من النهار.

(١٧) القِرى: الضيافة، أو ما قُرِي به الضيف. والقُرى: جمع قرية. والمثابة: مجتمع القوم بعد تفرُّقهم. والأعيان: جمع عين وهو كبير القوم وشريفهم. أفراد الناس: كبارهم، ولا يقال للإنسان الواحد فرد، بل يقال له فريد.

(١٨) يغشى الشرق: يغطيه. واللمحات: جمع لمحة وهي النظرة الخفيفة بالعجلة. والشعاع: ما ينتشر من ضوء الشمس.

(١٩) الريحان: نبات طيِّب الرائحة. والأمجاد: جمع مجيد وهو الكريم الشريف.

(٢٠) المهرجان: هو عيد الفرس، وكان يوافق أول الشتاء، ثم صار في الخريف، والمراد به هنا الاحتفال. والاحتفاء: المبالغة في الإكرام وإظهار السرور والفرح.

(٢١) سلف: مضى. والسنوات: جمع سَنَة. والسنات: جمع سِنَة وهي النعاس. والرقاد: النوم.

(٢٢) رددتها: أي أرجعت نسبتها. والعتيق: القديم.

(٢٣) ولست بأولٍ: احتراس من الإطلاق، أي وإن كنت نجم سوريا فلست الأول من نجومها، الأوَّل سواك، أو لست أول نجم لها، فقد سبقكك أوائل آخرون. وماذا نمت: أي كم ذا رفعت بالانتساب إليها.

(٢٤) الطلول: جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار. والرسوم: جمع رسم وهو الأثر.

(٢٥) ربيعة: قبيلة من العرب. والحاضر: مَنْ ينزل الحضر. والبادي: مَنْ يذهب إلى البادية.

(٢٦) عيَّ الحادي: لم يستطع البيان والإفصاح.

(٢٧) قضيت: خطاب للريحاني. والعالم الذي قضى به أيام شبابه هو أمريكا التي قام بها. قشيبة الأبراد: جديدتها. والأبراد: جمع برد.

(٢٨) لم يخترع.. إلخ: يريد أنه عالم لم يرتق في اختراعه إلى حيث يبتدع البلاغة اللسانية التي كرَّم الله بها العرب. وحسَّان: الشاعر الصحابي المعروف. وزياد: هو زياد بن أبي سفيان، كان من أخطب العرب.

(٢٩) هومير: شاعر يوناني قديم، كان شعره قصصًا يضمِّنه وصف الأبطال والإشادة بذكرهم، وهو صاحب الإلياذة، يريد أن شعره — على أنه قديم — أجود من شعر الذين جاءوا بعده، وإن كانت أيامهم لم تخل من شعراء مجيدين هم آحاد في عددهم.

(٣٠) حق العشيرة.. إلخ: في هذا البيت والأبيات بعده أمور أخذ بها الريحاني في رفق ولين، فهو يقول له: إن كانت معانيك في كتابتك جيدة، فألفاظك فيها رديئة؛ لأنك أهملت جانب اللغة العربية، وهي الشطر الثاني من شطري النبوغ، وأيضًا يقتضي الوفاء لعشيرتك وقومك أن تحسن لغتهم حتى تغني بها.

(٣١) الضاد: اللغة العربية، وإنما سميت كذلك؛ لأن الضاد لا توجد في لغة سواها، ولا يقوى أهل اللغات الأخرى على النطق بها.

المطرية تتكلَّم[1]

يا ناشرَ العلم بهذا البلادْ	وُفِّقتَ، نشرُ العلم مثلُ الجهاد
بانيَ صَرْحِ المجدِ، أنتَ الذي	تبني بيوتَ العلم في كل ناد
بالعلم ساد الناسُ في عصرهم	واخترقوا السبعَ الطِّباقَ الشِّداد[1]
أيطلب المجدَ ويبغي العلا	قومٌ لسوقِ العلم فيهم كساد؟
نَقَّادُ أعمالك مُغْلٍ لها	إذا غلا الدرُّ غلا الانتقاد[2]
ما أصعبَ الفعلَ لمَنْ رامه	وأسهلَ القولَ على مَنْ أراد
سمعًا لشكوايَ، فإن لم تجد	منك قبولاً، فالشكاوى تُعاد[3]
عدلاً على ما كان من فضلكم	فالفضلُ إن وُزِّع بالعدلِ زاد[4]
أسمعُ أحيانًا، وحينًا أرى	مدرسةً في كلَّ حيًّ تُشاد
قَدَّمْتَ قبلي مدنًا أو قُرى	كنتُ أنا السيفَ، وكنَّ النِجاد[5]
أنا التي كنت سريرًا لمَنْ	ساد (كإدّورْدَ) زمانًا وشاد[6]
قد وحَّد الخالقَ في هيكلٍ	من قبل سقراطَ ومن قبل عاد[7]
وهذَّب الهندُ دياناتِهم	بلك خافٍ من رموزي وباد[8]
ومن تلاميذي موسى الذي	أوحِيَ مِنْ بعدُ إليه فهاد[9]

[1] أحسَّ صاحب الديوان أيام كان يسكن «المطرية» بحاجة هذا البلد إلى مدرسة تهذِّب أبناءه فناشد وزير المعارف يومئذ «سعد زغلول باشا» على لسان المطرية أن يقوم بإنشاء هذا الأثر الجليل.

وأُرْضعَ الحكمةَ عيسى الهدى — أيامَ تُربِي مهدُه والوساد[١٠]
مدرستي كانت حياضَ النُّهى — قرارةَ العرفان، دارَ الرشاد[١١]
مشايخُ اليونان يأتونها — يُلقون في العلم إليها القِياد
كنا نُسمِّيهم بصِبيانه — وصِبيتي بالشيب أهلُ السداد[١٢]
ذلك أمسِي، ما به ريبةٌ — ويوميَ (القبةُ) ذات العِماد[١٣]
أصبحتُ كالفردوسِ في ظلها — من مِصرَ للخنكا لِظِلي امتداد
لولا جُلَى زيتونيَ النَّضْرِ، ما — أقسمَ بالزيتونِ ربُّ العباد[١٤]
الواحةُ الزَّهراء ذات الغنى — تُربِي التي ما مثلها في البلاد[١٥]
تُريكَ بالصبح وجُنحِ الدُّجى — بدورَ حسن، وشموسَ اتقاد

***

بَنِيَّ — يا سعدُ — كُزغْبِ القَطا — لا نقَّص الله لهم من عِداد[١٦]
إن فاتكَ النسلُ فأكْرِمْ بهم — ورُبَّ نَسلٍ بالندى يُستفاد
أخشى عليهم من أذًى رائحٍ — يجمعهم في الفجر والعصر غاد[١٧]
صفيرُهُ يَسلُبني راحتي — ويمنعُ الجفنَ لذيذَ الرقاد[١٨]
يعقوبُ من ذئب بكى مُشفِقًا — فكيفَ أنيابُ الحديد الحِداد؟[١٩]
فانظرْ — رعاك الله — في حاجهم — فنظرةٌ منكَ تُنيلُ المراد[٢٠]
قد بسطوا الكفَّ على أنهم — في كرم الراح كصوْب العِهاد[٢١]
إن طُلب (القسط) فما منهمُ — إلا جوادٌ عن أبيه الجواد

هوامش

(١) ساد الناس: مجدوا وجلوا. والسبع الطِّباق: السموات السبع، وهي طباق أي مطابقة بعضها بعضًا.

(٢) النُّقَّاد: مبالغة من النقد، وهي في الكلام: إظهار ما به من العيوب، وفي غير الكلام: النظر إلى الشيء لمعرفة جيده من رديئه. ومغلٍ لها: من أغلى الشيء أي جعله غاليًا.

(٣) سمعًا لشكواى: أي اسمعها سمعًا.

(٤) عدلاً: أي أطلب عدلاً زائدًا على ما حصل من فضلكم.

(٥) النِّجاد: حمائل السيف.

(٦) السرير: تخت الملك. وساد: صار سيِّد قومه متسلطًا عليهم. وإدورد: ملك الإنجليز قبل الملك جورج القائم حينذاك. وشاد: رفع البناء.

(٧) الهيكل: بيت الأصنام. وسقراط: حكيم من حكماء اليونان. وعاد: اسم رجل من العرب الأولى سُمِّيت به قومه، وهم الذين أرسل إليهم هود نبي الله (عليه السلام).

(٨) هذَّب الشيء: خلَّصه مما يشينه وطهَّره من العيوب. والخافي: المستتر. والبادي: الظاهر.

(٩) موسى: النبي (عليه السلام). وأوحي إليه: أنزل الله عليه الوحي. وهاد: رجع إلى الحق.

(١٠) الحكمة: صواب الأمر، ووضع الشيء في موضعه، والعلم، والعدل، والحلم. وعيسى: ابن مريم (عليه السلام). والترب: التراب. والمهد: الموضع يهيأ للصبي. والوساد: المتكأ وكل ما يتوسَّد به من قماش وغيره، أي أيام أن كان ترابي مهده ووساده.

(١١) مدرسة المطرية القديمة: إحدى مدارس العلم الكبرى عند المصريين القدماء، وكان يقصدها الطلاب من بلاد اليونان وغيرها. القرارة: القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر.

(١٢) وصبيتي بالشيب: أي وتسمَّى صبيتي بالشيب.

(١٣) القبَّة: ناحية من ضواحي القاهرة، بها قصر عظيم بناه الخديو عباس حلمى، وقد غلب اسمها على هذا القصر. والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكَّر وتؤنَّث، مفردها عمادة.

(١٤) الزيتون: شجر مثمر معروف، وثمره يُسمَّى زيتونًا أيضًا، وتسمَّى به ضاحية أخرى من ضواحي القاهرة مجاورة للقبة.

(١٥) الواحة الزَّهراء: هي واحة عين شمس، والواحة: وادٍ متسع منخفض في الصحراء.

(١٦) الزغب: جمع أزغب وهو ما له شعر أو ريش صغير. القطا: جمع قطاة وهي طائر في حجم الحمامة.

(١٧) رائح: غادٍ، يريد قطار البخار الذي يركبه الأبناء إلى المدارس في القاهرة.

(١٨) صفيره: أي صفير القطار.

(١٩) يعقوب: النبي أبو يوسف (عليه السلام)، بكى على يوسف حين رجع إليه أبناؤه إخوة يوسف (عليه السلام) فأخبروه أن الذئب أكله، وقد كان يخاف عليه هذا من قبل، وقصة ذلك مبسوطة في كتب التاريخ الديني.

(٢٠) الحاج: جمع حاجة.

(٢١) كصوب العهاد: أي كنزول المطر. والعهاد: جمع عهد، والمطر ينزل متعاقبًا فيدرك آخره أوله.

الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد

سلْ «يَلْدِزًا» ذاتَ القصورِ ... هل جاءَها نبأ البدور؟[1]
لو تستطيعُ إجابةً ... لبكتْك بالدَّمع الغزير
أخنى عليها ما أنا ... خ على الخّوّرْنَق والسَّدير[2]
ودها الجزيرةَ بعد إسماعيل ... والملكِ الكبير[3]
ذهب الجميعُ، فلا القصو ... رُ تُرى، ولا أهلُ القصور
فلكٌ يدورُ سعودُه ... ونحوسُه بيد المدير
أين الأوانسُ في ذُرا ... ها من ملائكة وحور؟[4]
المترَعاتُ من النعيـ ... ـمِ، الرواياتُ من السرور[5]
العاثراتُ من الدلا ... لِ، الناهضاتُ من الغرور
الآمراتُ على الولا ... ةِ، الناهياتُ على الصدور[6]
الناعماتُ، الطيبا ... تُ العَرْفِ، أمثالُ الزهور[7]
الذاهلاتُ عن الزما ... نِ بنشوة العيشِ النضير
المشرفاتُ — وما انتقلـ ... ـن — على الممالكِ والبحور
من كل بلقيسٍ على ... كرسيِّ عِزَّتِها الوثير[8]
أمضى نفوذًا من زُبَيْـ ... ـدَةَ في الإمارةِ والأمير[9]
بين الرَّفارف، والمشا ... رفِ، والزخارف، والحرير[10]
والروضِ في حجم الدنا ... والبحرِ في حجم الغديرِ

والـدرِّ مـؤتـلـقِ الـسـنـا والـمـسـكِ فـيَّـاحِ الـعـبـيـر
فـي مـسـكـنٍ فـوق الـسَّـما كِ، وفـوق غـاراتِ الـمـغـيـرِ[11]
بـيـن الـمـعـاقـل، والـقَـنـا والـخـيـل، والـجـمَّ الـغـفـيـر
سَـمَّـوْهُ (يَـلْـدِزَ)، والأفـو لُ نـهـايـةُ الـنـجـمِ الـمـغـيـر
دارت عـلـيـهـنّ الـدَّوا ئرُ في المخادع والخدور[12]
أمـسـيْـن فـي رِقِّ الـعـبـيـل وبـتْـنَ فـي أسـرِ الـعـشـيـر[13]
مـا يـنـتـهـين من الـصـلا ةِ ضـراعـةً ومـن الـنـذور
يـطْـلُـبـن نُـصـرةَ ربِّـهـن، وربُّـهـن بـلا نـصـيـر[14]
صـبـغ الـسـوادُ حَـبـيـرَهُـنَّ وكـان من يَـقـقِ الـحُـبـور[15]
أنـا إن عـجـزتُ فـإن فـي بُـرْدَيَّ أشـعـرَ مـن (جَـريـر)
خَـطْـبُ الإمـامِ عـلى الـنّـظـيـ ـم يـعـزُّ شـرحًـا والـنـثـيـر
عظَـةُ الملوك، وعِـبْـرةُ الــ ــأيـام فـي الـزمـنِ الأخـيـر
شـيـخُ الـمـلـوكِ وإن تـضـعـ ـضع في الفؤادِ وفي الضمير
نـسـتـغـفـرُ الـمـولـى لـه والـلـه يـعـفـو عـن كـثـيـر
ونـراه عـنـد مُـصـابـه أولـى بـبـاكٍ أو عَـذيـر
ونـصـونُـه، ونُـجِـلُّـه بـيـن الـشـمـاتَـةِ والـنـكـيـر
عبدَ الحميد، حسابُ مثـ ـلِكَ في يدِ الملكِ الغفور
سُـدْتَ الـثـلاثـيـنَ الـطـوا لَ، ولسْنَ بالحُكم القصير[16]
تـنـهـى وتـأمـر مـا بـدا لك في الكبير وفي الصغير
لا تـسـتـشـيـرُ وفـي الـحِـمـى عددُ الكواكب من مُشير
كم سبَّحوا لك في الروا ح، وألَّـهـوكَ لـدى الـبُـكـور
ورأيـتَـهـم لـك سـجـدًا كسجود موسى في الحضور[17]
خـفـضـوا الـرءُوسَ ووتَّـروا بـالـذلِّ أقـواسَ الـظـهـور[18]
مـاذا دهـاك مـن الأمـو ر وكـنـتَ داهـيـةَ الأمـور؟
ما كنتَ إن حدثَتْ وجلَّتْ بـالـجـزوعِ ولا الـعَـثـور
أيـن الـرَّوِيَّـةُ، والأنـا ةُ، وحكمةُ الشيخ الخبير؟
إنَّ الـقـضـاءَ إذا رمـى دكَّ الـقـواعد من (ثَـبـيـر)[19]

دخلوا السرير عليكَ يحـ ـتكمون في ربِّ السرير[٢٠]
أعْظِمْ بهم من آسريـ ـنَ وبالخليفةِ من أسير
أسدٌ هَصورٌ أنشبَ الـ ـأظفارَ في أسدٍ هَصور[٢١]
قالوا: اعتزل. قلتَ: اعتزلـ ـتُ. والحكمُ لله القدير
صبروا لدولتكَ السنيـ ـن، وما صبرتَ سوى شهور
أوذيتَ من دُستورهم وحننتَ للحكم العسير
وغضبتَ كالمنصورِ أو هارون في خالي العصور[٢٢]
ضَنُّوا بِضائعِ حقَّهم وضننتَ بالدنيا الغرور
هلاَّ احتفظتَ به احتفا ظَ مُرحَّبٍ فرِحٍ قرير؟
هو حِلْيَةُ المَلِك الرشيـ ـدِ، وعِصْمَةُ المَلْك الغرير
وبه يُبارَك في المما لكِ والملوكِ على الدُّهور

***

يأَيُّها الجيشُ الذي لا بالدَّعِيِّ، ولا الفّخور
يخفَى، فإن رِيعَ الحمى لفتَ البرِيَّةَ بالظهور[٢٣]
كالليث، يسرفُ في الفِعا لِ، وليس يُسرف في الزئير[٢٤]
الخاطب العلياءِ بالـ ـأرواح غاليةِ المهور
عند المُهيمن ما جرى في الحقَّ من دَمِكَ الطَّهور
يتلو الزمانُ صحيفةً غَرًّا مُذهَّبةَ السُّطور
في مدح (أنورِكَ) الجري ءِ، وفي (نِيازِيكَ) الجسور
يا (شوكت) الإسلام، بل يا فاتحَ البلدِ العسير[٢٥]
وابنَ الأكارم من بني (عُمَرَ) الكريمِ على (البشير)[٢٦]
القابضين على الصَّليـ ـل كجَدِّهم، وعلى الصَّرير[٢٧]
هل كان جدُّك في ردا ئك يوم زحفك والكرور؟
فقنصت صيَّادَ الأسو د، وصِدتَ قنَّاص النسور
وأخذتَ (يَلدزَ) عَنوةً ومَلكَت عنقاءَ الثغور[٢٨]

***

المؤمنون (بمصر) يُهـ ـدون السلامَ إلى الأمير
ويُبايعونك يا (محمـ ـدُ) في الضمائر والصدور[٢٩]
قد أمَّلوا لهلالهم حظ الأهلةِ في المسير
فابلغْ به أوْجَ الكما ل بقوةِ اللهِ النصير
أنت الكبيرُ، يُقَلَّدو نَكَ سيفَ (عثمانَ) الكبير
شيخُ الغُزَاةِ الفاتحيـ ـنَ، حُسامُه شيخُ الذكور[٣٠]
يمضي ويغمد بالهدى فكأنه سيف النذير[٣١]
بُشرى الإمام محمد بخلافة الله القدير
بُشرى الخلافةِ بالإما م العادِلِ النزهِ الجدير
الباعثِ الدستورَ في الـ ـإسلام من حُفَرِ القبور
أوْدَى «معاويةٌ» به وبعثَته قبل النُّشور[٣٢]
فعلى الخلافة منكما نورٌ تلألأ فوق نور[٣٣]

هوامش

(١) يلدز: في لغة الترك: اسم نجم، وقد سُمِّي به قصر عظيم في الآستانة، كان يسكنه السلطان عبد الحميد أيام ملكه، والمخاطب بقوله (سل.. إلخ) هو هذا السلطان.

(٢) أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه. والخورنق: قصر كان في الحيرة بالعراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر. والسدير: قصر كان بالحيرة أيضًا للمناذرة.

(٣) دهاه الأمر: أصابه. والجزيرة: هي جزيرة الروضة في النيل شرقي القاهرة، وكان بها قصر عظيم من قصور الخديو إسماعيل، وهو المراد.

(٤) الأوانس: جمع آنسة وهي الطيبة النفس. والحور: جمع حورية وهي المرأة البيضاء الناعمة.

(٥) المترعات: جمع مترعة، من أترع الإناء أي ملأه.

(٦) الولاة: جمع والٍ. الصدور: جمع صدر، ويقال له الصدر الأعظم، وهو كبير وزراء السلطان في الدولة التركية.

(٧) العرف: الرائحة الطيبة.

(٨) بلقيس: ملكة سبأ من أرض اليمن، وقصتها مع الملك سليمان مبسوطة في كتب التاريخ الديني. والوثير: اللين الموطئ.

(٩) زبيدة. زوجة الخليفة هارون الرشيد.

(١٠) الرَّفارف: جمع رفرف، وهو الفراش. والمشارف: جمع مشرف، وهو الموضع يشرف منه، ومشارف الأرض: أعاليها.

(١١) السِّماك: كوكب.

(١٢) الدوائر: جمع دائرة وهي النائبة من صروف الدهر. والمخادع: جمع مخدع (بضم الميم وكسرها) بيت يكون في البيت الكبير يحرز فيه الشيء.

(١٣) العبيل: الضخم الغيظ.

(١٤) ربهن: سيدهن وهو السلطان عبد الحميد.

(١٥) الحبير: الناعم الجديد. اليقق: الشديد البياض.

(١٦) الثلاثين الطوال: الأعوام التي مضت له وهو سلطان.

(١٧) كسجود موسى في الحضور: أي حضوره حين تجلَّى له الله فكلَّمه.

(١٨) وتَّروا بالذلِّ أقواس الظهور: أي جعلوا الذلِّ وترًا لأقواس ظهورهم، يعني أن الذلَّ قوَّس ظهورهم كما يفعل الوتر بالقوس إذا شُدَّ عليها.

(١٩) ثبير: جبل معروف.

(٢٠) يحتكمون في ربِّ السرير: يتصرَّفون فيه وفق مشيئتهم.

(٢١) أنشب أظفاره في الشيء: أعلقها فيه.

(٢٢) أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد: من الخلفاء العباسيين.

(٢٣) ريع الحمى: أي راعه شيء وأفزعه.

(٢٤) الزئير: صوت الأسد.

(٢٥) أنور، ونيازي، وشوكت: كانوا من كبار القوَّاد في الجيش العثماني، وكانوا على رأس الحركة التي قام بها هذا الجيش لحمل السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور وجعله أساس الحكم في البلاد التركيَّة.

(٢٦) عمر: هو الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كان شوكت باشا من سلالته. والبشير: من أسماء النبي محمد ﷺ.

(٢٧) الصليل: الصوت يسمع عند المقارعة بالسيوف. الصرير: صوت القلم عند الكتابة به.

(٢٨) أخذ الشيء عنوة: أي قهرًا. العنقاء: طير معروف الاسم مجهول الجسم، يُضْرَبُ مثلاً لكل عزيز ممتنع، والمراد أنه ملك ثغر الآستانة الذي يشبه العنقاء في عزَّته وامتناعه.

(٢٩) محمد: هو السلطان محمد رشاد الخامس الخليفة بعد السلطان عبد الحميد.

(٣٠) الذكور: جمع ذكر وهو السيف.

(٣١) النذير: من أسماء النبي ﷺ.

(٣٢) أودى به: ذهب به وأضاعه. ومعاوية بن أبي سفيان: أول ملوك الدولة الأموية، وكان حكم الخلفاء الراشدين قبله شورى بين المسلمين، وهي معنى حكم الدستور، فلمَّا أخذ معاوية الملك استقلَّ فيه برأيه.

(٣٣) منكما: أي من الخليفة، ومن الدستور.

انتحار الطلبة[1]

ناشئٌ في الوَرْدِ من أيامِهِ   حسبُهُ الله، أبالوَرْدِ عثر؟[1]
سدَّد السهمَ إلى صدرِ الصبَّا   ورماه في حَوَاشِيه الغُرَر[2]
بيدٍ لا تعرفُ الشرَّ، ولا   صَلحَتْ إلا لتلهُو بالأكر[3]
بُسِطَتْ للسمِّ والحبل، وما   بُسِطت للكأس يومًا والوتَر
غفرَ الله له، ما ضرَّه   لو قضى من لذَّةِ العيشِ الوَطر؟
لم يُمَتَّع من صِبا أيامِهِ   ولياليه أصيلٌ وسَحر[4]
يَتمنى الشيخُ منه ساعةً   بحجابِ السمع، أو نورِ البصر[5]
ليسّ في الجنةِ ما يشبهه   خِفَّةً في الظلِّ، أو طيبَ قِصر
فصِبا الخلدِ كثيرٌ دائمٌ   وصِبا الدنيا عزيزٌ مخْتَصَر

***

كل يوم خبر عن حَدثٍ   سئم العيشَ، ومَنْ يَسأمْ يَذَر[6]
عاف بالدنيا بناءً بعد ما   خَطب الدُّنيا، وأهدَى، ومَهر[7]
حلَّ يومَ العُرسِ منها نفسَه   رحِمَ الله العَرُوسَ المخْتَضرَ[8]
ضاقَ بالعيشةِ ذَرْعًا، فهَوى   عن شَفا اليأسِ، وبئسَ المُنحدَر[9]

---

[1] رأى صاحب الديوان ذلك المفزع الوبيء، الذي يفزع إليه صغار الطلبة في مصر بعد سقوطهم في الامتحانات؛ فنظم لهم هذه القصيدة، يقطع عليهم فيها سبيل اليأس، ويبسط لهم سبيل الأمل.

راحلاً في مثلِ أعمارِ المنى ذاهبًا في مثلِ آجالِ الزَّهر
هاربًا من ساحةِ العيش، وما شارَفَ الغَمرةَ منها والغُدُر[١٠]
لا أرى الأيامَ إلاَّ مَعْرَكًا وأرى الصَّنديدَ فيهِ من صَبر[١١]
ربَّ واهي الجأْشِ فيه قَصَفٌ مات بالجبنِ، وأودَى بالحذرَ[١٢]

* * *

لامه الناسُ، وما أظلمَهم وقليلٌ مَنْ تَغاضَى أو عذَر
ولقد أبلاكَ عذرًا حسنًا مُرتدي الأكفانِ مُلقًى في الحُفر
قال ناسٌ: صَرْعَةٌ من قدر وقديمًا ظَلَم الناس القّدر
ويقول الطبُّ: بل من جِنَّةٍ ورأيتُ العقلَ في الناسِ نَدَر[١٣]
ويقولون: جفاءٌ راعَه من أبٍ أغلظَ قلبًا من حَجر[١٤]
وامتحانٌ صَعَّبتهُ وَطْأةٌ شدَّها في العلم أستاذٌ نَكِر[١٥]
لا أرى إلاَّ نِظامًا فاسدًا فَكَّكَ العلمَ، وأودى بالأُسَر؟
مِن ضَحاياه — وما أكثرها! — ذلك الكارِهُ في غَضِّ العُمُر[١٦]
ما أرى في العيش شيئًا سَرَّهُ وأخفُّ العيش ما ساءَ وسَر
نزل العيشَ، فلم ينزِل سوى شعبةِ الهمَّ، وبَيْداءِ الفِكر[١٧]
ونهارٍ ليس فيهِ غبطةٌ وليالٍ ليس فيهن سَمر[١٨]
ودروسٍ لم يُذلَّل قطفَها عالمٌ إن نطقَ الدرس سَحر[١٩]
ولقد تُنِهكه نهكَ الضَّنَى ضَرَّةٌ منظرُها سُقْمٌ وضُر[٢٠]
ويلاقي نَصَبًا مما انطوَى في بني العَلاَّتِ من ضِغْنٍ وشر[٢١]
إخوةٌ ما جَمعتهم رَحِمٌ بعضُهم يمشون للبعض الخَمر[٢٢]
لم يرفرِفْ مَلكُ الحُبِّ على أبوَيهم أو يُباركْ في الثَّمر
خَلَقَ الله من الحُبِّ الورَى وبنى المُلك عليه وعمَر

* * *

نشَأَ الخيرِ، رويدًا، قتلُكم في الصَّبا النفسَ ضَلالٌ وخُسُر[٢٣]
لو عصيتُم كاذبَ اليأسِ، فما في صِباها ينحرُ النفسَ الضَّجَر[٢٤]
تُضمرُ اليأسَ من الدنيا وما عندها عن حادثِ الدُّنيا خبَر

فيم تجنون على آبائِكم ... أَلَمَ الثُّكل شديدًا في الكبر؟
وتعقّوَن بلادًا لم تَزَل ... بين إشفاق عليكم وحذر؟
فمصابُ المُلك في شُبَّانه ... كمصاب الأرضِ في الزرع النضِر
ليسَ يدري أحدٌ منكم بما ... كان يُعطى لو تأنى وانتظر
رُبَّ طفلٍ برَّحَ البؤْسُ به ... مُطِرَ الخيرَ فَتيّا ومطر[٢٥]
وصبيٍّ أَزْرَت الدُّنيا به ... شبَّ بين العزِّ فيها والخطر[٢٦]
ورفيعٍ لمْ يُسوِّدْهُ أب ... مَنْ أبو الشمس، ومن جدُّ القمر؟
فلكٌ جارٍ، ودُنيا لم يدُم ... عندها السعدُ، ولا النحسُ استمرَّ
روِّحوا القلبَ بلذَّات الصَّبا ... فكفى الشيبُ مجالاً للكدر[٢٧]
عالجوا الحكمةَ، واستشفوا بها ... وأنشدوا ما ضلَّ منها في السِّير[٢٨]
واقرءُوا آدابَ مَنْ قبلكم ... ربّما علَّمَ حيًّا مَنْ غبر[٢٩]
واغنموا ما سخَّر الله لكم ... من جَمال في المعاني والصُّوَر[٣٠]
واطلبوا العلم لذات العلم، لا ... لشهاداتٍ وآراب أُخَر[٣١]
كَمْ غُلامٍ خامل في درسه ... صار بحَر العلم، أستاذَ العُصُر
ومُجِدٍّ فيه أمسى خامِلاً ... ليس فيمن غابَ أو فيمن حَضر

***

قاتلُ النفس — ولو كانت له — ... أسخطَ الله، ولم يُرضِ البشر
ساحةُ العيش إلى الله الذي ... جعلَ الوِرْدَ بإذنٍ والصَّدَر[٣٢]
لا تموتُ النفسُ إلاَّ باسمه ... قامَ بالموتِ عليها وقهَر
إنما يسمحُ بالروح الفَتَى ... ساعةَ الرَّوْع إذا الجمعُ اشتجر[٣٣]
فهناك الأجرُ والفخرُ معًا ... مَنْ يَعِشْ يُحمَدْ، ومن ماتَ أُجِر

هوامش

(١) حسبه الله: أي كفاه الله.
(٢) الصبا: الميل إلى جهالة الفتوة. والحواشي: الجوانب.
(٣) الأكر: جمع أكرة، وهي الكرة.
(٤) الأصيل: وقت ما بعد العصر إلى المغرب، والسحر: قبيل الصبح.

(٥) منه: أي من صبا الأيام.

(٦) الحدث: الشاب. ويذر: يترك.

(٧) عاف: كره. وبناء: من قولهم: بنى بأهله أي زُفَّت إليه. خطب: من خطبة الزواج. أهدى: أعطى الهدية. مهر: أعطى المهر.

(٨) المختضر: أي الميت في صباه، من اختضار الكلأ أي قطعه وهو أخضر.

(٩) ضاق بالشيء ذرعًا: ضعفت عنه طاقته ولم يجد مخلصًا من مكروهه. والشفا: حرف كل شيء.

(١٠) شارف الشيء: قاربه ودنا منه. وغمرة الشيء: شدَّته ومزدحمه. والغدر: جمع غدير وهو النهر أو القطعة من الماء يغادرها السيل.

(١١) الصنديد: السيِّد الشجاع.

(١٢) الواهي: الضعيف المتداعي إلى السقوط. الجأش: نفس الإنسان أو هو رواع القلب عند الفزع. والقصف: الخور والضعف. أودى: هلك.

(١٣) لجنة: الجنون.

(١٤) الجفاء: غلظة العشرة.

(١٥) النكر: الفطن.

(١٦) غضُّ العمر: أي العمر الغضِّ الناضر.

(١٧) شعبة الهمِّ: الطائفة منه.

(١٨) الغبطة: حسن الحال. والسمر: الحديث في الليل.

(١٩) يذلل: من ذلل الشيء: جعله هيِّنًا. وقطف الثمر: جنيه وجمعه، وقطف الشيء: أخذه بسرعة.

(٢٠) تنهكة: تضنيه. والضنى: المرض والهزال. وضرَّة المرأة: امرأة زوجها، وهما ضرَّتان، وهن ضرائر.

(٢١) بنو العلات (بفتح العين): هم بنو أمهات شتى من رجل واحد. والضغن: الحقد.

(٢٢) بعضهم يمشون للبعض. الخمر (بفتح الخاء): أي يختلونهم، ومنه قولهم: هو يدبُّ له الضرَّاء ويمشي له الخمر.

(٢٣) نشأ الخير: أي يا نشأ الخير. والنشأ (بفتح الشين): جمع نشء، و(بسكونها): تعني النسل. ورويدًا: أي مهلاً لتسمعوا ما أقول. والخسر (بضم السين): الخسران.

(٢٤) لو عصيتم كاذب اليأس: حضٌّ معناه: اعصوا كاذب اليأس.

(٢٥) برَّح به: جهده وآذاه. ومطر الخير (بضم الميم): أي أصابه كما يصيب المطر الارض. ومطر (بفتح الميم): أي صدر عنه الخير كالمطر.

(٢٦) أزرت به: تهاونت.

(٢٧) روِّحوا القلب: أي أنعشوه وطيِّبوه.

(٢٨) الحكمة: صواب الأمر وسداده ووضع الشيء في موضعه. السير (بكسر السين): جمع سيرة وهي للإنسان طريقة سلوكه بين الناس.

(٢٩) مَنْ غبر: مَنْ مضى.

(٣٠) اغنموا: من غنم الشيء أي فاز به من غير مشقَّة وأخذه بغير بذل.

(٣١) آراب: جمع أرب وهو الحاجة.

(٣٢) الورد: بلوغ الماء. والصدر: الرجوع عنه.

(٣٣) الروع: الفزع، ويأتي بمعنى الحرب، وهو المراد هنا.

عبث المشيب

ظلمَ الرجالُ نساءَهم وتعسَّفوا ‏ ‏ ‏ هل للنساءِ بمصر من أنصار؟[١]
يا معشرَ الكُتَّاب، أين بلاؤكم ‏ ‏ ‏ أين البيانُ وصائبُ الأفكار؟[٢]
أيهمُّكم عبثٌ، وليس يهمُّكم ‏ ‏ ‏ بنيانُ أخلاق بغير جدار؟[٣]
عندي على ضيم الحرائر بينَكم ‏ ‏ ‏ نبأ يثيرُ ضمائرَ الأحرار[٤]
مما رأيتُ وما علمتُ مسافرًا ‏ ‏ ‏ والعلمُ بعضُ فوائدِ الأسفار
فيه مجالٌ للكلام، ومذهبٌ ‏ ‏ ‏ ليَراعِ «باحثةٍ» و«سِتِّ الدار»[٥]

* * *

كثُرت على دارِ السعادة زُمْرَةٌ ‏ ‏ ‏ من مصر، أهلُ مَزراعٍ ويَسار[٦]
يتزوَّجون على نساءٍ تحتَهم ‏ ‏ ‏ لا صاحباتِ بُغًى، ولا بشرار[٧]
شاطرنهم نِعَمَ الصِّبا، وسقينْهم ‏ ‏ ‏ دهرًا بكأسٍ للسُرورِ عُقار[٨]
الوالداتُ بَنيهُم وبناتِهم ‏ ‏ ‏ الحائطاتُ العِرْضَ كالأسوار[٩]
الصابراتُ لضرَّة ومضرَّة ‏ ‏ ‏ المحيياتُ الليلَ بالأذكار

* * *

مِنْ كُلِّ ذي سبعين، يكتمُ شَيْبَهُ ‏ ‏ ‏ والشيبُ في فَوْدَيْه ضوءُ نهار[١٠]
يأْبى له في الشيب غيرَ سفاهة ‏ ‏ ‏ قلبٌ صغيرُ الهمِّ والأوطار[١١]
ما حلَّه عَطْفٌ، ولا رِفْقٌ، ولا ‏ ‏ ‏ برٌّ بأهل، أو هوًى لديار
كم ناهدٍ في اللاعبات صغيرةٍ ‏ ‏ ‏ ألْهته عن حَفَدٍ بمصر صغار[١٢]

مهما غدا أو راح في جولاته ... دفعته خاطبةٌ إلى سمسار[13]
شُغل المشايخ بالمتاب، وشغلُه ... بتبدُّلِ الأزواج والأصهار[14]
في كلَّ عامٍ همُّه في طَفْلَةٍ ... كالشمس، إن خُطِبتْ فللأقمار[15]
يرشو عليها الوالدين ثلاثة ... لم أدر أيُّهمُ الغليظُ الضاري؟
المالُ حلَّل كلَّ غيرِ محلَّلٍ ... حتى زواج الشَّيب بالأبكار
سَحَر القلوبَ، فربَّ أمَّ قلبُها ... من سحره حجرٌ من الأحجار
دفعت بُنَيَّتها لأشأم مضجَعٍ ... ورَمَتْ بها في غُربة وإسار[16]
وتَعَلَّلَتْ بالشرع، قلت: كذبتهِ ... ما كان شرعُ الله بالجزار[17]
ما زُوِّجت تلك الفتاةُ، وإنما ... بِيعَ الصِّبا والحسنُ بالدينار
بعضُ الزواج مُذمَّمٌ، ما بالزنا ... والرقِّ إن قِيسا به من عار
فتشتُ لم أرَ في الزواج كفاءَةً ... ككفاءَة الأزواجِ في الأعمار
أسفي على تلك المحاسنِ كلَّما ... نُقِلت من (البالي) إلى الدَّوّار
إن الحجابَ على (فروقٍ) جنةٌ ... وحجابُ مصرَ وريفِها من نار
وعلى وجوهٍ كالأهلَّةِ، رُوِّعَتْ ... بعد السفور ببرقع وخِمار[18]
وعلى الذوائب وهي مِسْكٌ خولطت ... عند العناق بمثل ذَوْبِ القار[19]
وعلى الشفاه المُحييات، أماتها ... ريحُ الشيوخ تهبُّ في الأسحار
وعلى المجالس فوق كل خَميلةٍ ... بين الجبالِ وشاطئ مِجبار[20]
تدنو الزوارقُ منه، تُنزلُ جؤذَرًا ... بقلادة، أو شادِنًا بسوار[21]
يرفُلن في أُزُرِ الحرير تنوَّعتْ ... ألوانُه، كالزَّهر في آذار[22]
الطاهراتُ اللَّحظِ، أمثالُ المها ... الناطقاتُ الجرْس كالأوتار[23]
الدَّهرُ فرَّقَ شملهن، فمُر به ... يا ربَّ تجمعُه يدُ المقدار

هوامش

(١) تعسَّفوا: ظلموا أو لم ينصفوا.
(٢) البلاء: الاختبار.
(٣) العبث: اللعب. الجدار: الحائط.
(٤) الحرائر: جمع حرَّة. الضمائر: جمع ضمير وهو قلب الإنسان وباطنه.

(٥) باحثة: هي المرحومة ملك ناصف، وكانت قد اتخذت لنفسها اسم «باحثة البادية» تذيل به مقالات كانت تذيعها بواسطة الصحف في شئون اجتماعية ونسوية. وست الدار: اسم كانت تذيل به مقالات في الصحف أيضًا.

(٦) دار السعادة: هي الآستانة. الزمرة: الجماعة متفرقة. اليسار: الغنى.

(٧) البغي والبغاء (مقصور وممدود): الزنى.

(٨) شاطرنهم: من شاطره الشيء أي ناصفه إيَّاه. والعقار: الخمر؛ لأنها تعقر العقل، أو لأنها تعاقر البدن أي تلازمه.

(٩) الوالدات: أي اللاتي هن والدات أبنائهن وبناتهن. والحائطات: من حاط الشيء أي حفظه وتعهَّده. والعرض: هو ما يصونه الإنسان من نفسه، أو سلفه، أو مَنْ يلزمه أمره، أو هو محلُّ المدح والذمِّ من الإنسان. والأسوار: جمع سور.

(١٠) الفودان: تثنية فود، وهو معظم الرأس مما يلي الأذن، وقيل هو ناصية الراس.

(١١) الهمُّ: ما يهمُّ به الإنسان في نفسه، ويقال: رجل همٌّ أي ذو همة يطلب معالي الأمور. الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة.

(١٢) الناهد: الجارية ارتفع ثديها. والحفد (بفتح الفاء): جمع حافد وهو ولد الولد كالحفيد.

(١٣) الخاطبة: مَنْ تتوسط في تزويج الرجال من النساء.

(١٤) المشايخ: أي مَنْ أدركتهم الشيخوخة. والمتاب: التوبة.

(١٥) الطفلة (بفتح الطاء): الرخصة الناعمة.

(١٦) أشأم مضجع: أي أشدُّ المضاجع شؤمًا. والإسار: الأسر.

(١٧) تعلل بالشيء: تلهى به واكتفى. وكذبته: أي كذبت عليه.

(١٨) وعلى وجوه: أي وأسفي على وجوه. والأهلَّة: جمع هلال. والخمار (بكسر الخاء): ما تغطي به المرأة رأسها.

(١٩) الذوائب: جمغ ذؤابة وهي الناصية. والقار: قيل: هو ما يُسمَّى بالزفت.

(٢٠) الخميلة: الشجر الكثيف الملتف، وقيل: الموضع الكثير الشجر. والمحبار: الأرض السريعة النبات الحسنة.

(٢١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه. والشادن: ولد الظبية.

(٢٢) يرفلن: من رفل في ثيابه، أي أطالها وجرَّها متبختِرًا. والأزر: جمع إزار وهو كل ما سترك. وآذار: الشهر الثالث من السنة الميلادية (شهر مارس).

(٢٣) المها: جمع مها وهي البقرة الوحشية. والجرس: الصوت.

أبو الهول[١]

أبا الـهَـوْلِ، طـالَ عـلـيكَ الـعُـصُـرْ … وبُـلِّـغْـتَ في الأرَضِ أقصى الـعُـمُـرْ[١]
فـيـا لـدةَ الـدَّهـر، لا الـدَّهـرُ شَـبَّ، … ولا أنـت جـاوزتَ حـدَّ الـصِّـغَـر[٢]
إلامَ ركــوبُــكَ مــتــنَ الــرمــا … لِ لِطـيَّ الأصيل وَجَـوْبِ السـحـر؟[٣]
تُـسـافـر مـنـتـقـلاً فـي الـقـرو … نِ، فـأيـان تُـلـقِـى غـبـارَ الـسـفـر؟
أبـيـنـكَ عَـهـدٌ وبـيـن الـجـبـا … لِ، تزولان في الموعد المنتظر؟[٤]
أبـا الـهـول، مـاذا وراءَ الـبـقـا … ءِ — إذا ما تطاول — غيرُ الضجَر؟[٥]
عـجـبْـت لِـلُـقـمـانَ فـي حِـرصـه … عـلـى لُـبَـدٍ والـنُّـسـور الأُخَـر[٦]
وشـكـوى لـبـيـدٍ لـطـولِ الـحـيـا … ة، ولو لم تَطُلْ لتَشكَّى القِصَر[٧]
ولـو وُجِـدَتْ يـا بـنَ الـصَّـفـا … ةِ لـحَـقـتَ بِـصـانِـعـكَ الـمـقـتـدر[٨]
فـإن الـحـيـاةَ تـفُـلُّ الـحـديــ … ـدَ إذا لبستْهُ، وتُبْلي الحجَر[٩]
أبا الهول، ما أنتَ في المُعضِلا … تِ؟ لقد ضلَّت السُّبْلَ فيكَ الفِكَر![١٠]
تـحـيَّـرَتِ الـبـدوُ مـاذا تـكـو … نُ؟ وضلَّتْ بِوادي الظنونِ الحضر[١١]
فـكـنـتَ لـهـم صـورةَ الـعُـنْـفُـوا … ن، وكنت مِثالَ الحِجَى والبصر[١٢]
وسِـرُّكَ فـي حُـجْـبـه كـلَّـمـا … أطلَّتْ عليه الظنونُ استتر[١٣]

[١] رُفِعَ الستار في مسرح حديقة الأزبكية يوم افتتاحه عن تمثال أبي الهول، يناجيه رجل بهذه القصيدة.

وما راعهم غيرُ رأْس الرجا   لِ على هيكلٍ من ذوات الظُّفُر
ولو صُوَّروا من نواحي الطِّبا   ع تَوالَوْا عليك سِباعَ الصُّوَر[١٤]
فيا رُبَّ وجهٍ كصافي النميرِ   تشابَه حامِلُه والنَّمِر[١٥]
أبا الهول وَيْحَكَ لا يُستقلـ   ـلُ مع الدَّهر شيءٌ ولا يُحتقَر[١٦]
تهزَّأتَ دهرًا بديك الصبا   ح فنقَّرَ عينيك فيما نقَر[١٧]
أسال البياضَ، وسَلَّ السَّوَادَ   وأوْغل مِنقارُه في الحفَر
فعُدْتَ كأنك ذو المَحْبِسَيْـ   ـنِ، قطيعَ القيام، سَليبَ البصر[١٨]
كأن الرِّمال على جانِبَيْـ   ـكَ وبين يديك ذنوبُ البشر
كأنك فيها لواءُ الفضا   ءِ على الأرضِ، أو دَيدبانُ القدَر[١٩]
كأنكَ صاحبُ رملٍ يَرى   خَبايا الغيوبِ خِلالَ السَّطَر[٢٠]

***

أبا الهول، أنت نديُم الزما   نِ، نَجِيُّ الأوانِ، سميرُ العُصُر[٢١]
بسطت ذراعيْك من آدمٍ   وولَّيتَ وجهَكَ شَطرَ الزُّمَر[٢٢]
تُطِلُّ على عالَمٍ يستهِـ   ـلُّ وتُوفِي على عالَم يُحْتَضَر[٢٣]
فعينٌ إلى مَنْ بدا للوجو   دِ، وأخرى مشيَّعةٌ من غَبَر[٢٤]
فحدَّث، فقد يُهتدى بالحديـ   ـثِ، وخبِّر، فقد يؤتَسَى بالخبَر[٢٥]
إلى الشمس مُعتزيًا والقمر؟   إلى الشمس مُعتزيًا والقمر؟[٢٦]
ظليلَ الحضارةِ في الأوَّليـ   ـنَ، رفيعَ البناءِ، جليلَ الأثر[٢٧]
يؤسِّسُ في الأرض للغابريـ   ـنَ، ويغرِسُ للآخرين الثَّمر[٢٨]
وراعك ما راعَ من خيْلِ قَمْبيـ   ـزَ، ترمي سَنابكُها بالشرَر[٢٩]
جوارفُ بالنارِ تغزو البلا   دَ، وآونةً بالقنا المشْتجِر
وأبصرْتَ إسكندرًا في المَلا   قَشيبَ العلا في الشباب النَّضِر[٣٠]
تبلَّجَ في مِصرَ إكليلُه   فلم يَعْدُ في الملْك عُمْرَ الزَّهَر[٣١]
وشاهدتَ قيصرَ، كيف استـ   ـدَّ، وكيف أذلَّ بمصرَ القَصَر؟[٣٢]
وكيف تجبَّرَ أعوانُه   وساقوا الخلائقَ سوْقَ الحُمُر؟
وكيف ابتُلوا بقليل العديـ   ـدِ من الفاتحين كريم النفَر؟
رمَى تاجَ قيصرَ رَمْيَ الزُّجا   ج، وفَلَّ الجموعَ، وثلَّ السُّرُر[٣٣]

فدعْ كلَّ طاغيةٍ للزما   نِ، فإن الزمانَ يُقيم الصَّعَر[٣٤]
رأيتَ الدِّياناتِ في نظْمِها   وحينَ وَهَى سِلكُها وانتشر[٣٥]
تُشادُ البيوتُ لها كالبرو   ج، إذا أَخَذَ الطرْفُ فيها انحسر[٣٦]
تَلاقى أساسًا وشُمَّ الجبا   لِ، كما تتلاقى أصولُ الشجر[٣٧]
وإيزيسُ خلْفَ مقاصيرِه   تخطَّى الملوكُ إليها السُّتُر[٣٨]
تضيء على صفحات السما   ءِ، وتُشرقُ في الأرض منها الحُجَر[٣٩]
وآبيسُ في نِيره العالَمو   ن، وبعضُ العقائدِ نيرٌ عسِر[٤٠]
تُساس به مُعْضِلات الأمو   ر، ويُرجى النعيمُ، وتُخشىَ سقر
ولا يشعُرْ القومُ إلاّ به   ولو أخذتْه المُدى ما شعر
يَقِلُّ أبو المسكِ عَبدًا له   وإن صاغَ أحمدُ فيه الدُّرَر[٤١]
وآنستَ موسى وتابوتَه   ونورَ العصا، والوصايا الغُرَر[٤٢]
وعيسى يَلُمُّ رداءَ الحيا   ءِ، ومريم تجمع ذيلَ الخَفَر[٤٣]
وعمرو يسوقُ بمصرَ الصَّحا   بَ، ويُزْجِي الكتابَ، ويحدو السُّور[٤٤]
فكيف رأيتَ الهُدى، والضَّلا   لَ، ودنيا الملوكِ، وأخرى عُمَر؟[٤٥]
ونبْذَ المُقَوْقسِ عهدَ الفُجو   ر، وأخذَ المقوقسِ عهدَ الفجر[٤٦]
وتبديلَه ظلمَاتِ الضلا   لِ بصبح الهداية لمَّا سَفر[٤٧]
وتأليفَه القِبَطَ والمسلميـ   ـن كما أُلِّفَتْ بالولاءِ الأُسَر[٤٨]
أبا الهول، لَو لم تكن آيةً   لكان وفاؤك إحدى العِبر[٤٩]
أطلتَ على الهرمين الوقو   فَ، كثاكلةٍ لا تَريم الحفر[٥٠]
تُرجِّي لبانيهما عودةً   وكيف يعودُ الرميم النَّخِر؟[٥١]
تجوس بعينٍ خِلاَلَ الديا   رِ، وترمي بأخرى فضاءَ النهر[٥٢]
ترومُ بمنفِيس بيضَ الظُّبا   وسُمْرَ القنا، والخميسَ الدثر[٥٣]
ومَهْدَ العلومِ الخطيرَ الجلا   لِ، وعهدَ الفنون الجليلَ الخَطر
فلا تستبين سوى قريةٍ   أَجَدُّ محاسنها ما اندثر[٥٤]
تكاد لإغراقها في الجمو   دِ إذا الأرض دارت بها لم تَدُر
فهل مَنْ يبلِّغ عنَّا الأصو   لَ بأن الفروع اقتدت بالسِّيَر؟[٥٥]
وأنَّا خَطبنا حِسانَ العلا   وسقنا لها الغاليَ المدَّخَر

وأنَّا ركبنا غمارَ الأمو ... رِ، وأنَّا نزلنا إلى المؤتمر[٥٦]
بكل مُبينٍ شديد اللدا ... د، وكل أريبٍ بعيد النظر[٥٧]
تطالب بالحق في أمة ... جرى دَمُها دونه وانتشر[٥٨]
ولم تفتخر بأساطيلها ... ولكن بدستورها تفتخر[٥٩]
فلم يبقَ غيرُك منْ لم يَحِف ... ولم يبقَ غيرُك مَنْ لم يَطر
تحرَّكْ أبا الهول، هذا الزما ... نُ تحرَّك ما فيه، حتى الحجر
فهل مَنْ يبلِّغ عنَّا الأصو ... لَ بأن الفروع اقتدت بالسِيَر؟[٦٠]
وأنَّا خَطبنا حِسانَ العلا ... وسقنا لها الغاليَ المدَّخَر
وأنَّا ركبنا غمارَ الأمو ... رِ، وأنَّا نزلنا إلى المؤتمر[٦١]
بكل مُبينٍ شديد اللدا ... د، وكل أريبٍ بعيد النظر[٦٢]
تطالب بالحق في أمة ... جرى دَمُها دونه وانتشر[٦٣]
ولم تفتخر بأساطيلها ... ولكن بدستورها تفتخر[٦٤]
فلم يبقَ غيرُك منْ لم يَحِف ... ولم يبقَ غيرُك مَنْ لم يَطر
تحرَّكْ أبا الهول، هذا الزما ... نُ تحرَّك ما فيه، حتى الحجر

«فلمَّا أتمَّها أجابه آخر كان يختفي وراء التمثال وينطق بلسانه»:

نجيَّ أبي الهول آن الآوا ... نُ، ودان الزمانُ، ولان القدر
خبأْتُ لقومك ما يستقو ... ن، ولا يَخبأُ العذبَ مثلُ الحجر
فعندي الملوكُ بأعيانها ... وعندَ التوابيتِ منها الأثر
محا ظلمةَ اليأْس صُبحُ الرجا ... ءِ، وهذا هو الفَلَقُ المنتظر

«ثم انشقَّ صدرُ أبي الهول عن فتى وفتاة، مَثَلا أمامَه، وأنشَدا النشيد»:

اليوم نَسود بوادينا ... ونُعيد محاسنَ ماضينا
ويشيدُ العزَّ بأيدينا ... وطنٌ نَفديه ويَفدينا
وطنٌ بالحقِّ نُؤيِّدُه ... وبعين الله نشيِّده
ونحسِّنُه، ونزيِّنُه ... بمآثرنا ومساعينا

سرُّ التاريخ، وعُنصرُه وسريرُ الدهرِ ومِنبُره
وجِنانُ الخلد، وكوثُره وكفى الآباءُ رياحينا
نتَّخذُ الشمسَ له تاجا وضُحاها عرشًا وهاجا
وسماءَ السُّؤدَدِ أبراجا وكذلك كان أوالينا
العصرُ يراكُمْ، والأمم والكرنك يلحظُ، والهرمُ
أَبني الأوطان ألا هِمَمُ كبناءِ الأولِ يبنينا؟
سعيًا أبدًا، سعيًا سعيًا لأثيل المجد وللعَلْيا
ولنجعلْ مصرَ هي الدنيا ولنجعل مصر هي الدنيا

هوامش

(١) «طال عليك العصر» العَصر والعُصر والعِصر والعَصَر: الدَّهر، فالعصر هنا مفرد لا جمع، ومعنى طول الدهر على أبي الهول: أنه عمَّر أعمارًا طوالاً، وقد أوضح ذلك مع زيادة في التوكيد بقوله: وبلغت في الأرض أقصى العمر، والعُمُر (بضم العين والميم) لغة في العمر.

(٢) فيا لدَّة الدَّهر: فيا أخا الدَّهر وقرينه، فكأنك والدَّهر توأمان، خلقتما معًا في أوان، والبيت كما ترى آية في الإبداع وروعة البيان. ولا أنت جاوزت حدَّ الصغر: أي برغم أنك بلغت في الارض أقصى العمر.

(٣) إلام ركوبك: «إلى» من حروف الجر دخلت على «ما» الاستفهامية فبُنِيَت بناء كلمة واحدة، وسقطت الألف من «ما» طلبًا للخفة واعتدادًا بإلى الموصولة بها، وكذلك يفعلون في بمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون، في بمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون: إلامه وعمه وفيمه ولِمَه.. هذا وإنه لتصوير شعري بديع رائع، تصوير أبي الهول راكبًا متن الرمال، يطوي الليل والنهار، ويسافر متنقلاً في القرون والأدهار. وجَوْب: في معنى طيٍّ.

(٤) في الموعد المنتظر: يوم يزول كل شيء، أي في اليوم الآخر.

(٥) ماذا وراء البقاء: يقول: ما وراء البقاء المتطاول غير السأم.. قال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومَنْ يَعِش ثمانين حَوْلاً لا أبا لك يسأم

(٦) لقمان: هو لقمان بن عادياء، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي لها، فلمَّا أهلكوا، خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر، من أظب عفر، في جبل وعر، لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلَّما أهلك نسر خلف بعده نسر؛ فاستحقر الأبقار وآثر النسور، فلمَّا لم يبق غير السابع قال ابن أخ له: يا عم! ما بقي من عمرك إلا عمر هذا، فقال لقمان: هذا لبد (ولبد بلسانهم: الدَّهر)، قالوا: وكان يأخذ فرخ النسر، فيجعله في حوبة في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع، أخذه فوضعه في ذلك الوضع وسمَّاه لبدًا، وكان أطولها عمرًا؛ فضربت العرب به المثل فقالوا: «طال الأبد على لبد».. قال الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قيلا بكأسه ولقمان إذ خيَّرت لقمان في العمر
لنفسك أن تختار سبعة أنسر إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمَّر حتى خال أن نسوره خلودٌ وهل تبقى النفوس على الدَّهر؟

فعاش لقمان — كما زعموا — ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة.. وقال النابغة:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وهذا لقمان بن عادياء، غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم.

(٧) وشكوى لبيد: أي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة.. إلخ، وهو لبيد بن ربيعة، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم، صاحب المعلقة المشهورة التي أوَّلها:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

كان لبيد من المعمرين، روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين، وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية، أمَّا شكواه التي ألمع إليها، فذلك حيث يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

يقول: إذا لم يكن وراء البقاء المتطاول إلا الضجر، فإني أعجب للقمان في حرصه على أن تطول حياته. وللبيد الذي إن مل الحياة وسئم من طولها، فإنه لا محالة كان أكثر شكاة إذا هي لم تطل؛ لأن حبَّ الحياة جبلة مركوزة في الطباع.

(٨) وُجِدَت: أي الحياة. يا بن الصفاة: هي الحجر الصلد الذي لا ينبت شيئًا، وفي المثل: فلان ما تندى صفاته، وفي الحديث: لا تقرع لهم صفاة، أي لا ينالهم أحد بسوء، وأبو الهول ابن الصفاة؛ لأنه من الحجر. لحقت.. إلخ: أي لأدركك الموت.

(٩) فإن الحياة: من المعاني المبتكرة التي لا نظن صاحب الديوان قد سُبِقَ إليها على هذا الوجه.

(١٠) ما أنت في المعضلات: خبِّرني أي معضلة أنت في المعضلات وأي معمى؟!

(١١) تحيَّرت: يقول: حار الناس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي.

(١٢) صورة العنفوان لما ينطوي عليه جسمك الذي صُوِّر على صورة الأسد من معاني القوة. مثال الحجى والبصر: لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوَّران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور.

(١٣) يقول: ومع ذلك لا يزال سرك مكتنًا في حجبه والناس من أمرك في ظلام.

(١٤) ولو صوَّروا: أي ما كان ينبغي أن يروِّع الناس منك أن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر؛ لأن الناس لو صوَّروا من نواحي شيمهم وطباعهم لتوالوا عليك كأنهم وحوش، وهذا معنى حسن بديع، وقد زاده حسنًا وأكدَّه بقوله: فيا ربَّ وجه كصافي النمير.

(١٥) النمير: الماء الناجع في الري، أو النامي، أو الكثير، والنمر: هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وخبثه وشراسته، وهذا البيت من جوامع الكلم وروائع الحكم، ولا يخفي ما فيه من الجناس بين النمير وبين النمر.. وللشعراء فيما يتصل بهذا المعنى ويقاربه ما يخطئه العدُّ والإحصاء، فمن ذلك ما يقول القائل:

لا يغرَّنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويًّا

ويقول الأبيوردي:

يلقاك، والعسل المصفى يجتنى   من قوله، ومن الفعال العلقم
يبدي الهوى ويثور — إن عرضت   له فرص — عليك كما يثور الأرقم

ويقول الشريف الرضي:

لا تجعلنَّ دليلَ المرءِ صورتَه   كم مخبر سمج عن منظر حسن

ويقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه   أبَى بعد طول العمر أن يتقوَّما
تقبلت منه ظاهرًا متبلجًا   وأدمج دوني باطنًا متجِّهما
ولو أنني كشفته عن ضميره   أقمت على ما بيننا اليوم مأتما

وقال آخر:

يعطيك ودًّا صادقًا بلسانه   ويجن تحت ضلوعه ألوانا

وقال أبو فراس:

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم   ذئابًا على أجسادهن ثياب

وقال آخر:

ظننت بهم خيرًا فلمَّا بلوتهم   نزلت بوادٍ منهم غير ذي زرع

ويقول أبو تمام:

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرًا   متبسمًا عن باطن متجهم

(١٦) لا يستقل: لا يُعدُّ قليلاً، وهذا البيت كالتمهيد لما بعده.

(١٧) ديك الصباح: يريد الزمن، والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة، وإنه لَتَخيل شعري جميل، ومن بارع حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسلَّ سوادهما، هو هزء أبي الهول به، وسخريته منه، وعدم اكتراثه، ثم تعبيره عن الدَّهر بديك الصباح. هذا، ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول: إنه ورد في بعض الآثار: «لا تسبوا الديكه فإنها تدعو إلى الصلاة».. ولابن المعتز:

بشَّر بالصبح هاتفٌ هتفا … هاج بالليل بعد ما انتصفا
مذكِّر بالصبوح هاج بنا … كخاطب فوق منبر وقفا
صفق إمَّا ارتياحة لسنا الـ … ـفجر وإمَّا على الدَّجى أسفا

وللمعري:

أيا ديك، عدت من أياديك صيحة … بعثت بها ميت الكرى وهو نائمٌ
هتف، فقال الناس: أوس بن معبر … أو ابن رباح بالمحلة قائمٌ

إلى أن يقول:

عليك ثياب خاطها الله قادرًا … بها رئمتك العاطفات الروائم
وتاجك معقود، كأنك هرمز … يباهي به أملاكه ويوائم
وعينك سقط ما خبا عند قرة … كلمعة برق ما لها الدهر شائم
وما زلت للدين القويم دعامة … إذ قلقت من حامليها الدعائم

أوس بن معبر: هو مؤذن رسول الله ﷺ بمكة بعد الفتح. وابن رباح: هو بلال، كان يؤذن لرسول الله ﷺ سفرًا وحضرًا. ورئمتك: عطفت عليك ولزمتك. ويوائم: يوافق ويلائم. والسقط: ما سقط من النار بين الزندين قبل استحكام الوري. والقرة: البرد.

(١٨) المحبسين: المحبس هو الموضع الذي يحبس فيه، وكان يقال عن أبي العلاء المعري: رهين المحبسين أي رهين عماه وبيته، فكأنه من عماه في محبس،

وكذلك أبو الهول، عدَّه شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه من عماه وسكونه في محبسين.

(١٩) ديدبان: فارسية معرَّبة أصلها ديده بان، ومعنى ديده: العين، وبان: ذو أي الرقيب والعين، ومعناها الخاص: الجندي المكلَّف بالحراسة.

(٢٠) السَّطَر: السطْر وهو الصف من الكتاب والشجر ونحوهما، ومعنى البيت ظاهر.

(٢١) نجيُّ الأوان: النجى (بوزن فعيل) هو الذي تسارِّه، وفي الحديث: «اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك»، وهو الناجي المحدِّث للإنسان.

(٢٢) من آدم: أي من قديم الزمان. والزمر: جمع زمرة وهي الجماعة من الناس، والمراد هنا الناس جميعًا.

(٢٣) يستهل: يعني يقدم على الدنيا، من استهل الصبي بالبكاء أي رفع صوته وصاح عند الولادة. ويحتضر: حضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت.

(٢٤) وأخرى مشيِّعة مَنْ غبر: مَنْ مضى، وإن هذا البيت لمشبع من الروعة والجلال.

(٢٥) فحدِّث: هذا البيت هو كالمدخل لما بعده.

(٢٦) ألم تبلُ فرعون: بلاه يبلوه بلوًا وابتلاء أي جرَّبه واختبره. وفرعون: لقب يطلق على كل مَنْ ولي مُلك مصر، كالنجاشي لملوك الحبشة، وقيصر لملوك الرومان، وفرعون أصلها في الهيروغليفية مركبة من «بي» وهي أداة التعريف كأل، و«راع» أي الشمس، فتكون كلمة واحدة، وراع أو راهو: معبود قوي وحاكم جبار يقاتل احتفاظًا بالحياة وإبقاءً على الكون، ومن هنا كان العتوِّ والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فرعون عند العرب، وإذن لا يقصد بفرعون فرعونًا معينًا، ولكن جميع فراعنة مصر، وقد ابتلاهم أبو الهول. إلى الشمس معتزيًا: تقول: ألم تبلُ يا أبا الهول فرعون وهو في عزِّه، حتى لكأنه من العزِّ والمنعة بحيث يناطح الشمس والقمر؛ لأن مَنْ اعتزى إلى شيء قاربه وشاكه، وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صورة أوزيريس الشمس، وإيزيس القمر؛ لأنهما من أصنامهم فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العزِّ والمنعة.

(٢٧) ظليل الحضارة: مكان ظليل أي ذو ظلٍّ دائم يستظلُّ به، يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظلُّ الناس، ويرتعون في ذراها وكنفها،

والحضارة (بكسر الحاء وفتحها): الإقامة في الحضر. والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البدو والبادية، وهي المدن والقرى والريف؛ سمِّيت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار.. قال القطامي:

فمَنْ تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

وقال المتنبي:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

ولكن الحضارة هنا بمعنى التمدين.

(٢٨) للغابرين: الغابر من الأضداد، فيكون بمعنى الباقي، ويكون بمعنى الماضي، ومن ثَمَّ يكون معنى البيت: إمَّا أن فرعون يخلِّد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتماثيل ويغرس للأتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها، وإمَّا أن فرعون يؤسس ويغرس لهم كل ما يجدي ويثمر.

(٢٩) قمبيز: هو ابن كورش الأكبر الذي أسس دولة الفرس العظيمة، ومعلوم أن الفرس من الدول التي غزت مصر واستولت عليها حينًا من الدهر، قال المؤرخون: أخذ الفرس في غزو مصر أزمان الأسرة السادسة والعشرين، وذلك حين ولي الملك «أبسمتيك الثالث» أحد ملوك هذه الأسرة؛ فأعدَّ الفرس لهذه الغزاة المعدَّات الكبيرة، وجاء ملكهم «قمبيز» بجيش جرَّار، لفتح البلاد التي طالما تاقت نفس أبيه «كورش» إلى إخضاعها، وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة.. يقول مؤرخو الإغريق: إن أحد الجنود اليونانية، هو الذي خان مصر والمصريين، ودلَّ الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد، فهوجمت مدينة «بلوز» (الفرما) بحرًا، وزحفت الجنود الفارسية على مصر برًا، وبعد مقاومة عنيفة جهتي بلوز ومنف، سقطت البلاد، وأخذ قمبيز أبسمتيك أسيرًا، وكان ذلك سنة ٥٢٥ ق.م، ثم سار قمبيز أوَّل أيامه سيرة حسنة، وعامل المصريين معاملة طيبة، يحترم ديانتهم وتقاليدهم، ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر، وحنق على البلاد ومَنْ فيها، فكرَّ على المعابد والهياكل فهدمها، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة، وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق.م، ولَمَّا ولي

ملك فارس «دارا الأول» زار مصر، واراد أن يصلح ما أفسده قمبيز، فأبدى احترامًا كبيرًا لديانة المصريين ومعبوداتهم، وشيَّد هيكلاً عظيمًا للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى، وعضَّد التجارة، وشيَّد كثيرًا من المدارس، وفتح الخليج الموصِّل ما بين النيل والبحر الأحمر، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة «مرتون» في حربه مع الإغريق؛ فخرجوا عن طاعته، وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م، ثم غزا الفرس مصر ثانية، وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق.م.

(٣٠) إسكندر: هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم، قال المؤرخون: بعد أن هزم الإسكندر الفرس في واقعة أسوس، زحف على مدينة صور فأخذها عنوة؛ وبذلك تم استيلاؤه على الشام، ثم قدم إلى «بلوز» (الفرما) سنة ٣٣٢ ق.م؛ رحَّب به المصريون، لما سمعوه عن عدالة حكمه، ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس، ففتحت له مصر أبوابها ودخلها دون عناء، حتى أن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب؛ ومن ثَمَّ سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى، ودخل معبد آمون، ولقَّبه الكهنة بابن آمون، فاحترم ديانة المصريين وقدَّم القرابين لمعبوداتهم، ولم يهمل مع ذلك التقاليد الإغريقية، فأدخل منها في مصر الموسيقى ووالألعاب النظامية. ولَمَّا رأى الإسكندر أن قرية «راقودة» — وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندرية — ذات موقع بحري موفق، أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هي الإسكندرية، وبعد أن استوثق الأمر للإسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق، وكانت وفاته سنة ٣٢٣ ق.م، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنه ونيفًا، لم يقم بمصر — كما ترى — إلا قليلاً، فذلك حيث يقول في البيت التالي:

فلم يعد في الملك عمر الزهر

وخلف الإسكندر على مصر البطالسة، وما زالوا بها إلى أن استولى الرومان عليها.

(٣١) إكليله: تاجه.

(٣٢) قيصر: أسلفنا أن قيصرًا هذا لقب ملوك الرومان، قال المؤرخون: ما كادت دولة الرومان تظهر بين ممالك الأرض، حتى أخذت العلائق تنشأ بينها

وبين البطالسة في مصر، ولبثت بين الدولتين مدَّة طويلة من أيام مجد البطالسة إلى انقراضهم، تطوَّرت أثناءها في عدَّة أطوار: ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت إلى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر سنة ٣٠ ق.م في عهد أغسطس، ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خمول سياسي طويل، امتد نحوًا من ٦٧ سنة، لم يكن لها فيها شيء يذكر في التاريخ، بل كانت كحقل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدِّ أهم جزء من الخراج، وما زال الرومان بمصر حتى أدال الله منهم بالعرب سنة ٦٤١ م على يدِّ عمرو بن العاص، فذلك حيث يقول «وكيف ابتلوا بقليل العديد.. إلخ». القصر: أي الأعناق.. قال الشاعر.

لاتدلك الشمس إلا حذو منكبه　　في حومة تحتها الهامات والقصر

(٣٣) رمى: أي هذا النفر القليل، وهم أصحاب عمرو بن العاص. وفلَّ الجموع: هزمها وثلَّ السرور: كسرها. والسرر: جمع سرير، والمراد هنا العروش التي يجلس عليها القياصرة.

(٣٤) الصعر: ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، وقد صعَّر خدَّه أي أماله من الكبر، قال المتلمس:

وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّه　　أقمنا له من ردئه فتقوما

والزمان يقيم الصعر: يعدل الطغاة: يقال: أقمت الشيء فقام أي استقام.

(٣٥) في نظمها وحين وهى سلكها: في حالتي قوتها وضعفها.

(٣٦) انحسر: كلَّ، والبصر يحسر عند أقصى بلوغ النظر.

(٣٧) تلاقى: تتلاقى، بحذف إحدى التاءين، يريد أنها راسخة رسوخ الجبال.

(٣٨) إيزيس: هي من معبودات قدماء المصريين، وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه، وأم عوروس وهاريوقراط ... يرى قدماء المصريين، أن إيزيس هذه وليت أمر مصر مع أخيها وزوجها أوزيريس حينًا من الدهر ازدهرت فيه الزراعة، ويؤخذ من تقاليد إيزيس أنها عندهم رمز للقمر، وأوزيريس رمز للشمس، ومن هنا يريد بـ «إيزيس» القمر، وقوله «تخطى» أي تتخطى، بحذف إحدى التاءين.

(٣٩) قوله «تضيء على صفحات السماء» أي إيزيس بمعنى قمر السماء الحقيقي. وقوله «وتشرق في الأرض منها الحجر» أي القمر بمعنى المعبود في الأرض، وعلى ذلك يكون في الكلام استخدام، وهو عند علماء البيان أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميرين أحدهما، ثم بالآخر الآخر، فالأول كقول معوِّذ الحكماء:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه، وإن كانوا غضابا

فإنه أراد بالسماء الغيث، وبضميره النبت.. والثاني كقول البحتري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

فإنه أراد بضمير الغضا في قوله «والساكنيه» المكان، وفي قوله «شبوه» أي أوقدوا الشجر. والحجر: جمع حجرة كغرفة وغرف.

(٤٠) وآبيس: هو العجل أبيس.. رووا أن تيفون إله الشر تغلَّب أخيرًا على أوزيريس إله الخير وقتله؛ فتقمَّصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقي، وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمَّصته روحه هو ابن بقرة حملت به بواسطة شعاع من الشمس وشعاع من القمر، وله علامات ظاهرة في جسده، فإنه يكون أسود اللون، وفي جبهته سمة بيضاء مربعة أو مثلثة، وصورة نسر على ظهره، وصورة خنفساء تحت لسانه، وكان الكهنة عندما يجدون العجل بعد موت سلفه، يركبون مركبة حربية ويسيرون به باحتفال عظيم إلى هليوبوليس، وكانوا يضعونه فيها في هيكل يتركونه مفتوحًا للعبادة أربعين يومًا، وكان الأهالي عند موته ينوحون ويلبسون ثوب الحداد، ويضعونه في تاووس ثمين جدًا، وكانوا يقومون بالاحتفال بأيامه المقدَّسة كل سنة عند ارتفاع النيل، وذلك بإقامة الولائم والأفراح وكانوا يطرحون في ذلك الوقت إناءً من الذهب في النيل لإخماد غضب التماسيح.. في نيره: النير هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين المقرونين بالحراثة بأداتها، وهم يقولون: فلان تحت نير فلان، يريدون الخضوع والاستخذاء.

(٤١) أبو المسك: كافور الإخشيدي. وأحمد: ابو الطيب المتنبي.

(٤٢) التابوت الذي وُضِعَ فيه موسى وقُذِفَ به في النيل. وعصا موسى وما كان منها من الآيات، والوصايا العشر، كل أولئك معروف فلا حاجة بنا إلى الإفاضه فيه.

(٤٣) «وعيسى يلمُّ رداء الحياء» يقول: وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحياء، ومثله في ذلك العذراء.

(٤٤) «وعمرو» يقول: وقد رأيت عمرو بن العاص إذا يسوق المسلمين لفتح مصر، ويزجي كتاب الله وآياته.

(٤٥) «فكيف رأيت»، يقول: خبرني يا أبا الهول كيف رأيت فرق ما بين هدي المسلمين وأخرى عمر، أي دنياه التي كأنها الأخرى في الإصلاح وما إليه من كل ما كان ماثلا أيام الفاروق (رضى الله عنه) وأرضاه، وما بين الضلال ودنيا الملوك من القياصرة والفرس والروم ومن إليهم.

(٤٦) المقوقس: هو سيروس، بطريق الطائفة الملكانية بالإسكندرية، والحاكم الإداري بمصر من قبل الرومان، والذي فتح عمرو بن العاص مصر في عهده، وفي المقريزي: أنه يُسمَّى المقوقس بن قرقفت، ولعله محرَّف عن سيروس. عهد الفجور: عهد الانحراف عن الصراط السوي، عهد الإسراف في المعاصي والآثام، عهد الرومان الذي استبدل به المقوقس. عهد الفجر: أي عهد الخير العميم، عهد النور، عهد التلقي والإسلام، عهد الإسلام، إذا مالأ المسلمين وعبَّد لهم طريق الفتح.

(٤٧) وتبديله: في معنى البيت قبله. لمَّا سفر: سفر الصبح وأسفر أي أضاء.

(٤٨) وتأليفه: أي المقوقس. والأسر: جمع الأسرة، وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون.

(٤٩) إحدى العبر: إحدى الآيات.

(٥٠) أطلت.. إلخ: بيان لوفاء أبي الهول. كثاكلة: يقول إنك في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاءً منك، كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ولا تزايله، والثاكلة هي التي فقدت ولدها. ولا تريم: أي لا تبرح. والحفر: جمع حفرة وهي ما يحفر في الأرض؛ والمراد بها هنا القبر.

(٥١) لبانيهما: أي لباني الهرمين.

(٥٢) تجوس: تطوف وتتخلل. والنَّهرَ والنهر: واحد الأنهار، يعني نهر النيل.

(٥٣) تروم: تنشد وتطلب. ومنفيس: منف، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة: هي عاصمة ملك الفراعنة، والذي بناها هو «مينا» مؤسس الأسرة المالكة، وكانت كما قال شاعرنا:

ومهد العلوم الخطير الجلا   ل، وعهد الفنون الجليل الخطر

ولا يخفى ما في هذا البيت من العكس، والعكس هذا من المحسِّنات البديعية، وهو أن تقدِّم في الكلام جزءًا، ثم تعكس فتقدِّم ما أخرَّت وتؤخِّر ما قدَّمت، مثل قول الحماسي:

فردَّ شعورهن السود بيضا   وردَّ وجوههنَّ البيض سودا

وقول أبي الطيب:

فلا مجد في الدنيا لمَنْ قال ماله   ولا مال في الدنيا لمَنْ قال مجده

وقول الآخر:

إن الليالي للأنام مناهيل   تطوى وتنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة   وطوالهن مع السرور قصار

الخميس الدثر: الجيش الكثير، يقول: إنك يا أبا الهول لأوفى الأوفياء، إذ كأني بك وقد فقدت تلك الحضارة الباهرة، والمدنيَّة الزاهرة، التي تحليت بها حينًا من الدَّهر، وشاهدت عصرها الذهبي، ثم ذهبت وذهب أهلوها، وأصبحت منفردًا وحيدًا. كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر، فأبى عليك وفاؤك إلا أن تطيل الوقوف على الهرمين، شأن الثكول فقدت وحيدها فأبى عليها وجدها أن تريم قبره، وكأنك في وقوفك هذا ترجى لباني الهرمين عودة تعود معها تلك المعاني الساميات، وتنشد بمنفيس — وهي منك عن كثب — عهد القوة والعظمة والسلطان، وعهد العلوم والعرفان، وعهد الفنون الخطير الجلال مما رأيت في الزمن الخالي، فلا تصيب شيئًا من ذلك، ولا تقع عينك من منفيس هذه إلا على قرية قد اندثرت، ودمنة قد عفت، تكاد لإغراقها في الجمود، إذا الأرض دارت بها لم تدر.. فترى في هذه الأبيات صورة أبي الهول في وقوفه هذا، صورة شعرية آية في الإبداع والتخيُّل الشعري، ثم ترى فيها وصف عظمة المصريين، وأن مصر كانت عهد الحضارة والتمدين، ولا جرم فقد أمَّها وجاور فيها للاستفادة أمثال ليكرغ

وصولون من كبار المتشرعين، وفيثاغورس وأفلاطون وإقليدس من شيوخ الفلسفة، كما تؤمُّ اليوم بلاد الغرب للمجاورة فيها والإفادة منها، ومن هنا قال بعد ذلك «فهل مَنْ يبلِّغ عنَّا الأصول»

(٥٤) «أجد محاسنها ما اندثر» يقول: إن طلولها الدوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدَّت محاسنها، وهو معنى دقيق عجيب، ولعله ينظر إلى قول أبي نواس:

لمن دمن تزداد حسن رسوم　　على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما　　لبسن على الأقواء ثوب نعيم

هذا ويجوز أن يكون «أجدُّ» مبتدأ وما اندثر «خبر»، أي أن أجدَّ ما بقي من هذه القرية وأجلَّه، هو آثارها الدوراس.

(٥٥) الأصول: أصولنا وآباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسِّيَر: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٥٦) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٥٧) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٥٨) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٥٩) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتز بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

(٦٠) الأصول: أصولنا وآباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسِّيَر: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٦١) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٦٢) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٦٣) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٦٤) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتزُّ بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

مملكة النحل

مملكةٌ مُدَبَّرَهْ
بامرأةٍ مُؤَمَّره
تحملُ في العمال والصناع عبءَ السيطره
فاعجب لعمال يُولُّون عليهم قَيْصَره
تحكمهم راهبةٌ
ذكَّارةٌ مُغبَّرهْ[1]
عاقدةٌ زُنَّارَها
عن ساقها مُشمِّره
تلَثمت بالأرجوا
نِ، وارتدته مئزره
وارتفعت كأنها
شرارةٌ مُطيَّره
ووقعت لم تختلج
كأنها مُسمَّره[2]

***

مخلوقةٌ ضعيفةٌ
من خُلُق مُصوَّره

يا ما أقلَّ ملكَها
وما أجلَّ خطره
قف سائل النحلَ به
بأيِّ عقل دبَّره؟
يُجبكَ بالأخلاقِ وهـ
ـيَ كالعقولِ جوهره
تغني قوى الأخلاق ما
تغني القوى المفكَّره
ويرفعُ الله بها
مَن شاءَ، حتى الحشره

***

أليس في مملكة النحلِ لقومٍ تَبْصِره؟
مُلكٌ بناه أهلُه
بهمةٍ ومَجْدَره[٣]
لو التمست فيه بطَّالَ
اليدين، لم تَره
تُقتلُ، أو تنفى الكُسا
لَى فيه غيرَ مُنْذَره
تحكم فيه قيصره
في قومها موقَّره
من الرجالِ وقيو
دِ حُكمِهِم موقَّره
لا تورثُ القومَ ولو
كانوا البنينَ البَرره
الملكُ للإناثِ في الدّستور
لا للذكره[٤]

نيِّرةٌ تنزلُ عن
هالتها لنيِّرهْ
فهل تُرى تخشى الطَّما
عَ في الرجال والشَّرَه؟[٥]
فطالما تلاعبوا
بالهَمَج المصيَّره
وعبروا غفلتها
إلى الظهور قنطره
وفي الرجال كرمُ
الضعِف، ولوْمُ المقدره
وفتنةُ الرأي، وما
وراءَها من أثَرَه
أنثى، ولكن في جنا
حَيْها لَبَاةٌ مُخدِرَه[٦]
ذائدةٌ عن حوضِها
طاردةٌ مَن كدَّره
تقَلَّدتْ غبرتَها
وادَّرعتْ بالحبَرَه
كأنها تُركيَّة
قد رابطت بأنقرَه
كأنها (جاندرك) في
كتيبةِ مُعسكِره
تَلقى المُغير بالجنو
دِ الخُشُن المنمَّره
السابغين شِكَّةً
البالغين جَسَرَه[٧]
قد نَثرتهم جُعبةٌ
ونفضتهم مِئبره[٨]

مَـن يَـبـن مُـلـكـا أو يـذُد
فـبـالـقـنـا الـمـجـرَّره
إن الإمـورَ هِـمَّـةٌ
لـيـس الأمـورُ ثـرثـره
مـا الـمـلـكُ إلا فـي ذرى الـ
ـألـويـة الـمُـنـشَّـره
عـريـنُ مُـذْ كـان لا
يـحـمـيـه إلا قَـسـوَره٩
رَبُّ الـنـيـوب الـزُّرْقِ، والـ
ـمـخـالـبِ الـمـذكَّـره

* * *

مـالـكـةٌ، عـامـلـةٌ
مُـصـلـحـةٌ، مُـعـمِّـره
الـمـالُ فـي أتـبـاعـهـا
لا تَـسـتـبـيـنُ أثـره
لا يـعـرفـون بـيـنـهـم
أصـلاً لـه مـن ثـمـره
لـو عَـرفـوه عـرفـوا
مـن الـبـلاءِ أكـثـرَه
واتَّـخـذوا نـقـابـةً
لأمـرهـم مـسـيَّـره
سـبـحـان مَـنْ نـزَّه عـنـ
ـهُ مـلـكـهـم وطـهَّـره
وسـاسـه بـحُـرَّةٍ
عـامـلـةٍ، مـسـخَّـره
صـاعـدةٍ فـي مـعـمـلٍ
مـن مـعـمـلٍ مُـنـحـدِره

واردةٍ دَسْكَرةً
صادرةٍ عن دسكره[١٠]
باكرةٍ، تستنهضُ الـ
عصائب المبكره[١١]
السامعين، الطائعيـ
ـنَ، المحسنين المَهرَه
من كلِّ من خطَّ البنا
ءَ، أو أقام أسْطُره
أوشدَّ أصلّ عقدِهِ
أو سدَّه، أو قّوَّره[١٢]
أو طاف بالماءِ على
جدرانه المجدَّره[١٣]

***

وتذهب النحلُ خِفا
فًا، وتجيءُ مُوقَره
جوالبَ الشمع من الـ
ـخمائلِ المنوَّره
حوالب الماذِيَّ من
زهر الرياض الشيِّره[١٤]
مشدودةٌ جيوبُها
على الجَنى مُزرَّره
وكلُّ خُرطومٍ أدا
ةُ العسلِ المُقطَّره
وكل أنف قانيءٍ
فيه من الشُّهد بُرَه[١٥]
حتى إذا جاءَت به
جاست خلالَ الأدوره[١٦]

وغـــيـــبــتْــه كـــالـــسُّـــلا
ف فــي الـدَّنـانِ الـمـحـضـره[١٧]
فــهــل رأيــتَ الــنــحــلَ عــن
أمـــانـــةٍ مُـــقـــصَّـــره؟
مــا اقــتــرضــت مــن بَــقــلــةٍ
أو اســـتـــعـــارت زَهَـــرَه
أدَّت إلـــى الـــنـــاس بـــه
سُـــكَّـــرَةً بـــســـكـــره

هوامش

(١) التغبير: ترديد الصوت بالقراءة.
(٢) الاختلاج: الاضطراب.
(٣) يقال: هذا الأمر مجدرة ذلك، أي جدير به.
(٤) الذكرة: الذكور.
(٥) الطماع: الطمع.
(٦) اللباة: اللبؤة.
(٧) الشكة: السلاح. والجسرة: الجسارة.
(٨) المئبرة: بيت الإبرة.
(٩) القسورة: الأسد.
(١٠) الدسكرة: القرية.
(١١) العصائب: جمع عصابة.
(١٢) قور الشيء: قطعه من وسطه خرقًا مستديرًا.
(١٣) المجدَّرة: أي المشيَّدة.
(١٤) الماذي: العسل. والشيرة: الجميلة الحسنة.
(١٥) البرة: الحلقة في الأنف.
(١٦) الأدورة: الديار، يُرَادُ بها الخلايا هنا.
(١٧) السُّلاف: أفضل الخمر.

في سبيل الهلال الأحمر

جبريلُ، هلِّلْ في السماءِ، وكبِّرِ   واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ
سلْ للفقيرِ على تكرُّمِهِ الغني   واطلب مزيدًا في الرخاءِ لمُوسِرِ
وادع الذي جَعَل الهلالَ شِعَارَه   يفتحْ على أمَمِ الهلالِ وينصرِ
وتولَّ في الهيجاءِ جندَ محمَّد   واقعدْ بهم في ذلك المستمطَر
يا مِهرجانَ البرَّ، أنت تحيةٌ   الله من ملأٍ كريمٍ خيِّر
هم زيَّنوكَ بكلِّ أزهر في الدُّجى   والله زانَكَ بالقَبول الأنور
حسُنتْ وجوهُك في العيون وأشرقتْ   من كلِّ أبلجَ في الأكارمِ أزهر
كُثرتْ عليك أكفُّهم في صَوْبها   فكأنها قَطَعُ الغمامِ المُمطِر
لو يعلمون (السوقَ) ما حسناتُها؟   بِيع الحصى في السوقِ بَيْعَ الجوهر
جبريلُ يَعرضُ، والملائكُ باعةٌ   أينَ المساوِمُ في الثوابِ المشترى؟
ومجاهدين هناكَ عند مُعسكرٍ   ومن المهابةِ بين ألفِ معسكر
مُوفين للأوطانِ بين حياضِها عَربٌ   لا يسمحون بها وبين الكوثر[1]
على دينِ الأبوَّة في الوغى   لا يطعنون القِرْن ما لم يُنْذَر[2]
ألِفوا مصاحبةَ السيوفِ، وعُوِّدوا   أخذَ المعاقلِ بالقنا المتشجِّر[3]
يمشون من تحت القذائف نحوَها   لا يسأَلونَ عن السعيرِ الممطِر
في أعيُنِ الباري، وفوق يمينه   جَرْحَى نُجِلُّهُم، كجرحى خَيْبَر
من كلِّ ميمونِ الضمَّادِ، كأنما   دمُ أهل بدرٍ فيه، أو دمُ حَيْدَر[4]
جذلانُ، هَيَّنةٌ عليه جِراحهُ   وجِراحهُ في قلبِ كلِّ غضنفر

ضُمِدَتْ بأهدابِ الجفونِ، وطالما ضُمدتْ بأعراف الجياد الضُّمَّر[٥]
عُـوَّادُه يـتـمـسَّـحـون بـرُدْنـه كالوفد مَسَّحَ بالحطِيم الأطهر[٦]
وتـكـادُ مـن نـور الإلـه حِـيـالـه تبيضُّ أَثـنـاءُ (الـهـلالِ الأحـمـر)

هوامش

(١) أي لا يسمحون بالكوثر بديلاً منها لو خيِّرو بين حياض نيلها وبينه.
(٢) القرن: الكفء والنظير.
(٣) القنا: الرمام. والمتشجِّر: المشتبك.
(٤) الحيدر: الأسد، ولقب من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب (رضى الله عنه). والضماد: عصابة الجرح.
(٥) الضمَّر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم الدقيق. والأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.
(٦) الردن: أصل الكم.

الأزهر[1]

قمْ في فَمِ الدُّنيا وحَيِّ الأزهرَا ... وانثُرْ على سَمْع الزَّمانِ الجوهَرا
واجعل مكانَ الدرِّ — إن فصَّلته ... في مدحِهِ — خَرَزَ السماءِ النيِّرا
واذكرْه بعد المسجِدْين، مُعظِّمًا ... لمساجِدِ الله الثلاثة مُكْبِرا[1]
واخشع مَليًا، واقضِ حقَّ أئمَّةٍ ... طلعوا به زُهْرًا، وماجوا أبحُرا
كانوا أجلَّ من الملوكِ جلالةً ... وأعزَّ سلطانًا، وأفخمَ مَظْهرَا
زمنُ المخاوِفِ كان فيه جَنابُهم ... حَرَمَ الأمان، وكان ظِلُّهمُ الذَّرا[2]
من كلَّ بحرٍ في الشريعة زاخرٍ ... ويُريكَهُ الخُلُقُ العظيمُ غضنفرا
لا تَحْذُ حذْوَ عِصابةٍ مفتونةٍ ... يجدون كل قديم شيءٍ منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... مَنْ مات من آبائِهم أو عُمِّرا
من كلِّ ماضٍ في القديم وهَدْمِهِ ... وإذا تقدَّم للبناية قصَّرا
وأتى الحضارةَ بالصناعةِ رَثَّة ... والعلمِ نَزْرًا، والبيانِ مُثَرْثِرا[3]

***

يا معهدًا أفنى القرونَ جِدارُه ... وطوَى الليالِيَ رَكنُهُ والأعْصُرا
ومشى على يَبَسِ المشارقِ نُورُه ... وأضاءَ أبيضَ لُجَّهَا والأحمرا

---

[1] قيلت هذه القصيدة بمناسبة إصلاح الأزهر الشريف والبدء فيه في سنة ١٩٢٤.

وأتى الزمانُ عليه يحمِي سُنةً ... ويذُودُ عن نُسُكٍ ويمنع مَشْعَرا[٤]
في الفاطميين انتمى ينبوعُه ... عذبَ الأصول كجدِّهم متفجِّرا[٥]
عينٌ من الفرقان فاض نَميرُها ... وحيًا من الفصحى جَرَى وتحدَّرا[٦]
ما ضرَّني أن ليس أفقُكَ مَطلعي ... وعلى كواكبِهِ تعلَّمتُ السُّرَى
لا والذي وكَلَ البيان إليكَ، لم ... أكُ دون غاياتِ البيانِ مُقصِّرا
لمَّا جرى الإصلاحُ قمت مُهنِئًا ... باسم الحنيفةِ بالمزيد مُبشرا[٧]
نبأ سَرَى، فكسا المنارةَ حَبْرَةً ... وزها المُصلَّى، واستخفَّ المِنبَرا[٨]
وَسَما بأرْوِقِة الهُدى، فأحلَّها ... فرعَ الثُّرَيَّا، وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقاتِ، فانفرجَتْ له ... حلقًا كهالاتِ السماءِ مُنَوَّرا
حتى ظنَنَّا الشافِعيَّ، ومالكًا ... وأبا حنيفةَ، وابنَ حنبل حُضرًّا
إنَّ الذي جعل العتيقَ مثابةً ... جعل الكنانِيَّ المباركَ كوثرا[٩]
العلمُ فيه مناهَلاً ومجانيًا ... يأتي له النُّزاعُ يبغون القِرى[١٠]

***

يا فِتيةَ المعمورِ، سار حديثُكم ... نَدًّا بأفواهِ الركاب وَعَنبَرا[١١]
المعهدُ القدسِيُّ كان ندِيُّه ... قطبًا لدائرة البلاد ومِحْورا
وُلِدَتْ قضيَّتُها على محرابه ... وَحَبَتْ به طفلاً، وشبَّتْ مُعصِرا[١٢]
وتقدَّمت تُزجِي الصفوفَ، كأنها ... (جانْدَرْكُ) في يدها اللواءُ مُظَفَّرا

***

هُزُّوا القرى من كهفِها ورَقِيمِها ... أنتم — لعَمْرُ اللهِ — أعصابُ القرى
الغافِلُ الأمِّيُّ عندكم ... كالببَّغاءِ، مردِّدًا، ومُكرِّرا
يُمسِي ويصبحُ في أوامِر دينهِ ... وأمور دنياه بكم مُستبصِرا
لو قلتم: اختَرْ للنيابة جاهلاً ... أو للخطابةِ باقلاً، لتخيَرا[١٣]
ذُكِرَ الرجالُ له، فألَّهَ عصبةً ... منهم، وفسَّق آخرينَ، وكفَّرا[١٤]
آباؤكم قَرءُوا عليه، ورَتَّلوا ... بالأمس تاريخَ الرَجال مُزوَّرا
حتى تلفَّتَ عن محاجر رومةٍ ... فرأى (عرابى) في المواكب قَيْصَرا
ودعا لمخلوقٍ، وألَّه زائلاً ... وارتدَّ في ظُلَمِ العصور القهقرى

وتَفَيَّئوا الدستورَ تحت ظِلالِه كنفًا أَهَشَّ من الرّياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى، وخُلْقًا بينكم ومَجَرَّ دنيا للنفوسِ، ومَتْجَرا
اليومَ صَرَّحَتِ الأمورُ، فأظهرتْ ما كان من خُدَعِ السياسة مُضمرَا
قد كان وَجْهُ الرأي أن نبقى يدًا ونرى وراءَ جنودِها إنكلترا
فإذا أَتتنا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحدٍ لن يُكسَرا
غضِبتْ، فغضَّ الطرفَ كلُّ مُكابرٍ يلقاكَ بالخدَّ اللطيم مُصعَّرا
لم تلقَ إصلاحًا يُهابُ، ولم تجِد من كُتلةٍ ما كان أعيا مِلْنَرا[15]
حَظٌّ رجونا الخيرَ من إقباله عاث المُفرَّقُ فيه حتى أدبرا
دار النيابة هيئت درجاتُها فليرْق في الدرَج الذوائبُ والذَّرا[16]
الصارخون إذا أسيءَ إلى الحِمَى والزائرون إذا أُغير على الشَّرى
لا الجاهلون العاجزون، ولا الأُلى يمشون في ذَهَب القيود تبَخْتُرا

هوامش

(١) المسجدان: المسجد الحرام، والمسجد الاقصى.
(٢) الذرا: الملجأ.
(٣) النزر: القليل. والمثرثر: المخلط.
(٤) النسك: العبادة. والمشعر: موضع من مناسك الحج.
(٥) جدُّ الفاطميين: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، وقد كان مضرب المثل في التبحُّر في العلوم.
(٦) الفرقان: القرآن. والحيا: المطر. والفصحى: اللغة العربية.
(٧) الحنيفة: الشريعة.
(٨) المنارة: المئذنة. والحبرة: السرور.
(٩) العتيق: المسجد الحرام. والمثابة: مجمع الزمر.
(١٠) النزاع: القصاد. والقرى: الضيافة.
(١١) المعمور: الأزهر.
(١٢) طفلاً: أي طفلة. والمعصر: الفتاة المدركة.
(١٣) باقل: عربي يضرب به المثل في العي والفهاهة.
(١٤) فسقه: رماه بالفسق. وكفَّره: نسبه إلى الكفر.

(١٥) المراد بالكتلة: الأمَّة مجتمعة. واللورد ملنر: هو أحد الوزراء الإنجليز، وكان قدم إلى مصر في جماعة من قومه سنة ١٩٢٠ ليتقصوا رغائبها وآمالها، فقاطعتهم البلاد وأحالتهم على الوفد المصري الذي كانت وكلته في الدفاع عن حقها إذ ذاك.

(١٦) المُراد بالذوائب والذُّرا: علية القوم وأكفاهم.

وداع فروق

تجلَّد للرحيل، فما استطاعا   وداعًا جَنَّةَ الدنيا وداعا[1]
عسى الأيامُ تجمعني، فإني   أرى العيشَ افتراقًا واجتماعا
ألا ليتَ البلادَ لها قلوبٌ   — كما للناسِ — تنفطرُ الْتِياعا[2]
وليتَ لدى (فروقٍ) بعضَ بَثِّي   وما فعل الفراقُ غداةَ راعا[3]
أما واللهِ، لو عِلمتْ مكاني   لأنطقت المآذنَ والقلاعا
حَوَتْ رِقَّ القواضب والعَوالي   فلمَّا ضفتُها حوت اليَراعا[4]
سألتُ القلبَ عن تلك الليالي   أكُنَّ لياليًا أم كُنَّ ساعا؟[5]
فقال القلبُ: بل مرَّ عِجالاً   كدقَّاتي لذاكرها سِراعا
أدارَ (محمد) وتراثَ (عيسى)   لقد رَضِياكِ بينهما مشاعا[6]
فهل نبذ التعصُّبَ فيكِ قومٌ   يمدُّ الجهلُ بينهم النِّزاعا؟
أرى الرحمنَ حصَّنَ مسجديه   بأطولِ حائط منكِ امتناعا
فكنتِ لبيته المحجوجِ ركنًا   وكنتِ لبيِته الأقصى سِطاعا[7]
هواؤكِ والعيونُ مُفجَّرات   كفى بهما من الدنيا متاعا[8]
وشمسُكِ كلَّما طلعتْ بأُفْقٍ   تخطَّرَتِ الحياةُ به شُعاعا
وغِيدُك، هنَّ فوق الأرض حورٌ   أوانسُ، لا نقابَ ولا قِناعا
حَوالَيْ لُجَّةٍ من لازَوَرْدٍ   تعالى الله خَلْقًا وابتداعا
يروح لُجَيْنُها الجاري وَيغدو   على الفِردوسِ آكامًا وقاعا[9]

هوامش

(١) تجلَّد: تكلَّف الجلد وأظهره. والجلد: قوة الصبر.

(٢) تنفطر: تنشق. والالتياع: احتراق القلب من الهمِّ أو الشوق.

(٣) فروق: الآستانة. والبث: أشدُّ الحزن. راع: أفزع.

(٤) القواضب: السيوف القاطعة، مفردها قاضب. والعوالي: جمع عالية، وهي من الرمح أعلى رأسه، أو نصفه الذي يلي السنان، أو ما دخل منه تحت السنان إلى ثلثه.

(٥) الساع: جمع ساعة.

(٦) المشاع (بفتح الميم وضمها): المشترك غير المقسوم.

(٧) السطاع: عمود البيت.

(٨) لجينها: أي اللجنة، واللجين: الفضة. والآكام: التلال. والقناع: أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام.

(٩) العيون: هي عيون الماء.

رحلة الشرق[1]

أَقدِمْ، فليس على الإقدام مُمتنع ... واصنع به المجدَ، فهو البارعُ الصَّنَعُ[1]
للناس في كل يومٍ من عجائبِه ... ما لم يكن لامرئٍ في خاطر يقع
هل كان في الوهم أنَّ الطير يخلُفها ... على السماءِ لطيفُ الصنع، مُخْتَرِع؟
وأن أَدراجَها في الجوِّ يسلكها ... جنٌّ، جُنودُ سليمانٍ لها تَبَع؟
أعيا العُقَابَ مَداهُم في السماءِ، وما ... راموا من القُبَّة الكبرى، وما فَزِعوا[2]
قل للشباب بمصر: عَصْرُكم بَطَلٌ ... بكل غايةٍ إقدامٍ له وَلَع
أُسُّ الممالك فيه هِمَّةٌ وحِجًى ... لا الترَّهاتُ لها أُسٌّ، ولا الخدع
يُعطي الشعوبَ على مقدار ما نبغوا ... وليس يبخسُهم شيئًا إذا برعوا
ماذا تُعدُّون بعد البرلمان له ... إذا خِيارُكمُ بالدُّولة اضطلعوا؟[3]
البَرُّ ليس لكم في طوله لُجُمٌ ... والبحر ليس لكم في عرضه شُرُع[4]
هل تنهضون عساكُم تلحقون به؟ ... فليس يلحق أهلَ السير مُضطَجِع
لا يُعجبنَّكمُ ساعٍ بتفرقةٍ ... إن المِقصَّ خفيفٌ حين يقتطع
قد أشهدوكم من الماضي وما نبشت ... منه الضغائنُ ما لم تشهد الضَّبُع
ما للشباب وللماضي تمُرُّ بهم ... فيه على الجيف الأحزابُ والشيَع؟

[1] بعد رحلة طويلة شاقة في صحراء ليبيا، استطاع الرحالة المصري الكبير أحمد حسنين أن يسدي إلى العلم يدا بيضاء، وأن يكشف للناس عن مجاهل هذه البيداء، فلمَّا عاد قابلته البلاد بالحفاوة والترحاب، واحتفل به القوم احتفالاً فخمًا ألقيت فيه هذه القصيدة.

إن الشبابَ غدٌ، فليهدِهم لغدٍ ... وللمسالكِ فيه الناصحُ الوَرِع
لا يَمنعنَّكُمُ برُّ الأبوَّةِ أن ... يكون صُنعكُم غيرَ الذي صنعوا
لا يعُجبنَّكُمُ الجاهُ الذي بلغوا ... من الولاية، والمالُ الذي جمعوا
ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حَسنُنَا ... إلاَّ عوارِيُّ حظٍّ ثم تُرتجَعْ
عليكُمُ بخيال المجد، فأْتَلِفوا ... حِيالَهُ، وعلى تِمثاله اجتمعوا
وأجْمِلوا الصبرَ في جِدٍّ وفي عمل ... فالصبر ينفعُ ما لا ينفعُ الجزَع
وإن نَبَغتُمْ ففي علم، وفي أدب ... وفي صناعات عصر ناسُه صُنُع
وكلٌّ بنيان قومٍ لا يقوم على ... دعائم العصرِ من رُكنيهِ، مُنصَدِع
شريفُ مكة حُرٌّ في ممالِكه ... فهل تُرى القومُ بالحرِّية انتفعوا؟

* * *

كم في الحياة من الصحراءِ من شَبهٍ ... كلتاهما في مُفاجاة الفنى شَرَع[٦]
وراءَ كلِّ سبيلٍ فيهما قَدَرٌ ... لا تعلمُ النفسُ ما يأتي وما يَدَع
فلستَ تدري، وإن كنتَ الحريصَ، متى ... تهُبُّ رِيحاهما، أو يَطلعُ السبعُ؟
ولستَ تأمنُ عند الصحو فاجئةً ... من العواصف فيها الخوفُ والهَلَع
ولست تدري، وإن قدَّرتَ مجتهِدًا، ... متى تحُطُّ رحالاً؟ أو متى تَضَع؟
ولست تمْلكُ من أمر الدليل سوى ... أنَّ الدليلَ — وإن أرداك — مُتَّبَع
وما الحياةُ إذا أظْلمَت، وإن خَدَعت ... إلاَّ سرابٌ على صحراءَ يلتمِع

* * *

أكبرتُ من (حَسَنْينٍ) هِمَّةً طمَحَتْ ... تروم ما لا يرومُ الفِتيةُ القُنُع
وما البطولةُ إلاَّ النفْسُ تدفعها ... فيما يبلِّغُها حَمْدًا، فتندفع
ولا يُبالي لها أهلٌ إذا وصلوا ... طاحوا على جنَباتِ الحمدِ أم رجَعوا
رَحَّالَةَ الشرق، إنَّ البيدَ قد علمتْ ... بأنك الليثُ لم يُخلَق له الفَزَع
ماذا لقيتَ من الدوِّ السحيق، ومِن ... قَفْرٍ يضيقُ على الساري، ويتسع؟[٧]
وهل مررْتَ بأقوامٍ كفِطرتِهم ... من عهد آدمَ لا خُبْثٌ ولا طَبَع؟[٨]
ومن عجيبٍ لغير اللهِ ما سجدوا ... على الفَلا، ولغير اللهِ ما رَكعوا
كيف اهتدى لهمُ الإسلامُ، وانتقلتْ ... إليهمُ الصلواتُ الخمسُ والجُمع؟

جزَتْكَ مصرُ ثناءً أنتَ موضِعُه فلا تذُبْ من حياءٍ حين تستمِعُ
ولو جزَتْك الصحاري جِئتَّنا مَلِكًا من الملوك، عليك الريشُ والوَدَع[٩]

هوامش

(١) الصنع: الحاذق.

(٢) فرع الجبل: صعده.

(٣) اضطلعوا: أي نهضوا بها.

(٤) الشرع: جمع الشراع، والمراد بها هنا السفن، من إطلاق الجزء على الكل.
واللجم، والشرع: يُراد بها قوَّة البرِّ، وقوَّة البحر.

(٥) العواري: جمع عارية وهي العطبة بلا عوض.

(٦) شرع: أي سواء.

(٧) الدو: المفازة.

(٨) الطبع: الشين، والعيب، والدنس.

(٩) الريش والودع: عنوان العظمة في أواسط أفريقيا.

براءة[1]

الناسُ للدنيا تبَع ولمن تُحالِفُه شِيَع
لا تهجعنَّ إلى الزما ن، فقد يُنَبِّه مَنْ هجع[1]
واربأ بحلْمكَ في النوا زلِ أن يُلِمَّ به الجزع
لا تخلُ من أملٍ، إذا ذهب الزمانُ فكَمْ رجَع
وانفع بوسِعك كله إن الموفَّقَ مَنْ نفع

***

مصر بَنَتْ لقضائها ركنًا على النجمِ ارتفع
فيه احتمى استقلالُها وبه تحصَّن وامتنع
فليهنها، وليهننا أَن القضاءَ به اضطلع[2]
الله صان رجالَه مما يُدنِّسُ أو يَضع
ساروا بسيرة منذرٍ وأبِي حنيفة في الورَع
وكأن أيام القضا ءِ جميعها بهمُ الجُمَع
قل للمُبرَّإِ مُرْقُص: أنت النقيُّ من الطَبع[3]

[1] حُرم الأستاذ مرقص فهمي حِينًا من الاشتغال بالمحاماة، ثم برَّأه القضاء من تلك التهمة التي عُزِيَت إليه؛ فاحتفل بعودته إلى المحاماة احتفالاً أُلْقِيت فيه هذه القصيدة.

هذا القضاءُ رماك بالـ   ـيُمنَى، وباليسرى نزع
هذا قصاءُ اللهِ مُمـ   ـتَثلُ الحكومِة، مُتَّبَع
عُد للمحاماة الشريـ   ـفةِ عَوْدَ مشتاقٍ وَلِع
والبسْ رِداءَك طاهرًا   كرداءِ مرقصَ في البِيَع[٤]
وادفع عن المظلوم والـ   ـمحرم أبلغَ مَنْ دفع
واغفر لحاسِدِ نعمةٍ   بالأمسِ نالك أو وقع[٥]
ما في الحياةِ لأن تعا   تِبَ أو تُحاسِبَ، مُتَّسَع

هوامش

(١) الهجوع: النوم.
(٢) اضطلع: قوي.
(٣) الطبع: الشين والعيب.
(٤) البِيَع: جمع بيعة وهي متعبَّد النصارى.
(٥) وقع فلان في فلان: سبَّه وعابه.

الصحافة[١]

لـكـلِّ زمـانٍ مـضـى آيـةٌ … وآيـةُ هـذا الـزمـانِ الـصُّـحُـف
لسانُ البلادِ، ونبضُ العباد … وكهفُ الحقوق، وحربُ الجنَف[١]
تسيرُ مسيرَ الصحى في البلاد … إذا العلمُ مزَّق فيها السَّدف[٢]
وتـمـشـي تُـعـلِّـمُ فـي أمـةٍ … كثيرةِ مَنْ لا يخُطُّ الألفِ!
فيا فتيةَ الصحْف، صبرًا إذا … نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فـإنَّ الـسـعـادةَ غـيـرُ الـظـهـو … رِ، وغيرُ الثراءِ، وغيرُ الترف
ولكنها في نواحي الضمير … إذا هو باللؤم لم يُكتنف
خذوا القصدَ، واقتنعوا بالكفاف … وخلوا الفضولَ يغلْها السَّرف[٣]
وروموا النبوغَ، فمن ناله … تلقَّى من الحظِّ أسنى التحَف
وما الرزقُ مجتنبٌ حِرْفَةً … إذا الحظُّ لم يهجر المحترِف
إذا آختِ الجوهريَّ الحظوظُ … كفلنَ اليتيمَ له في الصَّدف[٤]
وإن أعرضت عنه لم يحلُ في … عيونِ الخرائد غيرُ الخزف[٥]

***

رعى الله ليلتَكم، إنها … تلت عنده ليلةَ المنتصَف[٦]

---

[١] ألَّف أصحاب الصحف العربية نقابة تجمع كلمتهم، وقد أُلْقِيت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشائها.

لقد طلع البدرُ من جُنْحها وأوما إلى صُبحِها أن يقف
جلوتم حواشِيَهَا بالفنون فمن كل فنَّ جميل طَرف
فإن تسألوا: ما مكانُ الفنون؟ فكم شرفٍ فوق هذا الشرف[7]
أريكةُ (موليير) فيما مضى وعرضُ (شِكسبيرَ) فيما سلف
وعودُ (ابن ساعدةٍ) في عُكاظَ إذ سأل خاطره بالطُّرَف[8]
فلا يَرْقَيَنْ فيه إلاَّ فتًى إلى درجات النبوغ انصرف
تُعلِّمُ حكمتُه الحاضرين وتُسْمِعُ في الغابرين النُّطف[9]

* * *

حمدنا بلاءَكُم في النضالِ وأمسِ حمدنا بلاءَ السلف
ومَنْ نِسيَ الفضلَ للسابقين فما عرف الفضلَ فيما عرف
أليس إليهم صلاح البناءِ إذا ما الأساس سما بالغرف؟
فهل تأذنون لذي خَلَّةٍ يَفضُّ الرياحين فوق الجيف؟
فأين (اللواءُ)، وربُّ اللواءِ إمامُ الشباب، مثالُ الشرف؟[10]
واين الذي بينكم شِبْلُه على غاية الحق نِعْمَ الخلف؟
ولا بدّ للغرس من نقله إلى مَنْ تعهَّد، أو مَنْ قطف
فلا تجحدنَّ يدَ الغارسين وهذا الجَنى في يديك اعترف
أولئك مَرُّوا كدود الحرير شجاها النَّفاعُ وفيه التلف[11]

هوامش

(١) الجنف: الحيف.

(٢) السدف: الظلام.

(٣) الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة. وغالها السرف بقولها: أتى عليها.

(٤) اليتيم: اللؤلؤ المنقطع النظير.

(٥) الخرائد: العذارى.

(٦) المنتصف: منتصف شعبان.

(٧) الشرف (أولاً): العلو والمجد. والشرف (ثانيًا): الموضع العالي، وهو هنا المسرح.

(٨) عود ابن ساعدة: أي منبر قسٍّ بن ساعدة، وهو أخطب خطباء الجاهلية.
(٩) الغابرين: الآتين. والنظف: جمع نطفة وهي أصل النسل.
(١٠) ربُّ اللواء: المرحوم مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء.
(١١) النفاع: النفع.

عيد الفداء[1]

أمَّا العتابُ، فبالأحبَّة أخلَقُ   والحبُّ يصلُحُ بالعتاب ويصدُق
يا مَنْ أحِبُّ، ومَنْ أجِلُّ، وحسْبه   في الغِيدِ منزلةً يُجَلُّ ويُعشَق
البُعْدُ أدناني إليكَ، فهل تُرى   تقسو وتنفرُ، أم تلين وترفُق؟
في جاهِ حسِنك ذِلَّتي وضراعتي   فاعطِف، فذاك بجاهِ حُسنكَ أليق!

* * *

خَلُقَ الشبابُ، ولا أزال أصونُه   وأنا الوفيُّ، مَوَدَّتي لا تَخلُق[1]
صاحبته عشرين غيرَ ذميمةٍ   حالي به حالٍ، وعَيْشِيَ مُونِق[2]
قلبي، ادَّكرتَ اليوم غير مُوَفَّقٍ   أيامَ أنتَ مع الشبابِ موفَّق
فخفقتَ من ذكرى الشبابِ وعهدِه   لهفي عليك! لكل ذكرى تخفُق
كم ذُبتَ من حُرَقِ الجوَى، واليوم من   أسِفٍ عليه وحسرةٍ تتحرَّق
كنتَ الشبَّاكَ، وكان صيدًا في الصِّبا   ما تسترقُّ من الظباءِ وتُعتِق
خدَعتْ حبائلك المِلاحَ هُنيةً   واليومَ كلُّ حِبالةٍ لا تَعلَق

[1] كان لهذه القصيدة يوم نُشِرَت ضجَّة هائلة، ولعلها استمدَّت معظمها من تلك الأبيات التي تنطق فيها ذكرى الشباب، والتي قلَّما وُفِّق إلى مثلها شاعر، ولقد نُظِمَت هذه القصيدة معارضة لأخرى من رويِّها للمرحوم إسماعيل صبري باشا.

هل دون أيام الشبيبِة للفتى صفوٌ يحيطُ به، وأُنسُ يُحدِق؟

هوامش

(١) خلق الشيء: بلي.
(٢) الحالي: الحلو، أو المزين.

نكبة بيروت[١]

يا ربُّ، أمرُك في الممالكِ نافذٌ   والحكمُ حكمُك في الدمِ المسفوك
إن شئتَ أَهرِقْهُ، وإن شئتَ أحمِه   هو لم يكن لسواك بالمملوك
واحكم بعدلِكَ، إن عدلَك لم يكن   بالمُمترَى فيه، ولا المشكوك
أَلأَجِل آجال دنت وتهيَّأت   قدَّرتَ ضربَ الشاطئ المتروك؟
ما كان يحميه، ولا يُحمَى به   فُلكان أنْعَمُ من بواخر «كوك»[١]
هذي بجانبِها الكسيرِ غريقةٌ   تهوي، وتلك بركنها المدكوك

***

بيروتُ، مات الأُسْدُ حتفَ أنوفِهم   لم يُشهروا سيفًا، ولم يحموك
سبعون ليثًا أُحْرِقُوا، أو أُغْرِقُوا   يا ليتهم قُتِلوا على «طبروك»
كلُّ يصيد الليثَ وهو مقيَّدٌ   ويعزُّ صيد الضيَّغَمِ المفكوك
يا مضرِبَ الخِيَم المنيفة للقِرى   ما أنصف العُجمُ الأُلي ضربوك[٢]
ما كنتِ يومًا للقنابل موضعًا   ولو أنها من عسجد مسبوك
بيروتُ، يا راحَ النزيلِ، وأُنسَهُ   يمضي الزمانُ عليَّ لا أسلوك
الحسنُ لفظٌ في المدائنِ كلِّها   ووجدتُه لفظًا ومعنًى فيك

---

[١] قيلت على أثر ضرب الأسطول الإيطالي مدينة بيروت.

نادمتُ يومًا في ظِلالِكِ فتيةً | وسَمُوا الملائكَ في جلالِ ملوك[٣]
يُنسون (حسانًا) عصابة (جِلَّقٍ) | حتى يكاد بجلق يفديك[٤]
تالله ما أحدثتِ شرًّا أو اذًى | حتى تُراعِي، أو يُراعَ بَنوك
أنتِ التي يحمي ويمنع عِرضَها | سيفُ الشريفِ، وخِنجرُ الصعُّلوك
أن يجهلوكِ، فإنَّ أمَّك سوريا | والأبلقَ الفردَ الأشمَّ أبوك[٥]
والسابقين على المفاخر والعُلا | بَلْهَ المكارمَ والندى أهلوك
سالت دماءٌ فيكِ حول مساجدٍ | وكنائسٍ، ومدارسٍ و«بُنوك»
كنا نؤمِّل أن يُمَدَّ بقاؤْها | حتى تَبِل صدَى القنا المشبوك
لكِ في رُبَى النيلِ المبارَك جِيرةٌ | لو يقدِرون بدمعهم غسلوك

هوامش

(١) أي لم تكن تستطيع حمايته هاتان السفينتان الصغيرتان اللتان أعدَّتا به للرياضة والتنعم لا للحرب والقتال.

(٢) القرى: الضيافة.

(٣) واسمه في الحسن فوسمه: أي غلبه فيه.

(٤) حسَّان بن ثابت: شاعر النبي ﷺ وعصابة جلق: هم ملوك غسان. وجلق: هي دمشق.. وكان حسَّان بن ثابت كثيرًا ما يفد على آل غسان ويمدحهم، وينال منهم، فمما يناسب هذا المقام قوله.

لله درُّ عصابة نادمتهم | يومًا بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم | قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم | بردي يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه، كريمة أحسابهم | شمُّ الأنوف، من الطراز الأوَّل
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم | لا يسألون عن السواد المقبل

(٥) الأبلق: جبل لبنان.

تكليل أنقرة وعزل الآستانة

قُمْ نادِ (أَنقرةً) وقل: يَهنيك ... مُلْكٌ بَنَيْتِ على سيوفِ بَنِيكِ
أَعطيتِه ذوْدَ اللبَاةِ عن الشرى ... فأخذْتِه حُرًّا بغيرِ شريك[1]
وأقمتِ بالدَّم جانبيْه، ولم تزلْ ... تُبنى الممالكُ بالدمِّ المسفوك
فعقدتِ تاجَكِ من ظُبًى مسلولة ... وحللت عرشك من قنًا مشبوك[2]
تاجٌ ترى فيه إذا قلَّبته ... جهدَ الشريفِ، وهِمةَ الصُّعلوك[3]
وترى الضحايا من معاقد غاره ... وعلى جوانب تِبْرِهِ المسبوك[4]
وتراه في صَخَب الحوادث صامتًا ... كالصخر في عَصْفِ الرياح النُّوك[5]
خرزاتُه دَمُ أمَّةٍ مهضومة ... وجهودُ شعب مُجهَدٍ منهوك
بالواجب التمس الحقوقَ، وخاب مَن ... طلب الحقوقَ بواجب متروك
لا للفردُ مَسَّ جبينَكِ العالي، ولا ... أعوانُه بأكفِّهم لمَسوك[6]
لمَّا نفرْتِ إلى القتال جماعةً ... أصلَوْك نارَ تلصُّصٍ وفُتوك[7]
هدروا دماءَ الأُسْدِ في آجامها ... والأُسْدُ شارعةُ القَنا تحميك[8]
يا بنت (طوروسَ) الممرَّدِ طأْطأَتْ ... شُمُّ الجبال رءُوسَها لأبيك[9]
أمْعنتُما في العزِّ، واستْعصَمْتُما ... هو في السحاب، وأنت في أهليك[10]
نحتَ الشعوبُ من الجبال ديارَهم ... والقومُ من أخلاقِهم نحتوك
فلو آنّ أخلاقَ الرجالِ تَصَوَّرتْ ... لرأيتِ صخرتَها أساسًا فيك
إنَّ الذين بَنَوْكِ أشبهُ نيَّةً ... بشباب (خيبْرَ)، أو كهولِ (تَبُوك)[11]
حَلفوا على الميثاق، لا طَعموا الكرى ... حتى تذوقي النصرَ، هل نصروك؟[12]

زَعموا (الفرنسيَّ) المحجَّل صورةً ... في حلْبةِ الفرسان من حاميك[١٣]
(النسرُ) سَلَّ السيفَ يبَنْي نفسَه ... وفتاكِ سَلَّ حسامه يَبنيك[١٤]
والنسرُ مملوكٌ لسلطان الهوى ... ووجدتُ نسرَكِ ليس بالمملوك
يا دولةَ الخلق التي تاهت على ... ركن السِّماكِ بركنِها المسموك[١٥]
بيني وبينك ملَّةٌ وكتابُها ... والشرق يَنميني كما يَنميك
قد ظنني اللاحي نطقتُ عن الهوى ... وركِبتُ متَن الجهلِ إذ أطريك[١٦]
لم يُنقِذِ الإسلامَ أو يرفعَ له ... رأسًا سوى النفرِ الأُلي رفعوك
رَدُّوا الخيالَ حقيقةً، وتطلعوا ... كالحق حَصْحَصَ من وراءِ شكوك[١٧]
لم أكذِبْ التاريخَ حين جعلتُهم ... رُهبانَ نسْك، لا عجولَ نسيك[١٨]
لم ترضَني ذَنبًا لنجْميكِ همَّني ... إن البيان بنجمه يُنبيك[١٩]
قلمي — وإن جهِل الغبيُّ مكانَه — ... أبقى على الأحقاب من ماضيك[٢٠]
ظفرتْ بيونانَ القديمِة حكمتي ... وغزا الحديثة ظافِرًا غازيك

***

مني لَعَهدِك يا (فروقُ) تحيَّةٌ ... كعيونِ مائك، أو رُبَى واديك[٢١]
أو كالنسيم غدا عليك، وراح من ... فُوفِ الرياضِ، ووَشْيِها المحبوك[٢٢]
أو كالأصيل جرى عليك عقيقُه ... أو سالَ من عِقْيانه شاطيك[٢٣]
تلك الخمائلُ والعيونُ، اختارها ... لك من رُبَى جنَّاتِه باريك[٢٤]
قد أفرَغت فيك الطبيعةُ سحرها ... مَنْ ذا الذي من سحرها يَرْقيك؟
خلعت عليكِ جمالَها، وتأمَّلت ... فإذا جمالُكِ فوق ما تكسوك
تالله ما فَتَنَ العيونَ ولذَّها ... كقلائد الخُلجانِ في هاديك
عن جِيدكِ الحالي تلفَّتتِ الرُّبَى ... واستضحكتْ حُورُ الجِنانِ بفيك
إن أنسَ لا أنسَ الشبيبةَ، والهوى ... وسوالفَ اللذاتِ في ناديك[٢٥]
ولياليًا لم ندر أين عِشاؤُها ... من فجرها لولا صياحُ الديك
وصَبُوحَنا من «بَنِدلاَر» وشِرْشر ... وغَّبُوقَنا «بتَرابِيا» و«بُيوك»[٢٦]
لو أن سلطانَ الجمالِ مخلَّدٌ ... لمليحة، لعذلتُ مَنْ عذلوك
خلعوكِ من سلطانهم، فسليهمُ ... أمن القلوبِ ومُلكِها خلَعوك؟
لا يَحزُنَنَّكِ من حُماتِكِ خطةٌ ... كانت هي المُثلى، وإن ساءُوك

أيُقالُ: فتيانُ الحمى بك قصَّروا | أو ضيَّعوا الحرماتِ، أم خانوك؟
وهمُ الخفافُ إليك، كالأنصار إذا | قلَّ النصير، وعزَّ مَنْ يفديك
المشتَروكِ بمالِهم، ودمائِهم | حين الشيوخُ بجُبَّة باعوك
هدروا دماءَ الذائدين عن الحمى | بلسان مفتي النارِ، لا مفتيك[٢٧]
شربوا على سرَّ العدوَّ، وغرَّدوا | كالبُومِ خلف جِدارك المدكوك[٢٨]
لو كنتِ (مَكَّةَ) عندهم لرأيتِهم | (كمحمدٍ) و(رفيقِه) هجروك[٢٩]

***

يا راكب الطامي يجوبُ لجاجَه | مِن كل نيَّرة وذات حُلوك[٣٠]
إن جئتَ (مرمرةً) تحثُّ الفُلْكَ في | بَهجٍ، كآفاق النعيم، ضحوك[٣١]
وأتيت (قرن التبر) ثَمَّ تحفُّهُ | تُحفُ الضحى من جوهرٍ وسلوك[٣٢]
فاَطلع على (دار السعادة)، وابتهل | في بابها العالي، وأدِّ أَلوكي[٣٣]
قُلْ للخلافةِ قولَ باكٍ شمسَها | بالأمس لمَّا آذنت بُدلوكِ[٣٤]
يا جذوةَ التوحيد، هل لك مُطفِئٌ | والله جلَّ جلالُه، مُذكيك؟[٣٥]
خلتِ القرونُ، وأنت حربُ مُمالكٍ | لم يغفُ ضدُّك، أو يَنَم شانيكِ[٣٦]
يرميكِ بالأممِ الزمانُ، وتارةً | بالفرد واستبداده يرميك
عودي إلى ما كنتِ في فجر الهدى | عُمَرٌ يسوسُك، (والعتيقُ) يليك[٣٧]
إن الذين توارثوكِ على الهوى | بعد (ابنِ هندٍ) طالما كذبوك[٣٨]
لم يلبسوا بُردَ النبي، وإنما | لبِسوا طقوسَ الروم إذ لبِسوك
إني أعيذُكِ أن تُرَيْ جبارةً | كالبابَوِيَّة في يَديْ (رُدريك)
أو أن تَزُفَّ لك الوِراثةُ فاسقًا | (كيزيدَ)، أو كالحاكم المأفوك[٣٩]
فُضِّي نُيوبَ الفردِ، ثم خذي به | في أيّ ثَوْبَيْه به جاءُوك[٤٠]
لا فرق بين مُسَلَّطٍ متتوِّج | ومُسَلَّط في غير ثوب مليك
إني أرى الشورى التي اعتصموا بها | هي حبلُ ربِّكِ، أو زمام نَبِيكِ

هوامش

(١) الذود: مصدر ذاده عن الشيء أي دفعه عنه. واللباة: أنثى الأسد. والشرى: مكان في جانب الفرات، تكثر فيه الأسود ويضرب به المثل في ذلك.

(٢) الظبى: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف والسنان ونحوهما.

(٣) الجهد (بضم الجيم وفتحها): الطاقة، وقيل المشقة.

(٤) المعاقد: مواضع الانعقاد. والغار: شجر عظيم واحدته غارة، وكان الإغريق الأقدمون والرومان أيضًا يضفرون منه أكاليل لأبطالهم المنتصرين في الحروب. والتبر: الذهب غير المضروب. المسبوك: المذوب المفرغ في القالب.

(٥) الصخب. الصوت شديدًا. وعصف الرياح: اشتدادها. والنوك: نوكاء وهي الحمقاء.

(٦) لا الفرد. أي لا الفرد المستبد بالحكم، والخطاب لأنقرة، ويريد بالفرد السلطان محمد وحيد الدين. أعوانه: وزراؤه الذين أرادوا أن يخمدوا حركة الأناضول ضد اليونان والإنجليز.

(٧) نفرت إلى قتال: ذهبت إليه مسرعة. وأصلوك: أحرقوك، أي أولئك الأعوان. والتلصص: أن يصير الإنسان لصًا، وأن يتخلق بأخلاق اللصوص. والفتوك: مصدر فتك أي بطش، وفتك فلان في الخبث إذا بالغ فيه.

(٨) الأجمة: الشجر الكثير الملتف، جمعها أجم بفتح الجيم، وجمع الجمع آجام وهو الوارد في البيت، وهو يشير إلى فتوى شرعية كانت حكومة الآستانة قد أذاعتها في أول أمر الفاتحين في الأناضول تحلّل بها قتالهم.

(٩) طوروس: جبل عظيم في آسيا الصغرى. والممرد: المطول المملس.

(١٠) أمعنتما: أبعدتما. واستعصمتما: امتنعتما.

(١١) خيبر: اسم مكان كان به سبعة حصون غزاه النبي ﷺ. وتبوك: أرض بين المدينة والشام نسبت إليها غزوة من غزوات النبي ﷺ أيضًا.

(١٢) الميثاق: أمور كان القائمون بدعوة القتال قد أخذوا على أنفسهم أن يقاتلوا حتى تتمَّ للأمة.

(١٣) الفرنسي: نابليون بونابرت.

(١٤) النسر: لقب نابليون. يريد بفتاك (في هذا البيت) وبحاميك (في البيت قبله) مصطفى كمال.

(١٥) السماك: كوكب معروف. والمسموك: المرفوع.

(١٦) اللاحي: اللائم. متن الجبل: ظهره

(١٧) حصحص الحق: بان بعد كتمانه.

(١٨) النسيك: الذهب والفضة.

(١٩) ينبيك. يخبرك.

(٢٠) الأحقاب: جمع حقب (بضم الحاء)، قيل: هو ثمانون عامًا، وقيل: هو الدَّهر.

(٢١) فروق: هي الآستانة.

(٢٢) فوف الرياض: زهرها، تشبيهًا لها بفوف الثياب وهي نوع من برود اليمن. والوشي: نمنمة الثوب وتحسينه، وهو أيضًا نوع من الثياب الموشية، تسمية لها باسم المصدر. والمحبوك، من حبك الحائك الثوب أي حسَّن أثر الصنعة فيه.

(٢٣) الأصيل: هو ما بعد العصر إلى المغرب. والعقيان: الذهب الخالص.

(٢٤) الخمائل: جمع خميلة؛ وهي الشجر الكثير الملتف.

(٢٥) إن أنس لا أنس: أي إن نسيت شيئًا فلست أنسى الشبيبة.. إلخ.

(٢٦) الصبوح: شراب الصباح. والغبوق: شراب العشي. وبندلار وترابيا وبيوك: أسماء أمكنة في الآستانة.

(٢٧) الذائدين عن الحمى: جمع ذائد وهو المدافع. ومفتي النَّار: شيخ الإسلام الذي أفتى بقتالهم.

(٢٨) شربوا: أي الشيوخ.

(٢٩) عندهم: عند فتيان الحمى الذين اشتروك بمالهم ودمائهم.

(٣٠) الطامي: البحر. واللجاج: جمع لجة. من كل نيرة: أي كل لجة نيرة بيضاء، يكنِّي بذلك عن البحر الأبيض المتوسط. وذات حلوك: أي ومن كل لجة سوداء ذات حلوك، يكنِّي بذلك عن البحر الأسود.

(٣١) مرمرة: هو بحر مرمرة تدخله من مضيق الدردنيل، ويصله بالبحر الأسود مضيق البسفور.

(٣٢) قرن التبر: هو القرن الذهبي، وهو جزء من البسفور.

(٣٣) دار السعادة: هي الآستانة. والألوك: الرسالة.

(٣٤) الدلوك: غروب الشمس.

(٣٥) مذكيك: موقدك.

(٣٦) لم يغف: لم ينم. والشانئ: المبغض.

(٣٧) يشير إلى ترك الملك المحصور في أسرة واحدة، والرجوع إلى جعله حقًا يتولاه من تبايعه الأمة، كما كان لعهد الخلفاء الراشدين.

(٣٨) ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان أوَّل الخلفاء من بني أمية.

(٣٩) يزيد: هو يزيد بن الوليد، من ملوك بني أمية، كان من أصحاب الدعارة والفسوق. والحاكم: هو الحاكم بأمر الله أحد الملوك الفاطميين في مصر، كان فاسقًا مختبلاً، وكانت له بدع وضلالات يحمل الناس عليها قسرًا.

(٤٠) فضي نيوب الفرد: انثريها، ومنه قولهم فضَّ الله فمَّ فلان أي نثر أسنانه. والنيوب: جمع ناب.

عيد الدهر وليلة القدر[١]

الملكُ بين يديكَ في إقباله	عوَّذتُ مُلكَك بالنبي وآله[١]
حُرٌّ وأنت الحرُّ في تاريخِه	سمحٌ، وأنت السمحُ في أقياله[٢]
فِيضا على الأوطانِ من حُرِّيةٍ	فكِلاكما المفتكُّ من أغلاله[٣]
سِعدَت بعهدكما المباركِ أمةٌ	رَقَّت لحالِكَ حقبةً، ولحاله[٤]
يَفديكَ نصرانيُّه بصليبه	والمنتمي (لمحمدٍ) بهلاله
وفتى الدروزِ على الحُزُون بشيخه	والموسَويُّ على السهولِ بماله[٥]
صَدقوا الخليفةَ طاعةً ومحبة	وتمسَّكوا بالطُّهر من أذياله
يجدون دولتَك التي سَعِدوا بها	من رحمِة المولى، ومن أفضاله
جدَّدت عهد (الراشدين) بسيرةٍ	نسجَ (الرشادُ) لها على مِنواله
بُنيت على الشورى كصالح حكمهم	وعلى حياةِ الرأي واستقلاله
حقٌّ أعزَّ بك المهيمنُ نصرَه	والحقُّ منصورٌ على خُذَّاله[٦]
شرُّ الحكومِة أن يُساسَ بواحدٍ	في الملك أقوامٌ عِدادُ رماله
مُلْكٌ نُشاطِرُه ميامنَ حالِه	وترى بإذن الله حُسنَ مآله[٧]
أخذتْ حكومتُكَ الأمانَ لظبيه	في مُقفرات البيدِ من رِئباله[٨]
مكَّنتَ للدستور فيه، وحُزتَه	تاجًا لوجهك فوقَ تاج جلاله[٩]

[١] قيلت في احتفال بالمولد النبوي الشريف.

فكأنك (الفاروقُ) في كرسيَّه   نَعِمَتْ شعوبُ الأرضِ تحت ظلاله[١٠]
أو أنت مثلُ (أَبِي ترابِ)، يُتقى   ويهابُه الأملاكُ في أسماله[١١]
عهدُ النبيَّ هو السماحةُ والرضى   (بمحمد) أولى وسَمحِ خلاله
بالحق يحملُه (الإمامُ)، وبالهدى   في حاضر الدستورِ، واستقباله
يا بْنَ الخواقينِ الثلاثيَن الأُولَى   قد جمَّلوا الإسلام فوق جَماله[١٢]
المبلغين الدِّين ذروةَ سعدِه   الرافعين الملكَ أوجَ كماله[١٣]
الموطِئين من الممالك خيلَهم   ما لم يفُز (إسكندرٌ) بوصاله[١٤]
في عدلِ (فاتحهم) و(قانونيِّهم)   ما يَحتذي الخلفاءُ حذوَ مثاله[١٥]
أمَّا الخلافةُ فهي حائطُ بيتكم   حتى يُبين الحشرُ عن أهواله
أُخِذَت بحدِّ المشرفيِّ، وحازها   لكمُ القنا بِقصاره وطِواله[١٦]
لا تسمعوا للمُرجفين وجهلِهم   فمصيبةُ الإسلامِ من جُهَّاله[١٧]
طمعُ القريبِ أو البعيد بِنَيْلِها   طمعُ الفتى من دهرِهِ بمحاله
ما الذئبُ مُجترِئًا على ليث الشَّرى   في الغابِ مُعتديًا على أشباله[١٨]
بأضلَّ عقلاً — وهي في أيْمانكم —   ممَّنْ يُحاول أَخذَها بشماله

***

رضي المُهيمنُ، والمسيحُ، وأحمدٌ   عن جيشكِ الفادي، وعن أبطاله
الهازئين من الثرى بسهوله   الدائسين على رءُوس جِباله
القاتلين عدوَّهم في حصنه   بالرأي والتدبير قبل قتاله
الآخذين الحصَن عزَّ سبيلُه   مثلَ السها أو في امتناعِ مَناله[١٩]
المعرضين — ولو بساحة يَلْدزٍ —   في الحربِ عن عِرْضِ العدوِّ وماله
القارئين على (عليٍّ) علمها   وعلى الغزاةِ المتَّقين رجاله[٢٠]
الملكُ زُلزِلَ في (فروقٍ) ساعةً   كانوا له الأوتادَ في زلزاله
لولا انتظامُ قلوبهم ككفوفِهم   لنثرتُ دمعي اليومَّ في أطلاله[٢١]
والمرءُ ليس بصادقٍ في قولِه   حتى يؤيَّدَ قولَه بِفعاله
والشعبُ إن رامَ الحياةَ كبيرةً   خاض الغمارَ دمًا إلى آماله[٢٢]
شكرُ الممالك للسَّخيَّ بروحه   لا للسخيَّ بِقِيله أو قاله
إيهٍ (فروق) الحسن نجوى هائم   يسمو إليك بجدِّه وبخاله[٢٣]

أخرجتِ للعربِ الفِصاحِ بيانَه   قبسًا يُضيءُ الشرقَ مثلَ كماله[٢٤]
لم تُكثر (الحمراءُ) من نظرائِه   نَسْلاً، ولا (بغدادُ) من أمثاله[٢٥]
جعل الإلهُ خيالَهُ (قيسَ) الهوى   وجُعلتِ (ليلى) فِتنةً لخياله[٢٦]
في كلِّ عامٍ أنتِ نزهةُ روحِه   ونعيمُ مهجته، وراحةُ باله
يَغشاكِ قد حنَّت إليكِ مَطيُّه   ويَثوبُ، والأشواقُ ملءُ رِحاله
أفراحُه لمَّا رآكِ طليقةً   أفراحُ (يوسفَ) يوم حلِّ عقاله[٢٧]
وسرورُه بك من قيودك حرَّةً   كسرورِ (قيس) بانفلاتِ غزاله[٢٨]
الله صاغَكِ جنتين لخلقه   محفوفتين بأنعمٍ لِعياله
لو أنَّ لله أتخاذَ خميلةٍ   ما اختار غيرَك روضةً لجلاله[٢٩]
فكأنما الصفتان في حسنيهما   ديباجتَا خدٍّ يتيهُ بخاله[٣٠]
وكأنما (البسفورُ) حوضُ (محمدٍ)   وسطَ الجنان وهنَّ في إجلاله[٣١]
وكأن شاهقةَ القصور حيالَه   حُجراتُ (طه) في الجِنان وآله[٣٢]
وكأن عيدَكِ عيدُها لمَّا مشى   فيها البشيرُ ببشره وجماله[٣٣]
تِيهي بعيدِك في الممالك، واسلمى   في السلمِ للآلاف من أمثاله
واستقبلي عهدَ الرشادِ مُجمَّلاً   بمحاسن الدستور في استهلاله
دارُ السعادة أنتِ، ذلك بابُها   شُلَّت يدٌ مُدَّت إلى إقفاله

هوامش

(١) الملك بين يديك: الخطاب للخليفة محمد رشاد الخامس.

(٢) حرٌّ: أي الملك، يريد أنه غير مقيد بسلطة الفرد المستبد. وأنت الحرُّ في تاريخه: لأن الخليفة محمد رشاد أول خليفة دستوري. وسمح: يقال رجل سمح أي ذو سماحة وعطاء. والأقيال: جمع قيل وهو الملك.

(٣) كلاكما: أي أنت والملك. والمفتكُّ: المطلق. والأغلال: جمع غُل بضم الغين، وهو طوق من حديد يجعل في العنق.

(٤) الحقبة: المدَّة من الدهر.

(٥) الحزون: جمع حَزن بفتح الحاء، ما غلظ من الأرض.

(٦) الخذال: جمع خاذل وهو الذي لا ينصرك.

(٧) الميامن: جمع ميمنة وهي اليمن والبركة.

(٨) الرئبال: الأسد.

(٩) مكَّنت للدستور: أي جعلته مكينًا ثابتًا. والدستور: هو القانون الذي ينظم حكم الشورى.

(١٠) الفاروق: لقب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

(١١) أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب(رضى الله عنه). والأسمال: الثياب البالية واحدها سمَل (بفتح الميم).

(١٢) الخواقين: جمع خاقان وهو اسم لكل ملك من ملوك التُّرك.

(١٣) الأوج: العلو.

(١٤) إسكندر: هو المقدوني الفاتح العظيم.

(١٥) فاتحهم وقانونيهم: لقبان أولهما للسطان محمد الفاتح، لُقِّب به لأنه أول ملك في الإسلام استطاع أن يفتح القسطنطينية ويقضي على كل سلطة للروم بها. وثانيهما للسلطان سليمان القانوني، لُقِّب به لأنه أول واضع لقانون الدولة التركية.

(١٦) المشرفي: السيف، نسبة إلى موضع في اليمن كانت تصنع به السيوف.

(١٧) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة ليوقعوا الناس في الاضطراب.

(١٨) الأشبال: جمع شبل وهو ولد الأسد.

(١٩) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٢٠) علي: هو علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، والضمير للحرب.

(٢١) الأطلال: ما شخص من آثار الديار.

(٢٢) الغمار (بضم الغين وفتحها): لفيف الناس.

(٢٣) إيه: اسم فعل للاستزادة من الحديث. والنجوى: المسارة بالكلام، وهي السرُّ ايضًا، الهائم: المحبُّ، والذاهب من العشق، أو غيره لا يدري أين يتوجَّه، يريد نفسه، أي أنه هائم بحب فروق — وهي الآستانة — لما بها من حسن ومعنى «يسمو إليك بجده وبخاله» أنه من أصل تركي من ناحية أبويه.

(٢٤) أخرجت: الخطاب لروق، والضمير للهائم في البيت قبله.

(٢٥) الحمراء: هي مدينة غرناطة بالأندلس. وبغداد: حاضرة العراق.

(٢٦) قيس: هو ابن الملوح، وقيل هو قيس بن معاذ المعروف بالمجنون. وليلى: هي محبوبته التي جُنَّ بها، يقول: إن الله صرف خياله في الشعر على الآستانة، فهو يجيد المعاني في وصفها، حتى شغف بها كشغف قيس بليلى.

(٢٧) يقول: إنه فرح لها كما فرح يوسف (عليه السلام) بخروجه من السجن.

(٢٨) يشير بقوله «كسرور قيس بانفلات غزاله» على ما قيل من المجنون رأى ظبية في حبالة صيادين فسألهما أن يطلقاها ويضع مكانها شاة من غنمه، ففعلا.

(٢٩) الخميلة: الشجر الكثير الملتف. والروضة: ما اجتمع من الحدائق.

(٣٠) الديباجتان: تثنية ديباجة وهي الوجه، يقال: فلان يصون ديباجته، والديباجتان أيضًا، الخدَّان. والخال: شامة في الخدِّ.

(٣١) حوض محمد: يريد الحوض المورود يوم القيامة. ومحمد: هو النبي ﷺ

(٣٢) حياله: أي قبالته وإزاءه. والحجرات: جمع حجرة وهي الغرفة. وطه: اسم من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

(٣٣) البشير: من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

وداع اللورد كرومر

أيامُكم، أم عهدُ إسماعيلا؟ … أم أنت فرعونٌ يسوسُ النيلاَ؟[١]

أم حاكم في أرض مصر بأمره … لا سائلاً أبدًا ولا مسئولا؟

يا مالكًا رِقَّ الرقاب ببأسه … هلاَّ اتَّخذتَ إلى القلوب سبيلا؟[٢]

لمَّا رحلتَ عن البلادِ تشهَّدت … فكأنكّ الداءُ العياءُ رحيلا

أوسعتَنا يومَ الوداعِ إهانةً … أدبٌ لعمرك لا يُصيبُ مثيلا

هلاَّ بدا لك أن تجاملَ بعدما … صاغ الرئيسُ لك الثَّنا إكليلا؟[٣]

انظر إلى أدب الرئيس ولطفِه … تجد الرئيسَ مُهذَّبا، ونبيلا

***

في ملعبٍ للمُضحكات مُشيَّدٍ … مثَّلتَ فيه المُبكياتِ فصولا[٤]

شهد (الحسينُ) عليه لعَن أصوله … ويُصَدَّر (الأعمى) به تطفيلا[٥]

جُبنٌ أقلَّ وحطَّ من قدرَيْهما … والمرءُ إن يَجْبُن يَعِشْ مَرذولا

لمَّا ذكرت به البلادَ وأهلها … مثَّلت دورَ مماتها تمثيلا[٦]

أنذرتَنا رِقًّا يدوم، وذِلَّةً … تبقى، وحالاً لا تَرى تحويلا

أحسِبت أن الله دونكَ قدرةً؟ … لا يملكُ التغييرَ والتبديلا؟

الله يحكم في الملوكِ، ولم تكن … دولٌ تنازعة القُوى لتَدولا[٧]

فرعونُ قبلك كان أعظم سطوة … وأعزَّ بين العالمين قبيلا[٨]

اليوم أخلفَت الوعودَ حكومةٌ … كنا نظنُ عهودَها الإنجيلا

دخلَتْ على حكمِ الوداد وشرعه مصرًا، فكانتْ كالسُّلالِ دخولا[٩]
هدَمتْ معالمَها، وهدَّت رُكنَها وأضاعت استقلالها المأمولا[١٠]
قالوا: جلبتَ لنا الرفاهة والغنى جحدوا الإلهَ، وصُنعَه، والنيلا[١١]
كم مِنَّةٍ موهومةٍ أتبعتَها منًّا على الفَطِنِ الخبير ثقيلا[١٢]
في كلِّ تقرير، تقولُ: خلقتكم أفهل ترى تقريرَك التنزيلا؟[١٣]
هل من نداك على المدارس أنها تذرُ العلومَ، وتأخذ (الفُوتبولا)؟[١٤]
أم من صِيانتِك القضاءَ بمصر أن تأتي بقاضي دِنْشِوايَ وكيلا؟[١٥]
أم هل يَعُدُّ لك الإضاعةَ منةً جيشٌ كجيش الهند، بات ذليلا؟
انظر إلى فِتيانِه، ما شأنُهم؟ أوَ ليس شأنًا في الجيوش ضئيلا؟
حرَّمتهم أن يبلُغوا رتبَ العُلا ورفعتَ قومَك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعتِ الجيوشُ، وأمَّلت مستقبلاً، لم يمِلكوا التأميلا
من بعد ما زَفُّوا لإدْوَرْدَ العُلا فتحًا عريضًا في البلادِ، طويلا[١٦]
لو كنتُ من حُمْرِ الثياب، عبدتُكم من دونِ عيسى، مُحسِنًا، ومُنيلا[١٧]
أو كنتُ بعضَ الإنكليز، قبلتُكم مَلِكًا، أُقطعُ كفَّه تقبيلا
أو كنتُ عضوًا في (الكلوب)، ملأته أسفًا لفرقتكم، بُكًا، وعويلا[١٨]
أو كنتُ قسيسًا يَهيمُ مُبشِّرًا رتّلتُ آيةَ مَدْحِكم ترتيلا[١٩]
أو كنتُ صرَّافًا بلندن دائنًا أعطيتُكم عن طيبةٍ تحويلا
أو كنتُ (تيمسكم)، ملأت صحائفي مدحًا، يُردَّد في الورى موصولا[٢٠]
أو كنتُ في مصرٍ نزيلاً جاهدًا سبَّحتُ باسمك بُكرةً وأصيلا
أو كنتُ (سِريونًا)، حلفتُ بأنكم أنتم حَيَوْتُم بالقناةِ الجيلا[٢١]
ما كان من عقباتِها، وصِعابِها ذللتموه بعزمكم تذليلا
عهدُ الفرنج — وأنت تعلم عهدَهم — لا يبخسون المحسنين فَتيلا
فارحل بحفظِ الله جلَّ صنيعُه مستعفيًا إن شئتَ، أو معزولا
واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غِرايَ أو كمبيلا[٢٢]
أو شاطر المَلِكَ العظيمَ بلادَه وسُسِ الممالك، عرضَها والطولا
إنَّا تمنينا على الله المنى والله كان بنيلهنَّ كفيلا
مَنْ سبَّ دينَ محمدٍ؛ فمحمدٌ متمكن عند الإله رسولا[٢٣]

هوامش

(١) إسماعيل: هو الخديو إسماعيل باشا. وفرعون: لقب كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.

(٢) رقَّ الرقاب: استعبادها. والبأس: الشدَّة والقوَّة.

(٣) الرئيس: هو مصطفى باشا فهمي كانا رئيس مجلس الوزراء لعهد اللورد كرومر، وهو الذي أقام له حفلة توديع في دار الأوبرا يوم خروجه من مصر، وخطب له يودعه ويثني عليه، ثم خطب اللورد فأهان الأمة، وأهان الخديو إسماعيل في وجه الأمير حسين كامل «السلطان حسين»، ولم يراعِ شيئًا من الأدب ولا المجاملة.

(٤) يريد ملعب دار الأوبرا.

(٥) الحسين: هو السلطان حسين كامل. والأعمى: هو الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان قد ضعف بصره وكاد يكف.

(٦) لمَّا ذكرت به: أي بذلك الملعب.

(٧) لتدول: لتظهر على غيرها ويحالفها إقبال الحظ.

(٨) القبيل: الجماعة من أصل واحد.

(٩) السلال (بضم السين): هو داء السل.

(١٠) المعالم: جمع معلم، وهو موضع الشيء الذي يظن الناس فيه وجوده.

(١١) قالوا جلبت: الخطاب للورد كرومر.

(١٢) المنُّ: أن تعدَّ لغيرك ما فعلته معه من الصنائع، كأن تقول: فعلت لك كذا وأعطيتك كذا، وهو قبيح مذموم.

(١٣) كان اللوود كرومر يضع كل سنة تقريرًا مطولاً عن الحالة العامة في مصر والسودان، وكان في كل تقرير يدَّعي لنفسه من وجوه الإصلاح في مصر ما يكذِّبه الواقع.

(١٤) الندى: الكرم. تذر: تترك. والفوتبول: كلمة من لغة الإنكليز معناها كرة القدم.

(١٥) قاضي دنشواي: هو أحمد فتحي زغلول باشا، كان قاضيًا في المحكمة المخصوصة التي عاقبت أهل دنشواي بالشنق والجلد والسجن، جعله اللورد كرومر بعد هذه المحاكمة وكيلاً لوزارة الحقانية، وقد كان رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية.

(١٦) يشير إلى فتح السودان، وأن الجيش المصري هو الذي قام بعبئه كله، ولم يكن لجنود الإنكليز فيه من أثر يذكر. وإدوارد، هو ملك الإنكليز.

(١٧) حمر الثياب: هم الإنكليز، يقول: لو كنت إنكليزيًا لعبدتك ولم أعبد عيسى؛ لأنك أنلت الإنكليز وأحسنت إليهم بما لا مثيل له من إنالة وإحسان، والخطاب للورد كرومر.

(١٨) الكلوب: دار ندوة في القاهرة، يشترك في الإنفاق عليه كل مَنْ يشاء من السراة المصريين وكبار الموظفين الإنكليز.

(١٩) ذلك لأن اللورد كرومر كان يؤيد التبشير بالمسيحية في مصر، ويحمي القسوس القائمين به.

(٢٠) أو كنت تيمسكم: أي لو كنت جريدة التيمس الخاصة بكم.

(٢١) المسيو دي سريون: مدير شركة قناة السويس.

(٢٢) واحمل بساقك ربطة: يشير إلى نشان عند الإنكليز يُسمَّى نشان ربطة الساق، قيل يوم عزل كرومر أنعم عليه به. وغراي وكمبيل: وزيران من وزراء الإنكليز.

(٢٣) كان اللورد كرومر قد طعن على الدين الإسلامي في تقريره سنة ١٩٠٦، فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر. فشاعرنا يشير إلى ذلك بقوله: مَنْ سبَّ دينَ محمدٍ.. إلخ.

بين الحجاب والسفور

صدَّاحُ، يا ملكَ الكَنا ... رِ، ويا أميرَ البُلبلِ[١]
قد فزتُ منك (بمعبد) ... ورُزقتُ قربَ (الموصلي)[٢]
وأتيحَ لي (داودُ) مِز ... مارًا، وحسن ترتُّل[٣]
فوق الأَسرَّةِ والمنا ... بر قطُّ لم تترجَل[٤]
تهتزُّ كالدينار في ... مُرْتَجَّ لَحْظِ الأحوال[٥]
وإذا خطرتَ على الملا ... عبِ، لم تدع لممثِّل[٦]
ولك ابتداءَاتُ (الفرز ... دقِ)، في مقاطع (جرول)[٧]
ولقد تَخِذْتَ من الضُّحى ... صُفرَ الغَلائل والحلِى[٨]
ورويتَ في بيض القلا ... نسِ عن عذارى الهيكل[٩]

* * *

يا ليتَ شعريَ يا أسيـ ... ـرُ، شَجٍ فؤادُك، أم خَلي؟[١٠]
وحليفُ سهدٍ، أم تنا ... مُ الليلَ حتى ينجلي؟[١١]
بالرغم مني ما تُعا ... لجُ في النحاس المقفَل[١٢]
حرصي عليك هوًى، ومَنْ ... يُحْرِزْ ثمينًا يبخل
والشحُّ تُحدثُه الضرو ... رةُ في الجوادِ المُجزِلِ[١٣]
أنا إن جعلتُكَ في نُضا ... ر بالحرير مُجلَّل[١٤]
ولففتُه في سَوسنٍ ... وحففتُه بقَرنُفل[١٥]

وحرقتُ أزكى العودِ حو لَيْه، وأغلى الصنَّدل
وحملتهُ فوقَ العيو نِ، وفوق رأْس الجدول[١٦]
ودعوتُ كلَّ أغرَّ في مُلك الطيورِ محجَّل
فأتتك بين مُطارحٍ ومحبّذٍ، ومدلِّل[١٧]
وأمرت بابني فالتقا كَ بوجهه المتهلَّل[١٨]
بيمينه فالوذَجٌ لم يُهدَ (للمتوكِّل)[١٩]
وزجاجةٌ من فضة مملوءَةٌ من سَلسل[٢٠]
ما كنتُ يا (صدَّاحُ) عنـ ـدكَ بالكريم المُفضل
شْهدُ الحياةِ مشوبةً بالرِّق، مثلُ الحنظل[٢١]
والقيدُ لو كان الجما نَ منظمًا لم يُحمَل[٢٢]
يا طيرُ، لولا أن يقو لوا: جُنَّ، قلتُ: تعقَّل
اسمع، فرُبَّ مُفصَّل لك، لم يفدك كمجمِل
صبرًا لما تشقى به أو ما بدا لك فافعل
أنت ابنُ رأْي للطبيـ ـعة فيك غيرِ مُبدَّل
أبدًا مَرُوعٌ بالإسا ر، مهدَّدٌ بالمقتل[٢٣]
إن طرتَ عن كنفي وقعـ ـتَ على النسُّور الجُهَّل[٢٤]

***

يا طيرُ، والأمثالُ تضربُ للَّبيب الأمثل[٢٥]
دنياك من عاداتِها ألاَّ تكونَ لأعزل[٢٦]
أو للغبي، وإن تعلَّل بالزمان المقبل
جُعِلَتْ لِحُرَّ يُبتَلى في ذي الحياةِ ويَبتلي
يَرمي، ويُرْمَى في جها دِ العيشِ غيرَ مغفَّل
مُستجمع كالليثِ، إن يُجهَل عليه يَجهل[٢٧]
أسمعتَ بالحكّمَيْن في الـ إسلامِ يومَ (الجْندَل)؟[٢٨]
في الفتنة الكبرى، ولو لا حكمةٌ لم تُشعَل[٢٩]
رَضِيَ الصحابةُ يومَ ذ لِك بالكتاب المُنزَل[٣٠]
وهمُ المصابيحُ، الروا ةُ عن النبي المرسل

قالوا: الكتابُ، وقام كل ... مــفــســرٍ ومــئــوَّل
حتى إذا وَسِعتْ (معا ... ويةً)، وضاق بها (علي)[31]
رجعوا لظلم كالطبا ... ئع في النفوس مؤصَّل
نزلوا على حكم القويِّ، ... وعـنـد رأي الأحـيـل[32]
صدَّاحُ، حق ما أقو ... ل، حفِلتَ، أم لم تحفل
جاورتَ أندى روضةٍ ... وحلـلـتَ أكـرمَ مـنـزل
بين الحفاوةِ من حُسَيْـ ... ـنٍ، والرعايةِ من علي
وحنانِ (آمنةٍ) كأمِّك ... فــي صــبــاكَ الأول[33]
صِحْ بالصِّباح، وبشِّر الـ ... ـأبناءَ بالمستقبل
واسأل لمصرَ عنايةً ... تأتي وتهبطُ من عَلِ
قل: ربنا افتح رحمةً ... والخير منك فأرسل
أدرك كنانتَك الكريـ ... ـمةَ — ربَّنا — وتَقبَّل

هوامش

(١) الصدَّاح: الصيَّاح الرفيع الصوت. والكنار: الكناري وهو طائر حسن الصوت، وريشه أبيض يضرب إلى الصفرة، وقوادم جناحيه طويلة تميل إلى الخضرة، وينسب إلى جزائر كناريا، وهي الجزائر الخالدات. والبلبل: طائر صغير سريع الحركة، يُضْرَبُ به المثل في طلاقة اللسان.

(٢) معبد: مغنٍ مشهور كان أيام الدولة الأموية. والموصلي: يُطْلَقُ على إسحاق الموصلي وابنه إبراهيم، وكانا مغنيين وكان لهما ذلك فقه وأدب.

(٣) داود: النبي. ومزاميره: ما كان يترنم به من الأدعية والأناشيد.

(٤) الترجُّل: أن ينزل المرء عن ركوبته ويمشي.

(٥) الأحول: مَنْ في عينه حول.

(٦) لم تدع لممثل: أي لم تترك له ما يجيده من التمثيل والغناء لأنك أجود صوتًا وفنًا من كل مغنٍ وممثِّل.

(٧) الفرزدق: لقب همَّام بن صعصعة الشاعر المشهور، كان في صدر الدولة الأموية. وجرول: اسم الحطيئة وهو شاعر أدرك الجاهلية والإسلام. والابتداءات: أوائل القصائد. والمقاطع: جمع مقطع وهو آخر بيت من القصيدة.

(٨) الغلائل: واحدتها غلالة (بكسر الغين) وهي شعار يلبس تحت الثوب، يشير بهذا المجاز إلى أن طائره الصدَّاح أصفر اللون.

(٩) القلانس: جمع قلنسوة وهي نوع من لباس الرأس. والعذارى: جمع عذراء وهي البكر. والهيكل: معناه هنا الموضع في صدر الكنيسة، يقرب فيه القربان كما تزعم النصارى، وفي هذا البيت أنواع من المجاز، ثم كناية عن المعنى المقصود، وهو يريد أن طائره أبيض الرأس كأنه يلبس قلنسوة بيضاء، كالعذارى الراهبات المنقطعات لخدمة الهيكل.

(١٠) الشجي: المشغول. والخلي: الخالي من الهم.

(١١) الحليف: كل شيء لزم شيئًا آخر فلم يفارقه. والسهد: الأرق وعدم النوم. وينجلي: يمضي.

(١٢) ما تعالج: أي ما تزاول وتمارس. والمراد بالنحاس المقفل: القفص الذي حُبِسَ فيه الطائر.

(١٣) الجواد: الكريم. والمجزل: المكثر من العطاء.

(١٤) النضار: الذهب. والمجلل: المغطى.

(١٥) السوسن (بفتح السين الأولى وضمها): نبات طيب الرائحة.

(١٦) العيون هنا: عيون الماء. والجدول: النهر الصغير.

(١٧) المدلل (بفتح اللام): المرفه.

(١٨) المتهلل: المتلألئ.

(١٩) الفالوذج: حلواء من دقيق وعسل وماء.

(٢٠) السلسل: الخمر اللينة.

(٢١) الشهد (بضم الشين وسكون الهاء): العسل.

(٢٢) الجمان: اللؤلؤ.

(٢٣) الإسار: الأسر.

(٢٤) الكنف: الجانب والناحية.

(٢٥) الأمثل: الأفضل.

(٢٦) الأعزل: مَنْ لا سلاح عنده.

(٢٧) المستجمع: مَنْ يبذل غاية إمكانه. ويجهل عليه: يتسافه عليه.

(٢٨) الحكمان: هما أبو موسى الأشعري، ارتضاه الإمام عليٌّ حكَمًا له، وعمرو بن العاص، اختاره معاوية حَكمًا له، وقصة هذا التحكيم مشهورة. ويوم الجندل: وهو أحد أيام الحرب بين عليٍّ ومعاوية. والجندل: اسم مكان.

(٢٩) ولولا حكمة: أي ولولا حكمة أرادها الله تعالى لم تشعل تلك الفتنة.

(٣٠) رضي الصحابة.. إلخ: ذلك أن أصحاب معاوية لَمَّا رأوا أن الهزيمة ستكون لهم، رفعوا المصاحف على أطراف الأسنَّة، ونادوا عليًّا وأصحابه أن ينزلوا وإيَّاهم على كتاب الله، فأمر عليٌّ أصحابه أن يكفُّوا عن الحرب.

(٣١) حتى إذا وسعت معاوية: أي حتى إذا وسعت ولاية الأمر معاوية بسبب أن الحيلة التي فعلها عمرو بن العاص جازت على أبي موسى الأشعري رجعوا لظلم. إلى آخر ما في البيتين التاليين.

(٣٢) الأحيل: الأكثر حيلة.

(٣٣) حسين، وعلي، وآمنة: أبناؤه.

العلم والتعليم، وواجب المعلم[1]

قُمْ للمعلِّم وفِّه التبجيلا   كاد المعلمُ أن يكون رسولا
أعلمتَ أشرَفَ، أو أجلَّ مِن الذي   يبني، ويُنشِئ أنفُسًا وعقولا؟
سبحانك اللَّهُمَّ خيرَ مُعلِّم   علَّمتَ بالقلم القرونَ الأولى
أخرجتَ هذا العقل من ظلماتِه   وهديتَه النورَ المبينَ سبيلا
وطبعتَه بيدِ المعلِّم تارةً   صِدئ الحديد، وتارةً مصقولا[1]
أرسلتَ بالتَّوراةِ موسى مُرشِدًا   وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا[2]
وفجَرتَ يَنبوعَ البيان محمدًا   فسقى الحديثَ، وناولَ التنزيلا[3]
علَّمتَ يونانًا ومصرَ، فزالتا   عن كل شمسٍ ما تُريد أفولا
واليومَ أصبحنا بحالِ طُفولةٍ   في العلمِ، تلتمسانِه تطفيلا[4]
من مَشرِق الأرضِ الشموسُ تظاهَرتْ   ما بالُ مغرِبها عليه أُديلا[5]
يا أرضُ، مُذ فقدَ المعلِّمُ نفسَه   بين الشموسِ وبين شرقِك حيلا
ذهب الذين حَمَوْا حقيقةَ علمِهم   واستعذبوا فيها العَذابَ وَبيلا
في عالَمٍ صحِبَ الحياةَ مقيَّدًا   بالفردِ، مخزومًا به، مغلولا[6]
صرعته دنيا المستبد، كما هوتْ   من ضربةِ السمسِ الرؤُوسُ ذهُولا
سُقراطُ أعطى الكأسَ وهي مَنِيَّةٌ   شفتي محِبٍّ يشتهي التقبيلا

[1] أُلْقِيَت هذه القصيدة في حفل قام به نادي مدرسة المعلمين العليا.

عرضوا الحياة عليه وهي غباوةٌ فأبى، وآثر أن يموت نبيلا[٧]
إن الشجاعة في القلوبِ كثيرةٌ ووجدتُ شجعانَ العقولِ قليلا

* * *

إن الذي خلق الحقيقةَ عَلْقَمًا لم يُخل من أهل الحقيقةِ جيلا
ولربما قتل الغرامُ رجالَها قُتِل الغرامُ، كم استباحَ قتيلا
أوَ كُلُّ مَنْ حامى عن الحقِّ اقتنى عند السوادِ ضغائنًا وذُحولا؟[٨]
لو كنتُ أعتقدُ الصَّليبَ وخَطْبه لأقمتُ من صَلْبِ المسيح دليلا

* * *

أمُعلَّمي الوادي، وساسةَ نَشْئِه والطابعينَ شَبابَه المأمولا
والحاملينَ — إذا دُعوا ليُعلِّموا — عبءَ الأمانةِ فادحًا مسئولا
كانتْ لنا قدمٌ إليه خفيفةٌ وَرِمَتْ بدنلوبٍ فكان الفيلا[٩]
حتى رأينا مصرَ تخطو إصبَعًا في العلم، إن مشِت الممالك ميلا
تلك الكفورُ — وَحَشْوُها أمِّيّةٌ — من عهد «خوفو» لم تر القنديلا
تجدُ الذين بنى «المسلَّةَ» جدُّهم لا يُحسنون لإبرةٍ تشكيلا
ويُدَلَّلون إذا أُريدَ قِيادُهم كالبُهْم تأنسُ إذ ترى التدليلا
يتلو الرجالُ عليهمُ شهواتِهم فالناجحون أَلَدُّهم ترتيلا
الجهلُ لا تحيا عليه جماعةٌ كيف الحياةُ على يَدَيْ عِزريلا؟
واللهِ لولا ألسُنٌ وقرائحٌ دارت على فِطَنِ الشباب شَمولا[١٠]
وتعهَّدتْ من أربعين نفوسَهم تغزو القنوطَ، وتغرِسُ التأميلا
عرفتْ مواضعَ جدبهم، فتتابعتْ كالعينِ فيضًا، والغمامِ مسيلا
تُسدي الجميلَ إلى البلاد، وتستحي من أن تُكافأ بالثناءِ جميلا
ما كان دنلوبٌ، ولا تعليمُه عند الشدائد، يُغنيان فتيلا

* * *

رَبُّوا على الإنصافِ فتيانَ الحِمَى تجدوهُمُ كهفَ الحقوقِ كهولا
فهو الذي يبني الطباعَ قويمةً وهو الذي يبني النفوسَ عُدولا

ويقيمُ منطقَ كلِّ أعوجِ منطقٍ — ويُريه رأيًا في الأمور أصيلا
وإذا المعلَّمُ لم يكن عدلا، مشى — روحُ العدالةِ في الشباب ضئيلا
وإذا المعلِّم ساءَ لحظَ بصيرةٍ — جاءَت على يده البصائرُ حُولا[١١]
وإذا أتى الإرشادُ من سبب الهوى — ومن الغرورِ، فسمِّه التضليلا
وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم — فأقِمْ عليهم مأتما وعويلا
إني لأعذُركم وأحسبُ عِبْئَكم — من بين أعباءِ الرجال ثقيلا
وجد المساعدَ غيرُكم، وحُرِمْتمُ — في مصرَ عون الأمهاتِ جليلا
وإذا النساءُ نشأن في أمِّية — رَضَع الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيمُ من انتهى أبواهُ من — همَّ الحياةِ، وخلَّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما — وبحسن تربيةِ الزمانِ بديلا!
إنَّ اليتيم هو الذي تَلقى له — أُمًّا تخلَّتْ، أو أبًا مشغولا[١٢]

* * *

مصرٌ إذا ما راجعتْ أيامَها — لم نلقَ للسَّبت العظيم مثيلا[١٣]
(البرلمانُ) غدًا يُمدُّ رواقُه — ظلاًّ على الوادي السعيدِ ظليلا
نرجو إذا التعليم حرَّكَ شجوَهُ — ألا يكون على البلاد بخيلا
قل للشباب: اليومَ بُورك غرسُكم — دنت القطوفُ، وذُلِّلَتْ تذليلا
حيُّوا من الشهداء كلَّ مغيَّبٍ — وضعوا على أحجاره إكليلا
ليكون حظُّ الحيِّ من شُكرانكم — جمًّا، وحظُّ الميْتِ منه جزيلا
لا يلمسُ الدستورُ فيكم روحَه — حتى يرى جنديَّه المجهولا[١٤]
ناشدتُكم تلك الدِّماءَ زكيةً — لا تبعثوا للبرلمان جَهولا
فلْيسألَنَّ عن الأرائكِ سائلٌ — أحملَن فضلاً، أم حملنَ فُضولا؟
إنْ أنتَ أطلعتَ الممثِّل ناقصًا — لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهلَّ الأمانة، واجعلوا — لأولي البصائرِ منهم التفضيلا
إن المقصِّرَ قد يَحُولُ، ولن ترى — لجهالةِ الطبع الغبيَّ محيلا
فلرُبَّ قولٍ في الرجالِ سمعتمُ — ثم انقضى، فكأنَّه ما قيلا
ولكم نصرتم بالكرامة والهوى — مَنْ كان عندكمُ هو المخذولا
كرمٌ وصفحٌ في الشبابِ، وطالما — كرُمَ الشبابُ شمائلاً وميولا

قوموا اجمعوا شُعَبَ الأبوةِ، وارفعوا صوتَ الشباب مُحبَّبًا مقبولا
ما أبعدَ الغاياتِ!! إلا أنني أجدُ الثباتَ لكم بهنَّ كفيلا
فَكِلوا إلى اللهِ النجاحَ، وثابروا فاللهُ خيرٌ كافلاً ووكيلا

هوامش

(١) طبع السيف. صاغه. وصدئ الحديد: أي غير مجلوٍ ولا مصقول.

(٢) البتول: لقب السيدة مريم عليها السلام.

(٣) التنزيل: القرآن.

(٤) التطفيل: التطفُّل.

(٥) أديل المغرب على المشرق: أي فاقه وانتزع منه الدولة.

(٦) مخزومًا به: أي مسخَّرًا له.

(٧) النبل: الذكاء.

(٨) الذحول: جمع ذحل وهو الثأر.

(٩) الفيل: ورم يصيب الساق. ودنلوب: مستشار إنجليزي منيت به نظارة المعارف المصرية فأساء إلى العلم والتعليم.

(١٠) الفطن: جمع فطنة، وهي الحذق والذكاء. والشمول: الخمر.

(١١) الحول: جمع حولاء، والحولاء، مَنْ في عينها حَول، والحَول. إقبال الحدقة على الأنف، وهو عيب.

(١٢) أمًّا تخلت عن تربيته، وأبًا مشغولا عن العناية به وتهذيبه.

(١٣) السبت: ١٥ مارس سنة ١٩٢٤، وهو اليوم الذي افتتح فيه (البرلمان) الأول، وقد كان هذا اليوم قريبًا من يوم الاحتفال.

(١٤) يريد بالجندي المجهول: مَنْ يعمل في غير جلبة ولا ضوضاء، وفي غير انتظار مكافأة أو جزاء.

بنك مصر[1]

قِفْ بالممالكِ، وانظرْ دولةَ المالِ   واذكرْ رجالاً أدالوها بإجمال
وانقلْ ركابَ القوافي في جوانبها   لا في جوانب رسمِ المنزلِ البالي
ما هيكلُ الهرم الجيزِّ من ذهبٍ   في العين، أزينَ من بُنيانِها الحالي
علا بها الحرصُ أركانًا، وأخرجها   على مثالٍ من الدنيا، ومِنوال
فيها الشقاءُ لقومٍ، والنعيمُ لهم   وبؤسُ ساعٍ، ونُعمَى قاعدٍ سالي
والمالُ — مُذْ كان — تمثالٌ يطافُ به   والناسُ — مُذ خُلقوا — عُبَّادُ تمثال
إذا جفا الدورَ، فَانْعَ النازلين بها   أو الممالكَ، فانْدُبْها كأطلال
يا طالبًا لمعالي الملك مجتهدًا   خُذْها من العلم أو خُذْها من المال
بالعلمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلْكَهُمُ   لم يُبْنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلال
سراةَ مصرَ، عهدناكم إذا بُسطتْ   يدُ الدعاءِ سراعًا غيرَ بُخَّالِ
تبيَّنَ الصدقُ من بينِ الأمور لكم   فامضوا إلى الماءِ، لا تَلْوُوا على الآل[1]
لا يذهبِ الدَّهْر بين التُّرَّهاتِ بكم   وبين زَهْرٍ من الأحلام قتَّال
هاتوا الرجال وهاتوا المال، واحتشدوا   رأيًا لرأْيٍ، ومِثْقالاً لمثقال
هذا هو الحجرُ الدرِّيُّ بينكم   فابنوا بِنَاءَ قريش بيتَها العالي
دارٌ إذا نزلتْ فيها ودائعكُم   أودعتم الحَبَّ أرضًا ذاتَ إغلال
آمالُ مصرَ إليها طالما طمحتْ   هل تبخلونَ على مصر بآمال؟
فابنوا على بركات الله، واغتنموا   ما هيَّأَ اللهُ من حظٍّ وإقبال

[1] قِيلت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشاء بنك مصر بدار «الأوبرا» الملكية.

هوامش

(١) الآل: السراب.

مرحبًا بالهلال[1]

العـامُ أقـبـلَ، قُـمْ نُـحَـيَّ هـلالا ... كالتاج في هامِ الوجود جلالا
طُغَرَى كتابِ الكائناتِ لقارئٍ ... يـزِنُ الـكـلامَ، ويَـقـدُرُ الأقـوالا
مَلَكَ السماءَ، فكان في كُرْسيِّهِ ... بـيـن الـملائكِ والـملـوكِ مِـثـالا
تـتـنـافـسُ الآمـالُ فـيـه، كـأنَّـه ... ثـغـرُ الـعـنـايـةِ ضـاحَـكَ الآمـالا
والشَّمسُ تُزلِف عيدَها، وتزُفُّه ... بشرَى بمطلعهِ السعيدِ، وفالا[1]
عيدُ المسيح، وعيدُ أحمد، أقبلا ... يـتـبـاريـان وضـاءَةً وجـمـالا
ميلادُ إحسانٍ، وهجرةُ سُؤدَدٍ ... قد غيَّرا وجه البسيطةِ حالا

***

قمْ للهلالِ قيامَ مُحتفِلٍ به ... أثنى، وبالغ في الثناءِ، وغالى
نورُ السبيلِ هَدَى، لكلَّ فضيلةٍ ... يَهدي الحكيمُ لها، وسَنَّ خِلالا
ما بينَ مولِدِه وبين بلوغه ... مـلأ الـحـيـاةَ مـآثـرًا وفـعـالا
متواضعٌ، والله شرَّف قدرَه ... بالشمسِ ندًّا، والكواكب آلا[2]
متودَّدٌ عند الكمالِ، تخالُه ... في راحتَيْكَ، وعَزَّ ذاك مَنالا
وافٍ لجارةِ بَيْته، يرعى لها ... عهدَ السَّمَوْءَلِ، عُرْوَةً، وحِبالا[3]

[1] قيلت هذه القصيدة في رأس سنة ١٣٢٩ الهجرية.

عَونُ السُّراة على تصاريِف النوى — أمِنوا عليه وحَشَةً، وضلالا[٤]
ويُصانُ من سرِّ الصبابِة عندَه — ما باتَ عند الأكثرين مُذالا[٥]
ويُشَكُّ فيه، فلا يكلِّف نفسَه — غيرَ الترفُّع والوقار نِضالا
ساءَت ظنونُ الناس حتى أحدثوا — للشكِّ في النور المبين مجالا
والظنُّ يأخذ في ضميرك مأْخذًا — حتى يُريكَ المستقيمَ محالا
ومن العجائبِ عند قِمَّةِ مجدِه — رام المزيدَ، فجدَّ فيه، فنالا
يطوي إلى الأوْج السماواتِ العُلا — ويشدُّ في طلب الكمالِ رِحالا
ويَفُلُّ من هُوج الرياحِ عزائمًا — ويّدُكُّ من موْج البحار جبالا
ويُضيءُ أثناءَ الخمائل والرُّبَى — حتى تَرى أسحارَها آصالا
ويَجُولُ في زُهْرِ الرياضِ، كأنه — صْيبُ الربيعِ، مشى بهنَّ، وجالا

* * *

أُممَ الهلالِ، مقالةً من صادِقٍ — والصدقُ أليقُ بالرجال مقالا
متلطِّفٍ في النصحِ، غيرِ مُجادِلٍ — والنصحُ أضيعُ ما يكون جدالا
من عادة الإسلامِ يرفعُ عاملا — ويسوِّدُ المِقدامَ، والفَعَّالا
ظلمتْه ألَسنةٌ تؤاخذُه بكم — وظلمتموه مُفرَّطين، كسالى
هذا هلالُكمُ تكفَّلَ بالهُدى — هل تعلمون مع الهلال ضلالا؟
سرَتِ الحضارةُ حقبةً في ضوئه — ومشى الزَّمانُ بنورِه مختالا
وبنى له العربُ الأجاوِدُ دُولة — كالشمس عرشًا، والنجومِ رجالا
رفعوا له فوق السماكِ دعائمًا — من عِلْمِهمْ ومن البيانِ، طوالا
الله جلَّ ثناؤه بلسانهم — خلقَ البيانَ وعلَّم الأمثالا
وتخيَّرَ الأخلاقَ أحسنَهَا لهم — ومكارِمُ الأخلاقِ منه تعالى
كالرُّسِل عَزْمًا، والملائِك رحمةً — والأُسْدِ بأسًا، والغيوثِ نوالا
عَدلوا، فكانوا الغيثَ وقعًا، كلَّما — ذهبوا يمينًا في الورى، وشمالا
والعدلُ في الدُّولاتِ أسٌّ ثابتٌ — يُفني الزمانَ، ويُنفِد الأجيال
أيامَ كان الناسُ في جَهلاتهم — مثلَ البهائمِ، أُرْسِلت إرسالا
من جهلِهم بالدين والدنيا معًا — عبدوا الأصمَّ، وألَّهوا التمثالا
ضلُّوا عقولا بعد عرفانِ الهدى — والعقلُ إن هو ضلَّ كان عِقالا[٦]

حتى إذا انقسموا تقوَّضَ ملكهم والملكُ إن بطلَ التعاونُ زالا
لو أن أبطالَ الحروب تفرَّقوا غلب الجبان على القَنا الأبطالا

هوامش

(١) تزلُّفه: أي تقرُّبه.
(٢) الندُّ: النظير. والآل: الأهل.
(٣) جارة بيته: هي الزهرة التي تلازمه ًدائما. وبيته، هو الهالة التي تحيط به.
(٤) السراة: السائرون ليلاً.
(٥) السرُّ المذال: الذي لايكتم.
(٦) العقال: في الأصل يُشدُّ به البعير، وهنا بمعنى القيد.

يا شباب الديار[1]

غالِ في قيمةِ ابن بُطْرُسَ غالي ... علم الله ليس في الحقِّ غالي[1]
نحتفي بالأديب، والحقُّ يقضي ... وجـلالُ الأخـلاق والأعـمـال
أدبُ الأكـثـريـن قـولٌ، وهـذا ... أدبٌ فـي الـنـفـوس والأفـعـال
يُظهرُ المدحُ روْنَقَ الرجلِ الما ... جِدِ، كالسيفِ يزدهي بالصّقال[2]
رُبَّ مدحٍ أذاع في الناس فضلا ... وأتـاهـم بـقُـدوةٍ ومِـثـال
وثـنـاءٍ عـلـى فـتـى عـمَّ قـومًا ... قيمةُ العِقْدِ حُسنُ بعضِ اللآلي
إنـمـا يـقـدُرُ الـكـرامَ كـريـمٌ ... ويـقـيـمُ الـرجـالُ وزنَ الـرجـال[3]
وإذا عـظَّـمَ الـبـلادَ بَـنـوهـا ... أنـزلـتـهـم مـنـازلَ الإجـلال
توَّجتْ هامَهم كما توَّجوها ... بـكـريـم مـن الـثـنـاءِ وغـالـي
إنما (واصفٌ) بناءٌ من الأخـ ... ـلاق، في دولةِ المشارق عالي
ونـجـيـبٌ، مـهـذَّبٌ، مـن نـجـيـبٍ ... هـذَّبـتْـه تـجـاربُ الأحـوال
واهبُ المالِ والشبابِ لما يَنـ ... ـفع، لا للهوى، ولا للضلال

---

[1] قيلت هذه القصيدة في تكريم واصف غالي باشا سنة ١٩٠٦ (واصف غالي بك يومئذ) ولعلها كانت أوَّل دعوة إلى اتحاد عنصريْ هذه الأمة الكريمين، ولعل صاحب الديوان كان يتكشف له الغيب، فيرى خيال هذا الاتحاد، ويدعو إليه، والناس عنه عمون. وحديث المؤتمرين ما زال يومئذ ملء الأفواه والأسماع، ولقد شاء الله أن يستجيب دعاءه، وأن يربط بين الأخوين برباط مقدس، كان لصاحب الديوان فضل الخيط الأول في نسيجه.

ومذيقُ العقول في الغرب مما عَصَرَ العُرْبُ في السنينَ الخوالي
في كتابٍ حوى المحاسنَ في الشـّ ـعر، وأَوعى جوائزَ الأمثال[٤]
من صفاتٍ، كأنها العينُ صدقًا في أداءِ الوجوه والأشكال
ونسيب، تحاذِرُ الغِيدُ منه شَرَك الحُسنِ أو شباكَ الدلال
ونظامٍ، كأنه فَلَكُ الليـ ـلِ إذا لاحَ وهو بالزَّهر حالي
وبيانٍ، كما تجلَّى على الرُّسْـ ـل تجلَّى على رعاةِ الضال[٥]
ما علِمنا لغيرهم من لسان زال أهلوه، وهْو في إقبال
بلِيتْ هاشمٌ، وبادتْ نزارٌ واللسانُ المبينُ ليس ببالي
كلَّما همَّ مجدُه بزوالٍ قام فحلٌ، فحالَ دون الزَّوال

***

يا بني مصرَ، لم أَقلْ أمَّةَ الـ ـقبطِ، فهذا تشبُّثٌ بمحال
واحتيالٌ على خيال من المجـ ـدِ، ودعوى من العِراض الطوال
إنما نحنُ مسلمينَ وقبطًا أمةٌ وُحِّدَتْ على الأجيال
سبق النيلُ بالأبوَّةِ فينا فهو أصلٌ، وآدمُ الجدُّ تالي
نحن من طينِه الكريم على اللهِ ومن مائِه القَراح الزُّلال[٦]
مَرَّ ما مَرَّ من قرونٍ علينا رُسَّفًا في القيود والإغلال
وانقضى الدَّهر، بينَ زَغْردةِ العر سِ، وحَثْوِ التراب، والإعوال
ما تَحلَّى بكم يسوعُ، ولا كُنَّا لِطَه ودينِه بجَمال
وتُضاعُ البلادُ بالنومِ عنها وتضاعُ الأمورُ بالإهمال
يا شبابَ الديار، مصرُ إليكم ولواءُ العرين للأشبال
كلَّما رُوِّعت بشبهةِ بأْسٍ جعلتكم معاقِلَ الآمال
هَيِّئوها لما يليقُ بمنفٍ وكريمِ الآثارِ، والأطلال
وانهضوا نهضةَ الشعوبِ لِدُنيا وحياةٍ كبيرةِ الأشغال
وإلى اللهِ مَنْ مشى بصليبٍ في يديهِ، ومَنْ مشى بهلال

هوامش

(١) غالِ في المدح: بالغ فيه. وغالي (الثانية) إمَّا أن يراد بها الأمر، أو يراد بها اسم والد المكرَّم المرحوم بطرس باشا غالي.

(٢) صقل السيف صقالاً: جلاَّه.

(٣) قدَّره: عظَّمه.

(٤) يشير إلى كتاب فرنسي ألَّفه واصف باشا وكان موضع تكريمه.

(٥) الضال: نوع من الشجر، والمراد: رعاة ما يأكل الضال من الحيوان، أي رعاة الإبل.

(٦) الماء القراح: الصافي.

نهج البردة

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلَمِ
أَحَلَّ سفْكَ دمي في الأشهر الحُرُم[١]
رمِي القضاءُ بعْيني جُؤذَر أسدًا
يا ساكنَ القاعِ، أدرِكْ ساكن الأجم[٢]
لمَّا رَنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا وَيْحَ جنبِكَ، بالسهم المُصيب رُمِي[٣]
جحدتها، وكتمت السهمَ في كبدي
جُرْحُ الأحبه عندي غيرُ ذي ألم[٤]
رُزِقتَ أسمح ما في الناس من خُلق
إذا رُزقتَ التماس العذْر في الشيَّم[٥]
يا لائمي في هواه — والهوى قدَرٌ —
لو شفَّك الوجدُ لم تَعِذل ولم تلم[٦]
لقد أنلْتُك أذْنًا غير واعيةٍ
ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ في صَمم[٧]
يا ناعس الطرفِ، لا ذقْتَ الهوى أبدًا
أسهرْتَ مُضناك في حفظِ الهوى، فنم[٨]
أفديك إلفًا، ولا آلو الخيالَ فِدًى
أغراك بالبخل مَنْ أغراه بالكرم[٩]

سَرى، فصادف جُرحًا داميًا، فأسا
ورُبَّ فضلٍ على العشاقِ للحُلُم[١٠]
مَن الموائسُ بانًا بالرُّبى وَقَنا
اللاعباتُ بُروحي، السافحات دِمي؟[١١]
السافِراتُ كأمثالِ البُدور ضُحًى
يُغِرْنَ شمسَ الضُّحى بالحَلْى والعِصَم[١٢]
القاتلاتُ بأجفانٍ بها سَقَمٌ
وللمنيةِ أسبابٌ من السّقم
العاثراتُ بألبابِ الرجال، وما
أُقِلنَ من عثراتِ الدَّلِّ في الرسَم[١٣]
المضرماتُ خُدودًا، أسفرت، وَجَلتْ
عن فِتنة، تُسلِمُ الأكبادَ للضرَم[١٤]
الحاملاتُ لواءَ الحسنِ مختلفًا
أشكالُه، وهو فردٌ غير منقسمِ[١٥]
من كلَّ بيضاء أو سمراءَ زُيَّنتا
للعينِ، والحُسنُ في الآرامِ كالعُصُم[١٦]
يُرَعْنَ للبصر السامي، ومن عجبٍ
إذا أشَرن أسرن الليثَ بالغَنم[١٧]
وضعتُ خدَّ، وقسَّمتُ الفؤادَ رُبًى
يرتَعنَ في كُنُسٍ منه وفي أكم[١٨]
يا بنت ذي اللَّبَدِ المحميَّ جانِبُه
ألقاكِ في الغاب، أم ألقاكِ في الأطُم؟[١٩]
ما كنتُ أعلم حتى عنَّ مسكنُه
أن المُنى والمنايا مضرِبُ الخِيم[٢٠]
مَنْ أنبتَ الغصنَ مِنْ صَمصامةٍ ذكرٍ؟
وأخرج الريمَ مِن ضِرغامة قرِم؟[٢١]
بيني وبينِكِ من سُمْرِ القَنا حُجُب
ومثُلها عِفَّةٌ عُذرِيةُ العِصَم[٢٢]

لم أغش مغناكِ إلا في غضونِ كِرًى
مَغناك أبعدُ للمشتاقِ من إرَم[٢٣]
يا نفسُ، دنياكِ تُخْفي كلَّ مُبكيةٍ
وإن بدا لكِ منها حُسنُ مُبتسَم[٢٤]
فُضَّي بتقواكِ فاهًا كلَّما ضَحكتْ
كما يُفضُّ أذَى الرقشاءِ بالثَّرَم[٢٥]
مخطوبةٌ — منذُ كان الناسُ — خاطبَةٌ
كم أوَّلِ الدهر لم تُرْمِل، ولم تَئم[٢٦]
يَفنى الزَّمانُ، ويبقى من إساءَتِها
جرْحٌ بآدم يَبكي منه في الأدم[٢٧]
لا تحفلي بجناها، أو جنايتها
الموتُ بالزَّهْر مثلُ الموت بالفَحَم[٢٨]
كم نائمٍ لا يَراها، وهي ساهرةٌ
لولا الأمانُّي والأحلامُ لم ينم[٢٩]
طورًا تمدُّك في نُعْمَى وعافيةٍ
وتارةً في قَرار البؤس والوَصَم[٣٠]
كم ضلَّلتكَ، وَمَن تُحْجَبْ بصيرتُه
إن يلقَ صابًا يَردِ، أو عَلْقمًا يَسُم[٣١]
يا ويلتاهُ لنفسي! راعَها ودَها
مُسْوَدَّةُ الصُّحْفِ في مُبْيَضَّةِ اللّمَم[٣٢]
ركَضْتها في مَريع المعصياتِ، وما
أخذتُ من حِمْيَةِ الطاعات للتُّخَم[٣٣]
هامت على أثَرِ اللَّذاتِ تطلبُها
والنفس إن يَدْعُها داعي الصِّبا تَهم[٣٤]
صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مرجعُه
فقوِّم النفسَ بالأخلاقِ تستقم

والنفسُ من خيرِها في خيرِ عافيةٍ
والنفسُ من شرِّها في مَرْتَعٍ وَخِمِ[٣٥]
تطغى إذا مُكِّنَتْ من لذَّةٍ وهوًى
طَغْيَ الجيادِ إذا عَضَّت على الشُّكُمِ[٣٦]
إنْ جَلَّ ذَنبي عن الغُفران لي أملٌ
في اللهِ يجعلني في خيرِ مُعتصَمِ[٣٧]
ألقي رجائي إذا عزَّ المُجيرُ على
مُفرَّجِ الكرب في الدارينِ والغمَمِ[٣٨]
إذا خفضتُ جَناحَ الذُّلَّ أسأله
عِزَّ الشفاعِة، لم أسأل سوى أَمَمِ[٣٩]
وإن تقدَّم ذو تقوى بصالحةٍ
قدَّمتُ بين يديه عَبْرَةَ الندَمِ[٤٠]
لزِمتُ بابَ أمير الأنبياءِ، ومَنْ
يُمْسِكْ بمِفتاح باب الله يغتنِمِ[٤١]
فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارفٍة
ما بين مستلم منه ومُلتزمِ[٤٢]
علقتُ من مدحِه حبلاً أعزُّ به
في يوم لا عِزَّ بالأنسابِ واللُّحَمِ[٤٣]
يُزرِي قّرِيضِي زُهَيْرًا حين أمدحُه
ولا يقاسُ إلى جودي لدَى هَرِمِ[٤٤]
محمدٌ صفوةُ الباري، ورحمُته
وبغيَةُ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ[٤٥]
وصاحبُ الحوض يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ
متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمين ظَمي[٤٦]
سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةً
فالجِرمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلَمِ[٤٧]
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوَّتُه
من سؤددٍ باذخ في مظهَرٍ سَنِمِ[٤٨]

نُمُوا إليهن فزادوا في الورى شَرفًا
ورُبَّ أصلٍ لفرع في الفخارِ نُمي[٤٩]
حَوَاه في سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم
نوران قاما مقام الصُّلبِ والرَّحِم[٥٠]
لمَّا رآه بَحيرا قال: نعرِفُه
بما حفظنا من الأسماءِ والسيَّم[٥١]
سائلْ جِراءَ، وروحَ القدس: هل عَلما
مَصونَ سرًّ عن الإدراكِ مُنْكَتِم؟[٥٢]
كم جيئةٍ وذهاب شُرَّفتْ بهما
بَطحاءُ مكة في الإصباح والغَسَم[٥٣]
ووحشةٍ لابنِ عبد الله بينهما
أشهى من الأُنس بالأحباب والحشم[٥٤]
يُسامِر الوحَي فيها قبل مهبِطه
ومَن يبشَّرْ بسِيمَى الخير يَتَّسِم[٥٥]
لمَّا دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظماءٍ
فاضتْ يداه من التسنيم بالسَّنِم[٥٦]
وظلَّلتْه، فصارت تستظلُّ به
غمامةٌ جذَبَتْها خِيرةُ الدِيَم[٥٧]
محبةٌ لرسولِ اللهِ أُشرِبَها
قعائدُ الدَّيْرِ، والرُّهبانُ في القِمم[٥٨]
إنَّ الشمائلَ إن رَقَّتْ يكاد بها
يُغْرَى الجَمادُ، ويُغْرَى كلُّ ذي نَسَم
ونودِيَ: اقرأْ، تعالَى الله قائلُها
لم تتصلْ قبل مَنْ قيلتْ له بفم
هناك أَذَّنَ للرحمنِ، فامتلأت
أسماعُ مكَّةَ مِن قُدسيَّةٍ النَّغم[٥٩]
فلا تسْل عن قريشٍ كيف حَيْرتُها؟
وكيف نُفْرتُها في السهل والعَلم؟[٦٠]

تساءَلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهم
رمَى المشايخَ والولدانَ باللَّمم[٦١]
يا جاهلين على الهادي ودعوتِه
هل تجهلون مكانَ الصادِقِ العَلم؟[٦٢]
لقَّبتموهُ أمينَ القومِ في صِغرٍ
وما الأمينُ على قوْلٍ بمتَّهَم
فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ، فكمْ
بالخُلْق والخَلق مِن حسْنٍ ومِن عِظم
جاءَ النبيون بالآيات، فانصرمت
وجئتنا بحكيمٍ غير مُنصَرم[٦٣]
آياتُه كلَّما طالَ المدَى جُدُدٌ
يَزِينُهنّ جلالُ العتِق والقِدم[٦٤]
يكاد في لفظةٍ منه مشرَّفةٍ
يوصِيك بالحق، والتقوى، وبالرحم
يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
حديثُك الشَّهدُ عند الذائقِ الفَهِم
حَلَّيتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيانِ به
في كلِّ مُنتَثِرٍ في حسن مُنتظِمِ[٦٥]
بكلِّ قولٍ كريمٍ أنت قائلُه
تُحْيي القلوبَ، وتُحْيي ميِّتَ الهِمم
سَرَتْ بشائِرُ بالهادي ومولِده
في الشرق والغرب مَسْرى النور في الظلم
تخطَّفتْ مُهَج الطاغين من عربٍ
وطيَّرت أنفُسَ الباغين من عجم[٦٦]
رِيعت لها شُرَفُ الإيوان، فانصدعت
من صدمة الحق، لا من صدمة القُدم[٦٧]

أتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بهم
إلاَّ على صَنم، قد هام في صنم
والأرض مملوءةٌ جورًا، مُسَخَّرَةٌ
لكلِّ طاغيةٍ في الخَلْق مُحتكمِ
مُسَيْطِرُ الفْرسِ يبغي في رعيّتِه
وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ
يُعذِّبان عبادَ اللهِ في شُبهٍ
ويذبَحان كما ضحَّيت بالغَنَم
والخلقُ يَفْتِك أقواهم بأضعفِهم
كاللَّيث بالبَهْم، أو كالحوتِ بالبَلَم[٦٨]
أسَرى بك الله ليلاً، إذ ملائكُه
والرُّسْلُ في المسجد الأقصى على قدَم[٦٩]
لمَّا خطرتَ به التفُّوا بسيدهم
كالشُّهْبِ بالبدرِ، أو كالجُند بالعَلم
صلَّى وراءَك منهم كلُّ ذي خطرٍ
ومن يَفُزْ بحبيبِ الله يأتمم[٧٠]
جُبْتَ السماواتِ أو ما فوقهن بهم
على منوَّرةٍ دُرَّيَةِ اللُّجُم[٧١]
رَكوبة لك من عزٍّ ومن شرفٍ
لا في الجيادِ، ولا في الأَيْنُق الرسُم[٧٢]
مَشِيئةُ الخالق الباري، وصنَعتُه
وقدرةُ الله فوق الشك والتُّهَم
حتى بلغتَ سماءً لا يُطارُ لها
على جناحٍ، ولا يُسْعَى على قَدم
وقيل: كلُّ نبيٍّ عند رتبِته
ويا محمدُ، هذا العرشُ فاستلم

خطَطت للدين والدنيا علومَها
يا قارئَ اللوح، بل يا لامِسَ القَلم[٧٣]
أحطْتَ بينهما بالسرِّ، وانكشفتْ
لك الخزائنُ من عِلْم، ومن حِكم[٧٤]
وضاعَفَ القُربُ ما قُلَّدْتَ من مِنَنٍ
بلا عِدادٍ، وما طُوَّقتَ من نِعم[٧٥]
سلْ عصبةَ الشِّركِ حولَ الغارِ سائمةً
لولا مطاردةُ المختار لم تُسم[٧٦]
هل أبصروا الأثر الوضَّاءَ، أم سِمعوا
همْسَ التسابيِح والقرآن من أمَم؟[٧٧]
وهل تمثَّل نسجُ العنكبوتِ لهم
كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ كالرخم؟[٧٨]
فأدبروا، ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم
كباطلٍ من جلالِ الحق منهزِم[٧٩]
لولا يدُ اللهِ بالجارَيْنِ ما سِلما
وعينُه حولَ ركنِ الدين، لم يقم[٨٠]
تواريَا بَجناح اللهِ، واستترَا
ومن يضُمُّ جناحُ الله لا يُضَم[٨١]
يا أحمدَ الخْيرِ، لي جاهٌ بتسْمِيَتي
وكيف لا يتسامى بالرسولِ سِمي؟[٨٢]
المادحون وأربابُ الهوى تَبَعٌ
لصاحبِ البُرْدةِ الفيحاءِ ذي القَدَم[٨٣]
مديحُه فيك حبٌّ خالصٌ وهوًى
وصادقُ الحبَّ يُملي صادقَ الكلم[٨٤]
الله يشهدُ أني لا أعارضُه
من ذا يعارضُ صوبَ العارضِ العَرِم؟[٨٥]
وإنَّما أنا بعض الغابطين، ومَن
يغبِطْ وليَّك لا يُذمَمْ، ولا يُلَم[٨٦]

هذا مقامٌ من الرحمنِ مُقتَبسٌ
تَرمي مَهابتُه سَحْبانَ بالبَكم[٨٧]
البدرُ دونكَ في حسنٍ وفي شرفٍ
والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرم
شُمُّ الجبالِ إذا طاولتَها انخفضت
والأنجُمُ الزُّهرُ ما واسمتَها تسِم[٨٨]
والليثُ دونكَ بأْسًا عند وثبِته
إذا مشيتَ إلى شاكي السلاح كَمِي[٨٩]
تهفو إليكَ — وإن أدميتَ حبَّتَها
في الحربِ — أفئدةُ الأبطالِ والبُهَم[٩٠]
محبَّةُ اللهِ ألقاها، وهيبتُه
على ابن آمنةٍ في كلِّ مُصطَدَم[٩١]
كان وجهَك تحت النَّقْع بدرُ دُجًى
يضيءُ مُلْتَثِمًا، أو غيرَ مُلتِثم[٩٢]
بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغُرَّتُه
كغُرَّةِ النصر، تجلو داجيَ الظلَم[٩٣]
ذُكِرْت باليُتْم في القرآن تكرمةً
وقيمةُ اللؤلؤ المكنونِ في اليُتم[٩٤]
الله قسمَ بين الناسِ رزقَهُمُ
وأنت خُيِّرْتَ في الأرزاق والقِسم[٩٥]
إن قلتَ في الأمر: «لا» أو قلتَ فيه: «نعم»
فخيرَةُ اللهِ في «لا» منك أو «نعم»
أخوك عيسى دَعَا ميْتًا، فقام لهُ
وأنت أحييتَ أجيالاً مِن الزَّمم
والجهْل موتٌ، فإن أوتيتَ مُعْجزةً
فابعثْ من الجهل، أو فابعثْ من الرَّجَم[٩٦]
قالوا: غزَوْتَ، ورسْلُ اللهِ ما بُعثوا
لقتْل نفس، ولا جاءُوا لسفكِ دم

جـهـلٌ، وتـضـلـيـلُ أحـلامٍ، وسـفـسـطـةٌ
فـتـحـتَ بـالـسـيـفِ بـعـد الـفـتـح بـالـقـلـم
لـمَّـا أتـى لـكَ عـفـوًا كـلُّ ذي حَـسَـبٍ
تـكـفَّـلَ الـسـيـفُ بـالـجُـهَّـالِ والـعَـمَـم[٩٧]
والـشـرُّ إن تَـلْـقَـهُ بـالـخـيـرِ ضِـقـتَ بـه
ذَرْعًـا، وإن تَـلْـقَـهُ بـالـشـرَّ يَـنـحـسِـم
سَـل الـمـسـيـحـيَّـةَ الـغـرَّاءَ: كـم شِـربـت
بـالـصَّـاب مـن شَـهـوات الـظـالـم الـغَـلِـم[٩٨]
طـريـدةُ الـشـركِ، يـؤذيـهـا، ويـوسـعُـهـا
فـي كـلِّ حـيـنٍ قـتـالاً سـاطـعَ الـحَـدَم[٩٩]
لـولا حُـمـاةٌ لـهـا هـبُّـوا لـنـصـرَتِـهـا
بالسيف، ما انتفعتْ بالرفق والرُّحَم[١٠٠]
لـولا مـكـانٌ لـعـيـسـى عـنـد مُـرسِـلِـه
وحُـرمَـةٌ وجـبـتْ لـلـروح فـي الـقِـدَم[١٠١]
لـسُـمَّـرَ الـبـدَنُ الـطُّـهـرُ الـشـريـفُ عـلـى
لَـوْحَـيْـن، لـم يـخـشَ مـؤذيـه، ولـم يَـجِـم[١٠٢]
جـلَّ الـمـسـيـحُ، وذاقَ الـصَّـلـبَ شـانِـئـهُ
إن الـعـقـابَ بـقـدرِ الـذنـبِ والـجُـرُم[١٠٣]
أخُـو الـنـبـي، وروحُ الـلـهِ فـي نُـزل
فـوقَ الـسـمـاءِ ودون الـعـرشِ مُـحـتـرَم[١٠٤]
عـلَّـمْـتَـهـم كـلَّ شـيءٍ يـجـهـلـون بـه
حـتـى الـقـتـالَ ومـا فـيـه مـن الـذِّمَـم[١٠٥]
دعـوتَـهـم لِـجِـهـادٍ فـيـه سـؤددُهُـمْ
والـحـربُ أسُّ نـظـامِ الـكـونِ والأمـم
لـولاه لـم نـر لـلـدولاتِ فـي زمـن
مـا طـالَ مـن عـمـد، أو قـرَّ مـن دُهُـم[١٠٦]
تـلـك الـشـواهِـدُ تَـتْـرى كـلَّ آونـةٍ
في الأعصُر الغُرَّ، لا في الأعصُر الدُّهُم[١٠٧]

بالأمس مالت عروشٌ، واعتلت سُرُرٌ
لولا القذائفُ لم تثْلَمْ، ولم تصم[١٠٨]
أشياعُ عيسى أعَدُّوا كلَّ قاصمةٍ
ولم نُعِدّ سِوى حالاتِ مُنقصِم[١٠٩]
مهما دُعِيتَ إلى الهْيجَاء قمت لها
ترمي بأسْدٍ، ويرمي اللهُ بالرُّجُم[١١٠]
على لِوَائِكَ منهم كلُّ مُنتقِم
لله، مُستقِتلٍ في اللهِ، مُعتزِم[١١١]
مُسبَّحٍ للقاءِ اللهِ، مُضطرِمٍ
شوقًا، على سابحٍ كالبرقِ مضطرِم[١١٢]
لو صادفَ الدهرَ يَبغِي نقلةً، فرمى
بعزمِه في رحالِ الدَّهرِ لم يَرم[١١٣]
بيضٌ، مَفاليلُ من فعلِ الحروبِ بهم
من أسْيُفِ الله، لا الهندِية الخُذُم[١١٤]
كم في الترابِ إذا فتَّشت عن رجلٍ
مَنْ ماتَ بالعهدِ، أو مَنْ مات بالقسَم[١١٥]
لولا مواهبُ في بعضِ الأنام لما
تفاوت الناسُ في الأقدار والقِيَم[١١٦]
شريعةٌ لك فجَّرت العقول بها
عن زاخرٍ بصنوفِ العلم ملتطمِ
يلوحُ حولَ سنا التوحيدِ جوهُرها
كالحلْي للسيف أو كالوشْي للعَلم[١١٧]
غرَّاءُ. حامت عليها أنفسٌ، ونُهىً
ومَنْ يَجدْ سَلسَلاً من حكمةٍ يَحُم[١١٨]
نورُ السبيل يساس العالَمون بها
تكفَّلتْ بشباب الدَّهرِ والهَرَم[١١٩]
يجري الزمَانُ وأحكامُ الزمانُ على
حُكم لها. نافذٍ في الخلق، مُرْتَسِم

لمَّا اعتلت دولةُ الإسلامِ واتَّسَعت
مشتْ ممالِكَهُ في نورِها التَّمم[١٢٠]
وعلَّمتْ أمةً بالقفر نازلةً
رعْيَ القياصرِ بعد الشَّاءِ والنَّعَم
كم شّيَّد المصِلحُون العاملون بها
في الشرق والغرب مُلكًا باذِخَ العِظَم
للعِلم. والعدلِ. والتمدين ما عزموا
من الأمور، وما شدُّوا من الحُزُم[١٢١]
سرعان ما فتحوا الدنيا لِملَّتهم
وأنهلوا الناسَ من سَلسالها الشَّبِم[١٢٢]
ساروا عليها هُداةَ الناس، فَهْي بهم
إلى الفلاحِ طريقٌ واضحُ العَظَم[١٢٣]
لا يهدِمُ الدَّهُر رُكنًا شاد عدلُهُمُ
وحائط البغي إن تلمسْهُ ينهدِم
نالوا السعادةَ في الدَّارين، واجتمعوا
على عميم من الرضوان مقتسم
دعْ عنك روما، وآثينا، وما حَوَتا
كلُّ اليواقيت في بغدادَ والتُّوَم[١٢٤]
وخلِّ كِسرى، وإيوانًا يدلُّ به
هوى على أثّرِ النيران والأيُم[١٢٥]
واتْرُكْ رعمسيسَ، إن الملكَ مَظهرُه
في نهضة العدل، لا في نهضة الهَرم[١٢٦]
دارُ الشرائع روما كلَّما ذُكِرَتْ
دارُ السلام لها ألقتْ يدَ السَّلَم[١٢٧]
ما ضارَعَتها بيانًا عند مُلْتَأَم
ولا حكَتها قضاءً عند مُختصَم[١٢٨]
ولا احتوت في طِرازٍ من قياصرها
على رشيدٍ، ومأمونٍ، ومُعتصِم[١٢٩]

من الذين إذا سارت كتائبُهم
تصرَّفوا بحدود الأرض والتُخم[١٣٠]
ويجلسونَ إلى علمٍ ومَعرفةٍ
فلا يُدانُوْن في عقل ولا فَهَم
يُطأْطئ العلماءُ الهامَ إن نَبَسوا
من هيبةِ العلْم، لا من هيبة الحُكُم
ويمُطِرون، فما بالأرضِ من مَحَلٍ
ولا بمَنْ بات فوق الأرضِ من عُدُم[١٣١]
خلائفُ الله جلُّوا عن موازنةٍ
فلا تقيسنّ أملاك الورى بهم[١٣٢]
مَنْ في البرية كالفاروق مَعْدَلَةً؟
وكابن عبد العزيز الخاشعِ الحشم؟[١٣٣]
وكالإمام إذا ما فَضَّ مزدحمًا
بمدمع في مآقي القوم مزدحم[١٣٤]
الزاخر العذْب في علْم وفي أدبٍ
والناصر النَّدْب في حرب وفي سلم؟[١٣٥]
أو كابن عفّانَ والقرآنُ في يِدهِ
يحنو عليه كما تحنو على الفُطُم[١٣٦]
ويجمع الآي ترتيبًا وينظمُها
عقدًا بجيد الليالي غير منفصِم[١٣٧]
جُرحان في كبدِ الإسلام ما التأما
جُرْحُ الشهيد، وجرحٌ بالكتاب دمي[١٣٨]
وما بلاءُ أبي بكر بمتَّهم
بعد الجلائل في الأفعال والخِدم
بالحزم والعزم حاطَ الدِّين في محنٍ
أضلَّت الحلم من كهلٍ ومحتلم[١٣٩]
وحِدْنَ بالراشد الفاروق عن رشدٍ
في الموت، وهو يقينٌ غير منبَهم[١٤٠]

يــجــادِلُ الــقــومَ مُــسْــتَــلاًّ مــهــنَّــدَه
في أعظم الرسْلِ قدرًا، كيف لم يدم؟
لا تــعــذلــوه إذا طــاف الــذهــولُ بــه
مات الحبيبُ، فضلَّ الصَّبُّ عن رَغَم

***

يا ربَّ صَلَّ وسلِّم ما أردتَ على
نزيل عرشِك خيرِ الرسْل كلِّهم
مُحيي الليالي صلاةٌ، لا يقطِّعُها
إلاَّ بدمعٍ من الإشفاق مُنسجم
مسبِّحًا لك جُنْحَ الليل، محتملاً
ضُرًّا من السُّهد، أو ضُرًّا من الورَم
رضيَّة نفسُه، لا تشتكي سأمًا
وما مع الحبَّ إن أخلصت مِن سَأم
وصلِّ ربِّي على آلٍ لهُ نُخَبٍ
جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرم[١٤١]
بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهر ذو حَلَكٍ
شُمُّ الأنوف، وأنفُ الحادثات حمي[١٤٢]
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منك أربعةً
في الصحب، صُحبتُهم مَرْعِيَّةُ الحُرَم
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم
ما هال من جَلَلٍ، واشتدَّ من عَمَم[١٤٣]
الصابرين ونفسُ الأرضِ واجفةً
الضاحكين إلى الأخطار والقُحَم[١٤٤]
يا ربِّ، هبَّتْ شعوبٌ من منيّتها
واستيقظت أمَمٌ من رقْدة العدم
سعدٌ، ونحسٌ، ومُلكٌ أنت مالِكه
تُديلُ مِنْ نِعَمٍ فيه، ومِنْ نِقَم

رأى قـضـاؤك فـيـنـا رأيَ حـكـمِـتـه
أكـرِمْ بـوجـهـك مـن قـاضٍ ومـنـتـقـم
فـالـطُـفْ لأجلِ رسـولِ الـعـالـمـين بـنـا
ولا تـزدْ قـومَـه خـسـفًـا، ولا تُـسـم
يـا ربِّ. أحـسـنـت بَـدءَ الـمـسـلـمـين بـه
فتمَّم الفضلَ. وامنحْ حُسنَ مُخْتَتَم[١٤٥]

هوامش

(١) الرئم (بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء): الظبي الخالص البياض. والقاع: الأرض السهلة المطمئنة. والبان: جمع بانة، ضرب من الشجر. والعلم: الجبل. والأشهر الحرم: أربعة، ثلاثة متتابعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، وكانت العرب لا تستحلُّ فيها القتال، وفي الشطر الثاني طباق بين قوله «أحلَّ» وقوله «الحرم»، ولا يذهب عن القارئ ما في البيت من براعة الاستهلال.

(٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والأجم: جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد، يريد بالجؤذر: المحبوبة التي شبهها في البيت السابق «بالريم» تشبيهًا لها بالجؤذر في جمال عينيه واتساعهما. ويريد «بالأسد»: نفسه. وفي الشطر الثاني يستغيث بالمقتول للقاتل — لا منه — ويستنجد للأسد بالغزال، وهو بديع.

(٣) رنا: أدام النظر مع سكون الطرف. ويا ويح: كلمة تقال لِمَنْ وقع في الشدَّة والمكروه، يستنجد له بالرأفة والرحمة مما وقع فيه.

(٤) جحدتها: الجحود هو الإنكار مع العلم.

(٥) الشيم: جمع شيمة وهي الخلق والطبيعة.

(٦) شفَّه الوجد: أهزله وانحل جسمه.

(٧) انتصت: سكت سكوت مستمع. وفي الشطر الثاني من البيت طباق بين قوله: «منتصت»، وقوله: «في صمم».

(٨) الناعس: الوسنان. والطرف (بالفتح): العين. والمضنى: الذي أثقله المرض. ومضناك: الذي أضنيته بما لحقه من الوله عليك. وفي الشطر الثاني طباق بين قوله: «أسهرت»، وقوله: «فنم».

(٩) الألو: هنا بمعنى المنع والتقصير. وأغراه بالشيء: زيَّنه له وحرضه عليه.

(١٠) السرى: المشي في الليل. وأسا الجرح يأسوه: داواه.

(١١) الموائس: جمع مائسة وهي المتبخترة. والبان: ضرب من الشجر، واحدتها: بانة، يشبَّه القوام بأغصانها للدونتها. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. وسفح الدم: سفكه وأساله.

(١٢) يقال: سفرت المرأة: أي كشفت عن وجهها. والحلي: ما تزيَّن به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة. والعصم: القلائد، جمع عصمة كعنب وعنبة.

(١٣) العثرة: الزلة والسقطة. وأقاله من عثرته: أنهضه منها. والدلُّ: قريب المعنى من الهدى، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. والرسم: حسن المشي.

(١٤) الضرم: اشتعال النار.

(١٥) اللواء: العلَم، وحمل لواء الحسن: كناية عن نهاية الحسن فيه.

(١٦) العصم: جمع أعصم، الذي فيه العصمة (بالضم)، وهي بياض اليدين، والعصماء من المعز: البيضاء الذراعين وسائرها أسود أو أحمر، وحرَّك الصاد إتباعًا لحركة العين قبلها.

(١٧) يرعن: يخفن. والعنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبَّه بها البنان المخضوبة. وفي البيت جناس بين قوله: «أشرن»، وقوله: «أسرن».

(١٨) وضع الخد: هنا كناية عن الخضوع والاستسلام. والكنس (بضمتين): جمع كناس وهو مستقرُّ الظباء في الشجر. والأكم: جمع أكمة وهي الموضع يكون أشدُّ ارتفاعًا مما حوله.

(١٩) اللبد: جمع لبدة وهي الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. والغاب: جمع غابة وهي الشجر المتكاثف. والأطم: القصر، وكل حصن مبني بالحجارة.

(٢٠) عنَّ الشيء: بان وظهر. والمنايا: جمع المنيَّة وهي الموت. يريد بـ «المنى»: محبوبته أو لقائها، وبـ «المنايا» أباها أو لقاءه، مبالغة. ومضرب الخيم: المكان الذي تضرب فيه وتقام؛ أي حيث تنزل تلك المحبوبة في جوار أبيها. وفي البيت جناس.

(٢١) الصمصامة: السيف. والضرغامة: الأسد. والقرم: شديد الشهوة إلى اللحم، وهنا كناية عن شدَّة البأس والافتراس. وأراد بـ «الغصن» و «الريم» معشوقته، وبـ «الصمصامة» و«الضرغامة» أباها. يتعجب كيف يولد لمثل هذا الرجل، الشبيه بالسيف في صلابته ومضائه، مثل هذه المعشوقة، التي هي كالغصن في اللدونة ولطف التثني؟! وأيضًا كيف يكون لِمَنْ يشبه الأسد في قوته وسطوته وبأسه، مثل هذه التي تشبه الغزال في رقته وضعفه؟!

(٢٢) العفة العذرية: نسبة لقبيلة بني عذرة، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف. والعصم: جمع عصمة وهي المنع والحفظ.

(٢٣) غشي المكان: وافاه. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله. والكرى: النوم. وإرم: هي إرم ذات العماد. التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

(٢٤) المبتسم: بمعنى المصدر أي الابتسام، ويجوز أن يراد به الموضع أي الثغر، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف.

(٢٥) الرقشاء من الحيَّات: المنقَّطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سمُّها. والثرم: كسر السن من أصلها.

(٢٦) أرملت المرأة: إذا مات عنها زوجها. وآمت المرأة تئيم، والأيم: التي لا زوج لها، سواءً أكانت بكرًا أم كان لها زوج فقدته.

(٢٧) الأدم: الجلد، يقول: مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا، فإن إساءتها ما تنتهي، حتى أن آدم (عليه السلام) لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان. وفي البيت جناس بين آدم والأدم.

(٢٨) الجنى: ما يُجْتَنَى من الشجرة ويُقْطَفُ من ثمرها.

(٢٩) يريد بالنائم: المغترُّ بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها.

(٣٠) الوصم (بالتحريك): الألم والمرض، يقال: وصمته الحمى فتوصم أي آلمته فتألم.

(٣١) الصاب: جمع صابة وهو شجر مرٌّ، والعلقم، والحنظل. ويسم: من سام يسوم أي رعى يرعى.

(٣٢) دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة وهي الشعر يجاوز شحمة الأذن. مسودَّة الصحف: كناية عن العمل السيئ. ومبيضة اللمم: الشيب، والإضافة فيها من إضافة الصفة للموصوف.

(٣٣) ركضتها: أصل الركض تحريك الرِّجل، ويقال: ركضت الفرس برجلي إذا استحثثته ليعدو، والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها في طريق غوايتها، وفيه تشبيه النفس بالسائمة تشبيهًا مضمرًا في النفس على سبيل الاستعارة المكنيَّة. والمريع: الخصيب. ومريع المعصيات: من إضافة المشبه به للمشبه، أي المعصيات التي هي شبيهة بالمرعى المريع تستطيبه الدابة؛ ففيه تشبيه ضمني لَمَنْ يرسل نفسه في المعاصي بالبهيم الذي يستطيب المرعى ويسترسل فيه. وحمية الطاعات: كذلك من إضافة المشبه به للمشبه، أي الطاعات التي شبيهة بالحمية، وفيها أيضًا تشبيه ضمني لَمَنْ يتعفف عن مساورة المعاصي بمَنْ يمسك نفسه أن ينال ما يهيضه من ألوان الطعام.. والتخم: جمع تخمة، قيل: هي فساد الطعام بالمعدة، وقيل: فساد المعدة بالطعام. وقوله «التخم» أي للتحرُّز عن التخم.

(٣٤) هامت الناقة على وجهها: ذهبت ترعى. وداعي الصبا: اللهو والشباب.

(٣٥) المرتع: من رتعت الماشية ترتع رتوعًا أي أكلت ما شاءت. والمرتع: موضع الرتوع. والوخم: الرديء الوبي.

(٣٦) الشكم: جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في لجام الفرس.

(٣٧) عصمة الله العبد: حفظه مما يوبقه ويهلكه، والمعتصم: الموضع منها، أو بمعنى المصدر أي الاعتصام.

(٣٨) الغمم: جمع غمة وهي الهمُّ والحزن. والمجير: هنا بمعنى المنقذ. إذا عزَّ المجير: أي يوم القيامة. ومفرج الكرب في الدارين: هو الرسول الأمين صلوات الله وتسليماته عليه؛ لأنه أخرج في الدنيا من ظلمة الغواية إلى نور الهداية، وهو في الآخرة صاحب الشفاعة العظمى.

(٣٩) الأمم: اليسير. وخفض جناح الذلِّ: كناية عن شدَّة التواضع والانكسار.

(٤٠) العبرة: تحلب الدمع.

(٤١) أمير الأنبياء: هو محمد ﷺ. ولزوم بابه: كناية عن الالتجاء إلى كرمه، وعدم الانحراف عن التوسُّل به في قضاء الطلبات.

(٤٢) العارفة: المعروف.

(٤٣) اللحم: جمع لحمة وهي القرابة.

(٤٤) يزري: يعيب. والقريض: الشعر. وزهير: هو زهير بن أبي سلمى المزني، كان سيدًا، غنيًا في الجاهلية، معروفًا بالحلم والحكمة، شاعرًا فحلاً. وهرم (بكسر

الراء): هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المُرِّي، مدح زهير هرمًا فأحسن، ووصله هرم فأجزل الصلة وبالغ في العطاء.

(٤٥) النسم: جمع نسمة وهي النفس، أو هي الإنسان

(٤٦) وجبريل الأمين ظمي: الملائكة لا تظمأ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب أي للناس، بمعنى أن حاله تقتضي ذلك إشفاقًا على حالها، لِمَا يرهقهم من شدَّة الظمأ وحرج الموقف.

(٤٧) سناؤه: رفعته. وسناه: نوره. والعلم: هنا بمعنى العالم.

(٤٨) السؤدد: السيادة. والباذخ: العالي. والسنم (ككتف). المرتفع. وأبوَّته: أي ذوو أبوَّته، والأبوة: المعنى المأخوذ من الأب كالأخوَّة والبنوَّة.

(٤٩) نموا: نسبوا.

(٥٠) السبحات (بضمتين): مواضع السجود. سبحات وجه الله: أنواره.

(٥١) السيم: كعلب، جمع سيمة وهي العلامة. وبحيرا (بفتح الباء وكسر الحاء): الراهب النصراني المشهور.

(٥٢) حراء: جبل بمكة فيه غار كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ قبل الرسالة. وروح القدس: جبريل (عليه السلام)، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف، أي الروح القدس، والقدس: الطهر. ومصون سرٍّ: من إضافة الصفة للموصوف أي السرُّ المصون. وقوله «منكتم»: وصف مؤكد للسرِّ المصون، لأن السرَّ لا يكون إلا كذلك: وتنكير «سرُّ» للتعظيم.

(٥٣) البطحاء: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. والغسم: الإمساء وظلمة الليل. الإصباح والغسم: أي من كل مرة كان يطلب فيها النبي ﷺ حراء لا كل صباح وكل غسم، فإنه ﷺ كان يتزوَّد، فيقيم في حراء الليالي والأيام.

(٥٤) ابن عبد الله: هو النبي ﷺ. والحشم: الخدم الخاصون بمولاهم. والوحشة: الخلوة والهمُّ، والمراد بها هنا مجرَّد الخلوة والانقطاع عن الناس.

(٥٥) مهبطه: هنا بمعنى هبوطه

(٥٦) التسنيم: ماء بالجنة يجري فوق الغرف، وسنم الإناء تسنيمًا: فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء. والأحاديث الواردة في نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة.

(٥٧) الديم: جمع ديمة وهي المطر الدَّائم.

(٥٨) القعائد: جمع قعيدة، وقعائد الدين: ملازموه من متنسكة النصارى. والقمم: جمع قمة وهي أعلى الرأس من كل شيء، والمراد بها هنا أعالي الجبل.

(٥٩) أذن للرحمن: أي دعا إلى الله. وقوله «من قدسية النغم»: ترشيح لتشبيه الدعاء إلى الله تعالى بالصوت الجميل. وقدسية النغم: النغم المطهَّرة المنزَّهة عن تطريب الغناء بتكبير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات.

(٦٠) فلا تسل: يعني أن الأمر واضح غني عن السؤال، يقال عند ظهور الأمر ووضوحه: لا تسأل. العلم: الجبل.

(٦١) ألمَّ: نزل. واللمم (محرَّكة): الجنون، والمعنى أنه قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذي نزل بهم، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من البأس والمنعة يزعجهم عما كان يعبد آباؤهم — وهم سادات قريش وجباهها — ويأخذهم عما ألفوا من عاداتهم وأخلاقهم المغروزة فيهم، دهشوا لهذا واستعظموه، حتى جُنَّ منه شيبهم وشبابهم.

(٦٢) العلم: الظاهر المشتهر. والجاهلون على الهادي: المتعنتون، والاستفهام في قوله «هل تجهلون»: استنكاري.

(٦٣) انصرمت: انقطعت. منصرم: منقطع. الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم في مواضع منه.

(٦٤) جدد: جمع جديد كسرر وسرير.

(٦٥) يقال: عطلت المرأة عطلاً إذا لم يكن عليها حلي.

(٦٦) مهج: جمع مهجة وهي دمُّ القلب.

(٦٧) ريعت: ذُعِرَت وخافت. وشُرَف: جمع شرفة وهي ما يوضع على القصور ونحوها. والقدم: جمع قدوم، روي أن شُرَفَ الإيوان — وهو مأوى سلطان الأكاسرة — ارتجَّت وهوت ليلة مولده ﷺ، لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القدم، بل تداعت من صدمة الحق.

(٦٨) البهم: جمع بهمة وهي ولد الضأن والمعز. والبلم: صغار السمك.

(٦٩) المسجد الأقصى: بيت المقدس. وعلى قدم: قائمون محتشدون.

(٧٠) ذي خطر: ذي قدرة ومنزلة. ويأتمم: أي يأتم، والأصل: ومَنْ يأتم بحبيب الله يفز، ولكنه قلب للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز.

(٧١) بهم: أي بملابسة بعضهم فيها، فإنه ورد أنه مر ببعضهم في السموات لا كما هو المتبادر من قوله إنهم صاحبوه حين جاب السموات. ويريد بقوله «منورة درية اللجم»: البراق.

(٧٢) «من» في قوله «من عز ومن شرف»: للتعليل، أي لأجل عزك وشرفك. والأينق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها، حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها آثار ظاهرة. والرسم: واحدها رسوم. والجياد: جمع جواد وهو الفرس الرائع البين الجودة.

(٧٣) خطه علوم الدين والدنيا: كناية عن تعليمها الناس وبثها فيهم. وقراءة اللوح ولمس القلم: كناية عن اطلاع الله له على ما أطلعة عليه من الغيوب.

(٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنه انه ﷺ قال: «علمنى ربي ليلة الإسراء علوما شتى: علم أخذ على كتمانه، وعلم خيرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه»

(٧٥) يجوز أن يكون «القرب» فاعلا لـ «ضاعف»، و«ما» وما بعدها مفعولا به، والمعنى أن قربه من الله تعالى قد أربى على جميع ما وليه ﷺ من النعم التي لا يدركها العد، فكانت بإضافة القرب غليها أضعاف ما كانت قبله، ويجوز أن يكون مفعولا، والفاعل «ما» وما بعدها، والمعنى أن ما تجلى الله تعالى عليه به من النعم التي لا تعد وأولاه من الفضائل التي لا تحصى قد زاد قربه، لأنه قرب على قرب، والأول أولى.

(٧٦) عصبة الشرك: أي عصبة من أهل الشرك الذين ذهبوا يطلبونه ﷺ يوم هجرته. والغار: كالثقب بجبل أسفل مكة. سائمة: راعية.

(٧٧) مَنْ أمم: مَنْ قرب.

(٧٨) الغاب: الشجر الكثير المتكاثف. والحائمات الزُّغب: الحمام. والرخم: جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط السواد والبياض.

(٧٩) شبَّه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بدمغ الباطل وإدحاضه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلي، واللاعن: مَنْ فيها من المسلمين والملائكة، أو المراد وجوه أهلها أي أعيانهم وأفاضلهم.

(٨٠) الجاران: الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق (رضى الله عنه). والمراد باليد: النعمة. وعينه: عنايته، وحرف الشرط مقدَّر في الجملة الثانية.

(٨١) جناح الله: لطفه وستره. ويضم: يلحق به الضيم.

(٨٢) من أسمائه ﷺ أحمد، وقد سُمِّي الشاعر به تيمنًا باسم الرسول الأكرم. ويتسامى: يتعالى، والاستفهام في البيت إنكاري.

(٨٣) تبع: أخبر بالمصدر مبالغة، وأفرده لأنه يستوي فيه الواحد والجمع، أو على تقدير مضاف، أي ذوو تبع، أي مقتدون به. والقدم: التقدُّم والمنزلة. وصاحب البردة: هو الإمام البوصيري.

(٨٤) مديحة حب: أي ناشئ من الحب، أو ذو حب أي دال عليه.

(٨٥) الصوب: الانصباب، ومجيء السماء بالمطر. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والعرم: يريد المطر الشديد.

(٨٦) الغابط: الذي يتمنى مثل ما للغير، وليس هذا القدر بمذموم. ويذمم: يذم.

(٨٧) البكم: الخرس. وسحبان: هو سحبان وائل من بني باهلة، كان يُضْرَبُ بفصاحته المثل.

(٨٨) يقال: واسمه في الحسن فوسمه أي غلبه فيه. انخفاض الجبال: كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه.

(٨٩) الكمي: لابس السلاح.

(٩٠) تهفو هفا الظبي في المشي يهفو هفوًا وهفوانًا: أسرع وخفَّ فيه، والمراد هنا شدَّة ميل القلوب له وانجذابها إليه ﷺ. وحبَّة القلب: سويداؤه. والمبهم: جمع بهمة وهو الشجاع.

(٩١) مصطدم: بمعنى المصدر أي الاصطدام، أو الموضع أي موضع الاصطدام وهو ميدان الحرب.

(٩٢) النقع: غبار الحرب.

(٩٣) بدر: موضع بين الحرمين الشريفين، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمغ الله فيها الشرك وأعزَّ الإسلام.

(٩٤) اليتم في الناس: فقدان الأب، وهو في الأشياء: التفرُّد وعدم وجود نظائر لها. واللؤلؤة اليتيمة: التي لا نظير لها في العقد. ذُكِرت باليتم في القرآن: يشير إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، وحرَّك التاء إتباعًا لحركة الياء قبلها في قوله «اليتم»، ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل.

(٩٥) روى الترمذى عنه ﷺ أنه قال: «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا».

(٩٦) والجهل موت: كالترشيح للاستعارة في البيت السابق، وهو تشبيه بليغ. وأوتيت: خطاب لغير معين. والرجم: القبر.

(٩٧) العمم: اسم جمع للعامة.

(٩٨) الغلم: الهائج الثائر.

(٩٩) الحدم (بالتحريك): شدَّة احتراق النار.

(١٠٠) الرُّحم: ٱلرقة والمغفرة والتعطُّف. لم يكن استعمال القوة في إقامة الدعوة للدين شأن الدين الإسلامي وحده، وهذه الديانة المسيحية الموصوفة بديانة الرهبنة والسلام. لم تبدأ الدعوة إليها حتى أصاب أهلها ما أصابهم، من الطرد والقتل والتعذيب والتشريد والتمثيل، بأيدي الجبابرة الطغاة من الملوك والقياصرة، بل بأيدي الشعوب والأمم، وتاريخ المسيحية بين أهل رومية مما تشيب له الولدان، فترى الدين المسيحي دين الرهبنة والسلام ما دخل البلاد إلا على رءوس الأسنة، ولا حُمِلَ إلى الأمم إلا على متون السيوف.

(١٠١) المكان: المكانة بمعنى القرب وارتفاع المنزلة؛ لأن الله تعالى منزَّه عن المكان والجهة. ووجبت: ثبتت له من القدم؛ لأن الله تعالى علم الأشياء وأرادها أزلاً فصارت واجبة، بمعنى أنها لم تتخلف أبدًا، والخير محذوف في قوله «مكان» و«حرمة»: أي ثابتان.

(١٠٢) لسمر: جواب الشرط في البيت السابق. والطهر: الطاهر من أدران المعاصي، ووصف بالمصدر مبالغة. واللوحان: الصليب الذي أُعُدَّ له (عليه السلام). والمراد بالتسمير الصلب. لم يجم: لم يفزع.

(١٠٣) جلَّ المسيح: تنزَّه عما رماه به اليهود من كاذب التُّهم وباطل الأقاويل، وعما زعموا من أنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وشانئه: مبغضه. وحرَّك الراء في قوله «والجرم» إتباعًا لحركة الجيم قبلها.

(١٠٤) أخو النبي: أي في الرسالة. روح الله: أي روح منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ وسُمِّي روحًا لإحيائه الموتى بإذن الله، ولأنه نفخة من جبريل، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، ونسبة النفخ إلى الله تعالى مجاز، و«من» في الآية للابتداء. فوق السماء:

أي السماء الدُّنيا. محترم: صفة لقول «نزل» بضمتين، وهو في الأصل المنزل، وما هيئ للضيف أن ينزل عليه.

(١٠٥) الذمم: جمع ذمَّة، وهي العهد والأمان، والحق.

(١٠٦) عمد: جمع عمود. وقرَّ: ثبت ودعم، جمع دعام وهو عماد البيت، والدعم هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك، ويرتفع به شأن الأمم.

(١٠٧) الغرُّ: جمع أغرَّ: صفة لذي الغرَّة، وهي بياض في الجبهة، والأعصر الغرُّ: التي ساد فيها العلم وعمَّت أسباب العدل. الدُّهم: المظلمة التي شاع في أهلها الجهل وفشا فيهم الظلم.

ما زالت الغلبة للقوة، ولا زالت معتمد الدول ومستند الأمم، في رفع عماد الملك، وتثبيت دعامة الحكم، استوت في ذلك الأزمان السالفة التي يظنونها أزمان تأخر وتقهقر، والأيام الحاضرة التي يزعمونها أيام تقدُّم وتنوُّر. وفي البيت الطباق.

(١٠٨) اعتلت: علت.

(١٠٩) قاصمة: كاسرة: ومنقصم: منكسر. في هذا البيت مقارنة بين أهل الديانة المسيحية، وأهل الديانة الإسلامية، فذكر أن المتشيعين اليوم إلى الدين المسيحي «دين الهدوء والسلام» هم أهل القوة الحربية، الدائبون على إعداد المهلكات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا، ولم يبقَ لهم من شغل يشغلهم، إلا استخراج الذهب من بطون الأرض، وإنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتنوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يدمدموا على الناس، ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم، حتى قاموا على تسخير الرياح، ليرموهم من فوق رءوسهم بكل دهياء، على حين أن أهل الديانة الإسلامية، الذين يتهمهم الظالمون بحبِّ الفتح والجهاد ويشينون سمعتهم بحبِّ الطعن والجلاد، والولوع في دماء العباد، هم القوم أهل السكينة والسلام، وهيهات أن يدانوا أهل الديانة المسيحية في حبِّ الفتوح والحروب، أو يشاكلوهم في ادخار آلات الحرب واستعداد معدات الكفاح.

(١١٠) الهيجاء: الحرب. الرجم: النجوم التي يرمي بها. رجع إلى خطابه ﷺ وشبَّه أصحابه بالأسود؛ لما لهم من شجاعتهم وبأسهم. ورميه بهم: كناية عن ندبه إيَّاهم للجهاد، وتقديمهم إلى مواطن الطعن والجلاد. والرمي بالرَّجم يكون للشياطين؛ ففيه استعارة مكنية، أي أنهم كالشياطين يرمون بالرَّجم.

(١١١) على لوائك: أي منضوٍ تحت لوائك. استعارة العلو للتحتية استعارة تمليحية.

(١١٢) الاضطرام: توقُّد النار وتأججها. سابح: جواد، شبَّه حميَّتهم ونشاطهم في الحرب وجولاتهم فيها باضطرام النار: وهو توقُّدها، وتأججها، وأخذها يمينًا وشمالاً، واستعار الاضطرام لذلك المعنى، ثم اشتق منه مضطرم، على سبيل التبعية.

(١١٣) يبغى: يريد. وشبه العزم بالسهم، بجامع المضاء والنفوذ في كل وشبه الدهر بذى رحال، بجامع التحول في كل، وحذف المشبه به، ورمز إليه بلازمه — وهو الرحال — على طريقة الاستعارة المكنية — لم يرم: لم ينتقل ولم يتحول.

(١١٤) مفاليل: الفل الثلم في السيف. والهندية: نسبة إلى الهند كانت مشتهرة بطبع السيوف. والخذم: جمع خذم، ككتف السيف القاطع. بيض: أي سيوف بيض. شبههم بالسيوف لإزهاقهم نفوس الأعداء وهو تشبيه بليغ. ومفاليل ترشيح للتشبيه بالسيوف.

(١١٥) بالعهد: أي احتفاظا بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرته للرسول. من: تفصيل الحال الرجل، أو تفصيل لمعنى «كم».

(١١٦) أشار في هذا البيت إلى أن ما ناله أصحاب الرسول ﷺ، من الفوز بالسعادة، وارتفاع الدرجة عند الله تعالى، إنما كان بما تقدم لهم من الفضائل، والبلاء في نصرة الدين، وتعرضهم للقتل والطعن في سبيل الله تعالى، ولولا ذلك ما كان لهم فضل على سائر الناس، ولا عدت درجتهم منزلة غيرهم من العالمين.

(١١٧) الوشى: النقش.

(١١٨) حامت: عطفت ومالت. ونهى: جمع نهية وهي العقل. والسلسل: الماء العذب.

(١١٩) نور السبيل: لأنها يهتدى بها إلى غاية النجاح والفلاح في الدنيا، والفوز والسعادة في الآخرة. وشباب الدهر والهرم: كناية عن أوَّله وآخره، أو عن حالتي إقباله وإدباره. وتكفُّلها بشباب الدهر.. إلخ: أي تكفُّلها بما يعلي أهلها، ويصلح من شأنهم على كل حال من الأحوال، بلا تغيير في أحكامها ولا تبديل لنصوصها.

(١٢٠) التمم: التام.

(١٢١) الحزم: جمع حزام.

(١٢٢) سرعان: اسم فعل، يستعمل خبرًا محضًا، وخبرًا فيه معنى التعجُّب يقال: سرعان ما فعل كذا: أي ما أسرعه. والنهل: أوَّل الشرب، تقول: أنهلت الإبل إذا شربت من أوَّل الورد. والسلسال: الماء العذب. والشيم: البارد.

(١٢٣) ساروا عليها: أخذوا بها وجروا على أحكامها. هداة الناس: أي حالة كونهم هادين للناس. فهي: أي الملة بهم: أي بسبب قيامهم بها ونشرهم لها.

(١٢٤) روما: هي المدينة المعروفة الآن بهذا الاسم، قاعدة لمملكة إيطاليا، وكانت في الزمن السابق قاعدة لمملكة الرومان المشهورة. وأثينا: قاعدة مملكة اليونان الآن، وكانت من أكبر مدن الأمَّة اليونانية في العصور السابقة. وبغداد: قاعدة الخلافة الإسلامية في دولة بني العباس، والتوم: جمع تومة، وهي الحبَّة من الفضَّة تُعْمَلُ على شكل الدرَّة.

(١٢٥) كسرى: لقب لكل مَنْ يلي ملك فارس. والنيران: لعله يريد بها نيران فارس، التي خبت ليلة مولد النبي ﷺ، وكان ذلك أيام كسرى أنوشروان. والأيم: الدخان.

(١٢٦) الهرم: الأهرام في مصر كثيرة وأشهرها أهرام الجيزة الثلاثة. وأكبرها أشهرها وأعجبها، حتى إذا ذُكِرَ لفظ الهرم صُرِفَ إليه، و رعمسيس اسم بعض الفراعنة «ملوك مصر القدماء»، وقد تسمَّى بهذا الاسم غير واحد منهم، ولعل الشاعر يريد أولئك الفراعين — على الجملة — الذين ينتسب مجدهم إلى مثل هذا العمل الخطير، وإن كان باني الهرم ليس رعمسيس بعينه.

(١٢٧) دار السلام: بغداد. والسلم: التسليم.

(١٢٨) ملتأم: مجتمع. مختصم: بمعنى المصدر: أي اختصام. كما اشتهرت (روما) بقضائها وقوانينها قد اشتهرت بخطبائها وشعرائها، وكان من عادة الرومانيين أنهم إذا نزل بهم الأمر العظيم، نفروا إلى بعض أماكنهم العامة، فخطبهم الخطباء، وأنشدهم الشعراء، الذين كان لفصاحة ألسنتهم في الناس تأثير عجيب، ومع هذا فما دانوا في قضائهم شأو بغداد، التي كان يُقْضَى فيها بدين الله، وهو أجلُّ من أن يقاس به غيره، ويوازن به ما سواه، ولا بلغوا في فصاحتهم شأن فصحاء الدولة العباسية، الذين قالوا في كل باب، فهزُّوا النفوس وخلبوا الألباب.

(١٢٩) الطراز: علم الثوب، والجيد من كل شئ. ولا احتوت على رشيد. إلخ، أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم. ورشيد: هو هارون الرشيد. ومأمون:

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور. ومعتصم: هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون.

(١٣٠) الكتائب: جمع كتيبة. وهي الجيش. والتخم، كعنق: جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود.

(١٣١) المحل: الجدب. والعدم: فقدان المال.

(١٣٢) خلائف الله: هذا قول مستأنف عام لجميع الخلفاء المتقدِّمين والمتأخرين وذكر الخلفاء الراشدين بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتمامًا بشأنهم، وورعه، وتشبه بهم، واقتدائه في عبد العزيز (رضى الله عنه)، لشدَّة فضله وورعه، وتشبُّهه بهم. واقتدائه في حكومته بحكومتهم، فكان حقيقًا أن يذكر فيهم، ويلحق بهم.

(١٣٣) المعدلة: العدل.

(١٣٤) الإمام: هو الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. ومآقي العيون: أطرافها مما يلي الأنوف، وهي مجاري الدمع.

(١٣٥) يقال: رجل ندب، أي خفيف في الحاجة سريع ظريف نجيب.

(١٣٦) بن عفان: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه). والفطم: جمع فطيم، وهو الصبى المفصول عن الرضاع.

(١٣٧) وجرح بالكتاب دمي: أي وجرح دمي به الكتاب، وقلب للمبالغة. وذلك أن قتلة عثمان (رضى الله عنه) دخلوا عليه الدار، وخبطوه بالسيوف وهو صائم والمصحف في حجره، وهو يقرأ فيه؛ فوقع المصحف من يده وسال الدمُّ عليه.

(١٣٨) يشير إلى حروب الردَّة بعد وفاة النبي ﷺ، وانتصاره على المرتدِّين.

(١٣٩) يقول: ما ظنك بتلك المحن التي تنحرف بعمر (رضى الله عنه) عن الرشد وله ما تعلم من كمال الرشد، ووفور العقل، وصدق اليقين، وتذهله عن إدراك أمر من أظهر البديهيات لديه، هو أن يدرك الموت رسول الله ﷺ.

(١٤٠) وذلك أنه لمَّا قُبِضَ رسول الله ﷺ، وقال الناس: مات رسول الله، أسرع عمر إلى سيفه وتوعَّد مَنْ يقول ذلك، وقال إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلمَّا حضر ابو بكر، وأُخْبِرَ الخبر، كشف عن وجه رسول الله ﷺ، ثم أكبَّ عليه، فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجعل الله عليك موتتين، أمَّا الموتة التي كتبت عليك فقد متها، ثم خرج إلى الناس، وقال: ألا مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت.

(١٤١) النخب: جمع نخب. وهو الرجل المختار.

(١٤٢) الحلك (محرَّكة): شدة السواد. والشمم في الأنف: ارتفاع القصبة وحسنها، وهو هنا كناية عن الحميَّة وشرف النفس. وأنف الحادثات حمي: كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر.

(١٤٣) هاله الأمر هولاً: أفزعه. والجلل، هنا: الأمر العظيم. والعمم: التام العام من كل أمر، يقال: أمر عمم، أي تام عام.

(١٤٤) القحم: جمع قحمة بالضم، ومن معانيها، الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد، وهو المراد هنا.

(١٤٥) لا يخفى ما في (حسن مختتم) من حسن الختام.

خاتمة رياض[1]

كبيرَ السابقين من الكرام ... برغمي أن أنالكَ بالملام[1]
مقامُك فوق ما زعموا. ولكن ... رأيتُ الحقَّ فوقك والمقام[2]
لقد وجدوكَ مفتونًا. فقالوا ... خرجت من الوقار والاحتشام[3]
وقال البعضُ: كيدُكَ غيرُ خافٍ ... وقالوا: رميةٌ من غير رام[4]
وقيل: شططْتَ في الكفران، حتى ... أردتَ المُنْعِمين بالانتقام[5]
غمرتَ القومَ إطراءً، وحمدًا ... وهم غمروك بالنِّعم الجِسام[6]
رأوا بالأمس أنفَك في الثريا ... فكيف اليوم أصبح في الرَّغام؟[7]
أما والله ما علموك إلا ... صغيرًا في ولائك، والخصام
إذا ما لم تكن للقول أهلاً ... فما لك في المواقف والكلام؟
خطبتَ. فكنتَ خَطْبًا — لا خطيبًا — ... أضيفَ إلى مصائبنا العِظام
لَهِجْتَ بالاحتلال وما أتاه ... وجُرحُك منه — لو أحْسَسْتَ — دامي[8]
وما أغناهُ عمَنْ قال فيه ... وما أغناك عن هذا الترامي[9]
أحبَّتك البلادُ طويلَ دهرٍ ... وذا ثمنُ الولاءِ والاحترام
حَقَرْتَ لها زمامًا كنتَ فيه ... لَعُوبًا بالحكومة والذمام[10]
محاسنُه غِراسُك والمساوي ... لك الثمرانِ: من حمدٍ، وذام[11]

[1] قيلت بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ يونيو سنة ١٩٠٤.

فـهـلاًّ قـلـت لـلـشـبـان قـولاً ... يـلـيقُ بـحـافـل الـمـاضـي الـهـمـام؟
يَـبُـثُّ تـجـاربَ الأيـامِ فـيـهـم ... ويـدعـو الـرابـضـيـن إلـى الـقِـيـام[١٢]
خـطـبتَ على الـشـبيبةِ غـيرَ دارٍ ... بـأنَّـكَ مـن مَـشـيـبـك فـي مـنـام
ولـولا أن لـلأوطـان حـبًّـا ... يُـصِـمُّ عـن الـوِشـايـة كـالـغـرام
جـنيتَ على قلوبِ الـجمع يأسًا ... كـأنـكَ بـيـنـهـم داعـي الـحِـمـام[١٣]
أراعَـكَ مـقـتـلٌ مـن مـصـرَ بـاقٍ ... فقمت تزيدُ سهمًا في السهام؟[١٤]
وهـل تـركتْ لك السـبـعـون عقلاً ... لـعـرفـانِ الـحـلالِ مـن الـحـرام؟
ألا أنـبـيـك عـن زمـنٍ تـولَّـى ... فـتـذكـرَه ودمـعُـكَ فـي انـسـجـام؟[١٥]
سـل «الـحـلـمـيـةَ» الـفـيـحـاءَ عـنـه ... وسـل دارًا عـلـى «نـور الـظـلام»[١٦]
وسـل مَـنْ كـان حـولـك عـبـدَ جـاهٍ ... يُـريـكَ الـحـبَّ، أو بـاغـي حُـطـام[١٧]
رأوا إرثًـا سـيـذهـب بـعـد حـيـنٍ ... فـكـانـوا عُـصْـبـةً فـي الاقـتـسـام
ونـالـوا الـسـمـعَ مـن أذُنٍ كـريـمٍ ... فـنـالـوا مـنـه أنـواعَ الـمـرام[١٨]
هُـم حـزبٌ، وسـائـرُ مـصـرَ حـزبٌ ... وأنـت أصـمُّ عـن داعـي الـوئـام[١٩]
وكـيـف يـنـالُ عـونَ الـلـهِ قـومٌ ... سـراتُـهُـمُ عـوامـلُ الانـقـسـام[٢٠]
إذا الأحـلامُ فـي قـومٍ تـولَّـتْ ... أتـى الـكـبـراءُ أفـعـالَ الـطَّـغـام[٢١]
فـيـا تـلـك الـلـيـالـي، لا تَـعـودي ... ويـا زمـنَ الـنـفـاقِ، بـلا سـلام[٢٢]
أحـبُّـكِ مـصْـرُ، مـن أعـمـاقِ قـلـبـي ... وحـبُّـكِ فـي صـمـيـم الـقـلـبِ نـامِـي[٢٣]
سـيـجـمـعُـنـي بـكِ الـتـاريـخُ يـومًـا ... إذا ظـهـر الـكـرامُ عـلـى الـلـئـام[٢٤]
لأجـلـكِ رحـتُ بـالـدنـيـا شـقـيًّـا ... أصـدُّ الـوجـهَ، والـدنـيـا أمـامـي
وأنـظـرُ جَـنَّـةً جـمـعـتْ ذِئـابًـا ... فـيـصـرُفُـنـي الإبـاءُ عـن الـزحـام[٢٥]
وهـبـتُـكِ — غـيـرَ هـيـابٍ — يَـراعًـا ... أشـدَّ عـلـى الـعـدوِّ مـن الـحـسـام[٢٦]
سـيـكـتـبُ عـنـكِ فـوقَ ثَـرَى ريـاضٍ ... وفـي الـتـاريـخ صـفـحـة الاتـهـام
أفـي الـسـبـعـيـن، والـدنـيـا تـولَّـت ... ولا يُـرْجَـى سـوى حـسـنِ الـخـتـام
تكون — وأنت أنت رياض مصرٍ — ... عـرابـي الـيـوم فـي نـظـر الأنـام؟

هوامش

(١) الخطاب في هذا البيت لمصطفى رياض باشا، وكان قد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية، التي أنشأتها في الأسكندرية جمعية العروة الوثقى

سنة ١٩٠٤، وكان اللورد كرومر عميد الدولة المحتلَّة حاضرًا هذا الافتتاح؛ فتملَّقه الخطيب بكلام، كقربه نعمة مصر وأصحاب عرشها.

(٢) رأيت الحق فوقك والمقام: أي وفوق مقامك.

(٣) الوقار: الرزانة. والحلم والاحتشام: الاستحياء.

(٤) الكيد: المكر والخبث وإرادة ضرر الغير خفيَّة. ورميَّة من غير رام: يريد أنه لم يقصد الكيد بما قاله، وأصل المثل: رُبَّ رمية من غير رام، وهو يقال لِمَنْ يصيب في أمر وعادته أن يخطئ.

(٥) شططت: أفرطت.

(٦) غمرت القوم، من قولهم: غمرت فلانًا بالمعروف والفضل، أي بالغت في الإحسان إليه.

(٧) الثريا: سبعة كواكب في عنق البرج المعروف بالثور. والرَّغام (بفتح الراء): التراب.

(٨) لهجت بالاحتلال، من قولهم: لهج بالشيء، إذا أغري به فثابر عليه. والدامي: الذي يسيل دمه.

(٩) وما أغناه.. إلخ: أي ما أغنى الاحتلال عنك، وما أغناك من أن تترامى على أصحابه بمثل ما قلت.

(١٠) حقرت (بفتح القاف مخففة): استصغرت. الزمام (بالزاي): ملاك الأمر. والذمام (بالذال): الحقُّ والحرمة.

(١١) محاسنه: الضمير للزمام أي أنت الذي غرست ما لهذا الزمام من المحاسن والمساوئ، فلك ما يثمر من حمدٍ وذمٍ.

(١٢) يبثُّ: ينشر ويذيع. والتجارب: جمع تجربة، وهي اختبار الشيء مرَّة بعد مرَّة والرابضين: جمع رابض، وهو مَنْ يأوي إلى المكان فلا يفارقه.

(١٣) يقول: لولا أن الذين سمعوك يحبُّون بلادهم حبًا يمنعهم من القعود عن العمل لإنقاذها من الاحتلال، لأصابهم اليأس والقنوط بسبب كلامك.

(١٤) أراعك: أي أأفزعك. والمقتل: العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم. يقول: هل أفزعك أن رأيت بعض مقاتل مصر سليمة لم تصب فزدت سهمًا ليصيبها.

(١٥) أنبيك: أخبرك. والانسجام: سيلان الدمع.

(١٦) الحلمية: حيٌّ من أحياء القاهرة. ونور الظلام: اسم شارع بهذا الحي فيه دار رياض.

(١٧) الباغي: الطالب. والحطام: المال، قلَّ أو كثر.

(١٨) رجل أذن (بضم الذال): إذا كان يسمع مقال كل أحد ويقبله.

(١٩) الوئام: الوفاق.

(٢٠) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف السخي.

(٢١) الأحلام: العقول. والطغام (بفتح الطاء): أوغاد الناس.

(٢٢) بلا سلام: أي اذهب بلا سلام.

(٢٣) في صميم القلب: أي في القلب. والصميم: الخالص من الشيء.

(٢٤) إذا ظهر الكرام على اللئام: أي إذا غلبوهم.

(٢٥) الإباء: الكبر والنخوة.

(٢٦) اليراع: القلم. والحسام: السيف.

ضجيج الحجيج[1]

ضجَّ الحجازُ، وضجَّ البيتُ والحرمُ
واستصرخت ربَّها في مكَّةَ الأمُم[1]
قد مسَّها في حماك الضُّر، فاقض لها
خليفةَ الله، أنتَ السيدُ الحكم
لك الربوعُ التي رِيع الحجيجُ بها
أللشريفِ عليها أم لكَ العلم؟[2]
أُهِينَ فيها ضيوفُ الله. واضطهِدوا
إن أنت لم تنتقم فالله مُنتقم
أفي الضُّحَى — وعيونُ الجند ناظرةٌ —
تُسبَى النساءُ. ويُؤذَى الأهلُ والحشم؟
ويُسفك الدمُ في أرضٍ مقدّسةٍ
وتستباحُ بها الأعراضُ والحُرَم؟[3]
يدُ الشريف على أيدي الولاةِ علتْ
ونَعْلُه — دونَ رُكْن البيتِ — تُستَلم[4]
«نيرونُ» إن قيس في باب الطُّغاةِ به
مبالغٌ فيه. و«الحجاجُ» مُتَّهَم[5]

[1] رُفِعَت إلى السلطان عبد الحميد استصراخًا من الشريف وأعوانه في ١٤ إبريل سنة ١٩٠٤.

أدِّبْهُ أدِّبْ — أميرَ المؤمنين — فما
في العفو عن فاسق فضلٌ ولا كرم
لا ترجُ فيه وقارًا للرسول. فما
بين البُغاة وبين المصطفى رَحِم[٦]
ابنُ الرّسولِ فتًى فيه شمائلُه
وفيه نخوتُه، والعهد، والشمَم[٧]
ما كان طه لرهطِ الفاسقين أبًا
آل النبي بأعلام الهدى خُتِموا[٨]
خليفةَ الله. شكوى المسلمين رقَت
لسُدَّةِ الله هل ترقى لك «الكلم»[٩]
الحجُّ ركنٌ من الإسلام نُكْبِره
واليومَ يوشك هذا الركنُ ينهدم[١٠]
من الشريف ومن أعوانِه فعلت
نُعمى الزيادة ما لا تفعل النقم
عزَّ السبيلُ إلى طه وتربِته
فمَنْ أراد سبيلا فالطريقُ دم[١١]
محمدٌ رُوِّعت في القبر أعظمُه
وبات مستأمنًا في قومه الصنم[١٢]
وخان «عونُ الرفيقُ» العهدَ في بلدٍ
منه العهودُ أتتْ للناس والذمم[١٣]
قد سال بالدم مِن ذِبْحٍ ومن بَشَرٍ
وأحمرَّ فيه الحمى والأشهرُ الحرم[١٤]
وفُزِّعَتِ في الخدورِ الساعياتُ له
الداعياتُ وقرب اللهِ مُغتنَم[١٥]
آبتْ ثكالَى أيامَى بعدما أخذَتْ
مِنْ حَوْلِهنّ النَّوَى والأيْنُقُ الرَّسُم[١٦]
حُرِمْنَ أنوارَ خيرِ الخلقِ من كثبِ
فدمعُهنَّ من الحرمان منسجم[١٧]

أيُّ الصغائرِ في الإسلام فاشية
تودَى بأيسرها الدولاتُ والأمم[18]
يجيشُ صدري، ولا يجري بها قلمي
ولو جرى لبكى واستضحك القلم[19]
أغضَيْتُ ضنًّا بعرضي أن أَلمَّ به
وقد يروق العمى للحرِّ والصمم[20]
موَّه على الناسِ، أو غالطهمُ عبثًا
فليس تكتمهم ما ليس ينكتم[21]
من الزيادةِ في البلوى وإن عَظُمتْ
أن يعلم الشامتون اليومَ ما علموا
كلُّ الجراح بآلامٍ، فما لمستْ
يدُ العدوّ فثمَّ الجُرحُ والألم
والموتُ أهونُ منها وهي داميةٌ
إذا أساها لسانٌ للعدِى وفم

***

ربَّ الجزيرةِ، أدرِكْها، فقد عَبثَتْ
بها الذئابُ، وضلَّ الراعيَ الغنم[22]
إن الذين تولُّوْا أمرَها ظلموا
والظْلمُ تصحبُه الأهوالُ والظُّلَم[23]
في كلَّ يومٍ قتالٌ تقشعرُّ له
وفتنةٌ في ربوع اللهِ تضطرم[24]
أزرى الشريفُ وأحزابُ الشريف بها
وقسَّموها كإرثِ الميْتِ، وانقسموا[25]
لا تجزهم عنك حلمًا، وأجزهم عَنَتًا
في الحلم ما يسمُ الأفعالَ أو يَصِم[26]
كفى الجزيرةَ ما جرُّوا لها سفهًا
وما يحاولُ من أطرافِها العجم[27]

تلك الثغورُ عليها — وهي زينتُها —
مناهلٌ عَذُبت للقوم، فآزدحموا[٢٨]
في كلّ لجٍّ حوالَيْها لهم سفُنٌ
وفوق كل مكان يابسٍ قدم[٢٩]
والاهُمُ أمراءُ السوءِ. واتفقوا
مع العداة عليها، فالعداة هُمُ
فجرِّد السيف في وقتٍ يُفيد به
فإن للسيف يومًا، ثم ينصَرمِ[٣٠]

هوامش

(١) ضجَّ: فزع من شيء خافه فصاح. الربوع: جمع ربع، وهو الدار.

(٢) والحجيج: جمع الحاج.

(٣) الحرم: جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه.

(٤) تستلم: من استلام الحجر وركن البيت الحرام وغيره، وهو لمسه باليد أو بالقبلة.

(٥) نيرون: طاغية روماني قديم. والحجاج: طاغية عربي كان واليًا على العراق لعبد الملك بن مروان أحد الخلفاء الأمويين.

(٦) لا ترجُ: لا تخف، من رجا، بمعنى خاف. والوقار هنا: العظمة. وفي القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾: أي لا تخافون الله عظمة.

(٧) الشمائل: جمع شِمال بكسر الشين وهو الطبع. والنخوة. الحماسة والمروءة. والعهد: الوفاء والأمانة. والشمم: التكبُّر.

(٨) طه: من أسماء النبي ﷺ. والرَّهط: من ثلاثة إلى عشرة. ولا تكون فيهم امرأة.

(٩) رقت: صعدت. والكلم، اسم جنس جمعي لكلمة.

(١٠) نكبره: نعظمه، ويوشك: يقارب.

(١١) عزَّ السبيل، من قولهم عزَّ الشيء، إذا قلَّ فلا يكاد يوجد ولا يقدر عليه.

(١٢) الصنم: صورة أو تمثال يتَّخذ للعبادة، وقيل: هو كل ما عُبِدَ من دون الله.

(١٣) عون الرفيق: اسم الشريف الذي اقترف تلك المظالم. والذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان.

(١٤) الأشهر الحرم، أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب؛ سميت كذلك لأن العرب كانت تجعل القتال فيها حراما: ما عدا بني خثعم وطيء. والضمير في (سال) و(فيه): للبلد في البيت المتقدِّم. واحمرار الحمى والأشهر الحرم: كناية عن اقترافه القتل فيهما.

(١٥) فزعت: خوفت. والخدور: البيوت. والساعيات له: أي لذلك البلد.

(١٦) الثكالى: جمع ثكلى: وهي مَنْ فقدت ولدها، والأيامى: جمع أيم، وهي من لا زوج لها. والنوى: البعد. والأينق: جمع ناقة. والرسم: جمع رسوم، وهي الناقة تؤثر أخفافها في الأرض من شدَّة الوطء.

(١٧) من كثب: أي من قرب. والمنسجم: السائل.

(١٨) الصغائر: جمع صغيرة، وهي من الذنوب أخفُّ من الكبيرة في حكم الشرع. وتودي: تهلك. والدولات جمع دولة.

(١٩) يجيش صدري: يغلي غيظا. استضحك: بمعنى ضحك.

(٢٠) أغضيت: أي صبرت وأمسكت. وضنًا: بخلاً. وألمَّ به: أي بما يؤذيه، من قولهم: ألمَّ بالذنب إذا فعله. ويروق العمى: من راقه الشيء أعجبه.

(٢١) موَّه على الناس: أي زخرف لهم الأخبار وزوَّرها عليهم.

(٢٢) ربُّ الجزيرة: أي صاحب الجزيرة، وهي جزيرة العرب.

(٢٣) الأهوال: جمع هول، وهو المخافة من الأمر لا يعرف الإنسان ما يهجم منه. والظلم: جمع ظلمة.

(٢٤) تضطرم: تشتعل.

(٢٥) أزرى بها: تهاون.

(٢٦) العنت: الشدَّة والهلاك. وما يسم: أي ما يكون سمه وعلامة. وما يصم: أي ما يكون وصمة وعيبًا.

(٢٧) العجم، هنا: أهل الغرب، ممَنْ كانوا يحفدون على الدولة التركية وجودها.

(٢٨) المناهل: جمع منهل، وهو المورد. والمراد بالقوم: أولئك العجم.

(٢٩) اللج: معظم الماء.

(٣٠) جرَّد السيف: سلَّه. وينصرم: يمضي.

استقبال

يا راكبَ الريح، حيَّ النيلَ والهرَما
وعظِّمِ السفَح من سيناءَ، والحرما[١]
وقف على أثرٍ مرَّ الزمانُ به
فكان أثبتَ من أطوادِه قِمما[٢]
واخفض جناحَك في الأرض التي حَمَلَت
موسى رضيعًا، وعيسى الطهر منفطما
وأخرَجَت حكمةَ الأجيالِ
وبيَّنت للعبادِ السيفَ والقلما[٣]
وشُرَّفَت بملوكٍ طالما اتَّخذوا
مطيَّهم من ملوك الأرض والخدما[٤]
هذا فضاءٌ تُلِمُّ الريحُ خاشعةً
به. ويمشي عليه الدَّهرُ محتشما[٥]
فمرحبًا بكما من طالعيْن به
على سوى الطائر الميمونِ ما قدِما[٦]

***

عاد الزمانُ، فأعطى بعدما حَرَما
وتاب في أُذُنِ المحزونِ، فابتسما

فيارَعى اللهُ وفدًا بين أعيننا
ويرحم الله ذاك الوفد ما رَحِما[٧]
هم أقسموا لتَدِينن السماءُ لهم
واليوم قد صدَّقوا في قبرِهم قسما[٨]
والناسُ باني بناءٍ، أو مُتمِّمُه
وثالث يتلافى منه ما انهدَما
تعاونٌ لا يحلُّ الموتُ عُرْوَتَه
ولا يُرَى بيَدِ الأرزاءِ منفصما[٩]

* * *

يا صاحِبىْ (أدرميدٍ)، حسبُها شرفًا
أن الرياحَ إليها ألقت اللُّجما[١٠]
وأنها جاوزتْ في القدس مِنْطَقةً
جرى البساطُ فلم يجتز لها حَرما[١١]
مشت على أفقٍ مرَّ البُراقُ به
فقبَّلتْ أثرًا للخُفِّ مُرتَسِما[١٢]
ومسَّحَت بالمُصلَّى، فاكتست شرفًا
وبالمغار المعلَّى، فاكتست عِظما[١٣]
وكلَّما شاقها حادٍ على أفقٍ
كانت مزاميرُ داودٍ هي النغما[١٤]
جشَّمتماها من الأهوالِ أربعةً
الرعدَ، والبرقَ، والإعصارَ، والظلما[١٥]
حتى حوتها سماءُ النيل فانحدرت
كالنسر أعيا، فوافى الوَكْرَ، فاعتصما[١٦]

* * *

يا آل عثمانَ أبناءَ العمومةِ. هل
تشكون جرحًا ولا نشكو له ألما؟[١٧]

إذا حزنتم حزَنًّا في القلوب لكم
كالأمِّ تحملُ من همٍّ ابنها سَقما
وكم نظرنا بكم نُعمى فجسَّمها
لنا السرورُ، فكانت عندنا نِعما[18]
ونبذل المال لم نُحمَل عليه، كما
يقضي الكريمُ حقوقَ الأهل والذِّمما[19]
صبرًا على الدَّهر إن جلَّت مصائبُه
إن المصائب مما يُوقظُ الأمَما
إذا المقاتلُ من أخلاقِهم سلمتْ
فكلٌّ شيءٍ على آثارها سلما
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن تَوَلَّت مضوْا في إثرِهَا قُدُما[20]
نمتم على كلِّ ثارٍ لا قرار له
وهل ينامُ مُصيبٌ في الشعوبِ دما؟
فنال من سيفكم من كان ساقيَه
كما تنالُ المُدامُ الباسلَ القَدَما[21]
قال العذولُ: خرجنا في مَحَبَّتِكم
من الوقارِ، فيا صدقَ الذي زعما
فما على المرء في الأخلاق من حرج
إذا رعى صِلَةً في الله، أو رَحِمَا
ولو وهبتُم لنا عُليَا سيادِتكم
ما زادنا الفضلُ في إخلاصنا قدما
نحنو عليكم، ولا ننسى لنا وطنًا
ولا سريرًا، ولا تاجًا، ولا عَلما
هذي كرائمُ أشياءِ الشعوب، فإن
ماتت فكلٌّ وجود يشبهُ العدَما

هوامش

(١) السفح: عرض الجبل المضطجع. والحرم: ما لا يحلُّ انتهاكه.

(٢) الأطواد: الجبال. والقمم: واحدتها قمة، وهي أعلى كل شيء.

(٣) الحكمة: صواب الأمر وسداده. والأجيال: جمع جيل، وهم أهل الزمن الواحد. والخالدة: الدائمة الباقية.

(٤) طالما اتَّخذوا مطاياهم وخدمهم من ملوك الأرض، أولئك هم ملوك مصر الأقدمون، حين كانوا يأسرون في حروبهم ملوك الأقطار الأخرى.

(٥) المحتشم: المستحي.

(٦) على الطائر الميمون: مأخوذ من قولهم في الدعاء للمسافر: سر على الطائر الميمون.

(٧) كانت الدولة العليَّة قد ندبت للقيام برحلة جوية بين الآستانة والقاهرة اثنين من ضبَّاطها الطيارين؛ فسقطت طيارتهما في الطريق وماتا، فندبت الدولة غيرهما، فوصلا سالمين وإلى هذا يشير بالوفدين في البيت.

(٨) لتدينن: أي لتخضعن وتذلَّن.

(٩) العروة: كل ما يوثق به. والمنفصم: المنقطع

(١٠) أدرميد: اسم الطيارة التي ركباها إلى مصر.

(١١) القدس: مدينة بيت المقدس في الشام. والبساط: هو بساط سليمان (عليه السلام). وفي التاريخ الديني: أنه كان يتَّخذ مع الريح بساطًا يجريه حيث يشاء.

(١٢) البراق في اللغة الدينية: دابة كان يركبها الأنبياء، وقد ركبها النبي محمد ﷺ ليلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس. والخفُّ: أي خفِّ الرسول ﷺ، ويقال: إن أثره مرتسم هناك.

(١٣) المصلى: مكان الصلاة. والمغار — بفتح الميم وضمها —: الكهف. والمعلَّى: المرفوع.

(١٤) شاقها: هاجها وشوَّقها. والحادي: سائق الإبل الذي يغني لها. ومزامير داود: ما كان يرتله في صلاته من الأناشيد والترانيم.

(١٥) جشَّمتماها: كلَّفتماها. والأهوال: جمع هول، وهو المخافة من أمر لا يُعْرَفُ ما ينجم منه على الإنسان. والإعصار: ريح بتراب بين السماء والأرض، أو تستدير كأنها عامود. و«الظلم»: جمع ظلمة.

(١٦) حوتها: أي حازتها. وانحدرت: هبطت. والنسر طائر من الجوارح وكلها تخافه، وهو حادُّ البصر، وأشدُّ الطيور ارتفاعًا، وأقواها جناحًا. وأعيا: تعب. ووافى

الوكر: أتاه، والوكر: عشُّ الطائر أينما كان في شجر أو في غيره. فاعتصم به: أي لزمه.

(١٧) العمومة. مصدر من العمِّ. كالخؤولة من الخال.

(١٨) النُعمى: ما أنعم به.

(١٩) الذمم: جمع ذمَّة، وهي العهد.

(٢٠) القدم (بضم القاف والدال): أي يمضي الإنسان فلا يعرج على شيء ولا ينثني.

(٢١) المدام: الخمر. والباسل: البطل الشجاع. والقدم (بفتح القاف والدال): الشجاع أيضًا.

أرسطاليس وترجمانه[1]

علَّمتَ بالقلمِ الحكيم　　وهديتَ بالنَّجم الكريم
وأتيتَ من محرابه　　بأرسطاليسَ العظيم
مِلكِ العقول، وإنها　　لنهاية الملْكِ الجسيم
شيخُ ابن رشد، وابن سيـ　　ـنا، وابن بَرقينَ الحكيم[1]
من كان في هَدْي المسيـ　　ـح، وكان في رُشْدِ الكليم
وغدا وراح موحِّدًا　　قبل البَنِيَّةِ والحَطيم[2]
صوت الحقيقة بين رعـ　　ـدِ الجاهلية والهزيم[3]
ما بين عاديةِ السَّوا　　م وبين طُغيان المسيم[4]
يبني الشرائعَ للعصو　　ر بناءَ جبَّارٍ رحيم
ويفِصِّل الأخلاقَ للـ　　أجيال تفصيل اليتيم[5]
في واضح لحْبِ الطريـ　　ـق من المذاهب مستقيم[6]
ورسائلٍ مثلِ السُّلا　　فِ إذا تمشَّت في النديم
قدسيةِ النفحاتِ، تُسـ　　ـكِر بالمذاقِ، وبالشَّميم

* * *

[1] ترجم الأستاذ أحمد لطفي باشا السيد كتاب أرسطاليس في علم الأخلاق إلى العربية؛ فكتب إليه صاحب الديوان هذه التهنئة.

يا لطفِ، أنت هو الصَّدى من ذلك صوت الرخيم
أَرجُ الرياضِ نقلتَه ونسختَه نَسْخَ النسيم
وسريتَ من شِعبِ الألَمْـ ـبِ به إلى وادي الصَّريم[٧]
فتجارتِ اللغتان للـ ـغايات في الحَسِب الصميم
لغةٌ من الإغريق قيِّـ ـمةٌ، وأُخرى من تميم
وأتيتَنا بمُفَصَّلٍ بالتبر، عُلويَّ الرَّقيم
هو ضِنةُ المُثرِي من الـ ـأخلاق، أو مالُ العديم[٨]

***

مَشَّاءَ هذا العصرِ، قف حدَّث عن العُصُر القديم[٩]
مَثِّلْ لنا اليونان بيـ ـنَ العلم والخُلق القويم
أخلاقها نورُ السبيـ ـلِ، وعِلْمها نورُ الأديم
وشبابُها يتعلمو ن على الفراقد والنجوم
لمسوا الحقيقةَ في الفنو ن، وأدركوها في العلوم
حلَّتْ مكانًا عندهم فوق المعلِّم والزعيم[١٠]
والجهلُ حظُّك إن أخذ تَ العلمَ من غير العليم
ولَرُبَّ تعليمٍ سرى بالنشِء كالمرضِ المُنيم[١١]
يتلَّبسُ الحُلُمَ اللذيـ ـذُ عليه بالحُلُمِ الأليم
ومدارس لا تُنْهِضُ الـ ـأخلاقَ دارِسَة الرُّسوم
يمشي الفسادُ بنبْتها مشيَ الشرارةِ بالهشيم
لمَّا رأيتُ سوادَ قو مي في دُجى ليلٍ بهيم
يُسْقَوْنَ من أُمِّيَّةٍ هي غُصَّةُ الوطن الكظيم
وسراتُهم في مُقعِد من مطلَبِ الدنيا مُقيم
يَسعَوْن للجاه العظيـ ـم، وليس للحق الهضيم
وبَصُرْتُ بالدستور يُزْ هَق وهو في عُمْر الفطيم
لم يَنجُ من كيدِ العَدو له، ومن عبثِ الحميم
أيقنتُ أن الجهلَ عِلَّـ ـةُ كلِّ مجتمع سقيم
وأتيتُ — يا ربَّ النثيـ ـرِ — بما تُحبُّ من النظيم

أجزِ اجتهادَكِ في جَني　　الثمراتِ للنَّشَأ النهيم[١٢]
من روضةِ العلم الصحيـ　　ـح، وربوةِ الأدب السليم
العاشقينَ العلمَ، لا　　يألونه طلبَ الغريم
المعرضينَ عن الصغا　　ئر، والسعاية، والنميم

* * *

قسمًا بمذهبك الجميـ　　ـلِ، ووجِه صُحْبَتك القسيم
وقديمِ عهدٍ، لا ضئيـ　　ـلٍ في الوداد، ولا ذميم
ما كنتَ يومًا للكِنا　　نِة بالعدُوَّ ولا الخصيم
لمَّا تلاحى الناسُ لم　　تنزلْ إلى المرعى الوخيم[١٣]
كم شاتمٍ قابلتَه　　بترفُّع الأسدِ الشتيم[١٤]
وشغلْتَ نفسك بالخصيـ　　ـب من الجهودِ عن العقيم
فخدمْتَ بالعلم البلا　　دَ، ولم تزلْ أوْفَى خَديم[١٥]
والعلمُ بنَّاءُ المآ　　ثِر والممالكِ من قديم
كسروا به نِيرَ الهوا　　نِ، وحطَّموا ذُلَّ الشكيم

هوامش

(١) برقين: بلدة المترجِم لطفي باشا السيد.
(٢) البنية: الكعبة.
(٣) الهزيم: صوت الرعد.
(٤) السوام: المرعية. والمسيم: الراعي.
(٥) اليتيم: اللؤلؤ.
(٦) الطريق اللحب: الواسع.
(٧) الألب: جبل من جبال اليونان. والصريم: وادٍ من أودية العرب.
(٨) الضنة: الشيء الذي يضنُّ به.
(٩) المشاءون: تلاميذ أرسططاليس.
(١٠) هذه إشارة إلى قول أرسططاليس المشهور: أفلاطون حبيب إليَّ ولكنَّ الحقيقة أحبُّ إليَّ منه.

(١١) المرض المنيم: المنوِّم.
(١٢) النهيم: الذي لا يشبع.
(١٣) تلاحى الناس: تلاعنوا.
(١٤) الشتيم: العابس.
(١٥) الخديم: الخادم.

شهيد الحق[١]

إلامَ الـخُـلْـفُ بينكُمُ؟ إلا ما؟ … وهذي الضجَّةُ الكبرى علاما؟
وفيمَ يكيدُ بعضُكُمُ لبعض … وتُبدون العداوةَ والخِصاما؟
وأين الفوزُ لا مصرُ استقرَّتْ … على حالٍ، ولا السودانُ داما؟
وأين ذهبتُمُ بالحقِّ لمَّا … ركبتم في قضيته الظلاما؟
لقد صارتْ لكمُ حكمًا وغُنمًا … وكان شِعارُها الموتَ الزُّؤاما
وثِقتم واتهمتم في الليالي … فلا ثقةً أدَمْنَ، ولا اتهاما
شببتم بينكم في القُطر نارًا … على مُحْتَلِّهِ كانت سلاما
إذا ما راضَها بالعقل قومٌ … أجدَّ لها هوى قومٍ ضِراما
ترامَيْتُم، فقال الناسُ: قومٌ … إلى الخذلانِ أمرُهُم ترامَى
وكانت مصرُ أوَّل مَنْ أصبتم … فلم تُحصِ الجراحَ ولا الكِلاما[١]
إذا كان الرُّماةُ رماةَ سوءٍ … أحَلُّوا غيرَ مرماها السهاما
أبعدَ العُرْوةِ الوُثْقى وصَفٌّ … كأنياب الغضنفَر لن يُراما
تباغيتم كأنكمُ خلايا … من السرطانِ لا تجدُّ الضَّماما؟[٢]

---

[١] نظمها صاحب الديوان بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير وموقف بعض الزعماء حياله، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى فقيد البلاد المرحوم مصطفى كامل فوفَّاه حقَّه، واستطرد من ذلك إلى البحث فيما تحتاج إليه البلاد من وسائل الإصلاح.

أرى طيَّارَهم أوفى علينا وحلَّق فوق أرؤسنا وحاما
وأنظرُ جيشَهم من نصف قرنٍ على أبصارنا ضرَب الخياما
فلا أمناؤنا نقصوه رمحًا ولا خُوَّانُنا زادوا حساما
ونُلقى الجوَّ صاعقةً ورعدًا إذا قصرُ الدبارةِ فيه غاما
إذا انفجرت علينا الخيلُ منه ركبنا الصمتَ، أو قُدْنا الكلاما[٣]
فأُبْنا بالتخاذل والتلاحي وآب بما ابتغى منَّا وراما[٤]

***

ملكنا مارِنَ الدنيا بوقتٍ فلم نُحسن على الدنيا القياما[٥]
طلعنا — وهْي مقبلةٌ — أُسودًا ورحنا — وهْي مدبرةٌ — نَعاما
ولِينا الأمرَ حزبًا بعد حزبٍ فلم نَكُ مصلحين ولا كِراما
جعلنا الحُكمَ توليةً وعزلاً ولم نَعْدُ الجزاءَ والانتقاما
وسُسْنا الأمرَ حين خلا إلينا بأهواءِ النفوس، فما استقاما
إذا التصريحُ كان براحَ كفرٍ فَلِمْ جُنَّ الرجالُ به غراما؟[٦]
وكيف يكون في أيدٍ حَلالاً وفي أخرى من الأيدي حراما؟
وما أدري غداةَ سُقِيتموه أَتِرْياقًا سُقِيتُم، أم سِماما؟[٧]

***

شهيدَ الحقَّ، قُمْ تره يتيمًا بأرضٍ ضُيِّعَت فيها اليَتامى
أقام على الشفاه بها غريبًا ومرَّ على القلوب، فما أقاما[٨]
سَقِمتَ، فلم تَبِتْ نفسٌ بخيرٍ كأن بمهجةِ الوطن السَّقاما
ولم أر مثلّ نعشِك إذ تهادى فغطَّى الأرضَ، وانتظم الأناما[٩]
تحمَّلَ هِمَّةً، وأقلَّ دِينًا وضمَّ مروءَةً، وحوى زماما[١٠]
وما أنساكَ في العشرينَ لمَّا طلعتَ حِيالها قمرًا تماما
يُشَار إليك في النادي وتُرْمَى بعَيْنَيْ مَنْ أحبَّ ومَنْ تعامى
إذا جئتَ المنابرَ كنتَ قُسًّا إذا هو في عُكاظَ على السَّناما[١١]
وأنت أَلَدُّ للحق اهتزازًا وألطفُ حين تنطقه ابتساما
وتحملُ من أديمِ الحقّ وجهًا صُراحًا، ليس يتَّخذ اللِّثاما[١٢]

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً   سهرنا عن معلمهم وناما؟[١٣]
مِهارُ الحق بغَّضنا إليهم   شكيمَ القيصرِية واللجاما[١٤]
لواؤكَ كان يسقيهم بجامٍ   وكان الشعرُ بينَ يَدَيَّ جاما[١٥]
من الوطنيةِ استبقوا رحيقًا   فضضْنا عن مُعتَّقِها الختاما[١٦]
غرسنا كَرْمَها، فزكا أصولاً   بكلِّ قَرارةٍ، وزكا مُداما[١٧]
جمعتهمُ على نبراتِ صوتٍ   كنفخ الصُّور حرَّكت الرَّجاما[١٨]
لك الخُطَبُ التي غَصَّ الأعادي   بسَوْرتِها، وساغت للندامى[١٩]
فكانت في مرارتها زائيرًا   وكانت في حَلاوتها بُغاما[٢٠]
بك الوطنيةُ اعتدلتْ، وكانت   حديثًا من خرافة أو مَناما[٢١]
بنيتَ قضيَّةَ الأوطانِ منها   وصيَّرتَ الجلاءَ لها دِعاما[٢٢]
هزَزت بني الزَّمان به صبيًّا   ورُعتَ به بني الدُّنيا غلاما

هوامش

(١) الكلام (بكسر الكاف): الجروح.

(٢) الضمام: ما ضممت به شيئًا آخر. والسرطان: ورم سوداوي تظهر عليه عروق حمر وخضر متشعبة.

(٣) ركبنا الصمت: أي وجدناه خيرًا. وقدنا الكلام: استرسلنا فيه.

(٤) التلاحي: التلاعن والتلاوم.

(٥) المارن: الأنف أو ما لان منه، والمراد بمارن الدنيا: ذروتها وأعلاها.

(٦) البراح: الصراح، والتصريح: تصريح ٢٨ فبراير، يشير إلى موقف بعض الزعماء منه.

(٧) السمام: جمع سمٍّ. والترياق: ما يدفع السموم من الدواء.

(٨) أي تلفظه الأفواه ولا تحسُّ به القلوب.

(٩) تهادى: تمايل على الأعناق.

(١٠) زمام القوم: مقدِّمهم وصاحب أمرهم.

(١١) قسُّ: هو قسُّ بن ساعدة الإيادي، ويُضْرَبُ به المثل في بلاغة الخطباء، ويروى عنه أنه كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر بعير.

(١٢) الأديم: الوجه والصفحة.

(١٣) سهرنا عن معلمهم: أي تركنا هذا المعلم ينام، وقمنا نحن على تهذيبهم وإنشائهم.

(١٤) المِهَار: جمع مهر، والمراد بالمِهَار هنا الشباب. والشكيم: جمع شكيمة، وهي من اللجام حديدة تعترض فم الفرس، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها: قسوة الاحتلال وجبروته.

(١٥) الجام: إناء من فضة. والمعنى: أنك كنت تغذوهم بما كنت تنشر عليهم من لوائك من ثمر الأدب، وكنت أنا أيضًا أغذوهم بما أُزجي لهم من زهور الشعر والبيان.

(١٦) استبقوا الرحيق: تسابقوا إليه. والرحيق: الخمر. والمعتَّق: القديم، وقِدَم الخمر يحسِّنها ويزيد لذَّة شاربها. وفضضنا الختام: فتحناه.

(١٧) الكرم: العنب. وزكا: نما. والمدام: الخمر.

(١٨) الرجام: القبور.

(١٩) السورة: الحدَّة والشدَّة. وغصَّ بالشيء: اعترض في حلقه فمنعه التنفُّس. والمراد بغصَّة الأعادي: غضبهم. والندامى: جمع ندمان وهو نديم الشَّراب، والمراد بهم الشيعة والأصدقاء.

(٢٠) البغام: صوت الظبي.

(٢١) خرافة: رجل عذري اختطفته الجن فيما زعموا، ثم رجع إلى قومه، وأخبر بما رأى منها؛ فكذَّبوه، وأصبح حديثه مثلاً لكل حدث باطل.

(٢٢) الدِعام: العماد.

تحيَّة للترك

الـدَّهـرُ يـقـظـانُ، والأحـداثُ لـم تـنـمِ
فـمـا رقـادُكـم يـا أشـرف الأُمَـم؟
لعلكم من مِراسِ الحرب في نَصَبٍ
وهـذه ضـجـعـةُ الآسـاد فـي الأجَـم[١]
لقد فتحتم فأعرضتم على شِبَع
والـفـتـح يـعـترض الـدُّولات بـالـتُّـخـم[٢]
هبُّوا بكم وبنا للمجدِ في زمن
مَنْ لم يكن فيه ذئبًا كان في الغنم
هـذا الـزمـانُ تـنـاديـكـم حـوادثُـه
يا دولةَ السيف، كوني دولةَ القلم
فالسيفُ يهدم فجرًا ما بُنِي سَحَرًا
وكـلُّ بـنـيـانِ عـلـم غـيـرُ مـنـهـدم[٣]
قد مات في السَّلم مَنْ لا رأيَ يَعصمُه
وسوَّت الـحرب بين الـبَهْم والـبُهَم[٤]
وأصـبـح الـعـلـمُ ركـنَ الآخـذيـن بـه
مَنْ لا يُقِمْ ركنَه العرفانُ لم يَقُم
الناسُ تسحبُ فضفاضَ الغِنى مرحًا
ونـحـن نـلبسُ عنه ضـيـقـةَ الـعُـدُم[٥]

يا فتيةَ الترك. حيًّا الله طلعتَكم
وصانكم. وهداكم صادقَ الخِدَم[٦]
أنتم غدُ الملكِ والإسلامِ، لا برِحا
منكم بخيرِ غدٍ في المجدِ مبتسم[٧]
تُحِلُّكم مصرُ منها في ضمائِرها
وتعلن الحبَّ جمًّا غيرَ متَّهَم[٨]
فنحن — إن بعدتْ دارٌ وإن قربتْ —
جاران في الضاد، أو في البيتِ والحرَم[٩]
ناهِيك بالسببِ الشرقيِّ من نسبٍ
وحبذا سببُ الإسلام من رحِم[١٠]
شملُ اللغات لدى الأقوامِ ملتئمٌ
والضَّاد فينا بشمل غير ملتئمٌ[١١]
فقرِّبوا بيننا فيها وبينكم
فإنها أوثقُ الأسباب والذِّمم
وكلُّنا إن أخذنا بالفلاح يدٌ
وسعينا قدم فيه إلى قدَم
فلا تكونُنَّ «تركيا الفتاة»، ولا
تلك العجوزَ، وكونوا تركيا القِدَم
فسيفُها سيفُها في كل معترك
وعدُلها طوَّق الإسلامَ بالنِّعم

هوامش

(١) مراس الحرب: مزاولتها. والنصب: التعب. والضجعة: الرقدة. والآساد: جمع أسد. والأجم (بفتح الجيم): جمع أجمة، وهي الشجر الملتف.

(٢) فتحتم: تغلَّبتم على البلاد التي حاربتموها حتى ملكتموها، والتخم: جمع تخمة، وهي ثقل الأكل.

(٣) يهدم فجرًا.. إلخ: أي يهدم وقت الفجر ما يكون قد بناه وقت السحر، والمعنى: أن بنيان السيف لا دوام له.

(٤) السلم: ضد الحرب. ويعصمه: يحفظه ويقيه. والبهم (بفتح الباء وسكون الهاء) جمع بهمة (بفتح الباء وسكون الهاء أيضًا): وهي أولاد الضأن والمعز والبقر. والبهم (بضم الباء وفتح الهاء): جمع بهمة (بضم الباء وسكون الهاء) وهي الرجل الشجاع.

(٥) الفضفاض: الواسع. والمرح: التبختر والاختيال. والضيقة (بفتح الضاد وكسرها): سوء الحال. والعدم (بضم العين والدال وتُسَكَّن داله أيضًا): الفقر.

(٦) صادق الخدم: أي الخدم الصادقة، وهي جمع خدمة.

(٧) أنتم غد الملك والإسلام، أي أنتم الذين تهيئون لهما غدهما، والمراد مقبل حالهما.

(٨) جمًا: كثيرًا. وغير متهم: أي غير مشكوك في صدقه.

(٩) الضاد: تُطْلَقُ اسمًا للغة العربية؛ وذلك أن حرف الضاد لا يوجد في لغة سواها ولا يقوى عليه إلاَّ أهلها.

(١٠) ناهيك: كلمة استعظام وتعجُّب وتأويلها في الكلام: أن هذا الشيء هو غاية فيما تطلبه، حتى إنه ينهاك عن طلب غيره، فمعنى البيت: أن السبب الشرقي هو ما يطلب من النسب بيننا وبينكم، فلا تطلبوا نسبًا سواه. وحبذا: كلمة مدح.

(١١) الشمل: ما تفرَّق من الأمر وما اجتمع منه، يقال: جمع الله شملهم، وفرَّق الله شملهم. وملتئم: منضم وملتصق.

الأسطول العثماني[1]

هـزَّ الـلـواءَ بـعـزِّك الإسـلامُ   وعَـنَـتْ لـقـائـم سـيـفِـك الأيـام[1]
وانقـادت الدنيا إليك، فحسبُها   عـذرًا قـيـادٌ أسـلـسَـت وزِمـام[2]
ومشى الزَّمانُ إلى سريرك تائبًا   خَـجِـلاً، عـلـيـه الـذُّلُّ والإرغـام
عـرشُ الـنـبـي مـحـمـدٍ جَـنَـبَـاتُـه   نـورٌ، ورَفْـرَفُـهُ الـطَّـهـورُ غـمـام[3]
لـمَّـا جـلـستَ سـمـا وعزَّ، كـأنـمـا   هـارونُ وابـنـاه عـلـيـهِ قِـيـام[4]
الـبـحـرُ مـحـشـودُ الـبـوارج دونـه   والـبـرُّ تـحـت ظِـلالـه آجـام[5]
نَـعَـمَ الرعيةُ في ذَراكَ، ونَضَّرتْ   أيـامَـهـم فـي ظِـلـكَ الأحـكـام[6]
فـي كـل نـاحـيـةٍ، وكـل قـبـيـلـةٍ   عـدلٌ، وأمـنٌ مُـورِفٌ. ووِئـام[7]
حمل (الصليبُ) إليكَ من فتيانه   جندًا، وقاتلَ دونكَ (الحاخام)[8]
والـدِّيـنُ لـيـس بـرافـعٍ مـلـكًـا إذا   لـم يَـبْـدُ لـلـدُّنـيـا عـلـيـه نـظـام
بالله قد دان الجميعُ، وشأنُهم   بـالـلـه ثـم بـعـرشِـك، استِـعـصـام[9]

* * *

يا ابنَ الذين إذا الحروبُ تتابعت   صَلَّوْا على حَدِّ السيوف، وصاموا[10]

---

[1] كان صاحب الديوان في الآستانة، وشاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العليَّة من ألمانيا؛ فأخذته هزَّة الطرب، وعزَّ عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة أسطول الدولة؛ فجرى لسانه بهذه القصيدة.

المظهِرِينَ لنورِ «بَدْرٍ» بعد ما   خِيفَ المحاقُ عليه والإظلام[١١]
عشرون خاقانًا نَمَوْك وعَشْرةٌ   غرُّ الفتوح خلائفٌ أعلام[١٢]
نسبٌ إذا ذُكِر الملوكُ فإنه   لِرَفيع أنسابِ الملوكِ سَنَام[١٣]
لا تحفلنَّ من الجِراح بقيةً   إن البقيةَ في غدٍ تلتام[١٤]
جرت النحوس لغاية فتبدَّلت   ولكل شيءٍ غايةٌ وتمام
تعِبت بأُمَّتِك الخطوبُ فأقصرَت   والدَّهرُ يُقصر والخطوب تنام[١٥]
لبثَت تَنُوشهمُ الحوادثُ حقبةً   وتصدُّها الأخلاقُ والأحلام[١٦]
ولقد يُدَاس الذئبُ في فلواته   ويُهابُ بين قيوده الضِرغام[١٧]
زدْهم أميرَ المؤمنين من القُوَى   إن القُوَى عزٌّ لهم وقوام
الملكُ والدُّولاتُ ما يَبني القنا   والعلمُ، لا ما تَرفعُ الأحلام[١٨]
والحقُّ ليس — وإن علا — بمؤَيَّدٍ   حتى يُحَوَّطَ جانبيْه حسام[١٩]
خطَّ النبيُّ براحتيهِ خَندقًا   ومشى يُحيط به قنًا وسهام[٢٠]

* * *

يا بربروسُ، على ثراكَ تحيةٌ   وعلى سَمِيْكَ في البحارِ سلام[٢١]
أعَلِمتَ ما أهدى إليك عصابةٌ   غرُّ المآثر من بنيك كرام؟[٢٢]
نشروا حديثَك في البريَّة بعدما   همَّت بطيَّ حديثِك الأيام
خصُّوك من أسطولِهم بدعامةٍ   يُبنى عليها ركنُه ويقام[٢٣]
شمَّاءُ في عرضِ الخِضَمِّ، كأنها   برجٌ بذات الرجع ليس يرام[٢٤]
كانت كبعض البارجات، فحفَّها   لمَّا تحلَّت باسمِك الإعظام
ما مات من نبل الرجال وفضلهم   يحيا لدى التاريخ وهو عظام
يمضي ويُنسىَ العالَمون، وإنما   تبقى السيوفُ، وتَخْلُدُ الأقلام[٢٥]
وتلاك (طرغودُ) كما قد كنتُما   جَنبًا لجنبٍ والعُبابُ ضِرام[٢٦]
أَرسى على بابِ الإمام كأنه   للفُلك من فرط الجلال إمام[٢٧]
جمعتكما الأيامُ بعد تفرُّق   ما للقاءِ وللفراق دوام
سيشدُّ أزرَك والشدائدُ جُمةٌ   ويُعِزُّ نصَرك والخُطوبُ جِسام[٢٨]
ما السُّفنُ في عدد الحصى بنوافع   حتى يهزَّ لواءَها مِقدام
لما لمحتُكما سكبْتُ مدامعي   فرحًا، وطال تشوُّفٌ وقِيام[٢٩]

وسألتُ: هل من (لؤلؤ) أو (طارقٍ) في البحر تخفُقُ فوقَه الأعلام؟[30]

* * *

يا معشرَ الإسلامِ، في أسطولِكم عـزٌّ لـكـم، ووقـايـةٌ، وسـلام
جودوا عليه بمالِكم، واقضوا له مـا تـوجـبُ الأعـلاقُ والأرحـام[31]
لا الهندُ قد كرُمت، ولا مصرٌ سخت والـغربُ قصَّر عن ندًى، والشام
سيلُ الممالكِ جارفٌ من شدَّةٍ وقُوًى، وأنتم في الطريق نِيام[32]
حبُّ السيادة في شمائِل دينكم والـجِـدُّ روحٌ مـنـه والإقـدام[33]
والـعـلـمُ مـن آيـاتـه الـكـبرى إذا رجـعـت إلـى آيـاتِـه الأقـوام[34]
لـو تـقـرئـون صِـغـارَكم تـاريـخَـه عرف البنون المجدَ كيف يُرام
كم واثقٍ بـالـنـفس، نَهَّاضٍ بـهـا سـاد الـبـريَّةَ فـيـه وهـو عِـصـام[35]

هوامش

(١) عنت: خضعت وذلت، والخطاب في هذا البيت والبيتين بعده للخليفة محمد رشاد.

(٢) القياد: ما يُقَادُ به، ويستعمل بمعنى الطاعة. وأسلست: جعلته سلسًا، أي سهلاً لينًا، والزمام: مقود البعير.

(٣) الجنبات: النواحي، مفردها جنبة. والرفرف: كل ما فضل فثني.والطهور هو الطاهر في نفسه والمطهر غيره.

(٤) سما: ارتفع. وهارون: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وابناه: هما الأمين، والمأمون.

(٥) البوارج: سفن القتال الكبيرة واحدتها: بارجة. والآجام: جمع أجم والأجم: جمع أجمة: وهي الشجر الكثير الملتف، والأُسود تتخذها مأوى لها. والضمير في «دونه» و«ظلاله» للعرش في البيت المتقدِّم، يعني أنه مصون، تحميه سفن القتال المحشودة في البحر، والجيوش المقيمة في البرِّ كأنها الأُسود في آجامها.

(٦) نعم الرعية: رفهوا وأخصبوا. والذرا: الملجأ. ونضَّرت أيامهم الأحكام: جعلها ناضرة. والناضرة: الحسنة.

(٧) مورف: مُتَّسع وممتد.

(٨) حمل الصليب.. إلخ: يريد أن رعاياك من النصارى واليهود مخلصون، يقاتلون من دونك لِمَا أظللتهم به من العدل والأمن.

(٩) بالله قد دان الجميع: أي آمنوا به. والاستعصام: الاستمساك.

(١٠) صلوا على حدِّ السيوف وصاموا: أي لزموها كما يلزم المتعبِّد صلاته وصيامه.

(١١) بدر: اسم الغزوة المشهورة في صدر الإسلام، سُمِّيت باسم المكان الذي وقعت فيه. والمحاق (مثلث الميم): قيل: هو آخر الشهر حيث يمحق نور القمر، وقيل: هو ثلاث ليالٍ من آخره.

(١٢) الخاقان: هو كل ملك من الأتراك. ونموك: أي رفعوك بالانتساب إليهم، وعشرة غرُّ الفتوح: أي ونماك أيضًا عشرة خواقين، امتازوا بالفتح والتوسُّع في الملك، فاختصوا بوصف الفاتحين، فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان. وخلائف: جمع خليفة.

(١٣) السنام: اللحم المرتفع على ظهر البعير.

(١٤) لا تحفلن بقية: أي لا تبال بها. فهي ستبرأ وتلتحم، يشير بذلك إلى حوادث كانت تشغل الدولة التركيَّة يومئذ.

(١٥) أقصرت: أي انتهت وأمسكت عنها.

(١٦) تنوشهم: تناولهم. وتصدُّها أي تصدُّ الحوادث. والأحلام: العقول.

(١٧) الضرغام: الأسد.

(١٨) القنا: الرماح. والأحلام هنا: جمع حلم، وهو ما يراه النائم.

(١٩) يحوط جانبيه، بواو مشدَّدة: أي يحفظهما ويتعهدهما. والحسام: السيف.

(٢٠) الخندق: حفير حول أسوار المدينة.

(٢١) بربروس: هو خير الدين بربروس من أبطال العثمانيين، جعلت الحكومة التركية اسمه علمًا لبارجة هي الأولى في الأسطول العثماني.

(٢٢) عصابة غرُّ المآثر: هم رجال الحكومة العثمانية الذين أوجدوا البارجة بربروس.

(٢٣) الدعامة: عماد البيت.

(٢٤) شمَّاء: مرتفعة عظيمة. والخضم: البحر. والبرج: واحد بروج السماء. وذات الرجع: هي السماء. والرجع: المطر بعد المطر.

(٢٥) وإنما تبقى السيوف: أي يبقى ما تفعله السيوف ويخلد ما تسطره الأقلام.

(٢٦) تلاك: أي جاء تاليًا لك. وطرغود: هو أيضًا من أبطال البحر العثماني، جعلت الحكومة التركيَّة اسمه كذلك علمًا لبارجة أخرى. والعباب: كثرة السيل وارتفاعه. والمراد به هنا كثرة ماء البحر. والضرام اشتعال النار؛ والمعنى: أن البارجة التي سُمِّيت باسم طرغود، هي مع البارجة المُسمَّاة باسمك، فهما في البحر كما كنتما فيه من قبل، حين كانت تشتعل نار القتال فوق عبابه.

(٢٧) أرسى: وقف وثبت. والفلك: السفن، يستعمل للمفرد وللجمع بلفظ واحد، وفي البيت إشارة إلى أن مرسى البارحتين كان أمام قصر الخليفة.

(٢٨) الأزر: الظهر. والجمَّة: الكثيرة. والجسام: العظام، جمع جسيم.

(٢٩) سكبت: صببت. والتشوُّف: التطلُّع.

(٣٠) لؤلؤ: هو حسام الدين لؤلؤ، أمير الأسطول المصري في الحروب الصليبية، وطارق هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور.

(٣١) الأعلاق: نفائس الأشياء.

(٣٢) جارف، من جرف الشيء: ذهب به كله أو أكثره.

(٣٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وروح منه، أي من دينكم.

(٣٤) والعلم من آياته: أي من آيات الدِّين.

(٣٥) النَهَّاض: مبالغة من النهوض، وهو القيام. وهو عصام: أي كعصام، وهو رجل شرف بنفسه وعمله، لا بنسبه وآبائه، حتى قيل فيه: «نفس عصام سوَّدت عصامًا» فضُرِبَ به المثل في ذلك.

الأندلس الجديدة

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلامُ   هَوَت الخلافةُ عنكِ، والإسلام[١]
نزل الهلالُ عن السماءِ فليتها   طُوِيَتْ، وعمَّ العالمين ظلام
أزرى به، وأزاله عن أوْجِهِ   قدَرٌ يَحُطُّ البدرَ وهو تمام[٢]
جُرحان تمضي الأمتان عليهما   هذا يسيل، وذاك لا يلتام[٣]
بكما أصيبَ المسلمون. وفيكما   دُفِنَ اليراعُ، وغُيِّب الصَّمصام[٤]
لم يُطوَ مأتمُها. وهذا مأتمٌ   لبسوا السوادَ عليكِ فيه وقاموا[٥]
ما بين مَصرِعها ومصرعِكِ انقضت   فيما نُحِبُّ ونكره الأيام
خلت القرونُ كليْلةٍ. وتصرَّمت   دولُ الفتوحِ كأنها أحلام[٦]
والدهرُ لا يألو الممالكَ مُنذرًا   فإذا غفلنَ فما عليهِ مَلام[٧]

***

مقدونيا — والمسلمون عشيرةٌ —   كيف الخئولةُ فيكِ والأعمام؟[٨]
أتريْنهم هانوا، وكان بعزِّهم   وعلَّوهم يتخايلُ الإسلام؟[٩]
إذا أنتِ نابُ الليث، كلُّ كتيبة   طلعت عليكِ فريسةٌ وطعام[١٠]
ما زالت الأيامُ حتى بُدِّلَت   وتغيَّرَ الساقي، وحالَ الجام[١١]
أرأيتِ كيف أُديلَ من أسْدِ الشَّرَى   وشهدتِ كيف أُبيحتِ الآجام؟[١٢]
زعموكِ همًّا للخلافةِ ناصبًا   وهل الممالكُ راحةٌ ومنام[١٣]
ويقول قومٌ: كنتِ أشأمَ مَوْرِدٍ   وأراكِ سائغةً عليكِ زِحام

ويراكِ داءَ المُلك ناسُ جَهالة   بالمُلك منهم علةٌ وَسَقام
لو آثروا الإصلاح كنتِ لعرشِهم   رُكنًا على هام النجوم يُقام[١٤]
وهْمٌ يقيَّدُ بعضُهم بعضًا به   وقيودُ هذا العالَمِ الأوهام
صورُ العمى شتَّى، وأقبحُها إذا   نظرتْ بغير عيونِهنّ الهام
ولقد يُقام من السيوفِ، وليس من   عثراتِ أخلاقِ الشعوبِ قيام

* * *

ومُبَشِّرٍ بالصلحِ قلت: لعله   خيرٌ عسى أن تصدقَ الأحلام[١٥]
ترك الفريقان القتالَ، وهذه   سِلْم أمرُّ من القتال عُقام[١٦]
ينعى إلينا الملكَ ناعٍ لم يطأ   أرضًا، ولا انتقلت به أقدام[١٧]
برق جوائبُه صواعقُ كلُّها   ومن البروقِ صواعقٌ وغمام[١٨]
إن كان شرٌّ، زار غيرَ مفارقٍ   أو كان خيرٌ، فالمزارُ لِمام[١٩]
بالأمس (أفريقا) تولَّتْ. وانقضى   مُلكٌ على جيدِ الخِضَمَّ جسام[٢٠]
نظمَ الهلالُ به ممالكَ أربعًا   أصبحنَ ليس لعقدِهن نظام[٢١]
من فتحِ هاشم أو أميَّةَ، لم يُضِعْ   آساسَها تَترٌ ولا أعجام[٢٢]
واليومَ حكمُ الله في مقدونِيا   لا نقضَ فيه لنا ولا إبرام
كانت من الغرب البقيةُ. فانقضت   فعلى بَني عثمانَ فيه سلام!.

* * *

أخذَ المدائنَ والقُرى بخناقها   جيشٌ من المتحالفين لُهام[٢٣]
غطَّت به الأرضُ الفضاء وجوَّهَها   وكست مناكِبَها به الآكام[٢٤]
تمشي المناكرُ بين أيدي خَيله   أنَّى مَشى. والبغيُ، والإجرام[٢٥]
ويحثُّه باسم الكتاب أقِسَّةٌ   نَشطوا لما هو في الكتابِ حرام[٢٦]
ومسيطرونَ على الممالك. سُخِّرت   لهم الشعوبُ، كأنها أنعام[٢٧]
من كل جزّار يروم الصدرَ في   نادي الملوكِ، وجَدُّه غنَّام[٢٨]
سِكِّينه، ويمينُه، وحزامه   والصولجانُ، جميعُها آثام[٢٩]

* * *

«عيسى» سبيُلك رحمةٌ، ومحبةٌ   في العالمين، وعصمةٌ، وسلام
ما كنتَ سفَّاك الدماءِ، ولا أمرأ   هانَ الضِّعافُ عليه والأيتام[٣٠]
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورَى   كثُرَت عليه باسمك الآلام[٣١]
أنت الذي جعل العبادَ جميعَهم   رَحِمًا، وباسمك تُقطَع الأرحام
أتت القيامةُ في ولايةِ يوسفٍ   واليومَ باسمك مرتين تقام[٣٢]
كم هاجَه صيدُ الملوك وهاجهم   وتَكافأَ الفُرسانُ والأعلام[٣٣]
البغيُ في دين الجميع دنيَّةٌ   والسَّلمُ عهدٌ، والقتالُ زِمام
واليومَ يهتفُ بالصليبِ عصائبٌ   هم للإله وروحِه ظلَّام[٣٤]
خلَطوا صليبكَ والخناجرَ والمُدى   كلٌّ أداةٌ للأذى وحمام[٣٥]
أوَما تراهم ذبَّحوا جيرانهم   بين البيُوت كأنهم أغنام؟
كم مُرضَعٍ في حِجْر نعمته غدًا   وله على حَدَّ السيوف فطام[٣٦]
وصبيَّةٍ هُتِكت خميلةُ طُهرها   وتناثرت عن نَوُرِه الأكمام[٣٧]
وأخي ثمانين أسْتبيحَ وقارُه   لم يُغنِ عنه الضعفُ والأعوام
وجريحِ حربٍ ظامئ وأدُوه. لم   يعطِفْهم جرحٌ دمٍ وأُوام[٣٨]
ومهاجرين تنكَّرت أوطانُهم   ضلُّوا السبيلَ من الذهول وهاموا[٣٩]
السيفُ إن ركبوا الفِرارَ سبيلُهم   والنَّطْعُ إن طلبوا القَرار مُقام[٤٠]
يتلفتون مودِّعين ديارَهم   واللحظُ ماءٌ، والديارُ ضِرام[٤١]

***

يا أمة (بفروقَ) فرَّق بينهم   قَدَرٌ تطيشُ إذا أتى الأحلام[٤٢]
فيم التخاذُل بينكم ووراءَكم   أمم تُضاع حقوقُها وتُضام؟[٤٣]
الله يشهدُ لم أكن متحزِّبًا،   في الرُّزءِ لا شِيعٌ ولا أَحزام[٤٤]
وإذا دعوتُ إلى الوِئامِ فشاعرٌ   أقصى مُناهُ محبَّةٌ ووِئام[٤٥]
مَنْ يضجر البلوى فغايةُ جهدِه   رُجعَى إلى الأقدار واستسلام[٤٦]
لا يأخذنَّ على العواقبِ بعضُكم   بعضًا، فقِدْمًا جارت الأحكام
تَقضي على المرءِ الليالي، أوْ له   فالحمدُ من سلطانها، والذَّام[٤٧]
من عادة التاريخ ملءُ قضائِه   عدل وملءُ كِنانَتَيْهِ سِهام[٤٨]
ما ليس يدفعه المهنَّدُ مصلَتًا   لا الكتبُ تدفعه. ولا الأقلام[٤٩]

إن الأُلى فتحوا الفتوحَ جلائلاً ... دخلوا على الأُسْدِ الغِياضَ وناموا[٥٠]
هذا جناه عليكم آباؤكم ... صبرًا وصفحًا، فالجناةُ كرام[٥١]
رفعوا على السيفِ البناءَ. فلم يدم ... ما للبناءِ على السيوف دوام
أبقى الممالكَ ما المعارفُ أُسُّه ... والعدلُ فيه حائطٌ ودِعام[٥٢]
فإذا جرى رُشدًا ويُمنًا أمرُكم ... فامشوا بنورِ العلم. فهو زِمَام
ودعوا التفاخرَ بالتُّراث وإن غلا ... فالمجدُ كسبٌ. والزمانُ عِصام
إنَّ الغرورَ إذا تملَّك أمةً ... كالزَّهر يُخفي الموتَ وهو زؤام[٥٣]
لا يعدلنَّ الملكُ في شهواتكم ... عرَضٌ من الدنيا بدا وحُطام[٥٤]
ومناصب في غير موضِعها. كما ... حلَّت محلَّ القدوة الأصنام[٥٥]
الملك مرتبةُ الشعوب. فإن يفتْ ... عزُّ السِّيادة فالشعوبُ سَوام
ومن البهائم مشبَعٌ ومُدلَّلٌ ... ومن الحرير شكيمةٌ ولجام
وقف الزمانُ بكم كموقِف «طارق» ... اليأسُ خلفٌ، والرجاءُ أمام[٥٦]
الصبرُ والإقدامُ فيه إذا هما ... قُتلا فأقتلُ منهما الإحجام
يُحصي الدليلُ مدى مطالبه، ولا ... يحصي مدى المستقبلِ المِقدام
هذي البقيةُ — لو حرصتم — دولةٌ ... صال الرشيد بها، وطالَ هِشام[٥٧]
قِسْم الأَئمة والخلائِف قبلكم ... في الأرض لم تُعدَل به الأقسام[٥٨]
سرت النبوَّةُ في طَهور فضائِه ... ومشى عليه الوحيُ والإلهام
وتدفَّق النهران فيه، وأزهرت ... بغدادُ تحت ظلاله، والشام[٥٩]
أثْرَتْ سواحلُه، وطابت أرضُه ... فالدرُّ لُجٌّ، والنُّضارُ رَغام[٦٠]

* * *

شرفًا أدرنةُ! هكذا يقفُ الحمى ... للغاصِبين، وتثبتُ الأقدام[٦١]
وتُرَدُّ بالدم بقعةٌ أخذت به ... ويموتُ دون عرينِه الضِرغام[٦٢]
والملكُ يؤخذ، أو يُرَدُّ، ولم يزل ... يرثُ الحسامَ على البلاد حسام[٦٣]
عِرْضُ الخلافِة ذاد عنه مجاهدٌ ... في الله. غازٍ في الرسول. همام[٦٤]
تستعصم الأوطانُ خلف ظُباته ... وتَعزُّ حول قناتِه الأعلام[٦٥]
(عثمان) في بُرْدَيْه يمنعُ جيشَه ... (وابنُ الوليد) على الحِمى قَوَّام[٦٦]
علم الزمانُ مكانَ (شكري) وانتهى ... شكرُ الزمان إليه والإعظام[٦٧]

***

صبرًا أدرنةُ! كلُّ ملكٍ زائلٌ … يومًا. ويبقى المالك العلاَّم[٦٨]
خَفَتَ الأذانُ. فما عليكِ مُوحِّد … يسعى. ولا الجُمَعُ الحِسانُ تُقام[٦٩]
وخبتْ مساجدُ كنَّ نورًا جامعًا … تمشي إليه الأُسْدُ والآرام[٧٠]
يَدْرُجْنَ في حَرَمِ الصلاةِ قوانتًا … بِيضَ الإزارِ كأنهن حَمام[٧١]
وَعَفَتْ قبورُ الفاتحين. وفُضَّ عن … حُفَر الخلائفِ جَنْدَلٌ ورِجام[٧٢]
نُبِشَتْ على قَعساءِ عِزَّتِهَا. كما … نُبشتْ على استعلائها الأهرام[٧٣]
في ذمَّةِ التاريخ خمسةُ أشهر … طالت عليكِ. فكلُّ يوم عام[٧٤]
السيفُ عار، والوباءُ مُسلَّطٌ … والسيلُ خوفٌ، والثلوجُ رُكام[٧٥]
والجوعُ فتَّاك، وفيه صحابةٌ … لو لم يجوعوا في الجهادِ لصاموا
ضَنُّوا بعرضِكِ أن يُباعَ ويشترى … عِرْضُ الحرائر ليس فيه سُوام[٧٦]
ضاق الحصارُ كأنما حلقاتُه … فلَك، ومقذوفاتُها أجرام[٧٧]
ورمى العِدَى، ورميتهم بجهنمٍ … مما يصبُّ الله لا الأقوام
بِعْتِ العدوَّ بكل شبر مهجةً … وكذا يُباعُ الملكُ حين يُرام[٧٨]
ما زال بينكِ في الحصارِ وبينَه … شُمُّ الحصون، ومثلُهن عِظام[٧٩]
حتى حواكِ مقابرًا، وحويته … جُثَثًا، فلا غَبْنٌ ولا استِذمام[٨٠]

هوامش

(١) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة: وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان، جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة ١٩١٢ بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع بلاءً حسنًا.

(٢) أزرى له: وضع من شأنه. والأوج: العلوّ.

(٣) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم، والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

(٤) اليراع: القلم. والصمصام: السيف.

(٥) لم يطو مأتمها: أي مأتم الأندلس.

(٦) خلت: مضت. وتصرَّمت: انقضت.

(٧) لا يألوا: لا يقصر ولا يبطئ.

(٨) مقدونيا: اسم الإقليم الذي تقع فيه أدرنة. والعشيرة: قبيلة الرجل. والخئولة النسبة إلى الخال، كالعمومة، وهى النسبة إلى العمِّ.

(٩) يتخايل: يتبختر.

(١٠) إذا أنت ناب الليث: أي مثل ناب الليث، في أنه مخوِّف لا يمكن الوصول إليه. والكتيبة: الجيش، وقيل القطعة منه. والمعنى أن الإسلام كان يتخايل بعزِّ أبنائه في مقدونيا، حينما كانت ممتنعة على العدو كامتناع ناب الليث على مَنْ يريده، وحينما كانت تفنى دونها جيوش الأعداء.

(١١) حال: تحوَّل من حال إلى حال. والجام: إناء من فضة تسقى فيه الخمر.

(١٢) الشرى: مكان تكثر فيه الأسود. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الملتفُّ تألفه الأسود أيضًا.

(١٣) الهمُّ الناصب: المتعب.

(١٤) لو آثروا الإصلاح: أي لو اختاروه. والهام: جمع هامة، وهي رأس كل شيء.

(١٥) ومبشر بالصلح: يشير إلى ما كان قد جاء من الأنبياء بأن الصلح سيتمُّ بين المتحاربين.

(١٦) يقال: داء عقام، أي لا يُرْجَى البرء منه، وحرب عقام: أي شديدة، وكلا المعنيين صالح هنا. ويشير بقوله: هذه سلم. إلخ، إلى ما كان من ممالأة الدول الأوربية الكبرى، لدول البلقان الصغيرة على تركيا، وإرهاقها بشروط الصلح.

(١٧) ينعي إلينا.. إلخ: يشير إلى الأنباء البرقية التي تنقل شروط الصلح الظالم. والناعي الذي لم يطأ أرضًا.. إلخ: هو سلك البرق.

(١٨) الجوائب: الأخبار الطارئة. جمع جائبة.

(١٩) اللمام: جمع لمة وهي المرَّة، يقال: أنت ما تزورنا إلا لمامًا: أي من حين إلى حين.

(٢٠) الجيد: العنق. والخضم: البحر. وجسام: عظام جمع: عظيم.

(٢١) ممالك أربعًا، هنَّ: مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر.

(٢٢) من فتح هاشم أو أميَّة: أي هذه الممالك الأربع مما فتحه بنو هاشم وبنو أميَّة في عصر الإسلام الأول. والآساس (بالمدِّ): جمع أساس.

(٢٣) المتحالفون: هم دول البلقان: اليونان، ورومانيا، والبلغار، والصرب، تحالفوا على حرب الدولة التركيَّة. واللهام بضم اللام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء.

(٢٤) مناكبها: نواحيها. والآكام: التلال. وقيل: هي الحجارة المجتمعة في أمكنة واحدة.

(٢٥) المناكر: جمع منكر، وهو كل قول أو فعل ليس فيه رضاء الله، وأنى مشى: أي كيف مشى.

(٢٦) الأقسة: جمع قسيس. ونشطوا: خفُّوا وأسرعوا.

(٢٧) ومسيطرون: أي ويحثه مسيطرون. والمسيطر: المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله؛ والمراد بهم ملوك دول البلقان.

(٢٨) يروم الصدر: يطلبه. والصدر — هنا — معناه أعلى أمكنة النادي.

(٢٩) الصولجان: المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

(٣٠) سفَّاك الدماء: مريقها بكثرة.

(٣١) يشير بقوله: يا حامل الآلام، إلخ إلى ما يعتقده النصارى من أن السيد المسيح (عليه السلام) صُلِبَ ليحمل عن بني آدم خطيئتهم الأولى، أي حامل الآلام فيما يزعمه هؤلاء السفَّاكون الذين يزعمون أنهم على طريقك.

(٣٢) يوسف: هو السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي، قامت في أيامه قيامة الصليبيين على المسلمين؛ فحاربهم ونصره الله عليهم.

(٣٣) هاجه: أثاره، والضمير ليوسف. وصيد الملوك: جمع أصيد، وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا ولا شمالاً، كالبعير الذي أصيب بداء الصيد في عنقه فلا يلتفت.

(٣٤) العصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، وقيل ما بين العشرة والأربعين. وظُلاَّم: جمع ظالم.

(٣٥) خلطوا صليبك: أي الصليب الذي ينسبونه إليك. والحِمَام: الموت.

(٣٦) كم مرضع: أي طفل ترضعه أمه. والفِطَام: فصله عن الرضاع.

(٣٧) الخميلة، هنا: الدِّثار، من المخمل، وهو ثوب له وبر كالهداب، أو هي الشجر الكثير الملتف، والنور: هو الزَّهر الأبيض. والأكمام: جمع كم — بكسر الكاف — وهو غطاء النور.

(٣٨) وأدوه: أي قتلوه، كما تقتل البنت بالوأد، وهو دفنها حية. وجرح دم: أي يقطر منه الدم. والأوام: العطش ودوار الرأس.

(٣٩) هاموا: ذهبوا على وجوههم من الظلم، فلا يدرون أين يتوجهون.

(٤٠) النطع: بساط من الجلد يُفْرَشُ لَمَنْ يُضْرَبُ عنقه، والقرار: المكان الذي يقرُّ فيه الإنسان، أو هو الثبات في المكان والسكون فيه.

(٤١) والديار ضرام: أي مشتعلة نارًا.

(٤٢) فروق: الآستانة. والأحلام: العقول.

(٤٣) التَّخاذل: التَّدابر وأن يخذل بعضهم بعضًا.

(٤٤) الرزء: المصيبة. والشيع: جمع شيعة، وهي أتباع الرجل وأنصاره. والأحزام: الأحزاب.

(٤٥) الوئام: الوفاق.

(٤٦) رجعى إلى الأقدار: أي رجوع إليها.

(٤٧) الذَّام: الذمُّ.

(٤٨) الكنانتان: تثنية كنانة، وهي جعبة السهام، من الجلد أو من الخشب.

(٤٩) المهنَّد: السيف.

(٥٠) الغِياض: جمع غيضة، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء، وهي أيضًا الأجمة، والمعنى: إن أسلافكم قنعوا من البلاد التي فتحوها بمجرد الفتح والغلبة، ولم يلتفتوا إلى أن أهلها يضمرون لهم العداوة، ويتربصون بهم الدوائر.

(٥١) هذا: أي ما أنتم فيه من عداوة.

(٥٢) الدِعام: عماد البيت.

(٥٣) كالزهر يخفي الموت: ذلك أن الزهر يتنفس فيفسد الهواء في الأمكنة الضيِّقة؛ فيحدث الاختناق. والزؤام: السريع من الموت.

(٥٤) عرض الدنيا: ما لا دوام له منها. وحطامها: ما فيها من مال كثير أو قليل.

(٥٥) مناصب جمع منصب. بكسر الصاد، وهو في كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل وأصله المقام. والأصنام: جمع صنم، وهو تمثال إنسان أو حيوان يتَّخذ للعبادة.

(٥٦) طارق: هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور. يروي بعض المؤرخين أنه لمَّا عبر بجيشه البحر ليقاتل الأعداء: أمر فأحرقت السفائن، ثم خطب في

الجيش: أن البحر وراءه والعدوُّ أمامه، فإذا نكص عن القتال وقع بين عدوَّين ليس منهما غير الهلاك.

(٥٧) هذي البقية: أي ما بقي للأتراك من البلاد بعد حرب البلقان. ولو حرصتم: أي لو حرصتم عليها. والرشيد: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وهشام: هو ابن عبد الملك أحد خلفاء بني أميَّة.

(٥٨) القسم (بكسر القاف): النصيب.

(٥٩) النهران: دجلة والفرات، وبغداد: حاضرةُ العراق.

(٦٠) أثرت: كثر فيها الغنى والمال. فالدرُّ لجَّ: أي كثير كاللج. والنضار: الذهب. والرغام: التراب؛ أي أنه لكثرته صار كالتراب.

(٦١) شرفًا أدرنة: أي لقد شرفت شرفًا. والحمى: ما يُحْمَى من الشيء.

(٦٢) العرين: مأوى الأسد. والضِرغام: الأسد.

(٦٣) الحسام: السيف.

(٦٤) العِرض: جانب الرجل الذي يصونه من نفسه أو سلفه، وهو موضع المدح والذمِّ منه. وذاد عنه: طرد عنه العدوَّ ودفعه.

(٦٥) تستعصم: تلجأ وتمتنع. الظبات: جمع ظبة — بضم الظاء، وهي حدُّ السيف. وتعزُّ: تصير عزيزة مكرمة.

(٦٦) ابن الوليد: هو خالد بن الوليد، قائد عظيم من الصحابة.

(٦٧) شكري: هو بطل أدرنة، وقائد حاميتها الذي تولَّى الدفاع عنها أثناء شهور الحصار.

(٦٨) صبرًا أدرنة: أي اصبري صبرًا.

(٦٩) خفت: سكن وانقطع. والموحِّد: مَنْ يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.

(٧٠) خبت: سكنت. والأُسْدُ: هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها. والرئم: الظبي الأبيض.

(٧١) يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدِّم. والقوانت: جمع قانتة، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.

(٧٢) عفت: اضمحلت وامَّحت. وفُضَّ جندل ورجام: أي كُسِرَ متفرقًا. والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبنى عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.

(٧٣) العزَّة القعساء: المنيعة الثابتة.

(٧٤) خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.

(٧٥) السيف عارٍ: أي مجرَّد من غمده كما يتجرَّد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمرٌّ. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتال ويكون محصورًا من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

(٧٦) الحرائر: جمع حرَّة. والسوام (بضم السين): أن تُعْرَضَ السلعة ويُذْكَرَ ثمنها.

(٧٧) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

(٧٨) المهجة: الروح أو دمُّ القلب. أي أن العدوَّ لم ينلك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.

(٧٩) شمُّ الحصون: أي الحصون العالية.

(٨٠) حواك: ملكك. والاستذمام. فعل ما يقتضي الذم. والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجاله جثثا هامدة؛ وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذمَّ.

ضيف أمير المؤمنين[1]

رضـــيَ الـــمـــســـلـــمـــون والإســـلامُ
فَـرْعَ عـثـمـانَ، دُمْ، فِـداك الـدوامُ[1]
كيف نـحـصـي عـلـى عُـلاكَ ثـنـاءُ؟
لــك مــنــك الــثــنــاءُ والإكــرام
هـل كـلامُ الـعـبـادِ فـي الـشـمـسِ إلاَ
أنـهـا الـشـمـس لـيـس فـيـهـا كـلام؟
ومــكــانُ الإمــام أعــلــى، ولــكــن
بــأحــاديــثــه يَــتِــيــهُ الأنــام[2]
إيـه «عـبدَ الـحـمـيـد»، جـلَّ زمـانٌ
أنــت فــيــه خــلــيــفــةٌ وإمــام[3]
مـا رأت مـثـلَ ذا الـذي تَـبـتـنـي الأقــ
ــوامُ مـجـدًا، ولـن يَـرى الأقـوام
دولــةٌ شــاد ركــنَــهــا ألــفُ عــام
ومــئــاتٌ، تــعــيــدهــا أعــوام[4]
وأسـاسٌ مـن عـهـدِ عـثـمـان يُـبـنـى
فــي ثــمــانٍ ومــثــلــهــن يُــقــام

[1] نزل صاحب الديوان بالآستانة، فبُلِّغ أنه ضيف أمير المؤمنين ما أقام بها.

حـكـمـةٌ حـال كـلُّ هـذا الـتـجلِّـي
دونــهــا أن تــنــالــهــا الأفــهــام
يسأل الناسُ عندها الناسَ: هل في
الـنـاس ذو الـمقلـةِ الـتـي لا تـنـام؟[٥]
أم مِن الناسِ — بعدُ — مَنْ قولُه وحْـ
ــيٌ كـريـمٌ، وفـعـلُـه إلـهـام؟[٦]
صـدق الـخـلـقُ، أنـت هـذا، وهـذا
يـا عـظـيـمًـا مـا جـازه إعـظـام[٧]
شــرفٌ بــاذخٌ، ومــلــكٌ كــبــيــرٌ
ويـمـيـنٌ بُـسـطٌ، وأمـرٌ جـسـام[٨]
(عُـمَـرٌ) أنـتَ. بَـيْـدَ أنـك ظـلُّ
لـلـبـرايـا، وعـصـمـةٌ، وسـلام[٩]
مـا تـتـوجـتَ بـالـخـلافـة حـتـى
تُــوِّجَ الــبــائــســون والأيــتــام
وسرى الخِصْب والنماءُ، ووافى الـ
ـبِشرُ، والظلُّ، والجَنى، والغَمام[١٠]
وتـلـقَّـى الـهـلالَ مـنـك جـبـيـنٌ
فـيـه حـسـنٌ، وبـالـعُـفـاةِ غَـرام[١١]
فــســلامٌ عــلــيــهــمُ وعــلــيــه
يــومَ حــيَّــتــهــمُ بــه الأيــام
وبدا الملكُ ملكُ عثمانَ من عَلْـ
ـياكَ في الذَّرْوَة التي لا تُرام[١٢]
يـهـرعُ الـعـرشُ، والـمـلـوكُ إلـيـه
وبـنـو الـعـصـر، والـولاةُ الـفِـخـام[١٣]
هـكـذا الـدَّهـرُ: حـالـةٌ. ثـم ضـدٌّ
مـا لـحـالٍ مـع الـزمـان دوام
ولأنــت الــذي رعــيــتَّــهُ الأُسْــ
ــدُ، ومَـسْـرَى ظـلالـهـا الآجـام[١٤]

أمــة الــتُّــركِ، والــعــراقُ، وأهــلــو
ه، ولــبــنــانُ، والــرُّبــى، والــخــيــام
عــالــمٌ لــم يــكــن لــيُــنْــظَــم، لــولا
أنــك الــسَّــلــمُ وَسْــطَــهُ والــوئــام[١٥]
هذَّبته السيوفُ في الدَّهر، والـيو
مَ أتــمــتْ تــهــذيــبَــه الأقــلام[١٦]
أيــقــولــون: سَــكــرةٌ لــن تَــجــلَّــى
وقــعــودٌ مــع الــهــوى، وقــيــام؟[١٧]
لــيــدوقُــنَّ لــلــمُــهــلــهِــلِ صَــحْــوًا
تَــشْــرف الــكــأْسُ عــنــده والــمُــدام[١٨]
وضــع الــشــرقُ فــي يــديــك يــديــه
وأتــت مــن حُــمــاتِــه الأقــســام[١٩]
بــالــولاءِ الــذي تُــريــد الأيــادي
والــولاءِ الــذي يــريــد الــمــقــام[٢٠]
غــيــرَ غــاوٍ. أو خــائــن. أو حــســود
بــرئــت مــن أولــئــك الأحــلام[٢١]
كــيــف تُــهــدَى لــمــا تــشــيــد عــيــونٌ
فــي الــثــرى مــلــؤهــا حــصــىً ورغــام؟[٢٢]
مُــقَــلٌ عــانــت الــظــلامَ طَــويــلاً
فــعــمــاهــا فــي أن يــزولَ الــظــلام[٢٣]
قد تعيش النفوسُ في الضيم حتى
لــتــرى الــضــيــمَ أنــهــا لا تــضــام[٢٤]
أيــهــا الــنــافــرون. عــودوا إلــيــنــا
ولِــجُــوا الــبــابَ، إنــه الإســلام[٢٥]
غــرضٌ أنــتــمُ. وفــي الــدَّهــر ســهــمٌ
يــومَ لا تــدفــعُ الــســهــامَ الــســهــام[٢٦]
نِــمــتــمُ. ثــم تــطــلــبــون الــمــعــالــي
والــمــعــالــي عــلــى الــنــيــامِ حــرام[٢٧]

شَرُّ عيشِ الرجال ما كان حُلْمًا
قد تسيغ المنيَّةَ الأحلام[٢٨]
ويبيت الزمانُ أندلسيًّا
ثم يُضحِي وناسُه أعجام[٢٩]

***

عاليَ البابِ. هَزَّ بابُك مِنَّا
فسعينا. وفي النفوسِ مَرام[٣٠]
وتجلَّيتَ، فاستلمنا، كَما للنـ
ـاسِ بالركن ذي الجلالِ استلام[٣١]
نستميحُ الإمامَ نصرًا لمصرٍ
مثلَما ينصرُ الحسامَ الحسام[٣٢]
فلمصرٍ — وأنت بالحبَّ أدرى —
بكَ — يا حاميَ الحمى — استعصام[٣٣]
يشهدُ الله، للنفوسِ بهذا
وكفانا أن يشهدَ العلاَّم
وإلى السيدِ الخليفةِ نشكو
جورَ دهرٍ، أحرارُه ظُلاَّم[٣٤]
وعدوها لنا وعودًا كبارًا
هل رأيت القُرى علاها الجهام؟[٣٥]
فمللنا، ولم يكُ الداءُ يحمي
أن تملَّ الأرواحُ والأجسام[٣٦]
يمنعُ القيدُ أن تقوم. فهل تا
جٌ؟ فبالتاج للبلاد قيام
فارفع الصوتَ: إنها هي مصرٌ
وارفع الصوتَ: إنها الأهرام
وارعَ مصرًا ولم تزل خيرَ زارعٍ
فلها بالذي أرتكَ زِمام

إن جـهـد الـوفـاءِ مـا أنـت آتٍ
فـلـيـقـم فـي وقـائـك الـخـدَّام[٣٧]
ولـيصـولـوا بـمَـنْ لـه الـدَّهـرُ عـبـدٌ
ولـه الـسـعـدُ تـابـعٌ وغـلام[٣٨]
فـالـلـواءُ الـذي تـلـقَّـوْا رفـيـعٌ
والأمـورُ الـتـي تـولَّـوْا عِـظـام
مَـنْ يُـردْ حَـقَّـهُ فـلـلـحـق أنـصـا
ر كـثـيـرٌ، وفـي الـزمـانِ كـرام
لا تـروقـنْ نـومـةُ الـحـقِّ لـلـبـا
غـي، فـلـلـحـقِّ هـيَّـةٌ وانـتـقـام
إنْ لـلوحـش — والعظامُ مناها —
لـمـنـايـا أسـبـابُـهـن الـعـظـام[٣٩]
رافـعَ الـضـادِ لـلـسُّـهـا، هـل قَـبـولٌ
فـيُـبـاهـي الـنـجـومَ هـذا الـنـظـام؟[٤٠]
قـامـت الـضـادُ فـي فـمـي لـك حُـبًّـا
فَـهْـي فـيـه تـحـيـةٌ وابـتـسـام
إن فـي «يـلـدز» الـهـوى لَـخـلال
أَنـا صَـبٌّ بـلُـطـفـهـا. مُـسـتَـهـام[٤١]
قـد تـجـلَّـت لـخـيـر بـدرٍ أقـلَّـت
فـي كـمـالٍ بـدت لـه أعـلام[٤٢]
فـالـزم الـتـمَّ أيـهـا الـبـدرُ دومًـا
والـزم الـبـدرَ أيـهـذا الـتـمـام[٤٣]

هوامش

(١) فرع عثمان: هو السلطان عبد الحميد.
(٢) يتيه: يتكبَّر.
(٣) إيه: اسم فعل، معناه الاستزادة من الحديث.

(٤) شاد ركنها ألف عام ومئات: أي رفع ركنها ألف عام ومئات، وهي دولة الإسلام منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. تعيدها أعوام: أي ترجعها إلى مثل قوتها أعوام معدودة، هي التي توليت فيها أمرها.

(٥) يسأل الناس عندها: أي عند هذه الحكمة، والمعنى أن بعضهم يسأل بعضًا: هل فيهم مَنْ هو مثلك ساهر على الملك فلا تنام عليه؟

(٦) أم من الناس: أي يسألون أيضًا: أمنهم مَنْ يكون له ذكر بعدك، أنت الذي يصدر عنك القول صادقًا مطاعًا كأنه الوحي، ويصدر عنك العمل صوابًا كأنه إلهام من الله.

(٧) صدق الخلق: أي صدقوا في الحالين، فأنت الذي لا تنام عينك، وأنت القائل المصدق، والفاعل الصواب.

(٨) شرف باذخ: طويل، ويمين بسط (بضم الباء): أي مبسوطة مطلقة، كناية عن الجود والسخاء. أمر جسام. بضم الجيم: عظيم ضخم.

(٩) عمر أنت: أي أنت كعمر بن الخطاب في عدله وتقواه.

(١٠) الخصب: رغد العيش. والجنى: ما يجنى من الشجر.

(١١) وبالعفاة غرام: أي وفيه غرام العفاة. والعفاة: جمع عافٍ وهو طالب الفضل والرزق.

(١٢) من علياك. والعلياء: ما علا من الشيء.

(١٣) يهرع: يمشي إليه بسرعة. والفخام: جمع فخم. وهو العظيم القدر.

(١٤) المسرى، السريان، كما يسري الماء أو السير عامة الليل. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الكثير الملتف.

(١٥) ينظم: أي ينتظم. والسلم: ضد الحرب. والوئام: الوفاق.

(١٦) هذَّبته: أصلحته.

(١٧) لن تجلى: أي لن تنجلي، تنفرج وتنكشف.

(١٨) ليذوقنَّ: هنا قسم، أي والله ليذوقن. والضمير في هذا الفعل للجماعة، يرجع إلى القائلين الذين يدلُّ عليهم قوله «أيقولون» في البيت المتقدِّم، والمهلهل بكسر الهاء الثانية: هو عدي بن ربيعة، أخو كليب بن ربيعة، وكليب هذا كان من الرؤساء في الجاهلية، قتله جسَّاس أخو امرأته وخبرهما مشهور في أيام العرب وحروبهم، وكان المهلهل صاحب شراب وقمار ونساء، فلمَّا علم بقتل أخيه هجر

النساء والغزل، وحرَّم القمار والشراب، وشغل عن هذا كله بالحرب وطلب الثأر. وإلى هذا يشير بقوله: ليذوقنَّ للمهلهل صحوا. إلخ: أي ليذوقنَّ صحوًا كصحو المهلهل، وحربًا كالحرب التي أثارها.

(١٩) الحماة: جمع حامٍ، وهو المانع الدافع. والأقسام: الأيمان: جمع قسم.

(٢٠) الذي تريد الأيادي.. إلخ أي أتوا يحثُّهم الولاء الذي تقتضيه أياديك عليهم — جمع يدٍّ. وهي النعمة — والولاء الذي يستوجبه مقامك الرفيع.

(٢١) برئت من أولئك: أي من هذه الأصناف الثلاثة. والأحلام: العقول.

(٢٢) لما تشيد: لما تبني. والثرى: التراب، وكذلك الرغام.

(٢٣) مقلٌ: جمع مقلة، وهي العين.

(٢٤) الضيم: الظلم والقهر.

(٢٥) النافرون: المتفرِّقون المتباعدون. لجوا: ادخلوا.

(٢٦) الغرض: الهدف الذي يرمي إليه.

(٢٧) المعالي: جمع معلاة (بفتح الميم) وهي الرفعة والشرف.

(٢٨) الحلم (بضم الحاء): ما يراه النائم. جمعه أحلام.

(٢٩) أندلسيًا: أي كزمان الأندلس أيام عزِّ العرب والإسلام فيها.

(٣٠) عالي الباب: أي يا من بابك العالي. هزَّ بابك منا: أي هزَّنا. وفي النفوس مرام: مطلب.

(٣١) تجلَّيت: ظهرت. والركن: ركن الكعبة. والاستلام: اللمس إمَّا بالقبلة أو باليدِّ.

(٣٢) نستميح: نسأل. والحسام: السيف.

(٣٣) الحمى: ما حُمِي من شيء. استعصام: استمساك.

(٣٤) الجور: الظلم. وظُلاَّم: جمع ظالم.

(٣٥) القرى: جمع قرية. والجهام (بفتح الجيم): السحاب لا ماء فيه، يعني أن تلك الوعود كانت كالسحاب الذي لا خير فيه.

(٣٦) ولم يك الداء ييمى.. إلخ: أي لم يكن من شأن الداء أن يمنع الأرواح والأجسام من أن تملَّه وتسأمه.

(٣٧) إن جهد الوفاء: أي غاية الوفاء. ما أنت آتٍ: أي آتيه وفاعله.

(٣٨) وليصولوا: أي وليسطوا بأمرك على مَنْ ظلموا مصر حتى يقهروهم.

(٣٩) العظام: جمع عظم. ومناها: جمع أُمنيَّة. ومنايا: جمع مَنيَّة، أي أنَّ الوحوش تجد منيتها في العظام وهي تطلبها للأكل والغذاء.

(٤٠) الضاد: اللغة العربية. والسُّها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. هذا النظام: أي الشعر.

(٤١) يلدز: قصر السلطان عبد الحميد في الآستانة.

(٤٢) أقلَّت: حملت.

(٤٣) التمُّ والتمام: الكمال.

ذكرى دنشواي[1]

يا دِنشوايَ. على رُباكِ سلامُ ... ذهبتْ بأُنسِ رُبُوعِكِ الأيامُ
شهداءُ حُكمِك في البلاد تفرَّقوا ... هيهاتَ للشملِ الشتيت نظام
مرَّت عليهم في اللحود أهلَّةٌ ... ومضى عليهم في القيودِ العام
كيف الأراملُ فيكِ بعد رجالِها؟ ... وبأيِّ حالٍ أصبح الأيتام؟
عشرون بيتًا أقفرت، وانتابَها ... بعد البشاشةِ وحشةٌ وظلام
يا ليت شعري: في البروج حمائمٌ ... أم في البروج منيَّةٌ وحِمام؟
«نيرونُ»، لو أدركتَ عهدَ «كرومرٍ» ... لعرفتَ كيف تُنفَّذ الأحكام!
نوحي حمائمَ دنشوايَ، وروِّعي ... شعبًا بوادي النيل ليس ينام
إن نامت الأحياءُ حالتْ بينه ... سَحرًا وبين فراشِه الأحلام
متوجِّع، يتمثَّلُ اليومَ الذي ... ضجَّتْ لشدَّةِ هَوله الأقدام
السوطُ يعملُ، والمشانقُ أربعٌ ... متوحَّدات والجنودُ قيام
والمستشارُ إلى الفظائع ناظرٌ ... تَدْمَى جلودٌ حوله وعِظام
في كل ناحيةٍ وكلِّ محلَّةٍ ... جزعًا من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوهِ الثاكلين كآبةٌ ... وعلى وجوهِ الثاكلات رغام

---

[1] قيلت بعد مرور عام على حادثة هذه القضية في سبيل طلب العفو عن سجنائها.

الهلال الأحمر[١]

يا قَومَ عثمان — والدنيا مداوَلة —
تعاونوا بينكم يا قومَ عثمان[١]
كونوا الجدارَ الذي يقوى الجدارُ به
فالله قد جعل الإسلامَ بنيانا[٢]
أمسى السبيل لغير المحسنين دمًا
فشأنكم وسبيلاً نورُهُ بانا
البِرُّ مِنْ شُعبِ الإيمان أفَضلُها
لا يقبل اللهِ دون البرِّ إيمانا[٣]
هل ترحمون — لعل الله يرحمُكم —
بالبيد أهلاً، وبالصحراء جيرانا؟
في ذمَّةِ الله — أوْفَى ذمةٍ — نَفَرٌ
على طرابُلُسٍ يقضون شجعانا[٤]
إن سال جرحاهُمُ من غُربةٍ ووغَى
باتوا على الجمرِ أرواحًا وأبدانا[٥]

[١] كانت جماعة الهلال الأحمر المصرية قد أحيت ليلة تجمع بها التبرعات؛ لإعانة المقاتلين في طرابلس الغرب من الجيش العثماني، حين أغارت إيطاليا عليها، فقال في ذلك هذه القصيدة.

هذا يَحنُّ إلى البسفور مُحْتَضَرًا
وذاك يبكي الغَضَا، والشيح، والبانا[٦]
يُودُعون على بعدٍ ديارَهُمُ
وينشدون بُنَيَّاتٍ وصِبيانا[٧]
أذَنْبُهم عند هذا الدَّهر أنهمُ
يحمون أرضًا لهم دِيست وأوطانا؟
ماتوا، وعِرضُهم الموفورُ بعدهم
والعِرضُ لا عزَّ في الدنيا إذا هانا[٨]
قَوْمي — وجلَّت وجُوهُ القوم — مصرُ بكم
ألقت على كرماءِ الدَّهر نسيانا[٩]
لا تسألون عن الأعوان إن قعدوا
وتنهضون إلى الملهوف أعوانا[١٠]
أكلَّما هَزَّكُم داعٍ لصالحةٍ
قمتم كُهولا إلى الداعي وفتيانا؟[١١]
لو صُوَّر الشرق إنسانًا أخا كرم
لكنتمُ الروحَ، والأقوامُ جثمانا[١٢]
إذا هُزِزتم تلاقى السيفُ منصَلتاً
والريحُ مُرْسَلةً، والغيثُ هتَّانا[١٣]
إذا المكارمُ في الدنيا أُشيِدَ بها
كانت كتابًا، وكنَّا نحن عُنوانا[١٤]
إنَّ الحياةَ نهارٌ أو سحابتُه
فعِشْ نهارَك من دنياك إنسانا
أرى الكريمَ بوجدانٍ وعاطفةٍ
ولا أرى لبخيل القومِ وجدانا[١٥]

***

هذا الهلالُ الذي تُحيون ليلتَه
أبهى الأهلَّةِ عند اللهِ ألوانا[١٦]

أراه من بين أعلامِ الوغَى مَلَكًا
وما سواه من الأعلامِ شيطانا[17]
فانٍ، فقيه من الجَرْحَى مُشاكلةٌ
حتى إذا قيل ماتوا اخضرَّ رَيْحانا[18]
لحامليه جلالٌ منه مقتبَسٌ
كأنما رفعوا للناسِ قُرآنا[19]
كأن ما احمرَّ منه حول غُرَّتِه
دمُ البريء ذَكِيِّ الشيِّبِ عُثمانا[20]
كأن ما ابيضَّ في أثناءِ حُمرته
نورُ الشهيد الذي قد مات ظمآنا[21]
كأنه شفقٌ تسمو العيون له
قد قَلَّدَ الأفَق ياقوتًا ومَرجانا
كأنه من دم العُشاق مختضَبٌ
يُثيرُ حيثُ بدا وجدًا وأشجانا[22]
كأنه من جمال رائع وهُدًى
خدودُ يوسفَ لمَّا عَفَّ وَلْهانا[23]
كأنه وردةٌ حمراءُ زاهيةٌ
في الخُلدِ قد فُتحت في كفِّ رضوانا[24]

هوامش

(١) مداولة: من داول الله الأيام بين الناس، أي صرفها بينهم.

(٢) الجدار: الحائط.

(٣) البرُّ: الخير والعطاء. والشعب: جمع شعبة، وهي غصن الشجرة، أو هي الطائفة من الشيء.

(٤) يقضون: يموتون.

(٥) جرحاهم: أي الجرحى منهم. والوغى: الحرب.

(٦) هذا يحنُّ إلى البسفور.. إلخ: أي مَنْ كان منهم تركيًا يحنُّ إلى بلاده التي كنَّى عنها بالبسفور، ومَنْ كان عربيًا بكى فرقة بلاده التي كنَّى عنها بالغضا

والبان، وهما نوعان من الشجر ينبتان في بلاد العرب، والشيح: هو نبات طيب الرائحة. والمحتضر: مَنْ حضرته الوفاة.

(٧) ينشدون بنيات ... إلخ: يطالبونها ويسألون عنها، أي ينشدون بنياتهم وصبيانهم.

(٨) ماتوا وعرضهم الموفور: أي ماتوا في سبيل صيانة عرضهم، فتركوه عزيزًا موفورًا.

(٩) قومي: أي يا قومي. وجلَّت وجوه القوم: أي وجوهكم، وهذه جملة معترضة بين المنادى وما كان من أجله النداء، وهو الإخبار بأنهم لمَّا جاءوا بالخبر العظيم نُسِي سواهم من الكرماء في غير مصر، فلم يعد لهم ذكر.

(١٠) لا تسألون: أي أنتم لا تسألون. وتنهضون: تقومون. والملهوف: المظلوم المستغيث.

(١١) أكلَّما: الهمزة للاستفهام، وكلما هي لفظ «كل» مضافة إلى «ما» المصدرية الظرفية، وهي حينئذ تفيد التكرار. ولصالحة: أي فعلة صالحة. والكهول: جمع كهل، وهو الرجل من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين.

(١٢) الجثمان: الجسم.

(١٣) السيف المنصلت: المجرَّد من غمده: والهتَّان: المنصب.

(١٤) أشيد بها: أي ذُكِرَت بالثناء عليها.

(١٥) الوجدان والعاطفة: من استعمالات المولدين؛ يراد بهما الشعور القلبي.

(١٦) الهلال: اسم لراية الدولة التركية، وهي حمراء اللون في وسطها رسم الهلال بلون أبيض.

(١٧) أراه من بين أعلام الوغى: أي من بين الأعلام المنشورة في الحرب. ومًلكا: أي كالملك في تنزُّهه وطهارة عمله، وهو واحد الملائكة.

(١٨) المشاكلة: المشابهة.

(١٩) الجلال: التناهي في عظم القدر. ومقتبس: متَّخذ ومستفاد.

(٢٠) الغرَّة: بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم. شبَّه بها رسم الهلال لأنه أبيض. وعثمان: هو الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه).

(٢١) الأثناء: تضاعيف الشيء ومطاويه، واحدها ثني، بكسر الثاء.

(٢٢) مختضب: ملون. والوجد: الحبُّ. والأشجان: الأحزان والهموم.

(٢٣) الجمال الرائع: يروع الرائي، أي يعجبه. ويوسف: هو يوسف الصديق (عليه السلام). وعفَّ: كفَّ عما لا يحلُّ. والولهان: الحزين، أو الذي ذهب عقله حزنًا.

(٢٤) رضوان: من الملائكة، وهو — كما يقول رجال الدين — موكل بأبواب الجنة.

رومة[1]

صديقي المحترم:

صدرتُ[1] عن باريس وكأنها بابلُ ذات البرج والجسرِ وهى في دولتها، أو طيبةٌ[2] في الزمن الأول، إلا أنها مدينة الشمس، وباريس مدينة النور، أو رومةُ[3] مقرُّ القياصِر، وموحدمُ الأجناسِ والعناصر، وهي في رِفعة مُلْكِها الفاخِر، تموج بالأمم كالبحر الزاخر، أو الإسكندريةُ[4] ذاتُ المسلة — والمسلَّة في باريس — وهي في ذروة سعدها وأوج كمالها، تُغيرُ الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها، أو «بغدادُ»[5] في إبَّان إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمنِ أمرها، وأسعدِ حالها، فسبحان المنعم، أعطى «مدينة المعرِضِ» الأسماءَ كلَّها، وجلَّت قُدرتُه، بعث المدائن في واحدة.

رحلتُ عنها في اليوم الذي أسفر صباحُه عن ليلةِ الاحتفال بتوزيع الجوائز على العارضين، وقد نالها منهم ستون ألفًا أو يزيدون، كلهم من مشهوري الصنَّاع، وكبار المخترعين، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر ومشى الخلائق فيها حتى دفناه، وكأنه نهار مرَّ، أو ليلة تقضَّت بالسمر،[6] ثم انقلبنا ننفض الأنامل من ترابه، ونذكر من محاسنه أنه جيلٌ واضح الغُرر والتحجيل،[7] يذكره التاريخُ بالتعظيم والتبجيل، قام العلمُ فيه على أمتن بُنيات، ورُفِعت الحجب بين الحقائق والإنسان، ضُربت له أطولُ سماءٍ من ضروب العرفان، واستمدَّ من القادر[8] مبالغ

---

[1] نظم صاحب الديوان هذه القصيدة، وقدَّمها بكتاب إلى صديقه المؤرِّخ الأستاذ إسماعيل بك رأفت.

الإمكان، فاقتاد البَرَّ بشعرة، وزمَّ البحر بإبرة،[9] وفرَق[10] الأرض وبلغ الجبال، وأوشك أن يمدَّ إلى السماءِ بحبال، ونفذَ على النجم المدى، ووجد على القطب هدى، وغاص على الحروب الماء، وركب إلى الوقائع الهواءَ، وكسر شِرَّة الدَّاءِ[11] وقتل قَتَّاله وراض العياء، ودخل بصرهُ على الجسم الأحشاء، وأنطق الآلة الصمَّاء، ونقل الحديث من فضاءٍ إلى فضاء، على انقطاع الصلَّةِ بين النطق والإصغاء، وحرَّك الصُّوَر وهي هباء، إذا رأيتها حسبتها جماعة الأحياء، ونال سرائر الحوْباء،[12] وخاض في الطبائع[13] والأهواء؛ فانكشف له الغِطاء وبرح الخفاء،[14] ونشرَ فكاد يوحَى إليه في الإنشاء، ونظم فلم يدعْ من آية في الأرض ولا في السماء.

كل هذا أيها الأستاذ عرضته (باريسُ) للناس في خير معرضٍ أخرجِ لهم، فواهًا[15] له من سوق ثم ينفضُّ، ويا أسفًا على بنيانه يومَ ينقضُّ.

برحتُها وهي تجرُّ الذيلَ على المدائن الكُبَر،[16] وتزري بالحضارات ما حضر منها وما غبر،[17] وقصدت إلى رومةَ لعلي أردُّ النفسَ إلى الخشوع. وأداوي الفؤاد من نشوة اغتراره بما رأى، فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلَّم، وحجرٍ كاد لكرامته يُستلم،[18] فوقفت أتأمل ذا الجدارَ وذا الجدار[19] وأنشد[20] ذلك القصر وتلك الدَّار، إلى أن ثار الشعر — والشعر ابن أبوين: «التاريخ، والطبيعة» — فنظمت، وكأني بها في يديك تقرأ.

أحبُّ التوفيق إليَّ — أيها الأستاذ — إكرام العَالِم، وإجلال الصديق، وأنت لي — بحمد الله — هذان كلاهما، فهل تمنُّ بقبول هديَّة هي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر؟

قِفْ بروما، وشاهد الأمرَ، واشهد   أن للمُلك مالكًا سبحانَه
دولةٌ في الثرى، وأنقاضُ مُلكٍ   هدَمَ الدَّهرُ في العُلا بنيانه[21]
مَزَّقت تاجَه الخطوبُ، وألقت   في الترابِ الذي أرى صولجانه[22]
طللٌ، عند دِمْنةٍ، عند رسمٍ   ككتابٍ مَحا البِلى عُنوانه[23]
وتماثيلُ كالحقائقِ، تزدا   دُ وضوحًا على المدى وإبانه[24]
مَنْ رآها يقولُ: هذي ملوكُ   الدَّهر، هذا وقارُهم والرزانه[25]

وبقايا هياكلٍ وقصورٍ … بين أخذِ البِلى ودفع المتانه[٢٦]
عبثّ الدَّهر بالحواريِّ فيها … و«بيليوس» لم يَهب أرجوانه[٢٧]
وجرت هاهنا أمورٌ كبارٌ … واصل الدهرُ بعدها جَريانه
راح دينٌ، وجاءَ دينٌ، وولَّى … مُلكُ قومٍ، وحلَّ مُلكٌ مكانه[٢٨]
والذي حصَّلَ المجدون إهرا … قُ دماءٍ خليقةٍ بالصيانه[٢٩]
ليتَ شعري: إلامَ يقتتل النا … سُ على ذي الدَّنِيَّه الفتانه؟[٣٠]
بلدٌ كان للنصارى قتادًا … صار ملْكَ القُسوس، عرش الديانه[٣١]
وشعوبٌ يمحون آيةَ عيسى … ثم يُعلون في البريَّةِ شانه
ويُهينون صاحبَ الروح ميْتًا … ويُعِزُّون بعدَه أكفانه[٣٢]
عالمٌ قُلَّبٌ، وأحلامُ خَلْقٍ … تتبارى غباوةً وفطانه[٣٣]
رومة الزهوِ في الشرائعِ، والحكـ … ـمة في الحُكم، والهوى، والمجانه[٣٤]
والتناهي، فما تعدَّى عزيزًا … فيكِ عِزٌّ، ولا مَهينًا مهانه[٣٥]
ما لحيٍّ لم يُمْسِ منكِ قبيلٌ … أو بلادٌ يُعدُّها أوطانه[٣٦]
يصبحُ الناس فيك مولى وعبدًا … ويرى عبدُكِ الورع غِلمانه[٣٧]
أين مُلكٌ في الشرقِ والغربِ عالٍ … تحسُدُ الشمسُ في الضحى سلطانه؟[٣٨]
قادرٌ، يمسخُ الممالكَ أعما … لاً، ويعطي وَسِيعَها أعوانه[٣٩]
أين مالٌ جَبَيْتِهِ، ورعايا … كلُّهم خازنٌ، وأنتِ الخزانه؟[٤٠]
أين أشرافُكِ الذين طَغَوْا في الدَّهـ … ـرِ حتى أذاقهم طغيانه؟[٤١]
أين قاضيكِ؟ ما أناخ عليه؟ … أين ناديكِ؟ ما دَهى شيخانه؟[٤٢]
قد رأينا عليكِ آثارَ حزنٍ … ومن الدُّور ما ترى أحزانَه
أقصِري، واسألي عن الدَّهر مصرًا … هل قضتْ مَرَّتَيْن منه اللُّبانه؟[٤٣]
إنْ مَنْ فرَّق العبادَ شعوبًا … جعل القِسط بينها ميزانه[٤٤]
هبْكِ افنيتِ بالحدادِ الليالي … لن تَردِّي على الورى رومانه[٤٥]

هوامش

(١) صدرت عن باريس: رجعت وانصرفت. وبابل: مدينة قديمة بناها بختنصر في آسيا الصغرى، وكان بها بناء عظيم ذو طبقات بعضها فوق بعض، وهو ما يُسمَّى برجًا، وقالوا في صفته: إنه كان ذا طبقات، طول كل من جوانب الطبقة

الأولى بلغ ٢٧٢ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وفوقها طبقة ثانية طول كل من جوانبها ٢٣٠ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا. كانت مائلة فوق الطبقة الأولى إلى الطرف الجنوبي الغربي، وكانت الطبقات الباقية موضوعة هذا الوضع، وكان طول الثالثة ١٨٨ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وكان طول الرابعة ١٤٦ والخامسة ١٠٤. والسادسة ٦٢. والسابعة ٢٠، وكان ارتفاع كل من هذه الطبقات الأربع الأخيرة ١٥ قدمًا، وأمَّا جسر بابل فيذكرون عنه أنه كان هناك نهر يشقُّ المدينة من الشمال إلى الجنوب، وكان على كل من جانبي النهر سور له باب عند منتهى كل سوق من أسواق المدينة، وكان فوق النهر جسر واحد، وهو الجسر المنسوب إلى بابل، ويذكرون لها عجائب أخرى؛ كالبساتين المعلقة وسواها.

(٢) طيبة: مدينة مصرية قديمة كانت مقرَّ الملك في بعض الأزمنة. وكانت بها عبادة الشمس؛ ولهذا سمَّاها مدينة الشمس.

(٣) رومة: عاصمة الدولة الإيطالية في هذا الزمن، وكانت مقرَّ الرومان في الزمن القديم. والقياصر: جمع قيصر، وهو لقب لكل ملك من ملوك الروم.

(٤) الإسكندرية: المدينة الثانية في الدولة المصريَّة، مشهورة في التاريخ القديم بمسلاتها العجيبة، والمسلَّة التي في باريس نقلها الفرنسيون حين أغاروا على البلاد المصرية منذ نحو قرن.

(٥) بغداد: عاصمة العراق العربي، كانت مقرَّ ملك الدولة العباسية. وسلطان أقيالها: قوَّة ملوكها. وأيمن أمرها: أي أتمُّ أمرها يمنًا وبركة.

(٦) السمر: حديث الليل.

(٧) الغرر: جمع غرَّة، وهي بياض قدر الدرهم في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أيضًا.

(٨) القادر: اسم من أسماء الله تعالى.

(٩) زمَّ البحر. من قولهم زمَّ الشيء، إذا شدَّه وجمعه.

(١٠) فرق الأرض، بتخفيف الراء: فصلها وأبان مسالكها.

(١١) الداء العياء: الذي لا برء منه.

(١٢) السرائر: جمع سريرة، وهي السرُّ الذي يكتم. والحوباء: النفس.

(١٣) الطبائع: جمع طبيعة، وهي السجيَّة التي جُبِلَ عليها الإنسان، وقيل: هي القوة السارية في الأجسام، التي بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي.

(١٤) برح الخفاء: أي وضح.

(١٥) واهًا: كلمة للتعجُّب من طيب كل شيء. أي ما أطيبه، وتكون للتلهُّف، وللتفجُّع أيضًا، يقال: واهًا على ما فات.

(١٦) الكبر: جمع كبرى.

(١٧) تزري: تضع منها أو تصغر شأنها. وما غبر: ما مضى.

(١٨) استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليدِّ.

(١٩) الجدار: الحائط.

(٢٠) أنشد ذلك القصر.. إلخ: اسأل عنه، أو اطلبه.

(٢١) الثرى: التراب. والأنقاض: جمع نقض، بضم النون، وهي ما انتقض من البنيان. والعلا: الرفعة والشرف.

(٢٢) الصولجان: هو المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

(٢٣) الظلل: ما شخص من آثار، والدمنة: آثار الدِّيار أيضًا. والرسم: ما كان لاصقًا بالأرض من آثار الدار.

(٢٤) تماثيل: جمع تمثال: بكسر التاء. والإبانة: الإيضاح.

(٢٥) الوقار والرزانة: بمعنى واحد، وهو الحلم والعظمة.

(٢٦) هياكل: جمع هيكل، وهو هنا إمَّا البناء المرتفع، وإمَّا بيت الأصنام:

(٢٧) الحواري: الناصر، والناصح أيضًا. ويليوس: هو يليوس قيصر أحد قياصرة الرومان الأقدمين. والأرجوان: صبغ أحمر، وقيل هو الحمرة من الألوان، والمراد به هنا الدمُّ لحمرته، كناية عن القوَّة التي يستحلُّ صاحبها سفك الدماء.

(٢٨) راح دين: ذهب، وهو دين الرومان قبل النصرانية. وجاء دين: وهو النصرانية. وولَّى ملك الرومان الأقدمين، وحلَّ مكانه ملك الغالبين بعد ذلك التاريخ.

(٢٩) والذي حصَّل المجدُّون.. إلخ! أي أن أولئك الذين سعوا بالحرب والقتال؛ ليحلوا في رومة دينًا بدل دين، ويقيموا ملكًا جديدًا على أنقاض ملك ذاهب، لم يجنوا من ذلك كله ثمرة إلاَّ إراقة دماء البشر التي تستحق الصيانة والحفظ.

(٣٠) الدنيَّة الفتَّانة: هي الدنيا.

(٣١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر، والمراد أن وصولهم إليه كان صعبًا شاقًا، كالمشقَّة التي يجدها الإنسان من القتاد في خرطه وإشاكته.

(٣٢) المعنى في هذا البيت والبيت الذي قبله أنهم يخالفون شريعة عيسى، بينما يدَّعون تعظيمه.

(٣٣) القلَّب — بتشديد اللام: المحتَّل.

(٣٤) الزهو: المنظر الحسن والكبر، والتيه: الفخر. والمجانة: الهزل.

(٣٥) التناهي: بلوغ النهاية. فما تعدى عزيزًا.. إلخ أي إنك بلغت النهاية في كل شيء، فمَنْ كان فيك عزيزًا لم يفته شيء من أسباب العزِّ، ومَنْ كان مهينًا لم يفته شيء من موجبات المهانة.

(٣٦) أي لم يكن لغير أهلك عشيرة يعتزُّون بها، ولا بلاد يتَّخذونها وطنًا يلجئون إليه؛ لأنك أسقطت العشائر والعصبيات، وغلبت الجميع على أوطانهم.

(٣٧) يصبح الناس فيك. إلخ: يعني أن أهلك كانوا سادة وعبيدًا، وكان للعبيد على الأجانب عزُّ السادة وسلطانهم.

(٣٨) سلطانه: قوته.

(٣٩) قادر: وصف للملك في البيت المتقدِّم. ويمسخ الممالك أعمالاً: أي يحولها أعمالاً. والأعمال ما تكون من البلاد تحت حكم المملكة ومضافًا إليها.

(٤٠) جبيته: جمعته.

(٤١) الأشراف: جمع شريف، وكان في رومة لعهدها القديم طائفة الأشراف تسوَّدت على مَنْ عداها؛ ونشأ بذلك في الشعب فريقان منفصلان: هما فريق السادة المسيطرين، وفريق العامة المسخَّرين.

(٤٢) أين ناديك: المراد به دار ندوة الرومان، وكانت هي ما نُسمِّيه الآن في النظم الدستورية مجلس الشيوخ. وما دهى: ما أصاب. وشيخانه: جمع شيخ، وهو الرجل تتألف منه ومن سواه جماعة المجلس.

(٤٣) أقصري: أي انتهي عند هذا الحدِّ وأمسكي عن الاسترسال. واللبانة: الحاجة.

(٤٤) القسط: العدل.

(٤٥) هبك: اسم فعل، أي افرضي أنك أفنيت ... إلخ.

على قبر نابليون

قِف على كنزٍ بباريسَ دفينْ — من فريد في المعاني وثمين
وافتِقد جوهرةً من شرف — صَدَفُ الدَّهر بِتربَيْها ضنين[1]
قد توارت في الثرى، حتى إذا — قَدُم العهدُ توارت في السنين
غرَّبَت حتى إذا ما استيأست — دنتِ الدارُ، ولكن لاتَ حين
لم تُذِبْ نارُ الوغى ياقوتَها — وأذابته تباريحُ الحنين[2]
لا تلوموها، أليست حُرَّةً — وهوى الأوطانِ للأحرار دين؟

* * *

غيَّبتْ باريسُ ذخرًا، ومضى — تُرْبُها القيِّمُ بالحرزِ الحصين[3]
نزلَ الأرضَ، ولكن بعدما — نزلَ التاريخَ قبرَ النابغين
أعظُمُ الليثِ تلقَّاها الثَّرى — ورفاتُ النسرِ حازته الوكون[4]
وحوَى الغِمدُ بقايا صارمٍ — لم تُقلِّب مثلَه أيدي القُيون[5]
شيَّد الناسُ عليه، وبَنوْا — حائطَ الشكِّ على أُسِّ اليقين[6]
لستَ تُحصِي حولَه ألوِيةً — أُسِرَت أمسِ، وراياتِ سُبين[7]
نامَ عنها وهي في سُدَّتِهِ — ديْدَبانٌ ساهِرُ الجَفْنِ أمين
وكأيِّ من عدوٍّ كاشِحٍ — لك بالأمس هو اليومَ خَدين[8]
ووليٌّ كان يسقيك الهوى — عسلاً قد بات يسقيك الوزين[9]
فإذا استكرمتَ وُدًّا فاتَهم — جوهرُ الودِّ — وإن صَحَّ — ظنين[10]

* * *

مَـرْمَـرٌ أضْـجِـعَ فـي مـسـنـونِـهِ حَـجـرُ الأرض وضِـرغـامُ الـعَـريـن[١١]
جـلَّـلـتْـه هـيـبَـةُ الـثـاوي بـه رَوعةَ الحكمةِ في الشعر الرصين[١٢]
هـل دَري الـمـرمـرُ مـاذا تـحـتـه من قُوَى نفسٍ، ومن خَلق متين؟
أيـهـا الـغـالـون فـي أجـداثـهـم ابحثوا في الأرض: هل عيسى دفين؟[١٣]
يـمَّـحِـي الـمـيْـتُ، ويـبـلَـى رمـسُـه ويَـغـولُ الـربـعَ مـا غـالَ الـقـطـين[١٤]
حـصَّـنـوا مـا شـئـتـمُ مـوتـاكُـم! هل وراءَ الموتِ من حصنٍ حصين؟
ليس في قبرٍ — وإن نال السُّها — مـا يـزيـد الـمـيـتَ وزنًـا ويـزيـن[١٥]
فـانـزل الـتـاريـخَ قـبـرًا، أو فـنـمْ في الثرى غُفْلاً كبعضِ الهامدين[١٦]
واخـدَع الأحـيـاءَ مـا شـئـتَ، فـلـن تـجـدَ الـتـاريـخ فـي الـمـنـخـدعـين!

* * *

يـا عـصـامـيًـا حـوى الـمـجـد سـوَى فَضلةٍ قد قُسِّمت في المُعرقين[١٧]
أُمُّـكَ الـنـفـسُ قـديـمًـا أكْـرَمـتْ وأبـوكَ الـفـضـلُ خـيـرُ الـمُـنـجـبـين[١٨]
نَـسـبُ الـبـدرِ أو الـشـمـسِ — إذا جِـيءَ بـالآبـاءِ — مـغـمـورٌ رهـيـن
وأصـولُ الـخـمـر مـا أَزكـى عـلـى خُبْثِ ما قد فعلَت بالشاربين
لا يـقـولَـنَّ أمْـرُؤ: أصْـلِـي، فـمـا أصلُـه مسكٌ وأصل الناس طين
قـد تـتـوجْـتَ، فـقـالـت أمَـم: ولَـدُ الـثـورةِ عـقُّ الـثـائـريـن
وتـزوَّجـتَ، فـقـالـوا: مَـالَـه ولـحـورٍ من بنات الملْكِ عِين؟[١٩]
قـسـمًـا لـو قـدَروا مـا احـتـشـمـوا لا يَـعِـفُّ الـنـاسُ إلا عـاجـزين

* * *

أرأيـتَ الـخـيـرَ وافـى أمَّـةً لم ينالوا حظَّهم في النابغين؟
يـصـلُـحُ الـمـلْـكُ عـلـى طـائـفـةٍ هم جمالُ الأرض حينًا بعد حين
مَـلَـئـوا الـدنـيـا، عـلـى قِـلَّـتـهـم وقـديـمًـا مُـلـئـتْ بـالـمـرسَـلـين
يـحـسُـنُ الـدَّهـرُ بـهـم مـا طـلـعـوا وبـهـم يـزدادُ حـسـنًـا آفـلـين[٢٠]
قـد أقـامـوا قـدوةً صـالـحـةً ومـضـوْا أمـثـلـةً لـلـمـحـتـذِيـن

إنما الأسوةُ — والدنيا أسًى — سببُ العُمران، نظمُ العالَمين[٢١]
يا صريعَ الموتِ ندمانَ البِلى كلُّ حيٍّ بالذي ذُقت رهين[٢٢]
كِدْتَ من قْتل المنايا خبرةً تعلمُ الآجالَ أيَّانَ تحين؟[٢٣]
يا مبيدَ الأُسْدِ في آجامها هل أبادت خيلُكَ الدودَ المهين؟
يا عزيز السجن بالبابا، إلى كم تردَّى في الثرى ذلَّ السجين؟[٢٤]
رُبَّ يومٍ لكَ جَلَّى وانثنى سائلَ الغُرَّةِ ممسوحَ الجبين[٢٥]
أحرز الغايةَ نصرًا غاليًا لفرنسا، وحوى الفتحَ الثمين
قيصرا الأنسابِ فيه نازَلاَ قيصَر النفسِ عصامَ المالكين[٢٦]
مُجلِسَ التاج على مفرِقه بيديه، لا بأيدي المُجلسين[٢٧]
حولَ (استرلتزَ) كان المنتقى واصطدامُ النَسرِ بالمستنسِرين[٢٨]
وُضِع الشطرنْجُ، فاستقبلْتَه ببنانٍ عابث باللاعبين
فإذا المَلْكان: هذا خاضعٌ لك في الجمعِ، وهذا مُستكين[٢٩]
صِدْتَ شاهَ الروسِ والنمسا معًا مَنْ رأى شاهَيْنِ صِيدا في كمين؟

***

يا مُلَقَّى النصر في أحلامِه أين من وادي الكرى (سنِت هلين)؟[٣٠]
يا مُنيلَ التاجِ في المهد ابنَه ما الذي غرَّك بالغيبِ الجنين؟[٣١]
اتَّئِدْ في أَمّةٍ أرْهَقتَها إنها كالناسِ من ماءٍ وطين
أتعبَ الريحَ مَدَى ما سَلكتْ من سُهولٍ وأجازت من حُزون[٣٢]
من أديم يَهْرَأُ الدبَّ، إلى فلواتٍ تُنضِجُ الضَّبَّ الكنين[٣٣]
لك في كلِّ مُغارٍ غارةٌ وعليها الدمعُ فيه والأنين[٣٤]
ومِن المكرِ تَغنِّيك بها هل يُزَكِّي الذَّبحَ غيرُ الذابحين؟[٣٥]
سُخِّرَ الناسُ وإن لم يشعروا لقوَّي، أو غنيَّ، أو مُبين
والجماعاتُ ثنايا المرتقى في المعالي، وجُسورُ العابرين

***

يا خَطيبَ الدَّهرِ، هل مال البِلى بلسانٍ كان ميزانَ الشئون؟
تُرْجَحُ السلْمُ إذا حرَّكتَه كِفَّةْ، أو تُرْجَحُ الحربُ الزَّبون

خُـطَـبٌ لا صـوتَ إلاَ دونَـهـا ... في صداها الخيلُ تجري والسنين
من قَصيرِ اللفظِ، في مكرِ النُّهى ... وطويلِ الرُّمح، في كيدِ الوتين
غـيـرَ وضَّـاعٍ، ولا واشٍ، ولا ... مُنكرِ القولِ، ولا لغو اليمين
سِرْن أمثالاً، فلو لم يُحيهِ ... سيفُهُ أحْيينَه في الغابرين[٣٦]

***

قُمْ إلى الأهرام، واخشعْ، واطَّرحْ ... خَيْلَةَ الصيَّدِ، وزهوَ الفاتحين[٣٧]
وتـمـهَّلْ، إنما تمشي إلى ... حَرَمِ الدَّهر ومحرابِ القرون
هو كالصخرةِ عند القبط، أو ... كالحَطِيم الطُّهْرِ عند المسلمين
وتسنَّم مِنْبَرًا من حَجَرٍ ... لم يكنْ قبلَكَ حظَّ الخاطبين
وادْعُ أجيالاً تولَّتْ يسمعوا ... لك، وابعث في الأوالي حاشرين
وأَعِدْها كلماتٍ أربعًا ... قد أحاطت بالقرون الأربعين[٣٨]
ألهبت خيلاً، وحضَّت فَيْلَقًا ... وأحالت عسلاً صابَ المَنون
قد عَرَضْتَ الدهرَ والجيشَ معًا ... غايةٌ قصَّرَ عنها الفاتحون
ما علمنا قائدًا في موْطِنٍ ... صَفحَ الدَّهرَ، وصفَّ الدارعين[٣٩]
فترى الأحياءَ في معتَركٍ ... وترى الموتى عليهم مُشرِفين
عظةٌ قومي بها أولى وإن ... بُعد العهدُ، فهل يعتبرون؟
هذه الأهرامُ تاريخُهمُ ... كيف من تاريخهم لا يستحون؟

***

يا كثيرَ الصيَّدِ للصِّيد العُلا ... قُمْ تأمَّلْ: كيف صادتْك المَنون؟
قمْ تَرَ الدنيا كما غادرتَها ... منزلَ الغدر وماءَ الخادعين
وتَرَ الحقَّ عزيزًا في القنا ... هيِّنًا في العُزَّل المستضعفين[٤٠]
وتَرَ الأمرَ يدًا فوق يدٍ ... وترَ الناسَ ذئابًا وضئين[٤١]
وترَ العزَّ لسيف نَزِقٍ ... في بناء الملك، أو رأي رزين
سننٌ كانت، ونَظْمٌ لم يزلْ ... وفسادٌ فوق باعِ المصلحين

هوامش

(١) التِّرب: اللِّدة والنظير، والتثنية هنا في معنى الإفراد.

(٢) تباريح الشوق: توهُّجه، على أنه جمع لا مفرد له، أو هو جمع تبريح.

(٣) الحرز: الموضع الحصين.

(٤) الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. والوكون: جمع وكن، وهو عشُّ الطائر في جبل أو جدار.

(٥) الصارم: السيف القاطع. والقيون: جمع قين وهو صانع الحديد. والشرى والوكون والغمد: كلها في هذين البيتين كنايات عن باريس.

(٦) حائط الشكِّ: كناية عن القبر. وأُسُّ اليقين: هو الموت الذي يتمثل فيها ضمُّ القبر من رفات.

(٧) يشير إلى تلك الأعلام التي غنمها نابليون في حروبه، ثم وُضِعَت على قبره، رمزًا لما نال في هذه الحروب من نصر وتوفيق.

(٨) العدو الكاشح: هو الباطن العداوة. والخدين: هو الصاحب والحبيب.

(٩) الوزين: حَبُّ الحنظل المطحون.

(١٠) الظنين: المتهم.

(١١) المرمر المسنون: المصقول. وحجر الأرض: كناية عن محورها، والمراد به نابليون. والضرغام: الأسد.

(١٢) الثاوي: المقيم.

(١٣) الغالون: جمع غالٍ، وهو المسرف.

(١٤) يمحي: أي يزول. والرمس: القبر. والقطين: السُكَّان.

(١٥) السُّها: كوكب من بنات نعش الصغرى، يُضْرَبُ به المثل في السمو والارتفاع.

(١٦) غفلاً: أي مجهولاً.

(١٧) الفضلة: البقية من كل شيء. والمعرَّق: العريق الأصل.

(١٨) أكرمت: أي ولدت كرامًا.

(١٩) يشير إلى زواجه من ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا.

(٢٠) أفول النجم: غروبه، والمراد به هنا الموت.

(٢١) الأسوة: القدوة وجمعها أُسى.

(٢٢) الندمان: النديم على الشراب وندمان البلى: كناية عن الميت.

(٢٣) يشير إلى قول نابليون: «إنَّ الرصاصة التي تخرق هذا الصدر لم تخلق بعد» يقول: إنك لكثرة ما اختبرت المنايا بقتل أعدائك أصبحت تعرف متى تحين الآجال.

(٢٤) يشير إلى ما فعل نابليون بالبابا.

(٢٥) جلى: سبق، والغرَّة — في جبين الفرس: بياض. ومسح الجبين: عادة لسوَّاس الخيل يأتونها بعد سبق جيادهم في حلبة الرهان. ولا يخفى ما في البيت كله من مراعاة النظير.

(٢٦) يريد بقيصري الأنساب: ملكي الروسيا والنمسا، وقد ولدا للملك والسلطان. وقيصر النفس نابليون، وهو الذي سوَّد نفسه ولم تسوِّده الأنساب.

(٢٧) الإشارة إلى نابليون، يشير إلى أنه هو الذي توَّج نفسه بيده يوم قُدِّم إليه التاج، ولم ير لأحد ممَنْ قدَّموه له حقًّا في هذا العمل.

(٢٨) استرلتز: موقعة من المواقع التي انتصر فيها نابليون.

(٢٩) الملك: بتسكين اللام، هو الملك.

(٣٠) سانت هيلين: الجزيرة التي نُفِي إليها نابليون.

(٣١) يشير إلى قول نابليون يوم بُشِّر بولي عهده أو كما سمَّاه «ملك روما» المستقبل لي.

(٣٢) الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٣٣) الأديم هنا: سطح الأرض. وهرأ اللحم: أنضجه. والكنين: المستور في جحره.

(٣٤) المغار: الغارة على الأعداء. والغار: ورق الكروم، وقد كان يُتَّخذُ منه إكليل للفاتح المنصور عند القدماء.

(٣٥) التزكية: المدح. والذبح: ما يذبح.

(٣٦) الغابر: الماضي والآتي، من أسماء الأضداد.

(٣٧) الصيد: الملوك.

(٣٨) يشير إلى تلك الجملة المشهورة التي قالها وهو على قمة الهرم يشجِّع جنوده البواسل: «أيها الجنود: أنَّ أربعين قرنًا تنظر إليكم من قمة الأهرام».

(٣٩) صفح الكتاب: قلب صفحاته.

(٤٠) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

(٤١) الضئين: الغنم.

تكريم[١]

وطـنٌ يـرفُّ هـوًى إلـى شُـبَّـانـه   كـالـرَّوض رِفَّـتـه عـلـى رَيـحـانـه[١]
هم نَظْمُ حِليتِه، وجَوهرُ عِقدهِ   والـعِـقـد قـيـمـتُـه يـتـيـمُ جُـمـانـه[٢]
يـرجـو الـربـيـعَ بـهـم ويـأملُ دولـةً   مـن حـسِـنـه، ومـن اعـتـدالِ زمـانـه[٣]
من غاب منهم لم يغب عن سَمعِه   وضـمـيـرِه، وفـؤادِه، ولـسـانـه
وإذا أتـاه مـبـشـرًّ بـقـدومِـهـم   فـمـن الـقـمـيـص ومـن شـذى أردانـه[٤]
ولـقـد يـخُـصُّ الـنـافـعـين بـعـطـفِـه   كـالـشـيـخ خَـصَّ نـجـيـبَـه بـجـنـانـه[٥]
هـيـهـات يـنـسَـى بـذلَـهـم أرواحَـهـم   فـي حـفـظِ راحـتِـه وجـلـب أمـانـه
وقـفـوا لـه دون الـزمـانِ ورَيـبِـه   ومـشـت حـداثـتُـهـم عـلـى حـدَثـانـه[٦]
فـي شـدَّةٍ نُـقـلَـتْ أنـاةُ كُـهـولِـه   فـيـهـا، وحـكـمـتُـهـم إلـى فـتـيـانـه[٧]

***

قُمْ يا خطيبَ الجمع، هات من الحلى   مـا كـنـتَ تـنـشـرُه عـلـى آذانـه
فـلـطـالـمـا أبـدى الـحـنـيـنَ لـقـسَّـه   واهـتـزَّ أشـواقًـا إلـى سَـحـبـانـه[٨]
نـادِ الـشـبـابَ، فـلـم يـزلْ لـك نـاديًـا   والـمـرءُ ذو أثـر عـلـى أخـدانـه[٩]
أُمْدُدْ حُداءَك في النَّجائبِ تنصرفْ   بـهـوى أعـنَّـتِـهَـا إلـى تـحـنـانـه[١٠]

[١] نظم صاحب الديوان هذه القصيدة الاجتماعية في احتفال تكريمي أقيم للأساتذة: عبد الملك حمزة، وإسماعيل كامل، وعوض البحراوي، في فندق شبرد.

أَلْقِ النصيحةَ غيرَ هائبِ وقعِها ... ليس الشجاعُ الرأْيِ مثلَ جبانه
قُلْ للشباب: زمانُكم مُتحرِّك ... هل تأخذون القسطَ من دورانه؟[١١]
قمتم على الأحلامِ تلتزمونَها ... كالعالمِ الخالي على أوثانه[١٢]
وتُنازِعون الحيَّ فضلَ ثيابه ... والميْتَ ما قد رثَّ من أكفانه
ولقد صدقتم هذه الأرضَ الهَوى ... والحرُّ يصدُق في هَوى أوطانه
أملٌ بذلتم كلَّ غالٍ دونَه ... وفقدتمُ ما عزَّ في وجدانه[١٣]
الليثُ يدفعكم بشدَّةِ بأسه ... عنه، ويطعِمُكم بفرط لِبانه[١٤]
يريد هذا الطيرَ حرًّا مطلقًا ... لكن بأعْيِنه وفي بُستانه

* * *

أوفدتمُ وفدًا، وأوفد ربُّكم ... معه العنايةَ، فهْي من أعوانِه
العصرُ حرٌّ، والشعوبُ طليقةٌ ... ما لم يَحُزْها الجهلُ في أرسانه[١٥]
فاضَ الزَّمانُ من النبوغِ، فهل فتى ... غمَرَ الزَّمانَ بعلمه وبيانه؟
أين التجارةُ وهي مضمارُ الغنى؟ ... أين الصناعةُ وهي وجهُ عَنانه؟[١٦]
أين الجوادُ على العلوم بماله؟ ... أين المشاركُ مصرَ في فدانه؟[١٧]
أين الزراعةُ في جنانٍ تحتكم ... كخمائل الفردوس أو كجِنانه؟[١٨]
أئذا أصاب القطنَ كاسدُ سوقِه ... قمنا على ساقٍ إلى أثمانه؟
يا مَنْ لشعبٍ رزؤه في مالِه ... أنساه ذكرَ مصابِه بكيانه؟[١٩]
الملكُ كان، ولم يكن قطنٌ، فلم ... يُغلَب أُبوَّتُنا على عُمرانه[٢٠]
(الفاطميةُ) شيَّدت من عزِّهِ ... وبَنَى (بنو أيوبَ) من سلطانه[٢١]
بالقطنِ لم يرفعْ قواعدَ مُلكه ... فرعونُ، والهرمان من بنيانه
لكن بأوَّلِ زارعٍ نقض الثَّرى ... بذكائه، وأثاره ببنانه[٢٢]
وبكلِّ مُحسنِ صنعةٍ في دهرِه ... تتعجبُ الأجيالُ من إتقانه
وبهمةٍ في كلِّ نفسٍ حلَّقت ... في الجوِّ. وارتفعت على كيوانه[٢٣]
ملكٌ من الأخلاقِ كان بناؤه ... من نحت أوَّلكم ومن صَوَّانه[٢٤]
فأْتوا الهياكلَ إن بنيتم، واقبسوا ... من عرشه فيها، ومن تِيجانه

هوامش

(١) يرف هوى إلى شبَّانه: يرتاح إليهم. والرَّوض: الأرض المخضرَّة بالنبات. جمع روضة.

(٢) نظم حليته: جمعها وضم بعضها إلى بعض. واليتيم: الثمين الذي لا نظير له. والجُمان: اللؤلؤ. واحدته: جمانة.

(٣) يرجو الربيع.. إلخ: أي إن هذا الوطن يرجو أن يكونوا له مثل الربيع، وهو خير فصول السنة، ويأمل أن تقوم له دولة منهم، لها من الحسن والاعتدال ما يكون منها للربيع وزمنه.

(٤) وإذا أتاه مبشِّر.. إلخ: أي إذا أتى الوطن مبشر بأنهم قادمون عليه من غيبتهم، كان تأثير هذه البشرى فيه كتأثير قميص يوسف في أبيه يعقوب. والشَّذى: قوة ذكاء الرائحة. والأردان: جمع ردن، وهو أصل الكم.

(٥) يخصُّ النافعين بعطفه: يفردهم به. والنجيب: الولد كرم حسبه وحمد رأيه أو قوله أو فعله.

(٦) الحداثة: صغر السن. والحدثان (بفتح الدال): نوائب الدَّهر.

(٧) الأناة: الحلم والوقار.

(٨) قسٌّ بن ساعدة: خطيب عربي من نجران يُضْرَبُ المثل ببلاغته. وسحبان: خطيب كذلك، وهو من وائل، والضمير فيها للوطن.

(٩) الشباب: جمع شاب. والأخدان: الأصدقاء، جمع خدن.

(١٠) الحُداء: الغناء للإبل لتنشط في مسيرها. والنجائب: النياق الكريمة. والأعنَّة: جمع عنان، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة. والتحنان: الحنين.

(١١) القسط: النصيب.

(١٢) الأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم. والخالي: الماضي. والأوثان: جمع وثن: وهو ما يتخذ للعبادة من حجر ونحوه.

(١٣) وجدان الشيء: إدراكه والظفر به.

(١٤) اللبان: اللبُّ.

(١٥) الأرسان: جمع رسن، وهو الزمام يكون على أنف الدابة.

(١٦) العنان (بفتح العين): السحاب.

(١٧) الجواد: الكريم الكثير الجود.

(١٨) الجنان: جمع جنة. والخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الكثير الملتف. والفردوس: الجنة أو نعيمها.

(١٩) يامن لشعب.. إلخ: كان قد لحق القطن كساد عظيم؛ فارتاع له المصريون جميعًا. وكاد يشغلهم أمره عن الجهد في قضية الاستقلال، فهو يشير إلى ذلك.

(٢٠) أبوتنا: آباؤنا.

(٢١) الفاطميَّة: أي الخلفاء الفاطميون، أو الدولة الفاطمية، وهي إحدى الدول التي قامت في مصر بعد الإسلام، ومؤسسها المعزُّ لدين الله، قدم من بلاد المغرب ففتح مصر، وكانت دولتهم عزيزة الجانب مرهوبة السلطان. وبنو أيوب أيضًا: مؤسسو الدولة الأيوبية، وكان أعظمهم شأنًا السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي.

(٢٢) الثرى: التراب، والمراد به الأرض. ونقضها: أي شقُّها للزرع. والبنان: أطراف الأصابع.

(٢٣) حلَّقت: من حلَّق الطائر، إذا ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة. وكيوان: اسم زحل بالفارسية.

(٢٤) الصَوَّان (بفتح الصاد وتشديد الواو): ضرب من الحجارة شديد.

اعتداء[1]

نـجَـا وتَـمَـاثَـلَ رُبَّـانُـهـا ... ودقَّ الـبـشـائـرَ رُكْـبـانُـهـا[1]
وهـلَّـل فـي الـجـوِّ قـيْـدومُـهـا ... وكـبَّـر فـي الـمـاءِ سُـكَّـانـهـا[2]
تـحـوَّل عـنـهـا الأذى، وانـثـنـى ... عُـبـابُ الـخـطـوبِ وطـوفـانـهـا
نجا (نوحُها) من يدِ المعتدي ... وضـلَّ الـمـقـاتـلَ عُـدْوانـهـا[3]
يـدٌ لـلـعـنـايـةِ، لا يـنـقـضـي ... — وإن نَفد العُمرُ — شُكرانها
وقـى الأَرضَ شـرَّ مـقـاديـرِه ... لـطـيـفُ الـسـمـاءِ ورَحْـمَـانـهـا[4]
ونـجَّـى الـكـنـانـةَ مـن فـتـنـةٍ ... تـهـدَّدتِ الـنـيـلَ نـيـرانـهـا[5]
يسيلُ على قرنِ شيطانها ... عـقـيـقُ الـدِّمـاءِ وعِـقـيـانـهـا[6]
فيا (سعدُ)، جُرحُك ساءَ الرجالَ ... فـلا جُـرحَـتْ فـيـك أوطـانـهـا
وقَـتْـكَ الـعـنـايـةُ بـالـرَّاحَـتـيـنِ ... وطَـوَّقَ جـيـدَك إحـسـانـهـا[7]
منايا أبى الله إذ ساورتكَ ... فـلـم يُـلْـقِ نـابْـيـه ثُـعـبـانـهـا[8]
حَوَتْ دَمكَ الأرضُ في أنفِها ... زكـيًّـا، كـأنـك (عـثـمـانـهـا)[9]

---

[1] اعتزم سعد زغلول السفر إلى إنجلترا للمفاوضة مع حكومتها، وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذٍ؛ فترصَّد له شابٌ وأطلق عليه النار، ولكن الله أنجى حياته، ووقى البلاد شرَّ فتنةٍ كادت تعصف بين الأحزاب؛ فنظم صاحب الديوان هذه القصيدة تهنئة له، ونصيحة لأهل النزق والطيش من الشبان، وحضًا على الإصلاح العملي، وتذكيرًا بمنزلة السودان وقناة السويس، اللذين هما من مصر بمنزلة الرُّوح من الجسد.

ورقَّت لآثاره في القميص كأن قميصَك قرآنها
ورِيعَتْ كما ريعت الأرضُ فيك نواحي السماءِ وأعنانها[١٠]
ولو زُلتَ غُيِّبَ (عَمْرُو) الأمورِ وأخلى المنابرَ (سَحبانها)[١١]

* * *

رماكَ على غِرَّةٍ يافِعٌ مُثارُ السريرةِ غضبانها[١٢]
وِقْدمًا أحاطت بأهلِ الأمورِ ميولُ النفوسِ وأضغانها[١٣]
تلمَّسَ نفسَك بين الصفوفِ ومن دونِ نفسِكَ إيمانها[١٤]
يريدُ الأمورَ كما شاءَها وتأبى الأمورُ وسلطانها
وعند الذي قهر القَيْصَرَيْنِ مصيرُ الأمور وأحيانها[١٥]
ولو لم يسابق دروسَ الحياةِ لبصَّره الرُّشدَ لقمانها[١٦]
فإن الليالي عليها يَحُول شعورُ النفوس ووجدانها[١٧]
ويختلف الدَّهرُ حتى يَبينَ رُعاةُ العهودِ وخُوَّانها[١٨]

* * *

أرى مصرَ يلهو بحدَّ السلاح ويلعبُ بالناب ولدانها[١٩]
وراح بغير مجال العقول يُجيل السياسةَ غلمانها
وما القتلُ تحيا عليه البلاد ولا همةُ القولِ عمرانها
ولا الحكمُ أن تنقضي دولةٌ وتُقبِلَ أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلادُ وبالعلم تشتدُّ أركانها
فأين النبوغ؟ وأين العلوم؟ وأين الفنون وإتقانها؟
وأين من الخُلْق حظُّ البلادِ إذا قتل الشيبَ شبانها؟[٢٠]
وأين من الرّبح قسطُ الرجال إذا كان في الخُلْقِ خسرانها؟
وأين المعلِّمُ؟ ما خطبُه؟ وأين المدارسُ؟ ما شأنها؟
لقد عبثت بالنيَّاق الحداةُ ونام عن الإبْل رُعيانها[٢١]
إلى الخُلْقِ أَنظُرُ فيما أقول وتأخذُ نَفسَي أشجانها

* * *

ويا (سعدُ) أنت أمينُ البلاد   قد امتلأت منك أَيْمَانها[٢٢]
ولن ترتضي أن تُقدَّ القناة   ويُبْترَ من مصرَ سوادنها[٢٣]
وحُجَّتُنا فيهما كالصباح   وليس بمُعييك تبيانها[٢٤]
فمصرُ الرِّياضُ، وسوادنها   عيون الرِّياضِ وخلجانها[٢٥]
وما هو ماءٌ، ولكنَّه   وريدُ الحياةِ وشِريانها[٢٦]
تُتمَّمُ مصرَ ينابيُعه   كما تممَ العينَ إنسانها[٢٧]
وأهلوه منذ جرى عذْبُه   عشيرة مصرَ وجيرانها
وأمَّا الشريكُ فِعلاَّته   هي الشَّركاتُ وأقطانها
وحربٌ مَضَتْ نحن أوزارُها   وخيلٌ خَلَتْ نحن فرسانها[٢٨]
وكم مَنْ أتاك بمجموعة   من الباطل، الحقُّ عنوانها
فأين من (المَنشِ) بحرُ الغزالِ   وفيض (نيانزا) وتهتانها؟[٢٩]
وأين التماسيحُ من لُجَّةٍ   يموتُ من البردِ حيتانها![٣٠]
ولكنْ رءُوسٌ لأموالهم   يحرِّك قَرْنَيه شيطانها
ودعوى القويَّ كدعوى السباع   من النابِ والظفْرِ بُرهانها

هوامش

(١) تماثل العليل: أقبل وقارب البرء. والرَّبَّان: مجري السفينة.

(٢) هلل: قال لا إله إلا الله. وقيدومها: صدرها. وسكانها — بضم السين — ذنبها.

(٣) المقاتل: جمع مقتل: وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.

(٤) المقادير: جمع مقدور، وهو الأمر المحتوم. والضمير للطيف السماء وهو الله تعالى.

(٥) الكنانة: مصر.

(٦) العقيان: الذهب، أي الدِّماء التي تشبه في حمرتها العقيق والعقيان.

(٧) الراحتان: تثنية راحة. وهي الكفُّ. والجيد: العنق.

(٨) المنايا: جمع منيَّة، وهي الموت. وساروتك: وثبت عليك.

(٩) عثمانها: يريد الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ثالث الخلفاء الراشدين، قُتِلَ وهو جالس يتلو القرآن وفي حجره المصحف.

(١٠) ريعت: فزِّعت، بتشديد الزاي. وأعنان السماء: نواحيها.

(١١) عمرو الأمور: أي مصرِّف الأمور بحذقه وفطنته، وهو عمرو بن العاص (رضى الله عنه)، وسحبان: خطيب عربي مشهور من بني وائل.

(١٢) اليافع: مَنْ راهق العشرين، أو مَنْ ترعرع وناهز البلوغ. والسريرة: ما يسرُّه الإنسان من أمره.

(١٣) الأضغان. الأحقاد.

(١٤) تلمس نفسك: تطلبها مرة بعد أخرى

(١٥) مصير الأمور: مرجعها. وأحيانها: جمع حين، وقالوا: إنه وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت. والقيصران: ملك الروم وملك الفرس حين الفتح الإسلامي والله تعالى هو الذي قهرهما.

(١٦) لقمانها، أي مَنْ هو كلقمان، وهو يُضْرَبُ به المثل.

(١٧) عليها يحول: أي يتحوَّل ويتبدَّل. والمراد أن ما يكون للنفوس من ميول ووجدان يتغير بمضي الزمن.

(١٨) رعاة العهود: الحافظون لها، جمع راعٍ. وخوانها: جمع خائن.

(١٩) الولدان: الصبيان، جمع وليد.

(٢٠) الخلق: المروءة والدِّين والسجيَّة، ويغلب الآن على السجية الفاضلة والمعنى أنه إذا كان شبان البلاد يقتلون شيبها فلا حظَّ لها من الخلق النافع.

(٢١) الحداة: جمع حادٍ، وهو مَنْ يغني للإبل لتنشط في سيرها.

(٢٢) أيمانها: جمع يمين، وهي إحدى يدي الإنسان، والمراد أنها تأكَّدت فيما بلغ إليه حسن ظنها أنك أمين عليها، كما يتأكَّد الإنسان مما يكون في يده.

(٢٣) القدُّ والبتر، هنا: بمعنى الضياع.

(٢٤) وليس بمعييك: أي بمعجزك.

(٢٥) الرِّياض: أي كالرِّياض في نضرتها وجمالها. والسودان: كالعيون والخلجان التي تستقي منها ماءها، فكما تجفُّ الرِّياض وتقفر إذا انقطعت عنها العيون والخلجان، كذلك تقفر مصر وتبور إذا فُصِلَ عنها السودان.

(٢٦) الوريد: عرق في العنق من الأوردة التي ترتبط بها الحياة. والشريان: العرق الذي يحمل الدمَّ من القلب.

(٢٧) الينابيع: عيون الماء، وأحدها ينبوع. وإنسان العين: الدائرة التي ترى في سوادها.

(٢٨) أوزارها: أسلحتها، جمع وزر، وهو السلاح.

(٢٩) المنش: بحر في الشمال الغربي لأوربا، بين إنجلترا شمالاً وفرنسا جنوبًا. وبحر الغزال: أحد فروع النيل الأبيض في السودان. ونيانزا: إحدى البحيرات الثلاث التي يخرج منها النيل.

(٣٠) وأين التماسيح.. إلخ: أي إن مسافة التقاطع وعدم الاتصال بعيدة جدًا بين السودان وبلاد الإنكليز، بقدر التناقض بين طبيعتهما؛ فهذا تعيش التماسيح في مائه، وتلك تموت الحيتان في مائها.

توت عنخ آمون

قِفِي – يا أختَ (يوشَعَ) – خبِّرينا أحاديثَ القرونِ الغابرينا[1]
وقُصِّي من مصارِعهم علينا ومن دُولاتهم ما تعلمينا[2]
فمثلُك من روى الأخبارَ طرًّا ومن نسب القبائل أجمعينا[3]
نرى لكِ في السماءِ خضيبَ قَرْنٍ ولا نُحصي على الأرض الطعينا[4]
مشيتِ على الشباب شواظَ نارٍ ودرتِ على المشيبِ رحًى طحونا[5]
تُعينينَ الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينا[6]
فيا لكِ هِرَّةً أكلت بنيها وما وَلدوا وتنتظر الجنينا[7]

***

أَأُمَّ المالكينَ بني (أمونٍ) لِيهْنِكِ أنهم نزعوا (أمونا)[8]
ولدتِ له (المآمين) الدواهي ولم تلدِي له قطُّ (الأمينا)[9]
فكانوا الشُّهبَ حين الأرضِ ليلٌ وحين الناسُ جِدُّ مُضَلَّلينا
مشتْ بمنارهم في الأرض (روما) ومن أنوارهم قَبستْ (أثينا)[10]
ملوكُ الدهر بالوادي أقاموا على (وادي الملوك) مُحجّبينا[11]
فرُبَّ مصفًّد منهم، وكانت تُساقُ له الملوكُ مُصفَّدينا[12]
تقيَّد في التراب بغير قَيْد وحلَّ على جوانبه رهينا
تعالى الله، كان السحرُ فيهم أليسوا للحجارة مُنْطِقينا؟[13]
غدَوْا يبنون ما يبقى، وراحوا وراءَ الآبداتِ مُخلَّدينا

إذا عَمدوا لمأثرةٍ أَعدُّوا   لها الإتقان والخلقَ المتينا
وليس الخلدُ مرتبةً تُلَقَّى   وتُؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن مُنتهى هِمَمٍ كبارٍ   إذا ذهبتْ مصادِرُها بقينا
وسرُّ العبقرية حين يسري   فينتظمُ الصنائعَ والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ   إلى التاريخ خيرُ الحاكمينا
وأَخذُك من فمِ الدنيا ثناءً   وتركُك في مسامعها طنينا[١٤]
فغالِي في بنيك الصيدِ غالي   فقد حُبَّ الغلوُّ إلى بنينا[١٥]
شبابٌ قُنَّعٌ لا خيرَ فيهم   وبُورِك في الشبابِ الطامحينا[١٦]
فناجيهم بعرشٍ كان صِنْوًا   لعرشك في سبيبَته سَنينا[١٧]
وكان العزُّ حليتَه، وكانتْ   قوائمُهُ الكتائبَ والسفينا[١٨]
وتاجٍ من فرائده (ابنُ سيتي)   ومن خرزاته (خوفو) و(مينا)[١٩]
عَلا خَدًّا به صَعَرٌ، وأنفًا   ترفَّع في الحوادث أن يدينا[٢٠]
ولستُ بقائلٍ: ظلموا، وجاروا   على الأُجراءِ، أو جلدوا القطينا[٢١]
فإنا لم نُوَقَّ النقصَ حتى   نُطالبَ بالكمالِ الأولينا[٢٢]
وما (البستيلُ) إلا بنت أمسٍ   وكم أكلَ الحديدُ بها صحينا[٢٣]
ورُبَّة بيعةٍ عَزَّتْ وطالتْ   بناها الناسُ أمس مُسخَّرينا[٢٤]
مُشَيَّدةٍ لشافي العُمْيِ (عيسى)   وكم سَمَلَ القسوسُ بها عيونا[٢٥]

* * *

(أخا اللوردات)، مثلُك مَنْ تحلَّى   بحليةِ آله المُتطوِّلينا[٢٦]
لك الأَصل الذي نَبَتتْ عليه   فروعُ المجد من (كرنارفونا)[٢٧]
ومالُكَ لا يُعدُّ، وكلُّ مالٍ   سَيَفْنَى، أو سَيُفْني المالكينا[٢٨]
وجدتَ مذاق كلَّ تليدِ مجدٍ   فكيف وجدْت مجدَ الكاسبينا؟[٢٩]
نشرتَ صفائحًا، فجزتكَ مصرٌ   صحائفَ سؤددٍ لا ينطوينا
فإن تكُ قد فتحتَ لها كنوزًا   فقد فتحتْ لك الفتحَ المبينا[٣٠]
فلو (قارون) فوق الأرض إلاَّ   تمنَّى لو رضيتَ به قرينا[٣١]
سبيلُ الخلد كان عليك سهلاً   وعادتُه يكدُّ السكالينا
رأيتَ تنكُّرًا، وسمعت عتبًا   فعذرًا للغضاب المحنقينا[٣٢]

أبُـوَّتُـنـا وأعْـظُـمُـهـم تُـراثٌ   نـحـاذرُ أن يـئـول لآخـريـنـا[٣٣]
ونـأبـى أن يَحُـلَّ عـلـيه ضَيْمٌ   ويـذهـبَ نـهـبـةً لـلـنـاهـبـيـنـا[٣٤]
سَكَتَّ، فحام حولَك كلُّ ظنٍّ   ولو صَرَّحت لم تُثر الظنونا[٣٥]
يقول الناسُ في سرٍّ وجهرٍ   ومالكَ حيلةٌ في المرجفينا[٣٦]
أمَن سرقَ الخليفةَ وهو حيٌّ   يَعِفُّ عن الملوك مكفَّنينا؟[٣٧]

* * *

خليليَّ اهبطا الوادي، وميلا   إلى غُرف الشموس الغاربينا[٣٨]
وسيرا في محاجِرهم رويدًا   وطُوفا بالمضاجع خاشعينا[٣٩]
وخُصَّا بالعمار وبالتحايا   رفاتَ المجدِ من (توتنخمينا)[٤٠]
وقبرًا كاد من حسنٍ وطيبٍ   يضيءُ حجارةً، ويضوعُ طينا[٤١]
يُخال لروعةٍ التاريخ قُدَّتْ   جنادلُه العلا من (طور سينا)[٤٢]
وكان نزيلُهُ بالمَلْكِ يُدعَى   فصار يُلقَّبُ الكنزَ الثمينا[٤٣]
وقُوما هاتفَيْن به، ولكن   كما كان الأوائلُ يهتفونا[٤٤]
فثَمَّ جَلالةٌ قَرَّتْ ورامت   على مرِّ القرون الأربعينا[٤٥]
جلالُ الملك أيامٌ وتمضي   ولا يمضي جلالُ الخالدينا[٤٦]
وقولا للنزيل قدوم سعد   وحيَّا الله مَقْدِمَك اليمينا[٤٧]
سلامٌ يومَ وارتك المنايا   بواديها، ويومَ ظهرتَ فينا[٤٨]
خرجتَ من القبور خروجَ عيسى   عليكَ جلالةٌ في العالمينا[٤٩]
يجوب البرقُ باسمك كلَّ سهلٍ   ويخترقُ البُخارُ به الحزُونا[٥٠]
وأقسمُ كنتَ في (لوزانَ) شُغْلاً   وكنتَ عجيبةَ المتفاوضينا[٥١]
أتعلمُ أنهم صَلفُوا، وتاهوا   وصَدُّوا البابَ عنا موصِدينا؟[٥٢]
ولو كنا نجرُّ هناك سيفًا   وجدنا عندهم عطفًا ولينا[٥٣]
سيقضي (كرزنٌ) بالأمر عنَّا   وحاجاتُ (الكنانِة) ما قُضينا[٥٤]

* * *

تعالَ اليومَ خبرَّنا: أكانت   نواكَ سِناتِ نومٍ، أم سنينا؟[٥٥]
وماذا جبتَ من ظلماتِ ليلٍ   بَعيدِ الصبح، يُنضِي المُدْلجينا؟[٥٦]

وهل تبقى النفوسُ إذا أقامت هياكلُها، وتبلى إن بلينا؟
وما تلك القبابُ؟ وأين كانت؟ وكيف أضلَّ حافرُها القرونا؟[٥٧]
مُمرَّدة البناءِ، تُخالُ برجًا ببطن الأرض محطوطًا دفينا[٥٨]
تغطَّى بالأثاث فكان قصرًا وبالصورِ العِتاق فكان زونا[٥٩]
حملتَ العرشَ فيه، فهل تُرجَّى وتأملُ دولةً في الغابرينا؟[٦٠]
وهل تلقَى المهيمنَ فوق عرشٍ ويلقاه الملا مُتَرجلينا؟[٦١]
وما بالُ الطعام يكاد يَقدى كما تركته أيدي الصانعينا؟[٦٢]
ولم تكُ أمس تصبرُ عنه يومًا فكيف صبرتَ أحقابًا مئينا؟[٦٣]
لقد كان الذي حَذِرَ الأوالي وخاف بنو زمانك أن يكونا[٦٤]
يحبُّ المرءُ نبشَ أخيه حيًّا وينبشه ولو في الهالكينا
سُلِلتَ من الحفائر قبل يوم يَسُلُّ من التراب الهامدينا[٦٥]
فإن تكُ عند بعثٍ فيه شكٌّ فإنَّ وراءَه البعثَ اليقينا[٦٦]
ولو لم يعصموكَ لكان خيرًا كفى بالموت معتصَمًا حصينا[٦٧]
يُضَرُّ أخو الحياةِ، وليس شيءٌ بضائره إذا صحبَ المنونا[٦٨]

***

زمانُ الفرد — يا (فرعونُ) — ولَّى ودالتْ دولة المتجبرِّينا[٦٩]
وأصبحت الرعاةُ بكل أرضٍ على حكمِ الرَّعيَّةِ نازلينا

هوامش

(١) الخطاب للشمس، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس، فقد روي أن يوشع قاتل الجبَّارين يوم الجمعة، فلمَّا أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم، ويدخل السبت فلا يحلُّ له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فردَّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم، وقد لَمَّح ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله:

وما أَنس لا أنس المليحة إذا بدت دجى، فأضاء الأفق من كل موضع

فحدَّثت نفسي أنها الشمس أشرقت وأنـي قـد أوتـيـت آيـة يـوشـع

القرون الغابرة: الأجيال الماضية.

(٢) قصِّي: حدِّثي، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ومصارعهم: مهالكهم. ودولاتها: جمع دولة، بضم ففتح، وهي الدَّاهية، يقال: جاء الدَّهر بدولاته، أي بدواهيه.

(٣) طرًا: جميعًا من دون أن تترك منها شيئًا. ونسب القبائل: ذكر أنسابها.

(٤) الخضيب: الملوَّن بالخضاب. والقرن: حاجب الشمس. والطعين: المطعون.

(٥) (بالضم والكسر): دُخان النار.

(٦) المنايا: جمع منيَّة، وهي الموت.

(٧) الهرَّة: القطَّة، ويقال في المثل: «أعق من الهرَّة»؛ لأنها تأكل أولادها. والجنين: الولد ما دام في الرحم.

(٨) نزع أباه: أشبهه. إشارة إلى أُمٍّ (آمون). واختلف المؤرخون: هل كانت أمُّه زوجة شرعية لأبيه أو إحدى سراريه؟ وكان من عادتهم أن لا يتولى الملك إلا مَنْ كانت أمُّه زوجة شرعية لأبيه، إلاَّ أن (توت عنخ آمون) تولَّى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك خون آتون.

(٩) إشارة للخليفتين: الأمين والمأمون، وقد اختار المأمون؛ لأنه كان أفضل بني العباس حزمًا، وحلمًا، وعلمًا، ورأيًا، ودهاءً، وهيبة، وشجاعة، أي ولدت له أبناء صاروا ملوكًا، وكانت صفاتهم في الملك كالصفات التي عرفناها في المأمون.

(١٠) روما: عاصمة إيطالية. وقبست: أخذت. وأثينا: عاصمة اليونان. وفيه إشارة إلى ما أخذته الأمم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة.

(١١) وادي الملوك: هو إلى الشاطئ الغربي للنيل بالأقصر على مسير نصف ساعة تقريبًا، وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها. وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإتقانها إلى حدٍّ يفوق الوصف.

(١٢) مصفَّدين: مقيدين، يصف فراعنة مصر في مقرِّهم الأخير. وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسوقة.

(١٣) منطقين: أي أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة؟ ويريد أنهم أنشئوا من الأبنية ما يدلُّ على عظمة شأنهم دلالة النطق على معناه، وأشهر الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة، وهما من أعجب ما بنى البُناة، وفيهما دليلٌ على

أن المصريين القدماء كانوا أعلم الأمم قاطبة بفنِّ العمارة وهندستها، وقد توالى الدَّهر عليها فلم ينل منهما مرُّ الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب، قال أحد الحكماء: «كل شيء يُخْشَى عليه الدَّهر إلا الأهرام، فإن الدَّهر يُخْشَى عليه منها».

(١٤) الطنين: صوت الذُّباب والطست والناقوس ونحو ذلك.

(١٥) الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل يرفع رأسه كبرًا وعجبًا ولا يلتفت من زهوه يمينًا وشمالاً.

(١٦) شباب قُنَّع: أي قانعون لا يطلبون شيئًا وراء ما بلغوا. والطامحون: المتفانون في طلب المعالي.

(١٧) الصنو: الأخ الشقيق والابن. والسنين (بفتح السين) مَنْ يكون في سنك.

(١٨) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش.

(١٩) ابن سيتي، هو رمسيس الثاني المعروف بسيزوستريس، ويُلقَّب بالأكبر؛ لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة، وطالت مدَّة حكمه، وكثرت فيها الآثار المصرية، وتزايدت العمارات، حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا وعليه اسمه ورسمه. وولي الملك صغيرا في حياة والده، وقد تربَّى على الشجاعة والحماسة، وأراد أبوه أن يعلِّمه اقتحام الأهوال؛ فأرسله في جيش إلى بلاد الشام، وكان عمره عشر سنين، فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة، وله حروب عظيمة، ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشمالية، وكان في أيامة بنتاءور الشاعر المصري، وله فيه عدَّة مدائح يصف بها شجاعته وإقدامه. «خوفو» و«مينا»: من الملوك الفراعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطًا بعيدًا في المدنيَّة، ومن آثارهما الخالدة الأهرامات.

(٢٠) علا خدًّا: أي ذلك التاج: والصعر: أن يميل الرجل بخدِّه عن النظر إلى الناس تهاونًا وكبرًا.

(٢١) القطين: الخدم، أي أنه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأُجراء، ويجلدون الخدم ليسخروهم في إنشاء تلك الأبنية.

(٢٢) لم نوق النقص: أي لم نحفظ منه.

(٢٣) البستيل: سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩، وفي هذا السجن ذاق رجالات العلم والفضل في فرنسا أشدَّ أنواع العذاب

أيام الاستبداد، فكم هلك فيه فيلسوف عظيم، وفني بين جدرانه المظلمة مصلح كبير، وكم من سياسي جنى عليه عمله الخير بلاده فدخله حيًا وفارقه ميتًا. وقد ذكر الفرنسيون «البستيل»، واسم «البستيل» وعدُّوه مستقرَّ الظلم، ومعهد العسف والقسوة، فلم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان أول غرضهم «البستيل»؛ فهدموه، واقتلعوا أصوله، وأخذت فتات أحجاره فجعلها النسوة عقودًا يتحلين بها في أمكنة اللآلئ؛ إشارة لغلبة الأمَّة على الظلم وانتقامها من الظالمين، وكان أخذه في ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩، وقد أقيم اليوم مكان هذا البناء تمثال الحرية، ولا يزال الفرنسيون يحتفلون بذكره على الآن.

(٢٤) البيعة «بكسر الباء»: معبد النصارى، ومسخَّرين: أي كلِّفوا عملهم بلا أجرة.

(٢٥) سمل العين: فقأها بحديدة محماة وقلعها.

(٢٦) المخاطب اللورد كارنارفون الذي اهتدى إلى الكنوز، وكانت وفاته بالقاهرة في سحر ليلة الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٢٣ بفندق الكونتنتال، وكانت قد عضَّته بعوضة، فطُبِّب خمسة عشر يومًا حتى أخذت تزول أعراض التسمم الذي أصابه من هذه العضة، ولكنه لم يقوَ على احتمال ذات الرئة التي أصيب بها، فأودت به. المتطولين: أصحاب الغنى والسعة.

(٢٧) لك الأصل.. إلخ: وذلك أنه من بيوتات إنجلترا القديمة في المجد.

(٢٨) ومالك لا يُعدُّ.. إلخ: فهو يملك في بلاد الإنجليز ألف فدان.

(٢٩) وجدت مذاق.. إلخ: إشارة إلى استمراره في أعمال الحفر والتنقيب في وادي الملوك، فقد بدأها منذ ست عشرة سنة، ولم يزل حتى اهتدى إلى أعظم أثر بين الآثار التي عثر عليها العلماء منذ قرن من الزمن، وقد ضمن له هذا العمل الجليل خلود اسمه، ورفعة ذكره، وكان اهتداؤه إلى هذا الكنز الثمين في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٣، وفي مدافن ملوك طيبة، تحت مدفن رعمسيس السادس. والصفائح: حجارة القبور.

(٣٠) إشارة على ما حواه هذا الكنز العظيم من التحف الثمينة النادرة المثال، والآلئ: الغالية القليلة الوجود.

(٣١) قارون: رجل كان صاحب كنوز عظيمة يضرب به المثل في الغنى.

(٣٢) التنكُّر: تغيُّر الرجل عن حال تسرُّه إلى حال يكرهها، وفي الأساس تنكَّر لي فلان: لقيني لقاءً بشعًا. والمحنقون: الذين ملأهم الغيظ.

(٣٣) أبوتنا: أي آباؤنا. والتُّراث: الميراث، وفيه إشارة إلى ما قيل يومئذ ونشرته الصحف، من أن اللورد كرنارفون، أخذ خفية أغلى ما في الكنز من تحف، بينها تاج الملكة وعقدها.

(٣٤) الضيم: الظلم. أي نأبى أن يظلم ذلك التُّراث بذهابه نهبًا كما روت الأنباء البرقية في ذلك الحين.

(٣٥) سكت فحام حولك.. إلخ، أي إن الذي قيل وشاع لاقى منك سكوتًا عن نفيه؛ فلحقتك الشبهات بسبب سكوتك.

(٣٦) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة.

(٣٧) أمَنْ سرق الخليفة.. إلخ هذا ما يقوله الناس، وذلك أن إنجلترا هي التي نقلت الخليفة وحيد الدين من قصره في الآستانة. وألجأته إلى المدرَّعة البريطانية «مالايا» هربًا من الكماليين؛ فذهبت به إلى مالطة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢١، فإذا كانت هذه الدولة تفعل ذلك بالملوك الأحياء، فلا يبعد على رجالها أن يفعلوه بالملوك الأموات، وبما في قبورهم من جواهر ودرر، وقد ذكرت الأنباء في إثبات ذلك: أن اللورد كرنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنكليز عقدًا مصريًا قديمًا له قيمة عظيمة، وأنها لَمَّا علمت بوفاته وأن بعوضة من القبر عضته. نزعت من عنقها ذلك العقد خوفًا من انتقام توت عنخ آمون الذي نسبت إليه يومئذ وفاة اللورد.

(٣٨) يريد بالشموس الغاربين: ملوك الفراعنة. وغرفهم: مدافنهم.

(٣٩) المحاجر: ما يحميه الملوك حول منازلهم، ومنها محاجر أقيال اليمن، وهي أحماؤهم، أي ما كان يحميه كل واحد منهم.

(٤٠) العمار: التحيَّة. وهو أيضًا الريحان يزيَّن به مجلس الشَّراب، واستعماله هنا على الإطلاق؛ إذ لا يليق أن يكون مقيدًا بتزيين هذا المجلس. التحايا: جمع تحية. والرُّفات: كل ما تكسَّر وبلي.

(٤١) يضوع: يتحرَّك وينتشر. أي كادت حجارته تضيء حسنًا، وكادت تنتشر رائحته الطيِّبة الزكيَّة.

(٤٢) الروعة: المسحة من الجمال. والجنادل: جمع جندل. وهو الحجارة. وطور سينا: هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى (عليه السلام).

(٤٣) النزيل: الضيف.

(٤٤) هاتفين به: أي بالملك الذي هو نزيل القبر، وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته.

(٤٥) فثمَّ: فهناك. والجلالة: عظم القدر. ورامت: أقامت. والقرون الأربعون: هي التي مضت منذ عهد توت عنخ آمون.

(٤٦) أي أن الجلال الصحيح ما خلد به صاحبه في التاريخ، أمَّا جلال الملك فلا بقاء له.

(٤٧) اليمين: المبارك، وهو من اليمن.

(٤٨) وارتك: أخفتك.

(٤٩) خروج عيسى: أي كما خرج عيسى من القبر على رأي النصارى، وصاحب الديوان لا يعتقد ذلك، وإنما ينظر فيه إلى رأيهم.

(٥٠) يجوب: يقطع. والبرق: اسم منقول من معناه الأصلي للتلغراف. والبخار: اسم منقول كذلك للوابور، أو هو من باب تسمية الشئ باسم المؤثر فيه. والحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٥١) لوزان: إحدى مدن سويسرة، وقد عُرِفَت بمؤتمر الدول الذي اجتمع بها للنظر فيما بينهن من الخلاف، ولتقرير الصلح بين التُّرك واليونان، وقد وافق اجتماع المؤتمر ظهور قبر الملك توت عنخ آمون ومعرفة ما فيه.

(٥٢) صلفوا: تمدَّحوا بما ليس فيهم، وادَّعوا فوق ذلك إعجابًا وتكبُّرا. وصدُّوا الباب عنا: منعوه عنا، أي لم يفتحوه لنا. وموصدين: من أوصد الباب، أطبقه وأغلقه.

(٥٣) أي لو كانت لنا قوة من السلاح لعاملونا باللين والمودة؛ لأنهم يدارون الأقوياء ويمالئونهم.

(٥٤) كرزن: وزير إنكليزى مشهور، كان هو مندوب إنكلترا في مؤتمر لوزان. والكنانة: هي مصر.

(٥٥) تعال اليوم.. إلخ: الخطاب لتوت عنخ آمون. ونواك: بعدك. والسِّنات: جمع سنة، بكسر السين، وهي النعاس.

(٥٦) ينضي: يهزل. والمدلجون: الذين يسيرون من أول الليل.

(٥٧) وما تلك القباب.. إلخ: أي وخبرنا ما تلك القباب جمع قبة: وهي ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة. والقرون: جمع قرن، وهو مائة عام.

(٥٨) ممرَّدة البناء: مملسته.

(٥٩) تغطى: أي هذا البناء تغطى.. إلخ والأثاث: متاع البيت. والصور: جمع صورة، يريد بها الرسوم التي تحاكي صور الأشياء. والعتاق: جمع عتيق، وهو

القديم، أو النجيب من الخيل، والجارح من الطير. والزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

(٦٠) في الغابرين: في الباقين، وفي القرآن الكريم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، ويكون أيضًا بمعنى الماضين، فهو من الكلمات التي تُسْتَعْملُ للأضداد.

(٦١) المهيمن: من أسماء الله تعالى. والمترجِّلون: الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على أرجلهم.

(٦٢) ما بال الطعام: ما حاله. ويقدى: من قدى الطعام، أي طاب طعمه ورائحته.

(٦٣) الأحقاب: جمع حقب. بضم الحاء. وهو الدَّهر. والمئين: جمع مائة.

(٦٤) لقد كان: أي لقد حصل الذي حذر الأوالي. والأولي: جمع أول، والمعنى: أن ما كنتم تخافونه، وتحذرون وقوعه من نبش قبوركم، قد حصل، ولم تمنعه مبالغتكم في الوقاية منه.

(٦٥) سللت: أخرجت منها برفق. الحفائر: جمع حفيرة. واليوم الذي يسل الهامدين من التراب: هو يوم القيامة.

(٦٦) فإن تك عند بعث.. إلخ: أي فإن تكن الآن تشكُّ في هذا البعث الذي خرجت به من قبرك فلا محالة سيأتي البعث الذي لا تشكُّ فيه؛ وهو بعث يوم القيامة.

(٦٧) يعصموك: يمنعوك من المكروه، أي لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه؛ لأن الموت يمنع الأذى أن يصل إليك، وجلاء هذا المعنى في البيت الثاني.

(٦٨) يضرُّ: بضم الياء وفتح الضاد.

(٦٩) زمان الفرد: أي زمان حكم الفرد. ودالت: انقلبت من حال إلى حال. والمتجبرون: المتكبرون.

تحية المؤتمر الجغرافي

هل تهبط النيِّراتُ الأرضَ أحيانا؟ ... وهل تَصوَّرُ أفرادًا وأعيانا؟[١]
نزلنَ أولَ دارٍ في الثرى رَفعَت ... للشمس مُلكًا، وللأقمارِ سلطانا[٢]
تفننت قبل خلق الفن، وانفجرت ... عِلمًا على العُصُرِ الخالي وعِرفانا[٣]
أبوَّةٌ لو سكتنا عن مفاخرهم ... تواضعًا صخرًا وصَوَّانا[٤]
هم قلَّبوا كرَة الدنيا فما وجدَتْ ... أقوى على صولَجانِ الملك أيمْانا[٥]
وصيَّروا الدَّهرَ هزءًا يسخرون به ... حتى ينال لهم بالهدمِ بنيانا[٦]
لم يَسلكِ الأرضَ قومٌ قبلهم سُبُلا ... ولا الزواخرَ أثباجًا وشُطَّانا[٧]
تقدَّم الناسَ منهم محسنون مضَوا ... للموتِ تحت لواءِ العِلم شجعانا
جابوا العُباب على عودٍ وساريةٍ ... وأوغلوا في الفَلا كالأُسْدِ وِحْدانا[٨]
أزمانَ لا البرُّ «بالوابور» منتهَبًا ... ولا «البخارُ» لبنت الماءِ رُبَّانا[٩]
هل شيَّع النشءُ رَكْبَ العلم، واكتنفوا ... لعبقريةٍ أحمالاً وأظعانا؟[١٠]
وسايروا الموكبَ المرموقَ مُتَّشِحًا ... عِزَّ الحضارة أعلامًا وركبانا؟[١١]
يسيرُ تحت لواءِ العلم مؤتلفًا ... ولن ترى كجنودِ العلم إخوانا
العلمُ يجمعُ في جنسٍ، وفي وطنٍ ... شتى القبائلِ أجناسًا، وأوطانا[١٢]
ولم يِزدْكَ كرسِم الأرض معرفةً ... بالأرض دارًا، وبالأحياءِ جيرانا[١٣]
علمٌ أبان عن الغبراءِ، فانكشفتْ ... زَرعًا، وضرعًا، وإقليمًا، وسُكانا[١٤]
وقسَّم الأرض آكامًا، وأوديةً ... وفصَّل البحرَ أصدافًا، ومرجانا[١٥]
وبيَّن الناسَ عاداتٍ وأمزجةً ... وميَّز الناسَ أجناسًا وأديانا

وفدَ الممالكِ، هزَّ النيلُ مَنكبَه … لمَّا نزلتم على أوديه ضِيفانا[١٦]
غدا على الثغرِ غادٍ من مواكبِكم … فراح مبتسمَ الأرجاءِ جذلانا[١٧]
جرت سفينتُكم فيه، فقلَّبها … على الكرامِة قَيْدومًا وسكانا[١٨]
يلقاكُمُ بسماءِ البحر ضاحيةً … وتارةً بفضاءِ البَرِّ مُزدانا[١٩]
ولو نزلتم به والدَّهرُ معتدلٌ … نزلتمُ بعَروسِ المُلكِ عُمرانا[٢٠]
إذ (الفنارُ) وراءَ البحر مؤتلقٌ … كَّانه فلقٌ من خِدره بانا[٢١]
أناف خلف سماءِ الليل متقدًا … يُخال في شُرَفات الجوِّ (كِيوانا)[٢٢]
تَطْوِي الجواري إليه اليمَّ مُقْبلَةً … تجري بوارجَ أو تناسب خُلجانا[٢٣]
نورُ الحضارة لا تبغي الركابُ له … لا بالنهار ولا بالليل برهانا
يا موكبَ العلم، قِفْ في أرض مْنفَ به … يُناج مَهْدًا، ويذكُرْ للصَّبا شانا[٢٤]
بكى تمائمَهُ طفلاً بها، ويبكي … ملاعبًا من رُبَى الوادي وأحضانا[٢٥]
أرض ترَعْرَع لم يصَحبْ بساحتها … إلاَّ نبيين قد طابوا، وكُهَّانا
عيسى ابنُ مريم فيها جرَّ برُدَته … وجرَّ فيها العصا موسى بنُ عِمرانا
لولا الحياءُ لناجتْكم بحاجتِها … لعل منكم على الأيام أعوانا
إذا تفرَّقْتُمُ في الغربِ ألسنةً … ليَّنتُمُ كلَّ قلبٍ لم يكن لانا

هوامش

(١) النيِّرات: الكواكب، واحدها نيِّر، بالياء المشدَّدة. وتصوَّر: تتصوَّر. والأعيان: جمع عين، وهو شريف القوم. يقول: إن هؤلاء العلماء الذين أقبلوا من البلاد الأخرى ليحضروا المؤتمر في مصر، هم الكواكب المنيرة، ولكنهم مع ذلك أفراد من الناس، وأعيان شرفاء في أقوامهم. فهل الكواكب تهبط الأرض وتكون كذلك؟

(٢) نزلن: أي هذه النيرات. وأول دار.. إلخ: هي مصر، وذلك كناية عن أنها سبقت العالم إلى العلم والمدنية. حتى رسخت قدمها فيهما.

(٣) تفننت: تنوعت فنونها، أو أخذت في فنون كثيرة. والعُصُر. بضمتين: الدَّهر. والخالي: الماضي.

(٤) أبوَّة: جمع أبٍّ، أي لنا أبوَّة أو أولئك أبوَّة. والمفاخر: جمع مفخرة، بفتح الخاء وضمها، وهي المأثرة. أو ما يفتخر به. والصوَّان: نوع من الحجارة.

(٥) الصولجان: عصا منعطفة الرأس، والأيمان: جمع يمين، وهي اليدُّ، أي ما وجد أيمانًا أقوى على صولجان الملك من أيمانهم.

(٦) حتى ينال لهم بالهدم بنيانا: أي وهو لا ينال ذلك فهم يسخرون به أبدًا.

(٧) لم يسلك الأرض.. إلخ: وذلك أن المصريين القدماء هم أوَّل من طاف الأرض برًّا وبحرًا. والسبل: جمع سبيل. والزواخر: البحار، مفردها زاخر. والأثباج: جمع ثبج، وهو معظم البحر. والشطآن: جمع شطٍّ، وهو الشاطئ.

(٨) جابوا: طافوا، والعباب: أكثر السيل، والمراد البحر. والعود: الخشب، والمراد به السفينة. والسارية: عمود ينصب في وسط السفينة ليعلق القلع به. والفلا: جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة، وقيل: المفازة لا ماء فيها. والوحدان: جمع واحد.

(٩) أزمان: أي فعلوا ذلك من أزمان لم يكن بها الوابور ينهب البر، ولا البخار يجري السفن. والربان: مَنْ يُجْرِي السفينة. وجوب الأرض على هذه الحال يستدعي عزائم قوية، ويؤدي إلى مخاطر عظيمة.

(١٠) هل شيع النشء.. إلخ: أي هل خرجوا مع ركب العلم يودعونهم. والنشء: جمع ناشئ: وهو الغلام جاوز حدَّ الصغر. وركب العلم: هو العلماء الذين جاءوا فحضروا المؤتمر، ثم رجعوا إلى بلادهم. واكتنفوا أحمالاً وأظعانا: أحاطوا بها. والعبقرية: أصلها نسبة عبقر، وهو موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن، وقد جعله المعاصرون اسمًا وأرادوا به التناهي في حذق الشيء وإتقانه. والأحمال: الهوادج، واحدها: حمل — بكسر الحاء وفتحها — والأظعان: الهوادج أيضًا.

(١١) المرموق: الذي ينظر إليه طويلاً. ومتشحًا: لابسًا.

(١٢) شتى القبائل: أي القبائل المتفرِّقة.

(١٣) كرسم الأرض: يريد العلم الذي يعرف به رسم الأرض، وهو علم الجغرافيا.

(١٤) أبان عن الغبراء: أوضحها. والغبراء: الأرض.

(١٥) الآكام: التلال، وقيل: ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد. والأودية: جمع وادٍ، وهو المنفرج بين جبلين أو تلين. والأصداف: جمع صدف، وهو غشاء الدُّر. والمرجان: عروق حمر، تطلع من البحر.

(١٦) المنكب: هو من الحيوان مجتمع رأس الكتف والعضد، ومن غير الحيوان ناحية كل شيء وجانبه، والمراد المعنى الأول؛ كناية عن نهوضه لإكرامهم.

(١٧) غدا: أقبل. والثَّغر: هو ثغر الإسكندرية. والمواكب: جمع موكب، وهو الجماعة ركبانًا أو مشاة. والأرجاء: النواحي. والجذلان: الفرحان.

(١٨) الكرامة: العزازة. والقيدوم: الصدر. والسكان — بالضم —: ذنب السفينة.

(١٩) ضاحية: بارزة منكشفة؛ وهو كناية عن صفائها.

(٢٠) ولو نزلتم به: أي بالثغر. ومعتدل: مستقيم، أي ليس منحرفًا ولا معوَّجًا عن أنصافنا.

(٢١) إذ الفنار: أي إذ يكون الفنار.. إلخ. والفنار: هو منارة السفن تقام عالية في الميناء ليهتدي الربابنة في الليل بنورها. ومؤتلق: لامع. والفلق: الصبح، أو ما انفلق من عموده. والخدر: الستر، وقيل: هو كل ما واراك من بيت ونحوه.

(٢٢) أناف: طال وارتفع. وشرفات: واحدتها شرفة، وهي ما أشرف من بناء القصر. وكيوان: اسم فارسي لكوكب زحل.

(٢٣) الجواري: السفن، جمع جارية. واليمُّ: البحر. والبوارج: جمع بارجة. وهي سفينة كبيرة للقتال. وتنساب: تجري وتتدافع. والخلجان: جمع خليج، وهو شرم من البحر.

(٢٤) أرض منف: هي الأرض المصرية. ومنف: مدينة مصرية قديمة، بناها الملك «مينا» مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية، وجعلها مقرَّ ملكه، وبقيت مقرًا للملك حتى زالت الأسرة الثامنة. ويناج، من ناجاه: سارَّه. والمهد: الموضع يهيأ للصبي ويوطأ. يقول: قف بالعلم في الأرض التي نشأ فيها؛ ليناجي مهده الأول، ويذكر عهد صباه.

(٢٥) بكى: أي العلم. وتمائمه: جمع تميمة، وهي العوذة التي تعلَّق للأطفال مخافة العين. والملاعب: جمع ملعب، وهو مكان اللعب، والرُّبى: جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض.

الصليب الأحمر

سر يا (صليبَ) الرِّفقِ في ساح الوغى … وانشر عليها رحمةً وحنانا[1]
وادخل على الموت الصفوف مُواسياً … وأعِنْ على آلامه الإنسانا
والمسْ جراحاتِ البريَّةِ شافيًا … ما كنت إلا للمسيح بنانا[2]
وإذا الوطيسُ رمى الشبابَ بناره … خُضْ (كالخليل) إليهُم النيرانا[3]
واجعل وسيلتَك المسيحَ وأُمَّه … واضرَع، وسلْ في خلقِه الرّحمانا[4]
الله جارُك في عوانٍ لم تهب … اللهِ لا بِيَعًا ولا صُلبانا[5]
وسلمتَ يا «حرمَ المعارك» من يدٍ … هَدَمتْ لِسلم العالمين كيانا[6]

* * *

يا أهلَ مصر، رمى القضاءُ بلطفِه … وأراد أمرًا بالبلاد فكانا
إن الذي أمرُ الممالك كلَّها … بيديه، أحدَث في «الكنانة» شانا
أبقى عليها عرشَها في بُرهَةٍ … ترمي العروشَ وتنثُر التيجانا[7]
وكسا البلادَ سكينةً من أهلها … ووقى من الفتنِ العبادَ. وصانا
أومَا ترون الأرضَ خُرِّب نصفُها … وديارُ مصرٍ لا تزال جِنانا؟[8]
يرعى كرامتها، ويمنع حوضَها … جيشٌ يعاف البغيَ والعُدوانا[9]
كجنود (عَمْروٍ) أينما ركزوا القنا … عَفُّوا يدًا. ومُهنَّدًا. وسِنانا[10]
إن الشجاعَ هو الجبانُ عن الأذى … وأرى الجريءَ على الشرور جبانا

* * *

أمَمَ الحضارةِ. أنتمُ آباؤنا منكم أخذنا العلمَ والعرفانا
رقَّت لكم منَّا القلوبُ. كأنّما جَرحاكُمُ يومَ الوغى جَرجانا
ومن المروءَةِ — وهْي حائطُ دِيننا — أن نذكرَ الإصلاحَ والإحسانا[11]
ولئن غزاكم من ذوينا معشرٌ فلرُبَّ إخوانٍ غَزَوْا إخوانا
حتى إذا الشحناءُ نامت بينهم لم يعرفوا الأحقاد والأضغانا[12]

هوامش

(١) الساح جمع ساحة. والوغى: الحرب.

(٢) الجراحات: جمع جراحة. والبنان: أطراف الأصابع: مفردها بنانة.

(٣) الوطيس: شدَّة الحرب. والخليل: هو إبراهيم (عليه السلام)، وقصة إلقائه في النار مشهورة.

(٤) الوسيلة: ما يتقرَّب به إلى الغير. واضرع. من ضرع إليه: خضع وذلَّ. والرحمن: اسم من أسماء الله تعالى.

(٥) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. والبيع، بكسر الباء: جمع بيعة، بكسرها أيضًا، وهي متعبَّد النصارى.

(٦) السلم: ضدُّ الحرب. وكيان الشيء: وجوده أو طبيعته.

(٧) البرهة: قطعة من الزمن طويلة. وتنثر التيجان: ترميها متفرِّقة.

(٨) الجنان: جمع جنة.

(٩) يعاف: يكره.

(١٠) كجنود عمرو: هو عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. وركزوا القنا: غرزوها في الأرض. والقنا: الرِّماح: جمع قناة. عفُّوا: تركوا الشهوات. والمهنَّد: السيف. والسنان: نصل الرمح.

(١١) الحائط: الجدار، أي وهي من ديننا كالحائط من الدار.

(١٢) الشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس. والأضغان: الأحقاد.

تحيَّة للتُّرك[1]

بحمدِ اللهِ ربِّ العالمينا وحمدِك يا أميرَ المؤمنينا
لقينا في عدوِّكَ ما لقينا لقينا الفتحَ والنصرَ المبينا

***

هُمُ شهروا أذًى، وشهرتَ حربا فكنتَ أجلَّ إقدامًا وضربا
أخذت حدودَهم شرقًا وغربا وطهَّرْتَ المواقعَ والحصونا

***

وقبل الحربِ حربٌ منك كانت نتائجُها لنا ظهرت وبانت
ألنْتَ الحادثاتِ بها، فلانت وغادرت القياصَر حائرينا

***

جمعتَ لنا الممالكَ والشعوبا وكانت في سياستِها ضروبا
فلمَّا هبَّ (جُورجِيهم) هبوبا تلفَّتَ لا يصيبُ له مُعِيْنَا[1]

---

[1] قيلت في الحرب بين اليونان والأتراك سنة ١٣١٤ هجرية، وقلَّما نالت قصيدة في العالم العربي بأجمعه ما نالته هذه القصيدة أيام ظهورها من حفاوة وانتشار؛ وذلك لما ورد فيها من وصف وتهكُّم صادفا هوًى في النفوس.

* * *

رأى كيف السبيلُ إلى كريد وكيف عواقبُ الطيش المزيد
وكيف تنامُ يا عبدَ الحميد وتغفل عن دماءِ العالمينا؟

* * *

ولا واللـهِ والرسْلِ الكرام وبيتِك خيرِ بيت في الأنام
لما كانوا — وسيفُك ذو انتقام — يعادلُ جَمعُهم منا جنينا

* * *

رأيتَ الحلمَ لمَّا زاد غَرَّا وجرَّأ مَلْكَهم حتى تجرَّا[٢]
فجاءَتك الدعاوى منه تتْرَى وجاءَته جنودُك مبطلينا

* * *

بخيْلٍ في الهضابْ. وفي الروابي ونارٍ في القلاع. وفي الطوابي
وسيفٍ لا يلينُ، ولا يحابي إذا الآجالُ رجَّت منه لينا

* * *

وجيشٍ من غُزاةٍ عن غزاةِ همُ الأبطالُ في ماضٍ وآتي
ومن كرمٍ أذلُّوا كل عاتي وذَلُّوا في قتال المؤمنينا

* * *

أبعد بلائِهم في كلِّ حربٍ وضربٍ في الممالك أيِّ ضربٍ
تحاولُ صبيةٌ في زيِّ شعبٍ وتطمع أن تدوسَ لهم عَرِينا؟

* * *

جنودٌ للجراحِ الدَّهرَ مِرهَمْ يدبِّرها البعيدُ الصيتِ أدهمْ
فأنجدَ في تساليةٍ وأَتْهَمْ وكانت للعدا حصنًا حصينا[٣]

***

أروتـرُ، لا تـدسَّ الـسـم دسّـا ومهلاً فـي التهوِّس يا (هَوَسا)[٤]
سِل اليونانَ: هل ثبتت (لرِسَّا) وهل حُفِظَ الطريقُ على أثينا[٥]

***

مـعـاذَ الـلـه، كَـلاَّ، ثـم كَـلاَّ هـمُ الـبـحـارةُ الـغـرُّ الأجِـلا!
ومـا أسـطـولُـهـم فـي الـبـحـر إلا (شخاشِخُ) ما يَرُحنَ وما يجينا![٦]

***

وكم بعثوا جيوشًا من أماني أتـت دارَ الـسـعـادة فـي أمـان
ومـا سـارت سـوى يَوْمَـيَ زمـان فـأهـلاً بـالـغـزاة الـفـاتـحـيـنـا!

***

وكـم بـاتـوا عـلـى هَـرْج ومَـرْج وقالوا: المالُ مبذولٌ لجورجي[٧]
وكلُّ الـمـال مـن دخْـلٍ وخَـرْجِ ديـونٌ لا تـقـدِّرهـا ديـونـا![٨]

***

وكم فتحوا الثغورَ بلا تواني وبـالأسـطـولِ جـاءُوا مـن مـوانـي
ولـلـبـسـفـورِ طـاروا فـي ثـوانـي فـأهـلاً بـالأوزِّ الـعـائـمـيـنـا[٩]

***

وفي الآستانة انتصروا انتصارا وبـطـرسـبـرجَ دكُّـوهـا حـصـارا
فـيـا لـلـمـسـلـمـيـن ولـلـنـصـارى وقـيـصَـر والـمـلـوكِ الآخـريـنـا!

***

ويـا غـلـيـومُ، أيـن لـك الـفِـرارُ إذا جـورجـي وعـسـكـرُه أغـاروا؟
فـضـاقـت عـن سـفـيِـنـهـمُ الـبـحـارُ وضـاق الـبـرُّ عـنـهـم واجـفـيـنـا!

* * *

أمورٌ تضحكُ الصبيانُ منها ولا تدري لها العقلاءُ كُنها
فَسلْ روترْ، وسَلْ هافاسَ عنها فإن لديهما الخبرَ اليقينا

* * *

ويومَ مَلونَ إذ صحنا، وصاحوا ذكرنا الله من فرح، وناحوا
ودارتْ بينهم بالرَّاح راحُ ودارتْ راحةُ الإيمان فينا[١٠]
على الجبلين قد بتنا، وباتوا وقُتناهم منيَّتهم، وفاتوا
وقد متنا ثباتًا، واستماتوا وما البُسلاءُ كالمستبسلينا

* * *

خسفنا بالحصون الأرضَ خسفا تزيد تأبِّيًا فنزيد قذفا
بنار تنسُف الأجيالَ نسفا وتلقَفُ نارَهم والمطلقينا

* * *

مدافعُ ما تئوبُ بغير زادِ براكينٌ تصوبُ بلا نفاد[١١]
نصبناها لهم في كل وادي فكنَّ الموتَ، أو أهدى عيونا

* * *

جعلنا الأرضَ تحتَهمُ دماءَ وصيَّرنا الدُّخانَ لهم سماءَ
وإذ راموا من النار احتماءَ حَمَتْ أسيافْنا منهم مئينا

* * *

ورُبَّ مجاهدٍ شيخٍ مُبَجَّل ترجَّلتِ الجبالُ وما ترجَّلْ
أراد ليركب الموتَ المحجَّل إلى أجدادِه المستشهَدينا

* * *

وفى لجوادِه، وحنا عليه فخوطبَ في النزول، فما أجابا

وصابَ رصاصُها يُدْمِي يديه هنا فليطلبِ المرءُ المَنونا

* * *

وقد زاد البسالَة من وقارِ هِزبرٌ من ليوثِ التُّرك ضاري
تقدَّم نحو نارْ أي نارِ ليسبِقَ نحوَ خالِقه القرينا

* * *

جرى، فأذلَّ هاتيكَ الألوفا وزحزح عن مواضعها الصفوفا
فخاض إلى مكامِنها الحُتوفا وما هاب الرُّماةَ مسدِّدينا

* * *

دعا لله في وجه الأعادي كليثٍ زائرٍ في بطن وادي
فلبَّتْ الفيالقُ والأرادي ودارَ هلالٌ رايتنا يمينا[١٢]

* * *

فلمَّا أذعنوا أنَّا المنايا وأنَّا خيرُ مَنْ قاد السرايا[١٣]
تفرَّق جمعُهم إلاَّ بقايا على قُلَل الجبالِ مُجندَلينا

* * *

صلاةُ الله ربي والسلامُ على قتلى بفرسالو أقاموا[١٤]
هم الشهداءُ، حول الله حاموا فأدناهم، وكانوا الفائزينا

* * *

أنالوا الملك فتحًا أيَّ فتح وشادوا للخلافةِ أيَّ صرحِ
وجاءُوا ربَّهم منهم بذبْح تَقَبَّلَه، وكان به ضنينا[١٥]

* * *

سلامًا سفحَ فرسالو سلاما وكنْ خيرَ المُقامِ لمَنْ أقاما
وضنَّ بها وإن بليتْ عظاما تطيف بها الملائك حائمينا

* * *

أَأَدْهَمُ. هكذا تُقْنَى المعالي وتُقْنَى بالقواضِب والعوالي[١٦]
لقد بيَّضْتَ للملْك الليالي بسيفٍ يفضح الفجرَ المبينا

* * *

أخذتَ النصرَ بالجبلين غصبا وكنتَ الليثَ تخطارًا ووثبا
حملْتَ. فماجتْ الحُمْلانُ رُعْبا يظنُّهمُ الجهولُ مقاتلينا

* * *

وفي فرسالَ قد جئتَ العُجابا بسطتَ الجيش تقرؤه كتابا
وقد أحصيتَه بابًا فبابا وكانوا عن كتابك غافلينا

* * *

ثبتَّ مؤمَّلا منك الثباتُ توافيكِ الرسائلُ والسُّعاةُ
وحولَكَ أهلُ شوراك الثقاتُ تسوسون الجيوش مظَفَّرينا

* * *

هناك الصحْفُ سارت حاكياتِ وطيَّرتِ البروقُ محدِّثات
وحدَّثتِ الممالكُ آخذاتِ علومَ الحربِ عنكم والفنونا

* * *

بني عثمانَ، إنَّا قد قَدَرنا فتوحَكُم الكِبَارَ وقد شكرنا
سألنا الله نصرًا، فانتصرنا بكم، والله خيرُ الناصرينا

هوامش

(١) جورجي: ملك اليونان يومئذ.
(٢) تجرًا: مخفف تجرَّأ.

(٣) تسالية: موقعة من مواقع هذه الحرب. وأنجد وأتهم: نزل نجدًا وتهامة، والمراد أنه أتى على كل ما فيها ما ارتفع منه وانخفض.

(٤) هوسا: المراد به هافاس، وهي الشركة البرقيَّة المعروفة.

(٥) لرسا: موقعة من مواقع هذه الحرب.

(٦) شخاشخ: جمع (شخشيخة) وهي لعبة معروفة للأطفال.

(٧) الهرج والمرج: الفتنة والاختلاط.

(٨) لا تقدِّرها ديونا: أي لضآلتها، والمراد في كل هذه الأبيات التهكُّم باليونان.

(٩) وصف الأوزِّ بجمع المذكر، قد يُرَادُ به العظيم.

(١٠) ملون: موقعة، والراح الأولى: الأكفُّ، والثانية: الخمر.

(١١) تصوب: أي يسقط حممها كالمطر.

(١٢) الأرادي: جمع أردى، وهو الجيش.

(١٣) السرايا: جمع سريَّة، وهي القطعة من الجيش.

(١٤) فرسالو: موقعة.

(١٥) الذبح: ما يذبح.

(١٦) القواضب: السيوف. والعوالي: الرماح.

الدستور العثماني

بشرى البريَّةِ قاصيها ودانيها حاطَ الخلافةَ بالدستور حاميها[1]
لـمَّا رآها بلا ركنٍ تداركَها بعد (الخليفة) بالشورى، وناديها[2]
وبالأبيِّين من قومٍ أماتهم بُعدُ الديارِ، وأحياهم تدانِيها[3]
حنُّوا إليها كما حَنَّتْ لهم زمنًا وأوشك البينُ يُبليهم، ويُبليها[4]
مُشتَّتين على الغبراءِ، تحسبُهم رحَّالَةَ البَدْو هاموا في فيافيها[5]
لا يقربُ اليأسُ في البأْساءِ أنفسَهم والنفسُ إن قَنَطَتْ فاليأْسُ مُرْدِيها[6]

***

أسدى إلينا (أميرُ المؤمنين) يدًا جلَّت، كما جلَّ في الأملاكِ مُسديها[7]
بيضاءَ، ما شابَها للأبرياءِ دمٌ ولا تكدَّر بالآثامِ صافيها[8]
وليس مُستعظَمًا فضلٌ، ولا كرمٌ من صاحب (السكة الكبرى) ومُنشيها[9]
إن الندَى والرضَى فيه وأُسرتِ والله للخير هاديه وهاديها
قوم على الحبِّ والإخلاص قد ملكوا وحسبُ نفسك إخلاصٌ يزكيها[10]
إذا الخلائفُ من بيتِ الهدى حُمِدَتْ أعلى الخواقينَ منْ عثمانَ ماضيها[11]
خلافةُ الله في أحضانِ دولتهم شابَ الزمانُ، وما شابت نواصيها
دروعُها تحتمي في النائباتِ بهم من رمح طاعنها، أو سهمِ راميها

***

الرأيُ رأيُ «أمير المؤمنين» إذا حارتْ رِجالٌ وضلَّتْ في مرائيها[12]

وإنما هي شُورى الله، جاءَ بها كتابُه الحقُّ، يُعليها، ويُغليها
حقَنتَ عند مناداةِ الجيوش بها دمَ البريَّةِ إرضاءً لباريها[١٣]
ولو منعت أريقت للعباد دِمًا وطاحَ من مُهَج الأجناد غاليها[١٤]
وَمَنْ يَسُسْ دولةً قد سُسْتَها زمنًا تهُنْ عليه من الدُّنيا عواديها[١٥]
أتى ثلاثون حوْلاً لم تذُقْ سِنة ولا استخفَّكَ للَّذاتِ داعيها
مُسَهَّد الجفنِ، مكدودَ الفؤادِ بما يُضني القلوبَ، شجيَّ النفس، عانيها[١٦]
تكادُ من صُحبةِ الدُّنيا وخِبْرتِها تسيءُ ظَنَّك بالدُّنيا وما فيها

* * *

أما ترى المُلك في عرسٍ وفي فرحٍ بدولةِ الرأيِ والشورى وأهليها؟
لمَّا استعدَ لها الأقوامُ جئتَ بها كالماءِ عند غليل النفسِ صاديها؟[١٧]
فضلٌ لذاتك في أعناقِها، ويدٌ عند الرعيَّةِ من أسنى أياديها[١٨]
خلافةُ اللهِ جرَّ الذيلَ حاضرُها بما منحتَ، وهزَّ العِطفَ باديها[١٩]
طارت قناها سرورًا عن مراكزِها وألقت الغِمد إعجابًا مواضيها[٢٠]
هبَّ النسيمُ على «مقدونيا» برَدًا من بعد ما عَصَفَتْ جمرًا سوافيها[٢١]
تغلي بساكنِها ضِغنًا ونائرةً على الصدور إذ ثارت دواعيها[٢٢]
عاثت عصائبُ فيها كالذِّئاب عَدَتْ على الأقاطيعِ لمَّا نام راعيها[٢٣]
خَلا لها من رسُوم الحكم دارسُها وغَرَّها من طلول المُلك باليها[٢٤]
فسامَرَ الشرَّ في الأجبالِ رائحُها وصبَّح السهلَ بالعدوانِ غاديها[٢٥]
مظلومةٌ في جوار الخوفِ، ظالمةٌ والنفسُ مؤذيةٌ مَنْ راحَ يؤذيها
رثتْ لها وبكتْ من رقَّةٍ دولٌ كالبوم يبكي رُبُوعًا عزَّ باكيها[٢٦]
أعلامُ مملكةٍ في الغرب خائفةٌ لآل عثمانَ كادَ الدَّهرُ يطويها
لمَّا مُلئنا قنوطًا من سلامتها تَوَثَّبَتْ أُسْدُ الآجام تحميها[٢٧]
من كل مستبسلٍ يرمي بمهجتِه في الهول إن هي جاشت لا يراعيها[٢٨]
كأنها — وسلامُ الملك يطلبها — أمانةٌ عند ذي عهدٍ يؤدِّيها

* * *

الدينُ لله، من شاءَ الإلهُ هَدَى لكل نفسٍ هَوًى في الدين داعيها

ما كان مُخْتِلفُ الأديانِ داعيةً إلى اختلافِ البرايا، أو تعاديها
الكُتْبُ، والرسْلُ، والأديانُ قاطبةً خزائنُ الحكمةِ الكبرى لِواعيها
محبَّةُ اللهِ أصلٌ في مراشِدها وخَشيةُ اللهِ أسٌّ في مبانيها[29]
وكل خيرٍ يُلقَّى في أوامرها وكل شرٍّ يوقَّى في نواهيها
تسامُحُ النفسِ معنًى من مروءَتها بل المروءَةُ في أسمى معانيها
تخلَّقِ الصفحَ تسعدْ في الحياةِ به فالنفسُ يسعدها خُلْقٌ ويُشقيها[30]
الله يعلمُ ما نفسِي بجاهلةٍ مَنْ أهلُ خِلَّتها ممَنْ يُعاديها؟[31]
لئن غدوتُ إلى الإحسانِ أصرفها فإن ذلك أَجرى من معاليها
والنفسُ إن كبرت رقَّتْ لحاسدِها واستغفرت كرمًا منها لشانيها[32]

* * *

يا شعبَ عثمانَ من تركٍ ومن عربٍ حيّاكَ مَنْ يبعثُ الموتى ويُحييها
صبرتَ للحقِّ حين النفسُ جازعةٌ والله بالصبر عند الحقّ موصيها
نِلْتَ الذي لم ينله بالقنا أحدٌ فاهتفْ (لأنورها) واحمدْ (نيازيها)[33]
ما بين آمالِك اللائي ظِفرْتَ بها وبين (مصر) معانٍ أنتَ تدريها

هوامش

(١) حاط الخلافة: حفظها وتعهَّدها. وحاميها: هو الله تعالى.

(٢) الشورى: التشاور في الأمر، والمراد الرجوع في الحكم إلى رأي الأمة.

(٣) الأبيون: جمع أبي من الإباء، وهو الكبر والنخوة.

(٤) البين: الفرقة.

(٥) البدو: الصحراء. ورحالة البدو: أي الرحالة من أهل البدو. وهاموا: ذهبوا لا يدرون أين يتوجهون. والفيافي: جمع فيفاء، وهي المكان المستوي، أو المفازة لا ماء فيها.

(٦) اليأس: أن يقطع الإنسان أمله من الشيء، وهو القنوط أيضًا.

(٧) أسدى: أحسن. وأمير المؤمنين: هو السلطان عبد الحميد. واليدُّ: النعمة، والمراد الدستور. وجلَّت: عظمت. والأملاك: الملوك.

(٨) بيضاء.. إلخ: وذلك إنه لم تكد أمة تستخلص الحكم من الملك المستبد به، وتعيده إلى رأيها، إلا بعد حرب تقع بينه وبينها، ولكن السلطان عبد الحميد

لم يكد يعلم أن الجيوش زاحفة لتستخلص الحكم الشوري حتى رضيه وأقرَّه؛ فلم تقع يومئذ حرب، ولا أريقت دماء، وإن كانت قد حدثت بعد ذلك فتنة أُرِيدَ بها إرجاع الاستبداد، وانتهت بخلع السلطان.

(٩) السكة الكبرى: هي السكة الحديدة الحجازية، وقد أنشأتها الدولة في أيامه.

(١٠) يزكيها: يطهِّرها.

(١١) الخلائف: جمع خليفة. وبيت الهدى: هو بيت النبوة. والخواقين: جمع خاقان، وهو اسم لكل ملك من الترك. وعثمان: هو مؤسس الدولة التركية.

(١٢) المرائي: الآراء، جمع مرأى.

(١٣) حقنت دمَّ البرية: منعته أن يسفك. والبرية: الخلق. والباري: الخالق.

(١٤) أريقت، من أراق الماء: صبَّه. والدما: جمع دم. وطاح، هلك. والمهج: الأرواح. والأجناد: العسكر، جمع جند.

(١٥) عواديها: جمع عادية من عدا عليه: ظلمه، أي العوادي التي تصيبه منها.

(١٦) مسهَّد الجفن: من سهَّده، بالتشديد جعله يسهد. أي لا ينام. ومكدود الفؤاد: متعبه. ويضني القلوب: يثقلها. وشجي النفس: مشغولها. والعاني: الأسير.

(١٧) الغليل: شدَّة العطش. وغليل النفس: أي مغلولها، من غلَّ الرجل بضم الغين: اشتدَّ عطشه. والصادي: الشديد العطش أيضًا.

(١٨) اليدُّ هنا: النعمة.

(١٩) الحاضر: المقيم في الحضر. والبادي: المقيم في البادية.

(٢٠) مراكزها: جمع مركز، من ركز القناة، إذا غرزها في الأرض. والغمد: جفن السيف. والمواضي: السيوف.

(٢١) مقدونيا: هي إقليم البلقان، من تركية أوربا، والبرد: حبُّ الغمام. والعصف: اشتداد الريح. والسوافي: الرياح تذري التراب، جمع سافية.

(٢٢) تغلي: أي مقدونيا. والضغن: الحقد. والنائرة: يقال: نارت في الناس نائرة، أي هاجت هائجة، ودواعي الصدور: همومها.

(٢٣) عانت: أفسدت. والعصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، قيل: العشرة، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. عدت: وثبت. والأقاطيع: جمع قطيع، وهو الطائفة من الغنم.

(٢٤) الرسم الدارس: العافي القديم. والطلول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار.

(٢٥) فسامر الشرَّ: من المسامرة، وهي الحديث ليلاً. وصبَّح، بتشديد الباء: أتاه صباحًا.

(٢٦) رثت لها: رحمتها. وهذا البيت والأبيات قبله وصف الحالة مقدونيا، وذلك أن أوربا كانت دائمًا تدبِّر المكايد للدولة التركية، وكانت تجد مقدونيل أصلح مكان لمكايدها؛ لما بين أهلها من اختلاف كثير في الجنس والدين واللغة، وكانت الدولة العليَّة لا تكاد تطفئ فتنة في ناحية منها حتى تشبَّ فتنة في ناحية أخرى، وكلَّما كانت تتذرع بالقوة وإظهار الحزم في القضاء على أصحاب الثورات كان يشتدُّ خوف الناس في هذا الإقليم.

(٢٧) يريد بأسد الآجام: رجال الجيش الذين طلبوا من السلطان عبد الحميد إعلان الدستور فأذعن لهم.

(٢٨) المستبسل: المستقتل. والمهجة: الروح. والهول: الخوف من الأمر لا يدري ما يهجم عليه منه. وجاشت: اضطربت.

(٢٩) المراشد: مقاصد الطرق.

(٣٠) تخلَّق الصفح: أي اجعله خلقًا لك. والصفح: الإعراض عن ذنوب الغير.

(٣١) الخلفة (بكسر الخاء): المصادقة والإخفاء.

(٣٢) شانيها: مبغضها.

(٣٣) القنا: الرماح، جمع قناة، وأنور ونيازي: هما بطلا الدستور العثماني المشهوران.

الهلال والصليب الأحمران

(جبريل)، أَنت هدى السما ءِ، وأنت برهانُ العِنايه[1]
ابْسُطْ جَنَاحَيْكَ اللذيْـ ـن هما الطهارةُ والهدايه
وزدِ (الهلالَ) من الكرا مةِ، و(الصليبَ) من الرعايه
فهما لربِّك رايةٌ والحربُ للشيطان رايه
لم يخلق الرحمن أكـ ـبر منهما في البِرَّ آيه
الأحمران عن الدم الـ ـغالي وحرمتِه كنايه[2]
الغادِيان لنجدة الرائحان إلى وقايه[3]
يتألَّقان على الوَغى رشدًا تَبيَّن من غوايه[4]
يقفان في جنب الدِّما كالعُذْرِ في جنب الجنايه
لو خَيَّما في (كربلا) لم يُمْنع (السَّبْطُ) السّقايه[5]
أو أدركا يوم المسيـ ـح لعاوناه على النكايه[6]
ولناولاه الشهدَ، لا الـ ـخَلَّ الذي تصِفُ الرواية[7]
يأيها (اللادي) التي ألقت على الجَرْحَى حِمايه[8]
أَبلَيْتِ في نزع السها م بلاءَ دَهْرِكِ في الرمايه[9]
ومررتِ بالأسرى، فكنـ ـتِ نسيمَ واديهم سِرايه[10]
وبناتُ جنسكِ إن بَنَيْـ ـنَ البِرَّ أَحْسَنَّ البنايه
بالأمس لاديب (لوثرٍ) لم تألُ جِيرتَها عنايه[11]
أَسْدَتْ إلى أهل الجنو دِ يدًا، وغالت في الحفايه[12]

ومُـحـجَّـبـاتٍ هـنَّ أطـــ   ـــهرُ عند نائبةٍ كفايه[١٣]
يـسْـعِـفـن رِيًّـا، أو قِـرًى   كنساءِ طَيٍّ في البدايه[١٤]
إن لـم يـكـنَّ مـلائـكَ الـرَّ   حمن كُنَّ هُمُ حِكايه[١٥]
لَـبـيْـنَ دعـوتَـكِ الـكـريــ   ـمةَ، واستبقن البرَّ غايه[١٦]
الـمـحـسـنـون هـمُ الـلـبـا   بُ، وسائرُ الناسِ النفايه[١٧]
يـا أيـهـا الـبـاغـون. رُكـا   بَ الـجـهـالـة والـغَـمـايـه
الـبـاعـثـونَ الـحـربَ حُـبّـــ   ـًا للتوسُّع في الولايه
الـمـدَّعـون عـلـى الـورى   حقَّ القيامةِ والوصايه
الـمـثِـكـلـون، الـمـوتِـمـو   ن، الهادِمون بلا نهايه[١٨]
كلُّ الـجِـراح لـهـا الـتـئـا   م من عزاءٍ أو نِسايه[١٩]
إلاَّ جـراحَ الـحـقِّ فـي   عصر الحصافة والدراية[٢٠]
سـتـظـلُّ دامـيـةً إلــى   يوم الخصومة والشكايه

هوامش

(١) جبريل: من الملائكة مختصٌّ بالوحي.

(٢) الأحمران.. إلخ: أي اللذان جُعلا أحمرين ليُكنَّى بهما عن الدمِّ وحرمته.

(٣) النجدة: الإعانة.

(٤) يتألقان: يلمعان ويضيئان.

(٥) كربلا: مدينة في العراق بها قبر للحسين بن علي رضي الله عنهما. والسبط: ولد الولد والحسين سبط النبي ﷺ. يشير بذلك إلى مقتل الحسين، وما قيل من أن قتلته منعوا عنه الماء حين طلبه وهو في النزع.

(٦) يوم المسيح: أي اليوم الذي يزعم النصارى أن المسيح (عليه السلام) صُلِبَ فيه.

(٧) ولناولاه الشهد.. إلخ: وذلك أن النصارى تدَّعي أن المسيح (عليه السلام) طلب وقت شدَّة الصلب ماءً فأعطوه خلاً.

(٨) اللادي: لقب عام لزوجات لوردات الإنكليز، وهي هنا زوجة المعتمد البريطاني في مصر أثناء الحرب الكبرى؛ وذلك أنها قامت تجمع المال إعانة للصليب الأحمر، وتدعو إلى ذلك.

(٩) أبليت، من أبلى في الحرب: أظهر بأسه حتى اختبره الناس وامتحنوه.

(١٠) السراية: مصدر سرى، أي تسلل.

(١١) لادي لوثر: إنكليزية أخرى. ولوثر: اسم زوجها. والجيرة: الجيران.

(١٢) الحفاية: الحفاوة، وهي أن تتلطف بالرجل وتبالغ في إكرامه وتظهر السرور به.

(١٣) ومحجبات: أي ورُبَّ نساءٍ محجباتٍ لسن سافرات مثلكن. والكفاية: ما يحمل به الاستغناء والقناعة.

(١٤) الري: (بكسر الراء وفتحها): أي تشرب الماء حتى تشبع. والقرى: ما قُرِي به الضيف. وطي: قبيلة من العرب مشهورة بالكرم.

(١٥) الملائك: جمع ملك، بفتح اللام.

(١٦) لبِنَّ: أجبن. واستبقن البرَّ: جاوزنه.

(١٧) اللباب: المختار الخالص من الشيء. والنفاية (بضم النون وفتحها): ما نفيته من الشيء لرداءته.

(١٨) المثكلون، من أثكلها ولدها: أماته. والموتمون: الذين يجعلون الأبناء يتامى بقتل آبائهم في الحرب.

(١٩) النسايه: النسيان.

(٢٠) الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.

الجزء الثاني

باب الوصف

آيةُ العَصْر في سَمَاءِ مِصْرَ

نظمت عند قدوم (فدرين) و(يونيه) طائرين من باريز إلى مصر سنة ١٩١٤

يا فرنسا، نِلْتِ أسبابَ السماءْ وتملَّكتِ مقاليدَ الجِواءْ[1]
غُلِبَ النسَّرُ على دولته وتنحَّى لك عن عرشِ الهواءْ
وأتتْكِ الريحُ تمشي أَمَةً لكِ يا بلقيسُ — من أوفى الإماءُ[2]
رُوِّضتْ بعدَ جِماحٍ، وجرتْ طوعَ سُلطانَيْنِ: علمٍ، وذَكاءْ
لكِ خَيْلٌ بجناحٍ أشبهت خَيْلَ جبريلَ لنصرِ الأنبياء
وبَريدٌ يسحبُ الذيلَ على بُرُد[3] في البرِّ والبَحْرِ بطاءْ[4]
تطلعُ الشمسُ، فيَجْري دُونها فوقَ عُنْق الريَّحِ، أو متْنِ العَمَاء[5]
رِحلةُ المشرقِ والمغربِ ما لبثتْ غيرَ صَبَاح وَمَساء
بُسلاءُ الإنسِ والجِنِّ فِدىً لِفريقِ من بَنيكِ البُسلاء
ضاقت الأرضُ بهم، فاتَّخَذُوا في السمَّوات قبورَ الشهداء
فِتيةٌ يُمْسون جِيرانَ السُّها سُمَرَاءَ النجْمِ في أوج العَلاْء[6]
حُوَّمًا فوقَ جبالٍ لم تكن للرياح الهُوجِ يومًا بِوطاء
لِسليمانَ بِساطٌ واحِدٌ ولهم أَلفُ بساطٍ في الفضاء
يركبُون الشُّهْبَ والسُّحْبَ إلى رِفْعَةِ الذكرِ، وعَلياءِ الثناء
يا «نسورًا» هَبطوا «الوادي» على سالِف الحُبِّ، ومَأثورِ الوَلاء
دارُكم مصرُ، وفيها قومُكم مرحبًا بالأقربينَ الكُرَماء

طِرتُمُ فيها، فطارت فرحًا　　بأعزَّ الضيفِ خيْرِ النزلاء[٧]
هَل شجاكم في ثَرى أهرامِها　　ما أرَقْتُمْ من دُموع ودماء؟
أين نَسرٌ قد تلقَّى قبلكم　　عِظة الأجيالِ من أعلى بِناء؟[٨]
لو شِهدتم عصَره! أضحى له　　عالمُ الأفلاكِ معقُودّ اللواء
جَرَحَ الأهرامَ في عِزَّتها　　فمشى للقبر مجروحَ الإباء
أَخَذَتْ تاجًا بتاجٍ ثأرَها　　وَجَزَتْ من صَلفٍ بالكبرياء[٩]
وتمنَّت لو حَوَت أعْظُمَه　　بين أبناءِ الشموسِ العُظماء

* * *

جلَّ شأنُ الله هادي خَلْقِه　　بهُدَى العِلم، ونورِ العلماء
زفَّ من آياته الكبرى لنا　　طِلْبةً طال بها عَهدُ الرجاء
مركبٌ لو سلف الدَّهرُ به　　كان إحدى مُعجزاتِ القدَماء
نصفُه طيرٌ، ونصفٌ بشرٌ!　　يا لها إحدى أعاجيب القضاء!
رائعٌ، مرتفعًا أَو واقعًا،　　أنْفُسَ الشجعانِ قبلَ الجبناء
مُسرَجٌ في كلِّ حين، مُلجَمٌ　　كامِلُ العُدَّة، مَرموقُ الرُّواء[١٠]
كبِساطِ الريحِ في القدرة، أو　　هُدْهُدِ السيرةِ في صِدق البلاء
أو كحُوت يرتمي الموج به　　سابح بين ظُهورٍ وخَفاء
راكب ما شاءَ من أطرافه　　لا يُرَى من مركب ذي عُدَوَاء[١١]

* * *

ملأ الجوَّ فعالاً، وغدا　　عَجَبَ الغربانِ فيه والحِداء
وترى السُّحْبَ به راعِدةً　　من حديدٍ جُمِّعت، لا من رَوَاء[١٢]
حمل الفولاذَ ريشًا، وجرى　　في عنانْين له: نارٍ، وماء
وجَناحٍ غيرِ ذي قادِمةٍ　　كجَناح النحل مصقولٍ سَواء[١٣]
وذُنابَى، كلُّ ريحٍ مسَّها　　مسَّهُ صاعقةٌ من كهرُباء
يتراءَى كوكبًا ذا ذَنَب　　فإذا جَدَّ فَسَهمًا ذا مَضاء
فإذا جاز الثريًّا للثرى　　جرَّ كالطاوُوس ذيلَ الخُيَلاء
يملأ الآفاقَ صوتًا وصدىً　　كعزيف الجنِّ في الأرض العَرَاء

أرسلتْه الأرضُ عنها خبرًا　طَنَّ في آذانِ سكَّانِ السَّماء

***

يا شبابَ الغدِ، وابنَاي الفِدَى　لكُمُ. أكْرِمْ وأعزِزْ بالفِداء
هل يمدُّ الله لِي العيشَ، عسى　أن أراكم في الفريقِ السُّعَداء؟
وأرى تاجَكُمُ فوق السُّها　وأرى عرشَكُمُ فوق ذُكاء؟[١٤]
مَنْ رآكم قال: مصرُ استرجعتْ　عِزَّها في عهد «خوفو» و«مِناء»
أمَّةٌ للخلد ما تبني، إذا　ما بنى الناسُ جميعًا للعَفاء[١٥]
تَعْصِمُ الأجسامَ من عادي البلا　وتَقِي الآثارَ من عادي الفناء
إن أسأْنا لكُمُ، أو لم نُسِئْ　نحن هَلْكَى، فلكم طولُ البقاء
إنما مصرُ إليكمْ وبكمْ　وحُقوقُ البرَّ أوْلى بالقضاء
عَصرُكم حرٌّ، ومُستقبَلُكم　في يمين الله خيرِ الأمناء
لا تقولوا: حطنَّا الدَّهرُ، فما　هو إلاَّ من خيالِ الشعراء
هل علمتمْ أمةً في جَهلها　ظهرتْ في المجد حسناءَ الرِّداء؟
باطِنُ الأمةِ من ظاهِرِها　إنما السائلُ مِن لونِ الإناء
فخُذوا العلمَ عَلى أعلامه　واطلبوا الحكمةَ عندَ الحكماء
واقرءُوا تاريخَكم، واحتفظوا　بفصيح جاءَكمْ من فصحاء
أنزلَ اللهُ على ألسنُهم　وَحْيَه في أعْصُرِ الوَحْيِ الوِضاء[١٦]
واحكموا الدنيا بسلطانٍ، فما　خُلِقتْ نَضْرَتُها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرضِ، فإن　هي ضاقت فاطلبوهُ في السماء

شِيكِسْبِير

أعْلى الممالكِ ما كرسيُّه الماءُ　وما دِعامتُه بالحقِّ شَمَّاءُ[١٧]
يا جيرةَ (المَنْشِ)، حَلاَّكم أُبُوَّتُكم　ما لم يُطَوَّقْ به الأبناءَ آباءُ
مُلكٌ يطاول ملكَ الشمس، عِزَّتُه　في الغرب باذخةٌ، في الشرق قَعْساءُ[١٨]
تأوي الحقيقةُ منه والحقوقُ إلى　رُكنٍ بَناهُ من الأخلاق بَنَّاءُ
أعلاه بالنظرِ العالي، ونطَّقه　بحائط الرأْي أشياخٌ أجِلاَّءُ

وحَاطَهُ بالقَنا فِتيانُ مملكةٍ ... في السلم زَهرُ رُبًى، في الروع أرزاءُ
يُستَصْرخون، ويرُجَى فضلُ نَجدتِهم ... كأنهم عربٌ في الدَّهر عَرباءُ[١٩]
ودولةٌ لا يراها الظنُّ من سَعَة ... ولا وراءَ مداها فيه عَلْياءُ
عصماءُ، لا سببُ الرحْمنِ مُطَّرَح ... فيها، ولا رَحِمُ الإنسانِ قَطْعاءُ
تلك (الجزائرُ) كانت تحتَهم رُكُنًا ... وراءَهُنَّ لباغي الصَّيدِ عَنْقَاءُ[٢٠]
وكان وُدُّهُم الصافي ونُصْرتَهُم ... للمسلمين وراعيهم كما شاءُوا

***

دستورُهُم عجبُ الدنيا، وشاعرُهُم ... يَدٌ على خلقِه لله بيضاءُ
ما أنجبتْ مثلَ (شيكسبيرَ) حاضرَةٌ ... ولا نَمتْ من كريم الطيرِ غَنَّاءُ[٢١]
نالتْ به وَحْدَه (إنكلترا) شرفًا ... ما لم تنلْ بالنجوم الكُثْرِ جَوْزاءُ[٢٢]
لم تُكْشَف النفسُ لولاهُ، ولا بُلِيت ... لها سرائرُ لا تُحصَى وأهْوَاءُ[٢٣]
شِعرٌ من النَّسَق الأعلى، يُؤَيِّدُه ... من جانب الله إلهامٌ وإيحاءُ
من كلّ بَيْتٍ كآيِ الله، تسْكنُه ... حَقيقةٌ من خَيَال الشَّعر غرَّاءُ[٢٤]
وكلَّ معنىً كعيسى في محاسنه ... جاءَتْ به من بناتِ الشعر عَذراءُ
أو قِصَّةٍ ككتابِ الدَّهر جامعةٍ ... كِلاهُما فيه إضحاكٌ وإبكاءُ
مهما تُمثَّلْ تُرَ الدنيا مُمَثَّلةً ... أو تُتْلَ فهي من الإنجيل أجْزاءُ

***

يا صاحبَ العُصُرِ الخالي. ألا خَبَر ... عن عالَمِ الموْتِ يِرْوِيه الألِبَّاءُ[٢٥]
أمَّا الحياةُ، فأمْرٌ قد وصفتَ لنا ... فهل لِمَا بعدُ تمثيلٌ وإدناءُ؟[٢٦]
بمَنْ أماتك قل لي: كيف جُمجمةٌ ... غبراءُ في ظُلمات الأرض جَوْفاءُ؟[٢٧]
كانتْ سماءَ بيانٍ غيْرَ مُقْلعةٍ ... شُؤبُبها عَسَلٌ صافٍ وصهباءُ[٢٨]
فأصبحت كأصيص غير مُفتقَد ... جفَتْه ريحانة للشعر فَيْحاءُ[٢٩]
وكيف بات لِسَانٌ لم يدع غرضًا ... ولم تَفتْه من الباغين عوْراءُ[٣٠]
عفا، فأمْسَى زُنابَى عقربِ بَلِيَتْ ... وسُمُّها في عروقِ الظلم مشَّاءُ
وما الذي صنعتْ أيدي البلى بِيَدٍ ... لها إلى الغيب بالأقلامِ إيمَاءُ؟
في كل أنْمُلة منها إذا انْبَجَسَتْ ... بَرْقٌ، وَرَعْدٌ، وأرواحٌ، وأنواءُ[٣١]

أمسَتْ من الدُّودِ مثلَ الدُّودِ في جَدَثٍ ... قُفَّازُها فيه حَصباءٌ وبَوغاءُ[٣٢]
وأيْنَ تحت الثرى قلبٌ جَوَانبُه ... كأنهن لوادي الحقِّ أرْجَاءُ؟
تُصْغي إلى دَقِّه أذْنُ البيان، كما ... إلى النواقيس للرُّهبانِ إصْغاءُ
لئن تمشَّى البلى تحت التراب به ... لا يُؤْكَلُ الليثُ إلا وهْوَ أشلاءُ[٣٣]

***

والناسُ صِنْفَان: موتَى في حَيَاتِهُمُ ... وآخرُون ببطنِ الأرضِ أحْيَاءُ
تأبَى المواهبُ، فالأحياءُ بينهُمُ ... لا يستَوُون، ولا الأمواتُ أكفاءُ
يا واصِفَ الدَّم يجري ههنا وهُنا ... قُمِ انْظر الدَّمَ، فهْو اليومَ دَأْمَاءُ[٣٤]
لامُوكَ في جَعْلِكَ الإنسانَ ذِئبَ دَمٍ ... واليومَ تبدو لهم من ذاك أشياءُ
وقيل: أَكْثَرَ ذكرَ القتل، ثم أتوْا ... ما لم تَسَعْهُ خيالاتٌ وأنباءُ
كانوا الذئابَ، وكان الجهلُ داءُهُمو ... واليومَ عِلمُهُمُ الراقي هو الداءُ
لوْمُ الحياةِ مَشىَ في الناس قاطبةً ... كما مَشىَ آدمٌ فيهم وحَوَّاءُ
قمْ أيِّدِ الحقَّ في الدنيا، أليس له ... كتيبةٌ منكَ تحت الأرضِ خَرْساءُ؟
وأين صوتٌ تَمِيدُ الراسياتُ له ... كما تمايَدَ يومَ الناس سَيناءُ؟[٣٥]
وأين ماضيةٌ في الظلم، قاضيةٌ؟ ... وأين نافذةٌ في البَغْي، نَجْلاءُ؟
أيتركُ الأرضَ جانوها وليس بها ... صحيفةٌ منك في الجانين سوداءُ؟
تأوي إليها الأيَامَى، فهْيَ تعزِيَةٌ ... ويَسْتريحُ اليتامَى، فهْي تأسَاءُ[٣٦]

أَثَرُ الْبَالِ فِي الْبَال

في وصف ليلة راقصة أقيمت في قصر عابدين

حَفَّ كأسَها الحَببُ ... فهي فِضة ذَهَبُ[٣٧]
أو دوائرٌ دُرَرٌ ... مائجٌ بها لبَبُ[٣٨]
أو فمُ الحبيبِ، جلا ... عن جُمانِهِ الشَنَب[٣٩]
أو يَدٌ، وباطنُها ... عاطِلٌ ومختضِب
أو شَقيقٌ وجنتِه ... حينَ لي به لعِب[٤٠]
راحةُ النفوسِ، وهَل ... عند رَاحةٍ تعَب

يا نديمُ، خِفَّ بها ... لا كَبا بكَ الطرب
لا تقلْ: عواقبُها ... فالعواقبُ الأدب
تنجلي ولي خُلُق ... ينجلي وينسكِب
يرقُب الرفاقُ له ... كلَّما سَرَى شرِبوا
شاعرُ العزيز، وما ... بالقليل ذا الَّلقب
ليلةٌ لسيِّدِنا ... في الزمان تُرتَقب
دونها الرشيدُ، وما ... أخلَدتْ له الكُتب
يُهْرَعُ النزيلُ لها ... والرَّعيَّةُ النُّخَبُ[٤١]
فالسرايُ جَوْهرةٌ ... للعُقول تَخْتَلِب
أو كبَاقة زهْرَا ... للعِيُون تأْتشِب[٤٢]
الجَلالُ قبَّتُه ... والسَّنا لهُ طُنُب[٤٣]
ثابتٌ، وذِرْوتُهُ ... في الفضاءِ تضطرب
أشرقتْ نوافِذهُ ... فهْيَ مَنظرٌ عجَب
واسْتنارَ رفرَفهُ ... والسُّجوفُ، والحُجُب[٤٤]
تعجَب العيونُ له ... كيف تَسكنُ الشُّهُب؟[٤٥]
أقبلتْ شموس ضُحىً ... ما لهن مُنتقَب[٤٦]
الظلامُ رَايتُها ... وهْيَ جَيْشُهُ اللَّجِب[٤٧]
في هَوَادجٍ عَجَلاً ... بالجيادِ تنسَحِب
قامَ دوُنها سَببٌ ... واستحثَّها سبب[٤٨]
فْهيَ تارةً مَهَلٌ ... وهْيَ تارةً خَبَب[٤٩]
تَرْتمي بهنَّ حِمىً ... لا يَجوزُه رَغب[٥٠]
بابُه لداخِلهِ ... جَنَّةٌ، هي الأرَب
قامتِ السُّراةُ به ... والمعِيَّةُ النجُبُ[٥١]
وانبرَى النساءُ له ... عُجْمُهُنّ، والعرَبُ
العفافُ زينتُها ... والجمالُ، والحسَب
أنْجُمٌ، مَطالِعُهَا ... عابدينُ والرَّحَب[٥٢]
سيِّدي لها فلَكٌ ... وهْيَ منه تقترب

عِنْد رُكنِ حُجْرَتِه   بَدْرُه لنا كَثَب[٥٣]
يزدهي السَّريرُ به   والمطارِفُ القُشُب[٥٤]
حَوْلَ عَرْشِه عَجَمٌ   حوْل عرشِه عَرَب
رُتبةُ الجُدُودِ له   تستوي بها الرُّتَب
شُرِّفت به وسَما   تالِدٌ، ومُكْتَسَب[٥٥]
الليوثُ ماثِلةٌ   والظباءُ تنسَرِب
الحريرُ ملبَسُها   واللُّجَيْنُ، والذَّهب[٥٦]
والقصورُ مَسْرَحُها   لا الرِّمالُ، والعُشُب
يستفزُّها نَغَمٌ   لا صدىً، ولا لجَب[٥٧]
يُستعادُ مُرْقِصُه   تارةً ويُقْتَضَب
فالقدودُ بانُ رُبىً   بَيْدَ أنها تثِب[٥٨]
يلعبُ العِناقُ بها   وهْوَ مُشْفِقٌ حَدِب[٥٩]
فهْيَ مَرَّةً صُعُدٌ   وهْيَ مرَّةً صَبَب[٦٠]
وهْيَ ههنا، وهُنا   تَلتقي، وتَصْطحِب
مِثلما التقتْ أسَلٌ   أوْ تعانقتْ قُضُب[٦١]
الرءُوسُ مائلةٌ   في الصدور تحتجِب
والنُّحورُ قائِمةٌ   قاعدٌ بها الوَصَب[٦٢]
والنُّهودُ هامِدةٌ   والخدودُ تلتهب
والخصورُ واهيةٌ   بالبنان تَنْجَذِب
سالتِ الأكفُّ بها   فهْيَ أغْصُنٌ نُهب[٦٣]
الخِوانُ دائِرةٌ   المَلاَ لها قُطُب[٦٤]
للوفودِ مائدةٌ   منه أينما انقلَبوا
والطريقُ مُتَّصلٌ   نحوَه، ومُنشعِب
والطعامُ حاضِرهُ   والمزيدُ مُنْتَهَب
باردٌ، ومِن عَجَبٍ   يُشتهَى ويُطَّلب
سائغٌ لِذِي سَغبٍ   سائغٌ ولا سَغَب[٦٥]
حاضرٌ لدّى طَلبٍ   حاضرٌ ولا طلب

والـمُـدامُ أكـؤُسُـهـا   ما تغيضُ والعُلَب[٦٦]
وهْـيَ بـيـنـنـا سَـلَـبٌ   والنُّهَى لها سَلَب[٦٧]
شَـرُفـتْ مـنـافِـحُـهـا   واعتلى بها العِنب
حَوْلَها الحوائمُ، ما   ينقضي لها قَرَب[٦٨]
يغتبِطْنَ في حَرم   لا تـنـالـه الـرِّيَـب
ما سِوى الحديث به   يُـبـتـغـى ويُـجـتـذَب
هـكـذا الـكـرامُ، كـرا   مٌ «وإن همو طَربوا»
لـيـلـةٌ عـلَـتْ، وغـلَـتْ   ليتَ فجْرَها كَذِب
يـكـفـلُ الأمـيـرُ لـنـا   أن تعِيدَها الحِقب[٦٩]
عاش للندَى مَلكٌ   سـيِّـدٌ لـنـا، وأبُ
حـاتـمُ الـمـلـوكِ إذا   ضاق بالنَّدَى النَّشَب[٧٠]
الـسـرورُ أَنْـعُـمُـه   والـهـنـاءُ مـا يَـهـب
والـنَّـدَى سـجـيَّـتُـه   والـحـنـانُ، والـحَـدبَ[٧١]
يـا عـزيـزُ، دام لـنـا   رَوْضُ عِزِّك الأشِب[٧٢]
هـذه عـروسُ نُـهـىً   في القبول تَرتغِب[٧٣]
زفَّـهـا لـكـم، وجَـلا   شاعرُ الحِمَى الأرِب
احتفى الحضورُ بها   واكتفى بها الغَيَب[٧٤]
أنـتـم الـظـلالُ لـنـا   والـمـنـازلُ الـخُـصُـب
لو مَدَحْـتُكم زَمَنِي   لـم أقـم بـمـا يَـجـب

مَرْقصْ

نُظِمَت هذه القصيدة في وصف مرقص أُقِيم بسراي عابدين سنة ١٩٠٤

مـالَ واحـتـجـبْ   وادَّعَـى الـغـضـبْ
لـيـت هـاجـري   يـشـرحُ الـسـبـب
عَـتْـبُـه رضـىً   لـيـتـه عـتـب
عـلَّ بـيـنـنـا   واشـيًـا كـذب

أو مـــفــــنِّـــدًا يـخـلُـقُ الـرَّيَـب[٧٥]
مَــنْ لِـمُـدْنَـفٍ دمـعُـه سُـحُـب؟[٧٦]
بـات مـتـعَـبًـا هَـمُّـهُ الـلـعِـب
يـسـتـوي خَـلٍ عـنـدَه وَصَـب
ذقـــتُ صـــدَّه غـيـرَ مـحـتـسِـب
ضـقـتُ فـيـه بالــ ـرُّسْـلِ والـكـتـب
كـلَّـمـا مَـشـى أخـجـل الـقُـضُـب
بـيْـن عَـيـنـه والـمـهـا نـسـب
مـــاءُ خـــدَّه شـفَّ عـن لَـهـب
سـاقـيَ الـطَّـلا شُـرْبُـهـا وجـب[٧٧]
هـاتِـهـا مَـشَـتْ فـوقـهـا الـحِـقـب[٧٨]
بـــابِـــلـــيَّـــةً تـنـفـثُ الـحـبَـب[٧٩]
إنَّ كَـــرْمَـــهـــا آدمُ الـــعِـــنَـــب
هُـذِّبَـتْ، فـفـي دَنِّـــهـــا الأدب
اِسْـقِـهـا فـتـىً خـيـرَ مَـنْ شـرِب
كـلَّـمـا طـغـى راضَـهـا الـحـسـب
(عــابـديــنُ) أمْ هــالــةٌ عــجــب؟[٨٠]
أسُّـــهُ الـــهـــدَى والـعُـلا طُـنُـب[٨١]
مُـشـرفُ الـذرى مـائـجُ الـرَّحَـب
قـــام ربُّـــه يـرفـع الـحـجُـب
عـنـد عـرشِـه عَـرشِ (مِـنْـحُـتـب)
دون عِـــزَّه (تُـبَّـعُ) الـغَـلـب
الـــسُّـــراةُ مـــن وفـده الـنُّـخَـب
حـــول سُـــدَّةٍ حَـقُّـهـا الـرَّغَـب
طـابَ عِـنَـدهـا الــ ــعُـجْـمُ والـعَـرَب
وارتـضـى الـمَـلا من بـنـي الـصُّـلُـب
مِـن حِـسـانِـهـم سِـربٌ انـسـرَب

بيـن كـوكـبٍ   يَسـحَب الـذَّنـب
عـنـد جُـؤْذَرٍ   فـاتـنِ الـشـنـب[٨٢]
عـنـد شـادنٍ   حـاسِـر الـلَّـبَـب[٨٣]
تَـذهـبُ الـنُّـهَـى   أيـنـمـا ذهـب
يَـلْـفِـتُ الـمـلا   كـلَّـمـا وثـب
فـي غـلائـلٍ   سُـنـدِسٍ قُـشُـب[٨٤]
دونـهـنَّ لا   يـثـبـت الـيَـبـلَـب[٨٥]
قـرَّ نَـهْـدُه   عِـطْـفـه اضـطـراب
خـصـرهُ هـبـا   صـدره صـبَـب
يُـرْكِـضُ الـنُّـهَـى   مَـشْـيُـهُ الـخَـبَـب
رائـعًـا كـمـا   شاءَ فـي الـكـتـب
آنـسًـا إلـى   شِـبـهِـه انـجـذب
يـسـتـخِـفُّـه   أيـنـمـا انـقـلـب
مُـطـربٌ مـن الْـ   ـلَـحْـنِ مُـنـتَـخَـب
يَـجـمَـعُ الـمَـلا   يُـحـضِـر الـغَـيَـب
مـا حـدا الـمـهـا   قـبـلَـه طـرِب

***

يـا ابنَ خـيـر أب   يـا أبـا الـنُـجُـب
أنـت (حـاتـمٌ)   لـلـقِـرَى انـتـدب
فـي خِـوانِـه   كُـلُّ مـا يـجـب
لـم تـقْـم عـلـى   مِـثِـلـه الـقُـبَـب
أنـهـلَ الـبـرا   يـا ومـا نـضـب
أطـعـم الـورى   لـم يـقـل جـدب
مـا بـهـمْ صـدًى   مـا بـهـم سـغـب[٨٦]
قـمْ أبـا (نـوا   سٍ) انظر النَّشب[٨٧]
ما الخصيبُ؟ ما الْـ   ـبحرُ ذو الغُبُب؟
هـل عـهـدتَـه   يُـمـطِـرُ الـذَّهـب؟

ذا هــو الــجــنــا بُ الـذي خـصـب
ظــلَّــلَ الــورى روضُــه الأشِــب[٨٨]
خـيـرُ مَـنْ دعـا خـيـرُ مَـنْ أَدَب[٨٩]

***

(رَبَّ مصر)، عشْ وابْــلُــغ الأرب
لــم تــزل لــيــا لــيــك تُــرتَــقــب
مثلَ صفوِها الــ ــدَّهـرُ ما وهـب
أحــيــهــا لــنــا عِــدَّةَ الــشُّــهــب
هـاكَ مِدْحة الشــ ـــاعــر الأرِب[٩٠]
زفَّــهــا إلــى خيرِ مَنْ خَطب
فــارِســيَّــةً بــزَّتِ الـعَـرَب
لـم يـجِـئْ بـهـا شـاعـرٌ ذهـب
إن تُــراعِــهــا تــسـمَـعِ الـعَـجَـب[٩١]
بــيــدَ أنــهــا بـعـضُ مـا وجَـب

تَحْلِيَةُ كِتَاب

(قيلت بمناسبة تأليف كتاب فتح مصر الحديث لحافظ بك عوني) صفة الكتاب – صفة التاريخ – صفة الجبرتي – واقعة الأهرام

أنا مَنْ بدَّل بالكتَبِ الصَّحابَا لم أجد لي وافيًا إلا الكتِابا
صاحبٌ – إن عِبتَه أو لمْ تعِبْ – ليسَ بالواجد للصاحبِ عابا
كـلَّـمـا أخـلـقـتُـه جَـدَّدَنـي وكساني من حلى الفضل ثيابا
صُحبةٌ لم أشْكُ منها رِيبةً وودادٌ لـم يُـكـلِّـفـنـي عـتَـابـا
رُبَّ ليلٍ لم نُقصِّر فيه عن سَمَرٍ طالَ على الصمت وطابا
كـان مـن هـمَّ نـهـاري راحـتـي ونـدامَـايَ. ونَـقْـلـي. والـشَّـرابـا[٩٢]
إن يَجِدْني يتحدَّثْ، أو يَجِدْ مَللاً يَطوي الأحاديثَ اقتضابا
تجدُ الكُتْبَ على النقدِ كما تـجـدُ الإخـوانَ صِـدقًـا وكِـذَابـا

فـتَـخَـيَّـرْهـا كـمـا تـخـتـاره   وادَّخِر في الصَّحْب والكُتْبِ اللُّبابا
صالحُ الإخوانِ يبغيكَ التُّقى   ورشيدُ الكتْب يَبغيك الصوابا

***

غالِ بالتاريخ، واجعل صُحْفَه   مِن كتابِ الله في الإجلال قابا
قلِّب الإنجيلَ، وانظر في الهدَى   تَلقَ للتاريخ وزنًا، وحِسابا
رُبَّ مَنْ سافر في أسفارِه   بليالي الدَّهرِ والأيامِ آبا
واطلب الخلْدَ، ورُمْهُ مَنزلاً   تجدْ الخُلدَ مِن التاريخ بابا
عاشَ خَلْقٌ، ومَضوْا، ما نَقصوا   رُقعَةَ الأرضِ، ولا زادوا التُّرابا
أخذَ التاريخُ مما تركوا   عملاً أحسنَ، أو قولاً أصابا
ومن الإحسانِ، أو من ضِدَّهِ   نجَح الراغبُ في الذِّكر، وخابا
مَثَلُ القَوْمِ نَسُوا تاريخَهُم   كلقيطٍ عَيَّ في الناس انتسابا
أو كمغلوبِ على ذاكِرة   يشتكي من صِلةِ الماضي انقضابا[٩٣]

***

يا أبا «الحُفَّاظِ» قد بلَّغتنا   طِلْبةً، بَلَّغك اللهُ الرَّغابا
لكَ في الفتح وفي أحداثِهِ   فَتحَ الله حديثًا وخطابا
مَنْ يُطالعُه، ويسْتأنِس به   يجِد الجِدَّ، ولا يَعدَم دِعابا
صُحُفٌ أَلَّفْتَهَا في شِدَّةٍ   يتلاشى دونها الفكرُ انتهابا
لغة «الكامل» في استرساله   «وابنِ خَلْدُون» إذا صحَّ وصابا
إنَّ للفصحَى زِمامًا ويَدًا   تَجنِب السهلَ، وتقتادُ الصِّعابا[٩٤]
لغةُ الذكرِ، لسانُ المُجْتبى   كيف تعْيا بالمُنادِين جوابا؟
كلُّ عَصْرٍ دارُها إن صادفت   منزلاً رحْبًا، وأهلاً، وجَنابا[٩٥]
إئتِ بالعُمرانِ رَوْضًا يانعًا   وادْعُها تجرِ يَنابيعَ عِذابا
لا تجِئها بالمتاع المُقْتَنى   سَرَقًا من كلِّ قوم ونِهابا
سَل بها أندَلُسًا: هل قَصَّرت   دون مضمارِ العُلى حين أهابا؟
غُرِسَتْ في كلِّ تُرْبٍ أعْجَمٍ   فزَكتْ أصلاً، كما طابت نِصابا
ومَشتْ مِشْيَتَها، لم ترتكِب   غيرَ رِجْلَيْهَا، ولم تحجل غُرابا[٩٦]

***

إنَّ عَصرًا تجلوه لنا   لبِس الأيامَ دَجْنا وضَبابا[٩٧]
المماليك تَمشَّى ظلْمُهم   ظُلماتٍ، كدُجى الليل حِجابًا
كلُّهم كافورُ، أو عبدُ الخَنَا   غيرَ أن المتنبي عنه خابا؟[٩٨]
ولكلٍّ شِيعةٌ من جنسِه   إن للشرِّ إلى الشرِّ انجذابا
ظلماتٌ لا ترى في جُنْحِها   غيرَ هذا الأزهرِ السمْحِ شِهابا[٩٩]
زيدتِ الأخلاق فيه حائطًا   فاحتمى فيها رِواقًا وقبابا
وترى الأعزَالَ من أشياخِه   صَيَّروه بسلاح الحقِّ غابا[١٠٠]
قسَمًا لولاه لم يبقَ بها   رَجُلٌ يقرأ أو يَدري الكتابا
حَفِظَ الدينَ مَلِيًّا، ومضى   يُنقِذُ الدنيا، فلم يَملِك ذَهابا[١٠١]
أُوذِيَتْ هَيْبَتُه مِن عَجزه   وقُصارَى عاجزٍ أن لا يُهابا
لم تغادر قلمًا في راحة   دَوْلَةٌ ما عَرَفَتْ إلا الحِرابا
أقعدَ الله (الجبرتيَّ) لها   قلمًا عن غائب الأقلام نابا[١٠٢]
خَبَّأ (الشيخُ) لها في رُدْنِه   مِرقمًا أدهى من الصِّلِّ انسيابا[١٠٣]
مَلكٌ لم يُغْضِ عن سَيِّئةٍ   يا له من مَلَكٍ يَهْوَى السبَّابا[١٠٤]
لا يراه الظُّلمُ في كاهِلِه   وهو يكوي كاهلَ الظلم عِقابا
صُحُفُ (الشيخِ)، ويَوْميَّاتُه   كزمان الشيخ سُقمًا واضطرابا
من حواشٍ كجَليدٍ لم يذبْ   وفصولٍ تشبِه التبَّرَ المُذابا
و(الجبرتيُّ) على فِطنَتِهِ   مَرَّةٌ يَغْبَى، وحينًا يتغابَى[١٠٥]
مُنصفٌ ما لم يَرُضْ عاطفةً   أو يُعالج لهوى النفسِ غلابا[١٠٦]
وإذا الحيُّ تَوَلَّى بالهوى   سيرةَ الحيَّ بَغَى فيها وحابَى

***

وقعَةُ الأهرامِ جلَّتْ مَوْقِعًا   وتعالت في المغازي أن تُرابا[١٠٧]
عِظةُ الماضي، ومُلقَى دَرْسِه   لعقولٍ تجعلُ الماضي مَثابا[١٠٨]
من بناتِ الدَّهرِ، إلا أنها   تَنشرُ الدَّهر وتطويه كَعَابا[١٠٩]
ومن الأيام ما يَبقى وإن   أَمْعَن الأبطالُ في الدَّهر احتجابا

هـي مـن أيِّ سـبـيـلٍ جـئْـتَـهـا ... غايةٌ في المجد لا تدنو طِلابا
انظُر الشرقَ تَجدها. صَرَّفتْ ... دولـةَ الـشـرقِ اسـتـواءً وانـقـلابـا
جـلـبـتْ خـيـرًا وشـرًّا، وسَـقـتْ ... أمَمًا في مهدِهم شُهدًا وصابا[١١٠]
في (نصيبين) لبسْنَا حُسنَها ... وعلى التَلِّ لبسناها مَعابا[١١١]
إن سِربًا زَحفَ (النَّسرُ) به ... قطعَ الأرضَ بِطاحًا وهِضابا[١١٢]
إن ترامتْ بلدًا عِقبانُه ... خَطفتْ تاجًا، واصطادت عُقابا[١١٣]
شَهد (الجيزيُّ) منهم عُصْبةً ... لبسوا الغارَ على الغار اعتصابا[١١٤]
كذئابِ القفرِ من طول الوغى ... واختلاف النَقع لونًا وإهابا[١١٥]
قادَهم للفتح في الأرض فتىً ... لو تأنَّى حظَّه قادَ السحابا
غَرَّت الناسَ به نكبتُه ... جَمَعَ الجُرحُ على الليثِ الذُّبابا
بَرَزت بالمنظرِ الضاحي لهم ... فيلق كالزَّهر حُسْنًا والتهابا؟[١١٦]
حُلِّيَ الفُرسانُ فيها جوهرًا ... وجِلالُ الخيلِ دُرًّا وذَهابا[١١٧]
في سلاح كحُليِّ الغِيد، ما ... لمسَت طَعْنًا، ولا مَسَّتْ ضِرابا
طرِحَت مصرٌ، فكانت (مُومِيَا) ... بين لِصيْن أراداها جُذابا
نالها الأعرضُ ظُفرًا منهما ... من ذئاب الحربِ، والأطولُ نابا
وبنو الوادي رِجالاتُ الحِمَى ... وقفوا من ساقة الجيش ذُنابى
موقفَ العاجز من حلفِ الوغى ... يَحُرسُ الأحمالَ، أو يسقي مُصابا

الرَّبِيعُ وَوادِي النِّيلِ

إلى (هول كين) الكاتب الروائى الشهير

آذارُ أقبلَ، قُمْ بنا يا صاحِ ... حيِّ الربيعَ حديقةَ الأرواحِ
واجمعْ نَدامى الظَّرفِ تحت لوائه ... وانشرْ بساحتِه بساطَ الرَّاح
صفوٌ أتِيحَ، فخذْ لنفسِك قِسطَها ... فالصفوُ ليس على المدَى بمُتاح
واجلس بضاحكة الرياض مُصَفِّقًا ... لتجاوُبِ الأوتارِ والأقداح
واستأْنِسَنَّ من السُّقاةِ برُفقَةٍ ... غُرٍّ، كأمثال النجوم، صِباح
رقَّتْ كنُدمان الملوك خلالُهُم ... وتجمَّلوا بمروءَةٍ وسَماح

واجعل صَبوحَك في البكور سَلِيلةً للمنجِبَيْنِ: الكرْمِ والتفاح[١١٨]
مهما فضضتَ دِنانَها فاستضحكت مُلِيءِ المكانُ سَنىً، وطيبَ نُقاح
تطغى، فإن ذكرتْ كريمَ أصولها خلعت على النشوان حِلْيَةَ صاحي
(فرعونُ) خبَّأها ليومِ فُتوحه وأعدَّ منها قُرْبَةً (لفتاح)[١١٩]
ما بين شادٍ في المجالي أيْكُهُ ومُحجَّباتِ الأيْكِ في الأدواح[١٢٠]
غَرِدٌ على أوتارِه، يُوحي إلى غَرِدٍ على أغصانه، صَدَّاح
بِيضُ القلانِس في سواد جَلابِبِ حُلِّينَ بالأطواق والأوضاح
رَتَّلْنَ في أوراقهن مَلاحِنًا كالرَّاهباتِ صبيحةَ الإفصاح
يخطرن بين أرائكٍ ومنابرٍ في هيكلٍ من سُندسٍ فيَّاح

***

مَلِكُ النبات، فكلُّ أرضٍ دارُه تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورَةٌ أعلامُه، من أحمرٍ قانٍ، وأبيضَ في الرُّبَى لمَّاح
لبِستْ لمقْدَمه الخمائلُ وَشْيَها ومَرَحْىَ في كنَف له وجناح
يغشى المنازلَ من لواحظ نرجس آنًا، وآنًا من ثغور أقاح[١٢١]
ورءُوس «منثورٍ» خَفَضْنَ لعزَّه تيجانَهنَّ عواطرَ الأرواح
الوردُ في سُرُرِ الغصونِ مُفتَّحٌ متقابل يُثني على الفَتَّاح
ضاحِي المواكب في الرياض، مُمَيَّزٌ دون الزهور بشَوْكةٍ وسلاح
مرَّ النسيمُ بصفحتيه مُقبِلاً مرَّ الشِفاه على خدود ملاح
هتكَ الردى من حسنِه وبهائه بالليل ما نسجتْ يدُ الإصباح
ينبيك مصرعُه — وكلُّ زائلٌ — أن الحياة كغُدوةٍ ورَواح
ويقائق النَّسْرِينِ في أغصانها كالدُّرَّ رُكِّب في صدور رماح[١٢٢]
و«الياسَمينُ»، لَطيفُه ونَقيُّه كسريرة المتنزَّه المِسماح
مُتألِّقٌ خَلَل الغصون، كأنه في بُلجْة الأفنانِ ضوءُ صباح[١٢٣]
و«الجُلَّنَارُ» دمٌ على أوراقه قاني الحروفِ، كخاتَم السفاح
وكأن مخزونَ «البنفسَج» ثاكلٌ يَلْقَى القضاءَ بخشية وصلاح
وعلى «الخواطرِ» رِقَّةٌ وكآبةٌ كخواطر الشُّعراءِ في الأتراح[١٢٤]
والسَّرْوُ في الحِبَرِ السوابغ كاشفٌ عن ساقِه كمليحة مِفْراح[١٢٥]

و«النخلُ» ممشوقُ العُذُوقِ، مُعصَّبٌ ... متزيِّنٌ بمناطق ووِشاح
كبناتِ فرعونٍ شهدنَ مواكبًا ... تحتَ (المراوح) في نهارٍ ضاح
وترى الفضاءَ كحائط من مَرْمَر ... نُضِدَتْ عليه بدائعُ الألواح
الغَيَمُ فيه كالنَّعام: بَدينةٌ ... بركتْ، وأخرى حَلَّقتْ بجَناح
والشمسُ أبهى من عروسٍ بُرقعتْ ... يوم الزَّفاف بعسجَد وضَّاح
والماءُ بالوادي يُخالُ مَساربًا ... من زئبق، أو مُلقَياتِ صِفاحِ[١٢٦]
بعثتْ له شمسُ النهار أشعَّةً ... كانت حُلى (النَّيْلُوفَرِ) السباح
يزهو على ورِق الغصون نثيرُها ... زَهْوَ الجواهِرِ في بطون الرَّاح
وجرت سواقٍ كالنَّوادب بالقُرى ... رُعْنَ الشجيَّ بأنَّةٍ ونُوَاح
الشاكياتُ وما عَرَفْنَ صبابةً ... الباكياتُ بمَدْمَع سحَّاح
من كلِّ باديةِ الضلوع غليلةٍ ... والماءُ في أحشائها، مِلواح[١٢٧]
تبكي إذا رَتَبَتْ، وتَضَحكُ إن هَفَتْ ... كالعِيس بين تَنَشُّط ورَزاح[١٢٨]
هي في السلاسل والغلو، وجارُها ... أعمى، ينوءُ بنِيرِه الفدَّاح

* * *

إني لأذكرُ بالربيع وحسنهِ ... عهدَ الشباب وطِرفِه المِمراح[١٢٩]
هل كان إلاَ زهرةً كزهورِه ... عجلَ الفناءُ لها بغير جُناح؟

* * *

(هول كين)، مصرُ رواية لا تنتهي ... منها يدُ الكُتَّاب والشُّراح
فيها من البَرْدِيِّ، والمُزْمور، والـ ... ـتوراةِ، والفرقان، والإصحاح[١٣٠]
(ومِنَا)، و(قمبيزٌ)، على (إسكندرٍ) ... فالقيصَرين، فِذي الجلال (صلاح)
تلك الخلائقُ والدُّهورُ خزانةٌ ... فابعثْ خيالَكَ يأتِ بالمفتاح
أُفقُ البلاد — وأنت بين رُبوعها — ... بالنجم مزدانٌ وبالمصباح

مَسْجدُ أيَا صُوفْيَا

كنيسةٌ صارت إلى مسجِدِ ... هديَّةُ السيِّدِ للسيِّدِ

كانت لعيسىَ حرمًا، فانتهت   بنُصرة الرُّوح إلى أحمد
شيَّدَها الرومُ وأقيالُهُم   على مثالِ الهَرمِ المُخْلَد[١٣١]
تُنبئُ عن عزٍّ، وعن صَولةٍ   وعن هوًى للدينِ لم يخمُد
مَجَامِرُ الياقوتِ في صَحْنها   تملؤهُ من نَدِّها المُوقَد[١٣٢]
ومثل ما قد أودِعَتْ من حُلىً   لم تتَّخذْ دارًا ولم تُحشَد
كانت بها العذراءُ من فضَّةٍ   وكان روحُ الله من عسجد
عيسى من الأمَّ لدى هالةٍ   والأمُّ من عِيسى لدَى فَرْقد
جَلاَّهُما فيها، وحلاَّهُما   مصوَّرُ الروم القديرُ اليد
وأودعَ. الجدرانَ من نقشه   بدائعًا من فنِّه المفردِ
فمن ملاكٍ في الدُّجَى رائحٍ   عند ملاكٍ في الضُّحى مغتدي
ومن نبات عاش كالبَبَّغا   وهْوَ على الحائط غَضٌّ نَدِي
فقلْ لمَنْ شادَ، فهَدَّ القُوَى   قوَى الأجيرِ، المُتْعَبِ، المُجهَد
كأنه فرعونُ لمَّا بنى   لربِّه بيتًا، فلم يَقصِد:[١٣٣]
أيُعبدُ الله بسوْمِ الوَرَى   ما لا يُسام العَيْرُ في المِقْود؟[١٣٤]
كنيسةٌ كالفَدَنِ المعتِلى   ومسجِدٌ كالقصر من أصْيدِ[١٣٥]
والله عن هذا وذا في غنىً   لو يعقِلُ الإنسان أو يهتدي
قد جاءَها (الفاتحُ) في عُصْبةٍ   من الأُسُود الرُّكَّع، السُجَّد
رمى بِهم بنيانَها، مثلَما   يصطدِمُ الجلْمَدُ بالجلْمَد[١٣٦]
فكبَّروا فيها، وصلَّى العِدا   واختلط المشهدُ بالمشهد
وما توانى الرومُ يَفْدُونَها   والسيف في المفْدِيَّ والمفتدِي
فخانها من قيصرٍ سعدُه   وأُيَّدتْ بالقيصرِ الأسعد
بفاتحٍ، غازٍ، عفيفِ القَنا   لا يحملُ الحقدَ، ولا يعتدي
أجارَ مَنْ ألقى مقاليدَه   منهم، وأصفى الأمنَ للمرتدي
وناب عمّا كان من زُخرفٍ   جلالةُ المعبود في المعَبد
فيا لثأرٍ بيننا بعده   أقام، لم يقرُبْ، ولم يبعُد
باقٍ كثأْر (القدس) من قبله   لا ننتهي منه، ولا يبتدي
فلا يغرَّنْك سكونُ الملا   فالشرُّ حولَ الصَّارمِ المُغْمَد

لن ن يتركَ الرومُ عباداتِهم — أو ينزلَ التركُ عن السُّؤدَد
هذا لهم بيت على بيتِهم — ما أشبه المسجدَ بالمسجد
فإنْ يُعادوا في مفاتيحِه — فيا ليومٍ للورَى أُسود
يَشيب فيه الطفلُ في مهدِه — ويُزعَج الميْتُ من المرقد
فكنْ لنا اللهمَّ في أمسنا — وكن لنا اليومَ، وكنْ في غد
لولا ضلالٌ سابقٌ لم يقمْ — من أجلكَ الخلقُ ولم يَقْعُد
فكلُّ شرًّ بينهم أو أذى — أنت بَراءٌ منه طُهْرُ اليد

غَابُ بُولونيَا[1]

يا غابَ بولون، ولِي — ذمَمٌ عليك، ولي عُهودْ
زمنٌ تقضَّى للِهوَى — ولنا بِظلِّكَ، هل يعود؟
حُلُمٌ أريدُ رجوعَه — ورجوعُ أحلامي بعيد
وهَبِ الزَّمانَ أعادَها — هل للشبيبةِ مَنْ يُعيد؟
يا غابَ بولونَ، وبي — وجْدٌ مع الذكرى يَزيدْ
خَفَقَتْ لرؤيتكَ الضلو — عُ، وزُلْزِلَ القلبُ العَميد[١٣٧]
وأراكَ أقسى ما عَهِدْ — تُ، فما تَميلُ، ولا تَميد
كم يا جمادُ قساوَةً؟ — كم؟ هكذا أبدًا جُحود؟
هلاَّ ذكرتَ زمانَ كنَّا — والزَّمانُ كما نريد؟
نطوِي إليك دُجى الليا — لي، والدُّجَى عنَّا يَذود
فنقولُ عندكَ ما نقو — لُ، وليس غيرُك مَنْ يُعيد
نُطْقي هوًى وصبابةٌ — وحديثُها وَتَرٌ وعُود
نَسْرِي، ونَسرحُ في فضا — ئِكَ، والرِّياحُ به هُجودْ
والطيرُ أقعدَها الكرى — والناسُ نامت والوجود
فنبيتُ في الإيناس يغـ — ـبطنا به النجمُ الوحيد

---

[1] غاب بولونيا: متنزَّه مشهور في باريس.

فـي كـلِّ رُكْـنٍ وقـفـةٌ وبـكـلِّ زاويـةٍ قُـعـود
نَسقي، ونُسقي، والهوى ما بين أعيننا ولِيد
فِـمـن الـقـلـوب تـمـائـم ومن الجُنوبِ له مُهود
والغصنُ يسجُدُ في الفضا ءِ، وحبَّذا منه السجود
والنجمُ يلحظنا بعيْـ ـن ما تَحُولُ ولا تحيد
حتى إذا دَعت النَّوى فتبدَّد الشملُ النضيد
بِـتـنـا، ومـمـا بـيـنـنـا بحر. ودون البحر بيد
لـيـلـي بـمـصرَ، ولـيـلُـهـا بالغرب، وهو بها سعيد

المرأةُ العُثمانِيَّةُ

يـا مَـلَـكًـا تـعـبَّـدا مُـصَـلِّـيًـا مـوحِّـدا
مـبـارَكًـا فـي يـومـه والأمسِ، ميمونًا غدا
مُـسَـخَّـرًا لأمّـةٍ من حقها أن تَسْعَدا
قـد جـعـلْـتْـه تـاجَـهـا وعِـزَّهـا، والـسُّـوْددا
وأَعرضتْ حيث مشى وأَطـرقَـتْ حـيـث بـدا
تُـجِـلُّـه فـي حـسـنـه كـمـا تُـجِـلُّ الـفَـرْقَـدا
أنت شُعـاعٌ من عَلٍ أنـزلـه الـلـهُ هُـدَى
كم قد أضاءَ منزلاً وكـم أنـار مـسـجـدًا
وكم كسا الأسواقَ من حُـسْـنٍ، وزانَ الـبـلـدا
لولا التُّقَى لقلتُ: لم يَـخْـلُـقْ سواك الـولـدا
إن شئت كان العَيْرَ، أو إن شـئـت كـان الأسـدا
وإن تُرِدْ غَيًّا غَوَى أو تـبـغِ رُشْـدًا رَشَـدا
والبيتُ أنت الصوتُ فيـ ـه، وهو للصوت صَدَى
كـالـبـبَّـغـا فـي قـفـص قِـيـل لـه، فـقـلَّـدا
وكالقضِيب اللَّدنِ، قد طاوع في الشكل اليدا
يـأخَـذ مـا عـوَّدتَـه والـمـرءُ مـا تـعـوَّدا

مما انفردتَ في الورَى　　بـفـضـلـه وانـفـردا
وكلُّ ليثٍ قد رَمَى　　به الإمامُ في العدا
أنتَ الذي جنَّدتَه　　وسُقْتَه إلى الردى
وقلتَ: كنْ لله، والسـ　　ـلطانِ، والتركِ، فِدى

الْهِلاَلُ

سنونٌ تُعادُ، ودهرٌ يعيدْ　　لَعَمْرُكَ ما في اللَّيالِي جديد
أضاءَ لآدمَ هذا الهلالُ　　فكيف تقولُ: الهلالُ الوليد؟
نعدُّ عليه الزَّمانَ القريبَ　　ويُحْصِي علينا الزمانَ البعيد
على صفحتْيه حديثُ القُرى　　وأيامُ (عادٍ)، ودنيا (ثمود)
و(طِيبةٌ) آهلةٌ بالملوك　　(وطيبةٌ) مُقْفِرَةٌ بالصعيد
يزول ببعض سناه الصَّفا　　ويفنى ببعض سناه الحديد[١٣٨]
ومن عجَبٍ وهْوَ جَدُّ الليالي　　يُبيد الليالِيَ فيما يُبيد!!

* * *

يقولون يا عامُ: قد عدتَ لي　　فيا ليت شعري بماذا تعود؟
لقد كنتَ لي أمسِ ما لم أُرِدْ　　فهل أنت لي اليومَ ما لا أريد؟
ومَنْ صابَر الدَّهرَ صبري له　　شكا في الثلاثين شكوى (لَبِيد)[١٣٩]
ظمِئتُ، ومثلي بِرِيٍّ أحقُّ　　كأني حسينٌ، ودهري يَزِيد[١٤٠]
تغابيتُ حتى صحِبتُ الجهولَ　　وداريتُ حتى صحبتُ الحسود

منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة

لِمَنْ غُرَّةٌ تَنجلي من بعيد　　بمرْأى كما الحُلْم ضاحٍ سعيد؟
تَهُزُّ الوجودَ تباشيرُها　　كما هزَّ مِنْ والديه الوليد
ويغشى الدُّنا من حُلاها سَنىً　　أضاءَ لنا كلَّ حالٍ نضيد[١٤١]
من الموج مُلْتَمِعٌ، مثلما　　تَحَلَّتْ نحورُ الدُّمى، بالعقودْ[١٤٢]

أتتنا من الماءِ مُهتزَّةً … منوَّرةً، تَعتلي للوجود
وتصْعَد من غير ما سُلَّمٍ … فيا للمصوَّر هذا الصعود!
وهذا المنيرُ القريبُ القريب … وهذا المنيرُ البعيدُ البعيد
وهذا المنير الذي لن يُرى … وهذا المنير وكلٌّ شهيد
وهذا الجُسامُ الخفيفُ الخُطا … وهذا الجُسامُ الذي ما يَميد
ويا للمصوَّر آثارها … بكل بحارٍ، وفي كل بيد!!
وتقليلها كلَّ جمَّ السنا … وتصغيرها كلَّ عالٍ مَشِيد
من النار، لكنَّ أطرافَها … تدورُ بياقوتة لن تَبيد
من النار، لكنَّ أنوارَها … إلهيَّةٌ، زُيِّنَتْ للعبيد
هي الشمسُ، كانت كما شاءَها … مماتُ القديمِ، حياةُ الجديد
تَردُّ المياهَ إلى حَدَّها … وتُبلي جبالَ الصفا والحديد[١٤٣]
وتطلُعُ بالعيشِ، أو بالرَّدى … على الزرعِ: قائِمِه، والحَصِيد
وتسعى لذا الناسِ مهما سعتْ … بخيرِ الوعودِ، وشرَّ الوعيد
وقد تتجلَّى إذا أقبلتْ … بنُعْمى الشقيَّ وبؤسى السعيد
وقد تتولَّى إذا أدبرتْ … وليست بمأمونة أن تعود
فما للغروب يَهيجُ الأسى … وكان الشروقُ لنا أيَّ عيد؟
كَذا المرءُ ساعةَ مِيلادِه … وساعةَ يدعو الحِمامُ العنيد
وليس بجارٍ ولا واقعٍ … سوى الحقِّ مما قضاه المُريد

مَنْظَرُ طلُوعِ الْبَدْرِ مِن سَفِينَةٍ

مَلِكَ السماءِ، بَهَرت في الأنوار … ففداك كلُّ مُتوَّجٍ من ساري
لمَّا طلعتَ على المياه تُنيرها … سكنتْ، وقد كانت بغير قرارِ
وزَهَتْ لناظرِها السماءُ، وقرّ ما … في البحر من عُبُب، ومن تيَّار[١٤٤]
وأهلَّ لله السُّراةُ، وأزلَفوا … لك في الكمال تحيَّةَ الإكبار
وتأمَّلوك، فكل جارحةٍ لهم … عينٌ تُسامِر نورَها وتُساري
والبدر منكَ على العوالم يَجتلِي … بِشْرَ الوجوه وزحمة الأبصار

مُتقدَّمٌ في النُّور، محجوبٌ به ... مُوفٍ على الآفاق بالأسفار
يا دُرَّةَ الغوَّاصِ أخرَج ظافرًا ... يُمناه يجلوها على النُّظار
مُتَهَلِّلا في الماءِ، أبدَى نصفَه ... يسْمُو بها، والنصفُ كاسٍ عار
وافى بك الأُفُقُ السماءَ، فأسفرتْ ... عن قُفْل ماسٍ، في سِوارٍ نُضَار
ونهضتَ، يزهو الكونُ منكَ بمنظرٍ ... ضاحٍ، ويحملُ منك تاجَ فخَار
الماءُ والآفاقُ حولك فِضَّةٌ ... والشُّهْبُ دينارٌ لدى دينار
والفلكُ مشرقةُ الجوانبِ في الدُّجَى ... يبدو لها ذيلٌ من الأنوار
بيْنَا تَخَطَّرُ في لُجَيْنٍ مائجٍ ... إذ تَنثنِي في عسجدٍ زَخَّار
وكأنها والموجُ منتظم وقد ... أُوفيتَ ثم دنوتَ كالمُحتار
غَيْداءُ لاهيةٌ، تَخُطُّ لأغْيَدٍ ... شِعْرًا ليقرأه، وأنتَ القارى
فليهْنِ بدرَ الأرضِ أنكَ صِنوُهُ ... ونظيرُه قُرْبًا وبُعْدَ مَزار
وحلاكُما، ما البدُر إلاَّ أنتما ... وسواكما قمرٌ من الأقمار
أنت الكريمُ على الوجود بوجهه ... وهي الضنينةُ بالخيالِ السارِي
هيفاءُ أهواها، وأعشقُ ذكرَها ... لكن أداري، والمحبُّ يُداري
لي في الهوى سِرٌّ أبِيتُ أَصُونه ... والله مُطَّلِعٌ على الأسرار

بَلْدَةُ الْمُؤْتَمَرِ لنَاظِرِهَا فِي بَهْجَةِ مَناظِرِها

جنيف وضواحيها

لا السُّهْدُ يُدنيني إليه، ولا الكرى ... طَيْفٌ يزورُ بفضله مهما سرى
تَخِذَ الدُّجى، وسماءَه، ونجومَه ... سُبُلاً إلى جفنيك، لم يرضَ الثرى
وأتاكَ موفورَ النعيم، تخالُه ... مَلَكًا تنمُّ به السماءُ، مُطهرا
علِم الظلامُ هبوطَه، فمشتْ له ... أهدابُه يأخذْنه مُتحدِّرا
وحَمى النسائمَ أن تروحَ وأن تَجِي ... حَذَرًا وخوفًا أن يُراع ويُذعَرا
ورقدْتَ تُزْلِف للخيال مكانَه ... بين الجفون. وبين هُدبِك، والكرى
فهَنِئتَهُ مثلَ السعادةِ شائقًا ... متصوِّرًا ما شئتَ أن يتَصوَّرا
تَطوى له الرُّقباء منصورَ الهوى ... وتَدوس ألسنةَ الوشاةِ مظفَّرا

لولاَ امتنانُ العين يا طيفَ الرضا ... ما سامحت أيامَها فيما جرى
بانت مُشوَّقةً، وبات سوادها ... زُونَا بتمثال الجمال منوَّرا
تُعطَى المنى، وتنيلهنَّ خليقة ... بك أن تُقدِّم في المنى وتؤخِّرا
وتعانِق القمرَ السَّنِيَّ عزيزةً ... حتى إذا ودَّعتَ عانَقَت الثرى
في ليلةٍ قَدِم الوجودَ هلالُها ... فدنت كواكبُها تُعلِّمه السُّرى
وتريه آثارَ البدورِ ليقتفي ... ويرى له الميلادُ أن يتصدَّرا
ناجيتُ مَن أهوى، وناجاني بها ... بين الرياض، وبين ماءِ (سُوَيْسِرا)
حيث الجبالُ صِغارُها وكبارُها ... من كل أبيضَ في الفضاءِ وأخضرا
تَخِذَ الغمامُ بها بيوتًا، فانجلت ... مشبوبةَ الأجرام، شائبةَ الذُّرَى
والصخرُ عالٍ، قام يشبه قاعدًا ... وأناف مكشوفَ الجوانبِ مُنذِرا
بين الكواكب والسَّحابِ، ترى له ... أُذُنًا من الحجر الأصمِّ ومِشفَرا[١٤٥]
والسفحُ من أيَّ الجهاتِ أتيتَه ... ألفيته دَرَجًا يَموج مُدوَّرا
نثَر الفضاءُ عليه عِقدَ نجومِه ... فبدا زَبَرْجَدُه بهنَّ مجوهرا
وتنظَّمتْ بِيضُ البيوت، كأنها ... أوكارُ طيرٍ، أو خَمِيسٌ عسكرا[١٤٦]
والنجمُ يبعث للمياه ضياءَه ... والكهرباءُ تضيءُ أَثناءَ الثرى
هام الفراشُ بها، وحام كتائبًا ... يحكي حوالَيْها الغمامَ مسيَّرا
خُلِقت لرحمته، فباتت نارُه ... بَرْدًا، ونار العاشقين تَسَعُّرا
والماءُ من فوق الدِّيار، وتحتَها ... وخِلالها يجري، ومن حول القرى
مُتصوِّبًا، مُتصعِّدًا، مُتمهِّلاً ... مُتسرِّعًا، مُتسلسِلاً، مُتعثِّرا
والأرضُ جِسْرٌ حيث دُرْت ومَعْبَرٌ ... يصلان جِسرًا في المياه ومعبرا
والفُلكُ في ظلِّ البيوت مواخِرًا ... تطوي الجداولَ نحوها والأنهُرا
حتى إذا هَدأ المَلا في ليله ... جاذبتُ لَيْلِي ثوبَه متحيِّرا
وخرجت من بين الجسور، لعلَّني ... أستقبِل العَرْفَ الحبيبَ إذا سرى
آوِي إلى الشجرات، وهْيَ تهزُّني ... وقد اطمأنَّ الطيرُ فيها بالكرى
ويهزُّ مني الماءُ في لمعانه ... فأَميلُ أنظر فيه، أطمعُ أن أرى
وهنالك ازْدَهَت السماءُ، وكان أن ... آنَستُ نورًا ما أتمَّ وأبهرا!!
فسريتُ في لألائِه، وإذا به ... بدرٌ تسايره الكواكبُ خُطَّرا

حُلُمٌ أعارتني العنايةُ سمعها … فيه، فما استتممْتُ حتى فُسِّرا
فرأيتُ صفوي جَهرةً، وأخذتُ أنـ … ـسى يقظةً، ومُنايَ لَبَّتْ حُضَّرا
وأشرت: هل لُقْيا؟ فأُوحِيَ: أنْ غدًا … بالطَّود أبيض من جبال (سُوَيْسرا)
إن اشرقت زهراءَ تسمو للضحى … وإذا هوت حمراءَ في تلك الذُّرى
فشروقُها منه أتمُّ معانيًا … وغروبُها أجلى وأكملُ منظرًا
تبدو هنالك للوجود وَلِيدةً … تهْنا بها الدُّنيا، ويغتبط الثرى
وتضيءُ أثناءَ الفضاءِ بغُرَّةٍ … لاحَت برأسِ الطَّوْدِ تاجًا أزهَرا
فسمَتْ، فكانتْ نصفَ طارٍ، ما بدا … حتى أنافَ، فلاحَ طارًا أكبرا
يعلو العوالمَ، مُسْتَقِلا، ناميًا … مُستعصيًا بمكانه أن يُنْقَرا
سالت به الآفاقُ، لكنْ عسجدًا … وتغطَّت الأشباحُ، لكنْ جوهرا
واهتزَّ، فالدُّنيا له مُهتزَّةٌ … وأنار، فانكشف الوجودُ منوَّرًا
حتى إذا بلغ السُّمُوُّ كمالَه … أذنِت لداعي النقصِ تهوي القهقرى[١٤٧]
فدنت لناظرِها، ودان عنانُها … وتبدَّل المستعظمُ المستصغرا
واصفرَّ أبيضُ كلِّ شيءٍ حولَها … وأحمرَّ بُرْقُعُها وكان الأَصفرا
وسما إليها الطَّودُ يأخذُها، وقد … جعلتْ أعالِيَهُ شريطًا أحمرا
مسَّته، فاشتعلت بها جَنَباته … وبدتْ ذُراه الشُّمُّ تحمل مِجْمرا
فكأنما مدَّتْ به نيرانَها … شَرَكًا لتصطادَ النهارَ المدْبِرا
حرقته، واحترقت به، فتولَّيا … وأتى طلُولَهما الظلامُ فعسكرا
فشروقُها الأملُ الحبيبُ لمَنْ رأى … وغروبُها الأجلُ البغيضُ لمَنْ درى
خَطبانِ قاما بالفناءِ على الصَّفا … ما كان بينهما الصفاءُ ليعمُرا
تتغير الأشياءُ مهما عاودا … والله عزَّ وجلّ لن يتغيرا
أنهارنا تحت (السليف)، وفوقَه … ولدى جوانِبه، وما بين الذُّرى
رَجْلاً، ورُكْبانًا، وزَحْلَقَةً على … عَجلٍ هنالك كهربائيَّ السَرى
في مركبٍ مُستأنسٍ، سألت به … قُضُبُ الحديدِ، تعرُّجًا وتحدُّرا
ينساب ما بين الصخور تمهُّلاً … ويخفُّ بين الهُوَّتين تَخطُّرا
وإذا اعتلى بالكهرباءِ لذروةٍ … عصماءَ، همَّ معانقًا متسوِّرا
لما نزلنا عنه في أُمِّ الذُّرى … قمنا على فرع (السليف) لننظرا

أرضٌ تموجُ بها المناظرُ جَمَّةٌ   وعوالمٌ نِعْمَ الكتابُ لمَنْ قرا
وقُرىً ضَرَبْن على المدائنِ هالةً   ومدائنٌ حَلَّيْنَ أجيادَ القُرَى
ومزارعٌ للناظرين روائعٌ   لَبس الفضاءُ بها طرازًا أخضرا
والماءُ غُدْرٌ ما أرقَّ وأغْزَرا!!   وجداولٌ هنَّ اللُّجَيْنُ وقد جرى
فحشون أفواهَ السهولِ سبائكًا   وملأنَ أَقبالَ الرواسخِ جوهرا[١٤٨]
قد صغَّر البعدُ الوجودَ لنا، فيا   لله ما أحلى الوجودَ مَصغَّرا!!

(وقال يصف مشاهد الطبيعة في طريقه إلى الآستانة قادمًا من أوربا:)

تلك الطبيعةُ، قِف بنا يا ساري   حتى أريكَ بديعَ صُنْعِ الباري
الأرضُ حولك والسماءُ اهتزَّتا   لروائع الآياتِ والآثار
من كلِّ ناطقةِ الجلال، كأنها   أُمُّ الكتاب على لسان القاري[١٤٩]
دَلَّتْ على مَلِكِ الملوكِ، فلم تَدَعْ   لأدلَّة الفقهاءِ والأحبار[١٥٠]
مَنْ شَكَّ فيه فنظرةٌ في صُنْعِه   تمحو أثيمَ الشكَّ والإنكار

***

كشف الغطاء عن (الطرول) وأشرقت   منه الطبيعةُ غيرَ ذاتِ سِتار
شَبَّهْتُهَا (بلقيسَ) فوق سريرها   في نَضْرَةٍ، ومواكبٍ، وجواري
أو (بابن داوُدٍ) وواسعِ مُلكه   ومعالمٍ للعزِّ فيه كبار[١٥١]
هُوجُ الرِّياح خواشعٌ في بابه   والطيرُ فيه نواكسُ المِنقار[١٥٢]

***

قامت على ضاحي الجنان كأنها   رضوانُ يُزجي الخُلد للأبرار[١٥٣]
كم في الخمائل وهي بعض إمائها   من ذاتِ خلخالٍ، وذاتِ سوار[١٥٤]
وحَسِيرَةٍ عنها الثيابُ، وبَضَّةٍ   في الناعماتِ تجرُّ فضلَ إزار[١٥٥]
وضَحوكٍ سنًّ تملأُ الدنيا سنًى   وغريقةٍ في دمعها المِدْرار
ووحيدةٍ بالنجدِ تشكو وحشةً   وكثيرةِ الأتراب بالأغوار[١٥٦]

***

ولقد تمرُّ على الغدير تخاله ... والنبْت مرآة زهتْ بإطار[١٥٧]
حلو التسلْسُل موجُهُ وجريرُه ... كأنامل مرَّت على أوتار
مدَّت سواعد مائه وتألَّقت ... فيها الجواهر من حَصًى وجِمار[١٥٨]
ينساب في مُخضلَّةٍ مُبتلَّةٍ ... منسوجةٍ من سُندُسٍ ونُضار[١٥٩]
زهراءَ عَوْنِ العاشقين على الهوى ... مختارةِ الشعراءِ في آذار
قام الجَليدُ بها وسالَ، كأنه ... دَمعُ الصبابةِ بلَّ غصن عذار
وترى السماءَ ضحىً وفي جنحِ الدُّجى ... مُنشقَّةً من أنهرٍ وبحار[١٦٠]
في كلِّ ناحيةٍ سلكتَ ومذهبٍ ... جبلانِ من صخر وماءٍ جاري
من كلَّ مُنهمرِ الجوانبِ والذُّرى ... غَمْرِ الحضيضِ، مُجلَّلٍ بوقار[١٦١]
عقد الضريبُ له عمامةَ فارعٍ ... جَمَّ المهابةِ من شيوخ نِزَار[١٦٢]
ومكذِّبٍ بالجنِّ ريع لصوتها ... في الماءِ منحدرًا وفي التيار
مَلأ الفضاءَ على المسامع ضجَّةً ... فكأنما ملأ الجهاتِ ضَواري
وكأنما طوفانُ نوحٍ ما نرى ... والفلكُ قد مُسِخَتْ حثيثَ قِطار
يجري على مثل الصرِّاط، وتارةً ... ما بين هاويةٍ وجُرْفٍ هاري

***

جاب الممالكَ حزْنَها وسهولَها ... وطوى شِعابَ (الصرب) (والبلغار)[١٦٣]
حتى رمى برحالنا ورجائنا ... في ساحِ مَأمولٍ عزيز الجار
مَلِكٌ بمَفْرَقِه إذا استقْبلتَه ... تاجان: تاجُ هُدًى، وتاجُ فَخارِ
سكَنَ (الثريَّا) مُستقرَ جلالِه ... ومشت مكارمُه إلى الأمصار
فالشرقُ يُسقَى دِيمةً بيمينه ... والغرب تمطره غيوثُ يَسار[١٦٤]
ومدائنُ البرَّيْنِ في إعظامه ... وعوالمُ البَحْرَيْنِ في الإكبار
الله أيَّده بآساد الشَّرى ... في صورة المُتَدجِّج الجرَّار
الصاعدين إلى العدوَّ على الظُّبى ... النازلين على القنا الخطَّار[١٦٥]
المشترين الله بالأبناءِ، والـ ... ـأزواجِ، والأموالِ، والأعمار
القائمين على لواءِ نبيِّه ... المنزَلين منازلَ الأنصار

***

يا عرشَ (قسطنطينَ)، نلت مكانةً ... لم تُعطَها في سالفِ الأعصار
شُرِّفتَ بالصَّدِّيقِ، والفاروق، بل ... بالأقربِ الأدْنى من المُختَار
حامي الخلافةِ مجدِهَا وكِيَانِها ... بالرأيِ آونةً وبالبَتَّار[١٦٦]

* * *

تاهَتْ (فروقُ) على العواصم، وازدَهت ... بجلوسِ أصْيَد باذِخِ المقدار[١٦٧]
(جَمَّ الجلالِ، كأنما كرسيُّه ... جُزءٌ من الكرسيِّ ذي الأنوار)
أخذت على (البوسفور) زُخْرفَها دُجًى ... وتلألأتْ كمنازِلِ الأقمار
فالبدرُ ينظر من نوافِذِ منزلٍ ... والشمسُ ثَمَّ مُطِلَّةٌ من دار
وكواكِبُ الجوزاء تَخْطُر في الرُّبَى ... (والنَّسْر) مطلعُه من الأشجار
واسم الخليفة في الجهاتِ منوِّر ... تَبدو السبيلُ، به ويهدي السَّاري
كتبوه في شُرَفِ القصور، وطالما ... كتبوه في الأسماع والأبصار

* * *

يا واحدَ الإسلام غيرَ مُدافَعٍ ... أنا في زمانك واحدُ الأشعار
لي في ثنائِك — وهو باقٍ خالدٌ — ... شعرٌ على الشَّعْرَى المنيعةِ زاري[١٦٨]
أخلصتُ حبي في الإمام ديانةً ... وجعلته حتى المماتِ شِعاري
لم ألتمس عَرضَ الحياةِ، وإنما ... أقرضْتُهُ في الله والمُختار
إن الصنيعةَ لا تكون كريمةً ... حتى تُقَلِّدَها كريمَ نِجار
والحبُّ ليس بصادق ما لم تكن ... حَسَنَ التكرُّمِ فيه والإيثار
والشعر إنجيلٌ إذا استعملتَه ... في نَشْرِ مَكْرُمَةٍ وسَتْرِ عَوار
وثنَيْتَ عن كدَرِ الحِياضَ عِنانَه ... إنَّ الأديبَ مُسامحٌ ومُدارِي
عند العواهِلِ من سياسة دهرهم ... سِرٌّ، وعندك سائرُ الأسرار
(هذا مُقام أنت فيه محمدٌ ... أعداءُ ذاتك فِرقةٌ في النار)
(إن الهلالَ — وأنتَ وحدَك كهفُه — ... بين المعاقِل منك والأسوار)
لم يبقَ غيرك مَنْ يقول: أصونُه ... صُنْه بحولِ الواحدِ القهَّار

الْبُسْفُورُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ

علـى أيَّ الـجـنـانِ بـنـا تَـمُـرُّ؟   وفـي أيِّ الـحـدائـق تَـسـتـقِـرُّ؟
رويـدًا أيــهــا الــفُـلْـكُ الأبــرُّ   بلغتَ بنا الربوعَ، فأنتَ حُرُّ؟[١٦٩]

* * *

سـهـرتَ ولـم تـنـم لـلـركـبِ عَـيْـنُ   كأن لَّمْ يُضْوِهم ضَجَرٌ وأَيْنُ[١٧٠]
يَحُثُّ خُطاكَ لُجٌّ، بل لُجَينُ   بـل الإبـريـزُ، بـل أفـقٌ أغـرّ[١٧١]

* * *

على شِبه السهول من المياه   تُحيط بك الجزائرُ كالشِّياه
وأنـت لـهـنَّ راعٍ ذو انـتـبـاه   تَـكـرُّ مـع الـظـلام ولا تَـفِـرُّ

* * *

يُنيف البدرُ فوقك بالهَباءِ   رفيعًا في السموَّ بلا انتهاءِ[١٧٢]
تَخالكُما العيونُ إلى التقاءِ   ودون المُلتقى كوْنٌ ودهرُ

* * *

إلى أن قيل: هذا (الدردنيلُ)   فسِرتَ إليه. والفجرُ الدليلُ
يُجيزكَ، والأمانُ به سبيلُ   إذا هو لم يُجزْ فالماءُ خمر

* * *

تَمرُّ من المعاقلِ والجبالِ   بعالٍ، فوقَ عالٍ، خلفَ عالي
إذا أَومَأن وقَّفَتِ الليالي   وتحمي الحادثات، فلا تمرُّ

* * *

مدافِعُ، بعضها متقابلاتُ   ومنها الصاعداتُ النازلاتُ
ومنها الظاهِرات وأُخرياتُ   تَوارى في الصخور وتستسرُّ

* * *

فلو أنَّ البحارَ جرتْ مِئِينا   وكان اللُّجُّ أجمعُه سفينا

لِتَلْقى منفذًا، لَلقِينَ حَيْنا ولمَّا يمْسَسِ (البوغازَ) ضُرُّ

* * *

وبَعْدَ الأرخبيل وما يليه وتِيهٍ في العيالم أيَّ تيه[١٧٣]
بدا ضوءُ الصباح فسِرتَ فيه إلى (البسفور) واقترب المَقَرُّ

* * *

تُسايِرُكَ المدائنُ والأَناسِي وفُلْكٌ بين جَوَّالٍ وراسي[١٧٤]
وتحضُنك الجزائرُ والرَّواسي وتجري رِقَّةً لك وهي صخر

* * *

تسير من الفضاءِ إلى المَضِيق فآنًا أنتَ في بحر طليق
وآونةً لدى مَجْرًى سحيق كما الشلالُ قام لديه نهر

* * *

وتأْتي الأفْقَ تطويه سِجِلا لآخَرَ كالسرَّابِ إذا أضَلاَّ
إذا قلنا: المنازلُ، قيل: كلاَّ فدُونَ بلوغها ظُهرٌ وعصْرُ

* * *

إلى أن حلَّ في الأوْج النهارُ ولِلرَّائي تبيَّنت الدِّيارُ
فقلنا: الشمسُ فيها أم نُضار وياقوتٌ، ومَرْجانٌ، ودُرُّ؟

* * *

ودِدنا لو مَشيتَ بنا الهُوَينا وأين لنا الخلودُ لديك؟ أينا؟
لِنَبهَجَ خاطرًا ونَقَرَّ عينا بأحسنِ ما رأى في البحر سَفْرُ

* * *

بلَوْح جامع الصُّور الغَوالي وديوانٍ تفرَّد بالخيال
ومِرآةِ المناظر والمجالي تمرُّ بها الطبيعةُ ما تمرُّ

***

فضاءٌ مُثِّلَ الفِردوسُ فيه   ومَرْأَىَ في البحار بلا شبيه
فإيهٍ — بابناتِ الشعرِ — إيه   فمالَكِ في عقوقِ الشعر عُذرُ

***

لأجلكِ سِرْتُ في برٍّ وبحرِ   وأنتِ الدَّهرَ أنتِ بكل قُطْرِ
حننتِ إلى الطبيعة دون مصرِ   وقُلتِ لدى الطبيعة: أين مصرُ؟

***

فهلاَّ هزَّكِ التِّبرُ المذابُ   وهذا اللَّوحُ، والقلمُ العُجاب
وما بيني وبينهما حجابُ   ولا دوني على الآيات ستر؟

***

جهاتٌ، أمْ عذارى حالياتُ؟   وماءٌ، أم سماءٌ. أم نباتُ؟
وتلك جزائرُ، أم نيِّراتُ؟   وكيف طلوعُها والوقت ظهرُ؟

***

جلاها الأفق صُفْرًا وهْيَ خُضْرُ   كزَهرٍ دونَه في الروض زهرُ
لوى بحرٌ بها، والتفَّ بحرُ   كما ملَكت جهاتِ الدَّوْحِ غُدْر[١٧٥]

***

تلوحِ بها المساجدُ باذخاتِ   وتتَّصل المعاقلُ شامخاتِ
طِباقًا في العلى، متفاوتات   سما بَرٌّ بها، وانحطَّ برُّ

***

وكم أرضٍ هنالك فوق أرضِ   وروضٍ، فوق روضٍ، فوق روض
ودُورٌ بعضُها من فوق بعض   كسَطرٍ في الكتاب علاه سطر

* * *

سُطورٌ لا يحيط بهنَّ رَسم ولا يُحصي معانيهنَّ عِلم
إذا قُرِئَتْ جميعًا فهْيَ نَظْم وإن قُرِئَت فُرَادى فهْيَ نثر

* * *

تأَرَّجُ كلَّما اقتربت وتزكو ويجمعها من الآفاق سِلك[١٧٦]
تشاكل ما به، فالقصرُ فُلْكُ على بُعْدٍ لنا، والفُلْكُ قصرُ

* * *

ونونٌ دونها في البحر نونٌ من البسفور نقَّطها السَّفين
كأنَّ السُبْلَ فيه لنا عيون وإنسانُ السفينة لا يَقِرُّ

* * *

هنالك حفَّت النُعْمى خُطانا وحاطتنا السلامةُ في حمانا
فألقينا المراسِيَ. واحتوانا بناءٌ للخلافةِ مُشْمَخِرُّ

* * *

فيا مَنْ يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيدًا أو سميعا
رأيت محاسنَ الدنيا جميعًا فهنَّ الواوُ، والبسفورُ عمرو

الرِّحْلَةُ إلى الأندَلُسِ

لَّما وضعت الحربُ الشُؤْمى أوزارها،[١٧٧] وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارَها،[١٧٨] ورمَّ لهم ربوعَ السِّلم، وجدَّد مَزارَها،[١٧٩] أصبحتُ وإذا العوادي[١٨٠] مُقصرة! والدواعي غير مقصَّرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجِدِّ، والبخار المشتدِّ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط،[١٨١] فبلغتْ النفس بمرآه الأرب، واكتحلت العينُ في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرِّقة المطالِع، في ذلك الفلكِ الجامع، يسرِي زائرُها من حرَم، كمن يُمسِي بالكرنك ويُصبح

بالهرم، فلا تقاربَ غيرَ العِتق والكرم: (طُلَيْطِلة) تُطِلُّ على جسرها البالي، و(أشبيلية) تُشبِل[١٨٢] على قصرها الخالي، و(قرطبة) منتبذةٌ ناحية بالبيعةِ[١٨٣] الغرَّاءِ، و(غرناطة) بعيدة مَزارِ الحمراءِ. وكان «البحتري» رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال. فإنه أبلغُ مَنْ حَلَّى الأثر، وحيًّا الحجر، ونشر الخبر، وحشرَ العِبَر، ومَنْ قام في مأْتم على الدول الكُبَر، والملوك البهاليل الغُرر، عطف على (الجعفري) حين تَحمَّل[١٨٤] عنه الملا، وعطل منه الحُلى، ووُكِل بعد (المتوكل) للبِلى. فرفع قواعَده في السَّير، وبنى رُكنَه في الخبر، وجمع معالمه في الفِكَر، حتى عاد كقصور الخُلدِ امتلأت منها البصيرةُ وإن خلا البَصر، وتكفَّل بعد ذلك (لكسرى) بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه. وسينيَّتُه المشهورةُ في وصفه، ليست دونه وهو تحت (كسر) في رصَّه ورَصْفه[١٨٥] وهي تُريك حُسْنَ قيامِ الشعرِ على الآثار، وكيف تتجدَّد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب الفتح القُسي، في الفتح القدسي، بعد الكلام: «فانظروا إلى إيون كسرى وسينيةِ البحتري في وصفه، تجدوا الإيوانَ قد خرَّت شَعَفاته، وعُفَرت شرفاته، وتجدوا سينية (البحتري) قد بَقِي بها (كسرى) في ديوانه، أضعاف ما بَقي شخصُهُ في (إيوانه)».

وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يُدنِّسُ نفسي   وترفَّعت عن ندى كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والـمـنـايـا مـواثـل وأنـوشـر   وان يُزجي الجيوش تحت الدَرَفس

فكنت كلَّما وقفتُ بحجر، أو أطفتُ بأثر، تمثَّلتُ بأبياتها، واسترحتُ من مَواثِل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى   وشفتني القصورُ من عبد شمس

ثم جعلتُ أروض القولَ على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المُهلهلة، وأتممت هذه الكلمةَ الريِّضة. وأنا أعرضها على القُرَّاءِ راجيًا أن يلحظوها بعين الرضاءِ، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاءِ، وهذه هي:

اختلافُ النَّهارِ والليل يُنسي
اذكرا لى الصِّبَا، وأيامَ أنسي
وصفا لي مُلاوةً من شباب
صُوِّرت من تصوُّرات ومَسِّ[١٨٦]
عصفتْ كالصَّبا[١٨٧] اللعوبِ ومرَّت
سِنةً[١٨٨] حُلوةً، ولذَّةَ خَلْس[١٨٩]
وسلا مصرَ: هل سلا القلبُ عنها
أو أسا[١٩٠] جُرحَه الزمان المؤسّي؟
كلَّما مرَّت الليالي عليه
رقَّ، والعهدُ في الليالي تُقسِّي[١٩١]
مُستَطارٌ[١٩٢] إذا البواخِرُ رنَّتْ[١٩٣]
أولَ الليلِ، أو عَوَتْ بعد جَرْس[١٩٤]
راهبٌ[١٩٥] في الضلوع للسفن فَطْن[١٩٦]
كلَّما ثُرْنَ شاعَهن بَنقس[١٩٧]
يا آبنَةَ اليمَّ،[١٩٨] ما أبوكِ بخيلٌ
ما لَه مولَعًا بمنعٍ وحبس؟
أحرامٌ على بلابله الدَّوْ
حُ، حلالٌ للطير من كل[١٩٩] جنس
كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهل، إلا
في خبيثٍ من المذاهب رِجْس
نَفَسي مِرجَلٌ،[٢٠٠] وقلبي شِراعٌ
بهما في الدموع سِيرِي وأرسي
واجعلي وجهَكِ (الفنارَ)، ومجرا
كِ يدَ (الثغرِ) بين (رملٍ) و(مكس)
وطني لو شُغِلتُ بالخلدِ عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهفا[٢٠١] بالفؤاد في سلسبيلٍ
ظمأٌ للسواد من (عين شمس)[٢٠٢]
شهِد الله، لم يَغِب عن جفوني
شخصُه ساعةً، ولم يخلُ حِسِّي
يُصبح الفكرُ و(المسلَّةُ) ناد
يه، و(بالسَّرحة الزكيَّة) يُمسي
وكأني أرى الجزيرةُ أيْكًا[٢٠٣]
نَغَمَتْ طَيْرُه بأرخم جَرس[٢٠٤]
هي (بلقيسُ) في الخمائل صْرحٌ[٢٠٥]
من عُبابٍ،[٢٠٦] وصاحبٌ غيرُ نِكس[٢٠٧]
حَسْبُها أن تكونَ للنيل عِرْسًا
قبلها لم يُجنَّ يومًا بعرس
لبستْ بالأصيل حُلَّةَ وَشْيٍ
بين صنعاء[٢٠٨] في الثياب وقَسِّ[٢٠٩]
قدَّها النيلُ، فاستحتْ، فتوارتْ
منه بالجسرِ بين عُرْيٍ ولُبس
وأرى النيلَ (كالعقيق)[٢١٠] بوادي
ـه وإن كان كوثرَ المتحسِّي[٢١١]
ابنُ ماء السماءِ ذو الموكب الفخم
الذيَ يَحسرُ العيونَ ويُخسي[٢١٢]
لا ترى في ركابه غيرَ مُثْنٍ
بخَمِيلٍ، وشاكرٍ فضلَ عرس
وأرى (الجيزة) الحزينة ثَكْلَى
لم تُفِقْ بعدُ من مَناحة (رمسي)[٢١٣]
أكثرتْ ضجّةَ السواقي عليه
وسؤالَ اليراع عنه بهَمْس[٢١٤]
وقيامَ النخيل ضَفَّرْنَ شعرًا
وتجرَّدْنَ غَيْرَ طَوقٍ وسَلْس[٢١٥]

وكــأنَّ الأهــرامَ مــيــزانُ فــرعــو
نَ بـيـومٍ عـلـى الـجـبـابـر نَـحْـس
أو قــنــاطــيــرُه تــأنَّــق فــيــهــا
ألفُ جَابٍ[٢١٦] وألفُ صاحبِ مَكْس[٢١٧]
روْعةٌ فـي الـضـحـى، مَـلاعِـبُ جِـنٍّ
حين يغشَى الدُّجى حماها ويُغسي[٢١٨]
و(رهــيــنُ الــرمــال) أفــطــسُ، إلاَّ
أنـه صُـنْـعُ جِـنَّـةٍ غـيـر فُـطْـس[٢١٩]
تـتـجـلَّـى حـقـيـقـةُ الـنـاس فـيـه
سَـبُـعُ الـخَـلْـقِ فـي أسـاريـر إنـسـي
لِـعـبَ الـدَّهـرُ فـي ثـراه صـبـيًّـا
والـلـيـالـي كـواعـبًـا غـيـرَ عُـنْـس[٢٢٠]
ركِـبـتْ صـيَّـدُ[٢٢١] الـمـقـاديـر عـيـنـيـه
لـنَـقْـدٍ، ومِـخْـلَـبَـيْـهِ لـفَـرْس[٢٢٢]
فـأصـابـت بـه الـمـمـالـكَ: (كـسـرى)
(وهِـرقْـلاً)، (والـعـبـقـريَّ الـفـرنـسـي)
يــا فــؤادي، لــكــلَّ أمــرٍ قــرارٌ
فـيـه يـبـدو ويـنْـجـلِـي بـعـدَ لَـبْـس
عَـقَـلـتْ[٢٢٣] لُـجَّـةُ الأمـورِ عـقـولاً
طـالـتْ الـحـوتَ طُـولَ سَـبْـح وَغَـسِّ[٢٢٤]
غَـرِقـتْ حـيـثُ لا يُـصـاحُ بـطـافٍ
أو غـريـقٍ، ولا يُـصـاخُ لِـحِـسِّ
فـلَـكٌ يِـكـسِـفُ الـشـمـوسَ نـهـارًا
ويـسـومُ الـبـدورَ لـيـلـةَ وكْـس[٢٢٥]
ومــواقــيــتُ لــلأمــورِ، إذا مــا
بَـلـغْـتْـهَـا الأمـورُ صـارتْ لِـعَـكْـس
دُوَلٌ كــالــرجــالِ، مــرتــهــنــاتٌ
بــقــيــامٍ مــن الــجُــدُّودِ وتَــعْــس

ولــيــالٍ مــن كــلِّ ذاتِ سِــوارٍ
لـطَـمَـتْ كـلَّ رَبِّ (رُومٍ) (وفُـرْس)
سـدَّدتْ بـالـهـلالِ قـوسًـا، وسـلَّـتْ
خِـنْـجَـرًا يَـنْـفُـذان مـن كـل تُـرس
حكَّمتْ في القرون (خوفو) و(دارا)
وعـفـت[٢٢٦] (وائـلا) وأَلْـوَتْ (بـعَـبـس)
أيـن (مـروانُ): فـي الـمـشـارق عـرشٌ
أمَـوِيٌّ، وفـي الـمـغـارب كـرسـي؟[٢٢٧]
سِـقِـمـتْ شَـمْـسُـهـم، فـردَّ عـلـيـهـا
نـورَهـا كـلُّ ثـاقـبِ الـرأى نَـطْـس[٢٢٨]
ثم غابتْ، وكلُّ شمسٍ سِوَى هاتِيـ
نكَ تَبْلَى، وتَنطوي تحتَ رَمْس[٢٢٩]
وعـظ (الـبـحـتـريَّ) إيـوانُ (كـسـرى)
وشَفَتْنِي[٢٣٠] القصورُ من (عبد شمس)
رُبَّ لـيـلٍ سـريـتُ والـبـرقُ طِـرْقِـي
وبـسـاطٍ طـويْـتُ والـريـحُ عَـنْـسـى[٢٣١]
أَنْظِمُ الشرقَ في (الجزيرة) بالغر
بِ، وأطْوِي البلادَ حَزْنًا[٢٣٢] لَدهس[٢٣٣]
فـي ديـارٍ مـن الـخَـلائـف[٢٣٤] دَرْسٍ
ومـنـارٍ[٢٣٥] مـن الـطـوائـف طـمـس
ورُبـىً كـالـجـنـانِ، فـي كـنـفِ الـزيـتـو
نِ خُـضْـرٍ، وفـي ذَرا الـكَـرْمِ طُلْس[٢٣٦]
لـم يَـرُعْـنـي سـوى ثَـرىً قُـرْطُـبِـيًّ
لـمـسـتْ فـيـه عِـبْـرةَ الـدَّهـر خَـمـسـي
يـا وقَـى الـلـه مـا أُصَـبِّـحُ مـنـه
وسَـقَـى صَـفْـوَة الـحـيَـا مـا أُمَـسـيِّ

قَـرْيَـةٌ لا تُـعَـدُّ فـي الأرض، كـانـت
تُـمسِـكُ الأرضَ أن تَـمـيـدَ وتُـرْسـي
غَـشِـيـتْ سـاحـلَ الـمـحـيـط، وغـطَّـتْ
لُـجَّـةَ الـرُّومِ مـن شـراعٍ وقَـلْـسِ[237]
رِكِـب الـدَّهـرُ خـاطـري فـي ثـراهـا
فـأتـى ذلـك الـحِـمَـى بـعـد حَـدْس[238]
فـتـجـلَّـتْ لِـي الـقـصـورُ ومَـنْ فـيـ
ـهـا مـن الـعـزِّ فـي مـنـازلَ قُـعْـس[239]
مـا ضـفـتْ[240] قَـطُّ فـي الـمـلـوكِ عـلـى نَـذْ
لِ الـمـعـالـي، ولا تـردَّتْ بـنَـجْـس
وكـأنـي بـلـغـتُ لـلـعـلـمِ بـيـتًـا
فـيـه مـا لِـلـعـقـولِ مـن كـل دَرس
قُـدُسًـا فـي الـبـلادِ شـرقًـا، وغـربًـا
حَـجَّـهُ الـقـومُ مـن فـقـيـهٍ وقَـسِّ
وعـلـى الـجـمـعـةِ الـجـلالـةُ، و(الـنـا
صُـر) نـورُ الـخـمـيـس تـحـت الـدَّرَفـس[241]
يُـنـزلُ الـتـاجَ عـن مـفـارقِ (دُونٍ)
ويُـحَـلِّـي بـه جـبـيـنَ (الـبـرنـس)
سِـنَـةٌ مـن كـرًى، وطـيـفُ أمـانٍ
وصـحـا الـقـلْـب مـن ضـلالٍ وهَـجْـس[242]
وإذا الـدارُ مـا بـهـا مـن أنـيـسٍ
وإذا الـقـومُ مـا لَـهـم مـن مُـحِـسِ[243]
ورقـيـقٌ مـن الـبـيـوت عـتـيـقٌ
جـاوز الألـفَ غـيـرَ مـذمـوم حَـرْس[244]
أثَـرٌ مـن (مـحـمَّـدٍ)، وتُـراثٌ
صـار (لـلـروح) ذي الـولاءِ الأَمَـسِّ[245]

بَلَغَ النَّجمَ ذِرْوَةً، وتناهى
بينَ (ثَهْلاَنَ)[٢٤٦] في الأساس و(قُدس)[٢٤٧]
مَرْمَرٌ تسبَحُ النواظرُ فيه
ويطول المدى عليها فتُرسي
وسَوارٍ[٢٤٨] كأنها في استواءٍ
أَلِفاتُ الوزيرِ في عَرْضِ طِرْس[٢٤٩]
فَتْرَةُ الدَّهر قد كست سَطَرَيْها[٢٥٠]
ما اكتسى الهدبُ من فتورٍ ونعس
وَيْحَهَا! كَمْ تزيَّنتْ لعليمٍ
واحِدِ الدَّهْرِ، واستعدَّت لخَمس[٢٥١]
وكأن الرفيفَ[٢٥٢] في مسرح العيـ
ـن مُلاءٌ مُدَرَّاتُ الدَّمَقس[٢٥٣]
وكأن الآياتِ في جانبيه
يتنزَّلن في معارج قُدس[٢٥٤]
مِنبرٌ تحت (مُنذرٍ)[٢٥٥] من جلال
لم يزل يكتسيه، أو تحتَ (قُسَّ)
ومكانُ الكتاب يُغريكَ رَيَّا
وَرْدِه غائبًا، فتدنو لِلَمْس[٢٥٦]
صَنْعَةُ (الدَّاخِل)[٢٥٧] المباركِ في الغر
ب، وآلٍ له مَيامِينَ شُمْس[٢٥٨]

***

مَنْ (الحمراءَ) جُلِّلَتْ بغُبار الـ
ـدَّهْرِ، كالجُرح بين بُرْءٍ ونُكس
كسَنا البرقِ، لو محا الضوءُ لحظًا
لمحتها العيونُ من طول قَبْس
حِصْنُ (غرناطة)، ودارُ بني (الأحـ
ـمر): من غافلٍ، ويقظانَ نَدْس[٢٥٩]

جَلَّلَ الثلجُ دونَها رأسَ (شِيرى)
فبدا منه في عصائبَ بِرس[٢٦٠]
سَرْمَدٌ شَيْبُهُ، ولم أرَ شَيْبًا
قبلَه يُرجى البقاءَ ويُنسى
مَشَت الحادثاتُ في غُرَف (الحمـ
ـراءِ) مَشْيَ النَّعِيَّ في دار عرس
هَتَكَتْ عِزَّةَ الحجاب، وفضَّت
سُدَّةَ الباب من سمير وأنس
عَرَصاتٌ تخلَّت الخيلُ عنها
واستراحت من احتراسٍ وعَسِّ[٢٦١]
ومَغَانٍ على الليالي وِضاءٌ
لم تجد للعَشِيَّ تكرارَ مَسَّ
لا ترى غيرَ وافدين على التا
ريخ، ساعِينَ في خشوع ونكس
نقَّلوا الطرفَ في نضارَةِ آسٍ
من نقوش، وفي عُصارة وَرْس[٢٦٢]
وقِبابٍ من لازَوَرْدٍ وِتبرٍ
كالرُّبى الشُّمَّ بين ظلٍ وشمس
وخطوطٍ تكفَّلَتْ للمعاني
ولألفاظها بأزين لبْسِ
وترى مجلسَ السباع خَلاءً
مُقْفِرَ القاعِ من ظِباءٍ وخنس
لا (الثُّريَّا)، ولا جواري الثريا
يتنزَّلْنَ فيه أقمارَ إنْس
مرْمَرٌ قامت الأسودُ عليه
كَلَّةَ الظُّفرِ. ليِّنَاتِ المَجسِّ
مرمرٌ الماءَ في الحياض جُمانًا
يَتنزَّى على ترائبَ مُلس

آخـرَ الـعـهـدِ بـالـجـزيـرة كـانـت
بـعـد عَـركٍ مـن الـزمـان وضَـرس[٢٦٣]
فـتـراهـا، تـقـول: رايـةُ جـيـشٍ
بـادَ بـالأمـس بـيـن أسـرٍ وحَـسِّ[٢٦٤]
ومـفـاتـيـحُـهـا مـقـالـيـدُ مُـلـكٍ
بـاعـهـا الـوارثُ الـمُـضِـيـعُ بِـبَـخْـسِ
خـرج الـقـومُ فـي كـتـائـبَ صُـمٍّ
عن حفاظ، كموكب الدَّفْن خُرْس[٢٦٥]
رِكِـبـوا بـالـبـحـار نَـعْـشًـا، وكـانـت
تـحـت آبـائـهـم هـي الـعـرش أمـسِ
رُبَّ بـــانٍ لـــهـــادمٍ، وجَـــمُـــوعٍ
لـمُـشِـتٍّ، ومُـحْـسِـنٍ لـمُـخْـسِّ
إمْـرةُ الـنـاسِ هِـمَّـةٌ، لا تَـأَتَّـى
لـجـبـانٍ، ولا تـسَـنَّـى لـجِـبـس[٢٦٦]
وإذا مـا أصـاب بـنـيـانَ قـومٍ
وهْـيُ خُـلْـقٍ، فـإنـه وَهْـيُ أسِّ
يـا ديـارًا نـزلـتُ كـالـخُـلـد ظِـلاًّ
وَجَـنـىً دانـيًـا، وسَـلْـسَـالَ أنـس
مُحسِناتِ الفُصولِ، لا ناجِرٌ[٢٦٧] فيــ
ــهـا بِـقَـيْـظٍ، ولا جُـمادَى بِـقرس[٢٦٨]
لا تَـحِـشُّ الـعـيـونُ فـوق رُبـاهـا
غيرَ حُورٍ حُوٍّ[٢٦٩] المراشف،[٢٧٠] لُعْس[٢٧١]
كُـسِـيَـتْ أَفْـرُخـي بـظـلِّـك رِيـشًـا
وَرَبـا فـي رُبـاكِ واشـتـدَّ غَـرْسـي
هم بنو مصرَ، لا الجميلُ لديهم
بُـمـضـاعٍ، ولا الـصـنـيـعُ بـمَـنـسـي
مـن لـسـانٍ عـلـى ثـنـائـكِ وَقْـفٌ
وجَــنــانٍ عــلــى ولائـكِ حَـبْـس

حَـسـبْـهُـم هـذه الـطـلـولُ عِـظَـاتٍ
مـن جـديـدٍ عـلـى الـدهـور ودَرْس
وإذا فـاتـك الـتـفـات إلـى الـمـا
ضي فقد غاب عنك وجهُ التأسَّـي

كُوكْ صُو

قال يصف (كوك صو) وهو موقع جميل في الآستانة العليَّة. ومعنى اللفظين اللذين سُمِّي بهما (ماء السماء)

تـحيَّةُ شاعرٍ يا ماءَ (جَكْسو) فـلـيـس سـواك لـلأرواح أنْـسُ
فدَتك مياهُ (دِجلةَ) وهي سَعدٌ ولا جُعلتْ فداءَك وهي نحسُ
وجاءَكَ ماءُ (زمزمَ) وهو طُهْرٌ وأَمـونٌ عـلـى الأردُنَّ قُـدْس
وكان (النيلُ) يُعرِس كلَّ عامٍ وأنت على المدى فَرْحٌ وعُرس
وقـد زعـمـوه لـلـغـادات رَمْـسًـا وأنـت لِـهَـمَّـهِـنَّ الـدَّهـرَ رَمـسُ
ورَدنكَ كوثـرًا، وسَـفَـرنَ حُـورًا وهل بالحور إن أسفرنَ بأس؟
فـقـل لـلـجـانـحـين إلـى حـجـاب أتُحجَبُ عن صنيع الله نَفسُ؟
إذا لـم يَسـترِ الأدبُ الـغـوانـي فلا يُغني الحريرُ، ولا الدِّمقس
تـأمـل. هـل تـرى إلاَّ جـلالاً تُحِسُّ النفسُ منه ما تحس؟
كأن الخُود[٢٧٢] (مريمُ) في سُفور ورائـيـهـا حـوارِيٌّ وقـسُّ
تـهيَّبـهـا الـرجالُ، فـلا ضـمـيرٌ يـهـمُّ بـهـا، ولا عـيـنٌ تُـحِـسُ
غَشِيتُك والأصيلُ يفيض تبرًا ويَـنسـجُ لـلرُّبى حُـللاً ويكسو
وتذهب في الخليج له وتأتي أناملُ تَنْثر العِقيانَ[٢٧٣] خَمْس
وفي جِيد الخميلةِ[٢٧٤] منه عِقدٌ وفـي آذانـهـا قُـرْطٌ وسَـلـس[٢٧٥]
ولألأت الـجـبـالُ فـضـاءَ سَـفْـحٍ يَـسُـرُّ الـنـاظـريـن، ونـارَ رأس
عل فُلكٍ تسير بنا الـهُوَيْنى ومِنْ شعري نديمٌ لي وجِلس
تُـنـازِعُـنا المذاهبَ حيثُ مِلْنا زَوارقُ حولـنـا تـجـري وتـرسـو
لـهـا فـي الـمـاءِ مُـنـسـابٌ كطير تُسِفُّ[٢٧٦] عليه أحيانًا وتَحسو

صغارِ الحجم، مُرْهَفَةِ الحواشي   لها عُرفٌ[٢٧٧] إذا خطرت وجَرْس[٢٧٨]
إذا المِجدافُ حَرَّكَها اطمأنَّت   وإنْ هو لم يُحَرَّكْ فَهْيَ رعس[٢٧٩]
وَإنْ هوَ جَدَّ في الماءِ انسيابا   فكُلُّ طريقه وَتَرٌ وقَوْس
حَملْنَ اللؤلؤ المنثورَ عِينًا[٢٨٠]   كما حَمَلَتْ حَبابَ الراحِ كأْس
كأن سوافِرَ[٢٨١] الغاداتِ فيها   مَلائكُ هَمُّها نَظَرٌ وهَمْس
كأن براقعَ الغاداتِ تهفو   على وجناتها غَيْمٌ وشمس
كأن مآزِرَ[٢٨٢] العِينِ انتسابا   زهورٌ لا تُشَمُّ، ولا تُمَسُّ
إذ نُشِرتْ، فريحانٌ ووَرْدٌ   وإن طُويت، فنَسْرينٌ ووَرْس
عجبتُ لهنَّ يجمعُهنَّ حسنٌ   ولكنْ ليس يجمعُهنَّ لُبس
فكان لنا بظلِّكَ خيرُ وقتٍ   وخيرُ الوقتِ مالَك فيه أنس
نمتِّع منكَ (يا جكسو) نفوسًا   بها من دهرها هَمٌّ وبُؤس
على أن بان سِرُّك فانثنينا   وقد طُوِيَ النهارُ، ومات أمس

وقال في كلاب الآستانة وكان يُضْرَبُ بها المثلُ في الكثرة والقذارة:

قالوا (فروقُ) الملكِ دارُ مَخاوفٍ   لا ينقضي لنزيلها وسْواسُ
وكلابُها في مأمنٍ، فاعجب لها   أَمِنَ الكلابُ بها، وخاف الناسُ

أنَسُ الوُجُود

إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أتأذن لرجلٍ تعوَّد أن يخرجَ عن دائرةِ (الموظف) كلَّما عرضَت حال يخدم الوطنَ فيها الرجالُ يرفع لشعرِه ذكره، ويشرَّفَ قدرَه، مهديًا إليكَ منه هذه القصيدة في لغة (الضاد)، وهي مما قلتُ في (أنس الوجود) ذلك الأثر المحتضر، الذي جمع العِبَر، ومحاه الدهر أو كاد وكان إحدى آياته الكبر، هياكل «لفرعون» و«بطليموس»، تَورَاثها عن «الكهنة» «القسوس». ثم لا تكون عَشية أو ضُحاها حتى يهوي في الماءِ كلُّ حجر كان يُقبَّل (كالأسْوَد)،[٢٨٣] وكل ركن كان يُستلم «كالحطيم»[٢٨٤] شهدتُ على «أنس الوجود» ما يُعلم الإنسانَ — ولو أنه (روزفلت) علمًا وحكمة وأدبًا —

كيف يَحتقرُ الدنيا ويحترم الدين جميعًا. دخلتُه ذات يوم وكان «الدوق أوف كونوت» لديه يتمشى في ظِلالِه، ويتنقلُ بين رسومِه وأطلالِه، عيناه ونفسه في إكباره وإجلاله، فكانت مني التفاتة فرأيت «فلاَّحا» أقبلَ ثم ألقى عباءَته وتوجَّه يصلي «العصر» غيرَ مُلقٍ بالاً «لفرعون» كيف كان يعبد ويُعبد، ولا «لبطليموس» كيف كان يُعظَّم ويُمجَّدْ، ولا للمسيحية السمحِة كيف دخلت على «الوثنية» المَعْبَد، ولا «للملكِ إدوارد» الذي تحتل جنودُه الآن مصر وهو في ثياب أخيه «الدوق» يرفع البصرَ ويُسِدله ممتلئًا من آيات الدَّهر مهابة وإعجابًا، مشتغِلا بالتاريخ القائم المجسَّم، يقرؤه كتابًا كتابًا. دين سهل سَمْح يَسَر، وإله واحد يُعبَد حيث وُجِد العابد، على العَرَاءِ كما في الهياكل، والكنائس والمساجد.

التاريخ — أيها الضيفُ العظيم — غابر متجدِّد، قديمه مِنوال، وحاضره مِثال. والغدُّ بيد الله المتعال، وأنت اليوم تمشي فوق مَهد الأعصرُ الأوَل، ولحد قواهر الدول، أرض اتَّخذها «الإسكندر» عرينًا، وملأها على أهلها «قيصر» سفينًا، وخلَّف «ابن العاص» فيها لسانًا وجنسًا ودينًا، فكان أعظَم المستعمرين حقيقة وأكبرهم يقينًا، وهو الذي لم يعلم عليه أن بغى أو ظلم أو سفك الدمَ، أو نهى، أو أمر، إلا بين الرجاءِ والحذر؛ من عدل «عمر»، الذى تنبيك عنه السِّير.

قمتَ — أيها الضيف العظيم — في السودان خطيبًا فأنصت العصر، والتفتت مصر، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءَلون: «كيف خالف الرئيس سُنَّة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله، فطارد الشعور وهو يهبُّ، والوجدان وهو يشبُّ، والحياة وهي تدِبُّ، في هذا الشعب؟! ومَنْ حرمة العواطف السامية، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية، على صحراء أو بادية، كما طاردتَ السباع بالأمس نقمًا من طبائعها الجافية».

المصريُّ — أيها الضيف العظيم — سمح كريم التجاوز، فقد ظفِرت بمَنْ مهَّد عذرك، ونفى الظن عن كرمك، وادَّخر ودَّك الذي تخطبه الأمم المستضعفة، والشعوب المتلهِّفة، المتشوَّفة، إذ قيل: إنما أراد الرئيس أن يمدح دينًا من حقه أن يمدح بكل لسان، وفي كل مكان، فكيف به في بعض معاهده في السودان؟! وأراد كذلك أن يحذِّر من الفتنة في الجيوش،

وينهى عن إيقاظها، ويذكر للمحسن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته، ويدعو هذه الأمة التي حركتُها المستقبلة في السكون، إلى العملِ في ظلِّ الحقِّ والصبر بإذن الله مضمون، ومستقبل بمشيئة الله مأمون، وقديمًا فاز بالصبر الصابرون.

فإن كان ذلك — أيها الضيف العظيم — وهو ما لانعتقد غيره — فمثلك مَنْ نصحَ للأمم، وبعث العزائمَ والهمم. وعلم باللسان والقلم.

على أننا نرجو أن ستذكرنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جميعًا أهله، وأن ستعطينا عهدك، وتصفينا ودَّك، وتملأ من أجمل الظنون وأحسِنها بردَك. يوم تقلُّ السفينة عظمتك ومجدَك، وتنقل من أقصى البروج إلى أقصاها سعدَك.

على يد الله تجري إن هي اندفعت
وفي حِمى الله — لا في الماءِ — تحتجب

* * *

أيـهـا الـمـنـتـحـي (بـأسـوان) دارًا
كـالـثـريَّـا تـريـد أن تـنـقـضـا
اخلع النعلَ، واخفِض الطرفَ، واخشع
لا تـحـاول مـن آيـةِ الـدَّهـر غَـضًـا
قف بتلك (القصورِ) في اليَمِّ غرقى
مُـمـسـكًـا بـعضُـهـا مـن الـذُّعـر بـعـضـا
كـعـذارى أَخْـفَـيَـن فـي الـمـاءِ بَـضًّـا[٢٨٥]
ســابــحــاتٍ بــه، وأَبْــدَيْــنَ بــضًّــا
مُـشـرفـاتٍ عـلـى الـزوالِ، وكـانـت
مـشـرفـات عـلـى الـكـواكـب نـهـضـا
شـابَ مـن حـولـهـا الـزمـانُ وشـابـت
وشـبـابُ الـفـنـونِ مـا زال غـضًّـا

رُبَّ «نَقْشٍ» كأنما نفض الصا
نعُ منه اليَدَيْنِ بالأمس نفضا
و«دهانٍ» كلامع الزيت، مرَّت
أعصرٌ منه بالسراج والزيت وَضَّا[٢٨٦]
و«خُطوطٍ» كأنها هدب ريمٍ[٢٨٧]
حَسُنَتْ صنعةً، وطولاً، وعرضا
و«ضحايا» تكاد تمشي وترعى
لو أصابتْ من قدرَةِ الله نبضا
و«محاريَب» كالبروج، بَنتها
عزماتٌ من عزمة الجنَّ أمضى[٢٨٨]
شيَّدتْ بعضَها الفراعينُ زُلْفَى[٢٨٩]
وبنَى البعضَ أجنبٌ يترضَّى[٢٩٠]
و«مقاصيرُ» أُبْدِلَت بفُتاتِ الـ
ـمسكِ تُرْبًا، وباليواقيت قضَّا[٢٩١]
حظُّها اليومَ هَدَّةٌ، وقديمًا
صُرِّفتْ في الحظوظ، رفعًا وخَفضا
سَقَتِ العالمينَ بالسعد والنحـ
ـس، إلى أن تعاطت النحس محضا[٢٩٢]
صنعةٌ تُدْهِشُ العقولَ، وفنٌّ
كان إتقانُه على القوم فرضا

* * *

يا قصورًا نظرتُها وهْيَ تقضي[٢٩٣]
فسكبتُ الدموعَ، والحقُّ يُقضي
أنتِ سَطرٌ مصرَ كتابٌ
كيف سامَ البِلى كتابَك فضَّا؟
وأنا المحتفي بتاريخ مصرٍ
مَنْ يَصُنْ مجدَ قومه صان عرضا

رُبَّ سرٍّ بجانبيك مُزالٍ
كان حتى على «الفراعين» غمضا
قل لها في الدُّعاءِ لو كان يجدي:
يا سماءَ الجِلالِ، لا صِرْتِ أرضا
حارَ «فيكِ» المهندسون عقولاً
وتولَّت عزائمُ العِلمِ مَرضى
أين ملكٌ حيالَها وفريد
من نظام النعيمِ أصبح فضا؟[٢٩٤]
أين «فرعونُ» في المواكب تَتْرَى
يركض المالكين كالخيل ركضا؟
ساق للفتح في الممالِك عَرضًا
وجلا للفخارِ في السِلم عَرضا
أين «إيزيس» تحتها النيل يجري
حكمت فيه شاطئْين وعَرضا؟
أسْدَلَ الطرفَ كاهنٌ ومليكٌ
في ثراها، وأَرسل الرأسَ خَفضا
يُعَرَضُ المالكون أسْرَى عليها
في قيود الهوانِ، عانِينَ، جرَضَى[٢٩٥]
ما لها أصبحت بغيرِ مُجيرٍ
تشتكي من نوائب الدَّهر عضَّا؟
هي في الأسْرِ بين صَخْرٍ وبحرٍ
مَلكة في السجون فوق حَضوضَى[٢٩٦]
أين «هوروسُ» بين سيف ونِطْعٍ؟
أبهذا في شرعهم كان يُقْضَى؟
ليت شعري: قضى شهيدَ غرامٍ
أم رَماه الوشاةُ حقدًا وبغضًا؟

رُبَّ ضَربٍ من سَوْطِ فرعونَ مَضٍّ[٢٩٧]
دونَ فعلِ الفِراقِ بالنفس مَضًّا
وهلاكٍ بسيفه وهْوَ قانٍ
دون سيفٍ من اللواحظ يُنْضَى[٢٩٨]
قتلوه، فهل لذاك حديثٌ؟
أين راوي الحديثِ نثرًا وقرضا؟

***

يا إمامَ الشعوبِ بالأمس واليو
م، ستُعطَى من الثناءِ، فَترضى
(مصر) بالنازلين من ساحِ (معنٍ)[٢٩٩]
وحِمى الجود (حاتم) الجود أفضى
كن ظهيرًا[٣٠٠] لأهلها ونصيرًا
وابذل النصحَ بعد ذلك مَحضا
قل لقومٍ على (الولايات) أيقا
ظٍ إذا ذاقت البَرِيَّةُ غُمضا
شيمةُ (النيل) أن يفي، وعجيب
أخرجوه، فضيَّع العهدَ نقضا
حاشه[٣٠١] الماءُ، فهْوَ صيدٌ كريمٌ
ليت بالنيل يوم يسقط غيضا[٣٠٢]
شِيْدَ والمال والعلوم قليل
أنقذوه بالمال والعلم نقضا[٣٠٣]

النفس

قال الرئيس ابن سينا:

هبطتْ إليك من المحل الأرفعِ   ورقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتمنُّع

محجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ عارفٍ ... وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك، وربما ... كرِهت فراقَك وهْيَ ذاتُ تفجُّع
ألِفت وما سكنت، فلَّما واصلت ... ألِفت مجاورةَ الخرابِ البَلْقَع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ... ومَنازِلاً بفراقها لم تَقنع
حتى إذا اتصلت بهاءِ هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأَجرَع
عَلِقت بها ثاءُ الثقيل، فأصبحت ... بينَ المعالمِ والطُّلولِ الخُضَّع
تبكي وقد ذكرت عهودًا بالحمى ... بمدامع تَهْمِي، ولمَّا تُقْلِع
... ... إلخ إلخ إلخ

وقد قال المقتطف في الشاعرين بعد كلام طويل: «والاثنان جريا مجرى أفلاطون، في حسبان النفس روحًا كانت عند الخالق، ثم هبطت ودخلت جسم الإنسان، إلاَّ أن أفلاطون تصوَّرها فرسًا مجنَّحة، غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح، فلمَّا هبطت فقدت جناحيها ودخلت جسم الإنسان. والفلاسفة يشعرون بشيءٍ لا يستطيعون معرفته فيصفونه كما يتصوَّرونه، ويجاريهم الشعراءُ في التصوُّر، ويفوقونهم في الوصف».

ضُمَّي قِناعَك يا سُعادُ، أو ارْفَعِي ... هَذِي المَحَاسِنُ ما خُلِقْنَ لُبْرقُعِ[٣٠٤]
الضاحياتُ، الضاحكاتُ، ودونَها ... سِترُ الجلالِ، وبُعْدُ شَأْوِ المطْلَعِ[٣٠٥]
يا دُمْيَةً لا يُستزاد جمالُها ... زيديه حُسْنَ المُحْسِنِ المتبرِّع
ماذا على سلطانِه من وقفة ... للضَّارِعين، وعَطْفةٍ للخُشَّعِ؟
بل ما يضركِ لو سمحتِ بجَلْوَةٍ؟ ... إنّ العروسَ كثيرةُ المتطلَّع
ليس الحجابُ لمَنْ يَعِزُّ مَنالُه ... إنّ الحجابَ لِهيِّنٍ لم يمنع
أنتِ التي اتَّخذ الجمالَ لعزَّه ... مِنْ مَظْهرٍ، ولسرَّه مِن مَوضع[٣٠٦]
وهو الصَّناعُ، يَصوغ كلَّ دَقيقةٍ ... وأدقَّ منكِ بَنانُه لم تَصْنَع[٣٠٧]
لمستكِ راحتُه، ومسَّكِ روحُه ... فأتى البديعُ على مِثال المُبْدِعِ
الله في الأحبار: مِنْ مُتهالكٍ ... نِضْوٍ، ومَهْتوكِ المُسوحِ مُصَرَّع[٣٠٨]
من كلّ غاوٍ في طَوِيَّةِ راشدٍ ... عاصي الظواهرِ في سريرةِ طَيِّع
يَتَوَهَّجون ويَطفأون، كأنهم ... سُرُجٌ بِمُعْتَرَكِ الرِّياحِ الأربع

علِموا، فضاق بهم وشَقَّ طريقُهم ... والجاهلون على الطريق المَهْيَع
ذهب (ابنُ سينا)، لم يَفُز بكِ ساعةً ... وتَوَلَّت الحكماءُ، لم تَتَمَتَّع
هذا مَقامٌ، كلُّ عِزٍّ دونَه ... شمسُ النهارِ بمثله لم تَطْمَع
(فمحمدٌ) لكِ و(المسيحُ) تَرَجَّلا ... وترجَّلَتْ شمسُ النهار (لِيُوشَع)[٣٠٩]
ما بالُ (أحمدَ) عَيَّ عنكِ بيانُه؟ ... بل ما (لعيسى) لم يَقُلْ أو يَدَّع؟
ولسانُ (موسى) انحلَّ، إلا عقدةً ... مِنْ جانبيك، عِلاجُها لم يَنْجَع؟
لمَّا حلَلْتِ (بآدمٍ) حلَّ الحِبا ... ومشى على الملأ السُّجودِ الرُّكَّع[٣١٠]
وأرى النبوَّةَ في ذَراكِ تكرَّمَتْ ... في (يوسفٍ)، وتكلَّمت في المُرْضَع[٣١١]
وسَقَتْ (قريشَ) على لسان (محمدٍ) ... بالبابليَّ من البيان المُمْتِع[٣١٢]
ومَشَتْ (بموسى) في الظلام مُشَرَّدًا ... وحدَتْه في قُلَلِ الجبالِ اللُّمَّع[٣١٣]
حتى إذا طُوِيَتْ ورِثتِ خِلالَها ... رُفعَ الرَّحِيقُ وسِرُّه لم يُرْفَع[٣١٤]
قَسَمَتْ مَنازِلَكِ الحُظوظُ: فمنزِلاً ... أُتْرَعنَ منكِ، ومنزلاً لم تُتْرِع
وخَلِيَّةً بالنحل منك عَمِيرةً ... وخليَّةً مَعمورةً (بالتُّبَّع)[٣١٥]
وحَظيرةً قد أُودِعَت غُرَرَ الدُّمَى ... وحَظيرةً محرومةً لم تودَع[٣١٦]
نظر (الرئيسُ) إلى كمالِك نظرةً ... لم تَخْلُ من بَصَر اللبيبِ الأَرْوَع
فرآه منزلةَ تعرَّضَ دُونَها ... قِصَرُ الحياةِ، وحالَ وَشْكُ المصْرَع
لولا كمالُكِ في (الرئيس) ومِثْلِه ... لم تَحْسُنِ الدُّنيا، ولم تَتَرَعْرَع[٣١٧]
اللهُ ثبَّت أرضَه بدعائمٍ ... هم حائطُ الدُّنيا، وركنُ المجمع
لو أن كلَّ أخٍ يراعٍ بالغٌ ... شأوَ (الرئيسِ) وكلَّ صاحب مِبضَع
ذهب الكمالُ سُدًى، وضاعَ مَحلُّه ... في العالَمَ المتفاوِتِ المتنوَّع

***

يا نفسُ، مثلُ الشمس أنتِ: أشِعَّةٌ ... في عامرٍ، وأشِعَّةٌ في بَلْقَع
فإذا طوى الله النهارَ تراجَعَتْ ... شتَّى الأشعةِ، فالتَقَتْ في المرجِع
لمَّا نُعِيتِ إلى المنازل غُودِرَتْ ... دَكًّا، ومثْلُكِ في المنازل ما نُعي
ضَجَّتْ عليكِ معالمًا ومعاهدًا ... وبكَتْ فراقكِ بالدُّموع الهُمَّع[٣١٨]
آذَنْتِها بنوًى، فقالت: لَيْتَ لَمْ ... تَصِل الحبالَ، وليتها لم تَقْطع
ورداء جُثمانٍ لبِستِ مُرَقَّمٍ ... بيد الشباب على المشيبِ مُرَقَّع

كم بِنْتِ فيه، وكم خَفِيتِ، كأنه ثوبُ الممثِّل، أو لباسُ المَرْفع؟[٣١٩]
أَسَئِمت من دِيبَاجِهِ، فنزعْتِه والخَزُّ أكفانٌ إذا لم يُنْزَع
فزِعَتْ وما خفِيَتْ عليها غايَةٌ لكنَّ مَنْ يَرِدِ القيامةَ يَفْزع[٣٢٠]
ضرَعَتْ بأدمُعِها إليك، وما دَرَتْ أنّ السفينةَ أقلعت في الأدمع
أنتِ الوفيَّةُ، لا الذِّمامُ لديكِ مَذْمومٌ، ولا عهدُ الهوى بمُضيَّع
أزْمَعتِ، فانهَّلتْ دموعُكِ رِقَّةً ولو استطعتِ إقامةً لم تُزْمِعي
بان الأحبةُ يومَ بَيْنِكِ كلُّهم وذَهبتِ بالماضي وبالمتوَقَّع

مَيْدَانُ الكُونكُورد

ميدان الكونكورد (الوفاق) بباريز، وهو الذي أُعْدمَ فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنساوية

أَمَيدانَ الوِفاقِ، وكنتَ تُدعى بميدان العداوةِ والشِّقاقِ
أتدرِي: أُيُّ ذنبٍ أنتَ جَانٍ؟ وأيُّ دمٍ ذهبتَ به مُراقِ؟
هَوَى فيك السريرُ ومَنْ عليه وماتَ الثائرون، وأنتَ باق
أصابوا، واستراح (لويسُ) منهم لذا سُمِّيتَ مَيْدانَ الوفاق

أيُّها النَّيلُ

إلى الأستاذ مرجليوت مدرِّس اللغة العربية في جامعة أُكسفورد
أيها الأستاذ الكريم:

تذكَّرتُ «أثينا» مدينةَ الحكمة في الدُّهور الخالية، وأيامًا غنمناها على رسومها العافِية، وأطلالها البالية، فكأني أنظر إلى المؤتمر، علماؤه الهالة، وأنت القمر، أو زُمَرُ الحجيج وأنت حادي الزُّمَر، وأرى الملوكَ في الحفر، بُنيانهم مصدوعُ الجُدر، وبيانهم نور البشر، نزلنا بهم فإذا الدول خبر، وإذا الممالك أثر، والطولُ شُغْلُ الفؤادِ والبَصر، منَّا العبرات ومنها العِبَر، صَمَت الإنسان ونَطقَ الحجر، فسبحان العزيز المقتدر القاهرِ فوق عبادِه بالقدَر. كان ذلك والحوادث أجنة، والأمور في أحسن الأَعنَّة، والأرض بالسلم مطمئنة، مغتبطة بسلامةِ الشبابِ، منبسطة بتلاقي الأحباب، والصَّفْوُ في

الدار والأكدارُ بالباب، ثم أخذ الله الأممَ بذنوبهم فرماهم بعَوانٍ في الماءِ، ضَروسٍ في الأرض والسماءِ، مَنهومةٍ بالأموال مُدمِنةٍ للدِّماءِ، نزلتْ بالبريَّة فعصفتْ بأحسن شبابها ونباتها، ونَقضت موفورَ أمنها وأقواتها، وهتكتْ في الثَرى مَصونَ رُفاتها، وخلطتْ في الخنادقِ أحياءَها بأمواتها، وعدَت على الوحشِ في فلواتِها، وعلى الطيرِ في وكناتِها، وعلى الرِّياح في مخترقاتها، وعلى بَلَمَ[٣٢١] البحار وأخواتها، وهَوامَّ القِفَار وحشراتها. وعلى بيوت الله في ستراتها، والنواقيس في قِبابها، والمآذن في سماواتها، فسبحان الملك الأكبر، الذي يَقهر ولا يُقهر، ويُغَيَّر ولا يَتغيَّر، والذي يقيم القيامة في مِيقاتها.

الشعر كالأحلامِ، تدخل على المسرور الكرى، وتَكثر على المحزون في السُّرى. وقريحة الشاعر كَعين صاحب الأيام، عندها للحزن عَبرة، وللسرور عِبرة، وهذه أيها — الأستاذ الكريم — كلمة قيلت والهموم سارية، والأقدار بالمخاوف جارية، والدُّموع متبارية، وذِئاب البشر يقتتِلون على الفانية، نظمتها تَغنِّيًا بمحاسن الماضي، وتقييدًا لمآثر الآباءِ، وقضاءً لحق «النيل» الأسعد الأمجد، ونسبتها إليك، عِرفانًا لفضلك على لغة العرب، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياءِ علومها، ونشر آدابها، وإلقائها كلَّما طلعت الشمس خلف الضَّباب دروسًا نافعة على أنبل شباب العصر، في أعظم جامعات العالم، فلعلها تقع إليك، فنتذاكر على النوى تلك الأيام، ونتنادم من بعد على بِساط الأدب والكلام، ونسأل الله أن يحقنَ الدماء، ويقيم جِدارَ السلام.

مِنْ أيَّ عَهدٍ في القُرَى تتَدَفَّقُ؟
وبأيَّ كَفٍ في المدائن تُغْدِقُ؟
ومن السماءِ نزلتَ أم فُجَّرتَ من
علْيا الجِنان جَداوِلاً تترقرق؟
وبأيَّ عَيْنٍ، أم بأيَّة مُزْنَةٍ[٣٢٢]
أم أيَّ طُوفانٍ تفيض وتَفْهَق؟[٣٢٣]

وبــأيَّ نَــوْلٍ[٣٢٤] أنــتَ نــاســجُ بُــرْدَةٍ
للضفَّتْين، جَدِيدُها لا يخلق؟[٣٢٥]

تَــسْــوَدُّ دِيــبــاجًــا إذا فــارقــتــهــا
فإذا حضرتَ اخْضَوْضَرَ الإسْتبرَق[٣٢٦]

فــي كــلَّ آونــةٍ تُــبــدِّل صِــبــغــةً
عجبًا، وأنت الصابغُ المُتَأنِّق

أتَت الدُّهورُ عليكَ. مَهْدُكَ مُتْرَعٌ[٣٢٧]
وحِياضُكَ الشُّرق[٣٢٨] الشهيَّةُ دُفَّق

تَسْقِي وتُطْعِمُ، لا إناؤكَ ضائِقٌ
بالواردين، ولا خوانُك يَنفُق[٣٢٩]

والماءُ تَسْكُبُه فيُسْبَكُ عَسْجَدًا[٣٣٠]
والأرضُ تُغْرِقها فيحيا المُغْرَق

تُعيي مَنابِعُك العقولَ، ويستوي
مُتخبِّطٌ في علمِها ومُحقِّق

أَخْلَقْتَ راووقَ[٣٣١] الدُّهورِ، ولم تزل
بكَ حَمْأةٌ[٣٣٢] كالمسك، لا تتَروَّق[٣٣٣]

حــمــراءُ فــي الأحــواض، إلاَّ أنــهــا
بيضاءُ في عُنُق الثرى تَتألَّق

دِيــنُ الأوائِــل فــيــك دِيــنُ مُــروءَة
لِمَ لا يؤَلَّه مَنْ يَقُوتُ ويَرزُق؟

لــو أن مــخــلــوقًــا يُــؤَلَّــه لــم تــكــن
لِسواكَ مَرْتبةُ الأُلوهَةِ تَخْلُق[٣٣٤]

جــعــلــوا الــهــوى لــك والــوَقــارَ عــبــادةً
إنَّ العبادةَ خشيةٌ وتعلُّق

دانــوا بــبــحــرٍ بــالــمــكــارِم زاخــرٍ
عَذْبِ المشارعِ، مَدُّهُ لا يُلْحَق

مُـتـقـيَّـدٌ بـعـهـودِه ووُعـودِه
يَجري على سنَنَنِ الوفاءِ ويَصدُق[٣٣٥]
يَـتـقـبَّـلُ الـوادي الـحـيـاةَ كـريـمـةً
مـن راحَـتِـيْـكَ عَـمِـيـقـةً تـتـدفَّـق
مـتـقلِّـب الـجـنـبـيْـن فـي نَـعْـمـائـه
يَـعْـرَى ويُـصـبَّـغُ فـي نَـداك فـيُـورِق
فـيـبـيـتُ خِـصْـبًـا فـي ثَـراه ونِـعْـمـة
ويـعُـمُّـه مـاءُ الـحـيـاةِ الـمـوسِـق[٣٣٦]
وإلـيـك – بَـعْـدَ الـلـهِ – يَـرجـع تـحـتـه
ما جَفَّ، أو ما مات، أو ما يَنْفُق[٣٣٧]

* * *

أيـن الـفـراعـنـةُ الأولـى اسـتـذرى[٣٣٨] بـهـم
(عيسى)، و(يوسفُ) و(الكَلِيمُ) المُصْعَقُ؟
الـمُـورِدونَ الـنـاسَ مَـنْـهَـلَ[٣٣٩] حـكـمـةٍ
أفْـضَـى إلـيـه الأنـبـيـاءُ لـيَـسـتـقـوا
الـرافـعـون إلـى الـضـحـى آبـاءَهـم
فـالـشـمـسُ أصلُـهُـم الـوَضِـيءُ الـمُـعْـرِق[٣٤٠]
وكـأنـمـا بـيـن الـبِـلـى وقـبـورِهـم
عـهـدٌ عـلـى أن لا مِـسـاسَ، ومَـوْثِـق
فـحـجـابُـهـم تـحـت الـثـرى مـن هَـيْـبَـةٍ
كـحـجـابـهـم فـوق الـثـرى لا يُـخـرَق
بـلـغـوا الـحـقـيـقـةَ مِـنْ حـيـاة عـلـمُـهـا
حُـجُـبٌ مُـكَـثَّـفَـةٌ، وسِـرٌّ مُـغـلَـق
وتـبـيَّـنـوا مـعـنـى الـوجـودِ، فـلـم يَـرَوْا
دونَ الـخـلـودِ سـعـادةً تـتـحـقَّـق
يَـبـنـون لـلـدُّنـيـا كـمـا تَـبـنِـي لـهـم
خِـرَبًـا، غـرابُ الـبَـيْـن فـيـهـا يَـنْـعَـق

فـقـصـورُهـم، كُـوخٌ، وبـيـتُ بَـداوةٍ
وقـبـورُهـم، صـرْحٌ أَشَـمٌّ، وجَـوْسَـق[٣٤١]
رفـعـوا لـهـا مِـنْ جَـنْـدَلٍ وصـفـائـحٍ
عَـمـدًا، فـكـانـت حـائـطًـا لا يُـنْـتَـق[٣٤٢]
تـتـشـايـعُ الـدَّاران فـيـه: فـمـا بـدا
دُنْـيـا، ومـا لـم يَـبْـدُ أُخـرى تَـصْـدُق
لـلـمـوتِ سِـرٌّ تـحـتَـه، وجِـدارُه
سُـورٌ عـلـى الـسـرَّ الـخـفـيِّ، وخَـنْـدَق
وكـأن مـنـزلـهـم بـأعـمـاقِ الـثـرى
بـيـن الـمـحـلَّـةِ[٣٤٣] والـمـحـلَّـةِ، فُـنْـدُقُ
مَـوْفـورةٌ تـحـت الـثـرى أَزْوَادُهـم[٣٤٤]
رَحْـب بـهـم بـيـن الـكـهـوف الـمُـطْـبِـق[٣٤٥]

***

ولِـمَـنْ هـيـاكـلُ قـد عـلا الـبـانـي بـهـا
بـيـن الـثُّـريَّـا والـثَّـرى تـتـنَـسَّـق؟[٣٤٦]
مـنـهـا الـمُـشـيَّـدُ كـالـبـروجِ، وبـعـضُـهـا
كـالـطَّـوْدِ مُـضـطَّـجِـعٌ أَشَـمٌّ مُـنَـطَّـق[٣٤٧]
جُـدُدٌ كـأوَّلِ عـهـدهـا، وحِـيـالَـهـا
تـتـقـادَمُ الأرضُ الـفـضـاءُ وتَـعْـتُـق[٣٤٨]
مِـنْ كـلِّ ثـقْـلٍ كـاهـلُ الـدُّنـيـا بـه
تَـعِـبٌ، ووَجْـهُ الأرضِ عـنـه ضـيَّـق
عـالٍ عـلـى بـاع الـبِـلـى، لا يَـهـتـدِي
مـا يَـعـتِـلـى مـنـه ومـا يَـتـسـلَّـق
مُـتـمـكَّـنٌ كـالـطـودِ أصـلاً فـي الـثـرى
والـفـرعُ فـي حَـرمِ الـسـمـاءِ مُـحـلِّـق

هــي مــن بــنــاءِ الــظــلــمِ، إلا أنــه
يَــبـيَـضُّ وجـهُ الـظـلـمِ مـنـه ويُـشْـرِق
لـم يُـرْهِـقِ الأَمَـمَ الـمـلـوكُ بـمـثـلـهـا
فـخـرًا لـهـم يَـبْـقَـى وذكـرًا يَـعْـبَـق
فُـتِـنَـتْ بـشـطَّـيْـكَ الـعِـبَـادُ، فـلـم يـزل
قــاصٍ يَــحُــجُّــهُــمَــا، ودانٍ يَــرْمُــق
وتـضـوَّعَـتْ مِـسْـكَ الـدُّهـورِ، كـأنـمـا
فــي كــلِّ نــاحــيــة بَــخــورٌ يُــحْــرَق
وتقابلتْ فيها على السُّرُرِ الدُّمى[٣٤٩]
مُـسْـتَـرْدِيـات[٣٥٠] الـذلِّ لا تَـتَـفَـنَّـق[٣٥١]
عَطلَتْ،[٣٥٢] وكان مكانُهنّ من العُلى
(بِلْقِيسُ) تَقْبِسُ من حلاهُ وتَسْرق
وعَـلا عـلـيـهـن الـتـرابُ، ولـم يـكـن
يَزْكُو بِهنَّ سوى العبير[٣٥٣] ويَلبَق[٣٥٤]
حُـجُـراتُـهـا مَـوْطـوءَةٌ، وسـتـورُهـا
مَـهـتـوكـةٌ، بـيـد الـبِـلـى تَـتـخـرَّق
أَوْدَى بـزيـنـتـهـا الـزَّمـانُ وحَـلْـيـهـا
والـحـسـنُ بـاقٍ والـشـبـابُ الـرَّيِّـق[٣٥٥]
لــو رُدَّ فِــرعــونُ الــغــداةَ، لــراعــه
أنّ الـغَـرانـيـق[٣٥٦] الـعُـلَـى لا تَـنـطـق
خـلـع الـزمـانُ عـلـى الـورى أيـامَـه
فـإذا الـضُّـحـى لـكَ حِـصَّـةٌ والـرَّوْنَـق
لـكَ مـن مـواسـمـه ومـن أعـيـاده
مـا تَـحْـسِـرُ[٣٥٧] الأبـصـارُ فـيـه وتَـبْـرَق
لا (الـفـرسُ) أوتـوا مـثَـلـه يـومًـا، ولا
(بغدادُ) في ظلِّ (الرشيد) و(جِلَّق)[٣٥٨]
فَتْحُ الممالك، أو قيامُ (العِجْلِ)، أو
يـومُ الـقـبـور، أو الـزفـافُ الـمُـونِـق؟

كم موكبٍ تَتخَايلُ الدُّنيا به
يُجْلَى كما تُجْلَى النجومُ ويُنْسق!
(فرعونُ) فيه من الكتائبِ مُقبلٌ
كالسُّحْب، قَرْنُ الشمس منها مُفتِق[٣٥٩]
تَعْنو[٣٦٠] لعزَّتِه الوجوه، ووجهُهُ
للشمسِ في الآفاق عانٍ مُطرِق
آبتْ من السفرِ البعيدِ جنودُه
وأتتْه بالفتحِ السعيدِ الفَيْلَق[٣٦١]
ومَشى الملوكُ مُصفَّدِين، خدودُهم
نعلٌ لفرعونَ العظِيم ونُمْرُق[٣٦٢]
مملوكةٌ أعناقُهم ليمينِهِ
يَأْبَى فيَضْربُ، أو يَمُنُّ فَيُعتِق
ونجيبةٍ بين الطفولةِ والصِّبا
عذراءَ، تَشْرَبُها القلوبُ وتَعلَق
كان الزفافُ إليكَ غايةَ حَظِّها
والحظُّ إن بلغ النهايةَ مُوبِق[٣٦٣]
لاقَيْتَ أعراسًا، ولاقتْ مَأْتَمًا
كالشيخِ يَنْعَمُ بالفتاةِ وتُزْهَق
في كلِّ عامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بلا
ثمنٍ إليكَ، وحُرَّةٌ لا تُصَدق[٣٦٤]
حَوْلٌ[٣٦٥] تُسائِل فيه كلُّ نجيبةٍ
سَبقتْ إليك: متى يحولُ فَتْلحق؟
والمجُد عند الغانياتِ رَغيبةٌ
يُبْغَى كما يُبْغَى الجمالُ ويُعْشَق
إن زوَّجوكَ بهنَّ فَهْيَ عقيدةٌ
ومن العقائدِ مَا يلَبُّ[٣٦٦] ويَحْمُق

ما أجملَّ الإيمانَ!! لولا ضَلَّةٌ
في كلِّ دِينٍ بالهدايةِ تُلْصَق
زُفَّتْ إلى ملكِ الملوكِ يَحُثُّها
دِينٌ، ويَدْفعها هَوًى وتَشَوُّق
ولرُبَّما حَسَدَتْ عليكَ مَكانَها
تِربٌ[٣٦٧] تَمَسَّحُ بالعروس وتُحْدِق
مَجْلُوَّةٌ في الفُلْكِ يَحدو[٣٦٨] فُلْكَها
بالشاطئيْن مُزَغْرِدٌ ومُصفِّق
في مِهْرِجَانٍ هَزَّتْ الدُّنيا به
أعطافَها، واختالَ فيه المشْرق
فرعونُ تحتَ لوائِه، وبَناتُه
يَجري بهنَّ على السفينِ الزَّوْرَق
حتى إذا بلغتْ مواكبُها المَدَى
وجرى لغايته القضاءُ الأَسْبَق
وكسا سماءَ المِهرجانِ جلالةً
سيفُ المنية وهو صَلْتٌ[٣٦٩] يبرقُ
وتَلفَّتتْ في اليَمَّ كلُّ سفينةٍ
وانثال[٣٧٠] بالوادي الجموعُ وحدَّقوا
ألقتْ إليكَ بنفسها ونفِيسها
وأتتكَ شيِّقةً حواها شَيِّق
خلعَت عليكَ حياءَها وحياتَها
أَأَعزُّ من هذين شيءٌ يُنفَق؟
وإذا تَناه الحبُّ واتَّفقَ الفِدى
فالروحُ في بابِ الضحيَّة أَلْيَق
ما العَالمُ السُّفليُّ إلاَّ طِينَةٌ
أزليَّةٌ[٣٧١] فيه تُضيءُ وتَغسِق[٣٧٢]

هي فيه للخَصْبِ العميمِ خميرةٌ
يَنْدَى بما حملتْ إليه، ويَبثُقُ[٣٧٣]
ما كان فيها للزيادةِ مَوْضِعٌ
وإلى حماها النقصُ لا يتطرَّق
مُنبثَّةٌ في الأرضِ، تَنتظمُ الثَّرى
وتنالُ مِمَّا في السماءِ، وتعْلَق
منها الحياةُ لنا، ومنها ضِدُّها
أبدًا نَعودُ لها، ومنها نُخْلَق
والزَّرعُ سُنْبُلُه يطيبُ، وحَبُّه
منها، فيخرج ذا، وهذا يُفلَق
وتَشدُّ بيتَ النحلِ، فهو مُطنَّبٌ
وتمدُّ بيتَ النمل، فهو مروَّق
وتظلُّ بين قوى الحياةِ، جوائلاً
لا تستَقِرُّ، دوائِلاً لا تُمْحَق[٣٧٤]
هي كِلْمَةُ الله القديرِ، ورُوحُه
في الكائنات، وسرُّه المستغِلق
في النَّجم والقمرين مظْهرُها، إذا
طلعَتْ على الدُّنيا، وساعةَ تَخفُق
والذَّرُّ[٣٧٥] والصَّخَراتُ مِمَّا كَوَّرَتْ
والفيلُ مما صَوَّرَتْ، والخِرْنِق[٣٧٦]
فتنتْ عقولَ الأولين، فألَّهوا
من كلّ شيءٍ ما يَرُوع ويَخرُق
سجَدوا لمخلوق، وظنُّوا خالقًا
مَنْ ذا يُمَيِّزُ في الظلام ويَفْرُق؟
دانت (بآبيسَ) الرعيَّةُ كلُّها
مَنْ يستغلُّ الأرضَ، أو مَنْ يَعزق
جاءُوا من المرعى به يمشي، كما
تمشي وتَلْتَفِتُ المهاةُ وترْشُقُ

داجٍ كـجـنـح الـلـيـل زان جـبـيـنـهُ
وَضَـحٌ عـلـيـه مـن الأهـلَّـة أَشْـرَق[٣٧٧]
الـعـسـجـد[٣٧٨] الـوهَّـاجُ وشْـيُ جـلالِـه
والـوردُ مَـوْطِـئُ خُـفِّـه، والـزَّنْـبـق[٣٧٩]
ومـن الـعـجـائِـب بَـعْـدَ طـولِ عـبـادةٍ
يُـؤتَـى بـه حـوضَ الـخـلـودِ فـيُـغْـرَق
يا ليت شعري: هل أضاعوا العهدَ، أم
حَـذِروا مـن الـدُّنـيـا عـلـيـه وأشـفـقـوا؟
قـومٌ وقـارُ الـدِّيـن فـي أخـلاقـهـم
والـشـعـبُ مـا يَـعـتـاد أو يـتـخَـلَّـق
يَـدْعُـون خـلـفَ الـسِّـتـر آلـهـةً لـهـم
مـلأوا الـنَّـدِيَّ جـلالـةً، وتَـأبَّـقـوا[٣٨٠]
واسـتـحـجـبوا[٣٨١] الـكُـهَّـانَ، هـذا مُـبـلـغٌ
مـا يـهـتِـفـون بـه، وذاك مُـصـدَّق
لا يُـسـألـون إذا جـرت ألـفـاظُـهـم
مِـنْ أيـن لـلـحـجـر الـلـسـانُ الأذلَـقُ؟
أو كـيـف تـخـتـرق الـغـيـوبَ بـهـيـمـةٌ
فـيـمـا يَـنـوب مـن الأمـور ويَـطْـرُق؟
وإذا هـمـو حَـجُّـو الـقـبـورَ حـسـبـتـهـم
وَفْـدَ (الـعـتـيـقِ)[٣٨٢] بـهـم تَـرَامَـى الأَيْـنُـق[٣٨٣]
يـأتـون (طـيـبـةَ) بـالـهَـدِيِّ[٣٨٤] أمـامَـهـم
يـغـشـى الـمـدائـنَ والـقـرى ويُـطـبِّـق
فـالـبـرُّ مـشـدودُ الـزَّواحـلِ مُـحْـدَجٌ[٣٨٥]
والـبـحـرُ مـمـدودُ الـشِّـراعِ مُـوَسَّـق
حـتـى إذا ألْـقَـوْا بـهـيـكـلـهـا الـعـصـا
وَفُّـو الـنـذورَ، وقَـرَّبـوا، واصَّـدَّقـوا

وجَـرَتْ زوارقُ بـالـحـجـيـج، كـأنـهـا
رُقْـطٌ تَـدافـعُ، أو سـهـامٌ تَـمْـرُق[٣٨٦]
مـن شـاطـئ فـيـه الـحـيـاةُ لـشـاطـئ
هـو مُـضْـجَـعٌ لـلـسـابـقـيـن ومِـرفـق[٣٨٧]
غَربوا غروبَ الشمسِ فيه، واستوى
شـاهٌ ورُخٌّ[٣٨٨] فـي الـتـرابِ وبَـيْـدق[٣٨٩]
حـيـثُ الـقـبـورُ عـلـى الـفـضـاءِ كـأنـهـا
قِطَعُ السَّحابِ، أو السَّرابُ الدَّيْسَق[٣٩٠]
لـلـحـقِّ فـيـه جَـوْلـةٌ، ولـه سَـنًـا
كـالـصـبـح مـن جَـنَـبَـاتِـهـا يَـتَـفَـلَّـق
نـزلـوا بـهـا فـمـشـى الـمـلـوكُ كـرامـةً
وجـثـا الـمُـدِلُّ بـمـالـه والـمُـمْـلـق[٣٩١]
ضـاقـت بـهـم عَـرَصـاتُـهـا. فـكـأنـمـا
رَدَّتْ ودائـعَـهـا الـفـلاةُ الـفَـيْـهَـقُ[٣٩٢]
وتَـنـادم الأحـيـاءُ والـمـوتـى بـهـا
فـكـأنـهـم فـي الـدَّهـر لـم يـتـفـرَّقـوا

***

أصلُ الـحـضـارةِ فـي صَـعيدكَ ثـابتٌ
ونَـبـاتُـهـا حَـسَـنٌ عـلـيـك مُـخـلَّـق[٣٩٣]
وُلِـدَتْ. فـكـنـتَ الـمـهـدَ، ثـم تـرعـرعَـتْ
فـأظـلَّـهـا مـنـكَ الـحَـفِـيُّ الـمُـشْـفِـق
مـلأتْ ديـارَك حـكـمـةً، مـأْثـورُهـا
في الصخر والبَرْدِي الكريمِ مُنَبَّق[٣٩٤]
وَبَـنَـتْ بـيـوتَ الـعـلـم بـاذخـةَ الـذُّرَى
يـسـعـى لـهـنَّ مُـغَـرَّبٌ ومُـشَـرَّق
واسـتـحـدثـتْ دِيـنًـا، فـكـان فـضـائـلاً
وبِـنـاءَ أخـلاقٍ يـطـول ويَـشـهَـق[٣٩٥]

مَـهَـدَ الـسـبـيـلَ لـكـلِّ دِيـنٍ بـعـدَه
كـالـمـسـك رَيَّـاه بـأخـرى تُـفْـتَـق[٣٩٦]
يـدعـو إلـى بِـرٍّ، ويـرفـعُ صـالِـحًـا
ويَـعـافُ مـا هـو لـلـمـروءَة مُـخْـلِـق
لـلـنـاس مـن أسـرارِه مـا عُـلِّـمـوا
ولـشُـعْـبِـة الـكَـهَـنوت مـا هـو أعْـمـق
فـيـه مـحـلٌّ لـلأقـانـيـم[٣٩٧] الـعُـلـى
ولـجـامـع الـتـوحـيـدِ فـيـه تَـعَـلُّـق
تـابـوتُ مـوسـى، لا تـزال جـلالـةٌ
تـبـدو عـلـيـك لـه، ورَيَّـا تُـنْـشَـق[٣٩٨]
وجـمـالُ يـوسُـفَ، لا يـزال لـواؤهُ
حَـوْلَـيـك فـي أفُـق الـجـلال يُـرنَّـق[٣٩٩]
ودمـوعُ إخـوتـه، رسـائـلُ تـوبـةٍ
مَـسْـطُـورُهُـنَّ بـشـاطـئـيْـك مُـنـمَّـقُ
وصلاةُ مـريـم، فـوقَ زرعـك لـم يـزل
يَـزكـو لـذكـراهـا الـنـبـات ويَـسـمُـق[٤٠٠]
وخُـطَـى الـمـسيـحِ عـلـيـك روحًـا طـاهـرًا
بـركـاتُ ربِّـك، والـنـعـيـمُ الـغَـيْـدَق[٤٠١]
وودائـعُ (الـفـاروقِ)[٤٠٢] عـنـدك، ديـنـه
ولـــواؤُه، وبـــيــانُـــه، والـــمــنــطِــق
بـعـث الـصـحـابـةَ يَـحـمـلـون مـن الـهـدى
والـحـقَّ مـا يُـحـيـى الـعـقـولَ ويَـفـتـق
فَـتْـحُ الـفـتـوح، مـن الـمـلائـك رَزْدَق[٤٠٣]
فـيـه، ومـن (أصـحـاب بـدرٍ) زَرْدَق
يـبـنـون لـلـه الـكـنـانـةَ بـالـقـنـا
والـلـه مـن حـول الـبـنـاءِ مُـوَفِّـق

أحلاسُ[٤٠٤] خيلٍ، بَيْدَ أن حسامَهم
في السلم من حذرِ الحوادثِ مُغْلَق
تُطَوي البلادُ لهم، ويُنْجِدُ جيشُهم
جيشٌ من الأخلاقِ غازٍ مُورِق[٤٠٥]
في الحقِّ سُلَّ وفيه أُغْمِد سيفُهم
سيفُ الكريم من الجَهالة يَفْرَق[٤٠٦]
والفتحُ بَغْيٌ لا يهَوَّن وَقْعَه
إلا العفيفُ حسامُه، المترفِّق
ما كانت «الفسطاطُ» إلاَّ حائطًا
يأوي الضعيفُ لركنه والمُرْهَق
وبه تلوذُ الطيرُ في طلبِ الكرَى
ويبيتُ «قيصرُ» وهْو منه مُؤَرَّق
«عَمْرٌو» على شطبِ[٤٠٧] الحصير مُعصَّبٌ[٤٠٨]
بقلادةِ الله العَليِّ مطَوَّق
يدعو له «الحاخامُ» في صلواته
(موسى). ويسأل فيه عيسى البَطْرَقُ
يا نيلُ، أنتَ بطيب ما نَعَتَ «الهدى»
وبمدْحةِ (التوراةِ) أحْرَى أخْلَق
وإليك يُهْدِي الحمدَ خَلْقٌ حازهم
كنَفٌ على مَرَّ الدُّهورِ مُرَهَّق[٤٠٩]
كَنَفٌ «كَمَعْنٍ»، أو كساحة «حاتم»
خَلْقٌ يُوَدِّعُه، وخَلْقٌ يَطْرُق
وعليك تُجلَى من مَصونات النُّهَى
خُودٌ، عرائسُ. خِدْرُهنَّ المُهرَق[٤١٠]
الدرُّ في لَبَّاتهنّ[٤١١] مُنَظَّمٌ
والطيبُ في حَبراتهنَّ مُرَقْرَق

لـي فـيـكَ مـدْحٌ لـيـس فـيـه تـكـلُّـفٌ
أمـلاه حُـبٌّ لـيـس فـيـه تَـمَـلُّـق
مـمـا يُـحـمِّـلـنـا الـهـوى لـكّ أَفْـرُخٌ
سنطـيـر عـنـهـا، وهـي عـنـدك تُـرزَق
تَـهْـفُـو إلـيـهـم فـي الـتُّـراب قـلـوبُـنـا
وتـكـاد فـيـه بـغـيـر عِـرْقٍ تَـخْـفُـق
تُـرْجَـى لـهـم، والـلـه جـلَّ جـلالُـه
مـنـا ومـنـك بـهـم أبَـرٌّ وأرفـق
فـاحـفـظ ودائـعَـك الـتـي استُـودِعْـتَـهـا
أنـت الـوفـيُّ إذا أؤتـمـنـتَ الأصـدق
لـلأرضِ يـومٌ، والـسـمـاءِ قـيـامـةٌ
وقـيـامـةُ «الـوادي» غـداةَ تـحـلِّـق[٤١٢]

نَكْبَةُ دِمَشْق

قِيلت في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سوريا بتياترو وحديقة الأزبكية في يناير سنة ١٩٢٦

سلامٌ من صَبا (بَرَدَى)[٤١٣] أرقُّ ... ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دِمَشْقُ
ومعذِرة اليَراعةِ والقوافي ... جلالُ الرُّزْءِ[٤١٤] عن وَصْفٍ يَدقُّ
وذكرى عن خواطرِها لقلبي ... إليكِ تلفُّتٌ أبدًا وخَفْق[٤١٥]
وبي مما رَمَتْكِ بِه الليالي ... جراحاتٌ لها في القلب عُمْق
دخلتكِ والأصيلُ له ائتلاقٌ[٤١٦] ... ووجهُك ضاحكُ القسماتِ طَلْق
وتحت جِنانِك الأنهارُ تجري ... ومِلء رُباك أوراقٌ ووُرْق[٤١٧]
وحولي فتيةٌ غُرٌّ صِباحٌ ... لهم في الفضلِ غاياتٌ وسَبْق
على لهواتهم[٤١٨] شعراءُ لُسْنٌ[٤١٩] ... وفي أعطافِهم خُطباءُ شُدْق[٤٢٠]
رُواةُ قصائدِي، فاعجبْ لشعرٍ ... بكلِّ محلَّةٍ يَرْوِيه خَلْق
غَمزتُ إباءَهم حتى تلظَّتْ ... أُنوفُ الأُسْدِ واضطرَم[٤٢١] المَدَّق[٤٢٢]

وضجَّ من الشّكيمةِ[٤٢٣] كلُّ حُرًّ ... أَبِيًّ من أُمَيَّةَ فيه عِتْق[٤٢٤]

***

لحاها الله أنباءً توالتْ ... على سَمْعِ الوليَّ بما يَشُقّ[٤٢٥]
يُفصِّلها[٤٢٦] إلى الدنيا بَرِيدٌ ... ويُجْمِلُها إلى الآفاق بَرْقُ[٤٢٧]
تكادُ لروعةِ الأحداثِ[٤٢٨] فيها ... تخال من الخُرافةِ وَهْي صِدْق
وقيل: معالمُ التاريخ دُكَّت ... وقيل: أصابها تلفٌ وحَرق
ألستِ — دمَشقُ — للإسلام ظِئْرًا[٤٢٩] ... ومُرْضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقّ؟
صلاَحُ الدِّين، تاجُك لم يُجَمَّل ... ولم يُوسَم بأزين منه فَرْق
وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالتْ ... لها من سَرْحِكِ العُلْوِيَّ عِرْق[٤٣٠]
سماؤكِ من حُلَى الماضي كتابٌ ... وأرضُك من حلى التاريخ رقّ[٤٣١]
بنيْتِ الدولةَ الكبرى ومُلْكًا ... غبارُ حضارتَيْه لا يُشَقُّ
له بالشامِ أعلامٌ وعُرْسٌ ... بشائرهُ بأندلُسٍ تدَق

***

رباعُ الخلدِ — وَيحْكِ — ما دَهاها؟ ... أحقٌّ أنها دَرَسَتْ؟ أَحَقُّ؟
وهل غُرَفُ الجِنانِ مُنضَّداتٌ[٤٣٢]؟ ... وهل لنعيمهن كأمسِ نَسْقُ؟
وأين دُمَى[٤٣٣] المقاصِر[٤٣٤] من حِجالٍ ... مُهَتَّكَةٍ، وأستارٍ تُشَقُّ
يَرزْنَ وفي نواحي الأيْكِ نارٌ ... وخَلفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ
إذا رُمْنَ السلامةَ من طريق ... أتتْ من دونه للموت طُرْق
بلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا ... وراءَ سمائِه خَطْفٌ، وصَعْقُ
إذا عصفَ الحديدُ، احْمَرَّ أفْقٌ ... على جنباتِه، واسودَّ أفْق
سَلِي مَنْ راعَ غِيدَك بعدَ وَهْنٍ[٤٣٥] ... أبَيْنَ فؤادِه والصخرِ فَرْق؟
وللمستعمرِين — وإن ألانوا — ... قلوبٌ كالحجارةِ، لا تَرِقٌ
رماكِ بطَيْشِه، ورمى فرنسا ... أخو حربٍ، به صَلَفٌ، وحُمْق
إذا ما جاءَه طُلاَّبُ حَقٍ ... يقول: عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا
دَمُ الثّوارِ تعرفُه فرنسا ... وتعلم أنه نورٌ، وحَقّ
جرى في أرضِها، فيه حياةٌ ... كمُنْهَلِّ السماءِ، وفيه رزقُ[٤٣٦]

بلادٌ ماتَ فِتيَتُها لتِحْيا   وزالوا دونَ قومِهمُ ليبقوا
وحُرِّرَت الشعوبُ على قَناها   فكيف على قناها تُسْتَرَق؟[٤٣٧]
بني سورِيَّةَ، اطَّرِحوا الأماني   وأَلْقُوا عنكمُ الأحلامَ، أَلْقُوا
فمِنْ خِدَعِ السياسة أن تُغَرُّوا   بألقاب الإمارةِ وهْيَ رِقٌّ[٤٣٨]
وكم صَيَد[٤٣٩] بدا لك من ذليل   كما مالت من المصلوب عُنْق
فُتُوق الملكِ تَحْدُثُ ثمّ تمضي   ولا يمضي لمختلِفين فَتْق
نَصَحْتُ ونحن مختلفون دارًا   ولكنْ كلُّنا في الهمَّ شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ   بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْق
وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ   فإن رمْتم نعيمَ الدَّهر فاشْقوا
وللأوطانِ في دَمِ كلِّ حُرٍّ   يَدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مُستحِق
ومَنْ يَسقي ويَشربُ بالمنايا   إذا الأحرارُ لم يُسقوا ويَسقوا؟
ولا يبني الممالكَ كالضحايا   ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقُّ
ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ   وفي الأسْرَى فِدًى لهمو وعِتْق[٤٤٠]
وللحريَّةِ الحمراء بابٌ   بكلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
جزاكم ذو الجلالِ بني دِمَشقٍ   وعزُّ الشرقِ أوَّلُه دِمَشْقُ
نصرتم يومَ مِحنتهِ أخاكم   وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حق
وما كان الدُّروزُ قَبِيلَ[٤٤١] شَرٍّ   وإن أخِذوا بما لم يَستحِقُّوا
ولكنْ ذادَةٌ،[٤٤٢] وقُراةُ ضيفٍ   كينبوعِ الصَّفا خَشُنوا ورَقُّوا
لهم جبلٌ أشمُّ له شِعافٌ   موارد في السَّحاب الجُونِ بُلْق
لكلِّ لبَوءَةٍ، ولكلِّ شِبْلٍ   نِضالٌ دونَ غايته ورَشْق
كأن مِن السَّمَوْألِ[٤٤٣] فيه شيئًا   فكل جِهاتِه شرفٌ وخلْق

رَمَضَانُ وَلَّى

الأبيات التي بين قوسين ترجمتها جريدة الطان بقلم المرحوم عثمان باشا غالب

رمضانُ وَلَّى، هاتِها يا ساقي   مُشتاقةً تسعى إلى مُشتاق
ما كان أكْثَره على أُلَّافِها   وأقلَّهُ في طاعةِ الخَلَّاق!!

اللهُ غفَّارُ الذُّنوبِ جميعِها إن كان ثَمَّ من الذنوب بَواقي
بالأمس قد كُنَّا سَجِينَيْ طاعةٍ واليومَ مَنَّ العيدُ بالإطلاق
ضحِكتْ إليَّ مِن السرور، ولم تزل بنتُ الكُرومِ كريمةَ الأعراق
هاتِ اسقنيها غيرَ ذاتِ عواقبٍ حتى نُراعَ لصَيْحَة الصَّفَّاق[٤٤٤]
صِرفًا مُسَلَّطةَ الشُّعاعِ، كأنما من وَجْنَتَيْكَ تُدارُ والأحداق
حمراءَ أو صفراءَ، إنَّ كريمَها كالغِيد، كلُّ مَليحةٍ بمذَاق
وحَذارِ من دَمِها الزكِيَّ تُريقُهُ يَكفيك — يا قاسِي — دَمُ العشاق
لا تَسقنِي إلا دِهاقًا[٤٤٥] إنني أُسْقَى بكأْسٍ في الهموم دِهاق
فلعلَّ سلطانَ المدامِة مُخْرِجِي مِن عالَمٍ لم يَحْوِ غيرَ نِفاق
(وطني، أَسِفْتُ عليكَ في عيد المَلا وبكيتُ من وَجْدٍ، ومن إشفاق)
(لا عيدَ لي حتى أراك بأمَّةٍ شَمَّاءَ راويَةٍ من الأخلاق)
(ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم وبقِيتُ في خَلَفٍ بغير خَلاق)
(أيظلُّ بعضُهمُ لبعضٍ خاذلاً ويقال: شعبٌ في الحضارة رَاقِي)؟
(وإذا أراد اللهُ إشقاءَ القُرَى جعلَ الهُدَاةَ بها دُعاةَ شِقاق)

***

العيدُ بينَ يَدَيْكَ يا ابْنَ محمدٍ نَثَرَ السُّعودَ حُلىً على الآفاق
وأتى يُقبِّل راحَتيْكَ، ويَرتجي أن لا يفوتكما الزمانَ تَلاقِ
قابلْتَه بسُعودِ وجهك والسَّنا فازداد من يُمْنٍ، ومن إشراق
فاهنأْ بطالعِهِ السعيدِ، يَزينُه عيدُ الفقير، وليلةُ الأرزاق
يتنزَّلُ الأجْرانِ[٤٤٦] في صُبحيْهما جَزْليْن عن صَوْمٍ وعن إنفاق
إني أجِلُّ عن القتالِ سرائر إلاَّ قِتالَ البؤسِ والإملاق[٤٤٧]
وأرى سُمومَ العالَمين كثيرةً وأرى التعاونَ أنجعَ التِّرياق[٤٤٨]
قسَمتْ بَنِيها، واستبدَّتْ فوقَهم دُنيا تَعُقُّ، لَئيمةُ الميثاق
والله أتعبها، وضلَّل كيدَها من راحتيْك بوابلٍ غَيْداق[٤٤٩]
يَأْسُو جِراحَ اليائسين من الورى ويُساعِدُ الأنفاسَ في الأرْماق[٤٥٠]
بلغ الكرامُ المجدَ حين جَرَوْا له بسوابقٍ، وبَلغْتَه (بِبُراق)
ورأوْا غُبارَك في السُّها، وتَراكَضُوا مَنْ للنجومِ، ومَنْ لهم بلَحاق؟

مَوْلايَ، طِلْبَةُ مصرَ أن تَبْقَى لها   فـإذا بَـقِـيـتَ فـكـلُّ خـيـرٍ بـاق
سبق القريضُ إليك كلَّ مُهَنِّئ   مِـن شـاعـرٍ، مُـتَـفَـرِّدٍ، سَـبَّـاق
لم يَدَّخِرْ إلاَّ رِضاكَ، ولا اقتنَى   إلاَّ وَلاءَك أَنْـفَـسَ الأعـلاق[٤٥١]
إن القلوبَ — وأنتَ ملءُ صَميمها —   بَعَـثَـتْ تَـهَـانِـيـهَـا من الأعـمـاق
وأنا الفتى (الطَّائيُّ)[٤٥٢] فيك. وهذه   كَلِمِي هَزَزْتُ بها أبا إسحاق[٤٥٣]

مِصْر

قال وقد كان أعدَّ وليمة إلى الكاتب الإنجليزي المستر هول كين

أيُّـهـا الـكـاتـبُ الـمـصِّـورُ، صَـوِّرْ   مصرَ بالمنظر الأنيق الخليق
إن مـصـرًا روايـةُ الـدَّهـرِ، فـاقـرأ   عِبرَةَ الدَّهرِ في الكتاب العتيق
مْـلـعـبٌ مَـثَّـل الـقـضـاءُ عـلـيـه   في صِبا الدَّهر آيَةَ (الصَّدِّيق)[٤٥٤]
وامَّـحـاءَ[٤٥٥] (الكَليمِ)[٤٥٦] آنسَ نارًا   والتجاءَ (البَتُولِ)[٤٥٧] في وقت ضيق
ومنايا (مِنا)، (فكسرى)، فِذي (القَرْ   نَيْنِ)، فالقَيْصَرِيْنِ، (فالفاروق)[٤٥٨]
دُوَلٌ لـم تَـبِـدْ، ولـكـنْ تـوارت   خَلْفَ سِتْرٍ من الزمان رَقيق
رَوْضَـتـي ازَّيَّـنَـتْ، وأبـدَتْ حُـلاهـا   حين قالوا: رِكابُكم في الطريق
مثلَ عَذْراءَ من عجائِزِ (روما)   بـشَّـروهـا بـزَوْرَةِ الـبـطـريـق
ضَحِكُ الماءِ، والأقاحي[٤٥٩] عليها   قـابـلـتْـه الـغـصـونُ بـالـتـصـفـيـق
زُرْتَـهـا والـربـيـعُ فَـصْـلاً، فـخـفَّـت   نحوَ رَكْبَيْكُما خُفوفَ المشوق
فانزلا في عيون نرجِسها الغضِّ   صِبيانًا، وفوق خَدِّ الشقيق[٤٦٠]

الْبَحْرُ الأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ

أيُّ الـمـمـالـكِ؟ أيُّـهـا   في الدَّهرِ ما رفعتْ شِراعَك؟
يا أبـيـضَ الآثـارِ، والـصـَّ   ـفَحَاتِ، ضُيِّعَ مَنْ أضاعَك
إنَّ الـبـيـانَ، وإنَّ حُـسـ   ـنَ العقلِ، ما زالا متاعَك
أبـدًا تُـذكِّـرنـا الـذيـ   ـن جَلَوْا على الدنيا شُعاعك

وبَـنَـوْا مـنـارَك عـالـيًـا   مُـتَـأَلِّـقًـا، وبَـنَـوْا قِـلاعـك
وتـحـكَّموا بك فـي الـوجـو   دِ، تَـحَـكُّمًا كـان ابـتـداعَك
حـتـى إذا جـئـتَ الأنـا   مَ بـأهـل حـكـمِـتـه أطـاعَك
والـيـومَ عَـقَّ، كـأنـمـا   ينسى جميلَكَ واصطناعَك
فابْلَعْ — فَدَيْتُكَ — كلَّ ما   ئك، فالملا ينوي ابتلاعك

(وقال عندما زار قسم الأزهار والثِّمار في المعرض بباريس سنة ١٩٠١):

رزق الله أهلَ باريسَ خيرًا   وأرى العقلَ خيرَ ما رُزِقُوه
عندهم للثِّمارِ والزَّهرِ ممَّا   تُنجِب الأرضُ مَعْرِضٌ نَسقوه
جنَّةٌ تَخلِب العقولَ، وروضٌ   تجمع العينُ منه ما فرقوه
مَنْ رآه يقول: قد حُرموا الفر   دوسَ، لكنْ بسحرهم سرقوه
ما ترى الكَرْم قد تشاكلَ، حتى   لو رآه السُّقَاةُ ما حقَّقوه؟
يُسْكِرُ الناظرين كَرْمًا، ولمَّا   تَعْـتـصِـرْهُ يَدٌ، ولا عَّـتـقـوه
صوَّروه كما يشاءُون، حتى   عَجبَ الناسُ: كيف لم يُنْطِقُوه؟
يجدُ المُتَّقي يدَ الله فيه   ويقول الجَحودُ: قد خَلقَوه

بَارِيسُ

جَهْدُ الصبَّابِة، ما أكابدُ فيكِ   لو كان ما قد ذُقْتُه يكفيك
حتَّامَ هِجرانِي؟ وفيمَ تَجنُّبي؟   وإلامَ بـي ذُلُّ الـهـوى يُـغـرِيـكِ؟
قد مُتُّ من ظَمَإٍ، فلو سامَحْتنِي   أن أَشتهي ماءَ الحياةِ بِفِيكِ!!
أجِدُ المنايا في رضاكِ هي المُنَى   ماذا وراءَ الموتِ؟ ما يُرْضيك؟
يا بنتَ مَخضوبِ الصوارمِ والقنا   بَرِئتْ بَنانُكِ من سلاح أبيك
فخضابُ تلك؛ من العيونِ وِقايةٌ   وخصابُ ذاك من الدمِ المسفوك
جْفناكِ، أيُّهما الجريءُ على دمي؟   بأبي هُمَا مِنْ قاتلٍ وشَريك!!
بالسَّيفِ، والسِّحر المُبينِ، وبالطَّلَى   حَمَلا عَليَّ، وبالقَنا المَشبوك[٤٦١]
بهما وبي سقمٌ، ومِنْ عَجَب الهوى   عُدْوَانُ مُنْكَسِرٍ على مَنْهوك

رِفقًا بمسْبِلَة[٤٦٢] الشئونِ[٤٦٣] قريحةٍ[٤٦٤]   تسلو عن الدُّنيا ولا تَسْلوك
أبكيِتها، وقعدتِ عن إنسانِها[٤٦٥]   يا للَرِّجالِ لِمُغْرَق متروك
ضَلَّت كَرَاها[٤٦٦] في غَياهِبِ[٤٦٧] حالكٍ   ضَلَّ الصباحَ لِمُغْرَق متروك
رقَّ النسيمُ على دُجاه لأَنَّتِي   ورَثَى لحالي في السماءِ أخوك[٤٦٨]
قاسيتُه، حتى انجلى بالصبح عن   سِرِّي المَصُونِ، ومَدْمَعِي المهتوك
سُلَّت سيوفُ الحيِّ، إلاَّ واحدًا   إفْرِنْدُه[٤٦٩] في جَفْنِه يَحْميك
جَرَّدْتِه في غيرِ حقٍّ، كالألَى   سَلُّوا سيوفَهمُ على أهليك
طلعتْ على حَرمِ الممالكِ خيلُهم   نارًا سَنابِكُها[٤٧٠] على (البلجيك)
البأْسُ والجبروتُ في أَعْرافِها[٤٧١]   والموتُ حولَ شَكيمها[٤٧٢] المعْلوك[٤٧٣]
عَرتْ (لياجَ) عن الحصونِ، وَجَرَّدَتْ   (نامورَ) عن فُولاذِها المشكوك[٤٧٤]
تمشي على خَطِّ الملوكِ وخَتْمِهم   وعلى مَصُونِ مَواثِقٍ وصُكُوك[٤٧٥]
والحربُ لا عقلٌ لها فتسومها   ما يَنبغي من خُطَّةٍ وسلوك
دَكَّت حصونَ القوم إلاَّ مَعْقِلاً   من نَخْوَةٍ، وحَمِيَّةٍ، وفُتوك
وإذا احتمى الأقوامُ باستقلالهم   لاذوا بركنٍ ليس بالمدْكوك
ولقد أقول وأدمُعي مُنْهَلَّةٌ:   (باريزُ)، لم يعرفْكِ مَنْ يَغْزوكِ
ما خِلْتُ جَنَّاتِ النعيم ولا الدُّمَى[٤٧٦]   تُرْمَى بمشهود النهار[٤٧٧] سَفوك
زعموكِ دارَ خلاعةٍ، ومَجانةٍ   ودَعارةٍ: يا إفْكِ ما زعموك!
إن كنتِ للشهواتِ رِيًّا، فالعُلا   شَهَوَاتُهُنَّ مُرَوَّيَاتٌ فيك
تلِدِينَ أعلامَ البيانِ، كأنهم   أصحابُ تيجانٍ، ملوكُ أرِيك
فاضت على الأجيال حكمةُ شِعرِهم   وتفجَّرَتْ كالكوثر المعْروك[٤٧٨]
والعلمُ في شرقِ البلادِ وغربِها   ما حجَّ طالبُه سوى ناديك
العصرُ، أنتِ جمالُه، وجلالُه   والركنُ من بُنْيَانِه المَسْمُوك[٤٧٩]
أخذَتْ لواءَ الحقِّ عنكِ شُعوبُه   ومشَتْ حَضارتُه بنور بَنيك
وخِزانَةُ التاريخِ، ساعةُ عَرْضِها   للفَخْرِ، خيرُ كنوزِها ماضيك
ومن العجائِبِ أن واديك الشَّرَى[٤٨٠]   ومَراتع الغزلانِ في واديك
يا مكتبي قبلَ الشبابِ، ومَلْعبي   ومَقِيلَ أيامِ الشباب النُّوك[٤٨١]
ومراحَ لذَّاتي. ومَغْداها على   أُفُقٍ كجَنّاتِ النعيم ضَحُوك

وسَماءَ وَحْيِ الشَّعر من مُتدفِّقٍ سَلِسٍ على نَوْلِ[٤٨٢] السماءِ مَحُوك[٤٨٣]
لمَّا احتملتُ لكِ الصَّنيعةَ، لم أجد غيرَ القوافي ما به أجزيك
إن لَم يَقُوكِ بكل نفسٍ حُرَّةٍ فاللهُ جلَّ جلالُه واقيك
لنا صاحبٌ قد مُسَّ إلا بقيَّة فليس بمجنون، وليس بعاقل
له قَدَمٌ لا تستقرُّ بموضع كما يتنَزَّى[٤٨٤] في الحصى غيرُ ناعل
إذ ما بدا في مجلسٍ ظُنَّ حافلاً من الصَّخَب العالي، وليس بحافل
ويُمطرنا من لفظِهِ كلَّ جامدٍ ويُمطرنا من رَيْله[٤٨٥] شرَّ سائل
ويُلقِي على السُّمَّارِ كفًّا دِعابُها كعَضَّةِ بَرْدٍ في نواحي المفاصل
(محجوبُ)، إن جئتَ «الحجاز»، وفي جوانحك الهوى له
شوقًا، وحبًا بالرسول، وآلِهِ أزكى سُلاله
فلَمحتَ نَضْرَةَ (بانِه) وشمعتَ كالرَّيْحان (ضالَه)
وعلى (العتيق)[٤٨٦] مَشَيْتَ تنظر فيه دمعَك وانهماله
ومضى السُّرى بك حيثُ كان الرَّوحُ يسري والرِّساله
وبلغتَ (بيتًا) بالحجاز، يُبارك الباري حِياله
اللهُ فيه جلا الحرامَ لخلقه، وجلا حلاله
فهناك طِبُّ الروحِ، طِبُّ العالَمين من الجهاله
وهناكَ أطلالُ الفصَاحةِ، والبلاغةِ، والنَّباله
وهناك أزكى مسجَدٍ أزكى البريَّة قد مشى له
وهناك عُذْرِيُّ الهوى وحديثُ (قَيْسٍ)[٤٨٧] والغزاله
وهناك مُجْرِي الخيل، يجري في أعنتها خياله
وهناك مَنْ جمعَ السماحةَ والرَّجاحة، والبساله[٤٨٨]
وهناك خَيَّمَت النُّهَى والعلمُ قد ألقى رِحاله
وهناك سَرْحُ حضارةٍ الله فَيَّأنا ظِلالَه
إنّ الحسينَ بنَ الحسين أميرَ مَكَّةَ والإياله
قمرُ الحجيجِ إذا بدا دارُ الحجيج عليه هاله
أنتَ العليلُ، فلُذ به مُستشفيًا، واغْنَمْ نَواله
لا طِبَّ إلا جَدُّه شافي العقولِ من الضَّلاله

قَـبِّـل ثـراه، وقُـلْ لـه عـنـي، وبـالِـغْ فـي الـمـقـالـه
أنـا يـا ابـنَ أحـمـدَ بـعـدَ مَـدْ حـي فـي أبـيـك بـخـيـر حـالـه
أنـا فـي حِـمَـى الـهـادي أبـيــ ـك، أُحِـبُّـهُ، وأُجِـلُّ آلـه
شـوقـي إلـيـك عـلـى الـنَّـوى شـوقُ الـضـريـر إلـى الـغـزالـة[٤٨٩]
يـا ابـنَ الـمـلـوك الـراشـديــ ـن، الـصـالـحـين، أولِـي الـعَـدالـه
إن كـان بـالـمـلـك الـجـلا لـةُ، فـالـنـبـيُّ لـكـم جـلالـه
أَوَلـيـس جـدُّكُـم الـذي بـلـغَ الـوجـودُ بـه كـمـالـه؟

طُوكْيُو

وصف نكبة اليابان الأخيرة بالزلزال الشهير

قِف (بطوكيو)، وطُف على (يو كاهامَه)
وسلْ القريتْين: كيف القيامه؟
دنت الساعةُ التي أُنْذِرَ النا
سُ، وحَلَّتْ أشْراطُها[٤٩٠] والعلامه
قِفْ، تأمّلْ مَصارعَ القوم، وانظُرْ
هل ترى من ديار عادٍ دِعامه؟
خُسِفَت بالمساكن الأرضُ خَسْفًا
وطَوى أهلُها بِسَاطَ الإقامه[٤٩١]
طَوَّفَتْ بالمدينتين المنايا
وأَدارَ الردَى على القومِ جامَه[٤٩٢]
لا تَرى العينُ منهما أين جالت
غيرَ نِقْضٍ،[٤٩٣] أو رِمَّةٍ، أو حُطامه[٤٩٤]
حازَهم من مراجِل[٤٩٥] الأرض قبرٌ
— في مدى الظَّنَّ — عُمْقُه ألفُ قامه
تحسبُ الميْتَ في نواحيه يُعيي
نفخةَ الصُّور أن تَلُمَّ عِظامه

أصبحوا في ذَرا الحياة، وأمسَوْا
ذهبَتْ رِيحُهم وشالوا نَعامه[٤٩٦]
ثِقْ بما شئتَ من زمانكِ، إلاَّ
صحبةَ العيشِ، أو جِوارَ السلامه
دولةُ الشرق وهي في ذِرْوَة العزِّ
تَحارُ العيونُ فيها فخامه
خانها الجيشُ وهْوَ في البرِّ دِرْعٌ
والأساطيلُ وهْيَ في البحر لامه[٤٩٧]
لو تأمَّلْتَها عشيَّةَ جاشتْ
خِلْتَها في يد القضاءِ حمامه
رجَّها رجَّةً أكبَّتْ على قَرْ
نَيْهِ (بوذا)، وزلزلتْ أقدامه
استعذنا بالله من ذلك السَّيْـ
ـلِ الذي يكسحُ البلادَ أمامه
مَنْ رأى جَلْمَدًا يَهُبُّ هُبوبًا
وحميمًا[٤٩٨] يَسُحُّ سحَّ الغمامه؟
ودخانًا يَلُفُّ جُنْحًا بجُنْحٍ[٤٩٩]
لا ترى فيه مِعْصَميها اليَمامه؟[٥٠٠]
وهَزِيمًا كما عَوى الذئبُ في كـ
ـلِّ مكانٍ، وزَمْجَرَ الضَّرغامه؟

* * *

أتَت الأرضُ والسماءُ بطوفا
نٍ يُنَسيَّ طوفانَ نوحٍ وعامه
فترى البحرَ جُنَّ، حتى أجاز[٥٠١] الـ
ـبرَّ، واحتلَّ مَوْجُه أعلامه
مُزْبدًا، ثائرَ اللُّجاجِ، كجيشٍ
قوَّضَ العاصفُ الهَبوبُ خِيامه

فُـلْـكُ نـوحٍ تـعـوذُ مـنـه بـنـوحٍ
لـو رأتـه، وتـسـتـجـيـر زِمـامـه
قـد تـخـيَّـلْـتُـهـم مَـتـابـيـلَ سـحـرٍ
مـن قـراعِ الـقـضـاءِ صَـرْعَـى مُـدامـه
وتـخـيَّـلـتُ مَـنْ تـخـلَّـف مـنـهـم
ظَـنَّ لـيـلَ الـقـيـامِ ذاك، فـنـامـه
أبـراكـيـنُ تـلـكَ، أم نَـزَواتٌ[٥٠٢]
مـن جـراحٍ قـديـمـةٍ مُـلْـتـامـه؟
تـجـدُ الأرضُ راحـةً حـيـثُ سـالـتْ
راحـةُ الـجـسـم مـن وراءِ الـحِـجَـامـه[٥٠٣]
مـا لـهـا لا تَـضِـجُّ مـمـا أقـلَّـتْ
مـن فـسـاد، وحُـمِّـلَـت مـن ظُـلامـه؟
كـلَّـمـا لُـبِّـسَـتْ بـأهـل زمـانٍ
شـهـدَتْ مـن زمـانـهـم آثـامـه
اسـتـووا بـالأذى ضِـرِيًّـا، وبـالـشــ
ــرَّ وُلـوعًـا، وبـالـدِّمـاءِ نَـهـامـه
لـبِّـسَـتْ هـذه الـحـيـاةُ عـلـيـنـا
عـالَـمَ الـشَّـرَّ: وَحْـشَـه، وأنـامـه
ذاك مـن مُـؤنـسـاتِـه الـظُّـفْـرُ والـنّـا
بُ، وهـذا سـلاحُـه الـصَّـمْـصَـامَـه
سَـرَّهُ مـن أسـامـةَ الـبَـطْـشُ والـفـتــ
ــكُ، فـسَـمَّـى ولـيـدَه بـأسـامـه[٥٠٤]
لَـؤُمَـتْ مـنـهـمـا الـطـبـاعُ، ولـكـن
وَلَـدُ الـعـاصِـيَـيْـنِ شـرٌّ لآمـه![٥٠٥]

طَابَعُ الْبَريد

العيد الفضي — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٠ — لطابع البوستة في جنيف — سلام على لسان البريد

أنا من خمسة وعشرين عاما لم أُرِحْ في رِضاكمُ الأقْداما
أركبُ البحرَ تارةً، وأجوبُ الـ ـبَرَّ طَوْرًا، وأَقطعُ الأيّاما
ويُوافى النفوسَ مِنَّى رسولٌ لم يكن خائنًا، ولا نَمّاما
يَحمِلُ الغِشَّ والنصيحةَ، والبغضا ءَ والحُبَّ، والرِّضَى والمَلاما
ويَعِي ما تُسِرُّه من كلامٍ ويُؤدِّي كما وعَاهُ الكلاما
ولقد أضْحِكُ العَبْوسَ بيومٍ فيه أبْكِى المُنعَّمَ البسَّاما
وأُهنَّي على النوَى وأُعزَّي وأفِيدُ الحِرْمانَ والإنعاما
وجزَائِي عن خدمتي ووَفائي ثمنٌ لا يُكلَّف الأقواما
رُبَّ عبدٍ قد اشتراني بمالٍ وغُلامٍ قد ساقَ مِنَّي غُلاما
عرفَ القومُ في (جنيفا) مَحلَّي وجَزَوْني عن خدمتي إكراما
جامَلوني إذ تَمَّ لي رُبْعُ قَرْنٍ مِثْلَما جامَلوا الملوكَ العِظاما
ويوبيلُ الملوكِ يَلْبَثُ يومًا ويوبيلي يدوم في الناس عاما

الطَّيَّارُونَ الْفَرَنْسِيُّون

قُمْ (سليمانُ)، بِساطُ الريح قاما
مَلكَ القومُ من الجوَّ الزَّماما
حينَ ضاقَ البرُّ والبحرُ بهم
أسْرَجوا الريحَ، وساموها اللِّجاما[٥٠٦]
صارَ ما كان لكم مُعْجِزةً
آيةً للعلم آتاها الأَناما
قدرةٌ كنتَ بها مُنْفَرِدًا
أصبحَتْ حِصَّةَ مَنْ جَدَّ اعتزاما
(عينُ شمسٍ) قام فيها مارِدٌ
من عفاريتكَ يُدْعَى (شاتهاما)
يملأُ الجَوَّ عَزيفًا كُلَّمَا
ضرب الريحَ بسَوْطٍ والغَماما

مَـلِـكُ الـجـوَّ تـلـيـه عُـصْـبَـةٌ
جـمـعـتْ شَـهْـمًـا، ونَـدْبًـا، وهـمـامـا[٥٠٧]
اسْــتَــووْا فــوقَ «مــنــاطــيــدهُــم»
مـا يُـبـالـونَ: حـيـاةً، أم حِـمَـامَـا
وقــبــورًا فــي الــسَّــمــواتِ الــعُــلا
نــزَلــوا، أم حُــفَــراتٍ ورَغــامــا[٥٠٨]
مُـطْـمَـئِـــنِّـيـن نـفـوسًـا، كـلَّـمـا
عـبَـسَـت كـارثـةٌ زادوا ابـتـسـامـا
صـهـوةَ الـعِـزَّ اعـتـلـوْا، تـحـسـبـهـم
جَـمْـعَ أمـلاكٍ عـلـى الـخـيـل تَـسـامـى
رفـعـوا «لَـوْلَـبَـهـا»، فـانـدفـعَـتْ
هل رأيتَ الطيرَ قد زَفَّ وحاما؟[٥٠٩]
شــال[٥١٠] بــالأذنــاب كــلٌّ، وَرَمَــى
بـجَـنـاحَـيْـهِ كـمـا رُعْـتَ الـنَّـعـامـا
ذهـبـتْ تَـسْـمُـو، فـكـانـت أعْـقُـبًـا[٥١١]
فـنـسـورًا، فـصـقـورًا، فَـحـمـامـا
تَـنْـبَـرِي فـي زَرَقِ الأُفْـقِ، كـمـا
سـبـحَ الـحُـوتُ بـدَأمَـاءٍ، وعـامـا[٥١٢]
بعْضُها في طلبِ البعضِ، كما
طاردَ «النَّسرُ» على الجوَّ القُطاما[٥١٣]
ويــراهــا عــالَــمٌ فــي زُحَــلٍ[٥١٤]
أرسلتْ من جانب الأرضِ سِهاما
أو نـجـومًـا ذاتَ أذنـابٍ بـدتْ
تُـنْـذِرُ الـنـاسَ نُـشـورًا وقِـيـامـا[٥١٥]
أتــرى الــقــوَّة فــي جُــؤجُــؤِه[٥١٦]
وهـو بـالـجـؤجـؤ مـاضٍ يَـتـرامـى؟
أَم تـراهـا فـي الـخـوافـي[٥١٧] خَـفِـيَـتْ
أم مَقَرُّ الحَوْلِ[٥١٨] في بعض القُدَامى؟[٥١٩]

أَم ذُنابـاه إذا حـرَّكـه
يَزِنُ الجسَم هُبوطًا وقِياما؟
أَم بعينيه إذا ما جالتا
تكشفان الجوَّ غيثًا أم جَهاما؟[٥٢٠]
أَم بأظفارٍ إذا شبَّكها
نفذت في الريح دفْعًا واستلاما؟
أَم أَمدَّتْهُ بروحٍ أمُّه
يوم ألقته وما جاز الفطاما؟
فتلقَّاه أبٌ، كم من أبٍ
دونَه في الناس بالوُلْدِ اهتماما!
فَلَكِيٌّ هو، إلاَّ أنه
لم يَنَلْ فَهْمًا، ولم يُعْطَ الكَلاما
طِلْبةٌ قد رامها آباؤنا
وابتغاها من رأى الدَّهرَ غُلاما
أسقطَتْ «إيكارَ» في تَجْرِيَةٍ
«وابنَ فِرْناسٍ»، فما اسْطاعا قِياما
في سبيلِ المجدِ أَوْدَى نَفَرٌ
شهداءُ العلمِ أعلاهُمْ مَقاما
خلفاءُ الرُّسْلِ في الأرض همو
يَبْعَثُ اللهُ بهم عامًا فعاما
قطرةٌ من دمهم في مُلْكه
تملأُ الملكَ جمالاً ونظاما

***

رَبِّ، إن كانت لخيرٍ جُعِلَتْ
فاجعل الخيرَ بناديها لزاما
وإن اعتزَّ بها البشرُ غدًا
فتعالَتْ تُمْطِرُ الموتَ الزُّؤاما

فـامـلأ الـجـوَّ عـلـيـهـا رُجُـمًـا
رحـمـةً مـنـكَ، وعـدلاً، وانـتـقـامـا

***

يـا «فـرنـسـا»، لا عَـدِمـنـا مِـنَـنًـا
لـكِ عـنـد الـعـلـم والـفـنِّ جُـسـامـا
لَـطـف الـلـهُ «بـبـاريـسَ»، ولا
لَـقِـيَـتْ إلاَّ نـعـيـمًـا وسـلامـا
رَوَّعَـتْ قـلـبـي خُـطـوبٌ رَوَّعَـتْ
سـامِـرَ الأحـيـاءِ فـيـهـا والـنِّـيـامـا
أنـا لا أدعـو عـلـى «سِـيـنٍ» طَـغـى
إنَّ «للسَّينِ» – وإن جار – ذِماما
لـسـتُ بـالـنـاسـي عـلـيـه عِـيـشَـةً
كـانـت الـشـهـدَ، وأحـبـابًـا كـرامًـا
اجـعـلـوهـا رُسْـلَـكـم أهـلَ الـهـوى
تـحـمـلُ الأشـواقَ عـنـكـم والـغـرامـا
واسـتـعـيـروهـا جَـنـاحًـا طـالـمـا
شَـغـف الـصَّـبَّ وشـاقَ الـمـسـتَـهـامـا
يـحـمِـلُ الـمُـضْـنَـى إلـى أرض الـهـوى
«يَـمَـنًـا» حَـلَّ هَـوَاهُ، أَم «شَـآمـا»

***

أَركَـبُ الـلـيـثَ، ولا أركَـبُـهـا
وأرى لَـيْـثَ الـشَّـرَى أوفـى ذِمـامـا
غَـدَرَتْ «جـيـرونَ»، لـم تَـحْـفِـلْ بـه
ربـمـا حـاوَلَ مِـنْ فَـوْزٍ ورامـا
وقـعـتْ نـاحـيـةً، فـاحـتـرقـت
مِثْلَ قُرْصِ الشمَّسِ بالأفْقِ اضطراما

راضَـهـا بـالـيُـمْـنِ مِـنْ طَـلْـعَـتِـه
خيرُ مَنْ حَجَّ، وَمَنْ صَلَّى، وصاما
كـخـلـيـلِ الـلـه، فـي حَـضْـرتـه
خَـرَّتِ الـنـارُ خُـشُـوعًـا واحـتـرامـا

***

مـا (لـروحـي) صـاعـدًا مـا يـنـتـهـي؟
أتُـــراه آثــرَ الــجــوَّ، فَــزَامـــا؟
كـــلَّـــمـــا دارَ بـــه دوْرَتَـــه
أبـدَت الـريـحُ امْـتـثِـالا وارْتِـسـامـا
أنـا لـو نِـلْـتُ الـذي قـد نـالـه
ما هَبطْتُ الأرضَ أرضاها مُقاما
هـل تـرى فـي الأرضِ إلا حَـسَـدًا
وريــاءً، ونِـــزَاعًـــا، وخِـــصـــامـــا؟

***

مُـلْـكُ هـذا الـجـوَّ فـي مَـنْـعَـتِـه
طـالـمـا لـلـنَّـجـمِ والـطَّـيْـرِ اسـتـقـامـا
حَـسَـدَ الإنـسـانُ سِـرْبَـيْـهِ[٥٢١] بـمـا
أوتِـيـا فـي ذرْوَةِ الـعـزِّ اعـتـصـامـا
دخـلَ الـعُـشَّ عـلـى «أنْـسُـرِهِ»
أتُرى يغشى من النَّجم السَّنَاما؟[٥٢٢]
أيُّـهـا الـشـرق، انْـتَـبِـهْ مـن غـفـلـةٍ
ماتَ مَنْ في طُرُقاتِ السيَّل ناما
لا تـــقـــولَـــنَّ: عِـــظـــامِـــيٌّ أنـــا
فـي زمـانٍ كـان لـلـنـاسِ عِـصـامـا
شـاقـت الـعـلـيـاءُ فـيـه خَـلـقًـا
لـيـس يَـألُـوهـا طِـلابًـا واغـتـنـامـا

كـلَّ حـيـنٍ مـنـهـمـو نـابـغـةٌ
يـفـضـلُ الـبـدرَ بـهـاءً وتـمـامـا

***

خـالِـقَ الـعُـصْـفـورِ، حَـيَّـرْتَ بـه
أمَـمًـا بـادوا ومـا نـالـوا الـمـرَامـا
أفْـنَـوُا الـنَّـقْـدَيْـنِ فـي تـقـلـيـدِه
وهـو كـالـدَّرهـم ريـشًـا وعِـظـامـا

وَصْفُ مَرْقَصٍ

وقال يصف «البال» الخديوي الذي أُقيم سنة ١٩٠٣ بسراي عابدين

طـال عـلـيـهـا الـقِـدَم	فـهـي وجـودٌ عَـدَمْ
قد وُئِدَتْ في الصِّبا[٥٢٣]	وانبعـثَـتْ في الـهَـرَم
بـالـغَ فِـرعـونُ فـي	كَـرْمـتِـهـا مـن كَـرم
أَهـرَق عُـنـقـودَهـا	تَـقْـدِمـةً لـلـصـنـم
خَـبَّـأهـا كـاهِـنٌ	نـاحِـيـةً فـي (الـهَـرَم)
اكتُشِـفَـتْ فـامَّـحَـتْ[٥٢٤]	غيرَ شَذًا[٥٢٥] أو ضَرَم[٥٢٦]
أو كـخـيـال لـهـا	بـعـد مـتـابٍ أَلَـمَّ[٥٢٧]
نَـمَّ بـهـا دَنُّـهـا	وهْـيَ عـلـيـه أَنـمّ
بـي رَشَـأٌ نـاعـمٌ[٥٢٨]	ما عرف العمرَ هَمَّ
أخـرجـهـا الـلـهُ كـالـ	ـزَّهرة، والحسنُ كِمٌّ[٥٢٩]
تـخـطـرُ عـن عـادلٍ	لـم يُـرَ إلاَّ ظَـلَـم
تَـبْـسِـمُ عـن لـؤلـؤٍ	قَـدَّرَه مَـنْ قَـسَـم
كـرَّمـه فـي الـنَّـوَى	هـذَّبه فـي الـيـتـم[٥٣٠]
مُـضـطـهَـدٌ خَـصْـرُهـا	جـانِـبُـه مُـهْـتَـضَـم
طـاوعَ مِـنْ صَـدْرِهـا	أَيَّ قَـوِيٍّ حَـكَـم
حَـمَّـلـه ثِـقْـلَـه	ثُـمَّ عـلـيـه ادَّعـم[٥٣١]

تسأل أترابَها   مُومِئةً بالعَنم[٥٣٢]
أيُّ فتىً ذلِكُـ   ـنَّ العربي العَلَم؟
يشربها ساهرًا   ليلتَه لم يَنَم
قُلْنَ: تجاهَلْتِه   ذلك ربُّ القلم
شاعرُ مصرَ الذي   لو خَفِيَ النَّجمُ لَم
قلتُ لها: ليتَ لم   نُرْمَ وفي نُتَّهَم
عاذلَتِي في الطِّلى[٥٣٣]   لو أنصفتْ لم أُلَم
إن عَبس العيشُ لي   عُذْتُ بها فابتسم
يشربُها كابرٌ[٥٣٤]   بين ضلوعي أشَمّ
يبذلُ، إلاَّ النُّهَى   يَهتِك، إلاَّ الحُرَم
يُكْسِبُها خُلْقَه   يَمزجُها بالشيِّم
يَمنعها حلمَه   إن دفعتْه احتشم
تلك شموسُ الدُّجَى   أم ظَبياتُ الخِيَم؟
تُقبِلُ في موكبٍ   شَقَّ سناه الظُّلَم
خِلْتُ بأنواره   قَرْنَ ذُكاءٍ نَجَم[٥٣٥]
مقصِدُها سُدَّةٌ   آل إليها العِظَم
حيث كبارُ المَلا   بعضُ صغارِ الخدم
قد وقفوا للمَها   فانسربتْ[٥٣٦] من أَمَم[٥٣٧]
تخْطِر مِن جمعهم   بين ليوثٍ بُهَم[٥٣٨]
خارجةً مِن شَرىً   داخلةً في أَجَم
ناعِمةً لم تُرَعْ   لاهيةً لم تَجِم
انتثرت لؤلؤًا   في المُهَجاتِ انتظم
تَمرَح في مَأْمَنٍ   مثلَ حَمَامِ الحَرَم
مُؤتِلفٌ سِربُها   حيث تلاقى الْتأم
مندفعاتٌ على   مختلفاتِ النَّغم
بين يَدٍ في يَدٍ   أو قَدَم في قَدَم
تذهب مَشْيَ القطا   ترجع كَرَّ النَّسَم

تـبـعـث أنَّـى بَـدَتْ ضـوءَ جـبـيـنٍ وفَـم
تعُجْل خطوًا تَنِي[٥٣٩] فـاتـنـة بـالـرَّسَـم[٥٤٠]
تـجـمـع مِـنْ ذَيـلـهـا تـتـركـه لَـمْ يُـلَـمّ
تـرفُـل فـي مُـخْـمَـلٍ نَـمَّ ولـمَّـا يَـنِـمّ
تَـتـبـعُ. إلاَّ الـهـوى تَـقْـرَبُ، إلاَّ ألـتُّـهَـم
فـاجـتـمـعـتْ فـالـتـقـتْ حـولَ خِـوانٍ نُـظـم
مُـنْـتَـهَـبٍ كـلَّـمـا ظُنَّ به النقصُ تَمّ
مـــائـــدةٌ مَـــدَّهـــا بـحـرُ نـوالٍ خِـضَـمُّ
تـحـسَـبـهـا صُـوَّرَتْ من شـهـوات الـنَّـهـم
لـم تْـرَ فـي (بـابـلٍ) ما عُـهِـدتْ في (إرَم)
(حـاتِـمُ) لـو شـامَـهـا أقـلـعَ عـمـا زَعَـم
(مَـعْـنُ) لـو انـتـابـهـا أدركَ مـعـنـى الـكـرم
أشـبَـهُ بـالـبـحـر، لا يُـحـرِجُـهـا مُـزْدَحَـم
قـام لـديـهـا الـمَـلا يـبـلـغ أَلـفـيـن ثَـم
مـقـتـرحًـا مـا اشـتـهـى مـلـتـقـيًـا مـا رَسَـم
لـو طَـلَـب الـطـيرَ من أيـكـتِـه مـا احـتـرم[٥٤١]
يـا مـلِـكًـا لـم تـضِـق سـاحـتُـه بـالأمَـم
تَـجـمـعُ أشـرافَـهـا من غَـرَبٍ أو عَـجَـم
تُـخْـطِـر مَـنْ أُمِّـهـا بـيـن صـنـوف الـنِّـعَـم
سـادةُ أفـريـقـيـا لُـجَّـتِـهـا والأكَـم
أنـت رشـيـدُ الـعُـلَـى في المَلأَيْنِ احْتَكِم[٥٤٢]
لـيـلـتُـكـم قـدْرُهـا فـوقَ غـوالـي الـقِـيَـم
مُـشـرِقـةٌ، مـثـلُـهـا فـي زمـنٍ لـم يَـقُـم
لا بـرح الـصـفـوُ فـي ظِـلِّـكـمـو يُـغْـتَـنَـم
مـا شـربـوهـا ومـا طـال عـلـيـهـا الـقِـدَم

تُوت عَنْخ آمُونَ وحضَارَةُ عَصْرِه

دَرَجَتْ علـى الكنزِ القُرونْ وأتتْ علـى الدَّنِّ السُّنونْ[٥٤٣]
خيرُ السيوفِ مضى الزما نُ عليه في خيرِ الجفونْ[٥٤٤]
فـي منزلٍ كمُحَجَّب الـ ـغَيْبِ اسْتَسَرَّ عن الظنونْ[٥٤٥]
حتـى أتـى العلـمُ الجسو رُ ففضَّ خاتَمَه المَصون
والـعـلـم (بَـدْرِيٌّ)،[٥٤٦] أحِـ ـلَّ لأهلـه ما يصنعون
هتك الحِجالَ[٥٤٧] على الحضا رةِ، والخُدورَ على الفنون
واندسَّ كـالـمِصباح فـي حُفَرٍ مِنَ الأجْداثِ جُونْ[٥٤٨]
حُـجِـرٌ مُـمَـرَّدَةٌ[٥٤٩] الـمـعـا قِل في الثَّرى، شُمُّ الحُصون
لا تـهـتـدي الـريـحُ الـهَـبو بُ لها، ولا الغيثُ الهَتون
خــانــت أمــانــةَ جــارِهــا والـقـبْـرُ كـالـدُّنـيا يَـخـون

***

يا ابنَ الثواقبِ من (رَعٍ) وابنَ الزَّواهِرِ من (أمُونْ)[٥٥٠]
نَسَبٌ عريقٌ في الضُّحى بَذَّ القبائلَ والبُطون
أرأيتَ كيف يَئُوب من غَمْرِ القضاءِ المُغْرَقون؟
وتَـدولُ آثـارُ الـقُـرو نِ، على رَحَى الزَّمنِ الطَّحون؟
حُبُّ الخلودِ بَنَى لكم خُلُقًا به تَتفرَّدون
لـم يـأْخُـذِ الـمـتـقـدِّمو ن به، ولا المتأخِّرون
حتى تسابقتم إلى الإ حسان فيما تعمَلون
لم تَتركوه في الجليـ ـلِ ولا الحقيرِ من الشئون
هذا القيامُ، فقل لنا: الـ ـيَوْمُ الأخيرُ متى يكون؟
الـبـعـثُ غـايـةُ زائـلٍ فـانٍ، وأنـتـم خـالـدون
السَّبْقُ مِن عاداتِكم أتُرى القيامةَ تسبقون؟
أنتم أساطينُ الحضا رةِ والبُناةُ المحسِنون
الـمـتِـقـنـون، وإنـمـا يُجزَى الخلودَ المتقنون

***

أنَزَلْتَ حُفرةَ هَالكٍ أم حجرةَ الملكِ المَكينْ؟

أم فـي مـكـانٍ بـيـنَ ذ   لكَ يُدهشُ المتأمّلين؟
هو من قبورِ المُتْلَفـ   ـين، ومن قصور المُتْرَفين
لم يبقَ غالٍ في الحضا   رةِ لم يَحُزْهُ، ولا ثَمين
ميْتٌ تُحيط به الحيا   ةُ، زمانُه معه دَفين
وذخائرٌ من أعْصُرٍ ولَّـ   ـتْ، ومن دُنيا ودين
حملَتْ على العَجَبِ الزَّما   نَ وأهلَه المستكبِرين
فتلفَّتَتْ (باريسُ) تَحْـ   ـسَبُ أنها صنعُ البنين

***

ذهبٌ ببطنِ الأرضِ لم   تذهبْ بلَمْحَتِه القُرون
استحدثتْ لك جَنْدَلاً   وصفائحًا منه القُيُون[٥٥١]
ونَواوِسًا[٥٥٢] وَهَّاجَةً   لم يتَّخذها الهامدون
لو يفطنُ الموتى لها   سَرَحوا الأناملَ يَنبشُون
وتنازعوا الذهبَ الذي   كانوا له يتفاتَنون

***

أكفانُ وَشْيٍ فُصِّلتْ   برقائق الذَّهب الفَتِينْ[٥٥٣]
قد لفَّها لَفَّ الضِّما   دِ مُحَنِّطٌ آسٍ رَزين
وكأنهنَّ كمائمٌ   وكأنكَ الوردُ الجَنين
وبكلِّ رُكنٍ صورةٌ   وبكلِّ زاوية رَقِين[٥٥٤]
وترى الدُّمَى، فتخالها انْـ   ـتَثَرَتْ على جَنباتِ زُون[٥٥٥]
صُوَرٌ تُريكَ تَحَرُّكًا   والأصلُ في الصُّورِ السُّكون
ويمرُّ رائعُ صَمْتِها   بالحِسِّ كالنُّطق المُبين
صحبَ الزمانَ دِهانُها   حينًا عهيدًا بعدَ حين[٥٥٦]
غَضٌّ على طول البِلَى   حَيٌّ على طول المَنُون
خَدَعَ العيونَ ولم يَزلْ   حتى تَحَدَّى اللاَّمِسين
غِلمانُ قَصْرِك في الرِّكا   بِ يُناولونَ، ويَطْرَدون[٥٥٧]
والبوقُ يهتِفُ، والسِّها   مُ تَرِنُّ، والقوسُ الحَنون

وكـلابُ صـيـدِكَ لُـهَّـثٌ … والـخـيـلُ جُـنَّ لـهـا جُـنـون
والـوحـشُ تَـنْـفِـرُ فـي الـسُّـهـو … لِ، وتـارةً تَـثِـبُ الـحُـزُون
والـطـيـرُ تَـرسُـفُ فـي الـجِـرا … حِ، وفـي مَـنـاقِـرِهـا أنـيـن
وكـأنَّ آبـاءَ الـبـريَّـــ … ـةِ في المدائن مُحضَرون
وكـأنَّ دُولـةَ (آلِ شـمـــ … ـسٍ) عن شِمالكَ واليَمين[٥٥٨]

***

مـلِـكَ الـمـلـوكِ، تـحـيَّـةً … ووَلاءَ مُـحـتـفِـظ أمـيـن
هـذا الـمـقـامُ عـرفـتُـه … وسـبـقـتُ فـيـه الـقـائِـلـيـن
ووقـفـتُ فـي آثـارِكـم … أزِنُ الـجـلالَ وأسْـتـبـيـن
وبـنـيـتُ فـي الـعـشـريـنَ مـن … أحـجـارِهـا شِـعْـرِي الـرَّصـيـن
سـالـتْ عـيـونُ قـصـائـدي … وجَـرى مـن الـحـجَـر الـمَـعـيـن
أَقْـعَـدتْ جِـيـلاً لـلـهـوى … وأَقـمـتُ جِـيـلاً آخـريـن
كـنـتـمْ خـيـالَ الـمـجـدِ يُـرْ … فَـع لـلـشـبـابِ الـطـامِـحـيـن
وكـم اسـتـعـرتَ جـلالَـكـم … لـمـحـمَّـدٍ والـمـالـكـيـن[٥٥٩]
تـاجٌ تـنَـقَّـلَ فـي الـخـيـا … لِ، فما استقرَّ على جَبين
خَـرَزاتُـه الـسـيـفُ الـصـقـيـ … ـلُ يَـشـدُّه الـرمـحُ الـسَّـنـيـن

***

قـلْ لـي: أحـيـنَ بـدا الـثَّـرى … لكَ، هل جزعتَ على العَرِين؟
آنـسْـتَ مُـلْـكًـا لـيـس بـالـشـا … كـي الـسَّـلاحِ، ولا الـحَـصـيـن
الـبَـرُّ مـغـلـوبُ الـقـنـا … والـبـحـرُ مَـسـلـوبُ الـسِـفـيـن
لـمَّـا نـظـرتَ إلـى الـديـا … رِ صدَفتَ بالقلب الحزين[٥٦٠]
لـم تـلـقَ حـولـكَ غـيـرَ (كُـر … تَـرَ)، والـنَّـطـاسِـيَّ الـمُـعـيـن!
أقـبـلـتَ مـن حـجْـبِ الـجـلا … لِ عـلـى قـبـيـلٍ مُـعـرِضِـيـن
تـاجُ الـحـضـارة حـيـن أشـر … قَ لـم يـجـدْهـم حـافِـلـيـن
والـلـهُ يـعـلـم لـم يَـرَوْ … هُ مـن قـرونٍ أَربـعـيـن

***

قَسَمًا بمَنْ يُحيي العظا مَ، ولا أزيدُكَ من يَمين
لو كان مِنْ سَفَرٍ إيا بُكَ أمسِ، أو فتحٍ مُبين
أو كان بعثُكَ من دبيـ ـبِ الرُّوح، أو نَبْضِ الوَتِين
وطلعتَ من وادِي الملو كِ، عليكَ غارُ الفاتحين
الخيلُ حولَك في الجِلا لِ العَسْجَدِيَّةِ يَنْثنين[561]
وعلى نِجادِكَ هالتا نِ من القَنَا، والدَّارعين
والجندُ يدفعُ في رِكا بِكَ بالملوكِ مُصَفَّدين
لرأيتَ جِيلاً غيرَ جيـ ـلك، بالجبابرِ لا يَدِين
ورأيتَ محكومِين قد نصبوا، ورَدُّوا الحاكمين
روحُ الزَّمانِ ونَظْمُه وسبيلُه في الآخرين
إن الزمانَ وأهلَه فرَغا من الفردِ اللعين
فإذا رأيتَ مَشايخًا أو فِتيةً لك ساجدين
لاقِ الزمانَ، تَجِدْهمو عن رَكْبِه مُتخلِّفين
هُمْ في الأواخرِ مَوْلِدًا وعقولُهم في الأَوَّلين!

دِمَشْق

قم ناجِ جِلَّقَ،[562] وانْشُدْ رسمَ مَنْ بانوا
مَشَتْ على الرَّسم أحداثٌ وأزمان
هذا الأديمُ[563] كتابٌ لا كِفاءَ له
رَثُّ الصحائفِ، باقٍ منه عُنوان
الدِّينُ والوَحْيُ والأخلاقُ طائفةٌ
منه، وسائرهُ دُنْيا وبُهتان
ما فيه إن قُلِّبَتْ يومًا جواهرُهُ
إلاَّ قرائحُ مِن رادٍ وأذهان[564]
بنو أُمَيَّةَ للأنباءِ ما فتحوا
وللأحاديثِ ما سادوا وما دانوا[565]

كانوا ملوكًا، سَريرُ الشرقِ تَحْتَهُمُ
فهل سألتَ سريرَ الغرب: ما كانوا؟
عالِينَ كالشمسِ في أطراف دولتِها
في كلِّ ناحيةٍ مُلكٌ وسلطان
يا ويحَ قلبِيَ! مهما انتاب أَرْسُمَهُم
سَرى به الهمُّ، أو عادتُه أشجان
بالأمس قمتُ على (الزَّهراءِ)[٥٦٦] أندُبُهم
واليومَ دمعي على (الفَيْحَاءِ) هَتَّان[٥٦٧]
في الأرضِ منهم سماواتٌ، وألْوِيَةٌ
ونيِّراتٌ، وأنواءٌ، وعقبان
معادنُ العزِّ قد مال الرَّغام[٥٦٨] بهم
لو هانَ في تُرْبهِ الإبْريزُ ما هانوا
لولا دِمَشْقُ لَما كانت (طُلَيْطلةٌ)
ولا زَهتْ ببني العبّاسِ بَغدان[٥٦٩]
مَررتُ بالمسجدِ المَحْزونِ أسأله
هل في المُصَلَّى أو المحرابِ (مَرْوان)؟
تَغيَّرَ المسجدُ المحزونُ، واختلفَتْ
على المنابرِ أحرارٌ وعِبدان
فلا الأذانُ أذانٌ في منارته
إذا تعالى، ولا الآذانُ آذان

***

آمنتُ بالله، واستثنيتُ جَنَّته
دمشقُ رَوْحٌ، وجَنَّاتٌ، ورَيْحان
قال الرفاقُ وقد هبَّتْ خمائلُها:
الأرضُ دارٌ لها (الفيحاءُ) بستان
جَرَى وصفَّقَ يلقانا بها (بَرَدَى)[٥٧٠]
كما تلقَّاك دونَ الخُلْدِ رضوان

دخـلـتُـهـا وحـواشـيـهـا زُمُـرُّدَةٌ
والشمسُ فوق لُجَين الماءِ عِقْبان[٥٧١]
والحورُ في (دُمَّر)،[٥٧٢] أو حولَ (هامَتها)
حورٌ[٥٧٣] كَوَاشِفُ عن ساقٍ، وولدان
و(رَبْوَةُ) الوادِ في جِلبابِ راقصةٍ
الساقُ كاسِيَةٌ، والنحرُ عُريان
والطيرُ تَصدح من خلف العيونِ بها
وللعيونِ كما للطَّير ألحان
وأقبلتْ بالنَّبات الأرضُ مُختلِفًا
أفوافُه، فْهوَ أصباغٌ وألوان[٥٧٤]
وقد صَفًا (بَرَدَى) للرِّيح، فابترَدَتْ[٥٧٥]
لدى ستورٍ، حَواشيهنَّ أفنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال،[٥٧٦] ولا
جفَّتْ من الماءِ أَذيالٌ وأردان[٥٧٧]
خَلَّفتُ (لُبنانَ) جنَّاتِ النعيم، وما
نُبِّئْتُ أن طريقَ الخلدِ لُبنان
حتى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارفةٍ
فيها النَّدَى، وبها (طَيٌّ) (وشَيْبان)[٥٧٨]
نزلتُ فيها بِفِتْيَانٍ[٥٧٩] جَحَاجِحَةٍ
آباؤهم في شبابِ الدَّهرِ غَسَّان[٥٨٠]
بِيضُ الأَسِرَّةِ،[٥٨١] باقٍ فيهُمُ صَيَدٌ[٥٨٢]
من (عبد شمسٍ)[٥٨٣] وإن لم تَبْقَ تِيجان
يا فتيةَ الشام، شكرًا لا انقضاءَ له
لو أن إحسانَكم يَجزيه شُكران
ما فوقَ راحاتِكم يومَ السماحِ يَدٌ
ولا كأوطانكم في البشر أوطان

خميلةُ الله وشَّتْها يَدَاهُ لكم
فهل لها قيِّمٌ منكم وجَنَّان؟[٥٨٤]
شِيدُوا لها الملكَ، وابنوا ركنَ دَولتها
فالملكُ غرسٌ، وتجديدٌ، وبنيان
لو يُرجعُ الدَّهرُ مفقودًا له خَطرٌ
لآبَ بالواحد المبْكِيَّ ثَكلان
المُلكٌ أنْ تعملوا ما اسطَعْتُمو عملاً
وأن يَبِينَ على الأعمالِ إتقان
الملكُ أن تُخرَجَ الأموالُ ناشِطةً
لمطلبٍ فيه إصلاحٌ وعُمران
الملكُ تحتَ لسانٍ حوله أَدبٌ
وتحتَ عقلٍ على جَنْبَيْهِ عِرفان
الملكُ أن تتلاقَوْا في هوى وطنٍ
تفرَّقت فيه أجناسٌ وأديان

***

نصيحةٌ مِلْؤها الإخلاصُ، صادِقةٌ
والنُّصحُ خالصُه دينٌ وإيمان
والشِّعرُ ما لم يكن ذكرى وعاطفةً
أو حكمةً، فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الشرق والفُصحى بنو رَحم
ونحن في الجُرح والآلام إخوان

أختُ أمينَة

(وقال وقد رأى في الفلك وهي ترجع به إلى مصر طفلةً فيها من كريمته أمينة مشابهة):

هذه نورُ السفينه   هذه شِبْهُ (أمينهْ)

هـذه صـورتُـهـا مُـنْــ ــبئةٌ عنـهـا مُـبـيـنـه
هــذه لــؤلــؤةٌ عــنـــ ـــدي لها مِثْلٌ ثمينه
من بناتِ الرومِ، لكن لم تكن عندي مَهينه
أنـا مَـنْ يـتـرك لـلـديَّـ ـان في الدُّنيا شُئونه
يا مَلاكَ الفُلْكِ، لي صِنْـ ـوُكِ في تلك المدينة[٥٨٥]
أنتِ فـي الـفُـلْـك بَـهـاءٌ وهْوَ في (حُلْوَانَ) زِينه
ناجِهِ، واذكرْ له وجْــ ـــدَ أبـيـه، وحَـنـيـنَـه
وأفِدْهُ: إنـنـي فـي الــ ــبحر مذْ دُسْتُ عَرِينه
لستُ بـالـنـفس ضَـنـينًا وبـه نـفـسـي ضَـنـيـنـه
أسـأل الـرحـمـنَ يُـرْعِـيــ ـــكَ وإيَّــاهُ عُـيـونَـه

أنْدَلُسِيَّةٌ

نظمها في منفاه بأسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيرًا من مشاهده ومعاهده

يا نائح (الطلْحِ)،[٥٨٦] أشباهٌ عَوَادِينا[٥٨٧]
نَشْجى لِوَادِيكَ، أم نَأْسَى لوادينا؟
ماذا تقُصُّ علينا غيرَ أنّ يدًا
قصَّتْ جَناحك جالت في حواشينا؟
رمى بنا البينُ أَيْكًا غيرَ سامِرنا
— أخا الغريب — وظِلاًّ غيرَ نادينا
كلٌّ رَمَتْه النَّوى: رِيشَ[٥٨٨] الفِراقُ لنا
سَهْمًا، وسُلَّ عليكَ البينُ سِكِّينا
إذا دعا الشوقُ لم نَبرحْ بمُنْصَدِعٍ
من الجناحين عيٍّ لا يُلَبِّينا
فإن يَكُ الجنسُ يا ابنَ الطَّلْحِ فرَّقنا
إنَّ المصائبَ يجمعْنَ المُصابينا

لـم تـألُ مـاءك تَـحْـنـانًـا، ولا ظـمـأً
ولا ادِّكـارًا[٥٨٩] ولا شـجْـوا أَفـانـيـنـا[٥٩٠]
تَجُرُّ مـن فَـنـنٍ[٥٩١] سـاقًـا إلـى فَـنَـنٍ
وتـسـحـبُ الـذيـلَ تـرتـادُ الـمـؤاسـيـنـا
أساةُ[٥٩٢] جسمِكَ شتَّى حين تطلبهم
فمَنْ لروحك بالنُّطْس[٥٩٣] المُدَاوينا؟

***

آهـا لـنـا نـازِحَـيْ أيْـكٍ[٥٩٤] بـأنـدَلُـسٍ
وإن حَـلَـلْـنَـا رفـيـقًـا[٥٩٥] مـن رَوَابـيـنـا!!
رَسْـمٌ وقـفـنـا عـلـى رَسْـمِ الـوفـاء لـه
نَـجـيـش بـالـدَّمـع، والإجـلالُ يَـثـنـيـنـا
لِـفِـتْـيَـةٍ لا تـنـال الأرضُ أدمُـعَـهـم
ولا مَـفـارقَـهـم إلاَّ مُـصَـلِّـيـنـا[٥٩٦]
لو لم يسودوا بدينٍ فيه مَنْبَهةٌ[٥٩٧]
للـنـاسِ، كـانـت لـهـم أَخـلاقُـهـم ديـنـا
لـم نَـسْـرِ مـن حـرَمٍ إلاَّ إلـى حَـرَمٍ
كالخمر من (بابلٍ) سارت (لدارينا)[٥٩٨]
لمَّا نبَا الخلدُ نابت عنه نُسْختُه
تَماثُلَ الورْدِ (خِيريًّا) و(نسْرينا)[٥٩٩]
نـسْـقِـي ثـراهُـمْ ثَـنَـاءً، كـلَّـمـا نُـثِـرتْ
دمُـوعُـنـا نُـظـمـتْ مـنـهـا مـراثـيـنـا
كـادت عـيـونُ قـوافـيـنـا تُـحَـرِّكُـه
وكدْنَ يوقِظْنَ في التُّرْبِ السلاطينا
لكنَّ مصرَ وإن أغضتْ على مِقَةٍ[٦٠٠]
عَيْنٌ من الخُلْدِ بالكافور تَسقينا
عـلـى جـوانـبِـهـا رَفَّـتْ تَـمَـائِـمُـنَـا
وحـولَ حـافـاتِـهـا قـامـتْ رَواقـيـنـا[٦٠١]

مـلاعِـبٌ مَـرِحَـتْ فـيـهـا مَـآرِبُـنـا
وأَربُـعٌ أَنِـسَـتْ فـيـهـا أمـانـيـنـا
ومَـطْـلَـعٌ لِـسُـعـودٍ مـن أوَاخِـرنـا
ومَـغْـرِبٌ لـجُـدُودٍ مـن أوَالـيـنـا[٦٠٢]
بِنَّا، فلم نَخْلُ من رَوْحٍ[٦٠٣] يُراوِحُنا
مـن بَـرَّ مـصـرَ، وَرَيْـحَـانٍ يُـغـادِيـنـا
كأمِّ موسَى، على اسمِ الله تكْفُلُنا
وباسمِهِ ذهبتْ في اليَمِّ تُلقينا[٦٠٤]
ومصرُ كالكَرْمِ ذي الإحسان: فاكهةٌ
لـحـاضِـريـنَ، وأكـوابٌ لـبَـاديـنـا

***

يا ساريَ البرقِ يَرمِي عن جوانِحنا
بعدَ الهدوءِ، ويهمِي عن مآقينا
لمَّا تَرقرق في دمع السماءِ دمًا
هاج البكا، فخضبْنَا الأرضَ باكِينا
الليلُ يشهد لم نَهتِك دَيَاجيَهُ
على نيامٍ، ولم نهتِف بساليـنا
والنَّجمُ لم يَرَنا إلاَّ على قدمٍ
قيامَ ليل الهوى، للعهد راعِينا
كزفْرَةٍ في سماءِ الليل حائرةٍ
ممَّا نُرَدِّدُ فيه حين يُضْوِينا
بالله إن جُبتَ ظلماءَ العُبابِ على
نَجائبِ النُّورِ مَحْدُوًّا (بجرينا)
تَرُدُّ عنك يداه كلَّ عاديةٍ
إِنْسًا يَعِثْنَ فسادًا، أو شياطينا
حتى حَوَتْكَ سماءُ النيلِ عالية
على الغيوث، وإن كانت مَيامينا

وأحـرزتـكَ شُـفـوفُ الَّـلازوَرْدِ عـلـى
وَشْـيِ الـزَّبَـرْجَـدِ مـن أَفْـوَافِ وادينـا[٦٠٥]
وحــازكَ الـرِّيـفُ أرجــاءً مُــؤَرَّجَــةً
رَبَـتْ خـمـائِـلَ، واهـتـزَّت بـسـاتـيـنـا
فقِف إلى النيل، واهتف في خمائِله
واتـزل كـمـا نـزل الـطـلُّ الـرَّيـاحـيـنـا
وآسِ مـا بَـاتَ يَـدْوِي مـن مـنـازلـنـا
بـالـحـادثـات، ويَـضـوَى مـن مـغـانـيـنـا

* * *

ويـا مُـعـطِّـرَةَ الـوادي سَـرتْ سَـحَـرًا
فـطـابَ كـلُّ طُـروحٍ مـن مـرامـيـنـا
ذكِـيَّـة الـذَّيـل، لـو خِـلْـنَـا غِـلالـتـهـا
قميصَ يوسفَ لم نُحْسَبْ مُغالينا
جَشِمت شَوْكَ السُّرى حتى أتيْتِ لنا
بـالـوَرْدِ كُـتْـبًـا، وبـالـرَيًّـا عـنـاويـنـا
فـلـو جـزيـنـاكِ بـالأرواح غـالـيـةً
عن طيب مَسْراك لم تنهضْ جَوازينا
هـل مـن ذيـولـكِ مِـسْـكـيٌّ نُـحَـمَّـلُـه
غـرائـبَ الـشـوق وَشْـيًـا مـن أمـالـيـنـا؟
إلـى الـذيـن وجـدنـا وُدَّ غـيـرهـمُ
دُنْـيَـا، وودَّهـمـو الـصـافـي هـو الـديـنـا

* * *

يـا مَـنْ نَـغـارُ عـلـيـهـم مـن ضـمـائـرنـا
ومـن مَـصـون هـواهـم فـي تـنـاجِـيـنـا
نـاب الـحـنِـينُ إلـيـكـم فـي خـوَاطِـرنـا
عـن الـدَّلال عـلـيـكـم فـي أمـانـيـنـا

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
في النائبات، فلم يأْخذ بأيدِينا
وما غُلبنا على دمعٍ، ولا جَلَدٍ
حتى أتتنا نَواكُمْ من صَياصيِنا[٦٠٦]
ونابِغيًّ[٦٠٧] كأنَّ الحشرَ آخرُه
تُميتُنا فيه ذكراكم وتُحيِينا
نَطوي دُجَاه بجُرحٍ من فراقِكمو
يكاد في غَلس الأسحار يَطِوينا
إذا رَسا النَّجمُ لم ترْقأْ مَحاجِرُنا
حتى يزولَ، ولم تهدأ تراقِينا
بتنا نُقاسِي الدَّواهي من كواكِبه
حتى قعدنا بها حَسْرَى تُقاسِينا
يبدو النهارُ فيخفيه تجلُّدُنا
للشامتين، ويَأسُوه تأَسِّينا

***

سَقْيًا لعهدٍ كأكنافِ الرُّبَى رِفةً[٦٠٨]
أنَّى ذهبنا، وأعطافِ الصَّبا لِينا
إذِ الزمانُ بنا غَيْناءُ زاهِيةٌ
تَرِفُّ أَوقاتُنا فيها رَيَاحينا
الوصلُ صافِيَةٌ، والعيشُ ناغِيَةٌ
والسعدُ حاشيةٌ، والدَّهرُ ماشينا
والشمسُ تَختال في العِقْيان، تَحْسبُها
(بِلقيسَ) تَرْفُلُ في وَشْيِ اليمانِينا
والنيلُ يُقبِل كالدُّنيا إذا احتفلتْ
لو كان فيها وفاءٌ للمُصافِينا
والسَّعدِ لوْ دامَ، والنُعمَى لوِ اطَّردتْ
والسيلِ لَو عَفَّ، والمقدارِ لَوْ دِينا

أَلقى على الأرض — حتى ردَّها ذَهبًا —
ماءً لَمسنا به الإكْسِيرَ، أو طِينا
أعداه من يُمْنِه (التابوتُ)، وارتسَمَتْ
على جوانبه الأنوارُ من سِينا
له مَبالغُ ما في الخُلْقِ من كَرمٍ
عهدُ الكرامِ، وميثاقُ الوفِّيينا
لم يَجرِ للدَّهرِ إعذارٌ[٦٠٩] ولا عُرُسٌ
ألاَّ بأيَّامِنا، أو في ليالينا
ولا حوى السعدُ أطْغَى في أعِنَّتِه
مّنا جِيَادًا، ولا أرْحَى ميادِينا
نحن اليواقيتُ، خاض النارَ جَوهَرُنا
ولم يهُنْ بيَدِ التَّشْتيتِ غالِينا
ولا يَحُول لنا صِبْغ، ولا خُلُقٌ
إذا تلوَّن كالحِرْباءِ شانِينا
لم تنزل الشمسُ ميزانًا، ولا صعدَتْ
في مُلْكِها عرشًا مثلَ وادينا
ألم تُؤَلَّهْ على حافاتِه، ورأتْ
عليه أبناءَها الغُرَّ الميامينا؟
إن غازلتْ شاطئيه في الضحى لبِسا
خمائلَ السُّنْدُسِ المَوشِيَّةِ الغينا[٦١٠]
وبات كلُّ مُجاج[٦١١] الوادِ من شَجرٍ
لوافِظَ القزِّ بالخيطان ترمِينا
وهذه الأرضُ من سَهْلٍ ومن جبلٍ
قبل (القياصر) دِنَّاها (فراعينا)
ولم يَضَعْ حجَرًا بانٍ على حجرٍ
في الأرضِ إلاَّ على آثار بانِينا

كأن أهرامَ مصرٍ حائطٌ نهضت
به يَدُ الدَّهرِ، لا بنيانُ فانِينا
إيوانُه الفخمُ من عُليا مقاصره
يُفْنِي الملوك، ولا يُبقي الأواوينا[٦١٢]
كأنها ورمالاً حولها التطَمتْ
سفينةٌ غَرِقتْ إلاَّ أَساطينا[٦١٣]
كأنها تحت لألاءِ الضُّحَى ذَهبًا
كنوزُ (فِرْعوْنَ) غَطَّيْنَ الموازينا

* * *

أرضُ الأُبُوةِ والميلادِ طيَّبها
مَرُّ الصِّبا في ذيول مَنْ تصابينا
كانت مُحَجَّلةً فيها مواقِفُنا
غُرًّا مُسَلْسَلَةَ المَجْرَى قوافينا
فآبَ مِنْ كُرَةِ الأيامِ لاعِبُنا
وثابَ مِنْ سِنَةِ الأحلامِ لاهِينا
ولم نَدَعْ لليالي صافيًا، فدَعتْ
(بأن نغَصَّ، فقالُ: آمينا)
لو استطعنا لخُضْنا الجوَّ صاعِقةً
والبرَّ نارَ وَغىً، والبحرَ غِسْلِينا[٦١٤]
سَعْيًا إلى مصرَ نقضِي حقَّ ذاكرنا
فيها إذا نَسِيَ الوافي، وباكِينا
كَنْزٌ (بحُلوانَ) عندَ اللهِ نطلبُهُ
خيرَ الودائِع من خير المؤَدِّينا[٦١٥]
لو غاب كلُّ عزيز عنه غَيْبَتَنا
لم يَأْتِه الشوقُ إلاَّ من نواحينا
إذا حمَلْنا لمصرٍ أو له شَجَناً
لم ندْرِ: أيُّ هوَى الأمَّيْن شاجِينا؟

وَصْفُ الْغَوَّاصَة ونَكبَةُ الباخِرةِ لُوزِيَتانْيا

(قال في حادثة نسف غواصة ألمانية للباخرة لوزيتانيا):

رأيتُ على لَوْحِ (الخيال)[٦١٦] يتيمةً   قضى يومَ (لوسيتانيا) أبَواها
فيا لك من حاكٍ أمينٍ مُصَدَّقٍ   وإن هاج للنفس البُكا وشَجَاها
فوَاهًا عليها، ذاقَت اليُتْمَ طِفلةً   وقُوِّضَ رُكْناها، وذَلَّ صِباها
وليت الذي قاست من الموت ساعة   كما راح يَطْوي الوالديْن طواها
كفَرْخٍ رمى الرامي أباهُ فغالهُ   فقامت إليه أمُّهُ فرماها
فلا أَبَ يَستَذْرِى[٦١٧] بظلِّ جناحهِ   ولا أُمَّ يَبغي ظِلَّها وذَراها[٦١٨]
ودبَّابةٍ[٦١٩] تحتَ العُباب بمَكمَنٍ   أمينٍ، تَرى الساري وليس يَراها
هي الحوتُ، أو في الحوت منها مَشابِهٌ   لو كان فولاذًا لكان أَخاها
أَبَثُّ لأصحابِ السَّفين غوَائِلا   وألأَمُ نابًا حينَ تَفْغرُ فاها
خَئُونٌ إذا غاصتْ، غدورٌ، إذا طَفت   مُلعَّنةٌ في سَبْحها وسُراها
تُبَيِّتُ[٦٢٠] سُفْنَ الأبرياءِ من الوغى   وتَجني على مَنْ لا يخوض رَحاها
فلو أدركت تابوت موسى لسَلَّطتْ   عليه زُباناها،[٦٢١] وحرَّ حُمَاها
ولو لم تُغَيَّبْ فُلْكُ نُوحٍ وتحْتَجِبْ   لما أمِنَتْ مَقذوفَها ولَظَاها
فلا كان بانيها، ولا كان رَكْبُها   ولا كان بحرٌ ضمَّها وحواها
وأُفٍّ على العلم الذي تَدَّعونه   إذا كان في علم النفوس رَدَاها

جِسْرُ الْبُسْفُور

هذه القصيدة اهتمَّ بها المغفور له السلطان عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام

أميرَ المؤمنين، رأيتُ جِسرًا   أمرُّ على الصراطِ، ولا عليْهِ
له خشبٌ يجوع السوسُ فيه   وتمضي الفأرُ لا تَأْوِي إليه
ولا يتكلَّفُ المِنْشارُ فيه   سوى مرَّ الفطِيمِ بساعدَيْه
وكم قد جاهد الحيوانُ فيه   وخَلَّف في الهزيمة حافِريْه
وأَسمجُ منه في عيني جُباةٌ[٦٢٢]   تراهم وَسْطَه وبجانِبَيْه

إذا لا قيتَ واحِدَهم تَصدَّى كعِفْريتٍ يُشيرُ براحتَيْه
ويمشي (الصدرُ)[٦٢٣] فيه كلَّ يوم بموكِبه السَنِيَّ وحارِسَيْه
ولكن لا يمرُّ عليه إلاَّ كما مرَّتْ يَداه بعارِضَيْه
ومن عجبٍ هو الجسرُ المُعلَّى على البسفور يجمع شاطِئَيْه
يُفيدُ حكومةَ السلطانِ مالاً ويُعطيها الغِنَى من مَعْدِنَيه
يجود العالَمون عليه، هذا بعَشْرتِه، وذاك بعَشْرَتَيْه
وغايةُ أمرِه أنَّا سمِعنا لسانَ الحال يُنشِدُنا لديه
(أليس من العجائب أنَّ مثلي يَرَى ما قلَّ مُمتنِعا عليه)؟
(وتؤخذ باسمه الدُّنيا جميعًا وما من ذاك شيءٌ في يديه)؟

كتاب بعث به إلى المرحوم حسين واصف باشا، يستهديه لكرمة ابن هاني بالمطريَّة شجيراتٍ، وكان مشهورًا باقتناءِ الرياحين والعناية بتربيتها:

إلى حسينٍ حاكمِ القَنالِ مثالِ حُسْنِ الخُلْق في الرِّجال
أُهْدِي سلامًا طيّبًا كخُلْقِه مع احترامٍ هو بعضُ حَقِّه
وأحفظ العهدَ له على النَّوَى والصدقَ في الودِّ له وفي الهوى
وبَعدُ فالمعروفُ بين الصَّحبِ أنّ التهادِي من دواعي الحبِّ
وعندك الزَّهُر بين الصَّحبِ كلاهما فيما يقال نَدْوُ
وقد سَمعتُ عنك من ثِقاتِ أنك أنتَ مَلِكُ النباتِ
زهرُك ليس للزهور رَوْنَقُه تكادُ من فَرْطِ اعتناءٍ تَخلُقه
ما نظرتْ مثلَك عينُ النرجسِ بعد ملوك الظرف في الأندلسِ
ولي من الحدائق الغنَّاءِ رَوْضٌ على (المطْرِيَّةِ) الفيْحاءِ
أتيتُ أستهدي لها وأسألُ وأَرتضي النَّزْر ولا أُثَقِّلُ
عشرَ شُجيْرَاتٍ من الغوالي تَندُر إلاَّ في رياض الوالي
تزكو وتزهو في الشتا والصيف وتجمع الألوانَ مثلَ الطيْفِ
تُرسلها مُؤمِّنًا عليها إن هَلكَتْ لي الحقُّ في مِثْلَيها
والحق في الخرطوم أيضا حقِّي والدَّرسُ للخادم كيف يَسقي
وبعد هذا لي عليك زورَةَ لكي تدور حول روْضِي دوْرةْ

فإن فعلت فالقوافي تفعلُ ما هو من فعل الزهور أجملُ
فما رأيت في حياتي أزْينا للمرء بين الناس من حُسْنِ الثَّنَا

هوامش

(١) أسباب السماء: مراقيها، أو طرقها، أو نواحيها، أو أبوابها.
(٢) الأَمَة: المملوكة. وبلقيس: صاحبة نبي الله سليمان (عليه السلام) الذي سُخِّرَت له الريح.
(٣) بُرُد: جميع بريد.
(٤) بطاء: جمع بطيء.
(٥) العماء: السحاب المرتفع، أو الكثيف، أو الممطر، أو الرقيق.
(٦) السُّها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.
(٧) الضيف: النزيل على غيره ويكون للواحد والجمع؛ لأنه في الأصل مصدر.
(٨) يريد به نابليون الأول.
(٩) الصَّلف: مجاوزة قدر الظرف.
(١٠) الرُّواء: حسن المنظر.
(١١) مركب ذي عدواء: أي ليس بمطمئن.
(١٢) الرَوَاء: الماء العذب.
(١٣) القادمة: واحدة القوادم، وهي عشر ريشات في مقدِّم الجناح، وهي كبار الريش.
(١٤) ذُكاء: اسم للشمس.
(١٥) العفاء: الدروس والهلاك والفناء.
(١٦) الوضاء: المشرقة الحسنة.
(١٧) الدعامة أو الدعام: عماد البيت.
(١٨) قعساء: أي ثابتة.
(١٩) العرباء من العرب: الصُّرحاء الخلص.
(٢٠) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم.
(٢١) الروضة الكثيرة العشب.
(٢٢) الجوزاء: برج في السماء.

(٢٣) بليت: امتحنت.

(٢٤) غرَّاء: ناصعة.

(٢٥) الألباء: العقلاء، جمع لبيب.

(٢٦) أدنى الشيء: قرَّبه إليه.

(٢٧) جوفاء: فارغة.

(٢٨) مقلعة: ذاهبة. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

(٢٩) الأصيص: نصف الجرَّة يُزْرَعُ فيها الرياحين.

(٣٠) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.

(٣١) انبجست: أي انفجرت.

(٣٢) الحصباء: الحصى، الواحدة حصبة، والبوغاء: ما يثور من الغبار ودقائق التراب.

(٣٣) أشلاء واحدها شلو: العضو والجسد من كل شيء.

(٣٤) الدأماء: البحر

(٣٥) يريد النار التي ظهرت لموسى الكليم وهو سائر بأهله شطر طور سيناء.

(٣٦) أيامى: جمع أيم، وهي المرأة التي تفقد زوجها، أو الرجل الذي يفقد امرأته. وتأساء: تعزيه وتسلية.

(٣٧) الحبب: الفقاقيع التي تعلو الخمر.

(٣٨) اللبب، موضع القلادة من الصدر.

(٣٩) جلا: أي كشف. والجمان: اللؤلؤ. والشنب: عذوبة الأسنان

(٤٠) الشقيق: أحد شقائق النعمان، وهي أزاهر حمراء فيها بقع سوداء.

(٤١) النخب: جمع نخبة وهي المختار من كل شيء.

(٤٢) ائتشب الشجر: التفَّ. والزهرا: الزهراء.

(٤٣) السنا هنا مقصور من السناء: بمعنى الرفعة. والطنب: الوتد، أو الحبل الذي يشدُّ به سرادق البيت.

(٤٤) الرفرف: الرقيق من ثياب الديباج. والسجوف: الستور جمع سجاف.

(٤٥) يشبِّه مصابيح القصر بشهب ثابتة.

(٤٦) المنتقب: النقاب.

(٤٧) الجيش اللجب: ذو الكثرة والضجيج.

(٤٨) السبب: الحبل، ويشير به أولاً إلى زمام الدَّابة، وثانيًا إلى سوط السائق.

(٤٩) الخبب: سرعة عدو الجياد.

(٥٠) ترتمي: بمعنى ترمي. والرغب: الابتهال، والمعنى أنها تذهب بهنَّ إلى ملجأ هو وحده غاية الراجي وكعبة الضارع.

(٥١) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف في سخاء ومروءة. والنجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

(٥٢) الرحب: جمع رحبة، وهي الأرض المتسعة.

(٥٣) الكثب: القريب.

(٥٤) المطارف: أردية من خزٍّ. والقشب: الجدد.

(٥٥) التالد: القديم

(٥٦) اللجين: الفضة.

(٥٧) اللجب: الضجيج.

(٥٨) البان: شجر سبط القوام لين ويشبَّه به القدُّ لطوله.

(٥٩) الحدب: العطوف.

(٦٠) الصعد: جمع صعد بكسر العين وهو المرتفع. والصبب: المنحدر.

(٦١) الأسل: الرماح. والقضب: السيوف.

(٦٢) الوصيب: التعب.

(٦٣) النهب: جمع نهبة، وهي المنهوب.

(٦٤) الخوان — بكسر الخاء وضمها —: يوضع عليه الطعام. والقطب بتسكين الطاء ويخفف: سيد القوم.

(٦٥) السغب: الجوع.

(٦٦) العلب: نوع من الأقداح الضخمة.

(٦٧) السلب: ما يسلب وينهب.

(٦٨) الحوائم: العطاش. والقرب: سير الليل لورد الغد.

(٦٩) الحقب: جمع حقبة وهي هنا بمعنى السنة.

(٧٠) الندى: الكرم. والنشب: العقار أو المال.

(٧١) الحدب: العطف والإشفاق.

(٧٢) الروض الأشب: الملتفُّ.

(٧٣) ارتغب في الأمر: رغب فيه.
(٧٤) الغيب: جمع غائب.
(٧٥) مفند: مكذب.
(٧٦) المدنَّف: الذي أثقله المرض.
(٧٧) الطلاء: الخمر.
(٧٨) الحقب: جمع حقبة، وهي السنة.
(٧٩) الحبب: الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر.
(٨٠) الهالة: دارة القمر.
(٨١) الطنب: حبل طويل يشدُّ به سرادق البيت أو الوتد.
(٨٢) الشنب: ماء ورقة وعذوبة في الأسنان.
(٨٣) الشادن: ولد الظبية. واللبب: المنحر، وموضع القلادة من الصدر.
(٨٤) قشب: جمع قشيب وهو الجديد، والقشيب أيضًا: الأبيض والنظيف.
(٨٥) اليلب: الترسة أو الدروع اليمانية من الجلود وقيل جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس، واليلب: الفولاذ، واليلب: خالص الحديد.
(٨٦) السغب: الجوع، وقيل لا يكون إلا مع تعب.
(٨٧) النشب: المال والعقار.
(٨٨) الأشب: الملتفُّ.
(٨٩) أدب: أقام المأدبة.
(٩٠) الأرِب: الماهر البصير.
(٩١) تراعها: تصغي إليها.
(٩٢) النقل بالفتح: ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما.
(٩٣) انقضابا: انقطاعًا.
(٩٤) تجنب: تنحى.
(٩٥) الجناب: الفناء.
(٩٦) لم تحجل غرابًا: كناية عن أنها لم تقلد كما قلَّد الغراب الطاووس.
(٩٧) الدجن: إلباس الغيم الأرض.
(٩٨) كافور: هو كافور الأخشيدي ممدوح المتنبي. وعبد الخنا: أي كافور.
(٩٩) الأزهر: يعني به معهد الأزهر.

(١٠٠) الأعزال: الذين لا سلاح لهم.

(١٠١) لم يملك ذهابًا: أي لم يستطع.

(١٠٢) الجبرتي: المؤرِّخ المعروف.

(١٠٣) الشيخ يعني به الجبرتي. والردن: أصل الكم، وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير. والمرقم: القلم. والصِّل: الثعبان.

(١٠٤) السباب: السبُّ.

(١٠٥) يتغابى: يتغافل.

(١٠٦) غلابا: أي مغالبة.

(١٠٧) المغازي: وقائع الحروب والمعاني. ترابا، أي يشكُّ في قيمتها بالنظر لعظيم أثرها في مستقبل الشرق.

(١٠٨) مثابا: أي مرجعًا.

(١٠٩) بنات الدَّهر: أي شدائده. وكعاب: أي وهي صبية لم تكبر.

(١١٠) الصاب: عصارة شجر مرٍّ.

(١١١) نصيبين: أكبر الوقائع وأشهرها بين إبراهيم بن محمد علي وبين الأتراك. التل: واقعة التلِّ الكبير المشهورة التي جرَّت على مصر الاحتلال الإنجليزي.

(١١٢) النسر: يعني به نابليون.

(١١٣) عقبان: واحدها عقاب؛ وهو طائر من الجوارح.

(١١٤) الجيزي: يعني به هرم الجيزة. واعتصب: تتوَّج.

(١١٥) النقع: الغبار. والإهاب: الجلد.

(١١٦) الضاحي: البارز. والزَّهر: يعني بها النجوم.

(١١٧) الجلال: واحدها جل وهو للدابة كالثوب للإنسان تصان به.

(١١٨) الصبوح: ما أصبح عند القوم من الشراب فشربوه.

(١١٩) أحد آلهة قدماء المصريين.

(١٢٠) الأيك: الشجر الكثيف الملتفُّ وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

(١٢١) أقاح: واحدها أقحوانة وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.

(١٢٢) يقائق: جمع يقق، وأبيض يقق أي شديد البياض ناصعه. والنسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة.

(١٢٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.

(١٢٤) الخطر: نبات يُجْعَلُ ورقه في الخضاب الأسود يُخْتَضَبُ به.

(١٢٥) الحبر: جمع حبرة بالتحريك ضرب من برود اليمن، وملاءة سوداء تلبسها نساء مصر.

(١٢٦) صفاح. واحده صفح وهو عرض السيف.

(١٢٧) الملواح: السريع العطش.

(١٢٨) رزحت الناقة رزوحًا: ألقت نفسها إعياءً وهزالاً.

(١٢٩) الطرف: هو الكريم من الخيل.

(١٣٠) المزمور: واحد المزامير وهي الأناشيد والأدعية التي كان يترنَّم بها داود (عليه السلام).

(١٣١) أقيالهم: ملوكهم.

(١٣٢) مجامر الياقوت: جمع مجمرة وهو اسم ما يُجْعَلُ فيه الجمر.

(١٣٣) لم يقصد: لم يعدل.

(١٣٤) المقود: ما يقاد به من حبل أو غيره.

(١٣٥) الفدن: القصر المشيد.

(١٣٦) الجلمد: الصخر.

(١٣٧) العميد: الذي هزَّه العشق.

(١٣٨) الصَّفا: الصَّخر.

(١٣٩) لبيد: هو لبيد بن أبي ربيعة أحد المعمِّرين.

(١٤٠) حسين: هو الحسين بن علي بن أبي طالب. ويزيد: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

(١٤١) السنا: الضوء: وحليت المرأة. لبست حليها؛ أي ما تتزين به. ونضيد: أي متسق.

(١٤٢) الدُّمى: واحدتها دمية وهي الصورة المنقشة المزينة.

(١٤٣) الصَّفا: الصَّخر.

(١٤٤) العبب: الماء المتدفق.

(١٤٥) المشفر: الشفة من الإنسان.

(١٤٦) الخميس: الجيش.

(١٤٧) أذنت: أنصتت.

(١٤٨) أقبال الجبال: أي وجوهها.

(١٤٩) أمُّ الكتاب: فاتحته.

(١٥٠) الأحبار: جمع حَبْرٍ وهو العَالِم، وقيل الصالح من العلماء.

(١٥١) المعالم: جمع معلم وهو ما يستدلُّ به على الطريق من أثرٍ ونحوه.

(١٥٢) هوج: جمع هوجاء، والريح الهوجاء التي تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.

(١٥٣) الضاحي: المكان البارز. ويزجي: يسوق ويستحثُّ.

(١٥٤) الإماء: الجواري.

(١٥٥) الإزار: الملحفة وكل ما ستر.

(١٥٦) النجد: ما ارتفع من الأرض. والغور: القعر من كل شيء.

(١٥٧) إطار الشيء: كل ما أحاط به.

(١٥٨) الجمار: جمع جمرة، وهي الحصى.

(١٥٩) اخضل الشيء: صار نديًا بليلاً. والنضار: الذهب.

(١٦٠) الدُّجى: الظلمة، أو سواد الليل.

(١٦١) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

(١٦٢) الضريب: الثلج. والفارع: المرتفع الهيئ الحسن.

(١٦٣) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(١٦٤) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعدٍ ولا برق.

(١٦٥) الخطَّار: المضطرب.

(١٦٦) البتَّار: السيف القاطع.

(١٦٧) الأصيد: الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا وشمالاً.

(١٦٨) الشعرى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدَّة الحر. وزرى عليه فعله: عابه.

(١٦٩) الفلك: السفينة، يؤنث ويذكر.

(١٧٠) الأين: الإعياء.

(١٧١) اللجين: الفضة.

(١٧٢) الهباء: الغبار أو ما يشبه الدُّخان.

(١٧٣) العيالم: جمع عيلم وهو البحر.

(١٧٤) الأناسى: جمع إنسي.

(١٧٥) الدَّوح: جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة المتَّسعة من أي شجرة كانت.

(١٧٦) تأرَّج: أي فاح.

(١٧٧) أوزار الحرب: آلاتها.

(١٧٨) الإزار: الملحفة.

(١٧٩) المزار. الزيارة.

(١٨٠) العوادي: العوائق.

(١٨١) البسيط: الأرض الواسعة.

(١٨٢) أشبل عليه: أي عطف، والمرأة تشبل على أولادها: أقامت عليهم بعد وفاة زوجها ولم تتزوج.

(١٨٣) البيعة: متعبَّد النصارى.

(١٨٤) تحمَّل: ارتحل.

(١٨٥) رصف الحجارة رصفًا: ضم بعضها إلى بعض.

(١٨٦) الملاوة: البُرْهة من الدَّهر.

(١٨٧) الصَّبا: ريح مهبها من مطلع الثريَّا إلى بنات نعش.

(١٨٨) السنة: النعاس.

(١٨٩) خلس الشيء: أخذه في نهزة ومخاتلة.

(١٩٠) أسا الجرح: داواه.

(١٩١) قساه تقسية: أي صيَّره قاسيًا.

(١٩٢) مستطار: استطير الشيء: طير وانتشر.

(١٩٣) رنَّ: أي صاح ورفع صوته بالبكاء.

(١٩٤) الجرس: الصوت.

(١٩٥) الراهب: هو مَنْ تبتل

(١٩٦) فطن للشيء: أي حذق به.

(١٩٧) النقس: ضرب النواقيس.

(١٩٨) اليمُّ: البحر.

(١٩٩) الدوح: جمع دوحة: وهي الشجرة العظيمة.

(٢٠٠) المرجل: القدر من الحجارة والنحاس.

(٢٠١) هفا: أي أسرع.

(٢٠٢) السواد: ما حول البلدة من القرى.

(٢٠٣) الأيك: الشجر الكثير الملتف، وقيل: الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

(٢٠٤) الجرس: الصوت، أو خفيه.

(٢٠٥) الصَّرح: القصر، وكل بناءٍ خالٍ.

(٢٠٦) العباب: كثرة الماء، والعباب: معظم السيل، والعباب: ارتفاعه وكثرته.

(٢٠٧) النكس: الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه.

(٢٠٨) صنعاء: قصبة بلاد اليمن، وقرية بباب دمشق.

(٢٠٩) ثوب قسي وتكسر قافه، منسوب إلى قسٍّ وهو موضع بين العريش والفرما، من أرض مصر.

(٢١٠) العقيق: كل ما شقَّه ماء السيل فأنهره ووسَّعه، ويعني بالعقيق هنا عقيق المدينة، وهو معروف.

(٢١١) المتحسي: أي الشارب.

(٢١٢) يخسي: من خسا البصر. كلَّ وأعيا.

(٢١٣) رمسي: أي رمسيس.

(٢١٤) اليراع: القصب.

(٢١٥) سلسلت النخلة سلسًا: ذهب كريهًا.

(٢١٦) جابٍ: الجابي الذي يجمع الخراج.

(٢١٧) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.

(٢١٨) يغسي: يظلم.

(٢١٩) فطس الرجل: تطامنت قصبة أنفه وانتشرت في وجهه، فهو أفطس. والجمع فُطْس.

(٢٢٠) عنس: جمع عانس، وهي الجارية التي طال مُكْثُها في أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

(٢٢١) صيد: واحدها صائد.

(٢٢٢) الفرس: الافتراس.

(٢٢٣) عقلت: قيدت.

(٢٢٤) غسَّ في البلاد غسًا: دخل فيها ومضى قدمًا.

(٢٢٥) ليلة لوكس: أي ليلة دخول القمر في نجمٍ منحوس.

(٢٢٦) عفت: درست ومحت.

(٢٢٧) كرسي: أي عرش.

(٢٢٨) نطس: أي عالم.

(٢٢٩) الرمس: القبر.

(٢٣٠) شفتني: أي وعظتني هي أيضًا وعظًا شافيًا.

(٢٣١) العنس: الناقة.

(٢٣٢) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٢٣٣) الدَّهس: المكان السهل ليس برملٍ ولا تراب.

(٢٣٤) الخلائف: جمع خليفة.

(٢٣٥) المنار: العلم يُجْعَلُ للطريق.

(٢٣٦) طلس: واحدها أطلس، وهو ما لونه أسود تخالطه غبرة.

(٢٣٧) القلس: حبل السفينة.

(٢٣٨) الحدس: السير على غير هداية.

(٢٣٩) القعس: العزُّ الثابت.

(٢٤٠) ضفت: من ضفا: سبغ واتَّسع.

(٢٤١) الخميس: الجيش. والدرافس: العلم الكبير.

(٢٤٢) الهجس: كل ما وقع في خلد الإنسان.

(٢٤٣) محس: أي حاس بهم.

(٢٤٤) الحرس: الدَّهر.

(٢٤٥) الأمس: الأقرب.

(٢٤٦) نهلان: جبل بالعالية.

(٢٤٧) قدس: جبل عظيم بنجد.

(٢٤٨) السواري: واحدتها سارية، وهي الأسطوانة (العمود).

(٢٤٩) الوزير: يعني به ابن مقلة المشهور بجودة الخط.

(٢٥٠) سطريها: صفيها.

(٢٥١) ويحها كم تزينت لعليم: أي لمدرس عالم واستعدَّت لإقامة الصلوات الخمس.

(٢٥٢) الرفيف: السقف.

(٢٥٣) الدَّمقس: الحرير.

(٢٥٤) المعارج: واحدها معرج، وهو السلم والمصعد.

(٢٥٥) منذر. هو قاضي الأندلس منذر بن سعيد المعروف بالعدل والزهد.

(٢٥٦) ريا ورده: أي رائحة ورده.

(٢٥٧) الدَّاخل: هو «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» مؤسس الدولة الأمويَّة بالأندلس.

(٢٥٨) الشمس: الأباة.

(٢٥٩) الندس: الفهم.

(٢٦٠) عصائب برس: أي بيض كالقطن.

(٢٦١) العسُّ: احتراس الليل.

(٢٦٢) الورس: نبات أحمر اللون.

(٢٦٣) الضرس؛ من ضرس الزمان القوم: اشتدَّ عليهم.

(٢٦٤) الحس: القتل.

(٢٦٥) الحفاظ: الذبُّ عن المحارم.

(٢٦٦) الجبس: الجبان.

(٢٦٧) شهر رجب، أو صفر، أو شهر من شهور الصيف.

(٢٦٨) بقرس: ببارد.

(٢٦٩) حو المراشف: أي سمر الشفاه، وهو مستملح من النساء.

(٢٧٠) المراشف: الشفاه.

(٢٧١) اللعس: سوادٌ مستحسن في الشفة.

(٢٧٢) الخود: جمع خودة وهي المرأة الشابة.

(٢٧٣) العقيان: الذَّهب الخالص.

(٢٧٤) الخميلة: الموضع الكثير الشجر.

(٢٧٥) السلس: الخيط الذي ينظم به الخرز الأبيض تلبسه الإماء، وقيل القرط من الحلي.

(٢٧٦) أسف الطائر: على وجه الأرض.
(٢٧٧) العرف: لحمة مستطيلة في أعلى رأس الديك.
(٢٧٨) الجرس: الصوت، أو خفيِّه.
(٢٧٩) رعس: من رعس الرجل إذا مشى مشيًا ضعيفًا.
(٢٨٠) العين: جمع عيناه، وهي المرأة التي عظم سواد عينها في سعة.
(٢٨١) سوافر: جمع سافرة، وهي المرأة التي كشفت عن وجهها.
(٢٨٢) مآزر: جمع إزار، وهو الملحفة.
(٢٨٣) الأسود: هو الحجر الأسود الذي بمكة.
(٢٨٤) الحطيم: جدار حجر الكعبة، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام.
(٢٨٥) البضُّ: الرخص الجسد.
(٢٨٦) وضا: وضاء.
(٢٨٧) ريم: غزال.
(٢٨٨) أمضى: أحدُّ.
(٢٨٩) زلفى: تقربًا.
(٢٩٠) يترضى: يطلب الرضا.
(٢٩١) قضا: حصى.
(٢٩٢) محضًا: خالصًا.
(٢٩٣) تقضى: تفنى.
(٢٩٤) فضًا: مفضوضًا.
(٢٩٥) جرضى: مغمومين.
(٢٩٦) حضوضى: جبل في البحر.
(٢٩٧) مضٍّ: موجع.
(٢٩٨) ينضى: يُسَلّ
(٢٩٩) معن: هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب.
(٣٠٠) ظهيرًا: نصيرًا.
(٣٠١) حاشه، من حاش الصيد: أحرجه في كل مكان.
(٣٠٢) غيضًا، من غاض الماء غيضًا: نقص أو غار فذهب في الأرض.
(٣٠٣) نقضًا: ما انتقض من البناء، أي انتكث.

(٣٠٤) الخطاب للنفس: خاطبها كما يخاطبها فيلسوف، علم بدائعها، وبحث عن حقيقتها؛ فرآها تزيد غموضًا كلَّما زاد بحثًا، مع أنها أقرب ما يكون إليه.

(٣٠٥) الضاحيات: الطاهرات البارزات، وصف بها محاسن النفس، وقال: إنها مع ذلك، مطلعها بعيد وجلالها مستور.

(٣٠٦) «من» زائدة، والمعنى: أن النفس اتَّخذها الجمال مظهرًا لعزه، وموضعًا لسره.

(٣٠٧) الصناع: الماهر في الصناعة.

(٣٠٨) نصب اسم الجلالة على الاستغاثة، والكلام في الأبيات الخمسة بعده وصف لما عاناه الأحبار والفلاسفة من البحث عن حقيقة النفس، فشق طريقهم كلَّما زادوا بحثًا، أمَّا الجاهلون ففي راحة سائرون في المهيع، أي الطريق الواسع البين.

(٣٠٩) الضمير في ذلك يرجع إلى النفس، أراد بها الجوهر الإلهي.

(٣١٠) حلَّ الحبا: نهض، والمقصود هنا تقديس الروح العالي الذي نفخ الله في آدم (عليه السلام).

(٣١١) أراد بيوسف: يوسف الصديق، ومعنى تكرُّم النبوَّة فيه أنها سمت بنفسه وبلغت بها الكمال لَّما عفَّ، وأراد بالمرضع: السيد المسيح (عليه السلام).

(٣١٢) أراد بالبابليِّ: السحر إشارة إلى قوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا».

(٣١٣) إشارة إلى العليقة الملتهبة.

(٣١٤) فاعل طويت يعود على النبوة. والخلال: الصفات والمزايا التي يبقى أثرها كما يبقى أثر الخمر بعدما تزول.

(٣١٥) التبع: يعسوب النحل الأعظم، وهو ما يسمُّونه الملكة.

(٣١٦) الدُّمى: الصور، أو التماثيل الجميلة، أشار بما في الأبيات الثلاثة المتقدِّمة إلى تفاوت النفوس في الناس.

(٣١٧) أي لولا كبار النفوس لما ارتقى العالم وصلحت الأنام، والمقصود من الكمال هنا: بلوغ النفس الكمال في النبوَّة، أو ما يقرب من الكمال في بعض العبقريين من الناس، والرئيس منهم.

(٣١٨) فاعل ضجت عائد إلى المنازل أي الأجسام، ومعالم ومعاهد منصوبتان على التمييز. أراد بالمعالم: ذوي النفوس الصغيرة، وبالمعاهد: ذوي النفوس الكبيرة.

(٣١٩) المرفع: الكرنفال الذي يلبس الناس فيه ثيابًا مزوَّقة.

(٣٢٠) فزعت: تأهبت أو استجارت، والضمير عائد إلى أجسام. وأراد بالقيامة: ساعة الموت.

(٣٢١) البلم: صغار السمك.

(٣٢٢) المزنة: هي هنا السحابة الممطرة.

(٣٢٣) تفهَّق: فهق الإناء امتلأ حتى صار يتصبب.

(٣٢٤) النول: خشبة الحائك ينسج عليها.

(٣٢٥) يخلق: يبلى.

(٣٢٦) الإستبرق: الحرير.

(٣٢٧) مترع: ممتلئ.

(٣٢٨) الشُّرق: الغرقى.

(٣٢٩) تنفق: يفنى ويقلُّ.

(٣٣٠) العسجد: الذهب.

(٣٣١) الراووق: المصفَّاة.

(٣٣٢) الحمأة: الطين الأسود.

(٣٣٣) تتروَّق، من روق الشراب: صفَّاه.

(٣٣٤) تخلق: أي تكون خليقة وجديرة.

(٣٣٥) السنن: النهج.

(٣٣٦) الموسق: اسم فاعل من أوسق، والهمزة فيه للتعدية، وثلاثيه وسق من وسقت الشاة ونحوها بمعنى لقحت، أو من وسقت الشيء إذا حملته.

(٣٣٧) ينفق، من نفق الرجل والدابة: ماتا، يعني ما مات من الإنسان، وما هلك من الحيوان.

(٣٣٨) استذرى بفلان: التجأ إليه، واستذرى بالشجرة: أي استظلَّ بها.

(٣٣٩) المنهل: المورد.

(٣٤٠) المعرَّق: العريق في النسب.

(٣٤١) الجوسق: القصر.

(٣٤٢) ينتق: يزعزع.

(٣٤٣) المحلة: المنزل.

(٣٤٤) الأزواد: جمع زاد وهو الطعام يُتَّخذ للسفر.
(٣٤٥) المطبق: السجن تحت الأرض.
(٣٤٦) تتنسق: تنتظم.
(٣٤٧) منطق: مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه.
(٣٤٨) تعتق: من عتق الشيء؛ قدم.
(٣٤٩) الدُّمى: جمع دمية، وهي الصورة المُنقَّشة.
(٣٥٠) مسترديات: لابسات.
(٣٥١) تتفنق: تتنعم.
(٣٥٢) عطلت: من عطلت المرأة لم يكن عليها حلي.
(٣٥٣) العبير: أخلاط من الطيب.
(٣٥٤) يلبق: يليق.
(٣٥٥) الريق من كل شيء: أوله وأصله.
(٣٥٦) الغرانيق: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل، ويقصد التماثيل.
(٣٥٧) تحسَّر: من حسر البصر؛ كلَّ لطول مدى البصر.
(٣٥٨) جلق: دمشق.
(٣٥٩) مفتق: من فتق قرن الشمس أصاب فتقا من السحاب فبدا منه.
(٣٦٠) تعنو: تخضع وتذل.
(٣٦١) الفيلق: الكتيبة العظيمة.
(٣٦٢) النمرق: الوسادة الصغيرة.
(٣٦٣) موبق: مهلك.
(٣٦٤) تصدق: من أصدق الرجل المرأة أى سمَّى لها صداقها.
(٣٦٥) الحول: السنة.
(٣٦٦) يلبُّ: من لبَّ أي صار لبيبًا.
(٣٦٧) الترب: مَنْ وُلِدَ معك.
(٣٦٨) يحدو: من حدا الإبل؛ ساقها وغنى لها.
(٣٦٩) الصَّلت: السيف الصقيل الماضي.
(٣٧٠) انثال: أي انصب.
(٣٧١) أزليَّة: الأزل: القدم.

(٣٧٢) تغسق: تظلم.

(٣٧٣) يبثق: من بثق السيل موضع كذا: خرقه وشقَّه.

(٣٧٤) تمحَّق: من محقه أهلكه.

(٣٧٥) الذرُّ: الهباء المنبعث في الهواء، الواحدة ذرَّة.

(٣٧٦) الخرنق: الفتى من الأرنب.

(٣٧٧) الوضح: الغرَّة، والوضح: التحجيل في القوائم.

(٣٧٨) العسجد: الذهب.

(٣٧٩) الزئبق: نبات له زهر طيب الرائحة.

(٣٨٠) الندى: الندى.

(٣٨١) استحجبوا الكُهَّان: أي ولُّوهم الحجابة، وهي خطة الحاجب أي البواب.

(٣٨٢) العتيق: الكعبة.

(٣٨٣) الأينق: جمع ناقة.

(٣٨٤) الهدى: ما يهدى إلى الحرم من النعم، وقيل هو جمع الهدى، واحدتها هدية.

(٣٨٥) محدَّج. من حدج الأحمال: شدَّها ووسقها.

(٣٨٦) رقط: واحدتها رقطاء وهي الحيَّة.

(٣٨٧) المرفق: المتكأ.

(٣٨٨) الرخُّ: قطعة شطرنج يلعب بها.

(٣٨٩) البيدق: قطعة شطرنج يلعب بها.

(٣٩٠) الديسق: بياض السَّراب وترقرقه، وهو اسم للسَّراب أيضًا، ويطلق كذلك على كل شيء ينير ويضيء.

(٣٩١) المملق: الفقير.

(٣٩٢) الفيهق. الواسع من كل شيء.

(٣٩٣) مخلق: متطيب.

(٣٩٤) منبق: مسطر.

(٣٩٥) يشهق، من شهق الجبل: ارتفع.

(٣٩٦) تفتَّق: من فتق المسك بغيره استخرج رائحته بشيء يدخله عليه.

(٣٩٧) الأقانيم: جمع أقنوم وهو الأصل والشخص.

(٣٩٨) تنشق: تشم.
(٣٩٩) يرنق: يخفق ويتحرَّك.
(٤٠٠) يسمق: سمق النبات أي طال وعلا.
(٤٠١) الغيدق: من غيدق المطر؛ كثر.
(٤٠٢) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٤٠٣) الرزدق: الصفُّ من الناس.
(٤٠٤) أحلاس خيل: أي ملازمون ظهورها.
(٤٠٥) مورق: هو هنا بمعنى غانم.
(٤٠٦) يفرق: يحذر.
(٤٠٧) الشطب: السعف الأخضر الرَّطب من جريد النخل.
(٤٠٨) معصب: متوَّج.
(٤٠٩) المرهق: مَنْ يغشاه الناس والأضياف كثيرًا.
(٤١٠) المهرق. الصحيفة.
(٤١١) لباتهن: واحدتها لبة وهي النحر.
(٤١٢) تحلق: تجفُّ، من حلقت الإبل إذا ارتفع لبنها وجفَّ.
(٤١٣) بردى: نهر دمشق.
(٤١٤) الرزء: المصيبة.
(٤١٥) خفق: خفوق.
(٤١٦) ائتلاق: من ائتلق لمع وأضاء.
(٤١٧) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.
(٤١٨) لهوات: جمع لها، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
(٤١٩) لسن: من لسن الرجل فصح، أو تناهى في الفصاحة والبلاغة.
(٤٢٠) شدق: جمع أشدق، أي بليغ مفوه كريم.
(٤٢١) اضطرم. من اضطرمت النار: اشتعلت.
(٤٢٢) المدَّق: قصبة الأنف.
(٤٢٣) الشكيمة من اللجام: الحديدة المعترضة في فمِّ الفرس.
(٤٢٤) العتق: الكرم وخلوص الأصل.
(٤٢٥) الولي: المحبُّ والصديق.

(٤٢٦) فصَّل: بيَّن.
(٤٢٧) يجمل، من أجمل الكلام: فصَّله وبيَّنه.
(٤٢٨) الأحداث: المصائب.
(٤٢٩) الظئر: المرضعة.
(٤٣٠) السرح: الشجر العظام.
(٤٣١) الرَّق: جلد رقيق يكتب فيه.
(٤٣٢) منضَّد: منسَّق.
(٤٣٣) الدُّمى: واحدتها دمية، وهي الصورة المنقَّشة.
(٤٣٤) المقاصير: واحدتها مقصورة وهي الحجر.
(٤٣٥) الوهن: نصف الليل، أو بعده بساعة.
(٤٣٦) منهل السماء: أي قطره.
(٤٣٧) تسترق: تستعبد.
(٤٣٨) الرِّق: العبودية.
(٤٣٩) الصيد: ميل العنق وهو يضرب للكبر.
(٤٤٠) العتق: الحريَّة.
(٤٤١) القبيل: جمع قبيلة وهي العشيرة.
(٤٤٢) الذادة: جمع ذائد وهو الحامي.
(٤٤٣) السموأل: هو السموأل بن عادياء اليهودي صاحب القصيدة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنِّس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

(٤٤٤) الصَّفَّاق: الديك.
(٤٤٥) الدِّهاق من الكئوس: الممتلئة.
(٤٤٦) الأجران: مثنَّى أجر أي زكاة الفطر والصوم.
(٤٤٧) الإملاق: من أملق الرجل؛ أنفق ماله حتى افتقر.
(٤٤٨) التِّرياق: دواء مركَّب بدفع السموم.
(٤٤٩) الغيدق: الكريم، الجواد، الواسع الخلق، الكثير العطيَّة.
(٤٥٠) الأرماق: جمع رمق؛ وهو بقية الحياة.

(٤٥١) الأعلاق. جمع علق؛ وهو النفيس من كل شيء.
(٤٥٢) الطائي: أبو تمَّام الطائي الشاعر.
(٤٥٣) أبو إسحاق: المعتصم بالله.
(٤٥٤) الصِّدِّيق: يوسف (عليه السلام).
(٤٥٥) امِّحاء: صعق.
(٤٥٦) الكليم: موسى (عليه السلام).
(٤٥٧) البتول: مريم العذراء عليها السلام.
(٤٥٨) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٤٥٩) الأقاحي: جمع أقحوانة وهو نباتٌ له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.
(٤٦٠) الشقيق: زهر.
(٤٦١) الطلى: الخمر.
(٤٦٢) مسبلة: من أسبل الدمع، أي أرسله.
(٤٦٣) الشئون: الدموع.
(٤٦٤) قريحة: أي ذات قرحة، وهي الجرح.
(٤٦٥) إنسانها: إنسان العين، وهو المثال يرى في سوادها.
(٤٦٦) كراها: نومها.
(٤٦٧) غياهب: جمع غيهب؛ وهو الظلمة.
(٤٦٨) أخوك: يعني البدر.
(٤٦٩) الإفرند: جوهر السيف ووشيه.
(٤٧٠) سنابكها: جمع سنبك، وهو طرف الحافز.
(٤٧١) أعرافها: الواحد عرف، وهو شعر عنق الفرس.
(٤٧٢) شكيمها: جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس.
(٤٧٣) المعلوك، من علك الفرس اللجام: لاكه وحرَّكه في فمه.
(٤٧٤) المشكوك: أي المشدود.
(٤٧٥) أي إنها انتهكت المعاهدات.
(٤٧٦) الدُّمى: جمع دمية. وهي الصورة المنقَّشة.
(٤٧٧) يعني الحرب.

(٤٧٨) ماء معروك: أي مزدحم عليه.
(٤٧٩) المسوك: المرتفع.
(٤٨٠) الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضْرَبُ بها المثل.
(٤٨١) النوك: جمع أنوك، وهو الأحمق، وقيل: العاجز الجاهل.
(٤٨٢) النول: خشبة الحائك يُنْسَجَ عليها.
(٤٨٣) محوك: من حاك أي نسج.
(٤٨٤) يتنزى: يثب.
(٤٨٥) الريل: اللعاب. من رال الصبى ريلاً؛ أي جرى لعابه.
(٤٨٦) العتيق: الحرم المكي.
(٤٨٧) هو قيس بن الملوَّح المعروف بمجنون بني عامر، وله أحاديث يرجع إليها في الأغاني، ومنها حديث الغزالة الآنفة.
(٤٨٨) البسالة: الشجاعة.
(٤٨٩) الغزالة: الشمس.
(٤٩٠) الأشراط، المفرد شرط: العلامة.
(٤٩١) أي ارتحلوا.
(٤٩٢) الجام: الكأس.
(٤٩٣) النقض: اسم البناء المنقوض.
(٤٩٤) الحطامة: ما تحطَّم من الشيء المحطوم، أي ما تكسَّر منه.
(٤٩٥) مراجل: جمع مرجل، وهو القدر من الحجارة والنحاس.
(٤٩٦) أي ارتحلوا وتفرَّقوا.
(٤٩٧) اللامة: الدرع.
(٤٩٨) الحميم: الماء الحار.
(٤٩٩) جنح الليل: طائفة منه.
(٥٠٠) هي زرقاء اليمامة المشهورة بقوَّة البصر.
(٥٠١) أجاز الموضع: سلكه.
(٥٠٢) نزوات الجرح: سوراته ونزفاته.
(٥٠٣) الحجامة: الفصد.
(٥٠٤) أسامة: الأسد

(٥٠٥) العاصيين: آدم وحواء.

(٥٠٦) سام: من سام فلانًا الأمر: كلَّفه إياه.

(٥٠٧) الندب: الخفيف في الحاجة، الظريف، النجيب؛ لأنه إذا ندب إليها خفَّ لقضائها.

(٥٠٨) الرغام: التراب.

(٥٠٩) زفَّ الطائر: رمى بنفسه أو بسط جناحيه.

(٥١٠) شالت الناقة بذنبها: رفعته.

(٥١١) أعقبا: جمع عقاب، وهو طائر من الجوارح.

(٥١٢) الدأماء: البحر.

(٥١٣) القطاما: الصقر.

(٥١٤) زحل: كوكب من الخنس، سُمِّي به لبعده وتخنيسه.

(٥١٥) نشورًا، من نشر الله الموتى: أحياهم.

(٥١٦) الجؤجؤ من الطائر: الصدر.

(٥١٧) الخوافي: رشات إذا ضمَّ الطائر جناحية خفيت، وقيل: هي الأربع اللواتي بعد المناكب.

(٥١٨) الحول: القوَّة والقدرة على التصرُّف.

(٥١٩) القدامى: جمع قادمة، وهي عشر ريشات في مقدم الجناح.

(٥٢٠) الجِهَام: السَّحاب الذي لا ماء فيه.

(٥٢١) السرب: القطيع من الظباء والنساء وغيرها.

(٥٢٢) السنام: حدبة في ظهر البعير.

(٥٢٣) وئدت: من وأد ابنته؛ دفنها في القبر وهي حيَّة.

(٥٢٤) امحى الشيء: ذهب أثره.

(٥٢٥) الشذا: قوَّة ذكاء الرائحة.

(٥٢٦) الضرم: الاشتعال.

(٥٢٧) أي كخيال الخمر إذا ألمَّ بالتائب عنها.

(٥٢٨) رشا: الرشا ولد الظبية الذي قد تحرَّك ومشى.

(٥٢٩) الكم: غطاء النور.

(٥٣٠) اليتم: مصدر؛ يقال: درَّة يتيمة أي ثمينة لا نظيرلها.

(٥٣١) ادَّعم: ارتكز.
(٥٣٢) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشبَّه بها البنان المخضوب.
(٥٣٣) الطلى: الخمر.
(٥٣٤) الكابر: الكبير، والكابر: الرفيع الشأن والشرف.
(٥٣٥) ذكاء: الشمس.
(٥٣٦) انسربت: يقال انسرب الظبي إذا دخل في سربه.
(٥٣٧) من أمم: أي من قريب.
(٥٣٨) بهم: واحدها بهمة وهو الشجاع.
(٥٣٩) تني: تتأنى.
(٥٤٠) الرسم: حسن المشي.
(٥٤١) احترم الشيء: معه.
(٥٤٢) الملأين: العرب والعجم.
(٥٤٣) الدَّن: باطية الخمر.
(٥٤٤) الجفون: الأغماد.
(٥٤٥) استسرَّ: توارى.
(٥٤٦) بدري: نسبة إلى بدر، وفي الأثر أن أهل بدر مغفورة لهم هفواتهم.
(٥٤٧) الحجال: جمع حجلة وهو ستر العروس في جوف البيت.
(٥٤٨) جون: سود.
(٥٤٩) ممرَّدة: مطولة.
(٥٥٠) رع وآمون: معبودان مصريان قديمان.
(٥٥١) القيون: الصُّنَّاع.
(٥٥٢) نواوس: توابيت.
(٥٥٣) الفتين: المحرق.
(٥٥٤) الرَّقين: الرَّقيم وهو الكتاب.
(٥٥٥) الزون: معرض الأصنام.
(٥٥٦) العهيد: القديم.
(٥٥٧) يطردون: يزاولون الصيد.
(٥٥٨) آل شمس: الفراعنة.

(٥٥٩) الخديو محمد توفيق الأول.
(٥٦٠) صدفت: أعرضت.
(٥٦١) الجلال: جمع جلٍّ وهو غطاء الفرس.
(٥٦٢) جلق: دمشق.
(٥٦٣) الأديم: الأرض.
(٥٦٤) الرَّاد: الراديوم.
(٥٦٥) ما دانوا: ما غلبوا من الأمم وقهروا.
(٥٦٦) الزَّهراء: قصر خلفاء بني أُميَّة بالأندلس.
(٥٦٧) الفيحاء: دمشق.
(٥٦٨) الرَّغام: التراب.
(٥٦٩) بغدان: إحدى لغات كثيرة في بغداد.
(٥٧٠) بردى: نهر دمشق.
(٥٧١) العقيان: الذَّهب الخالص.
(٥٧٢) دمر: ضاحية دمشق.
(٥٧٣) الحور: شجر عظيم يشبه السرو.
(٥٧٤) أفوافه: جمع فوف بالضم، نوع من الثياب؛ والمراد هنا الزَّهر.
(٥٧٥) ابتردت: اغتسلت.
(٥٧٦) البلال: أي البلل.
(٥٧٧) أردان: جمع ردن؛ وهو الكم.
(٥٧٨) طي وشيبان: قبيلتا حاتم ومعن.
(٥٧٩) جحاجح: جمع جحجح وهو السيد المسارع إلى المكارم.
(٥٨٠) غسَّان: أبو قبيلة باليمن، منهم ملوك غسَّان وكانوا ملوكًا للشام.
(٥٨١) الأسرة: الوجوه.
(٥٨٢) الصيد: رفع الرأس كبرًا.
(٥٨٣) عبد شمس: يعني بني أمية.
(٥٨٤) جنَّان: بستاني.
(٥٨٥) الصنو: الأخ.
(٥٨٦) الطلح: نوعٌ من الشجر، سُمِّي به وادٍ بظاهر إشبيليا كان ابن عبَّاد شديد الولع به.

(٥٨٧) عوادينا: عوادي الدَّهر النازلة بنا؛ وهي مصائبه.

(٥٨٨) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.

(٥٨٩) الفنن: الغصن المستقيم.

(٥٩٠) الأساة: الأطباء.

(٥٩١) ادِّكارًا: تذكرًا.

(٥٩٢) أفانين: أجناس.

(٥٩٣) النطس: الأطباء الحُذَّاق.

(٥٩٤) الأيك. الشجر الكثيف الملتَّف.

(٥٩٥) الرفيف: الخصب.

(٥٩٦) يقصد بهم ملوك الأندلس.

(٥٩٧) منبهة: أي شرف ورفعة.

(٥٩٨) بابل ودارينا: مدينتان مشهورتان بجودة الخمر.

(٥٩٩) خيريًا ونسرينًا: نوعان من الزهر.

(٦٠٠) المقة: المحبَّة.

(٦٠١) الرواقي: واحدها راقية، وهي التي ترقي الصبي إذا كان به سحر.

(٦٠٢) الجدود: الحظوظ.

(٦٠٣) الروح: الرحمة والرزق.

(٦٠٤) شبَّه مصر — حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وخرج إلى المنفى — بأم موسى (عليه السلام) حين ألقته في اليمِّ صبيًا وسألت الله أن يكفله.

(٦٠٥) الشفوف: واحدها شفٌّ: الثوب الرقيق. واللازورد: حجر صافٍ شفاف أزرق. والأفواف: يريد بها الخمائل.

(٦٠٦) الصياصي: الحصون وكل من امتنع به.

(٦٠٧) يريد به الليل الذي ملؤه الهمِّ والأرق أشار إلى قول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب ... وليل أقاسية بطيء الكواكب

(٦٠٨) الرفة: النضرة.

(٦٠٩) الإعذار: طعامٌ يتخذ لسرور حادث.

(٦١٠) الغين: واحدها أغين: الخضر.

(٦١١) المجاج: ما تمجُّه الأرض من شجرٍ وغيره؛ أي ما تخرجه.
(٦١٢) جمع إيوان.
(٦١٣) الأساطين: واحدتها أسطوانة، وهي السارية.
(٦١٤) الغسلين: الصديد.
(٦١٥) إشارة إلى المرحومة والدة الناظم.
(٦١٦) الخيال: السينما توغراف.
(٦١٧) يستذري: يستظل.
(٦١٨) الذرى بالفتح: الفناء.
(٦١٩) الدبابة: يعني بها الغواصة.
(٦٢٠) يقال: بين العدو إذا أوقع به ليلاً من دون أن يعلم.
(٦٢١) زُبانا العقرب: قرناها.
(٦٢٢) جباة: جمع جابي وهو المحصل.
(٦٢٣) يريد به الصدر الأعظم، وهو كبير الوزراء.

باب النسيب

خدَعُوها

خـدعـوهـا بـقَـولـهـم: حـسـنـاءُ   والـغـوانـي يَـغُـرُّهـن الـثَّـنـاءُ
أتُـراهـا تـنـاسـت اسـمِـيَ لـمَّـا   كـثُـرت فـي غـرامِـهـا الأسـمـاءُ؟
إن رأتني تميل عني، كأن لَّم   تـكُ بـيـنـي وبـيـنـهـا أشـيـاءُ!
نـظـرةٌ، فـابـتـسـامـةٌ، فـسـلامٌ   فـكـلامٌ، فـمـوعـدٌ، فـلـقـاءُ
يومَ كُنا — ولا تسلْ: كيف كُنَّا؟ —   نـتـهـادَى مـن الـهـوى مـا نـشـاءُ
وعـلـيـنـا مـن الـعَـفـافِ رقـيـبٌ   تَـعِـبَـتْ فـي مِـراسـه الأهـواءُ
جاذبتني ثوبي العَصِيَّ وقالت: أنـتـمُ الـنـاسُ أيُّـهـا الـشـعـراءُ
فاتقوا اللهَ في قلوبِ العذارَى   فـالـعـذارى قـلـوبُـهـنّ هـواءُ

أخذ البيت الرابع فزاد قوله:

نظرةٌ، فابتسامةٌ، فسلامٌ   فكلاٌ، فموعدٌ، فلقاءُ
فـفراقٌ يكون فيه دواءٌ   أو فراقٌ يكون منه الدَّاءُ

وقال:

لا السُّهْدُ يَطويه ولا الإغضاءُ   لَـيْـلٌ عِـدادُ نُـجُـومِـه رُقَـبـاءُ
داجِي عُبابِ الجُنْحِ، فَوْضَى فُلْكُه   مـا لـلـهـمـوم ولا لـهـا إرْسـاءُ

أغزالة الإشراق، أنتِ من الدُّجى ومن السُّهادِ إذا طلعْتِ شِفاءُ
رفقًا بجفْنٍ كلَّما أبْكَيْتِهِ سال العَقيقُ[١] به، وقام الماءُ
ما مَدَّ هُدْبَيْهِ ليصطادَ الكرى إلاَّ وطيفُكِ في الكرى العَنْقَاءُ
مَنْ لي بهنَّ لياليًا نَهِل[٢] الصَّبا مما أفَضْنَ وَعَلَّت[٣] الأهواءُ؟
ألَّفْنَ أوطاري، فعَيْشِيَ والمُنَى في ظلَّهنَّ الكأسُ والصَّهباءُ

وقال:

سُوَيْجعَ النيلِ، رِفْقًا بالسُّوَيْداءِ فما تُطيق أنينَ المفردِ النائي[٤]
لله وادٍ كما يَهْوَى الهوى عَجَبٌ تركتَ كلَّ خَليٍّ فيه ذا داء
وأنتَ في الأسْرِ تشكو ما تُكابده لصخرةٍ من بني الأعجام صَمَّاء
اللهَ في فَنَنٍ تلهو الزمانَ به إنما هو مشدودٌ بأحشائي
وفي جوانحك الَّلاتي سمحْت بها فلو ترفَّقْت لم تسمح بأعضائي
ماذا تريد بذي الأنَّاتِ في سهري؟ هذي جفونِيَ تَسْقِي عهدَ إغفائي
حَسْبُ المضاجِع مني ما تعالج من جَنْبي، ومن كَبدٍ في الجَنْب حَرَّاء
أُمْسِي وأُصْبِحُ مِنْ نَجْواك في كَلَفٍ حتى لَيَعْشَقُ نُطقي فيك إصغائي
الليلُ يُنهضني من حيث يُقعِدني والنَّجمُ يَملأُ لي، والفكرُ صَهبائي
آتي الكواكبَ لم أنقل لها قَدَمًا لا ينقضي سهري فيها وإسرائي
وألحظُ الأرضَ، أطْوِي ما يكون إلى ما كان مِنْ آدمٍ فيها وحَوّاء
مُؤيَّدًا بكِ في حِلِّي ومُرْتَحَلِي وما هما غيرُ إصباحي وإمسائي
تُوحِي إليَّ الذي تُوحِي، وتسمع لي وفي سماعك بعد الوحي إغرائي

قال أبو نواس:

يا ويْحَ أهْلِيَ، أبْلَى بينَ أعيُنِهم على الفراشِ، ولا يَدْرُون ما دائي

وطُلِبَ إليه تشطير هذا البيت فقال:

يا ويحَ أهليَ، أبلَى بين أعينهم ويَدْرُجُ الموتُ في جسمي وأعضائي

وينظرون لجنْبٍ لا هدوءَ له على الفراشِ، ولا يدرون ما دائي

وقال:

منكَ يا هاجرُ دائي وبكفَّيْكَ دَوائي
يا مُنَى روحي، ودنيا يَ، وسُؤْلي، ورَجائي
أنتِ إن شئتَ نعيمي وإذا شئتَ شقائي
ليس مِنْ عُمْرِيَ يومٌ لا ترى فيه لِقائي
وحياتي في التَّداني ومماتي في التَّنائي
نَمْ على نسيان سُهدي فيك، واضحكْ من بُكائي
كلُّ ما ترضاه يا مَوْ لايَ يرضاه وَلائي
وكما تعلم حُبَّي وكما تدري وَفائي
فيك يا راحة روحي طال بالواشي عَنائي
وتوارَيْتُ بدمعي عن عيون الرُّقَباءِ
أنا أهواكَ، ولا أرْ ضَىَ الهوى مِن شُرَكائي
غِرتُ، حتى لَترى أر ضِيَ غَيْرَى من سمائي
ليتني كنتُ رِداءً لك، أو كنت رِدائي
ليتني ماؤك في الغُـ ـلَّةِ، أو لَيْتَكَ مائي

وقال:

لقد لامني يا هندُ في الحب لائمٌ مُحِبٌّ إذا عُدَّ الصَّحابُ حبيبُ
فما هو بالواشي على مذهب الهوى ولا هو في شَرع الوداد مُريب
وصفتُ له منْ أنتِ، ثم جرى لنا حديثٌ يَهُمُّ العاشقين عجيب
وقلت له: صبرًا، فكلٌّ أخِي هَوى على يَدِ مَنْ يَهْوى غدًا سيتوب

وقال:

على قدرِ الهوى يأْتي العِتابُ ومَنْ عاتبتُ يَفْدِيه الصَّحابُ

أَلومُ مُعذِّبي، فألومُ نفسي ... فأُغضِبها ويُرضيها العذاب
ولو أني استطعتُ لتبتُ عنه ... ولكنْ كيف عن روحي المتاب؟
ولي قلب بأن يهْوَى يُجازَى ... ومالِكُه بأن يَجْنِي يُثاب
ولو وُجِد العِقابُ فعلتُ، لكن ... نِفارُ الظَّبْي ليس له عِقاب
يلوم اللائمون وما رأوْه ... وقِدْمًا ضاع في الناس الصَّواب
صَحَوْتُ، فأنكر السُّلْوان قلبي ... عليَّ، وراجع الطَّرَب الشباب
كأنَّ يَدَ الغرامِ زِمامُ قلبي ... فليس عليه دون هَوًى حِجاب
كأنَّ روايةَ الأشواقِ عَوْدٌ ... على بَدءٍ وما كمل الكتاب
كأني والهوى أَخَوا مُدامٍ ... لنا عهدٌ بها، ولنا اصطحاب
إذا ما اعْتَضْتُ عن عشقٍ بعشقٍ ... أُعِيدَ العهدُ، وامتد الشَّراب

وقال:

أريدُ سُلوَّكم، والقلبُ يأْبَى ... وأعتِبُكم، وملءُ النفس عُتْبَى
وأهجركم، فيهجرني رُقادي ... ويُضْوِيني الظلامُ أسىً وكرْبا[5]
وأذكركم برؤيةِ كلِّ حُسْنٍ ... فيصبو ناظري، والقلبُ أصْبَى[6]
وأشكو من عذابي في هواكم ... وأجزيكم عن التعذيبِ حُبًا
وأعلمُ أن دَأْبكُمُ جفَائي ... فما بالي جعلتُ الحبَّ دأبا؟
ورُبَّ مُعاتَبٍ كالعيش، يُشكى ... وملءُ النفس منه هَوًى وعُتْبى
أتَجزيني عن الزُّلْفَى نِفارًا؟ ... عَتَبْتكَ بالهوى، وكفاك عَتبا
فكلُّ ملاحةٍ في الناس ذنبٌ ... إذا عُدّ النِّفارُ عليكَ ذنبا
أخذتُ هواك عن عيني وقلبي ... فعينى قد دَعَتْ، والقلبُ لَبى
وأنتَ من المحاسن في مِثال ... فديتكَ قالَبًا فيه وقَلْبا
أحِبُّكَ حين تثنى الجِيدَ تِيهًا ... وأخشى أن يصيرَ التِّيهُ دَأْبا
وقالوا: في البديلِ رضًا ورَوْحٌ ... لقد رُمْتُ البديلَ، فرمتُ صَعْبا
وراجعتُ الرشادَ عَساى أسلو ... فما بالي مع السُّلوانِ أصْبى؟
إذا ما الكأسُ لم تُذْهِبْ همومى ... فقد تَبَّتْ يدُ الساقى، وتَبّا
على أني أعَفُّ من احتساها ... وأكرمُ مِنْ عَذارَى الدير شربا

ولـي نـفـسٌ أرَوِّيـهـا فـتـزكـو　　　كـزهـر الـورد نَـدَّوْهُ فـهـبَّـا

وقال:

رَوّعـوه، فـتَـولَّـى مُـغْـضَـبـا　　　أعلِمتم كيف ترتاعُ الظَّبا؟
خُـلِـقـت لاهِـيـةً نـاعـمـة　　　رُبَّـمـا رَوَّعـهـا مرُّ الـصَّـبـا
لـي حبيبٌ كلَّما قيل لـه　　　صَدَّقَ القولَ، وزكَّى الرَّيَبا
كذب العُذَّالُ فيما زعموا　　　أَمَلِى في فاتِنى ما كذبا
لـو رَأوْنـا والـهـوى ثـالـثُـنـا　　　والدُّجى يُرْخِى علينا الحُجُبا
في جِوار الليل، في ذمَّتِه　　　نذكر الصبحَ بأنَّ لا يقربا
مِلءُ بُرَدْينا عفافٌ وهوى　　　حفظ الحسنَ، وصنتُ الأدبا
يا غزالاً أهِلَ[٧] القلبُ به　　　فلبىَ السَّفْحُ وأحْنى ملْعبا
لك ما أحببتَ مِنْ حَبَّتِه　　　مَنهلاً عَذبًان ومَرْعىً طَيبًا
هو عندَ المالكِ الأوْلَى به　　　كَيف أشكو أنه قد سُلِبا؟
إن رأى أبَقى على مملوكه　　　أو رأى أتلفه، واحتسبا
لكّ قدٌّ سجدَ البانُ له　　　وتمنَّتْ لو أقلَّتْه الرُّبى
ولِحاظٌ، من معاني سحره　　　جمع الجفنُ سهامًا وظُبى[٨]
كان عن هذا لقلبى غُنَيَةٌ　　　ما لقلبي والهوى بعد الصَّبا؟
فِطرتي لا آخُذ القلبَ بها　　　خُلِقَ الشاعِرُ سَمحًا طَرِبا
لو جَلَوْا حُسْنَكَ أو غَنَّوْا به　　　«للَبيدٍ» في الثمانينَ صبَا[٩]
ايها النفسُ، تجدّين سُدًى　　　هل رأيتِ العيشَ إلا لَعِبا؟
جَرَّبى الدنيا تَهُنْ عندك، ما　　　أهونَ الدنيا على من جرّبا!!
نلتِ فيما نِلْتِ من مَظهرها　　　ومُنِحْتِ الخلدَ ذكْراً، ونَبَا

وقال والمعنى لشاعر تركي:

ما تلكَ أهدابى تَنَظَّـ　　　ـمَ بينها الدمعُ السَّكوبْ
بل تلك سُبحةُ لؤلؤٍ　　　تُحْصَى عليكَ بها الذنُوب

وقال:

لا والقوامِ الَّذِى، والأعينِ اللاَّتي ... ما خُنْتُ رَبَّ القَنا والمَشْرَفيَّاتِ
ولا سَلوْتُ، ولم أهْمُمْ، ولا خطرَتْ ... بالبالِ سَلْوَاكِ في ماضٍ ولا آت
وخاتَمُ الملكِ للحاجات مُطَّلَبٌ ... وثَغْرُكِ المتمنَّى كلُّ حاجاتي

وقال:

لَحظها لحظها، رُوَيْدًا رُويْدا ... كم إلى كم تَكيد للروح كيْدا؟
كُفَّ أو لا تكُفَّ، إنّ بجبنبى ... لَسِهامًا أرْسَلْتَها لن تُرَدّا
تَصِلُ الضربَ ما أرِى لك حدّا ... فاتّقِ اللهَ، والتزِمْ لك حدّا
أو فصُغ لي من الحجارة قلبا ... ثم صُغ لي من الحدائدِ كِبْدا
واكفِ جَفْنَيَّ دافقًا ليس يْرقا ... واكْفِ جَنْبَىَّ خافِقا ليس يَهْدا
فمن الغَبْنِ أن يصير وعيدا ... ما قطعتُ الزمانَ أرجوه وعْدا

وقال:

الرُّشْدُ أجملُ سِيرة يا أحمدُ ... ودُّ الغواني مِنْ شَبابِكَ أبعدُ
قد كان فيكَ لِوُدِّهنّ بقِيَّةٌ ... واليومَ أوْشَكَتِ البقيةُ تَنْفَدُ
«هاروتُ» شِعْرِكَ بعدَ «ماروتِ» الصبا ... أعيا، وفارقه الخليلُ المُسعِد
لما سَمِعْنَكَ قُلْنَ: شعرٌ أمْردٌ ... يا ليت قائلَهُ الطَّرِيرُ الأمرَدُ
ما للَّوَاهى الناعماتِ وشاعرٍ ... جعل النسيبَ حبالةً يتصيَّد؟
ولكَمْ جمعتَ قلوبهن على الهوى ... وخدَعْتَ مَنْ قَطَعَتْ ومَنْ تتودّد
وسَخِرْتَ من واشٍ، وكِدْتَ لعاذِلٍ ... واليومَ تنْشُدُ من يَشِى ويُفَنِّد
أئذا وَجَدْت الغِيدَ ألهاكَ الهوى ... وإذا وجدت الشِّعْرَ عزَّ الأغيد؟

وقال:

إن الوُشاةَ — وإن لم أحْصِهم عَددا — ... تعلموا الكَيْدَ من عينيك والفَنَدَا[١٠]
لا أخْلفَ اللهُ ظنَّى في نواظرِهم ... ماذا رأتْ بَى ممّا يبعثُ الحسدا؟
هم أغضبوكَ فراح القدُّ مُنْثَنيًا ... والجفنُ مُنكسرًا، والخدُّ مُتَّقدا

وصـادفـوا أذُنـا صَـغْـواءَ لـيَّـنـةً ... فأسمعوها الذى لم يُسمِعوا أحدا
لولا احتراسِىَ من عينَيْك قلتُ: ألا ... فأنظر بعينك، هل أبقَيْت لي جَلدَا؟
اللـهَ فـي مُـهْـجَـةٍ أيْـتَـمْـتَ واحـدَهـا ... ظلمًا، وما أتَّخذَتْ غيرَ الهوى ولدا
ورُوحِ صـبٍّ أطـالَ الـحـبُّ غُـرْبَـتَـهـا ... يخافُ إن رَجَعَتْ أن تُنكرَ الجسدَا
دع المواعِيدَ، إنـى مِتُّ مِنْ ظمَإٍ ... ولـلـمـواعـيـدِ مـاءٌ لا يَـبُـلُّ صَـدى
تدعو، ومَنْ لِىَ أن اسعى بلا كَبِدٍ؟ ... فمن مُّعِيرِىَ من هذا الورى كَبدا؟

وقال:

بثثْت شكواى، فذابَ الجليدُ ... وأشفق الصخرُ، ولان الحديدْ
وقلبُك القاسى على حاله ... هيهاتَ! بلْ قَسْوَتُه لي تَزيد

وقال:

يَمُدُّ الدُّجى في لَوْعتى ويَزيدُ ... ويُبْدِئُ بَثِّى في الهوى ويُعيدُ
إذا طال واستعصى فما هي ليلة ... ولـكـنْ لـيـالٍ مـا لـهـنّ عَـدِيـدُ
أرِقْتُ وعادتنى لذكرى أحِبَّتى ... شُـجـونٌ قِـيـامٌ بـالـضـلـوع قُـعـودُ
ومَنْ يَحْمِلِ الأشواقَ يتعب، ويَختلفْ ... عليهِ قديمٌ في الهوى، وجديد
لِقيتَ الذى لم يَلْقَ قلبٌ من الهوى ... لكَ اللهُ يا قلبى، أأَنت حديد؟
ولم أخْلُ من وجدٍ عليك، ورِقَّةٍ ... إذا حلَّ غِيدٌ، أو ترحَّل غِيدُ
ورَوْضٍ كما شاءَ المُحِبُّون، ظِلُّهُ ... لـهـم والأسـرارِ الـغـرامِ مَـدِيـدُ
تُظلِّلُنا والطيرَ في جَنَبَاتِه ... غصونٌ قيامٌ للنسيم سجود
تمِيل إلى مُضْنَى الغرامِ، وتارةً ... يعارضها مُضْنَى الصَّبا فتَحيد
مَشىَ في حوَاشِيها الأصيلُ، فذُهِّبَتْ ... ومارتْ عليها الحلْىُ وهْىَ تَميد
وقامت لديها الطَّيْرُ شتَّى، فآنِسٌ ... بـأهـلٍ، ومَـفـقـودُ الألـيـفِ وَحـيـد
وباكٍ ولا دمعٌ، وشاكٍ ولا جوًى ... وجَذْلانُ يَشْدُو في الرُّبَى ويُشيد
وذى كبْرَةٍ لم يُعْطَ بالدهر خِبْرَةً ... وعُـرْيـان كـاسٍ تَـزْدَهـيـه مُـهـود
غَشِيناهُ والأيَّامُ تَنْدَى شَبِيبَةً ... ويَقْطُر منها العيشُ وهْوَ رَغيد

رَأَتْ شفقًا يَنْعَى النهارَ مُضَرَّجًا ... فقلتُ لها: حتى النهارُ شَهيد
فقالت: وما بالطير؟ قلتُ: سكينةٌ ... فما هي ممّا نبتغي ونَصيد
أَجِلَّ لنا الصيدان: يومَ الهوى مَهًا ... ويومَ تُسَلُّ المُرْهَفاتُ أسودُ
يُحَطَّم رُمْحٌ دوننا وَمُهَنَّدٌ ... ويَقْتُلنا لَحْظٌ، ويأْسِر جِيدُ
ونحكم حتى يقبلَ الدهرُ حُكْمَنا ... ونحن لسلطان الغرام عبيد
أقول لأيام الصّبا كلَّما نأَتْ: ... أما لكَ يا عهدَ الشباب مُعيد؟
وكيف نَأَتْ والأمسُ آخرُ عهدِها؟ ... لأمْسُ كباقي الغابراتِ عهيد[١١]
جَزِعْتُ، فراعتنى من الشَّيْبِ بَسْمةٌ ... كأني على دَرْبِ المشيبِ (لَبيد)
ومن عبَث الدنيا وما عبثت سدًى ... شَبَبْنا وشِبنَا والزَّمانُ وَليدُ

وقال:

هام الفؤادُ بشادنٍ ... أَلِفَ الدَّلالَ على المَدى
أبْكِى، فيضحكُ ثَغْرُه ... والكِمُّ يفتحه النَّدى[١٢]

وقال عن شاعر تركي:

للعاشقين رِضاطَ والْـ ... ـحُسنَى، ولى هَجْرٌ وصدُّ
ذُكِروا، فكانوا سُبْحَةً ... وأنا العلامةُ، لا تُعدّ

وقال:

في مقلتيك مَصارعُ الأكبادِ ... الله في جنْبٍ بغير عِماد
كانت له كَبِدٌ، فحاق بها الهوى ... قُهِرتْ، وقد كانت من الأطواد
وإذا النفوسُ تطَوَّحَتْ في لذَّةٍ ... كانت جنايتُها على الأجسَاد
نَشْوى، وما يُسْقَيْنَ إلاَّ راحتى ... وَسْنَى، وما يَطْعَمْن غير رُقادى
ضَعْفى، وكم أَبْلَيْنَ من ذى قوة ... مَرْضَى، وكم أَفْنَيْنَ من عواد
يا قاتلَ اللهُ العيونَ، فإنها ... في حَرَّ ما نَصْلَى الضعيفُ البادى
قاتلنَ في أجفانهنّ قلوبَنا ... فصَرَعْتَها، وسلِمْنَ بالأغماد

وصبَغْنَ من دمها الخدودَ تَنَصُّلاً   ولِقين أرباب الهوى بسَواد

وقال:

قفْ باللَّواحظِ عندَ حّدَّكْ   يكفيكَ فتنةُ نارِ خَدَّك
واجْعلْ لِغِمْدِكَ هُدْنَةً   إن الحوادثَ مِلءُ غِمْدِك
وصُنِ المحاسن عن قلو   ب لا يَدَيْنِ لها بُجنْدِك
نظرتْ إليكَ عن الفُتو   رِ، وما اتَّقَتْ سَطَواتِ حَدَّك
أعلى رِواياتِ القَنَا   ما كان نِسْبتُه لقّدَّك
نال العواذلُ جهدَهم   وسمعْتَ منهم فوق جهْدك
نقلو غليكَ مقالةً   ما كان أكْثرُها لعبدك
قسمًا بما حمَّلتنى   فحملتُ من وَجْدِى وصَدَّك
ما بى السهامُ الكُثْر من   جَفْنَيْكَ، لكنْ سهمُ بُعِدك

وقال:

مُضُناك جفاهُ مَرْقَدُه   وبَكاه ورَحَّمَ عُوَّدُهُ
حيرانُ القلبِ مُعّذَّبُهُ   مَقْروحَ الجَفْنِ مُسهَّدُه
أودَى حَرَقًا إلا رَمَقًا   يُبقيه عليك وتُنْفِدهُ
يستهوى الوُرْق تأوُّهه   ويُذيب الصخرَ تَنهُّدهُ
ويُناجى النجمَ ويُتعبه   ويُقيم الليلَ ويُقْعِدهُ
ويُعلِّمُ كلَّ مُطَوَّقَةٍ   شَجَنًا في الدَّوحِ تُرَدَّدهُ
كم مدّ لِطَيْفِكَ من شَرَكٍ   وتأَدَّب لا يتصيَّدهُ
فعساك بغُمْضٍ مُسعِفهُ   ولعلّ خيالَك مُسعِدهُ
الحسنُ، حَلْفْتُ بيُوسُفِهِ   (والسُّورَةِ) إنك مُفَردهُ
قد وَدَّ جمالَك أو قَبَسًا   حوراءُ الخُلْدِ وأمْرَدُه
وتمنَّت كلُّ[١٣] مُقطَّعةٍ   يَدَها لو تُبْعَثُ تَشهدُهُ
جَحَدَتْ عَيْنَاك زَكِيَّ دَمِى   أكذلك خدُّك يَجْحَدُه؟

قد عزَّ شُهودِى إذا رمَتا فأشَرْتُ لخدَّك أشْهِدُه
وهَممتُ بجيدِك أشرَكُه فأبَى، واستكبر أصْيَدُهُ
وهزَزْتُ قَوَامَك أعْطِفهُ فنَبا، وتمنَّع أمْلَدُه
سببٌ لرِضاك أمَهَّده ما بالُ الخصْرِ يُعَقَّدُهُ؟
بينى في الحبَّ وبينَك ما لا يَقدِرُ واشٍ يُفْسِدُه
ما بالُ العاذِلِ يَفتح لي بابَ السُّلْوانِ وأوصِدُه؟
ويقول: تكاد تُجَنُّ به فأقول: وأوشِكُ أعْبُده
مَوْلاىَ ورُوحِى في يَده قد ضَيَّعها سَلِمتْ يَدُه
ناقوسُ القلب يَدُقُّ لهُ وحنايا الأضْلُعِ مَعْبَدُه
قسماً بثنايا لؤلؤها قسم الياقوت مُنَضَّدُه
ورُضابٍ يُوعَدُ كَوْثَرهُ مَقتولُ العِشْقِ ومُشْهَدُه
وبخالٍ كاد يُحَجُّ له لو كان يُقبَّل أسْوَدُه
وقَوامٍ يَرْوِى الغُصْنُ له نسَبًا، والرُّمْحُ يُفَنَّدُه
وبخَصْرٍ أوْهَنَ مِنْ جَلَدِى وعَوَادِى الهجر تُبدَّدُه
ما خُنْتُ هواكَ، ولا خطرَتْ سَلْوَى بالقلب تُبَرَّدُه

وقال:

بالله يا نَسَماتِ النيل في السَّحَرِ
هل عندَكُنَّ عن الأحباب مِنْ خَبر؟
عرفتكُنَّ بعَرْفٍ لا أكَيِّفُه
لا في الغَوَالى، ولا في النَّوْرِ والزَّهَر
من بعض ما مسح الحسنُ الوجوهَ به
بينَ الجبينِ، وبينَ الفَرْقِ والشَّعَر
فهل عَلِقْتُنّ أثناءَ السُّرى أرَجًا
من الغدائرن أو طيبا من الطُّرَر؟
هِجْتُنَّ لى لَوْعةُ في القلبِ كامنةً
والجُرْحُ إنْ تعْتَرِضْه نَسْمَةٌ يَثُر

ذكرتُ مصرَ، ومَنْ أهوى، ومجلسَنا
على الجزيرة بين الجسر والنَّهَر
واليومُ أشْيَبُ، والآفاقُ مُذْهَبة
والشمسُ مُصْفرَةٌ تجرى لمُنْحَدَر
والنخلُ مُتَّشِحٌ بالغيم، تحسبُهُ
هِيفَ العرائِسِ في بيضٍ من الأزُر
وما شجانىَ إلاَّ صوتُ ساقيةٍ
تستقبل الليلَ بين النَّوْح والعَبَر
لم يترك الوجدُ منها غيرَ أضْلُعِها
وغيرَ دَمعٍ كصَوْب الغَيْثِ مُنْهَمِر
بخيلة بِمآقيها، فلو سُئلتْ
جَفْنًا يُعين أخا الأشواقِ لم تُعِر
في ليلة من ليالي الدهر طيبةٍ
محابها كلَّ ذنبٍ غيرِ مُغْتَفَر
عَفَّتْ، وعفَّ الهوى فيها، وفاز بها
عَفُّ الإشارةِ، والألفاظِ، والنظر
بتْنَا، وباتَتْ حَنانًا حولَنا ورِضًا
ثلاثةٌ بين سمْعِ الحبَّ والبصر
لا أكذِبُ اللهَ، كان النجمُ رابعَنا
لو يُذْكرُ النجمُ بعد البدر في خبر
وأنصفَتْنا، فظُلمٌ أن نُجازِيَها
شكوى من الطول، أو شكوى من القِصَر
دَعْ بعدَ رِيقَةِ مَنْ تهوَى ومَنْطِقِه
ما قيل في الكأْس، أو ما قيل في الوتر
ولا تُبالِ بكنزٍ بعد مَبْسِمِه
أغلى اليواقيت ما أعْطِيتَ والدُّرَر
ولم يَرُعْنِىَ إلاَّ قولُ عاذِلةٍ
ما بالُ أحمدَ لم يَحلُمْ ولم يَقِر؟

هـلا تـرفَّـع عـن لّـهْـوٍ وعـن لَـعِـبٍ؟
إن الـضـغـائـرَ تُـغْـرِى الـنـفـسَ بـالـصَّـغَـر
فـقـلـتُ: لـلـمـجـد أشـعـارى مُـسَـيَّـرة
وفي غوانى العُلا — لا في المَها — وَطَرى
مـصـرُ الـعـزيـزةُ، مـا لـي لا أودَّعُـهـا
وداعَ مُـحـتِـفـظٍ بـالـعـهـد مُـدَّكِـرِ
خلَّفْتُ فيها القَطا ما بين ذى زَغَبٍ
وذى تـمـائـمَ لـم يـنـهـض ولـم يَـطِـرِ
أسـلـمـتـهُـم لـعـيـون الـلـه تـحـرسُـهـم
وأسـلـمـونـى لـظـلَّ الـلـه فـي الـبـشـر

وقال:

عَرضوا الأمانَ على الخواطرْ — واستعرضوا السُّمْرَ الخواطر[١٤]
فـوقـفـتُ فـي حَـذَر، ويـأْ — بَى القلبُ إلا أن يُخاطِر
يـا قـلـب شـأْنـك والـهـوى — هذى الغصونُ وأنت طائر
إن الـتـى صـادتْـك تـسـ — ـعى بالقلوب لها النواظر
يا ثغَرها، أمسيتُ كالـ — ـغوَّاص، أحْلُم بالجواهر
يـا لـحـظَـهـا، مَـنْ أمُّـهـا؟ — أو مَنْ أبوها في الجآذِر؟
يـا شـعـرَهـا، لا تَـسْـعَ فـي — هتكى، فشأْنُ الليلِ ساتر
يـا قّـدَّهـا، حـتَّـام تـغـ — ـدو عاذِلاً وتروح جائر؟
وبـأَىَّ ذنـبٍ قـد طـعـنـ — ـتَ حَشاىَ يا قدَّ الكبائر؟

وقال:

في ذى الجفونِ صوارمُ الأقدار — راعـى الـبـريّـةَ يـا رَعـاكِ الـبـارى
وكفى الحياةُ لنا حوادثَ، فافْتِنى — مَـلأَ الـنـجـومِ وعَـالَـمَ الأقـمـار
ما أنتِ في هذى الحلى إنْسِيَّة — إنْ أنتِ إلا الشمسُ في الأنوار

زهراء بالأفُق الذى من دونه ... وثْبُ النُّهى، وتطَاوُلُ الأفكار
تتهتّكُ الألبابُ خَلْفَ حجابها ... مهما طلَعتِ، فكيف بالأبصار؟
يا زينة الإصباحِ والإمساءِ، بل ... يا رَوْنَقَ الآصال والأسحار
ماذا تحاول من تنائينا النَّوى؟ ... أنتِ الدُّنى وأنا الخيالُ السارى
ألقى الضُّحى ألفاكِ، ثم من الدّجى ... سبُلٌ إليك خَفيَّةُ الأغوار
وإذا أنِسْتُ بوحدتى فلأنها ... سببى إليكِ، وسُلَّمِىن ومَنارى
إيهٍ زمانى في الهوى وزمانَها ... ما كنتما إلا النَّميرَ الجارى
مُتسَلسلا بين الصبابة والصبَّا ... مُترَقرِقًا بمسارحِ الأوْطار
نظر الفراقُ إليكما، فطواكما ... إن الفراق جَهَنَّمُ الأقدار

وقال:

لك أن تلومَ، ولي من الأعذار ... إن الهوى قَدَرٌ من الأقدار
ما كنتُ أسْلَمُ للعيون سلامتى ... وأبيحُ حادثةَ الغرام وَقارى
وطَرٌ تَعَلَّقَه الفؤادُ وينقضى ... والنفسُ ماضيةٌ مع الأوطار
يا قلبُ، شأْنَك، لا أمُدُّك في الهوى ... أبدا، ولا أدعوك للإقصار
أمرى وأمرُك في الهوى بيدِ الهوى ... لو أنه بيَدِى فككْتُ إسارى
جارِ الشبيبةَ، وأنتفع بجوارها ... قبلَ المشيب، فما له من جار
مَثَلُ الحياة تُحَبّ في عهد الصبَّا ... مَثَلُ الرياضِ تحَبُّ في آذار[١٥]
ابدًا (فروقُ) من البلاد هي المنى ... ومناىَ منها ظبيةٌ بسِوار
ممنوعةٌ إلا الجمالَ بأسْره ... محجوبةٌ إلاَّ عن الأنظار
خُطُواتُها التقوى، فلا مَزْهُوَّةٌ ... تمشى الدَّلال، ولا بذات نِفار
مرّتْ بنا فوق الخليج، فأسفرتْ ... عن جَنّة، وتلفتت عن نار
في نِسْوَةٍ يُورِدْنَ مَنْ شِئْن الهوى ... نظرًا، ولا ينظرْن في الإصدار
عارضتُهنٌ، وبين قلبى والهوى ... أمرٌ أحاول كتْمَه وأدارى

وقال:

أتغلبنى ذاتُ الدلالِ على صبرى؟[١٦]
إذن أنا أولى بالقناع وبالخِدْر
تتِيهُ، ولى حِلمٌ إذا ما ركِبتُه
رددتُ به أمرَ الغرامِ إلى أمرى
وما دَفْعِىَ اللُّوّامَ فيها سآمةٌ
ولكنّ نفسَ الحرّ أزجرُ للحرّ
وليلٍ كأنّ الحشْرَ مطلعُ فجرِه
تراءَتْ دموعي فيه سابقةَ الفجر
سرَيْتُ به طيفًا إلى مَنْ أحِبُّها
وهل بالسُّها في حُلَّةِ السُّقمِ من نُكر
طرقْتُ حِماها بعدَ ما هبّ أهلُها
أخوضُ غِمارَ الظنَّ والنظرِ الشزْر
فما راعنى إلاَّ نساءٌ لَقينَنى
يبالِغن في زَجْرى، ويُسر فن في نَهرى
يقلْن لمن أهوى وآنَسْنَ ريبةً:
نرى حالةً بين الصَّبابة والسّحر
إليكنّ جاراتِ الحمى عن ملاَمتى
وذّرْنَ قضاءَ الله في خَلْقه يجرى
وأحْرَجنى دمعى، فلما زجرتُه
رددتُ قلوبَ العاذِلاتِ إلى العُذْر
فساءَلْنها: ما اسمى؟ فسَّتْ، فجئننى
يَقُلْنَ: أمانًا للعذارى من الشَّعر
فقلتُ: اخافُ الله فِيكُنَّ، إننى
وجدتُ مقالَ الهُجْر يُزْرَى بأن يُزْرِى
أخذتُ بحَظٍّ من هواها وبينِها
ومَنْ يَهْوَ يَعْدِلْ في الوصال وفي الهجر
إذا لم يكن للمرءِ عن عيشةٍ غِنىً
فلا بدّ من يُسر، ولا بد من عُسر

ومن يخبُرِ الدنيا ويشربُ بكأْسها
يجدْ مُرَّها في الحلو، والحلوَ في المرّ
ومن كان يغزو بالتَّعِلاّت فقرَه
فإنى وجدتُ الكَدَّ أقتلَ للفقر
ومن يستعنْ في أمرِه غيرَ نفسه
يَخُنْه الرفيقُ العون في المسلك الوعْر
ومن لم يُقم سترًا على عيبِ غيره
يعِش مستباحَ العِرْضِ، مُنْهَتِكَ الستّر
ومن لم يُجمَّل بالتواضع فضلَه
يَبِنْ فضلُه عنه، ويَعْطَلْ من الفخر

وقال:

قلبٌ يذوب، ومدمعٌ يجرى ... ياليلُ، هل خبرٌ عن الفجر
حالت نجومُك دون مطلعه ... لا تبتغى حِوَلاً، ولا يسرى
وتطاولَتْ جُنْحًا، فخُيِّل لى ... أن الصباحَ رهينةُ الحشر
ارسيتَها وملكتَ مذهبَها ... بدُجُنَّةٍ كسريرة الدّهر
ظُلُمٌ تَجئُ بها وتُرجعُها ... والموجُ منقلبٌ إلى البحر
ليت الكرى (موسى) فيُوردَها ... (فِرْعَون) هذا السُّهِد والفِكر

* * *

ولقد أقول لهاتفٍ سحرًا ... يَبكى لغير نَوًى ولا أسْر
والروضُ أخرسُ غيرَ وسوسةٍ ... خَفَقَ الغصونِ، وجِرْية الغُدْر
والطيرُ ملْءُ الأيْكِ، أرؤُسُها ... مثلُ الثمار بدت من السَّدْر
ألقى الجناحَ، وناءَ بالصدر ... ورَنا بصَفْرَاويْن كالتَّبر
كلَم السهادُ بيوتَ هدْبهما ... وأقام بين رُسومِها الحُمْر
تهدَا جوانِحه، فتحسبهُ ... من صَنْعة الأيدى أو السَّحْر
وتثور، فهْوَ على الغصون يَدٌ ... عَلِقتْ أنامِلُها من الجمر

***

يا طيرُ، بُثَّ أخاك ما يَجرى　　إنَّـا كِـلانـا مَـوْضِـعُ الـسَّـر
بى مثلُ ما بِك من جَوًى ونوًى　　أنا في الأنام، وأنتَ في القُمْر[١٧]
عَـبـث الـغـرامُ بـنـا وروّعـنـا　　أنـا بـالـمَلام، وأنـت بـالـزّجْـر
يـا طـيرُ، لا تـجـزَعْ لـحـادثـةٍ　　كلُّ الـنـفـوسِ رهـائـنُ الـضـرّ
فيما دهاك لو أطَّلعتَ رضًى　　شرٌّ أخـفُّ عـلـيـك مـن شَـرّ
يا طيرُ، كَدْرُ العيشِ لو تدرى　　في صفوه، والصْفوُ في الكَدْر
وإذا الأمورُ استصعِبتْ صَعُبَتْ　　ويـهـون مـا هـوّنـتَ مـن أمْـر
يا طيرُن لو لُذنا بمصْطَبَرٍ　　فلعلّ رُوحَ اللهِ في الصَّبْر
وعـسـى الأمـانُّـى الـعِـذابُ لـنـا　　عونٌ على السلوان والـهـجـر

وقال:

بَـدَأَّ الـطـيـفُ بـالـجـمـيـلِ وزّارا
يـا رسـولَ الـرَّضـى وُقِـيـتَ الـعِـثـارا
خـذ مـن الـجـفـن والـفـؤاد سـبـيـلا
وتَـيَـمَّـمْ مـن الـسُّـوَيْـداءِ دارا
أنـت إن بـتَّ فـي الـجـفـون فـأهـلٌ
عـادةُ الـنـورِ يـنـزل الأبـصـارا
زار، والـحـربُ بـيـن جـفـنـى ونـومـى
قـد أعـدّ الـجُّـجـى لـهـا أوزارا
حَـسَـنٌ يـا خَـيـالُ صُـنْـعُـك عـنـدى
أجـملُ الـصـنـعِ مـا يُـصـيـبُ افـتـقـارا
مـا لـربَّ الـجـالِ جـارَ عـلـى الـقـلــ
ــبِ، كـأن لـم يـكـن لـه الـقـلـبُ جـارا؟
وأرَى الـقـلـبَ كـلـمـا سـاءَ يَـجـزيــ
ــه عـن الـذنـب رقَّـةً واعـتـذارًا

أجـريـحُ الـغـرامِ يـطـلـب عـطـفًـا
وجـريـحُ الأنـام يـطـلـب ثـارا؟
أيـها الـعـاذلـون، نـمِـتـم، ورام الـسُّـــ
ـهدُ من مقلتىَّ أمرًا، فصارا وأذى النصحِ
آفـةُ الـنُّـصـحِ أن يـكـونَ لَـجـاجًـا
أن يـــكـــون جِـــهـــارا
سـاءَلْـتـنـى عـن الـنـهـار جـفـونـى
رحِـمَ الـلـه يـا جـفـونـي الـنـهـارا
قـلـن: نَـبكـيه؟ قـلـت: هـاتـى دمـوعًـا
قلْن: صبرًا، فقلت: هـاتي اصطبارا
يـا لـيـالـىَّ، لـم أجِـدْكِ طـوالاً
بـعـد لـيـلـى، ولـم أجـدْك قِـصـارا
إن مَـنْ يـحـمـلُ الـخـطـوبَ كِـبـارًا
لا يُـبـالـى بـحـمـلـهـن صِـغـارا
لـم نُـفِـقْ مـنـك يـا زمـانُ فـنـشـكـو
مُـدْمـنُ الـخـمـر لا يُـحـسِ الـخُـمـارا
فـاصـرف الـكـأْسَ مُـشِـفـقًـا، أو فـواصِـلْ
خـرج الـرشـدُ عـن أكُـفَّ الـسُّـكـارى

وقال:

أبـثُّك وَجْدى يا حَمامُ، وأودِعُ فإنك دونَ الطَّيرِ للسرَّ مَوْضِعُ
وأنت مُعينُ العاشقين على الهوى تئِنُّ فُنصْغِى، أو تحنُّ فنَسْمَع
أراك يَمانِيّا، ومصرُ خميلتى كلانا غريبٌ، نازحُ الدارِ، مُوجَع
هما اثنان: دانٍ في التغرُّب آمنٌ وناءٍ على قربِ الديار مُرَوع
ومن عجبِ الأشياءِ أبكى وأشتكى وأنت تُغَنَّى في الغصونِ وتَسْبجَع
لعلك تُخفى الوجدَ، أو تكتُم الجَوى فقد تُمْسِك العينان والقلبُ يَدْمَع
شجاكَ صِغارٌ كالخُمانِ ومَوْطِنٌ نَدٍ مثلُ أيامِ الحَدَاثَةِ مُمْرِعُ

إذا كان في الآجال طولٌ وفسحةٌ فما البينُ إلا حادثٌ مُتَوَقَّع
وما الأهلُ والأحبابُ إلاَّ لآلِىءٌ تُفرَّقُها الأيامُ، والسَّمْطُ يجمع
أمُنكِرَتى، قلبى دليل وشاهدى فلا تُنكريه، فهْو عندَكِ مُودَع
أسيُركِ، لو يُفْدَى فَدَتْه يجمعها جوانحُ في شوقٍ إليه وأضْلُع
رماه إليكِ الدهرُ من حالِقِ الهوى يُذالُ على سفح الهوانِ ويُوضَع
ومن عجبٍ، يأْسَى إذا قلت: مُتْعَبٌ ويطرَبُ إن قلت: الأسيرُ المُمنَّع
لقيتِ عليمًا بالغواني، وغنما هو القلبُ، كالإنسانِ يُغرَى ويُخْدَع
وأعلم أن الغدرَ في الناس شائعٌ وأن خليلَ الغانياتِ مُضيَّع
وأن نِزاعَ الرُّشِد والغَيَّ حالةٌ تجىءُ بأحلامِ الرَّجال وتَرْجع
وأنَّ أمانىَّ النفوسِ قواتلٌ وكثرتُها من كثرة الزَّهرِ أصْرَع
وأن دُعاةَ الخير والحقَّ حربُهم زمانٌ بهم من عهد سُقْراطَ مُولَع

وقال:

تأْتِى الدَّلالَ سجيَّةً وتصنُّعا وأراك فِى حالَىْ دَلالِكَ مُبْدِعا
تِهْ كيف شئت، فما الجمالُ بحاكم حتى يُطاع على الدلال ويُسْمَعا
لك أن يُرَوَّعَك الوشاةُ من الهوى وعلىّ أن أهوى الغزالَ مُروَّعا
قالوا: لقد سَمع الغزالُ لمن وشَى وأقول: ما سَمع الغزالُ، ولا وعَى
أنا مَنْ يحبُّك في نِفارك مؤنسًا ويُحبُّ تِيهَكَ في نِفارِكَ مطمعا
قدّمتُ بين يدىَّ أيامَ الهوى وجعلتُها أملاً عليك مُضيَّعا
وصدقتُ في حبَّى، فلست مُباليًا أن أمْنَحَ الدُّنيا به أو أمْنَعا
يا مَنْ جرى من مُقلتيْهِ إلى الهوى صرِفًا، ودار بوَجنتَيْه مُشَعْشَعًا[١٨]
الله في بكدٍ سَقَّيتَ بأربَع لو صبَّحوا (رضْوى) بها لتصدّعا[١٩]

وقال:

رُدَّت الروحُ على المُضْنَى معكْ أحسنُ الأيام يومٌ أرجَعَك
مَرَّ من بُعدِك ما رَوَّعَنى أتُرى يا حُلْوُ بُعدى روّعك؟

كم شكوتُ البيْن بالليل إلى … مَطلع الفجر عسى أن يُطْلِعَك
وبعثتُ الشوقَ في ريح الصبَّا … فشكا الحُرقةَ مما اسْتودَعك
يا نعيمي وعذابي في الهوى … بعذولي في الهوى ما جَمَعَك؟
أنت روحي. ظَلَم الواشى الذي … زَعَم القلبَ سَلا، أو ضيَّعَك
مَوْقِعى عندَك لا أعلمُه … آهِ لو تعلمُ عندى موقِعَك!!
أرْجفوا أنك شاكٍ مُوجَعٌ … ليت لي فوق الضَّنا ما أوجعك
نامت الأعينُ. إلا مُقلة … تسكُب الدمَع، وترعى مضجَعك

وقال مشطَّرًا حيث اجتمع بعض الأدباءِ في مجلس، فذكر أحدهم بيتًا للبَهاءِ زهير وهو:

يقول أناسٌ: لو وصفت لنا الهوى … فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف؟

فقال:

يقول أناسٌ: لو وصفت لنا الهوى … لعل الذي لا يعرفُ الحبَّ يَعرف
فقلت: لقد ذُقْتُ الهوى، ثم ذُقْتُهُ … فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف؟

وقال:

علَّموه كيفَ يجفو جفا … ظالمٌ لا قيْتُ منه ما كفى
مسرفٌ في هجرِه ما ينتهى … أتُراهم علَّموه السَّرَفا؟
جعلوا ذنبى لديَّه سَهَرى … ليتَ بَدْرِى إذ دَرَى الذنبَ عفا
عرف الناسُ حقوقى عنده … وغريمي ما درى، ما عَرفا
صحّ لي في العمرِ منه موعِدٌ … ثم ما صدَّقتُ حتى أخلفا
ويرى لي الصبَر قلبٌ ما دَرى … أنّ ما كلفنى ما كلفا
مُستهامٌ في هواه مُدْنَفٌ … يترضَّى مستهامًا مُدنَفًا
يا خليلىّ، صِفا لي حيلة … وأرى الحيلةَ أن لا تَصِفا

أنا لو ناديتُه في ذِلَّةِ   هي ذي روحي فخذها، ما احتفى

وقال:

جئْتَنَا بالشعورِ والأحداقِ   وقسمن الحظوظَ في العشاقِ
وهَزَزْنَ القَنا قُدودًا، فأَبلى   كل قلبٍ مُستضعَفٍ خَفَّاقِ
حبذا القسمُ في المحبين قِسمى   لو يلاقون في الهوى ما أُلاقى
حيلتى في الهوى وما أتمنى   حيلة الأذكياءِ في الأرزاق
لو يُجازَى المحبُّ عن فَرْطِ شوْقٍ   لَجُزيتُ الكثيرَ عن أشواقي
وفتاةٍ ما زادها في غريبِ الـ   ـحسن إلا غرائب الأخلاق
ذقت منها حلوًا ومرًّا، وكانت   لذّةُ العشق في اختلاف المذَاق
ضربَتْ موعدًا، فلما التقينا   جانبتني تقول: فِيَم التلاقي؟
قلت: ما هكذا المواثيقُ، قالت: ليس للغانياتِ من ميثاق
عَطَفتْها نَحافتي، وشجاها   شكافعٌ بادرٌ من الآماق
فأرتني الهوى، وقالت: خَشِينا   والهوى شُعبةٌ من الإشفاق
يا فتاةَ العراق، أكتُم مَنْ أنـ   ـتِ، وأكنِى عن حبَّكم بالعراق
لي قوافٍ تَعِفُّ في الحبُّ إلا   عنْكِ، سارت جوائَب الآفاق
لا تَمنَّى الزمانُ منها مزيدًا   إن تمنيتُ أن تفكَّى وَثاقي
حمليني في الحبَّ ما شئتِ إلاَّ   حادثَ الصدٌ، أو بلاءَ الفراق
واسمحي بالعناق إ رضى الدّلُّ   وسامحت فانيًا في العناق

وقال:

مُضْنًى وليس به حَراكْ   لكنْ يخِفُّ إذا رآكْ
ويَميل من طربٍ إذا   ما مِلْتَ يا غصنَ الأراك
إن الجمالَ كساك من   ورَق المحاسن ما كساك
ونبَتَّ؟ بين جوانحى   والقلبُ من دَمِه سقاك
حُلوَ الوعودِ، متى وفاك؟   أتُراكَ مُنْجزَها تُراك؟

من كلَّ لفظٍ لو أذِنــ ـــتَ لأَجله قبَّلتُ فاك
أخذَ الحلاوةَ عن ثَنا ياك العِذَاب، وعن لَمَاك
ظلمًا أقول: جَنَى الهوى لم يجْنِ إلا مُقلْتاك
غدَتا منِيَّةَ مَنْ رَأيْـــ ــتَ، ورُحْتَ مُنْيَةَ منْ رآك

وقال:

فدَاتْكَ الجوانحُ من نازلِ وأهلاً بطيْفكَ من واصلِ
بَذلت له الجفنَ دون الكرى ومَنْ بالكرى للشجِى الباذِل؟
وقلت: أراك برغم العذول فنابَ السُّهادُ عن العاذل
فوَيْحَ المتيَّمِ!! حتى الخيالُ إذا زارَ لم يَخْلُ من حائل
يَحِنُّ عليك ضلوعٌ عَفَتْ من البيْن في جَسَدٍ ناحل
وقلبٌ جَوٍ عندها خافقٌ تعَلَّقَ بالسَّندِ المائل
ومِنْ عَبَثِ العشقِ بالعاشقين حنينُ القتيل إلى القاتل
غفلتُ عن الكأسِ حتى طغت ولى أدبٌ ليس بالغافل
وشَفَّتْ، وما شفَّ منى الضميرُ وأين الجماد من العاقل؟
يَظَلُّ نَدِيمىَ يُسْقَى بها ويشربُ من خُلُقى الفاضل
أبدّدُها كرمًا كلما بدَتْ لَى كالذهب السائل

وقال:

لامَ فيكم عذولُه وأطالا كمْ إلى كمْ يُعالج العُذَّالا؟
كلّ يوم لهم أحاديثُ لَوْمٍ بدأتْ راحةً، وعادتَ مَلالا
بعثت ذكرَكم، فجاءَتِ خِفافًا واقتضت هجَركم، فراحت ثقالا
أيها المُنكِرُ الغرامَ علينا حَسْبُكَ اللهَ، قد جَحدت الجمالا
آيةُ الحسن للقلوب تجلَّت كيف لا تعشق العيون أمتثالا؟
لكَ نُصحى، وما عليكَ جِدالى آفةُ النصحِ أن يكون جدالا
وهَب الرشدَ أننى أنا أسلو ما من العقل أن تَروم محالا

وقال:

بات المعنَّى والدجى بيتلى والبَرْحُ لا وانٍ وما مُنجَلى
والشُّهْبُ في كلَّ سبيلٍ له بموقف اللُّوَّام والعُذَّل
إذا رعاها ساهيًا ساهرًا رَعيْنَهُ بالحَدَق الغُفَّل
يا ليلُ، قد جُرْتَ، ولم تعدِلِ وما أنت يا أسودُ إلاَّ خَلِى
تالله لو حُكَّمْت في الصبح أن تفعل أحجمْتَ فلم تفعل
أوشِمَتَ سيفًا في جيوش الضحى ما كنتَ للأعداءِ ما أنت لي
ابِيتُ أسقَى ويُدير الجوى والكأْسُ لا تفْنى ولا تمتلى
الخّدُّ من دمعى ومن فَيضه يشرب من عين ومن جَدْول
والشوقُ نارٌ في رَماد الأسَى والفكرُ يُذكِى، والحشَا يَصطلى
والقلب قَوّامٌ على أضْلُعي كأنه الناقوسُ في الهيكل

وقال:

أنا إن بذلتُ الروحَ كيف ألامُ لمّا رَمَتْ فأصابَتِ الآرامُ؟
عَمَدَتْ إلى قلبى بسهمٍ نافذٍ فيه لمحتومِ القضاءِ سِهام
يا قلبُ، لا تجزع لحادثة الهوى واصبِر، فما للحادثاتِ دَوام
عرَفَتْ قلوبُ الناس قبلكَ: ما الجوى؟ وأذاقَها قدرٌ له أحكام
تجرى العقولُ بأَهلها، فإذا جرى كبَتِ العقولُ وزلَّتِ الأحلام
ما كنتُ أعلمُ — والحوادثُ جَمَّةٌ — أن الحوادثَ مُقْلَةٌ وقَوام
جَنيَا على كبدى وما عرَّضتُها كبدى، عليكِ من البرئ سلام
ولقد أقولُ لمن يَحُثّ كُئُوسَها قعدتْ كُئُوسُك والهمومُ قِيام
لم تجرِ بين جوانحى إلاَّ كما جرَتِ الدِنان بها وسال الجَام

وقال:

هل تَيَّمَ البانُ فؤادَ الحَمام فناح فاستْبكى جفونَ العمام؟
أم شَقَّه ما شقَّنى فانثنى مُبَلْبَلَ البالِ شريدَ المنام؟
يَهُزُّه الأيكُ إلى إلفه هَزَّ الفِراشِ المُدْنَفَ المستهام

وتُوقِدُ الذكرى بأحشائه جمرًا من الشوق حثيثَ الضَّرام
كذلك العاشقُ عند الدجى يا للهوى مما يثير الظلام!
له إذا هبَّ الجوى صَرْعةٌ من دونها السحرُ وفعلُ المدام
يا عادِيَ البينِ، كفى قسوةً روّعتَ حتى مُهجات الحَمام
تلك قلوب الطيرِ حَمَّلْتَها ما ضعفتْ عنه قلوبُ الأنام
لا ضرب المقدورُ أحبابنَا ولا أعادينا بهذا الحُسام
يا زمنَ الوصل، لأنت المنى وللمُنى عِقْد، وأنت النظام
لله عيشٌ لي وعيشٌ لها كنتَ به سمحًا رخِيَّ الزَّمام
وأنسُ أوقاتٍ ظفرنا بها في غلفة الأيام، لو دُمْتَ دام
لكنه الدهرُ قليلُ الجَدَى مُضيعُ العهدِ، لئيمُ الذَّمام
لو سامَحَتْنا في السلام النَّوَى لطال حتى الحشرِ ذاك السلام
ولا نْقضَى العمران في وقفة نسلو بها الغمضَ ونسلو الطعام
قالت وقد كاد يَميد الثرى من هَدَّةِ الصبر وهَوْلِ المقام
وغابت الأعينُ في دمعها ونالت الألسن إلاَّ الكلام:
يا بينُ، وَلَّى جَلدى فاتَّئِدْ ويا زماني، بعضُ هذا حرام
فقلت والصبرُ يجارى الأسى واللبُّ مأخوذٌ، ودمعي انسجام:
إن كان لي عندك هذا الهوى بِأَيَّمَا قلت كتمت الغرام

وقال:

صريعُ جفنيك ينفى عنهما التهما فما رميت ولكن القضاءَ رمى
الله في روح صَبٍّ يَغشيان بها مَوارِدَ الحتْفِ لم ينقل لها قدما
وكُفَّ عن قلبه المعمودِ نَبْلَهما أليس عهدُك فيه حبَّةً ودما؟
سلو غزالاً غزا قلبى بحاجبه أما كفى السيفُ حتى جرّد القلما؟
واستخبِروه: على كم نارُ جَفْوَتِه؟ أما كفى ما جنت نارُ الخدودِ أما؟
واستوهبوه يدًا في ا لعمر واحدةً ومَهَّهوا عُذْرَه عنى إذا حرما
ولا تَروْا منه ظلمًا أن يُضيِّعني من ضيَّع العَرَ المملوكَ ما ظلما

وقال:

ذاد الكرى ن مقلتيك حمامُ　　لبّاه شوقٌ ساهرٌ وغرام
حيرانُ، مشبوبُ المضاجِع، ليلُه　　حربٌ، وليلُ النائمين سلام
بين الدّجى لكما وعاديةِ الدّجى　　مهجٌ تُؤَلَّفُ بينها الأسقام
تتعاونان، وللتعاون أمَةٌ　　لا الدهرُ يخذلها ولا الأيام
يا أيها الطيرُ الكثيرُ سميرهُ　　هل ريشةٌ لجناحه فيُقام؟
عانقت أغصانًا، وعانقتُ الجوى　　وشكوتَ، والشكوى عليَّ حرام
أمُحَرَّمَ الأجفانِ إدناءَ الكرى　　يَهْنِيكَ ما حرَّمتْ حين تنام
حاوَلْن منه إلى خيالك سُلَّما　　لو سامَحَتْ بخيالك الأحلام
فأْذَنْ لِطَيْفِك أن يُلِمَّ مُجامِلاً　　ومُؤَمَّلٌ من طيفك الإلمام

وقال:

شغلَتْه أشغالٌ عن الآرام　　وقضى اللُّبانةَ من هوًى وغرامِ
ومَضَى يجرُّ على الهوى أذيالَه　　ويلومُ حاملَه مع اللوَّام
ويذُمُّ عهدَ الغانياتِ كناقةٍ　　بعد الشِفاءِ يذمُّ عهدَ سَقام
لا تعجلَنَّ وفي الشباب بقيَّةٌ　　إن الشبابَ مَزَلَّة الأحلام
كانت إنابتُك المُرِيبَةُ سَلْوة　　نسجَتْ على جُرحِ بجنبك دامى
إن الذي جعل القلوبَ أعِنَّةً　　قاد الشبيةَ للهوى بزمِام
يا قلبَ أحمدَ — والسَّهامُ شديدةٌ —　　ماذا لقِيتَ من الغزال الرامي؟
تَدْرى، وتسألني تجاهلَ عارفٍ:　　أرَنَا بعينٍ أم رمَى بسهام؟
ما زلتَ تركَبُ كلَّ صعبٍ في الهوى　　حتى ركبْتَ إلى هواك حِمامى
وإذا القلوبُ استرسلت في غَيَّها　　كانت بليَّتُها على الأجسام

وقال:

به سِحْرٌ يُتَيَّمُهُ　　كلا جَفْنَيْك يَعْلَمُهُ
هما كاد لمهجتهِ　　ومنكَ الكيدُ مُعظَمُه
تعذِّبه بسحرِهما　　وتُوجِدُه، وتُعدِمه

فـلا هَـارُوتَ رَقَّ لـه　　ولا مَـارُوتَ يَـرْحَـمُـه
وتَظلِمُه فلا يشكو　　إلى من ليس يَظلِمه
أسرَّ، فماتَ كتمانًا　　وباح، فخانه فمُه
فويْحَ المُدنَفِ المعمـ　　ـودِ حتى البثُّ يُحرَمه
طويلُ الليل، ترحمُه　　هواتِفُه وأنجُمه
إذا جدّ الغَرامُ به　　جَرى في دَمعِه دمُه
يكاد لطول صحبتِه　　بعادِى السُّقْم يُسقُمه
ثَنَى الأعنَاقَ عُوَّدُه　　وألقى العذرَ لُوَّمُه
قضى عشقًا سوى رَمَقٍ　　إليكَ غدًا يقدِّمه
عسى إن قيل: ماتَ هوًى　　تقول: الله يرحمُه
فتحيا في مَراقِدها　　بلفظٍ منكَ أعْظُمُه

***

بروحي البانُ يومَ رَنا　　عن المقدورِ أعْصَمُه
ويومَ طُعِنْتُ من غُصُن　　مُعَلَّمُه مُنَعّمُه
قضاءُ الله نظرتُه　　ولطفُ الله مَبْسِمُه
رمى، فاستهدفَتْ كبدى　　بَى الرّامي وأسْهمُه
له من أضلُعي قاعٌ　　ومن عَجَبٍ يسلمه
ومن قلبى وحَبَّتِه　　كِناسٌ بات يَهْدِمُه
غزالٌ في بدايه التَّيـ　　ـهُ بينَ الغِيدِ يَقْسِمُه

وقال:

مَنْ صَوَّرَ السَّحْرَ المُبينَ عيونا　　وأحلَّه حَدقًا لها وجفونا؟
نَظرتْ، فحُلْتُ بجاني، فاستهدفَتْ　　كبدى، وكان فؤادى المغْبونا
ورَمَتْ بسهم جال فيه جَوْلَةً　　حتى استقرّ، فَزَنَّ فيه رَنينا
فلَمَسْتُ صدرى مُوجسًا ومُرَوَّعًا　　ولَمَستُ جَنْبى مُشْفِقًا وضَنِينا
يا قلبُ، إن من البَواتر أعْيُناً　　سُوادًا، وإنّ من الجآذِر عِينا

لا تأخذنّ من الأمور بظاهرٍ … إنّ الظواهرَ تَخْدعُ الرائينا
فلكم رَجَعتُ من الأسِنّة سالمًا … وصدرْتُ عن هِيفِ القدودِ طَعِينا
وخَميلةٍ فوق الجزيرة مَسَّها … ذَهَبُ الأصيلِ حواشيًا ومتُونا
كالتِّير افْقًا، والزَّبرْجدِ رَبْوَة … والمِسْكِ تُرْبًا، واللُّجَيْن معِينا
وقف الحيا من دونها مُسْتَأْذَناً … ومشى النسيمُ بظلِّها مأْذونا
وجرى عليها النيلُ يَقْذفُ فضَّة … نثرًا، ويَكسِر مَرْمَرًا مَسْنونا
يُغرى جواريَهُ بها، فَيجئْنها … ويُغِيرُهُنَّ بها، فيَستَعْلِينا
راع الظلامُ بها أوانسَ تَرْتَمِي … مثلَ الظباءِ من الرُّبى يَهوينا
يخطرُن في ساح القلوب عواليًا … ويَملْنَ في مَرْأى العيون غصُونا
عِفْنَ الذيولَ من الحرير وغيره … وسَحَبْنَ ثَمَّ الآسَ والنَّسْرينا
عارضتُهن ولي فؤادٌ عُرْضةٌ … لهوى الجآذرِ دانَ فيه ودِينا
فنظرن لا يَدرين: أذْهبُ يَسْرَةً … فيَجِدْنَ عَنّى، أم أميلُ يمينا؟
ونَفَرْنَ من حَوْلي وبينَ خبائلي … كالسِّرب صادفَ في الرَّواح كَمِينا
فجمعتُهن إلى الحديثِ بداتُه … فغضبن، ثم أعدته فرضينا
وسمعتُ من أهوى تقول لِتربها: … أحْرَى بأحمدَ أن يكون رزينا[20]
قالت: أراه عندَ غايةِ وَجْدِه … فلعلَّ ليلى ترحمُ المجنونا

***

أَذْعنَ للحُسن عَصِيُّ العِنانْ … وحاولتْ عيناك أَمْرًا فكان
يعيش جفناك لَبثَّ المُنى … أو الأسى في قلب راحٍ وعان
يا مُسرفًا في التَّيهِ ما ينتهى … أخافُ أن يَفْنى علينا الزمان
ويا كثيرَ الدَّلّ في عِزَّه … لا تنس لي عزَّى قُبَيْلَ الهَوان
ويا شديدَ العُجْبِ، مهلاً، فما … مِنْ مُنكرٍ أنك زينُ الحِسان

وقال:

يا حسنَه بين الحِسانْ … في شكله إن قيل: بانْ
كالبدرِ تأخذه العيو … نُ وما لهنّ به يَدان

مَلك الجوانحَ والفؤا ... دَ ففي يديه الخافقان
ومناىَ منه نظرةٌ ... فعسى يُشير الحاجبان
فعَسى يُزَكَّى حُسْنَه ... مَنْ لا لَه في الحسن ثان
فدعوه يَعْدِلُ أو يَجو ... رُ، فإنه مَلكَ العِنان
حَقَّ الدلالُ لمن له ... في كل جارحة مكان

وقال:

يا ناعمًا رقدت جُفونُه ... مُضناكَ لا تهدا شُجونُه
حملَ الهوى لك كلَّه ... إن لم تُعنْه فَمَنْ يُعِينُه؟
عُدْ مُنْعِمًا، أو لا تَعُدْ ... أوْدَعْتَ سرَّكَ مَنْ يصُونُه
بيني وبينكَ في الهوى ... سببٌ سيجمعُنا مَتينه
رشأ يُعابُ الساحرو ... ن وسحرهُم، إلاَّ جفونُه
الروحُ مِلْكُ يمينه ... يَفدِيه ما مَلَكَتْ يَمِينهُ
ما البانُ إلاَّ قدُّه ... لو تَيَّمَتْ قلبًا غصونُه
ويزينُ كلَّ يتيمة ... فمُه، وتحسبُهَا تَزينُه
ما العمرُ إلا ليلةٌ ... كان الصباحَ لها جَبيُنه
بات الغراُ يَدينُنا ... فيها كما بتنا ندينه
بين الرقيب وبيننا ... وادٍ تُباعدُه حُزونُه
نَغْتَابُه، ونقول: لا ... بَقِى الرقيبُ ولا عيونُه

وقال:

صحا القلبُ، إلاَّ من خُمارِ أمانى ... يجاذبُني في الغِيدِ رَثَّ عِناني
حَنانيْكَ قلبى، هل أعيدُ لك الصبَّا؟ ... وهل للفتى بالمستحيل يَدان؟
تحنُّ على ذاكَ الزمانِ وطيبه ... وهل أنتَ غلا من دم وحَنان؟
إذا لم تصُن عهدًا، ولم تَرعَ ذمةً ... ولم تدَّكِرْ إلْفا، فلستَ جَناني
أتذكر إذ نُعْطِى الصَّبابة حقَّها ... ونشربُ من صرفِ الهوى بِدنان؟
وأنتَ خَفوقٌ، والحبيبُ مباعدٌ ... وأنت خفوقٌ، والحبيبُ مدان؟

وأيامَ لا آلو رِهانًا مع الهوَى ... وأنتَ فؤادي عند كل رِهان
لقد كنتُ أشكو من خُفوقِك دائبًا ... فولَّى، فيا لهفي على الخفقان
سقاكَ التَّصابي بعد ما علَّك الصَّبَا ... فكيف ترى الكأسين تختِلفان؟
وما زلتُ في رَيْعِ الشباب، وإنما ... يشيبُ الفتى في مصرَ قبلَ أوان
ولا أكذبُ البارى، بني الله هيكلى ... صنيعة إحسانٍ، ورِقَّ حسِان
أدينُ إذا اقتادَ الجمالُ أزمّتى ... وأعنو إذا اقتادَ الجميلُ عِنانى

وقال:

اللهَ في الخلق من صَبٍّ ومن غانِى ... تفنى القلوبُ ويَبقى قلبُكِ الجاني
صونِى جمالَكِ عنّا إنَّنا بَشَرٌ ... من التراب، وهذا الحسنُ روحاني
أو فابتِغى لَلَكا تأْوينَه مَلَكًا ... لم يتَّخِذ شَرَكًا في العالم الفاني
يَنساب في النور مَشغوفًا بصورته ... مُنعَّمًا في بديعاتِ الحُلَى هاني
إذا تبسّم أبدى الكونُ زينتَه ... وإن تنفّس أهدى طِيبَ رَيْحان
وأشرقى من سماءِ العزَّ مُشْرقةً ... بمنظَرٍ ضاحكٍ اللآْلاء فَتّان
عسى تَكُفُّ دموعٌ فيكِ هامَيةٌ ... لا تطلعُ الشمسُ والأنداءُ في آن[21]
يا مَنْ هجرتُ إلى الأوطان رؤيتَها ... فرُحْتُ أشوقَ مُشتاقٍ لأوطان
أتذكرين حنيني في الزمان لها ... وسَكْبِىَ الدّمعَ من تذْكارِها قانى؟
وغَبْطِىَ الطيرَ ألقاه اصِيحُ به: ... ليت الكريمَ الذي أعطاك أعطاني؟

وقال:

قلبٌ بوادى الحمى خلَّفْته رَمقًا ... ماذا صنعْتِ به يا ظبيةَ البان؟
أحنى عليكِ من الكُثبان، فاتَّخذى ... عليه مَرْعاكِ من قاعٍ وكُثْبان
غَرَّبْته، فَوَهَى جَنْبى لفُرقته ... وحَنَّ للنازح المأْسورِ جُثْمانى
لا ردّه اللهُ من اسْرٍ، ومن خَبَلٍ ... إن كان في ردّه صَحْوِى وسُلْوانى
دلَّهته بعزيزٍ في مَحاجِره ... ماضٍ، له من مُبين السَّحرِ جَفنان
رمى فضجَّتْ على قلبي جوانحُه ... وقلن: سهمٌ، فقال القلبُ: سهمان

يا صورةَ الحُورِ في جِلباب فانَيةٍ   وكوكبَ الصبحِ في أعطاف إنسان
مُرى عَصِيَّ الكرى يَغشَى مُجامَلَةً   وسامِحى في عناق الطيفِ أجفاني
فحسبُ خَدَّىَّ مِنْ عَيْنَىَّ ما شربا   فمثل ما قد جرى لم تلقَ عينان

وقال:

قالوا له: رُوحى فِداه   هذا التجنِّى ما مَداه؟
أنا لم أقُم بصدودِه   حتى يُحمِّلَني نَواه
تجرى الأمور لغايةٍ   إلاَّ عذابى في هواه
سمُّيتُه بدرَ الدُّجى   ومن العجائِب لا أراه
ودعوتُه غصنَ الرّيا   ضِ، فلم أجِدْ رَوْضًا حواه
وأقولُ عنه: أخو الغزا   لِ، ولا أرى إلاَّ أخاه
قال العواذلُ: قد جفا   ما بالُ قلبِك ما جفاه؟
أنا لو أطعتُ القلبَ فيـ   ـه لم أزِدْه على جَواه
والنُّصحُ مُتَّهَمٌ وإن   نَثَرَتْهُ كالدُّرّ الشفاه
أذُنُ الفتى في قلبه   حينًا، وحينًا في نُهاه

وقال:

مقاديرُ من جَفْنِيْكِ حولْنَ حاليا   فذُقْتُ الهوى من بعد ما كنتُ خاليا
نفذْن علىَّ اللبَّ بالسهم مُرْسلاً   وبالسَّحر مَقْضِيًّا، وبالسيف قاضيا
وألبَسْنَنى ثوبَ الضَّنى فلبستهُ   فأحْبِبْ به ثوبًا وإن ضمّ باليا
وما الحبُّ إلاَّ طاعةٌ وتجاوزٌ   وإن أكثروا أوصافَه والمعانيا
وما هو إلا العينُ بالعين تلتقي   وأن نوّعوا أسبابَه والدَّواعِيا
وعندي الهوى، موصوفُه لا صفاتُه   إذا سألوني: ما الهوى؟ قلتُ: ما بيا
وبى رَشَأٌ قد كان دنياىَ حاضِرًا   فغادَرَنى أشتاقُ دُنياىَ نائيا
سمحتُ برُوحي في هواه رخيصةً   ومَنْ يَهْوَ لا يُوثِره على الحبَّ غاليا
ولم تَجْرِ ألفاظُ الوشاة بريبةٍ   كهذى التي يجرى بها الدّمعُ واشِيا

أقول لمن وَدَّعْتُ والركبُ سائرٌ: ... بـرغـم فـؤادى سـائـرٌ بـفـؤاديـا
أمانًا لقلبى من جفونِكِ في الهوى ... كفكى بالهوى كأسًا، وراحًا، وساقيا
ولا تجْعِليه بين خدَّيْكِ والنوى ... من الظلم أن يغدو لنارَيْن صالِيا
ولم يَنْدملْ من طعنة القّدَّ جُرحُه ... فرفقًا به من طعنة البيْن داميا

وقال:

أهلَ القُدودِ التي صالت عَوَاليها ... الله في مُهجٍ طاحت غَوَاليها
خُذْن الأمانَ لها لو كان ينفعها ... وارْدُدْنها كَرمًا لو كان يُجديها
وانظرنَ ما فعلَتْ أحْداقُكُنّ بها ... ما كان من عَبَثِ الأحداقِ يكفيها
تعرّضت أعينٌ مِنَّا، فعارَضَنا ... على (الجزيرة) سْربٌ من غَوَانيها
ما تُرْن من كُنُسٍ[٢٢] إلاَّ كُنُسٍ ... من الجوانح ضَمَّتْها حَوَانيها
عَنَّتْ لنا أصُلاً، تُغْرِى بنا أسَلاً ... مَهزوزةً شكَلاً، مشروعةً تِيها[٢٣]
وأرْهَفَتْ أعْيُنًا ضَعْفَى حمائلُها ... نَشْوَى مَناصِلُها، كَحْلَى مَواضِيها
لنا الحبائلُ تُلْقِيها نَصِيدُ بها ... ولم نَخَلْ ظَبَيَاتِ القاعِ تلْقِيها
نصَبْنها لكَ من هُدْبٍ ومن حَدَقٍ ... حتى أنثنيْتَ بنفسٍ عزَّ فاديها
من كلّ زهراءَ في إشراقها ضحَكَت ... لَبّاتُها عن شبيه الدُّرَّ مِن فيها
شمسُ المحاسنِ يُسْتَبْقَى النهارُ بها ... كأن يُوشَعَ مفتونٌ يُجاريها
مَشت على (الجسر) رِيمًا في تلفُّتها ... للناظرين، وبانًا في تَثَنَّيها
كأَن كلَّ غوانيه ضرائرُها ... عُجْبًا، وكلَّ نواحيه مَراثيِها
عارَضْتُها وضميرى من محارمها ... يَزْوَرُّ عن لحظاتي في مَساريها
أعِفُّ من حَلْيها عمّا يُجاوِرهُ ... ومن غلائلها عمّا يُدانيها
قالت: لعلّ أديبَ النيلِ يُحرجُنا ... فقلت: هل يُحرجُ الأقمارَ رائيها
بينى وبينك أشعارٌ هتفتُ بها ... ما كنتُ أعلم أن الرَّيم يرويها
والقولُ إن عفّ أو ساءَت مواقِعُه ... صدى السريرةِ والآدابِ يَحكيِها

وقال:

أدارى العيونَ الفاتراتِ السَّواجيا وأشكو إليها كَيْدَ إنسانِها لِيا
قتلنَ ومنَّين القتيلَ بألْسُن من السحر يُبْدِلْنَ المنايا أمانيا
وكلَّمْنَ بالألحاظِ مَرْضَى كَليلةً فكانت صِحاحًا في القلوب مَواضِيا
حَبَبْتُكِ ذاتَ الخالِ، والحبُّ حالةٌ إذا عرَضت للمرءِ لم يَدْرِ ماهيا
وإنك دُنيا القلب مهما غَدَرْتِه أتى لكِ مملوءًا من الوجْد وافيا
صدودُك فيه ليس يألوه جارحًا ولفظُكِ لا ينفَكُّ للجرح آسِيا
وبين الهَوى والعَذْلِ للقلب موقِفٌ كخالِكِ بينَ السيفِ والنارِ ثاويا[24]
وبين المُنى واليأْسِ للصبر هِزَّةٌ كَخصْرِكِ بينَ النَّهْدِ والرَّدْفِ واهيا
وعرّض بي قومي، يقولونَ: قد غوى عدِمتُ عذولى فيكِ إن كنتُ غاويا
يَرمونَ سُلوانًا لقلبى يُريحُهُ ومن لِيَ بالسُّلْوانِ أشريه غاليا؟
وما العشقُ إلا لذةٌ ثم شِقوةٌ كما شَقِيَ المخمورُ بالسُّكر صاحيا

هوامش

(١) العقيق: كناية عن الدَّم.
(٢) نهل، من نهلت الإبل: شربت أول الشرب.
(٣) علَّت، من علَّ الرجل: شرب شربة ثانية.
(٤) سويجع: تصغير ساجع. والسويداء: حبة القلب.
(٥) يضويني: يضعفني، من أضواه الأمر: أضعفه.
(٦) والقلب اصبى: أي أشد صبوة.
(٧) أهل به: عمر.
(٨) الظبى: جمع ظبة وهي حد السيف.
(٩) هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

أن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(١٠) الفند: الكذب وكفر النعمة.
(١١) العهيد: القديم.
(١٢) الكم بكسر الكاف: الغلاف الذي ينشق عن الثمر.

(١٣) يعنى بكل مقطعة يدها إلخ. صواحبات يوسف الصديق اللواتي ورد ذكرهن في السورة.

(١٤) السمر: الرماح. والخواطر: المهتزات، يقال: خطر الرمح إذا اهتز، وهي هنا كناية عن القدود.

(١٥) آذار: شهر مارس وهو أول فصل الربيع.

(١٦) هذا الشطر من المطلع للمرحوم محمود سامي باشا البارودي، نظمه ثم أمسكه، فأكمله الشاعر وأضاف إليه هذه الأبيات.

(١٧) القمر: جمع قمرية وهي ضرب من الحمام.

(١٨) المشعشع: الشراب يمزج بالماء.

(١٩) رضوى: اسم جبل.

(٢٠) الترب بالكسر: وما ولد معك، وأكثر ما يستعمل في المؤنث، يقال هذه ترب فلانه إذا كانت على سنها.

(٢١) الأنداء: الأمطار.

(٢٢) الكنس: جمع كناس، وهو بيت الظبى.

(٢٣) يقال: شكلت المرأة شكلا: كانت ذات شكل أي غنج ودلال وغزل.

(٢٤) يعني الشاعر بهذه التورية أن خالها بين نار الخد — وهي كناية عن الحمرة — وبين سيف اللحظ وهو معروف.

متفرقات

مَصَايرُ الأيَّامِ:

ألا حَبَّذا صُحبةُ المكتَبِ / وأحبِبْ بأيّامه أحبِبِ!
ويا حبّذا صِبيةٌ يَمرحو / ن، عِنانُ الحياةِ عليها صَبى
كأنهمو بَسماتُ الحيا / ةِ وأنفاسُ ريْحانِها الطيِّب
يُراحُ ويُغدَى بهم كالقَطيـ / ـع على مشرِق الشمس والمَغرب
إلى مَرْتَعٍ ألفوا غيرَه / وراعٍ غريبِ العصا أجنبي
ومُستقَبلٍ من قيود الحيا / ةِ شديدٍ على النفس مُستصعَب
فراخٌ بأيكٍ: فمن ناهضٍ / يَروضُ الجناحَ، ومن أزْغَب
عصافيرُ عند تهجِّى الدرو / س،[1] مِهارٌ عرابيدُ في المَلعَب
خَلِيُّون من تَبِعات الحيا / ةِ، على الأمَّ يُلقونها والأب
جنونُ الحَدَاثَةِ من حولهم / تضيقُ به سعَةُ المذهب
عدا فاستبدّ بعقل الصبيَّ / وأعدى المؤدّبَ حتى صَبى!
لهم جَرَسٌ مُطْربٌ في السرا / ح، وليس إذا جَدّ بالمطربِ
توارتْ به ساعةٌ للزما / ن على الناس دائرةُ العَقرب
تَشُولُ[2] بإبرتها للشبا / بِ، وتقذِف بالسّم في الشُّيَّب
يَدُقُّ بمِطرقتَيها القضا / ء وتجرى المقاديرُ في اللَّوْلَب
وتلك الأواعى بأيمانهم[3] / حقائبُ فيها الغدُ المُختبَى
ففيها الذى إن يُقِم لا يُعدَّ / من الناس، أو يَمض لا يُحسب

وفيـهـا الـلَّـواءُ، وفـيـهـا الـمـنـا ... رُ، وفيها التَّبيعُ، وفيها النَّبى
وفيـهـا الـمؤخَّـرُ خـلـفَ الـزحـا ... مِ، وفيها المقدّمُ في المواكِب

* * *

جميلٌ عليهم قشيبُ الثيا ... ب، وما لم يُجمّل ولم يَقشب
كسـاهـم بَـنـانُ الـصَّـبا حُـلَّـةً ... أعزَّ من المخمِلِ المُذْهَب
وأبهى من الورد تحت الندى ... إذا رفَّ في فرعه الأهْدب
وأطـهَـر مـن ذيـلـهـا لـم يَـلُـمّ ... من الناس ماشٍ، ولم يَسحَب
قطيعٌ يُزَجَّيه راعٍ من الدهــ ... ـر، ليس بلَيْنٍ ولا صُلَّب
أهـابـت هِـرواتُـه بـالـرَّفـا ... ق، ونادت على الحُيَّدِ الهُرَّب
وصّـرفَ قـطـعـانَـه، فـاسـتـبدّ ... ولم يخشَ شيئًا، ولم يَرهَب
أراد لمن شاءَ رَعْىَ الجَدِيــ ... ـب، وأنزل من شاءَ بالمُخصِب
ورَوّى عـلـى رِيَّـهـا الـنَّـاهـلا ... تِ، وردّ الظَّماءَ فلم تَشْرَب
وألـقـى رِقـابًـا إلـى الـضـاربيــ ... ـن، وضَنّ بأخرى فلم تُضرَب
وليس يبالي، رضا المستَريــ ... ـحِ، ولا ضَجَرَ الناقمِ المُتعَب
وليس بمُبْقٍ على الحاضريــ ... ـن، وليس بباكٍ على الغُيَّب

* * *

فيا وَيْحَهم! هل أحَسُّوا الحيا ... ةَ؟ لقد لعبوا وهَىَ لم تَلْعَب
تـجـرَّبُ فـيـهـم ومـا يـعـلـمو ... ن، كتجربة الطبَّ في الأرْنب
سَقَتْهم بسُمّ جرى في الأصو ... ل، ورَوَّى الفروعَ ولم يَنضُب
ودار الـزمـانُ، فـدالَ الـصَّـبـا ... وشبَّ الصَّغارُ عن المكتب
وجَـدَّ الـطَّـلابُ، وكـدّ الـشـبـا ... بُ وأوغَل في الصَّعب فالأصعب
وعــادت نــواعِــمُ أيّــامِــه ... سِنينَ من الدَّأبِ المُنصِب
وعُـذَّبَ بـالـعـلـم طُـلاَّبُـه ... وغصُّوا بِمَنْهَلِهِ الأعذاب
رَمَـتْـهـم بـه شـهـواتُ الـحـيـا ... ةِ، وحُبُّ النَّباهةِ والمَكسب
وزَهْـوُ الأبُـوَّةِ مـن مُـنـجِـبٍ ... يفاخرُ مَنْ ليس بالمُنجِب
وعقلٌ بعيدُ مَرامى الطَّما ... حِ، كبيرُ اللُّبانةِ والمأْرَب

وَلوعُ الرّجاءِ بما لم تَنَلْ عقولُ الأوالى ولم تطلُب
تنقَّلَ كالنَّجم من غَيْهَبٍ يَجوبُ العصورَ إلى غَيْهَب
قديمُ الشُّعاعِ كشمسِ النهارِ جديدٌ كِمصباحها المُلهب
أبو قْراطُ مثلُ ابنِ سينا الرئيسِ، وهو ميرُ مثلُ أبى الطَّيِّب
وكلُّهم حَجَرٌ في البناءِ، وغرسٌ من المثمرِ المُعقِب

* * *

تُؤلَّفُهم في ظِلال الرخاءِن وفي كَنَفِ النسبِ الأقرب
وتَكسِرُ فيهم غرورَ الثراءِ، وزَهْوَ الولادِة والمنصِب
بيوتٌ مُنَزَّهةٌ كالعتيق وإن لم تُسَتَّرْ ولم تُحجَب
يُدانى ثراها ثَرَى مكَّةِ ويقربُ في الطُّهر من يَثرب
إذا ما رايتَهمو عندها يموجون كالنحل عند الرُّبى
رأيتَ الحضارةَ في حصنِها هناك، وفي جُنَدِها الأغلب
وتَعرضُهم مَوكبًا موكِبًا وتسأل عن عَلَم الموكِب
دَعِ الحظَّ يطلَعْ به في غِد فإنَّك لم تَدْرِ من يجتبى
لقد زَيَّنَ الأرض بالعَبْقَرىِّ مُحَلَّى السماواتِ بالكوكب

لُبْنَان

السَّحْرُ من سُود العيونِ لقِيتُهُ والبابِلىُّ بلحظهنّ سُقِيتُهُ
الفاتراتِ وما فَتَرْنَ رمايةً بمُسَدَّدٍ بينَ الضلوع مَبيتُه
الناعساتِ الموقظاتى للهوى المُغْرياتِ به وكنتُ سَلِيته
القاتلاتِ بعابثٍ في جَفنه ثملِ الغِرار مُعَرْبِد إصْليته°
الشارعاتِ الهُدْبَ أمثالَ القنا يُحيى الطَّعينَ بنظرة ويُميته
الناسجاتِ على سواءِ سطورهِ سَقمًا على منوالهن كُسِيته

* * *

وأغنَّ أكحَل من مَها «بِكْفِيّة» عِلقت محاجرهُ دمى وعَلِقته

لُبنـانُ دارَتُـه وفـيـه كِـنـاسُـه ... بين القنا الخطّار خُط نَحيته
السلسبيلُ من الجداول ورْدُه ... والآسُ من خُضْرِ الخمائل قوتُه
إن قلتُ تمثال الجمال مُنَصبّا ... قال الجمال براحتيَّ مَثلْته
دخل الكنيسةَ فارتقبْتُ فلم يُطِل ... فأتيت دون طريقِه فزحمته
فازْور. غضبانًا وأعرض نافِرًا ... حالٌ من الغِيد الملاحِ عرفتُه
فصرفتُ تلْعابى إلى أترابه ... وزَعمتهن لُبانتى فأغرتُه
فمشى إلىّ وليس أوّلَ جؤْذَرٍ ... وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاءَ من سحر الجفون فصادَني ... وأتيتُ من سحر البيان فصدْته
لما ظفرتُ به على حَرَم الهُدَى ... لابن البتول وللصلاة وهبته[6]
قالت ترى نجمَ البيان فقلت بل ... افق البيان بأرضكم يممته
بلغ السُّها بشموسه وبدُوره ... لُبنانُ وانتظم المشارقَ صيته
من كلّ عالى القدر من أعلامه ... تتهللُ الفُصْحى إذا سميته
حامى الحقيقة، لا القديم يئوُده ... حفظًا ولا طلبُ الجديد يفوته
وعلى المشيد الفخمِ من آثاره ... خلُق يبين جلالُه وثبوته
في كل رابيةٍ وكل قرارة ... تْبرُ القرائح في التراب لمحته
اقبلتُ أبكي العلم حول رسومهم ... ثم أنثنيت إلى البيان بكيته
لبنانُ والخُلد، اختراع الله لم ... يُوسَم بأزينَ منهما ملكوته
هو ذِرْوة في الحسن غير مَرُومة ... وذَرا البراعة والحجى «بَيروته»
مَلِكُ الهضابِ الشمَّ سلطانُ الرُّبى ... هامُ السحاب عروشُه وتَخوته
سيناءُ شاطَره الجلالَ فلا يُرى ... إلاَّ سُبُحاته[7] وسُموته[8]
والأبلقُ الفردُ انتهت أوصافهُ ... في السُّؤْدد العالى له ونعوته
جبل عن آذار يُزْرى صيفُه ... وشتاؤه يَئِد القرى جبروته
أبهى من الوَشْى الكريم مروجُه ... والذُّ من عَطلِ[9] النُّحور مُروتُه[10]
يغْشى روابيَه على كافورها ... مِسْك الوهادِ فَتيقُه وفَتيِتُه[11]
وكأن ايامَ الشباب ربوعُه ... وكأن أحلامَ الكعاب بيوتُه
وكأن ريْعانَ الصَّبا ريْحانُه ... سِرُّ السرور يَجودهُ ويقوتُه[12]
وكأن أثداءَ النواهد تِينُه ... وكأن أقراط الولائد توته

وكأن هَمس القاع في أذن الصفا[١٣]   صوتُ العتابِ ظهوره وخُفوته
وكأن ماءَهما وجَرْسَ[١٤] لُجَينه   وَضحُ[١٥] العروس تبينه وتصيتُه[١٦]

***

زعماء لُبنان وأهلَ نَدِيَه   لبنانُ في ناديكمو عظمتُه
قد زادني إقبالُكم وقبولُكم   شَرفًا على الشرف الذي أوليته
تاجُ النيابة في رفيع رءُوسكم   لم يُشْر لؤلؤه ولا ياقوتُه
«موسى»[١٧] عدوُّ الرَّقّ حولَ لوائكم   لا الظُّلمُ يرْهِبه، ولا طاغوتُه
أنتم وصحابكم إذا أصبحتمو   كالشهرِ أكملَ عدَّة موقوتُه
هو غرَّةُ الأيامِ فيه، وكلكم   آحادُه في فضلها وسُبوته

الْمُؤْتَمرُ[١]

صْرحٌ على الوادى المباركِ ضاحى   مُتظاهرُ الأعلامِ والأوْضاحِ
ضافى الجلالة كالعَتيق مُفضل   ساحاتِ فضل في رِحابِ سَماح
وكأن رَفْرَفَه رِواقٌ من ضحًى   وكأن حائطَه عمودُ صَبَاح
الحقُّ خَلْفَ جَناحِ استَذرَى[١٨] به   ومَرَاشِدُ السلطانِ خلفَ جَناح
هو هيكلُ الحريَّةِ القاني، له   ما لِلهياكلِ من فِدًى وأضاح
يبنى كما تُبنى الخنادقُ في الوغى   تحتَ النبالِ وصَوْبِها السَّحّاح
يَنْهارُ الاستبدادُ حولَ عِراصِه   مِثَل انهيارِ الشَّركِ حولَ (صَلاح)[١٩]
وَيكَبُّ طاغوتُ الأمور لوَجهِه   مُتَحَطَّمَ الأصنامِ والأشباح
هو ما بَنى الأعْزَال بالرَّاحات، أو   هو ما بَنى الشهداءُ بالأرواح
أخَذتْه (مصرُ) بكل يومٍ قائمٍ   وَرْدِ الكواكب أحمرِ الإصْباح
هَبَّتْ سِماحًا بالحياةِ شبابها   والشيبُ بالأرْمَاق غَيْرُ شحاح

[١] مؤتمر سياسي اجتمعت فيه كلمة الأحزاب السياسية المصرية على إنقاذ الدستور برياسة المغفور له سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٦.

ومشتْ إلى الخيل الدوَارع وانْبرَتْ ... للـظَّـافـر الـشـاكـي بـغـيـر سِـلاح
وَقـفَـاتُ حـقًّ لـم تـقـفْـهـا أمّـةٌ ... إلا أنْـثـنـتْ آمـالُـهـا بـنـجـاح
وإذا الشُّعوبُ بَنَوْا حقيقةَ مُلْكِهِم ... جـعـلـوا الـمـآتـمَ حـائـطَ الأفـراحِ

* * *

بـشـرى إلـى الـوادى تَـهـزُّ نَـبـاتَـه ... هَـزَّ الـربـيـعِ مَـنَـاكِـبَ الأدواح
تسرى ملمَّحة الحجول[٢٠] على الرُّبى ... وتـسـيـل غُـرَّتُـهـا بـكـل بِـطـاح
الـتَـامَـتِ الأحـزابُ بـعـدَ تَـصَـدُّعٍ ... وتـصـافـتِ الأقـلامُ بـعـد تَـلاحِـى
سُحِبَتْ على الأحقاد أذيالُ الهوى ... وَمَشَى على الضَّغْن الودادُ الماحى
وَجَـرَتْ أحـاديـثُ الـعـتـابِ كـأنـهـا ... سَـمَـرٌ عـلـى الأوتـارِ والأقـداح
تْرمى بِطرْفِكِ في المجامِع لا ترى ... غـيـرَ الـتـعـانُـقِ واشـتـبـاكِ الـراح

* * *

شمسَ النهارِ، تعلَّمِى الميزانَ من ... (سَعْدِ) الديار وشيخِها النَّضَّاح[٢١]
مِيلى أنظُريه في النَّدِىَّ كانَّه ... (عثمانُ) عن أمَّ الكتابِ يُلاحى
كـم تـاجِ تـضـحـيـةِ وتـاجِ كـرامـةٍ ... لـلـعـيـن حـولَ جـبـيـنـه الـلـمـاحِ
والشيبُ مُنْبَثِقٌ كنور الحقَّ من ... فْودَيْه، أو فجرِ الهدى المِنَصْاحِ[٢٢]
لَـبَّـى أذان الـصُّـلـحِ أوّلَ قـائـمٍ ... والصلحُ خُمس قواعِد الإصلاح
سبقَ الرجَالَ مُصافِحًا ومُعانِقًا ... يمْنى السّماحِ وهيكَلَ الإسجاح[٢٣]
(عدلي) الجليل ابن الجليل من الملا ... والـمـاجـد ابـن الـمـاجـد الـمِـسـمـاح
حُـلْـوُ الـسـجـيَّـة فـي قـنـاةٍ مُـرَّةٍ ... ثَـمِـلُ الـشـمـائـل فـي وَقـارٍ صـاح

* * *

شَـتَّـى فـضـائـلَ الـرجـال، كـأنـهـا ... شَـتَّـى سـلاحِ مـن قـنًـا وصِـفـاح[٢٤]
فإذا هـىَ اجتمعت لِمُلك جَبْهَةً ... كـانـت حـصـونَ مَـنـاعَـةٍ ونِـطـاح
الـلـهُ ألـف لـلـبـلاد صـدورَهـا ... مـن كـل داهـيـةٍ وكـل صُـراح
وزراءُ مـمـلـكـةٍ، دَعـائِـمُ دولَـةٍ ... أعـلامُ مـؤتَـمَـرٍ، أسـودُ صَـبـاحِ[٢٥]
يَبنون بالدستورِ حائطَ مُلْكِهم ... لا بـالـصَّـفـاحِ ولا عـلـى الأرْمـاحِ

وجَواهرُ التيجانِ ما لم تُتَّخَذْ   من مَعدِنِ الدستورِ غيرُ صِحاحِ

* * *

احْتَل حِصْنَ الحق غيرُ جنودِهِ   وتكالبت أيْدٍ على المفتاحِ
ضَجَّتْ على أبطالها ثُكُناتُه   واستَوْحَشَتْ لِكْماتِها النُّزاحِ
هُجِرَت أرائِكُهُ، وعُطِّلَ عودُه   وخلا من الغادين والرُّواحِ
وعَلاه نَسْجُ العنكبوتِ، فزاده   كالغارِ من شرفٍ وسمتٍ[٢٦] صلاح

* * *

قلْ للبنين مقالَ صدقٍ، واقْتَصِدْ   ذَرْعُ الشباب يضيق بالنُّصّاحِ:
أنتم بنو اليوم العصيبِ. نشأْتمو   في قَصْفِ أنواءٍ، وعَصْفِ رياحِ
ورأيتمو الوَطَنَ المؤلَّفَ صخرةً   في الحادثات وسَيْليها المجتاحِ
وشهدتمو صَدْعَ الصفوفِ وما جَنَى   من أمْر مُفْتاتٍ ونَهْيِ وَقَاحِ
صوتُ الشعوب من الزئير مُجمَّعًا   فإذا تفَرَّقَ كان بعضَ نُبَاحِ
اظْمَتْكُمو الأيامُ، ثم سقتكمو   رَنقًا من الإحسانِ غيرَ قَراحِ
وغدا مُنِحْتَ الخيرَ من مُتَكَلِّفٍ   ظَهَرَتْ عليه سجيَةُ المنّاحِ
تركَتْكُمو مثلَ المَهيضِ جناحُه   لا في الحبال، ولا طليق سَراحِ
مَنْ صَيَّيرَ الأغلالَ زَهْرَ قَلائدٍ   وكسا القيودَ محاسنَ الأوضاحِ؟
إن التي تبغون، دون منالِها   طولُ اجتهادٍ، واضطرادُ كِفاحِ
سيروا إليها بالأناة طويلةً   إن الأناةَ سبيلُ كلَّ فَلاح
وخذوا بناءَ المُلكِ عن دستوركم   إن الشَّراعَ مُثَقَّفُ المَّلاح
يت دارَ محمودٍ، سَلِمْتِ، وبورِكتْ   أركانُكِ الهرميَّةُ الصُّفَّاح[٢٧]
وازددْتِ من حسنِ الثناءِ وطيبه   حجرًا هو الدُّرَّيُّ في الأمداح
الأمةُ انتقلَتْ إليكِ، كأنما   أنزلْتِها من بيتها بجناح
بركاتُ شيخٍ بالصعيد مُحمَّل   عِبْءَ السنينَ مُؤَمَّلٍ نّفاح
بالأمس جادَ على القضيةِ بابنه   واليومَ آواها بأكْرَم ساح

النَّسْرُ المِصْريُّ[٢]

أَعُقابٌ في عَنانِ الجوَّ لاح   أم سحابٌ فرّ من هوُج الرياحْ؟
أم بساطُ الريحِ ردّته النوى   بعد ما طوَّف في الدهر وساحْ؟
أو كأن البرجَ ألقى حوتَه   فترامى في السموات الفِساح

***

أقبلَتْ مِنْ بُعُدٍ تحسبُها   نَحْلَةً عَنَّتْ وطَنَّتْ في الرياح
يا سلاحَ العصر بُشَّرْنا به   كلُّ عصرٍ بكَمِيًّ وسَلاح
إن عزًّا لم يظَلَّلْ في غدٍ   بجناحَيْكَ ذليلٌ مُسْتَباح
فتكاثَرْ وتألَّفْ قَيْلَقًا   تَعْصِمُ السّلمَ وتعلو للكفاح
مصرُ للطير جميعًا مسرحٌ   ما لنا فيه ذُنابَى أو جَناح
رُبَّ سِرْبٍ قاطعٍ مَرَّ به   هبط الأرض مَلِيًّا واستراح
لِمَ لا يفتن فتيانَ الحمى   ذلك الإقدامُ، أو ذاك الطَّماح؟
من فتًى حلّ من الجوَّ بهم   فتلقَّوْهُ على هامٍ وراح
أنه أوّلُ عُصفورٍ لهم   هزّ في الجوَّ جَناحيْه وصاح
دَبَّتْ الهِمَّةُ فيه، ومشت   عزماتٌ منكَ يا (حربُ) صيحاح[٢٨]
ناطَحَ النَّجمَ فتًى علَّمتَه   في حياةٍ حُرَّةٍ كيف النِّطاح
لك في الأجيالِ تمثالٌ مشى   وجدوا الرشدَ عليه والصّلاح
جاوز النيل وعبْرَيْه إلى   أكَم الشام وهاتيك البطاح

***

فارسَ الجوَّ، سلامٌ في الذُّرَى   وعلى الماءِ، ومن كل النواح
ثِبْ إلى النجم، وزاحِمْ ركنَه   وامتلئ من خُيَلاءٍ ومِراح
إنَّ هذا الفتحَ لا عهدَ به   لضِفاف النيل من عهد (فتاح)

[٢] قيلت بمناسبة قدوم صدقي الطيار المصري الأول من برلين إلى القاهرة طائرا في سنة ١٩٣٠.

تلك أبوابُ السماءَ انفتحت ما وراءَ البابِ يا طيرَ النجاح؟
اسماءُ النيلِ أيضًا حَرَمٌ من طريق الهندِ، أم جَوٌّ مُباح؟

* * *

عينُ شمسٍ مُلِئَتْ من موكبٍ كان للأبطالُ أحيانًا يُتاح
ربّما جلَّل وجهَ الأرض، أو ربّما سدّ على الشمس السراح
إن يَفُتْه الجيشُ أو روعتُه لم يفُتْه النَّشَأْ الزُّهْرُ الصَّباح
وفِدى (فائزةٍ) سُمْرُ القَنا وفِدى حارسِها بيضُ الصَّفاح
ولقد ابطأتَ حتى يَنمْ للحمى ليلٌ ولم ينَعم صَباح
فابتغى العُذْرَ كِرامٌ، وانْبَرَتْ ألسنٌ في الثَّلْم والهَدْمِ فِصاح
تلتوى الخيلُ على راكبها كيف بالعاصف في يوم الجِماح؟
ليس مَنْ يركبُ سَرْجًا ليِّنًا مثلَ مَنْ يركب أعرافَ الرياح
سِرْ رُوَيْدًا في فضاءٍ سافرٍ ضاحكِ الصفحةِ كالفردوس صاح
طرفت عَيْنًا به الشمسُ، فلو خُيِّرَتْ لم تتحقَّز للرواح
وتكاد الطيرُ من خفَّته تتعالى فيه من غير جَناح
قف تأَمل من عُلُوًّ قُبَّةً رُفِعتْ للفصل والرأْيِ الصُّراح
نزل النوّابُ فيها فتيةً في جَناح وشيوخًا في جَناح
حملوا الحقَّ وقاموا دونَهُ كرَعِيلِ الخيل أو صفَّ الرماح

* * *

يا أبا الفاروقِ، مَنْ ترعى ففى كنَفِ الفضل وفي ظلَّ السَّماح
أنت من آبائك السُّحْب، وما في بناءِ السُّحُبِ الأيدى الشَّحاح
يَدُكَ السَّمْحَةُ في الخير، وفي هِمَّةِ الغَرْسِ، وفي أَسْوِ الجراح
نحن افلحنا على الأرض بكم ورجونا في السماوات الفلاح

تُوتْ عَنْخ آمُون وَالبَرْلمان

قُمْ، سابِقِ (الساعةَ) واسْبِقْ وعدَهَا الأرضُ ضاقت عنكَ، فاصدعْ غِمْدَها

وامْـلأْ رمـاحًـا غـورَهـا ونَـجْـدَهـا … وافـتـح أصـولَ الـنـيـل واسـتـرِدَّهـا
شَـلاَّلَـهـا، وعَـذْبَـهـا، وعِـدَّهـا[٢٩] … واصـرفْ إلـيـنـا جَـزْرَهـا ومَـدَّهـا
تلك الوجوهُ لا شَكَوْنا فَقْدَهَا … بَـيَّـضَـتِ الـقُـرْبَـى لـنـا مُـسْـوَدَّهـا
سُلِلْتَ من (وادى الملوكِ) فازْدَهَى … والـقـت الـشـمـسُ عـلـيـه رَأْدَهـا
واسـتـرجَـعـتْ دولـتُـه إفـرِنْـدَهـا … أبـيـضَ، ريَّـانَ الـمُـتـونِ، وَرْدَهـا
أبْـلَـى ظُـبَـى الدهـرِ، وفَـلَّ حَـدَّهـا … وأخْـلَـقَ الـعـصـورَ، واسـتـجـدَّهـا
سـافَـرَ أربـعـيـنَ قَـرْنًـا عـدّهـا … حتى أتى الدارَ، فألقَى عِدنها
إنـجـلـتـرا، وجَـيْـشَـهـا، ولُـورْدَهـا … مَسلولَةَ الهِندِىَّ تَحمِى هِنْدَها
قامت على السودانِ تَبْنى سدَّها … وركَـزتْ دونَ الـقـنـاةِ بَـنْـدَهـا[٣٠]

* * *

فـقـال والـحـسـرةُ مـا أشـدَّهـا … : ليت جدارَ القبرِ ما تَدَهْدَها[٣١]
وليتَ عَينى لم تفارق رَقْدَها … قُمْ نَبَّنى يا بنتؤورُ: ما دها؟[٣٢]
مِصرُ فَتاتِى لم تُوَقَّرْ جَدَّها … دَقَّتْ وراءَ مَضجعِى جازْبَنْدَها
وخَـلَـطـتْ ظِـبـاءَهـا وأسْـدَهـا … وسكبَ الساقى الطَّلا، وبَدَّها[٣٣]
قد سَحبتْ على جلالى بُرْدَها … ليتَ جلالَ الموتِ كان صَدَّها

* * *

فـقـلـت: يـا مـاجـدَهـا وجَـعْـدَهـا[٣٤] … لو لم تكُ ابنَ الشمس كنتَ رِئْدَها[٣٥]
لَـحْـدُكَ وَدَّتْـهُ الـنـجـومُ لـحـدَهـا … أريـتـنـا الـدنـيـا بـه وجِـدَّهـا
سـلـطـانَـهـا، وعـزَّهـا، ورَغْـدَهـا … وكيف يُعْطَى المتَّقُون خُلدَها
آثاركم يُخْطِى الحسابُ عَدَّها … انـهـدَمَ الـدهـرُ ولـم يَـهُـدّهـا
أبوابُكَ الَّلاتى قَصَدْنا قَصْدَها … (كارترُ) في وجهِ الوفودِ رَدَّها
لـولا جـهـودٌ لا نـريـدُ جـحْـدَهـا … وحُـرمـةٌ مـن قُـربك اسـتـمـدَّهـا
قـلـتُ لـك: اضـربْ يَـدَه وقُـدَّهـا … وابعث له من البعوضِ نُكْدَها

* * *

مِـصُـر الـفـتـاةُ بَـلـغَـتْ أشُـدَّهـا … وأثـبـتَ الـدمُ الـزّكِـىُّ رُشْـدَهـا

ولِعبتْ على الجبالِ وَحْدَها   وجَـرَّبَـتْ إرْخـاءَهـا وشَـدَّهـا
فـأرسـلـتْ دُهـاتَـهـا ولُـدَّهـا[٣٦]   في الغْرب سدُّوا عنده مَسَدَّها
وبَـعَـثَـت لـلـبـرلـمـان جُـنْـدَهـا   وحَـشَـدَتْ لـلـمِـهْـرَجـانِ حَـشْـدَهـا
حَدَتْ إلـيـه شِـيـبَـهـا ومُـرْدَهـا   وابـرزَتْ كَـعـابَـهـا وخَـوْدَهـا
ونـثـرتْ فـوق الـطـريـق وَرْدَهـا   واسـتـقَـبـلـت فـؤادَهـا ووَفْـدَهـا
مَـوْئـلَـهـا، وكـهـفَـهـا، ورِدَّهـا[٣٧]   وابـنَ الـذيـن قَـوَّمـوا مَـقـدَّهـا
وألَّـفـوا بـعـد انـفـراطِ عِـقْـدَهـا   وجَـعـلـوا صـحـراءَ لـيـبـيـا حَـدَّهـا
وبَـسـطـوا عـلـى الـحـجـازِ أيْـدَهـا   وصـيّـروا الـعَـاتِـيَ فـيـه عَـبْـدَهـا
حـتـى أتـى الـدارَ الـتـي أعـدّهـا   لِـمصَـر تـبْـنِـى في ذَراها مَجْدَهـا
فـثـبَّـتَ الـشُّـورى، وشَـدَّ عَـقْـدَهـا   وقـلَّـدَ الـجـيـلَ الـسـعـيـدَ عَـهْـدَهـا

سُلْطَتُه إلى بنينا ردَّها

يـا ربَّ قَـوِّ يَـدَهـا، وشُـدَّهـا   وافْـتـح لـهـا السُّبْلَ، ولا تَسُدَّهـا
وقِـيـسْ لـكـلِّ خـطْـوَةٍ مـا بـعـدهـا   وعـن صـغـيـرات الأمـور حُـدَّهـا
واصرف إلـى جِدِّ الشئونِ جدّها   ولا تُضِعْ على الضحايا جُهْدَها
واكبحْ هوى الأنفُسِ، واكْسِرْ حِقْدَها   واجمعْ على الأمِّ الرَّءُوم وُلْدَها
واملأ بـأَلـبـانِ الـنُّـبـوغِ نَـهْـدَهـا   ولا تَـدَعْـهـا تُـحْـيِ مُـسْـتَـبِـدَّهـا
وتـنـجِـتْ بـراحَـتَـيْـهـا فَـرْدَهـا

مَصْرَعُ اللُّوردِ كِتْشنر

قِفْ بهذا البحرِ وانظُرْ ما غَمَرْ   مظـهـر الـشـمـس وإقـبـال الـقـمـرْ
واعـرِضِ الـموجَ مَلِيًّا، هل ترى   غَـمْـرَةً أوْدَتْ بـخَـوَّاض الـغُـمَـر؟
أخـذتْ نـاحـيـة الـحـقَّ بـهِ   وسبيلَ الناس في خالى العُصرُ
مَـنَـعَ الـلُّـبْـثَ وإن طـال الـمدَى   فَـلَـكٌ مـا لـعـصـاه مُـسْـتَـقَـرْ
دائـرُ الـدُّولابِ بـالـنـاس عـلـى   جـانـبَـيْـهِ الـمُـرْتَـقَـى والـمُـنْـحَـدَر

نقض (الإيوانَ) من آساسِهِ   وأتى (الأهرامَ) من أمِّ الحُجَر
ومَحا (الحمراءَ)[٣٨] إلا عمدًا   نَزْعُها من عَضُدِ الأرضِ عَسِر
أين (رومِيَّةُ)؟ ما قَيْصَرُها؟   ما لياليها المُرِنَّاتُ الوَتر؟
أين (وادى الطَّلْحِ)[٣٩] واللاَّئى به   من دُمًى يَسْحَبْنَ في المِسْكِ الحِبَر[٤٠]
أين (نابليونُ)؟ ما غاراتُه؟   شَنَّها الدهرُ عليه من غِيَر
أيُّها الساكنُ في ظلِّ المنى   نَمْ طويلاً، قد تَوَسَّدْتَ الزَّهَر
شجَرٌ نامٍ. وظِلٌّ سابغٌ   بَيْدَ أن الصَّلَّ[٤١] في أصل الشجر
يَذَرُ المرءُ ويَأْتى ما اشتهى   وقضاءُ اللهِ يَأْتى ويَذَر
كلُّ محمولٍ على النعش أخٌ   لك صافٍ وِدُّهُ بعدَ الكَدَر
إنْ تكن سِلْمًا له لم ينتقع   أو تكن حربًا فقد فات الضَّرر
راكبَ البحرِ، أمَوْجٌ ما ترى؟   أم كتابُ الدهرِ، أم صُحْفُ القَدَر؟
لُجَّةٌ (كاللَّوْحِ)، لا يُحْصَى على   فَلَمِ القُدرةِ فيها ما سطِر
فتلفَّتْ، وتنسَّمْ حكمةً   والمسِ العِبْرَةَ من بين الفِقَر[٤٢]
وتأمَّلْ مَلعبًا أعْجَبُهُ   آيةً جانِبُه المُرْخَى السُّتُر
ههنا تمشى الجوارى مَرَحًا   وجَوارى الدّهرِ يَمْشِينَ الخَمَر[٤٣]
رُبَّ سيفٍ ضرَب الجمع به   في كنوز البحر مطروح الكِسرَ[٤٤]
وَنجاد لم يُطاوَل ضَحْوَةً   ناله الفجرُ عِشاءً بالقِصَر
وسفين آمر فيها البِلى   طالما أوْحَتْ إليه فأْتَمَر
ووجوهٍ ذهب الماءُ بها   في نهار الفَرْقِ، أو ليلِ الشَّعَر
وعيونٍ ساجياتٍ سُجِّيَتْ   برُفاتِ السحرِ، أو فَلَّ الحَوَر[٤٥]
قُلْ لِلَيْثٍ خُسِفَ الغِيلُ به   بين طِمٍّ، وظلامٍ مُعْتَكِر[٤٦]
انظر الفلْكَ: امِنْهَا أثَرٌ؟   هكذا الدنيا إذا الموتُ حَضَر
هذه منزلةٌ لو زدتَها   ضاق عنك السعدُ، أو ضاق العُمُر
فامْضِ شيخًا في هوى المجدِ قضَى   رحمةَ المجدِ، ورفقًا بالكِبَر
مِيتةٌ لم تَلْقَ منها عَلَزًا[٤٧]   من وَقار الليْثِ أن لا يُحْتَضَر

* * *

أنْتمُ القومُ حِمَى الماء لكم   يرجع الوِرْدُ إليكم والصَّدَر

لُـجَـجُ الـدَّأْمـاءِ أوطـانٌ لـكـم ... ومـن الأوطـانِ دُورٌ وحُـفَـر
لَسْتَ في البحر وحيدًا، فاستَضِف ... فـيـه آبـاءَك تـنـزِلْ بـالـدُّرَر
رسَـبـوا فـيـه كـرامًـا وطـفـا ... طائفُ النصرِ عليهم والظَفَر

* * *

نَـشَـأَ (الـنـيـلِ)، إلـيكم سِـيـرة ... لـكـمـو فـيـهـا عِـظـاتٌ وعِـبَـر
إقرأوهـا يُكْشَف العصرُ لكم ... كـلُّ عـصـرٍ بـرجـالٍ وسِـيَـر
لا تـقـولـوا: شـاعرُ الـوادى غَوَى ... مَنْ يُغَالِطْ نفْسَه لا يعتبر
موقفُ التاريخ من فوق الهوى ... ومَقامُ الموتِ من فوق الهَذَر
ليس مَنْ مات بخافٍ عنكمو ... أو قليلِ الفعلِ فيكم والأثَر
شِدْتُمو دنياهُ في أحْسَنِها ... غزوة السودان والفتحَ الأغَرّ
وبـنـى مـمـلـكـةَ الـنُّـوبِ بـكـم ... فاذكروا القتلى، ولا تنسوا البِدّر[٤٨]
واحذَروا من قِسْمَةِ النيلِ فيا ... ضَيْعَةَ الوادى إذا النيلُ شُطِر

* * *

رجلٌ ليس ابنَ (قارونَ)، ولا ... بابن (عادىًّ) من العَظْم النَّخِر
ليس بالزاخر في العلم، ولا ... هو ينبوع البيانِ المنفَجِر
رَضعَ الأخلاقَ من ألبانها ... إن للأخلاق وقعًا في الصَّغَر
ورآهـا صـورةً فـي أمَّـةٍ ... ومن القُدْوَةِ ما تُوحِى الصُّوَر
ذلك المجدُ، هذى سُبْلُهُ ... بَيِّنٌ فيها سبيلُ المُعْتَذِر
ابْعَدَ الساعونَ يَبغون المَدى ... والمدى في المجد دانٍ لِنَفَر
كجياد السَّبْقِ، لن تُغنِيَها ... أدواتُ السْبقِ ما تغنى الفِطَر

* * *

وجَـنـاحٌ الـسَّـلـم إلا أنـهـا ... ساعةَ الرَّوْعِ جَناحٌ من سَقَر
من حديدٍ جانِباها سابغٍ ... ربَض الموتُ عليه وفَغَر
أشَبهَتْ افواهُها أعجازَها ... قُنْقُدٌ في اليَمَّ مشروعُ الإبَر
أرهفَتْ سَمْعَ العصا[٤٩] واكتحلت ... إثْمِدَ الزرقاءِ[٥٠] في عرض السَّدَر[٥١]

وتؤدَّى القولَ، لا يسبِقُها ... رُسُلُ الأرواحِ في نَقْلِ الفِكَر
خَطَرَتْ في مَحْجَرَيْها ومشَتْ ... بعيون الملكِ في بحرٍ وبَرّ
غابةٌ تجرى بسلطان الشَّرَى ... خادرًا في ألف نابٍ وظُفُر[٥٢]
وأذا الموتُ إلى النفس مشى ... وَرَكِبْتَ النجمَ بالموت عَثَر
رُبَّ ثاوٍ في الظُّبَى مُمْتَنِعٍ ... سَلَّهُ المِقدارُ من جفن الحَذَر
تسَحبُ الفولاذَ في مُلْتَطمٍ ... بالعوادِى مُتعالٍ مُعْتَكِر
لو أشارَتْ جاءَها ساحلُهُ ... في حديدٍ وعديدٍ مُنْتَصِر
أو فَدَى الميّتَ حَيٌّ فُدِيَتْ ... بوَقَاحٍ في الجوارى وخَفِر[٥٣]
بعث البحرُ بها كالموج من ... لُجَج السَّنْدِ وخُلْجَانِ الخَزَر[٥٤]
لمَسَتْها للمقاديرِ يَدٌ ... تلْمس الماءَ فَيَزمى بالشّرر
ضربتها وهْى سٌّر في الدُّجى ... ليس دونَ اللهِ تحتَ الليلِ سِرّ
وجَفَتْ قلبًا، وخارَتْ جُؤْجُؤًا ... ونَزَتْ جَنْبًا، ونَاءَتْ من أخَر
طُعِنَتْ، فانْبَجَسَتْ، فاسْصرخت ... فأتاها حَيْنُها، فَهْيَ خَبَر[٥٥]

الْبَرْلَمَانُ

على أثر ائتلاف الأحزاب

سكن الزمانُ، ولانت الأقدارُ ... ولكلَّ أمرٍ غايةٌ وقرارُ
أرْخَى الأعِنَّةَ للخطوبِ وردّها ... فَلَكٌ بكلَّ فُجاءَة دوّار
يجرى بأَمرٍ، أو يدور بضدَّه ... لا النقضُ يُعجزه، ولا الإمرار
هل آذنتنا الحادثاتُ بهدنة؟ ... وهل استجاب، فسالَم المقدار؟
سُدِلَ الستارُ، وهل شَهِدْتَ روايةً ... لم يعترضها في الفصول ستار؟
وجَرتْ فما استولَتْ على الأمد المنى ... وعدَتْ فما حَوَت المدى الأوطار
دون الجلاءِ، ودون يانع وَرْدِه ... خطواتُ شعبٍ في القَتادِ تُسار
وبناءُ أخلاقٍ عليه من النُّهى ... سُورٌ، ومن عِلْم الزمانِ إطار
وحضارةٌ من منطق الوادي لها ... أصلُ، ومن أدب البلادِ نِجار

* * *

أعْمَى هوى الوطن العزيز عصابة ... مُسْتَهْترين، إلى الجرائم ساروا
يا سوءَ سنُتِّهم وقُبْحَ غُلُوِّهم ... عن العقائدَ، بالغُلُوِّ تُضار
والحقُّ أرفعُ مِلَّةً وقضيّةً ... من أن يكون رسولَه الإضرارُ
أخِذَتْ بذنبهم البلادُ وأمّةٌ ... بالريف ما يدرون: ما السَّردار؟
في فتنةٍ خُلِطَ البريءُ بغيرهِ ... فيها، ولُطِّخَ بالدم الأبرار
لِقَىَ الرجالُ الحادثاتِ بصبرهم ... حتى انجلَتْ غُنَمٌ لها وغِمار
لانوا لها في شِدَّةٍ وصلابةٍ ... لينَ الحديدِ مَشَتْ عليه النار
الحقُّ أبلجُ، والكنِانةُ حُرَّةٌ ... والعزُّ للدستور والإكبارُ
الأمرُ شورَى، لا يَعِيثُ مُسَلَّطٌ ... فيه، ولا يَطْغَى به جبّار
إن العنايةَ للبلاد تخيَّرَتْ ... والخيرُ ما تقضى وما تختار
عهدٌ من الشُّورَى الظَّليلةِ نُضَّرتْ ... آصالُه، واخْضَلَّت الأسحار
تجنى البلادُ به ثمارَ جهودها ... ولكل جهدٍ في الحياةِ ثمار
بنيانُ آباءٍ مَشَوْا بسلاحهم ... وبَنِينَ لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التلَّ المُدَرَّجِ حائطٌ ... ومن المشانق والسجون جدار
أبت التقيُّدَ بالهوى، وتَقَيَّدَتْ ... بالحق أو بالواجبِ الأحرارُ
في مجلس لا مالُ مصرَ غنيمةٌ ... فيه، ولا سلطانُ مصر صَغارُ
ما للرجال سوى المَراشد منهجٌ ... فيه، ولا غيرَ الصَّلاحِ شِعار
يتعاونون كأَهل دارٍ زُلْزِلَتْ ... حتى تَقَرَّ وتَطمِئنَّ الدار
يُجرون بالرفق الأمورُ وفُلْكها ... والريحُ دونَ الفلكِ والإعصارُ
ومع المجدَّدِ بالأناة سلامةٌ ... ومع المجدَّد بالجِماح عِثار
الأمةُ ائْتلَفَتْ، ورَصَّ بناءها ... بانٍ زعامتُه هدًى ومَنار
أسدٌ وراءَ السنَّ مَعقودُ الحُبا ... يأْبَى ويَغضبُ للشَّرَى ويَغار
كَهْفُ القضِيَّةِ لا تنام نُيوبُه ... عنها، ولا تتناعس الأظفار
يومَ الخميس، وراءَ فَجْرِك للهدى ... صبحٌ، وللحقّ المبين نهار
ما أنت إلاّ فارِسِيٌّ، لَيْلُهُ ... عُرسٌ، وصدرُ نهارِه إعذار
بَكَرَتْ تُزاحِم مِهْرَجانَك أمَةٌ ... وتلَفَّتَتْ خلفَ الزحامِ ديار
وروى مواكبَك الزمانُ لأهله ... وتنقَّلَتْ بجلالها الأخبار

أقبلْتَ بالدستور أبْلَجَ زاهرًا يَفْتَنُّ في قَسَماتِه النُّظار
وذُؤابةُ الدنيا تَرِفُّ حَداثةً عن جانبيه، وللزمان عِذار
يحمى لَفَائِفَهُ، ويحرس مَهْدَه شيخٌ يّذودُ، وفتيةٌ أنصار
وكأنه عيسى الهُدى في مهدِه وكأن سعدًا يوسُفُ النجار
التاج فُصِّل في سمائك بالضحى منك الحلَى، ومن الضحى الأنوار
يكسو من الدستور هامةَ رَبِّهِ ما ليس يكسو الفاتحين الغار
بالحق يفتح كلُّ هادٍ مُصلحٍ ما ليس يفتح بالقنا المِغْوارُ

***

وطنى، لديكَ — وأنت سَمْحٌ مُفْضِلٌ — تُنْسَى الذنوبُ، وتّذكَر الأعذار
تاب الزمانُ إليكَ من هفواته بوزارة تُمْحَى بها الأوزار

قصيدة في حفلة

وقال وقد القيت في حفلة نسائية عظيمة انعقدت بدار التمثيل العربي برئاسة السيدة هدى شعراوى:

قُلْ للرّجَالِ: طغى الأسيرْ طيرُ الحِجالِ متى يَطيرْ؟
أوْهَى جنَاحَيْهِ الحديـ ـدُ، وحَزَّ ساقَيْهِ الحرير
ذهب الحِجابُ بصبره وأطال حيْرتَه السُّفور
هل هُيِّئَتْ دَرَجُ السما ء له، وهل نُصَّ الأثير؟
وهل استمرَّ به الجَنا حُ، وهَمَّ بالنَّهْض الشكير؟[٥٦]
وسما لمَنزله من الد نيا، ومنزلُه خطير؟
ومتى تُساس به الريا ضُ كما تُساس به الوكور
أوَ كُلُّ ما عند الرجا لِ له الخواطبُ والمهور؟
والسجنُ في الأكواخ، أو سجنٌ يقال له: القصور؟

***

تاالله لو أن الأد يمَ جميعَه روضٌ ونور

فــي كــل ظــل ربــوةٌ وبــكــلّ وارفــةٍ غــديــر
في كلّ ظلَّ من ذَهبِ سيا جٌ، أو من الياقوت سور
مـا تَـمَّ من دون السـمـا ءِ له على الأرض الحُبور
إن الــســمــاءَ جــديــرةٌ بالطير، وهْوَ بها جدير
هي سَرْجُهُ المشدودُ، وهــ ــو عـلـى أعِنَّـتـهـا أمـيـر
حُــرَّيَّــةٌ خُــلِــق الإنــا ثُ لها، كما خُلِقَ الذكور

***

هاجَتْ بناتِ الشعرِ عيــ ــنٌ من بنات النيل حُور
لــي بــيــنــهــن ولائــدٌ هم من سواد العين نور
لا الشعْر يأْتى في الجما ن بمثلهن، ولا البحور
من أجلهن أنا الشفيــ ــقُ على الدُّمَى، وأنا الغيور
أرجو وآمل أن ستجــ ــرى بالذى شِئنَ الأمور

***

يا قاسمُ، أنظر: كيف سا ر الفكرُ وانتقل الشعور؟
جابت قضيَّتُكَ البلا دَ، كأنها مَثَلٌ يسير
مــا الــنــاسُ إلا أوّلٌ يمضى فيخلُفه الأخير
الفكرُ بينهما على بُعْدِ المَزارِ هو السفير
هذا البناءُ الفخمُ ليــ ــس أساسُه إلا الحَفير
إن التي خلَّفْتَ أمــ ــسِ، وما سِواكَ لها نصير
نهض الحفىُّ بشأْنها وسعى لخدمتها الظهير
في ذمة الفُضْلَى هدى جِيلٌ إلى هاد فقير
أقبلْنَ يسأَلْنَ الحضا رةَ ما يُفيد وما يَضير
ما السُّبْلُ بَيْنَةٌ، ولا كلُّ الهُداةِ بها بصير

***

مـا فـي كـتـابـكَ ظَـفْـرَةٌ تُنْعَى عليكَ، ولا غرور

هَذَّبْتَهُ حتى استقامت   من خلائقك السطور
ووضعْتَه، وعلمْتَ أن   حسابَ واضعِه عسير
لك في مسائله الكلا   مُ العفُّ والجدلُ الوَقور
ولك البيانُ الجذلُ في   أثنائه العلمُ الغزير
مطلبٍ خَشِنٍ، كَثـ   ـيرٌ في مَزالقه العُثور
ما بالكتاب ولا الحديد   ـث إذا ذكرْتَهُما نَكير
حتى لَنسألُ: هل تَغا   رُ على العقائد، أم تُغير؟
عشرون عامًا من زوا   لك ما هي الشئُ الكثير
رُعْنَ النساءَ، وقد يَرُو   عُ المُشْفِقَ الجلَلُ اليسير
فنَسِينَ أنك كالبدو   ر، ودونَ رِفعتِكَ البُدور
تفنى السَّنونَ بها، وما   آجالُها إلا شهور

***

لقد اختلفنا، والمُعا   شِرُ قد يخالفه العَشير
في الرأْى، ثُمّ أهاب بى   وبك المُنادِمُ والسَّمير
ومحا الرَّواحُ إلى مغا   نى الودَّ ما اقترف البُكور
في الرأْى تَضْطَغِنُ العقو   لُ وليس تضطغن الصدور

***

قل لى بعيشِك: أين أنـ   ـت؟ وأين صاحبُك الكبير؟
أين الإمامُ؟ وأين إسـ   ـماعيلُ والملأُ المنير؟
لما نزلتم في الثرى   تاهت على الشهب القبور
عصر العباقرةِ النجو   مِ بنوره تمشى العصور

تكْريمُ حسَنين بك بمُنَاسَبَة طَيَرانه

جِنٌّ على حَرَمِ السماءِ أغاروا   أم فتيةٌ ركبوا الجَناح فطاروا؟
من كلَّ أهوجَ في الهواءِ عِنانُه   هُوجُ الرياحِ، وسَرْجُه الأعصار

يبغى حجابَ الشمس يطلب عندها   عزًا تَحَمَّله الجُدودُ وساروا
لم يبقَ منه ومن حضارةِ عهدِه   إلاَّ صُوًى مَحجوجةٌ ومنار
ومقالةُ الأجيالِ لم يَلْحَقْ بهم   بانٍ، ولم يُدركُهمُ حَفَّار

* * *

طلعوا على الوادى براية عصرهم   ولكلَّ عصرٍ رايةٌ وشِعار
اثنان ثم ترى النسور كثيرةً   من كلَّ ناحية لها أوْ كار
سِرُّ النجاحِ ورُكْنُ كلَّ حضارةٍ   هِمَمٌ من المتطوعين كِبار
نُسِخَتْ بأبطال السماءِ بطولةٌ   في الأرض يوشِكُ ركنُها ينهار
هذا زمانٌ لا ألأعِنَّةُ منزلٌ   للبأس فيه، ولا الأسِنَّةُ دار
ما البأْسُ إلا من جَنَاحَىْ خاطف   في البرّ والبحرِ اسمُه الطيّار
أترى السلامة في السماءِ وظلَّها   أم بالسماءِ يصولُ الاستعمار؟
حَرَمُ الهدى والحقَّ رِيعَ جلالُه   وغدا وراح بجانِبَيْه دَمار
يا جائبَ الصحراءِ ملْءُ سرابِها   غَرَرٌ، ومِلْءُ تُرابِها أخطار
يكفيك من هِمَمِ الشجاعةِ ليلةٌ   لك من غَوائلها خَلَتْ ونهار
لما اعتمدْتَ على الجناحِ تلفَّتَتْ   بِيدٌ، وقّلَّبَت العيونَ قِفار
في كلَّ صحراءٍ، وكلَّ تَنُوفَةٍ   أرضٌ عليك من السماءِ تَغار
(حَسَنَيْنُ)، لو لم يَعذِروكَ لبادرَتْ   لكَ من لسان جراحِكَ الأعذار
لله سرجُك في السماءِ، فإنه   سَرْجُ الأهِلَّةِ ما عليه غُبار
عَرَضَ الخُسوفُ له فما أزْرَى به   ما في الخسوف على الأهِلَّة عار
أوَلَمْ تَطَأْ أرضَ السماءِ، ولم تَدُرْ   حيثُ الشموسُ تَدورُ والأقمار؟
ألقى أبو الفاروق نحَوك بالَه   وتشاغلت بك أمَّةٌ ودِيار
مَلكٌ رُحِمْتَ بقُرْبِهِ وجِوارِه   حتى كأنك للعناية جار

* * *

نْصِبَ السُّرادِقُ والمطارُ، وحَلَّقَتْ   في الجوَّ تَلْمَسُ شَخْصَكَ الأبصار
فلمسْتَ أقْضِيَةَ السماءِ، وأسْفَرَتْ   حتى نظَرْتَ وجوهَها الأقدار
قَدَرٌ على يُمْنَى يَدَيْهِ سلامةٌ   لك حيثُ مِلْتَ، وفي السماءِ عِثار

فإذا سَقَطْتَ على حديد مُضْرَمٍ صَدَفَ الحديدُ، ولم تَنَلْكَ النار
ماذا لقيتَ من النجائب كُلَّها؟ قُلْ لِى، أعندَكَ للنجائب ثار؟
هِذى تَعَثَّرُ في الزَّمام، وتلك لا تمضى، وأخرى في السُّلوك تَحار
فَشَلٌ يُعَظَّمُ كالنجاح عليه من شَرَفِ الجروحِ ونورِهِنَّ فَخار
لو لم يكن قَتْلَى وجَرْحَى في الوَغى لم يَعْلُ هامَ الظافرين الغار

صَقْرُ قُرَيْش (عَبْدُ الرَّحمن الدَّاخل)

موشح أندلسى

مَنْ لِنضْوٍ يتَنَزَّى[٥٧] ألما بَرَّحَ الشوقُ به في الغَلَسِ
حَنّ للْبانِ وناجَى العَلما أين شرقُ الأرضِ من أنْدَلُسِ

* * *

بُلبُلٌ علَّمه البينُ البيان بات في حَبْل الشُّجونِ ارْتَبكا
في سماءِ الليلِ مَخلوعَ العِنان ضاقت الأرضُ عليه شَبَكا
كلما اسْتَوْحَشَ في ظلَّ الجِنانْ جُنَّ فاسْتَضْحَكَ مِنْ حَيْثُ بكى
ارتدى بُرْنُسَه والْتَثَما وخَطا خُطْوَةَ شَيْخٍ مُرْعَسٍ[٥٨]
ويُرَى ذا حَدَبٍ إن جَثَما فإن ارتَدَّ بدا ذا قَعَسِ[٥٩]

* * *

فَمُهُ القانى على لَبَّتِه كبقايا الدَّمِ في نَصْلٍ دَقيق
مَدّه فانْشَقَّ من مَنْبِته مَنْ رأى شِقَّيْ مِقَصّ مِنْ عَقِيق؟
وبكى شجواً على شعْبته شَجْوَ ذاتِ الثُّكْلِ في السَّنْرِ الرَّقيق
سَلّ ن فِيهِ لسانًا عَنَمًا[٦٠] ماضيًا في البَثَّ لم يَحتَبِسِ
وتَرٌ من غير ضربٍ رَنَّما في الدُّجى، أو شَرَرٌ من قَبَسِ

* * *

نَفَرَتْ لَوْعَتْه بعدَ الهدوءْ والدُّجى بيتُ الجَوَى والبُرَحا

يَـتـعـايـا بـجَـنـاحٍ ويَـنـوءْ　　بجناحٍ مُذْ وَهَى ما صلحا
ساءَه الدهرُ، وما زال يَسوءْ　　ما علَيه لو أسا ما جَرَحَا
كـلّـمـا أدْمَـى يَـدَيْـه نَـدَمـا　　سـالـتـا من طَـوْقِـه والبُـرنُـسِ
فِـنِـيَـتْ أهـدابُـه إلاَ دَمـا　　قام كالياقوت لم يَنْبَجِسِ[٦١]

***

مَدَّ في الليلِ أنينًا وَخَفَقْ　　خَفَقَانَ القُرْطِ في جُنح الشَّعَرْ
فرَغَتْ منه النَّوى غيرَ رَمَقْ　　فضلَةَ الجُرحِ إذا الجُرحُ نَغَرْ[٦٢]
يـتـلاشـى نَـزَوَاتٍ فـي حُـرَقْ　　كذُبـالٍ آخِـرَ الـلـيـلِ اسْـتَـعَـرْ
لم يكن طّوْقًا، ولكنْ ضرَما　　مـا عـلـى لَـبَّـتـه مـن قَـبَـسِ
رحـمـةُ الـلـهِ لـه! هـل عَـلِـمـا　　أنّ تلك النفسَ من ذا النَّفَسِ؟

***

قُلْتُ للَّيْلِ — ولليل عَوَادْ —　　مَنْ أخو البَثَّ؟ فقال: ابنُ فِراقْ
قلت: ما واديه؟ قال: الشَّجْوُ وادْ　　ليس فيه من حِجازٍ أو عراقْ
قلتُ: لكنْ جَفْنُه غيرُ جوادْ　　قال: شرُّ الدمعِ ما ليس يُراقْ
نَغْبِطُ الطيرَ، وما نعلم ما　　هـي فـيـه مـن عـذاب بَـئِـسِ
فـدَعِ الـطـيـرَ وحـظًّـا قُـسِـمـا　　صَـيَّـرَ الأيْـكَ كُـدورِ الأنَـسِ

***

ناحَ إذا جَفْناىَ في أسْرِ النجومْ　　رَسفَا في السُّهْدِ والدّمعُ طليقْ[٦٣]
أيُّها الصارخُ من بحر الهموم　　ما عسى يُغنى غريقٌ عن غريقْ؟
إن هذا السَّهمَ لى منه كُلُومْ　　كـلُّـنـا نـازحُ أيْـكٍ وفـريـق
قـلَّـب الـدنـيـا تَـجِـدْهَـا قِـسَـمـا　　صُـرَّفَـتْ مـن أنْـعُـمٍ أو أبْـؤسِ
وانظر الناسَ تَجِدْ من سَلِما　　من سهام الدهر شَجَّتْهُ القِسِى

***

يا شبابَ الشرقِ عُنْوانَ الشبابْ　　ثمراتِ الحَسَبِ الزّاكى النَّمير
حَسْبُكم في الكرم المْحضِ اللُّبَابْ　　سِيرةٌ تبقى بقاءَ ابنَى سَميرْ[٦٤]

في كتاب الفخرِ (للداخلِ)[٦٥] بابْ   لم يَلِجْه من بنى المُلْكِ أميرْ
في الشموس الزُّهْرِ بالشام انتمى   ونَـمَـى الأقـمـارَ بـالأنـدلـسِ
قـعـد الـشـرقُ عـلـيـهـم مـأتَـمـا   وانثنى الغربُ بهم في عُرُسِ

* * *

هل لكم في نَبَإٍ خير نَبَأْ   حِلْيةِ التاريخِ، مَأثورٍ عظيمْ
حَلَّ في الأنباءِ ما حَلَّتْ سَبَأْ   منزلَ الوُسْطَى من العِقْدِ النَّظِيمْ
مِثْلَه المقدارُ يومًا ما خَبَأْ   لسَليب التاجِ والعرشِ كظيم
يُعْجِزُ القُصّاصَ إلا قَلَمَا   في سوادٍ مِنْ هَوًى لم يُغْمَسِ
يُؤْثِرُ الصدقَ ويَجْزِى عَلَما   قلَبَ العالمَ لو لم يُطْمَسِ؟

* * *

عن عِصامِيًّ نبيلٍ مُعْرِقِ   في بُناةِ المجدِ ابناءِ الفخَار؟
نهضت دَوْلَتهُم بالمشرقِ   نهضَة الشمس بأطراف النهارْ
ثم خان التاجُ وُدّ المَفْرِقِ   ونبَتْ بالأنْجُمِ الزُّهْرِ الديارْ
غفلوا عن ساهر حولَ الحِمى   باسطْ من ساعِدَيْ مُفْترِسِ
حام حولَ الملكِ ثم اقتحما   ومشى في الدم مَشْيَ الضَّرِسِ

* * *

ثَأْرُ عثمانَ لمروانٍ مَجازْ   وَدَم السَّبْطِ[٦٦] أثار الأقربونْ
حَسَّنوا للشام ثأْرًا والحجازْ   فتغالى الناسُ فيما يطلبونْ
مَكْرُ سُوّاسٍ على الدَّهْماءِ جازْ   ورُعاةٌ بالرعايا يلعبون
جعلوا الحقَّ لبَغْي سُلَّمَا   فهو كالسَّتر لهم والتُّرُسِ
وقديمًا باسمه قد ظَلَما   كلُّ ذى مِئْذَنَةٍ أو جَرَسِ

* * *

جُزِيَتْ مَرْوَانُ[٦٧] عن آبائِها   ما أراقوا من دِماءٍ ودُموعْ
ومن النفسِ ومن أهوائها   ما يؤدِّيه عن الأصل الفُروعْ
خَلَت الأعوادُ من أسمائها   وتَغَطَّتْ بالمصالِيب الجُذوعْ

ظَلَمتْ حتى أصابَتْ أظْلَما[٦٨] حاصدَ السيف، وبىءَ المَحبَسِ
فَطِناً في دعوة الآلِ لما هَمس الشَّانِى وما لم يَهْمِسِ

* * *

لبِسَتْ بُرْدَ النبىَّ النَّيَّراتْ من بنى العباس نورًا فوقَ نُورْ
وقديمًا عند مَرْوَانٍ تِراثْ لزكِيّاتٍ من الأنفُسِ نُورْ
فنجا الداخلُ سَبحْاً بالفُراتْ تاركَ الفتنةِ تطْغَى وتَنور[٦٩]
غَسَّ[٧٠] كالحُوتِ به واقتحما بين عِبْرَيْهِ عيونَ الحرَسِ
ولقد يُجْدِى الفتى أن يَعلَما صَهوةَ الماءِ ومَتْنَ الفَرَس

* * *

صَحِبَ الداخلَ من إخْوَتِهِ حَدَثٌ خاض الغُمَارَ ابْنَ ثَمَانْ
غلَبَ الموجَ على قُوَّتِه فكأن الموجَ من جُندِ الزمانْ
وإذا بالشَّطِّ من شِقْوَتِهِ صائحٌ صاحَ به: نِلتَ الأمانْ
فانثنى مُنْخَدِعًا مُسْتَسْلِما شاةٌ اغْتَرَّتْ بعهدِ الأطْلَسِ[٧١]
خَضَبَ الجندُ به الأرضَ دَما وقلُوبُ الجندِ كالصخرِ القَسِى

* * *

أيها اليائسُ، مُتْ قبلَ المماتْ أو إذا شئتَ حياةً فالرَّجا
لا يَضِقْ ذَرْعُك عند الأزماتْ إن هي اشتدَّتْ وأَمِّلْ فَرَجا
ذلك الداخلُ لاقَى مُظْلِماتْ لم يكن يأمُل منها مَخْرجا
قد تَوَلَّى عِزُّه وانصَرما فمضى من غَدِه لم يَيْأَسِ
رامَ بالمغربِ مُلْكًا فرمى أبعدَ، الغَمْرِ، وأقصى اليَبَسِ

* * *

ذاك — واللهِ — الغِنَى كلُّ الغِنَى أىّ صعبٍ في المعالى ما سَلَكْ
ليس بالسائل إن هَمَّ: مَتى؟ لا، ولا الناظرِ ما يُوحِى الفَلَكْ
زايَلَ المُلْكُ ذَوِيهِ فأتى مُلكَ قومٍ ضَيَّعوه فملَكْ
غَمَراتٌ عارَضَتْ مُقْتَحِما عالِىَ النفسِ أشَمَّ المَعْطس[٧٢]

كلُّ أرضٍ حَلَّ فيها، أو حِمَى   منزلُ البدرِ، وغابُ البَيْهَسِ[٧٣]

* * *

نزَلَ النَّاجى على حُكم النَّوَى   وتَوارَى بالسُّرى من طالبيهْ
غيرَ ذى رَحْلٍ ولا زادٍ سوى   جَوْهَرٍ وافاه من بيت أبيهْ
قمرٌ لاقى خُسوفًا فانْزَوى   ليس من آبائه إلا نبِيهْ
لم يَجِدْ أعوانَه والخَدَما   جانبوه غيرَ (بَدْرٍ) الكَيِّسِ
من مَوَالِيه الثِّقاتِ القُدما   لم يخنه في الزمان المُوئِسِ

* * *

حينَ في إفريقيا انحلَّ الوِئَامْ   وتَوارَى بالسُّرَى من طالبيهْ
ماتت الأُمَّةُ في غير التئامْ   جَوْهَرٍ وافاه من بيت أبيهْ
يَمَنٌ سَلَّتْ ظباها والشآمْ   ليس من آبائه إلا نبِيهْ
فرَّق الجندَ الغِنى فانقَسما   جانبوه غيرَ (بَدْرٍ) الكَيِّسِ
أوحَشَ السُّؤددُ فيهم، وسَما   لم يخنه في الزمان المُوئِسِ

* * *

حينَ في إفريقيا أنحلَّ الوِئَامْ   واضمحلَّتْ آيةُ الفتحِ الجليلْ
ماتت الأُمَّةُ في غير التئامْ   وكثيرٌ ليس يلتامُ قليلْ
يَمَنٌ سَلَّتْ ظباها والشآمْ   شامَها[٧٤] هِنْدِيَّةً ذاتَ صَليلْ
فرَّق الجندَ الغِنى فانقَسما   وغدا بينهم الحقُّ نَسِى
أو حَشَ السُّؤددُ فيهم، وسَما   للمعالى مَنْ به لم تَأنَسِ
رُجِموا بالعَبقرىَّ النَّابِهِ   البعيدِ الهِمَّةِ الصّعْبِ القِيادْ
مدَّ في الفتحِ وفي أطنابِهِ   لم يَقِفْ عندَ بِناءِ ابن زِياد[٧٥]
هجرَ الصَّيْدَ، فما يُغْنَى به   وهْوَ بالملك رفيقٌ ذو اصطيادْ
سئلْ به أندلسًا: هل سَلِما   من أخى صَيْدٍ رفيق مَرِسٍ؟[٧٦]
جرَّد السيفَ، وهزَّ القلما   ورمى بالرأْى أمَّ الخُلَس[٧٧]

* * *

بسلامٍ شا شِراعًا ما دَرَى   ما عليه من حَياءٍ وسَخاءْ
في جَنَاحِ المَلَكِ الرُّوح[٧٨] جَرى   وبريحٍ حفَّها اللطفُ رُخَاءْ
غسل اليَمُّ جِراحَاتِ الثَّرى   ومحا الشَّدَّةَ مَنْ يمحو الرَّخاءْ
هل دَرى أندلسٌ مَنْ قِدمَا   دارَه من نحو بيتِ المَقدِسِ؟
بسليل الأمَويّين سَما   فتحُ موسى مُسْتَقِرَّ الأسُسِ

* * *

أمويٌّ للعُلا رِحلَتُهُ   والمعالى بمطِيًّ وطُرُقْ
كالهلال انفردَتْ نُقْلَتُهُ   لا يُجاريه ركابٌ في الأفُقْ
بُنِيَتْ من خُلُق دُولتُهُ   قد يَشِيدُ الدُّوَلَ الشُّمَّ الخُلُقْ
وإذا الأخلاقُ كانت سُلَّما   نالت النجمَ يَدُ للمُلتَمِسِ
فارْقَ فيها تَرْقَ أسبابَ السما   وعلى ناصيةِ الشمسِ اجْلِسِ

* * *

أيّ مُلكٍ من بِناياتِ الهِمَمْ   أسَّسَ الدّاخلُ في الغربِ وشادْ؟
ذلك الناشئ في خيرِ الأمَمْ   ساد في الأرض ولم يُخْلَقْ يُساد
حكمَتْ فيه الليالي وحَكمْ   في عَواديها قِيادًا بقِيادْ
سُلِب العزَّ بشرقٍ فرَمى   جانبَ الغربِ لعزٍّ أقْعَسِ
وإذا الخيرُ لعبدٍ قُسِما   سنَح السَّعدُ له في النَّحَسِ

* * *

أيُّهَا القلبُ، أحقٌّ أنتَ جارْ   للذى كان على الدهر يجِيرْ؟
هاهنا حلّ به الرّكبُ وسارْ   وهنا ثاوٍ إلى البعث الأسيرْ
فَلَكٌ بالسعدِ والنحسِ مُدارْ   صَرع الجَامَ[٧٩] وألْوَى بالمُديرْ
هاهنا كنتَ تَرى حُوَّ الدُّمَى   فاتناتٍ بالشَّفاه اللُّعُسِ[٨٠]
ناقلاتٍ في العَبيرِ القَدَما   واطئاتٍ في حَبيرِ السُّندُسِ

* * *

خُذْ عن الدنيا بليغَ العِظَةِ   قد تَجلَّتْ في بليغ الكَلِم

طَرفاها جُمِعا في لَفْظَةٍ فتأمَّلْ طَرفَيْها تَعْلَمِ
الأماني حُلمٌ في يَقْظَةٍ والمنايا يقظةٌ من حُلُمِ
كلُّ ذي سِقْطَيْنِ[٨١] في الجوِّ سما واقعٌ يومًا وإن لم يُغْرَسِ
وسيلقى حَيْنَهُ نَسْرُ السما يوم تُطْوَى كالكتاب الدرس

***

أين — يا واحدَ مروانَ — عَلَمْ من دعاك الصقر سَمَّاه العُقابْ؟[٨٢]
رايةٌ صرَّفها الفرْدُ العَلَمْ عن وجوه النصرِ تصريفَ النقابْ
كنتَ إن جرَّدْتَ سيفًا أو قَلَمْ أبْتَ بالألباب أو دِنْتَ الرَّقابْ
ما رأى الناسُ سواه عَلَما لم يُرَمْ في لُجَّةٍ أو يبسِ
أعَلى رُكن السَّماك أدَّعَما وتغطَّى بجَناح القُدُسِ

***

قصرُك (المُنْيَةُ) من قُرْطُبَةِ فيه وارَوْكَ، ولله المَصيرْ
صَدَفٌ خُطَّ على جوهرة بَيْدَ أن الدهر نَبَّاشٌ بصيرْ
لم يَدَعْ ظَلا لقصر (المُنْيَةِ) وكذا عُمْرُ الأمانِيَّ قصيرْ
كنتَ صقرًا قُرَشِيًّا عَلَمَا ما على الصقر إذا لم يُرْمَسِ
إن تسَلْ: أين قبورُ العُظَما؟ فعلى الأفواه أو في الأنفُسِ

***

كم قبورٍ زَيَّنَتْ جِيدَ الثرى تحتها أنجسُ من مَيْتِ المجوسْ
كان مَنْ فيها وإن جازوا الثرى قبلَ موتِ الجسم أمواتُ النفوسْ
وعظامٌ تتزكَّى عنبرا من ثناءٍ صِرْنَ أغفالَ الرُّموسْ
فاتَّخِذْ قبرَك من ذِكرٍ، فما تَبْنِ من محموده لا يُطْمَسِ
هَبْكَ من حرص سكْنتَ الهرما أين بانيه المينعُ الملْمَسِ؟!

زَحْلَة

شيّعتُ أحلامي بقلبٍ باكِ   ولمحتُ من طُرُق المِلاحِ شِباكي

ورجعتُ أدراجَ الشباب ووِرْدَه   أمشي مكانَهما على الأشواك

وبجانبي واهٍ، كأن خُفوقَه   لما تلفَّتَ جَهْشَةُ المتباكي

شاكى السلاحِ إذا خلا بضلوعه   فإذا أُهِيبَ به فليس بشاك

قد راعه أني طوَيْتُ حبائلي   من بعد طول تناولٍ وفكاك

وَيْحَ ابنِ جَنْبى؟ كلُّ غايةِ لذَّةٍ   بعدَ الشباب عزيزةُ الإدراك

لم تبقَ منا — يا فؤادُ — بقيّةٌ   لفتوّةٍ. أو فَضلةٌ لعِراك

كنا إذا صفَّقْتَ نستبق الهوى   ونَشُدُّ شَدَّ العُصبةِ الفُتَّاك

واليومَ تبعث فيّ حين تَهُزُّني   ما يبعث الناقوسُ في النُّسَاك

يا جارةَ الوادى، طَرِبْتُ وعادني   ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك

مَثَّلْتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى   والذكرياتُ صَدَى السنينَ الحاكى

ولقد مررْتُ على الرياض بَربْوَةٍ   غَنَّاءَ كنتُ حِيالَها ألقاك

ضحِكَتْ إلىَّ وجُوهها وعيونُها   ووجدْتُ في أنفاسها ريّاك

فذهبتُ في الأيام أذكر رَفْرَفًا   بين الجداولِ والعيونِ حَواك

إذكَرْتِ هَرْوَلَةَ الصبابةِ والهوى   لما خَطَرْتِ يُقبِّلان خُطاك؟

لم أدر ما طِيبُ العِناقِ على الهوى   حتى ترفَّق ساعدى فطواك

وتأوَّدتْ أعطافُ بانِك في يدى   واحمرّ من خَفَرَيْهما خدّاك

ودخَلْتُ في ليلين: فَرْعِك الدُّجى   ولثمتُ كالصبّح المنوَّرِ فاكِ

ووجدْتُ في كُنْهِ الجوانحِ نَشْوَةً   من طيب فيك، ومن سُلاف لَمَاك

وتعطَّلَتْ لغةُ الكلامِ وخاطبّتْ   عَيْنَىَّ في لغة الهوى عيناك

ومَحَوْتُ كلَّ لُبانةٍ من خاطرى   ونَسِيتُ كلَّ تَعاتُبٍ وتَشاكى

لا أمسِ من عمرِ الزمان ولا غَدٌ   جُمِع الزمانُ فكان يومَ رِضاك

***

لُبنانُ، ردّتنى إليكَ من النوى   أقدارُ سَيْرٍ للحياة دَرَاك

جمعَتْ نزيلَىْ ظَهرِها من فُرقةٍ   كُرَةٌ وراءَ صَوالجِ الأفلاك

نمشى عليها فوقَ كلَّ فجاءَةٍ   كالطير فوقَ مَكامِنِ الأشراك

ولو أنَّ بالشوق المزارُ وجدتنى   مُلْقى الرحالِ على ثَراك الذاكى

***

بِنْتَ البِقاعِ وأمَّ بَرَدُونِيَّها ... طِيبِي كجِلَّقَن واسكبي بَرداك
ودِمَشْقُ جَنَّاتُ النعيم، وإنما ... ألفَيْتُ سُدَّةَ عَدْنِهِنَّ رُباك
قَسَمًا لو انتمت الجداولُ والرُّبا ... لتهلَّل الفردوسُ، ثُمَّ نَماك
مَرْآكِ مَرْآه وَعَيْنُكِ عَيْنُه ... لِمْ يا زُحَيْلةُ لا يكون أباك؟
تلك الكُرُومُ بقيَّةٌ من بابلٍ ... هيْهَاتَ! نَسَّى البابليَّ جَناك
تُبْدِي كَوَشْيِ الفُرْسِ أفْتَنَ صِبْغةٍ ... للناظرين إلى ألّذَّ حِياك
خَرَزاتِ مِسْكٍ، أو عُقودَ الكهربا ... أودِعْنَ كافورًا من الأسلاك
فكَّرْتُ في لَبَنِ الجِنانِ وخمرِها ... لما رأيْتُ الماءَ مَسَّ طِلاك
لم أنْسَ من هِبَةِ الزمانِ عَشِيَّةً ... سَلَفَتْ بظلِّكِ وانقضَتْ بذَراك
كُنْتِ العروسَ على مِنصَّة جِنْحِها ... لُبنانُ في الوَشْيِ الكريم جَلاك
يمشي إليكِ اللّحظُ في الديباج أو ... في العاج من أيَّ الشِّعابِ أتاك
ضَمَّتْ ذراعيْها الطبيعةُ رِقَّةً ... صِنَّينَ والحَرَمُونَ[83] فاحتضناك
والبدرُ في ثَبَجِ السماءِ مُنَوَّرٌ ... سألت حُلاه على الثرى وحُلاك
والنيِّراتُ من السحاب مُطلَّةٌ ... كالغِيد من سِتْرٍ ومن شُبّاك
وكأنَّ كلَّ ذُؤابةٍ من شاهِقٍ ... ركنُ المجرَّةِ أو جدارُ سِماك
سكنَتْ نواحي الليلِ، إلا أنّةً ... في الأيْكِ، أو وَتَرًا شَجِيّ حَراك
شرفًا — عروسَ الأرْزِ — كلُّ خَريدةٍ ... تحتَ السماءِ من البلاد فِداك
رَكَزَ البيانُ على ذراك لواءَه ... ومشى ملوكُ الشعر في مَغناك
أدباؤكِ الزُّهْرُ الشموسُ، ولا أرى ... أرضًا تَمَخَّضُ بالشموس سِواك
من كلّ أرْوَعَ عِلْمُه في شعره ... ويراعُه من خُلْقه بمَلاك
جمع القصائدَ مِن رُباك، وربّما ... سرق الشمائلَ من نسيم صَباك
(موسى) ببابكِ في المكارم والعلا ... وعَصاه في سحر البيانِ عَصاكِ
أحْلَلْتِ شعرى منكِ في عُليا الذُّرا ... وجَمعْتِه برواية الأملاك
إن تُكرمي يا زَحْلُ شعرى إنني ... أنكرْتُ كلَّ قصيدة إلاَّك
أنتِ الخيالُ: بديعُه، وغريبُه ... اللهُ صاغك، والزمانُ رَواك

ذِكَرى اسْتِقْلالِ سُورِيّا وذِكْرَ شُهَدائِهِا

حياةٌ ما نريدُ لها زِيالا ... ودنيا لا نودّ لها انتقالا
وعيشٌ في أصول الموتِ سمٌّ ... عُصارتُه، وإن بَسَط الظلالا
وأيامٌ تطيرُ بنا سحابًا ... وإن خِيلَتْ تَدِبّ بنا نِمالا
نُريها في الضمير هضوًى وحُبًّا ... ونُسمِعها التبرُّمَ والملالا
قِصارٌ حين نجرى اللهوَ فيها ... طوالٌ حين نقطعها فعالا
ولم تضق الحياةُ بنا، ولكنْ ... زحامُ السوءِ ضيَّقها مَجالا
ولم تقتل براحتها بَنيها ... ولكنْ سابقوا الموتَ اقتتالا
ولو زاد الحياةَ الناسُ سعيًا ... وإخلاصًا لزادتهم جمالا

***

كأن الله إذا قَسَم المعالى ... لأهل الواجب أدّخر الكمالا
ترى جِدًّا، ولست ترى عليهم ... ولوعًا بالصغائر واشتغالا
وليسوا أرغَد الأحياءِ عيشًا ... ولكنْ أنعَمَ الأحياءِ بالا
إذا فعلوا فخيرُ الناس فعلاً ... وإن قالوا فأكرمهُم مَقالا
وإن سَألْتْهُمو الأوطانُ أعطَوْا ... دمًا حرًّا، وابناءً، ومالا

***

بَنِى البلدِ الشقيقِ، عزاءَ جارٍ ... أهاب بدمعه شَجَنٌ فسالا
قضى بالأمس للأبطال حقًّا ... وأضحى اليومَ بالشهداءِ غالى
يُعظّم كلَّ جُهدٍ عبقيًّ ... أكان السّلْمَ أم كان القتالا
وما زلنا إذا دَهَت الرزايا ... كأرحمِ ما يكون البيتُ آلا
وقد أنسى الإساءَةَ من حسودٍ ... ولا أنس الصنيعةَ والفَعالا
ذكرتُ المِهْرَجانَ وقد تجلَّى ... ووفدَ المشرقين وقد توالى
ودارى بينَ أعراسِ القوافي ... وقد جُلِيَتْ سماءً لا تُعالى
تسلَّلَ في الزحام إلَيَّ نِضْوٌ ... من الأحرار تحسبه خيالا
رسولُ الصابرين ألمّ وهنًا ... وبلّغني التحيةَ والسؤالا

دنا مني فناولني كتابًا   أحسَّتْ راحتاي له جلالا
وجدتُ دمْ الأسودِ عليه مِسْكًا   وكان الأصلُ في المِسْكِ الغزالا
كأنّ أسامِىَ الأبطالِ فيه   حَوَاميمٌ على رَقٍّ تتالى
رواةُ قصائدى قد رتَّلوها   وغَنَّوْها الأسِنَّةَ والنِّصالا
إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها   فكانت في الخيام لهم نِقالا

* * *

بَنِى سوريَّةَ، التئموا كيومٍ   خرجتم تطلبون به النِّزالا
سَلُوا الحريةَ الزهراءَ عنَّا   وعنكم: هل أذاقتنا الوِصالا؟
وهل نِلْنَا كلانا اليومَ إلا   عراقيبَ المواعدِ والمِطالا؟
عرفتم مهرَها فمهرتموها   دمًا صَبَغَ السباسبَ والدَّغالا
وقمتم دونها حتى خضبتمْ   هَوَادِجَها الشريفةَ والحِجالا
دعوا في الناس مفتونًا جبانًا   يقول: الحربُ قد كانت وَبالا
أيطلب حقَّهم بالروح قومٌ   فتسمع قائلا: ركبوا الضلالا؟
وكونوا حائطًا لا صدعَ فيه   وصفًّا لا يُرَقَّع بالكسالى
وعيشوا في ظلالِ السلم كدًّا   فليس السلمُ عجزًا واتِّكالا
ولكن أبْعَدَ اليومين مَرْمًى   وخيرَهما لكلم نصحًا وآلا
وليس الحربُ مَرْكَبَ كلَّ يومٍ   ولا الدمُ كُلَّ آونةٍ حلالا

* * *

سأذكر ما حَيِيتُ جدارَ قبرٍ   بظاهر جِلَّق رَكِبَ الرمالا
مقيمٌ ما أقامت (ميسلونٌ)   يذكر مصرعَ الأسِد الشِّبالا
لقد أوْحَى إلىّ بما شجانى   كما توحي القبورُ إلى الثَّكالى
تَغيَّبَ عظَمةُ العَظَماتِ فيه   وأوُلُ سيِّدٍ لَقِىَ النِّبالا
كأن بُناتَهُ رفعوا مَنارًا   من الإخلاص، أو نصبوا مِثالا
سرجُ الحقَّ في ثَبَجِ الصحارى   تَهاب العاصفاتُ له ذُبالا
ترى نورَ العقيدةِ في ثراه   وتَنْشَقُ من جوانبه الخِلالا
مشى ومشَتْ فيالقُ من فرنسا   تجرّ مَطارِفَ الظفرِ اختيالا

ملأنَ الجوّ أسلحةً خِفافًا   ووجهَ الأرضِ أسلحةَ ثِقالا
وأرسَلْن الرياحَ عليه نارًا   فما حفل الجنوبَ ولا الشَّمالا
سلوه: هل ترجَّل في هبوبٍ   من النيران أرْجَلَت الجِبالا؟
أقام نهارَه يُلْقِى ويَلْقَى   فلما زال قرصُ الشمس زالا
وصاح، ترى به قَيْدَ المنايا   ولستَ ترى الشَّكِيَم ولا الشَّكالا
فكُفَّن بالصوارم والعوالى   وغُيِّب حيثُ جال وحيثُ صالا
إذا مّرتْ به الأجيالُ تَتْرَى   سمِعْتَ لها أزيزًا وابتهالا
تَعلَّق في ضمائرهم صليبًا   وحلَّق في سرائرهم هلالا

تِمثالُ نَهْضةِ مِصْر

جعلتُ حُلاها وتمثالها   عيونَ القوافي وأمثالَها
وأرسلتُها في سماءِ الخيال   تجرُّ على النجم أذيالها
وإنى لِغرَّيدُ هذى البِطاحِ   تَغَذَّى جَناها وسَلْسالها
ترى مِصرَ كعبةَ أشعاره   وكلَّ معلَّقةٍ قالها
وتلمَحُ بين بيوتَ القصيدِ   حِجالَ[٨٤] العروسِ وأحجالها[٨٥]
أدار النسيبَ إلى حبِّها   وولَّى المدائحَ إجلالها
أرَنَّ بغابرها العبقرىَ   وغنَّى بمثل البُكا حالها
ويَرْوِى الوقائعَ في شعره   يَروضُ على البأْس أطفالها
وما لمَحوا بعدُ ماءَ السيوفِ   فما ضَرّ لو لمَحوا آلها

***

ويومٍ ظليل الضحى من بشَنسَ   أفاءَ على مصرَ آمالها
رُوَىَ ظلُّه عن شباب الزمانِ   رفيفَ الحواشى وإخضالها[٨٦]
مشَت مصرُ فيه تُعيد العصورَ   ويغمرُ ذكرُ الصبَّا بالها
وتَعْرض في المِهرجان العظيمِ   ضُحاها الخوالى وآصالها

***

وأقبل (رمسيسُ) جَمَّ الجَلال | سَنِيَّ المواكبِ، مُختالها
وما دان إلا بِشُورَى الأمور | ولا اختال كِبْرًا، ولا استالها[٨٧]
فحيَّا بأبْلجَ مثلِ الصَّباحِ | وجوهَ البلادِ وأرسالها
وأوْما إلى ظلماتِ القرونِ | فشقّ عن الفنّ أسدالها

***

فمن يُبْلغْ (الكرنكَ) الأقصُرىَّ | ويُنْبِئ (طِيبةَ) أطلالها
ويُسمِع ثَمَّ بِوادي الملوكِ | ملوكَ الديار وأقيالها
وكلَّ مخلَّدةٍ في الدُّمَى | هنالك لم نُحْصِ أحوالها
عليها من الوَحْيِ ديباجةٌ | ألحَ الزمانُ فما ازدالها
تكاد — وإن هي لم تتصل | بروحٍ — تُحَرَّك أوصالها
وما الفنُّ إلا الصريحُ الجميلُ | إذا خالَط النفسَ أوحى لها
وما هو الإجمالُ العقول | إذا هي أوْلَتْه إجمالها

***

لقد بعث اللهُ عهدَ الفنون | وأخرجت الأرضُ مَثَّالها
تعالوْا نرى كيف سوَّى الصَّفاةَ | فتاةً تُلَمْلِمُ سِربالها
دنت من أبى الهول مَشى الرَّءُومِ | إلى مُقْعَدٍ هاج بَلْبالها
وقد جاب في سَكَرات الكَرَى | عُرُوضَ الليالى وأطوالها
وألْقى على الرمل أرْواقه[٨٨] | وأرْسىَ على الأرض أثقالها
يُخال لإطراقه في الرَّمال | سَطِيحَ[٨٩] العصورِ ورَمّالها
فقالت: تَحرَّكْ، فَهمّ الجمادُ | كأن الجمادَ وَعَى قالها
فهل سَكبَتْ في تجاليده | شُعاعَ الحياةِ وسَيَّالها؟
أتذكرُ إذا غضبَت كاللّباة[٩٠] | ولمّت من الغِيل أشبالها؟
وألقت بهم في غِمار الخطوبِ | فخاضوا الخطوبَ وأهوالها
وثاروا، فجنّ جُنونُ الرياحِ | وزُلزلتِ الأرضُ زِلزالها
وبات تلَمُّسُهم شيخَهم | حديثَ الشعوب وأشغالها
ومن ذا رأى غابةً كافحتْ | فردَّت من الأسْرِ رِئبالها؟

وأهْيَبُ ما كان بأْسُ الشعوَب　　إذا سلَّح الحقُّ أعزَلها

***

(فؤادُ)، ارفع السَّترَ عن نهضة　　تقدّم جَدُّك أبطالها
ورُبَّ امرئ لم تَلِده البلادُ　　نماها، ونبَّه أنسالها[٩١]
وليس اللآلئ مِلْكَ البحورِ　　ولكنها مِلْكُ من نالها
وما (كعلىًّ) ولا جيله　　إذا عَرضت مصرُ أجيالها
بَنَوْا دولةً من بنات الأسِنَّـ　　ـةِ لم يشهد (النيلُ) أمثالها
لئن جلَّل البحرَ أسطولُها　　لقد لبِس البرُّ قَسطالها[٩٢]
فأما أبوكَ فدينا الحضا　　رةِ لو سالم الدّهرُ إقبالها
تخيّر (إفريقيا) تاجَه　　وركَّب في التاج (صُومالها)
ركابُك يا (ابن المُعِزَّ) الغُيوثُ　　ويفضُلْنَ في الخير مِنوالها
إذا سِرْن في الأرض نَسَّيْنها　　ركابَ السماءِ وأفضالها
فَلم تبرح القصَر إلا شفيْتَ　　جُدوبَ العقول وإمحالها
لقد ركَّب اللهُ في ساعديك　　يمينَ الجدود وشيمالها
تخُطُّ وتَبنِى صُروحَ العلومِ　　وتفتح للشرّق أقفالها

الحُريّة الحمْراءُ

قيلت في احتفال بيوم ١٣ نوفمبر

في مِهرجانِ الحقَّ أو يوم الدمِ　　مُهَجٌ من الشهداءِ لم تتكلم
يبدو على هاتورَ نورُ دمائها　　كدمِ الحسينِ على هلال محرّم
يومُ الجِهادِ بها كمصدر نَهارِه　　متمايِلُ الأعطافِ مُبْتسِمُ الفم
طلعت تَحُجُّ البيتَ فيه كأنها　　زُهْرُ الملائكِ في سماءِ المَوْسم
لم لا تُطِلُّ من السماء وإنما　　بين السحابِ قبورُها والأنجم؟
ولقد شَجاها الغائبون، وراعها　　ما حلَّ بالبيت المضئ المظلمِ
وإذا نظرتَ إلى الحياة وجدْتَها　　غُرسًا أقيم على جوانب مأْتم
لا بُدَّ للحرّية الحمراءِ من　　سَلوى تُرَقِّد جرحَها كالبَلسم

وتبسُّمٍ يعلو أسِرَّتَها كما ... يعلو فمَ الثَّكْلَى وثغرَ الأيَّم
يومُ البطولة لو شهدْتُ نهارَه ... لنظمْتُ للأجيالِ ما لم يُنْظَم
غُبِنَتْ حقيقتُه، وفات جمالُها ... باعَ الخيالِ العبقرىَّ الملهَم
لولا عوادى النَّفْىِ أو عقباتُه ... والنفىُ حالٌ من عذاب جَهَنَّم
لجمعتُ ألوان الحوادثِ صورةً ... مَثَّلتُ فيها صورةَ المُسْتسلِم
وحكيتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظِه ... وحكيتُه مُتغيِّظًا لم يَكْظِم
دَعَت البلادَ إلى الغِمار فغامرتْ ... وطنيّةٌ بمُثَقَّفٍ ومُعلَّم
ثارتْ على الحامى العتيدِ، واقسمْتْ ... بسواه جلَّ جلالُه لا تَحتمى
نثر الكنانةَ ربُّها، وتخيَّرتْ ... يدُه لنُصرتها ثلاثةَ أسهم
من كلَّ أعزلَ حقُّه بيمينه ... كالسيف في يُمْنَى الكَمِىَّ المُعْلَم
لم يُحجموا في ساعةٍ قد أظفرتْ ... مَلِكَ البحارِ بكلَّ قيْصَرَ مُحجِم
وقفوا مَطيَّهمو بسُلَّم قصرِه ... والبأسُ والسلطانُ دون السُّلَّم
وتقدّموا، حتى إذا ما بلَّغوا ... أوْحَوْا إلى مصرَ الفتاةِ: تقدّمى
سألت من الغاب الشُّبولُ غَلا بها ... لبنُ اللُّباةِ، وهاج عِرْقُ الضَّيْغَم
يومَ النضالِ، كَسَتْكَ لونَ جمالِها ... حرّيّةٌ صَبَغَتْ أديمَكَ بالدم
أصبحتَ من غُرَر الزمان، وأصبحت ... ضحكتْ أسِرَّةُ وجهِكَ المتجهَّم
ولقد يتمْتَ، فكنت أعظمَ رَوْعةً ... يا ليت من «سعد» الحمى لم تَيتم
لِيَنمْ أبو الأشبالِ مِلْءَ جفونِه ... ليس الشُّبولُ عن العرين بُنوَّم

وقال في تكريم الدكتور علي بك إبراهيم الجراح العبقري.

ابتغوا ناصيةَ الشمس مكانا ... وخُذوا القمَّةَ علمًا وبيانا
واطلبُوا بالعبقريات المدى ... ليس كلُّ الخيلِ يشهدن الرَّهانا
ابعثوها سابقاتٍ نُجُبًا ... تملأُ المضمارَ معنًى وعِيانا
وِثبوا للعزَّ من صَهْوَتِها ... وخذوا المجدَ عِناناً فعنانا
لا تُثِيبوها على ما قلَّدَتْ ... من أيادٍ، حسدًا أو شَنآنا

* * *

وضئيلٍ من أساةِ الحيِّ لم		يُعنَ باللحم وبالشحم اختزانا
ضامرٍ في سُفْعَةٍ تحسبه		نِضْوَ صحراءَ ارتدى الشمسَ دِهانا
أو طبيبًا آيبًا من «طيبةٍ»		لم تَزَلْ تَنْدَى يداه زَعْفَرَانا
تُنكر الأرضُ عليه جسمَه		واسمُه أعظمُ منها دَوَرانا
نال عرشَ الطبَّ من «أمحوتبٍ»		وتَلقَّى من يَديَيه الصَّوْلَجانا
يا لأمحوتبَ من مُسْتأْلِهٍ		لم يلد إلا حواريًّا هِجانا
خاشعًا لله، لم يُزْهَ، ولم		يُرْهِق النفسَ اغترارًا وافتتانا
يلمس القدرة لمسًا كلّما		قلب الموت وجسَّ الحيوانا
لو يُرى اللهُ بمصياح لما		كان إلا العلمَ جلّ الله شانا
في خلالٍ لفتَتْ زَهْرَ الرُّبَى		وسجايا أنسَتْ الشَّرْبَ الدَّنانا
لو أتاه مُجَعا حاسدُه		سَلّ من جنب الحسودِ السرطانا
خيرُ مَنْ علَّم في «القصر» ومَن		شقّ عن مُستتِرِ الداءِ الكِنانا
كلُّ تعليمٍ نراه ناقصًا		سُلَّمٌ رَثٌ إذا استعمل خانا
دَرَكٌ مُستحدَثٌ من دَرَجٍ		ومن الرَّفعة ما حطَّ الدخانا

* * *

لا عَدِمْنا «للسيوطيِّ» يدًا		خُلقَتْ للفتْقِ والرتْقِ بَنانا
تَصْرِف المِشْرَطَ للبُرْءِ كما		صرف الرّمْحُ إلى النصر السَّنانا
مَدّها كالأجل المبسوطِ في		طلب البُرْءِ اجتهادًا وافتنانا
تجد الفولاذَ فيها محسنًا		أخذ الرفقَ عليها واللَّيانا
يدُ «إبراهيمَ» لو جئتَ لها		بذبيح الطيرِ عاد الطيرانا
لم تَخِطْ للناس يومًا كفناً		إنما خاطت بقاءً وكِيانا
ولقد يُؤْسَى ذوو الجرحى بها		من جراح الدهر، أو يُشْفىَ الحزانى
نَبغَ الجيلُ على مِشْرطها		في كفاح الموتِ ضربًا وطِعانا
لو أتت قبل نضوج الطبَّ ما		وَجَدَ التنويمُ عونًا فاستعانا

* * *

يا طِرازًا يبعث اللهُ به		في نواحِي مُلْكِه آنًا فآنا

مــن رجــالٍ خُــلِـقــوا ألــويــةً ونــجــومًــان وغــيــوثًــا، ورعــانــا
قــادة الــنــاسِ وإن لــم يــقــربــوا طَـبَـعَـاتِ الـهـنـدِ والـسُّـمْـرَ اللَّـدانـا
وغـذاء الـجـيـلِ فـالـجـيـلِ وإن نَـسِـىَ الأجـيالُ كـالـطـفـل اللَّـبـانـا
وهـمـو الأبـطـالُ كـانـت حـربُـهـم منذ شُّنوها على الجهل عَوانا

***

يا أخى — والذخرُ في الدنيا أخٌ — حاضرُ الخيرِ على الخير أعانا
لك عند ابْنِىَ — أو عندى — يدٌ لــسـتُ آلــوهــا ادكــارًا وصِــيــانــا
حَـسُـنَـتْ مـنّـى ومـنـه مـوقـعًـا فجعلنا حِرْزها الشكرَ الحُسانا
هل ترى أنتَ؟ فإنى لم أجِدْ كجميلِ الصُّنعِ بالشكر اقترانا
وإذا الـدنـيـا خـلَـتْ من خـيِّـرٍ وخلَتْ من شاكر هانت هَوانا
دفـع الـلـهُ «حُـسَـيْـنًـا» فـي يـدٍ كيد الألطافِ رِفْقًا واحتضانا
لـو تـنـاوَلْـتُ الـذي قـد لـمـسَـتْ مـنـه مـا زِدْتُ جِـذارًا وحَـنـانـا
جـرحُـه كـان بـقـلـبـى، يـا أبًـا لا أنَبِّيه بجُرْحِى كيف كانا؟
لـطـف الـلـهُ فـعـوفـيـنـا مـعًـا وارْتـهـنّـا لـكَ بـالـشـكـر لـسـانـا

تحية الشاعر

وقال وهي القصيدة التي ألقيت في دار الأبرا الملكية في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها

مـرحـبًـا بـالـربـيـع فـي رَيْـعَـانِـهْ وبــأنــوارِه وطِــيــبِ زَمــانِــهْ
رَفَّـت الأرضُ فـي مـواكِـب آذا رَ، وشبَّ الزمانُ في مِهْرَجانِه
نزل السهلَ ضاحكَ البِشْرِ يمشى فيه مَشْىَ الأميرِ في بُستانه
عـاد حَـلْـيًـا بِـرَاحـتْـيِـهِ وَوَشْـيًـا طـولُ أنـهـارِهِ وعَـرْضُ جِـنـانـه
لـف فـي طَـيْـلَـسـانِـه طُـرَرَ الأر ضِ، فطاب الأديمُ من طيلسانه
سـاحـرٌ فـتـنـةُ الـعـيـونِ مُـبـيـنٌ فصَّل الماءَ في الرُّبا بجُمانه
عبقريُّ الخيالِ، زاد على الطَّيْـ ـف، وأرْبَـى عـلـيـه فـي ألـوانـه
صِبغَةُ اللّه! أين منها رفَائيـ ـلُ ومِـنـقـاشُـه وسـحـرُ بَـنـانـه

رنّم الـروضُ جَـدولاً ونـسـيـمًـا ... وتـلا طـيـرَ أيْـكِـهِ غـصـنُ بـانـه
وشدَت في الرُّبا الرياحينُ هَمسًا ... كـتَـغَـنِّـى الـطَّـروبِ فـي وجـدانـه
كـلُّ رَيْـحَـانـةٍ بـلـحـنٍ كـعُـرْسٍ ... أألـفَـتْ لـلـغـنـاءِ شَـتَّـى قِـيـانـه
نَـغَـمٌ فـي الـسـمـاءِ والأَرضِ شـتَّـى ... مـن مـعـانـي الـربـيـعِ أو ألـحـانـه
أين نورُ الربيعِ من زهَر الشَّعـ ... ـرِ إذا ما استوى على أفنانه؟
سَرْمَدُ الحسنِ والبشاشةِ مهما ... تـلـتـمـسْـهُ تـجِـدْه فـي إبّـانـه
حَـسَـنٌ فـي أوانِـه كـلُّ شـيءٍ ... وجـمـالُ الـقـريـضِ بـعـد أوانـه
مَـلَـكٌ ظِـلُّـهُ عـلـى بَـبْـوَة الـخُـلـ ... ـدِ، وكُـرسيُّـه عـلـى خُـلـجـانـه
أمَـرَ الـلـهُ بـالـحـقـيـقـةِ والـحـكـ ... ـمةِ فـالـتـفَّـتـا عـلـى صَـوْلـجـانـه
لـم تَـثُـرْ أمَّـةٌ إلـى الـحَـقَّ إلا ... بهُدَى الشعرِ أو خُطا شَيْطَانه
ليس عَرْفُ النحاسِ أوقَعَ منه ... في شجاعِ الفؤادِ أو في جبانه

***

ظـلَّـلَـتـنـى عـنـايـةٌ مـن «فـؤادٍ» ... ظـلَّـل الـلـهُ عـرشَـهُ بـأمـانـه
ورعـانـي، رعَـى الإلـهُ «الـفـارو ... قَ» طـفـلاً، ويـوم مَـرْجُـوَّ شـانـه
مَلِكُ النيلِ من مَصبَّيْهِ بالشـ ... ـطَّ، إلى مَنْبَعَيْهِ من سودانه
هـو فـي الـمُـلك بَـدْرُهُ الـمُـتـجَـلَّـى ... حُفَّ بالهَالَتيْنِ من (بَرلمانه)
زادهُ الـلـهُ بـالـنـيـابـةِ عِـزًّا ... فوقَ عِزِّ الجلالِ من سلطانه

***

منبرُ الحقَّ في أمانةِ «سعدٍ» ... وقِـوامُ الأمـورِ فـي مـيـزانـه
لم يَرَ الشرقُ داعيًا مثلَ «سعدٍ» ... رَجَّـه مـن بَـطـاحـه ورِعـانـه[٩٣]
ذكَّرتْه[٩٤] عـقـيـدةُ الـنـاسِ فـيـهِ ... كيف كان الدخولُ في أديانه
نهضةٌ من فَتَى الشيوخِ وروحٌ ... سريَا كالشبابِ في عُنْفُوَانه
حرَكا الشرقَ من سكونٍ إلى القيـ ... ـدِ، وثـارَا بـه عـلـى أرسـانـا
وإذا النفسُ أنْهِضَتْ من مريض ... دَرَجَ الـبُـرءُ فـي قُـوَى جُـثـمـانـه

***

يا عُكاظًا تألَّفَ الشرقُ فيه من فِلسطينِهِ إلى بَغْدانِه
افتقدْنا الحجَازَ فيه، فلم نعْـ ـثُرْ على قُسِّهِ ولا سَحْبانه
حملَتْ مصرُ دونَه هيكلَ الدَّ ين، وروحَ البيانِ من فُرْقانه
وُطدّتْ فيكَ من دعائمها الفُصْـ ـحى، وشُدَّ البيانُ من أركانه
إنما أنتَ حَلْبَةٌ لم يُسخَّر مثلُها للكلامِ يومَ رِهانه
تتبارى أصائلُ الشامِ فيها والمَذاكِى العِتاقُ من لُبنانه
قلَّدتنى الملوك من لؤلؤ البحريْـ ـنِ آلاءَها ومن مَرْجانه
نخْلة لا تزال في الشرق معنًى من بداوته ومن عُمرانه
حنَّ للشامِ حِقبةً وإليْها فاتحُ الغرب من بني مَرْوانه
وحَبتْنى بُمْبَاىُ فيها يَراعًا افْرِغَ الوُدُّ فيه من عِقْيانه
ليس تَلْقَى يراعَها الهندُ إلا في ذَرَا الخُلْقِ أو وراءَ ضَمانه
أنْتَضيِه انتضاءَ موسى عصاه يَفْرَقُ المستبِدُّ من ثعبانه
يَلْتقِى الوحَى من عقيدةِ حُرًّ كالحواريَّ في مدَى إيمانه
غيرَ باغٍ إذا تطلَّبَ حقًّا أو لئيمِ اللَّجاجِ في عُدوانه
مُوكِبُ الشعرِ حرّكَ المتنبى في ثراهُ، وهزَّ من حَسّانه
شُرفَتْ مصرُ بالشموسِ من الشر ق نُجومِ البيانِ من أعيانه
قد عَرَفْنا بنَجْمِهِ كلَّ أفْقٍ واستبنّا الكتابَ من عُنوانه
لستُ أنسى يدًا إلاخوانِ صدقٍ منحونى جزاءَ مَا لمْ أعانِه
رُبَّ سامى البيانِ نَبَّهَ شأنى أنا أسمو إلى نَباهة شانه
كان بالسبقِ والميادينِ أوْلَى لو جرى الحظُّ في سَواءِ عنانه
غنما أظَروا يَد اللهِ عندى وأذعوا الجميلَ من إحسانه
ما الرحيقُ الذي يذوقون من كرْ مِى، وإن عِشْتُ طائفًا بِدنانه
وهَبوني الحَمامَ لذَّةَ سجعٍ أينَ فضلُ الحَمام في تَحنانه؟
وَتَرٌ في اللّهاةِ،[٩٥] ما للمُغنَّى من يدٍ في صَفائه ولِيانه

***

رُبَّ جارٍ تَلفَّتَتْ مصرُ تُوليـ ـه سؤالَ الكريم عن جيرانه
بَعثتْنى معزّيًا بمآقى وطنى، أو مُهنِّئا بلسانه

كان شعرى الغناءَ في فرح الشر ... قِ، وكان العَزاءَ في أحزانه
قد قضى اللهُ أن يؤلفنا الجر ... حُ، وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراقِ جريحٌ ... لمس الشرقُ جَنْبَه في عُمانه
وعلينا كما عليكم حديدٌ ... تَتَنزَّى اللُّيُوثُ في قُضبانه
نحن في الفقه بالديار سَواءٌ ... كلُّنا مشِفقٌ على أوطانه

هوامش

(١) المهار: جمع مهر، والعرابيد جمع عربيد بالكسر، والعربيد الكثير العربدة.
(٢) ترفع: اخذا من قولهم: شالت الناقة ذنبها إذا رفعته.
(٣) الأيمان جمع يمين: وهي اليد اليمنى.
(٤) القشيب: الجديد.
(٥) الإصليت: السيف.
(٦) ابن البتول هو المسيح عليه السلام.
(٧) السبحة: بضمتين: الجلال.
(٨) السمت بالفتح: هيئة أهل الخير.
(٩) عطل النحر من الحلى: خلا.
(١٠) المروت: جمع مرت وهي المفازة بلا نبات.
(١١) فتق المسك. استخرجه بشئ يدخله عليه، والفتيت: المفتوت.
(١٢) يقوته: يطعمه.
(١٣) الصفا: الصخر.
(١٤) الجرس: الصوت.
(١٥) الوضح: حلى من الفضة.
(١٦) تصيته: تجعله يصوت.
(١٧) موسى نمور بك رئيس مجلس النواب اللبناني.
(١٨) استذرى: استظل.
(١٩) صلاح: اسم لمكة.
(٢٠) الحجول: الخلاخيل.
(٢١) النضاح: الرامي بالنبل وهو كناية عن الحامي والدافع.

(٢٢) المنصاح: الخالص.
(٢٣) يقال سجح خلقه: سهل ولان.
(٢٤) الصفح: السيوف.
(٢٥) صباح هنا: أي حرب.
(٢٦) السمت: هيئة أهل الخير.
(٢٧) الصفاح: حجارة عريضة.
(٢٨) طلعت بك حرب مدير بنك مصر.
(٢٩) العد: الماء الجارى له مادة لا تنقطع.
(٣٠) البند: العلم.
(٣١) تدهده: انقض وتدحرج.
(٣٢) بنتاءور: شاعر مصرى قديم.
(٣٣) بد الشئ: فرقه، وهنا بمعنى أراقها.
(٣٤) الجعد: الكريم.
(٣٥) الرئد: الترب.
(٣٦) اللد: الأشداء في الخصومة.
(٣٧) الرد: العماد.
(٣٨) الحمراء: قصر عظيم بالأندلس.
(٣٩) وادى الطلح: منتزه بأشبيلة للمعتمد بن عياد.
(٤٠) الحبر: جمع حبرة، وهي ضرب من برود اليمن.
(٤١) الصل: الثعبان.
(٤٢) الفقر: كل كلام مختار نظما كان أو نثرا.
(٤٣) يمشى الخمر: جملة تقال لمن يختال صاحبه.
(٤٤) الكسر: جمع كسرة: وهي القطعة من الشئ.
(٤٥) الفل: الكسر في حد السيف.
(٤٦) الطم: البحر.
(٤٧) العلز: القلق والهلع من الموت.
(٤٨) البدر: جمع بدرة، وهي عشرة آلاف درهم.
(٤٩) العصا: الفرس المشهورة التي ورد ذكرها في مصرع الزباء، وقد كانت لقصير الذي يقول فيه المثل «لأمر ما جدع قصير أنفه».

(٥٠) وهي زرقاء اليمامه المشهورة بقوة البصر.
(٥١) السدر: البحر.
(٥٢) الخادر: كناية عن أسد، يقال أسد خادر: مقيم في خدره.
(٥٣) الوقاح: ذو الوقاحة، يقال امرأة وقاح الوجه.
(٥٤) بحر الخزر: هو بحر قزوين، والخزر أيضا: جيل من الناس.
(٥٥) الحين: هلاك.
(٥٦) الشكير: صغار الريش بين كباره.
(٥٧) يتنزى: يتوثب.
(٥٨) المرعس: من رعس الرجل: إذا مشى مشيا ضعيفا من الإعباء.
(٥٩) القعس: ضد الحدب، وهو نتوء الصدر.
(٦٠) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.
(٦١) لم ينبجس: لم يتفجر.
(٦٢) يقال جرح نغاز: أي جياش بالدم.
(٦٣) رسف مشى مشية المقيد.
(٦٤) ابنى سمير: الليل والنهار.
(٦٥) هو عبد الرحمن الداخل أول ملوك بنى أمية في الأندلس.
(٦٦) يعني بالسبط الحسين بن علي صلوات الله عليه.
(٦٧) يعني بمروان: بنى مروان.
(٦٨) الأظلم هنا: هو أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس وقد سلب بني أمية ملكهم.
(٦٩) نارت الفتنة: وقعت وانتشرت.
(٧٠) غس: دخل ومضى.
(٧١) الأطلس: الذئب.
(٧٢) المعطس: الأنف.
(٧٣) البيهس: الأسد.
(٧٤) شام: سل.
(٧٥) هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى.

(٧٦) المرس: الشديد المجرب في الحروب، يقال: أنه لمرس حذر.

(٧٧) الخلس: جمع خلسة وهي الفرصة.

(٧٨) الملك الروح: جبريل.

(٧٩) الجام: الكأس.

(٨٠) اللعس: سواد مستحسن في الشفة.

(٨١) السقط: جناح الطائر.

(٨٢) العقاب: اسم راية الداخل.

(٨٣) هضبتان في زحلة.

(٨٤) الحجال: جمع حجلة، وهي بيت العروس.

(٨٥) الأحجال: الخلاخيل.

(٨٦) أخضل الشئ: ابتل.

(٨٧) استالها: أصله استاله، أي تشبه بالإله.

(٨٨) يقال ألقى أرواقه بالمكان: نزل به وضرب خيمته.

(٨٩) سطيح: اسم لكاهن من كهان العرب، والسطيح أيضًا: البطئ القيام لضعف أو زمانة.

(٩٠) اللباة: لغة في اللبؤة.

(٩١) أنسال: جمع نسل.

(٩٢) القسطال: غبار الحرب.

(٩٣) الرعان: رءوس الجبال.

(٩٤) الضمير عائد على الشرق.

(٩٥) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.